امرأة في مواجهة الجهل

صوفيا جيكس-بليك: أرادت أن تلتحق بالجامعة... فغيرت مجرى التاريخ



محمد رضا

امرأة في مواجهة الجهل

صوفيا جيكس-بليك: أرادت أن تلتحق بالجامعة... فغيرت مجرى التاريخ

محمد رضا

الأكاديمية العلمية

الطبعة الأولى — ٢٠٢٥

لندن

الناشر: The Independent Publishing Network

ISBN number: 9781836888338

الترقيم الدولي: ٩٧٨١٨٣٦٨٨٨٣٣٨

البريد الإليكتروني: m.reda@engineer.com

الموقع الرسمي: www.sci-academy.net



صوفيا جيكس-بليك

«سيأتي يوم تجلس فيه النساءُ جنبًا إلى جنبٍ مع الرجال في دورة دراسية مدتها ستة أشهر في علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء والتوليد وما إلى ذلك، بكل شجاعة وقوة، دون سخرية، أو ازدراء، أو غمزٍ ولمز، أو تطفّل... إذا فقط تمكنت بعضُ الشخصيات الهامة من رؤية الأمور بوضوح.

نعم، وسيسرن في المستشفيات — الجراحية والطبية — ومستشفى الولادة، ومستشفى العيون، ومصحة السرطان، ومصحة السُّل. وعندها ستكون تلك العقبات البيروقراطية المُعرقِلة قد بادت وتفككت وتعفنت ونُسيت، وبيعت كتابات المعارضين لتعليم النساء بنصف قرش للكيلو الواحد.»

— رسالة من شخصٍ مجهول إلى صوفيا

المقدمة

في مارس من عام ١٨٦٩، شهدت جامعةُ إدنبرة في بريطانيا حدثًا تاريخيًا عندما قُبلت أولُ فتاة لدراسة الطب، في خطوة غير مسبوقة آنذاك؛ إذ لم تشهد أيّةُ جامعة بريطانية قط أن درست فيها أنثى من قبل. لكن هذه الخطوة التي كان يُفترض أن تُشكِّل بدايةَ طريق هذه الفتاة نحو العلم، تحولت إلى معركة شاقةٍ استمرت قرنًا ونصف القرن حتى مُنحت شهادة تخرجها في يوليو عام ٢٠١٩، أي بعد مئة وخمسين عامًا كاملة. وبين لحظة القبول ولحظة نيل الشهادة والتتويج، كانت كلُّ خطوة في مسيرتها محفوفةً بالصعاب والمحن.

وما إن قبلت الجامعةُ صوفيا حتى انفضّ لذلك بعضُ الأساتذة الذين وجدوا العلمَ فضيلةً محصورةً للرجال، ورأوا في الطب مجالًا لا يمارسه إلا الرجال. فأثّروا على قرار الجامعة بقبول صوفيا، فاعتذرت الجامعةُ — بعد أن قد وافقت على قبول الفتاة — بحجة أنها لا تستطيع ترتيب برنامج دراسي كامل لأجل أنثى واحدة. وما كان من صوفيا إلا أن لجأت إلى الصحف البريطانية تنادي النساءَ الإنجليزيات أن يلحقن بها في التقديم للجامعة ودراسة الطب في تلك السابقة التي لم تعرف الأمةُ البريطانية لها مثيلًا. وبالفعل، التحقت بصوفيا ستُ نساء أخريات، مُشكِّلات بذلك مجموعة «فتيات إدنبرة السبع»، وبذلك لم يعد للجامعة عذرٌ في رفض قبول صوفيا وزميلاتها.

لكن الجامعة اشترطت في قبول الفتيات عدة شروط، منها أن تجعل التدريسَ لهن اختياريًا وليس إلزاميًا، وهذا يعني أن لأيِّ أستاذٍ الحقَّ أن يرفض تدريسَهن إن شاء. فكان عليهن أن يذهبن للأساتذةِ واحدًا تلو الآخر يطلبن منهم الموافقة أن يُدَرِّسوا لهن. فبعض الأساتذة استجاب وقَبِلَ، والبعض الآخر أعرض ونأى بجانبه. وكان مَن يقبل مِن الأساتذة التدريسَ للفتيات يطلب منهن مبلغًا كبيرًا؛ إذ المحاضرة التي يعطيها لمائة طالب ذكر، سوف يعطيها لسبع فتيات فقط، ما يعني أن العائد منها سيكون قليلًا، فصارت تدفع الفتاةُ الواحدةُ عشرةَ أضعاف ما يدفعه زملاؤهن الذكور في الدراسة والتعلم.

أظهرت الفتياتُ تفوقًا تجاوز أقرانهن من الشباب، وكان العالِم الشهير «توماس هوب» قد أنشأ منحةً للطلبة الأربعة الأوائل في مادة الكيمياء. وقد حصلت إحدى الطالبات السبع، وهي «إيديث بيتشي»، على العلامة الكاملة لتكون هي الأولى على صفها في مادة الكيمياء. ومع ذلك، رفضت الجامعةُ إعطاءها منحتها، لا لشيءٍ إلا لأنها أنثى، وأعطتها لطلابٍ ذكور جاءوا بعدها في الترتيب. بل حتى رفضت الجامعةُ وضعَ اسمها على قائمة المستحقين للمنحة.

كما كان من الطبيعي أن يحصل الطالبُ في كلية الطب على تصريحٍ لدخول المستشفى الجامعي؛ ذلك أن الدراسة السريرية على المرضى تعد جزءًا لا يتجزأ من الدراسة الطبية وشرطًا لمزاولة المهنة. لكن هذا الأمر الطبيعي والتلقائي — وهو حصول الطالب على تصريح للمستشفى الجامعي والدراسة بها — قد مُنعت الفتيات منه. وكانت محاولتُهن للحصول على إذن بإجراء التدريب السريري على المرضي معركةً سوف نرى كم كانت صعبةً وقاسية في ثنايا هذا الكتاب.

وبعد محاولات كثيرة مع الأساتذة الذين وافق بعضُهم على تدريس الفتيات، ولم يوافق البعض الآخر، لم يقبل أيُّ أستاذٍ في مادة التشريح أن يدرس الفتيات، فما كان منهن إلا أن سعين إلى دراسة هذه المادة خارج أسوار الجامعة. وقد وجدن مكانًا في «قاعة الجراحين» وأستاذًا وافق أن يضمهن إلى صفه الدراسي. لكن زملاءهم الذكور لم يقبلوا كل هذا التقدم الذي وصلت إليه الفتيات، فتجمّع ما يقرب من مئة إلى مئتين شخص أمام قاعة الجراحين، ووقفوا في طريق الفتيات، وبدأوا بسبِهن وشتمِهن وقذفِ أعراضهن وضربِهن بالطين.

تحدثت صوفيا علنًا عما جرى معهن في تلك الحادثة المشينة التي لا تخرج من شخص يملك ذرة من الرجولة والمروءة. فما كان مِن هؤلاء الطلاب الذين شاركوا في أعمال الشغب إلا أن رفع أحدُهم دعوى قضائية ضد صوفيا بتهمة التشهير وإساءة السمعة. وذهبت صوفيا إلى القضاء لتُحاكم بتهمة التشهير بمَن شارك في الاعتداء عليهن وسبِّهنَّ ومنعِهنَّ من حضور امتحان التشريح. وقد حُكم عليها بتهمة التشهير واضطرت إلى دفع مبلغ زاد على الـ ٩٠٠ جنيه إسترليني. وهو ما يعادل ٢٠٠ ألف دولار أمريكي في سنتنا هذه. أما هذا الشخص الذي شارك في أحداث الشغب، فلم يُحكم عليه بشيء.

وبعد رفض الكثير من أساتذة الجامعة تدريس الفتيات، وبعد استنفاد كل المواد التي يمكن دراستها خارج أسوار الجامعة، لم يعد من الممكن أن تتسمر الفتيات في الجامعة إلا بتحقيق إحدى اثنتين، إما بإلزام الأساتذة بتدريسهن، أو بالسماح بعدد أكبر من المواد يمكنهن دراستها خارج أسوار الجامعة. وقد طلبن من الجامعة توفير أحد الأمرين، إلا أن الجامعة تعنتت ورفضت. وقالت الجامعة: إنها لم تلتزم ولم توافق على «تخرّج» الفتيات في كلية الطب، بل فقط قبلت الجامعةُ «تدريس» الفتيات بالكلية.

لم يبق أمام صوفيا طريق إلا أن تذهب إلى أعلى سلطة قضائية لمُحاكمة الجامعة، وإلزامها بأن توفر كل ما يلزم لتخرج الفتيات فيها وليس فقط لدراستهن بها. وما إن حكمت المحكمةُ بأن الجامعةَ ما إنْ قبلت طالبًا فيها، فهذا يعني توفير كل ما يلزم كي يتخرج في الجامعة. حتى نقضت الجامعةُ غزلها من بعد قوة أنكاثًا، فطعنت الجامعةُ في نفسها وفي قرارها الأول بقبول الفتيات، وبالتالي إذا كان قبولُ الفتيات غيرَ قانوني، فبالضرورة لن تكون ملزمةً

بتخرجهن. وقد نجحت الجامعةُ في ذلك، وجعلت نفسَها غيرَ ملزمةٍ لا بقبول النساء، ولا بدراستهن، ولا بتخرجهن.

وما إن كان الالتزام بالقانون والاحتكام إلى القضاء لا يُحِقُّ حقًا، ولا يُقيم عدلًا، ولا يُوقف ظلمًا، فلا بد من تغيير هذا القانون المتحيز الظالم الذي لم يُوضع في الأساس ليُقيم القسطَ والعدلَ بين الرجال والنساء. فذهبت صوفيا إلى لقاء الوزراء البريطانيين مُحاوِلةً اقناعهم بإقرار قانونِ مشروعٍ جديد إلى البرلمان يعطي للنساء الحقَّ في أن يصبحن طبيبات.

وحتى ذلكم الحين، وحتى يتم إقرار المشروع الجديد، ومع تعنت جميع جامعات بريطانيا ورفض قبول النساء بها، قررت صوفيا إنشاء كلية نسائية للطب في لندن. وما إن تم استئجار المكان، والتعاقد مع الأساتذة، وبدأت الكلية الجديدة في العمل، والطالبات في الدراسة، حتى ذهبت صوفيا إلى سويسرا هي وصديقتُها «إديث بيتشي»، وحصلت السيدتان على بكالوريوس الطب من جامعة بيرن. كما ذهبت صديقةٌ ثالثة إلى جامعة باريس في فرنسا ونالت منها شهادتها في الطب.

وحين عادت صوفيا إلى إنجلترا، كان قد تم تغيير القانون بفضل ضغطها المتواصل، وبفضل رجال آمنوا بعدالة مطلبها وحق النساء في التعليم والعمل. ثم عادت إلى مدينة إدنبرة، وأنشأت هناك كليةً ثانيةً لطب النساء، وما زالت تضغط على جامعة إدنبرة، حتى أقرت الجامعةُ أخيرًا قانونًا يقبل النساء فيها تمامًا مثل الرجال. ولم تفارق صوفيا الحياةَ إلا ومجال الطب صار مفتوحًا للنساء، وجامعة إدنبرة قد فتحت أبوابَها للنساء، والقانون البريطاني تم تغييره لتمنح المؤسساتُ الطبيةُ تصريحاتِها للنساء لممارسة الطب، وكثيرٌ من الجامعات البريطانية الأخرى صارت تقبل النساء، وعلى رأسهم جامعة لندن.

أقول: راودتني رغبةٌ عارمة أن أكتب باللغة العربية عن تلكنّ الفتيات السبع، وعن رحلتهن وكفاحهن الذي صنع التاريخ. لكن سريعًا ما أدركت أن المكتبة العربية تخلو تمامًا من أيِّ كتاباتٍ تسلط الضوءَ عليهن، وبقي كفاحُهنّ حبيسَ اللغات الأخرى، ينتظر مَن ينقله إلى القُرَّاء العرب. فليس في المكتبة العربية ما يروي قصةَ صوفيا وفتيات إدنبرة السبع، ولا ما يصف تلك المعركة الضارية التي زلزلت المجتمع الإنجليزي والعالمي آنذاك، سوى شذرات يسيرة لا تكاد تُذكر. حتى كتاب «ذوات الرداء الأبيض» الذي ترجمته السيدة الراحلة نوال السعداوي، خلا من فصلٍ واحد عنها أو عن معركتها، ولم يأتِ ذكرُها إلا عرضًا، في صفحةٍ ونصف لُخِّصت فيهما هذه القصة التي نسردها نحن اليوم في هذا الكتاب الذي تتجاوز صفحاته بضع مئات من الصفحات.[١]

١- جفري ماركس ووليم بيتي، **ذوات الرداء الأبيض**، ترجمة نوال السعداوي، مؤسسة هنداوي، ٢٠٢٣، ص ١٠٧

نعم، صدّق أو لا تصدّق أيها القارئ، ليس في المكتبة العربية — برمتها — إلا هذه الصفحة ونصف الصفحة عن صوفيا ونضالها، عدا بضع أسطر متناثرة في بعض المؤلفات؛ ففي «موسوعة شهيرات النساء» لم تحظَ صوفيا بأكثر من أربعة أسطر،[1] وفي كتاب «موسوعة نساء في القمة»، لم يكن حظ صوفيا فيه بأفضل من الكتب السابقة.

كانت خطوتي الأولى مقالًا جمعتُ فيه بين قصتين متباعدتين جغرافيًّا، لكنهما متقاربان معنًى وروحًا ومقصدًا وغايةً، قصة سهير القلماوي — أول فتاة مصرية تدخل أروقة جامعة مصرية — وقصة فتيات إدنبرة السبع، أولى النساء اللواتي اقتحمن أسوار جامعة بريطانية.[2] كان اختياري موجهًا نحو جمهور عربي، فركَّزتُ في مقالي على قصة سهير القلماوي باعتبارها الأقرب إلى وجدانه، مع إشارةٍ مُوجزة إلى ملحمة فتيات إدنبرة، لتتضح أوجه التشابه بين القصتين، وليعلم القارئُ أن نضال المرأة من أجل العلم ليس قصرًا على أمة دون أخرى. لكن هذا الإيجاز لم يُشف غليلي. شعرت أنني لم أوفِّ تلك الفتيات السبع حقهنّ، وأنَّ هذا الكفاح العظيم يستحق أكثر من بضعة أسطر في مقال عابر.

*****

وإنني إذ أكتب هذا الكتاب، فإن في نفسي غاياتٍ وأسبابًا شتى:

أولًا: لأن هذا الكتاب يفتح نافذةً على زمنٍ حافلٍ بالأحداث التي شكَّلت نقطة تحول كبرى في تاريخ التعليم البريطاني، والحركة النسائية، ومسيرة نيل الحقوق وتحقيق العدالة. فإن كانت غايته أن يُثري العقول بمعرفةٍ تُبدد غشاوةَ الجهل، وتبسُط في موضعها نورَ العلم وضياءَ الحكمة، فحسبُه بذلك شرفًا لا يُدانيه شرف، ومجدًا لا يعلوه مجد؛ فالعلمُ إنما يُطلَب ليزيدَ المرءَ كمالًا، ويرقى بنفسه في معارج العزِّ والشرف؛ فتلك — لعمري — هي الغاية العظمى التي تسمو إليها العلومُ كلُّها، وتَسيرُ إليها خُطى العقلاء في كل أمةٍ وحضارة.

ثانيًا: عرفانًا بجميل أولئك النسوة الفضليات اللواتي جسّدن أسمى معاني النبل والشجاعة، وأبدين صمودًا يضاهي صمود الجبال الرواسي. فإن أقلَّ ما يمكن أن يقدم لهنَّ وفاءً واعترافًا بالجميل، هو أن تُسرد سيرُهنّ العطرة، لتظل شاهدًا حيًّا على بطولاتهن الخالدة، ورمزًا ناصعًا للكفاح النبيل والمُشرِّف.

١- خليل البدوي، **موسوعة شهيرات النساء**، دار أسامة للنشر، عمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص ٨٤

٢- «أولى النساء اللواتي اقتحمن أسوار جامعة بريطانية»: التعبير هاهنا مجازي؛ إذ الجامعات البريطانية لا تعرف الأسوار، لكن القيود التي ضربتها تلك الجامعات على المرأة كانت أشد حصارًا من أعلى جدار ومن أقوى سور.

ثالثًا: ليكون هذا الكتاب رافدًا من روافد التراث النسوي، وشاهدًا ناطقًا على معاناة المرأة في دروب التاريخ الوعرة، وموثقًا ما كابدته من ظلمٍ وجورٍ في سبيل انتزاع حقوقها المسلوبة. إن هذا الكتاب سجلٌّ يُخلّد آلامَها، ويُحيي ذكرى نضالها، ويُذَكِّرُنا بأنَّ الطريق إلى العدالة لم يكن يومًا مفروشًا بالورود، بل كان دومًا محفوفًا بالأشواك والمكاره.

رابعًا: ليُوقِظ في القلوب شرارةَ الأمل، ويُوقد فيها جذوةَ العزم والإصرار، ويدعو الإنسانَ عامةً، والمرأةَ خاصةً، إلى أن تمضي في دربها غير وَانيةٍ، تكافح لنيل حقوقٍ سُلِبت منها وما استُرجعت، وكرامةٍ هُضِمت وما انتُصر لها؛ فإن في مجتمعاتنا العربية من الحقوق المهدورة ما لا يُحصى، ومن الظلم المتراكم ما لا يُطاق. وإن نساءنا العربيات لأحوج ما يكنّ اليوم إلى نماذج حقيقية تُلهِمهنّ، وتبعث فيهن روح النضال، وتُرِيهن أن الظلم لا يُزاح إلا بالعزم، ولا يُدفع إلا بالكفاح والجهاد. وهؤلاء النسوة البريطانيات، اللائي انتفضن في وجه القهر وجابهْن الظلم حتى أُقيمت سارية العدل، هنّ بحقٍّ من خير النماذج التي تصلح قدوةً تُحتذى، ومسلكًا يُقتفى لكل امرأة تنشد الكرامة وتطلب الحق. وكما قال بشير الرَّحال، يوم اعترض على ما نزل بالناس مِن ظلمٍ في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور: «إنّ في قلبي حرارةً لا يُطفئها إلّا بَردُ عدلٍ أو حَرُّ سِنانٍ.» [1] وقد أراد — رحمه الله — بهذه الكلمات أن يعبِّر عما يعتمل في صدره من غليان الظلم، إذ صار هذا الظلمُ نارًا متأججة في قلبه لا يطفئها إلّا أن يرى العدلَ قد ساد، فينزل بردُ هذا العدل على فؤاده فيُخمد لهيبَه، أو أن يخوض هو غمارَ القتال والجهاد في سبيل الحقِّ والعدل، حتى إذا طُعن برمحٍ أو ضُرب بسيف فأصاب قلبَه، سكنت نارُ قلبه بالشهادة، وكان في موته راحةً وخلاصًا، إمّا بتحقق النصر حيًّا أو ببلوغ الشرف ميتًا.

ولَعَمري، إنّ الظلم الذي لا يزال جاثمًا على صدر المرأة العربية، لهو تلك الحرارة عينُها، لا تزول شدتها، ولا يبرد لهيبُها، إلا بإقامة ميزان العدل، أو الجهاد الحثيث في سبيله حتى آخر قطرة دم، وآخر شهيق يخرج من الصدر.

******

وكما قلت آنفًا إن قصة الفتيات السبع في بريطانيا تتشابه مع قصة سهير القلماوي في جامعة القاهرة، وأن حرب النساء لنيل حقهن في التعليم في بلادنا العربية لا يختلف كثيرًا عن حربهن في البلاد الغربية. وليأذن لي القارئ أن أترك مدينة إدنبرة في بريطانيا للحظاتٍ من الزمن، وآخذ بيده لينتقل معي إلى باريس، وتحديدًا إلى قلبها الثقافي النابض: الحيّ اللاتيني (Latin

١– أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبيين**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٦، ص ٢٩٤

Quarter)، ذلك المكان الذي أَسَر قلب عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين حتى قال عنه: «ولكني أعشق في باريس مكانًا أعتقد أنه أقدس مكانٍ في العالم الحديث، وأنه الرأس المفكر لهذا العالم، لا أستثني منه بلدًا ولا مكانًا، وهو الحي اللاتيني.»[١] بالتأكيد قد زاره رائدُ النهضة العربية رفاعة الطهطاوي، ومُحَرر المرأة قاسم أمين. فالمكان إذن هو باريس، والزمان هو عام ١٨٣٠، وبصحبة رفاعة الطهطاوي، هذا الرجل الذي فتنته باريس وحال نسائها وقال:

> حتى النساء فإنهنَّ يسافرن وحدهنَّ، أو مع رجلٍ يتفق معهنَّ على السفر، وينفقن عليه مدة سفره معهنَّ؛ لأن النساءَ أيضًا متولِّعاتٌ بحب المعارف والوقوف على أسرار الكائنات والبحث عنها.[٢]

حُقَّ لرفاعة الطهطاوي أن يدهش من حال هؤلاء النسوة، الـ «متولِّعاتٌ بحب المعارف والوقوف على أسرار الكائنات والبحث عنها»؛ فحال النساء في بلادنا آنذاك كان نقيضًا بائسًا. كنَّ أسيرات الجهل والتخلف؛ لأن هذا الجهل فُرض عليهن فرضًا، وسُقن إليه سوقًا، وحُبسن في ظلمات الأمية قسرًا. وفي هذا المعنى قال الإمام محمد عبده: «أما النساء فقد ضُرِبَ بينهم وبين العلم بستارٍ لا يُدرى منى يُرفع... فأصبح حشو أذهانهن الخرافات، وملاك أحاديثهن التُّرَّهات، اللهم إلا قليلًا منهن لا يستغرق الدقيقةَ عدُّهن.»[٣]

ففي الوقت الذي كان الطهطاوي يصف فيه نساءَ فرنسا «المتولِّعات بحب المعارف»، لم تكن في مصر مدرسة واحدة تُعنى بتعليم البنات، بل لم يكن يُتصوّر أن يكون للمرأة أيُّ حقٍ في التعليم أصلًا.

لم تُنشأ أول مدرسة لتعليم البنات في مصر إلا بعد عودة رفاعة الطهطاوي من باريس بأكثر من ثلاثين عامًا. فلم يكن ذلك مقبولًا، ولا حتى مألوفًا في الثقافة العربية آنذاك أن تنال المرأةُ حظًا من العلم أو المعرفة. لقد كان تعليم البنات — كما وصفه المؤرخ إلياس الأيوبي في كتابه الشهير «تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل» — «بدعةً غير ممدوحة»، وهي عبارة تختصر حال الفكر السائد ونظرته المتوجسة من تعليم المرأة.

وأريد هنا أن أنقل للقارئ الصورة كاملةً، كما رسمها إلياس الأيوبي بنفسه، أنقلها بحروفه وكلماته، على هيئتها وصورتها التي أرادها هو، حيث كتب يقول عن أول مدرسة أُنشئت للبنات في مصر:

> أما مدرسة السيوفية للبنات، فقد كانت الأولى من نوعها في العالم الإسلامي. أنشأتها الأميرة «تشسما آفت» زوجة إسماعيل الثالثة... على نفقتها الخاصة...

١- طه حسين، **من بعيد**، مؤسسة هنداوي، الطبعة الأولى، ٢٠١٣، ص

٢- رفاعة الطهطاوي، **تخليص الإبريز في تلخيص باريز**، مؤسسة هنداوي، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص ١٢٣

٣- محمد عمارة، **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٣)، المجلد الأول، ص ١٦٩

وبشجاعة أدبية نادرة؛ لاعتبار العالم الإسلامي عملها هذا بدعة غير ممدوحة؛ لأن الرأي العام الإسلامي لم يكن راضيًا عنها؛ وكان وجوه القوم وكل من يظن في نفسه أنه ذو حيثية يأنف من إرسال بناته إليها لمخالفة ذلك للعادات المتبعة.

وقد كان ذلك الرأي العام شديد التأثير إلى درجة أن محمد علي الكبير — الذي لم يكن لينحني بسهولة أمام ضجته ولا يهاب سخطه — أبى الموافقةَ على ما أشار به مجلسُ معارفه الأعلى، المتشرب بالمبادئ الغربية، والمقتنع بعظم تأثير المرأة المتعلمة في الهيئة الاجتماعية من وجوب تعليم البنات، وإنشاء مدارس لهن، أسوة بمدارس الصبيان، واكتفى بتعليم بنات أسرته وجواريهنَّ. غير أن محمد علي لم يكن بالرجل الذي يهمل، بتاتًا، أمرًا يعتقده هامًّا ومفيدًا، لمجرد مخالفته للرأي العام... فلكي يهز جمودَ الأمة عن تربية بناتها، هزًّا يوقظها من نومها، أتاها من طريق سوي؛ وأنشأ بمساعدة «كلوت» بك، مدرسة قابلات؛ كانت كل تلميذاتها، في بادئ الأمر، عشر جواري حبشيات من سراي الخاصة.[١]

لقد كانت تلك أول مدرسةٍ للبنات في العالم الإسلامي بأسره، ومع ذلك فقد قُوبلت بالفزع والإنكار؛ إذ كان المجتمع المصري آنذاك شديد السخط على فكرة تعليم البنات. حتى إن محمد علي باشا — وهو الذي لا يخشى أحدًا — قد خشي من ردّة فعل المجتمع، فآثر ألا يُصادمهم بتعليم البنات كما أراد، فأنشأ بدلًا من تلك «البدعة» مدرسةً تُعنى بتعليم الولادة وبعض أساسيات الطب، تَحت ستار الحاجة الطبية وليس بهدف فتح باب التعليم أمام النساء.

ولم يملك محمد علي من الجرأة أن يُرسل فتياتٍ مصريات إلى تلك المدارس، بل بدأ بتجربةٍ متحفظة حين أدخل إليها في بادئ الأمر جارياتٍ حبشيات، تمهيدًا لفكرة تعليم البنات شيئًا فشيئًا، حتى يعتاد الناسُ هذا الجديدَ الذي زُلزلت له عقولُهم، ويتهيأ المجتمع لفكرة أن تذهب البنت إلى المدرسة لتنهل من معين العلم والمعرفة.

لقد نادى رفاعة الطهطاوي بتعليم البنات، وكتب في ذلك كتابه الشهير «المرشد الأمين لتعليم البنات والبنين»، الذي يُعد بحق من أكثر الكتب جرأة ونهضة وثورية في هذا الباب. وربما من المُحزن، بل والمثير للسخرية في آنٍ واحد، أن الطهطاوي كان في هذا الكتاب يردُّ على حجج المعارضين لتعليم البنات، تلك الحجج التي لا تكشف إلا عن خواء العقول وضيق الأفق. كانت إحدى تلك الذرائع العجيبة، أن البنات إذا تعلمن القراءة والكتابة، فسوف يكتبن رسائل غرامية إلى الرجال، ويراسلنهم خفيةً عن أهلهن.[٢] وكأن البنات لا يملكن أقدامًا يمشين بها إلى الرجال إن أردن، أو كأنهن بلا ألسنةٍ يتكلمن بها معهم متى شِئن، ولا أعين ينظرن بها إليهم إن رغبن! فماذا

١- إلياس الأيوبي، **تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا**، مؤسسة هنداوي، الطبعة الأولى، ٢٠١٣، ص ١٩٦

٢- رفاعة الطهطاوي، **المرشد الأمين لتعليم البنات والبنين**، دار الكتاب المصري، الطبعة الأولى، ٢٠١٢، ص ١٤٤

عسانا أن نصنع إذن؟ أنقطع أرجلهن لئلا يذهبن إلى الرجال؟ أم نقطع ألسنتهن حتى لا يخاطبنهم؟ أم نُعمي أعينهن كي لا يظفرن منهم بنظرة؟

تلك الحُجج البائسة لم تكن إلا انعكاسًا لجهلٍ عميقٍ كان جاثمًا على النفوس، جهلٍ لم يُدرك أن الفضيلة تُزرع في العقول والقلوب، وأن العلم هو السبيل الأسمى لرفع الإنسان، رجلًا كان أو امرأة.

ولكن بدلًا من أن تنهض الأسرُ والمجتمعُ بمسؤوليتها الجليلة في غرس القيم النبيلة، وبثِّ روح العلم والمعرفة في نفوس الأبناء والبنات معًا، آثروا الهروبَ من هذا الواجب، وركنوا إلى أسهل الحيل وأوهنها وهي منعُ البنات من التعليم. قد كان ذلك حلًا بائسًا، لا يثمر إلا مزيدًا من التخلف، ولا يُنتج إلا أجيالًا مشوَّهة الوعي، فاقدة الحصانة، تُواجه الحياة بنفوس خاوية من الفضيلة، وعقولٍ عارية عن العلم.

فواللهِ، ما كان الجهل قطُّ سبيلًا إلى شرف، ولا كان المنع يومًا طريقًا إلى عفّة؛ إنما العقول المستنيرة بالعلم، والقلوب المؤدبة بالخُلق، هي وحدها التي تصون الفضيلة، وتعرف مواضع الشرف والكرامة.

وعلى الرغم من أن رفاعة الطهطاوي قد كتب كتابه «المرشد الأمين لتعليم البنات والبنين» عام ١٨٣٧، وأن أول مدرسة لتعليم البنات لم تُنشأ إلا عام ١٨٧٣، أي بعد أكثر من ثلاثين عامًا، إلا أن تعليم البنات — حتى بعد هذه الدعوة الرائدة، وبعد إنشاء المدرسة — لم يترسخ في الوعي العام، ولا استقام كعادةٍ اجتماعية أو كأمرٍ مقبول في نظر الأغلبية من المصريين.

وعَودٌ إلى باريس، تلك المدينة التي أقام بها رفاعة الطهطاوي من قبل، فأسرته بسحرها وحضارتها، فقد أقام بها من بعده قاسم أمين، فكان له فيها مثل ما كان لرفاعة من فتنة القلب ودهشة العقل. وها هو قاسم أمين، بعد مُضِي نحو ثلاثة عقود من إنشاء أول مدرسة لتعليم البنات في مصر، لا يزال ينادي في الناس بوجوب تعليم البنات، ويرفع صوته مرارًا وتكرارًا داعيًا إلى هذا الحق الذي لا ينبغي أن يُنازع فيه.

بل إن قاسم أمين — رغم جرأته وتقدميته — لم يكن يطمح آنذاك إلا في أن تنال البنت قسطًا من التعليم الابتدائي على الأقل، كما صرّح بذلك في كتابه الشهير «تحرير المرأة»، حيث قال:

> ففي رأيي أن المرأة لا يمكنها أن تدير منزلها إلَّا بعد تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقليَّة والأدبيَّة. فيجب أن تتعلَّم كل ما ينبغي أن يتعلَّمه الرجل من التعليم الابتدائي — على الأقل — حتى يكون لها إلمام بمبادئ العلوم يسمح لها بعد ذلك باختيار ما يوافق ذوقها منها، وإتقانه بالاشتغال به متى شاءت.

> فإذا تعلَّمت المرأةُ القراءةَ والكتابةَ، واطلعت على أصول الحقائق العلميَّة، وعرفت مواقع البلاد، وأجالت النظر في تاريخ الأمم، ووقفت على شيء من علم الهيئة والعلوم الطبيعيَّة، وكانت حياة ذلك كله في نفسها عرفانها العقائد والآداب الدينية استعدَّ عقلُها لقبول الآراء السليمة، وطرح الخرافات والأباطيل التي تفتك الآن بعقول النساء. [١]

أُنشئت جامعة القاهرة — أو الجامعة المصرية أنداك — سنة ١٩٠٨، وظلّت على حالها عشرين عامًا كاملة دون أن تطأها قدمُ فتاة مصرية واحدة. حتى جاءت سهير القلماوي، الشابة المصرية التي حصلت على شهادة الثانوية من كلية البنات بالجامعة الأمريكية. وكان والدها، الطبيب الجراح ذو الأصول الكردية، مؤمنًا بأهمية تعليم البنات، فاصطحبها بنفسه لتقديم أوراقها إلى كلية الطب بجامعة القاهرة، نزولًا على رغبتها في أن تحذو حذوه، بعدما شغفها حب والدها وإعجابها بمهنته.

لكن الجامعة رفضت قبول أوراقها، بحجة أن كلية الطب لا تقبل البنات بين صفوفها. حينها توجه والدُها إلى عميد كلية الآداب، الدكتور طه حسين، راجيًا أن يتوسط له. فأشار عليه العميدُ بأن تتقدم ابنتُه بأوراقها إلى قسم اللغة العربية بكلية الآداب. غير أن الجامعة رفضتها مرة أخرى.

ولم ييأس طه حسين، بل مضى يحاور رئيسَ الجامعة وقتئذ، الأستاذ أحمد لطفي السيد، الذي كان هو الآخر من أنصار تعليم البنات وداعميه. وبفضل إلحاح طه حسين، وحيلةٍ ذكية لجأ إليها — كما روتها زوجته السيدة سوزان طه حسين في كتابها «معك» — استطاع أن يقنع رئيسَ الجامعة بقبول سهير القلماوي، فكانت أولَ طالبة مصرية تُقبل في الجامعة المصرية. وقد روت السيدة سوزان طه حسين تفاصيلَ تلك الحيلة فقالت:

> من بين المصاعب التي أُثِيرَتْ في وجه دخول الفتيات للجامعة، كانت هناك صعوبة تؤلم لطفي كثيرًا. فقد كان الدستور يعطي لكل مصريٍّ الحقَّ في دخول الجامعة، ولكن اللفظ الذي ورد في النص كان مذكَّرًا؛ ومن ثَمَّ، فهو لا يعني النساء. لكنَّ طه دفع الأمر إلى الأمام شأنه دومًا في مثل هذه الحالات قائلًا: «ألا تعني كلمة «المصريون» مجموعَ سكان مصر؟!» فأجاب لطفي: «دون أي شك.» فقال طه: «إذن، ألا يعني ذلك النساء أيضًا؟!» [٢]

١- قاسم أمين، **تحرير المرأة**، مؤسسة هنداوي، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص ١٨

٢- سوزان طه حسين، **معك**، مؤسسة هنداوي، الطبعة الأولى، ٢٠١٥، ص ١٠١

كانت تلك إذن الحيلة التي اختلقها طه حسين وهي أن يتكئ على لفظ «المصريون» في الدستور، وهو بالصيغة المذكرة، ليستظل تحته الرجالُ والنساءُ معًا. حيلة لغوية ذكية، قد تُجدي نفعًا في استرضاء القانون أو التحايل عليه لصالح تعليم البنات.

لكن، لو أن طه حسين انتصر بحجته أمام النص الدستوري، فماذا عساه فاعلًا أمام رأيٍ عامٍ غليظ القلب، يرفض فكرة أن تطأ فتاةٌ مصريةٌ عتبةَ الجامعة؟ أيُسعفه حينها التحايل على الألفاظ، أم يلزمه أن يخوض معركة الوعي والتنوير ضد جمود العقول وظلام التقاليد؟

كانت تلك معضلة حقيقية تؤرِّق كُلًا من أحمد لطفي السيد وطه حسين وهي: كيف يُقنعان الرأيَ العام المتوجِّس، والحكومةَ المتحفِّظة، بقبول البنات في الجامعة؟ وبعد طول تفكير، خلصا إلى أن الحل الأمثل هو إخفاء الأمر عن أعين الصحافة والناس، بل وعن الحكومة ذاتها، حتى تدخل البناتُ الجامعةَ، ويمضي على وجودهن زمنٌ تُطبَع فيه صورتُهن في الأذهان، فيغدو الأمرُ واقعًا مفروضًا لا سبيل إلى التراجع عنه.

وبالفعل، دخلت سهير القلماوي الجامعةَ، ثم تبعتها فتياتٌ أخريات بلغ عددهن سبع عشرة طالبة. وقد أحاطها طه حسين برعايته وعنايته الخاصة، ووقف إلى جانبها بكل ما يملك من دعمٍ وتشجيع، حتى إنه خَصّها بحراسةٍ ترافقها ذهابًا وإيابًا من الجامعة وإليها، خشيةَ أن يُصاب هذا المسعى الرائد بنكسة، أو أن تبوء تلك التجربة الأولى من نوعها بالفشل.[1]

وعلى الرغم من أن ما كان يخشاه طه حسين وأحمد لطفي السيد قد وقع فعلًا — إذ ما إن دخلت البناتُ الجامعةَ حتى هبَّت موجةٌ من النقد الحاد، تُندد وتُشنع على فكرة اختلاط البنات بالشباب، ودراستهن معهم جنبًا إلى جنب — فقد تعرّض الرجلان لنقدٍ لاذع، لا سيّما بعد أن نشرت جريدة الأهرام صورةً تجمع الدكتور طه حسين بلفيف من الطلبة والطالبات معًا.

وقد دفع هذا المشهدُ النائبَ عبد الحميد سعيد إلى تقديم استجواب في مجلس الشعب إلى وزير المعارف، في فبراير ١٩٣٢، معبرًا عن دهشته من الصورة، متسائلًا: كيف يجتمع طه حسين بالشباب والبنات معًا، بعدما صرّح الوزير من قبل بأن «الاختلاط غير مسموح به في معاهد التعليم»؟ ثم اعتبر النائب نشر الصورة دليلًا على «عدم احترام الشعور الديني والآداب القومية».

فما كان من الوزير إلا أن ردّ على الاستجواب موضحًا أن الصورة التُقطت في اجتماعٍ عُقد بنادي طلبة الجامعة، وأن الجامعة قد نبهت على الطالبات بعدم دخول هذا النادي مستقبلًا، وبهذا فإن ما حدث لن يتكرر.

١- هذا ما ذكره الروائي يوسف القعيد في برنامج «المساء مع قصواء» على قناة TeN TV، وذكر أن هذا ما قالته له السيدة سهير القلماوي. https://www.youtube.com/watch?v=W34x4lfzIHg

لكن القضية لم تُغلق، بل أُثيرت من جديد في عام ١٩٣٧، ولكن هذه المرة على نطاقٍ أوسع، وأشد وقعًا وتأثيرًا. وقد أورد الدكتور رؤوف عباس هذه الوقائع بتفصيلها في كتابه «تاريخ جامعة القاهرة»، حيث قال:

> أثار بعض الأزهريين وبعض شباب الإخوان قضية الاختلاط داخل الجامعة، فتقدم بعضُ الطلبة بمذكرتين إلى رئيس الجامعة وعميدي الكليات يطالبون فيها بتخصيص جانبٍ من المناهج الثقافية الدينية في جميع الكليات، وبتوحيد زي الطلبة والطالبات وفصلِهنَّ عن الطلبة، وتخصيص دراسة خاصة بهن. ثم نشرت «الأهرام» حديثًا لشيخ الأزهر عبَّر فيه عن سرورِه بالمذكرة التي قدمها الطلاب، وكان لهذا الحديث أثره في إثارة طلبة الأزهر، فقاموا بمظاهرات تأييد للمطالبين بعدم الاختلاط بتشجيع من شيوخ كليات الأزهر.
>
> تصدى الدكتور طه حسين لهذه الدعوة، ففي حديث لجريدة «المصري»، قال إنه لا يعرف في القرآنِ ولا في السنةِ نصًا يُحرِّم على الفتيات والفتيان أن يجتمعن في حلقةٍ من حلقات الدرس حول أستاذ يعلمهم العلمَ والأدبَ والفنَ، وإن الجامعةَ لم تُحْدِث حدثًا، ولم تخرج على نصٍّ من نصوص الدين. وأعلن أن الجامعيين لا يتلقون أمرًا من معهد آخر مهما كان شأنه، وليحترم الأزهرُ استقلالَ الجامعة كما تحترم الجامعةُ استقلالَ الأزهر، وطالب الأزهريين الذين نادوا بتعليم الفتياتِ الدينَ، طالبهم بأن يتركوا مسألةَ الدين للطلبة أنفسهم؛ فليس بين طلاب الجامعة قاصرًا ولا عاجزًا عن تثقيف نفسه في الدين، والكليات ليست مدارس ابتدائية ولا ثانوية، وإنما طلاب الكليات راشدون يستطيعون أن يتعلموا الدين إن أرادوا. [١]

ظل العميد صامدًا شامخًا، لا تهتز له قناة، [٢] ولا تزحزحه التظاهرات، ولا تُوهِنه المذكرات، ولا تُثنيه الإدانات؛ يمضي في طريقه واثق الخطى، متحديًا العوائق والممانعات. وبرغم كل هذا الصخب، كان لتفوق الطالبات أثرٌ بالغ، وردٌّ صارخ على كل الأصوات المعارضة، حتى غدت شهادات التفوق أبلغَ من كل قول، وأقوى من كل اعتراض.

ومضت الأيام على هذا المنوال، فتخرجت الطالبات في الجامعة، وسقط نقد الناقدين وانطفأ كأنه سراب تَبخَّر، ﴿وكلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله﴾. وقد حققت الفتياتُ تفوقًا باهرًا ومجهودًا استثنائيًا، حتى برزت سهير القلماوي كعلامةٍ فارقةٍ في تاريخ الجامعة؛ إذ لم تكن

١- رؤوف عباس حامد، **تاريخ جامعة القاهرة**، كتب عربية، الطبعة الأولى، ص ١٩٧

٢- القناة هنا ليست قناة الماء، بل هي الرمح الصلب المستقيم. فحين يُقال «لا تهتز له قناة»، فالمعنى أن صلابته مثل الرمح القوي الذي لا ينثني ولا يهتز.

أولَ فتاة تدخل الجامعة فحسب، بل غدت أيضًا أولَ امرأة تعمل بها، بعد أن عُيِّنت معيدةً بكلية الآداب، في مشهدٍ كان إعلانًا صريحًا بانتصار المرأة على من يريد قمعها.

وفي ذلك يقول أحمد لطفي السيد:

> وبعد أن سرنا في هذا النهج عشر سنوات حدث ما كنا نتوقعه؛ فقد قامت ضجة تنكر علينا هذا الاختلاط، فلم نأبه لها؛ لأننا على يقين من أن التطور الاجتماعي معنا، وأن التطور لا غالب له، ومعنا العدل الذي يسوي بين الأخ وأخته في أن يحصل كلاهما على أسباب كماله الخاص على السواء، ومعنا فوق ذلك منفعة الأمة من تمهيد الأسباب لتكوين العائلة المصرية على وجه يأتلف مع أطماعنا في الارتقاء القومي؛ كل أولئك جعلنا لا نحفل بهذه الضجة التي ما لبثت أن ذهب بها الزمان![١]

وعلى النقيض من جامعة القاهرة، ظل الأزهر متمسكًا بموقفه الرافض لدراسة الفتيات بين جنباته، ولم يُفتح لهن الباب إلا بعد مرور أربعين عامًا كاملة، حين أنشأ الشيخ محمود شلتوت — شيخ الأزهر آنذاك — أولَ معهد أزهري للفتيات عام ١٩٦٢. فإذا كانت جامعة القاهرة قد فتحت أبوابَها للطالبات بعد عشرين عامًا من تأسيسها، فإن جامعة الأزهر لم تفعل ذلك إلا بعد مُضِي ألف عام من نشأتها. لذا، لم يكن من الغريب ألا نسمع طوال عشرة قرون عن عالِمة أو فقيهة أزهريّة تخرجت من هذا الصرح العريق.

وقد عدتُ إلى كتاب «جمهرة علماء الأزهر» للشيخ أسامة الأزهري، حيث أحصى فيه أعلام مَن اشتغلوا بالتدريس في الأزهر خلال القرنين الأخيرين، فوجدتُه يذكر قرابة خمسمئة اسم. وهذه الموسوعة الضخمة تتألف من أحد عشر مجلدًا، أولها مقدمة، وآخرها فهرست، وبينهما تسعة مجلدات تضم ترجمات لهؤلاء الأعلام من شيوخ الأزهر ومُدرِّسيه. ومن بين هذه الأسماء الخمسمئة، لم أقف إلا على ثلاث نسوة فقط، اثنتان منهن لم تتجاوز ترجمتهما سطرين اثنين! وسأنقلها للقارئ كما وردت، ليقف بنفسه على حجم حضور المرأة الأزهرية في تسعة مجلدات كاملة. يقول الشيخ أسامة الأزهري:

> الشيخة الجليلة ستوتة، الشهيرة بستهم، قنديلة بنت بدوي بنت محمد الطنطاوية الشافعية الأزهرية. وكان مبدأ اشتغالها بالعلوم الأزهرية في الجامع الأحمدي سنة ١٣٠٤ هـ، الموافق سنة ١٨٨٦ م، ثم لم أر من أخبارها شيئًا بعد ذلك.

١- أحمد لطفي السيد، **قصة حياتي**، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٣، ص ١١٧

الشيخة فاطمة الغنامة بنت عيد الشافعية، من طنطا، اشتغلت بالعلوم الأزهرية في الجامع الأحمدي سنة ١٣٠٤هـ، الموافق سنة ١٨٨٦ م، ولم أهتدِ إلى شيء من أخبارها بعد ذلك.[١]

أما عن الشيخة الثالثة، فاطمة العوضية الأزهرية، فقد ظفرت — ويا للنعمة الجليلة والتفضل العظيم! — بنصف صفحة كاملة من موسوعة الأزهر. نصف صفحة، نعم! كأنها شرف لا يظفر به إلا من اجتازت هذا التاريخ الذكوري بصعوبة. وكانت قضية تعليم النساء في الأزهر قد نالت حظها هي الأخرى من السجال والنقاش، حتى يمكن للباحث أن يُفرد لها كتابًا مستقلًا. لكنني أريد ونحن لا نزال في المقدمة أن أذكر شيئًا هامًا على عجل. ففي كتابه «الأزهر بين السياسة وحرية الفكر» الذي نقل عنه الشيخ أسامةُ الأزهري ترجمةَ تلك السيدة الفاضلة، ذكر الدكتورُ محمد رجب البيومي أن هناك نساء كثيرات قد درسن في الأزهر، وكانت أدلته على ذلك أن قال:

> كان المبدأ الأول لهذه الخواطر أني كنت أقرأ ما كتبه جلال الدين السيوطي عن تاريخه العلمي في كتابه «بغية الوعاة» فوجدته ينص على أنه قرأ على سيدات من العالمات المتخصصات في الدراسة الدينية، منهن: السيدة الأصيلة، الثقة، الخيرة، الكاتبة، — كما قال المؤلف — أم هانئ بنت الحسن الهوريني، ومنهن السيدات الفضليات: هاجر بنت محمد، وأم الفضل المقدسية، ونشوان بنت عبد الله... وغيرهن وغيرهن من الفضليات.
>
> فإذا كان السيوطي العالم الأزهري قد وجد من أساتذته أكثر من عشر سيدات عالمات! وإذا كان الأزهر منار الحركة العلمية في آخر عصر المماليك الذي ائتلق فيه كوكب السيوطي، فأين تعلم هؤلاء الفضليات ممن قرأ عليهن عالم كبير كان صدر العلماء في زمانه؟[٢]

وأحب للقارئ أن يتوقف قليلًا عند الألفاظ التي استخدمها الدكتور محمد رجب البيومي في حديثه عن هؤلاء النسوة؛ فقد وصفهن بأنهن «عالمات متخصصات في الدراسة الدينية». وكأن هذا الوصف يوهم القارئ بأننا أمام فقيهاتٍ مُبَرَّزات، أو قاضياتٍ في الدين، أو متبحراتٍ في علوم الشريعة، أو في الجرح والتعديل، أو من أعلام الكلام أو الفلسفة أو العقيدة.

١- أسامة السيد محمود الأزهري، **جمهرة علماء الأزهر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين**، مكتبة الإسكندرية، مصر، الطبعة الأولى ٢٠١٩، المجلد الثاني، ص ٧١

٢- محمد رجب البيومي، **الأزهر بين السياسة وحرية الفكر**، مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٩٣، ص ٢٦٤

لكن الحقيقة دون ذلك بكثير؛ فهؤلاء النسوة لم يكنّ «عالمات متخصصات في الدراسة الدينية» بالمعنى الاصطلاحي للعلم الشرعي، ولا متخصصات في معانيه الدقيقة، بل لم يكن لهن في القضاء أو الإفتاء أو الفقه أو الأصول أثرٌ يُذكر. غاية ما بلغنه أنهن حفظنَ بعض الأحاديث النبوية كما يُحفظ القرآن الكريم، ورويتها لمن جاء يطلب الرواية، ومن أراد الوقوف على الحقيقة فليعد إلى كتاب الإمام السيوطي — رحمه الله — حيث يُبين أن ما أخذه عنهن لم يتجاوز بضعَ أحاديث مروية عن النبي ﷺ.

فهل يا تُرى، لمجرد حفظ المرأة للحديث كما يحفظه أي طفل صغير، أن نُسبغ عليها وصف «عالمة متخصصة في الدراسات الدينية»؟ أليس في ذلك كذب وتدليس في الوصف، وإيهام بوجود حركة علمية نسائية أزهرية لم يشهدها الواقع قط؟

وإذا تأملنا في الأمر بعمق وجدنا أن هذه الطريقة في التجميل والترقيع والتزيين لم تكن حادثةً وحيدة أو حتى موقفًا عرضيًا في طريقة تفكيرنا، بل هي الأسلوب الذي تربّينا عليه في كل ما يتصل بتراثنا وديننا وتاريخنا. فقد أصبح شغلنا الشاغل أن ندافع عن كلِ شيءٍ ونبرره، لا أن نبحث عن حقيقته وعيوبه ونقوّمه. ندافع عن الصحابةِ جميعًا فنرفعهم إلى مرتبة العدالة المطلقة بلا استثناء، وندافع عن الأئمة فنصوّرهم معصومين من الزلل، وندافع عن البخاري ومسلم فنجعل كتابيهما فوق النقد البشري، ثم ندافع عن أحمد بن حنبل وابن تيمية وغيرهما فنحولهم إلى رموزٍ مقدسة. وبعد ذلك نوسع الدائرةَ فنبرر تاريخنا كلَّه كأنه مجد عظيم مستمر لا ينقطع، ونزخرف صورةَ الأزهر وكأنها منارة لم تَخْبُ يومًا، ونجد دائمًا مخرجًا نعلّق عليه عجز تعليمنا، أيًّا كان هذا المخرج، بشرط ألا نكون نحن المسؤولين، وألا نعترف بأن المسؤولية تقع علينا، أو أن يكون اللوم موجَّهًا إلينا.

وهكذا أصبحنا لا نرى في ماضينا ولا حاضرنا ما يستحق النقد أو المراجعة، ليكون دورنا الوحيد هو ستر العيوب وتلميع الوجوه وترقيع الخروق. هذه الذهنية القائمة على التجميل والتبرير ليست إلا صناعةً للوهم، وبناءً لجدار هش من الصور المزخرفة الكاذبة سرعان ما ينهار عند أول مواجهة مع الواقع، وهي التي أعجزتنا عن التقدم خطوة واحدة إلى الأمام.

وأعتذر للقارئ عن هذه الإطالة، وأعود سريعًا إلى سهير القلماوي لأقول: إن دعم الدكتور طه حسين لها لم يقف عند حد إدخالها الجامعة متحديًا الأزهرَ والدستورَ والدولةَ ومجلسَ النواب والمجتمعَ بكل ما يفرضه من عادات وأعراف؛ بل ظلَّ ماضِيًا في دعمه لها حتى النهاية.

وحين صدر قرارُ فصل العميد من الجامعة، لم يثنه ذلك عن الوقوف إلى جوار تلميذته، بل رافقها يوم امتحان الليسانس، وكان عضوًا في لجنة الامتحان، متحديًا بذلك قرار رئيس الوزراء المصري شخصيًا، ومتجاهلًا كل التهديدات والموانع، في موقفٍ كان رسالةً واضحة وهي أن طه حسين لا يخذل مَن آمن به، ولا يتخلى عن مشروعٍ ابتدأه بضميرٍ ويقين.

لم يكتفِ طه حسين بذلك، بل حثّها على مواصلة مسيرتها التعليمية، وأصرّ أن تبدأ بدراسة الماجستير تحت إشراف الأستاذ أحمد أمين، وكان حاضرًا في لجنة مناقشتها للماجستير أيضًا. وحين أنهت الماجستير، مدّ العميدُ يدَه لها ليأخذها نحو خطوة أخرى وهي الدكتوراه. ومن لطيف صنيعه وحرصه على تميّزها أنه كان مُقرَرًا أن تناقش سهير القلماوي رسالتَها في فبراير ١٩٤١، لكن العميد طلب تأجيل الموعد ثلاثة أشهر لتتم المناقشة في الخامس من مايو، وهو نفس اليوم الذي ناقش فيه طه حسين رسالته في جامعة السوربون. أراد العميد بذلك أن يكرّم تلميذته وأن تكون على خطاه، يومًا بيوم، وساعة بساعة، لتناقش هي رسالتها في نفس اليوم الذي ناقش فيه رسالته.

أراد العميد أن تُعيَّن تلميذته معيدةً في الجامعة، لكن العقبة الكبرى لم تأتِ من رئيس الوزراء، ولا من مجلس النواب، ولا من حراس العادات والتقاليد، بل جاءت من داخل بيت سهير، من والدتها، التي كان العميد يُطلق عليها مازحًا لقب «الدولة العثمانية»، لما عُرف عنها من صرامةٍ وشدة. رفضت الأم أن تعمل ابنتها في الحكومة، معتبرةً ذلك عارًا سيُلحق بالأسرة. ولكن هل يُعقل أن العميد، الذي تحدّى رئيس الوزراء والدستور والمجتمع المصري بأسره، يعجز عن إقناع والدة سهير؟ بذل العميد جهدَه، فأقنعها أخيرًا، وكان له ما أراد، فكانت سهير القلماوي أولَ فتاة تُعيّن معيدةً في الجامعة في تاريخ مصر.

ولم يتوقف طموح العميد عند ذلك؛ فقد أراد أن يرسل تلميذته في بعثة إلى فرنسا، لتُكمل مسيرتها العلمية، وهنا تكرّر المشهد: عارضت الأم بشدة، ثم خضعت بعد ضغط العميد، مشترطةً أن تسافر سهير بصحبة أسرة مسافرة. حقّق العميد هذا الشرط، فسافرت سهير إلى فرنسا، وأتمّت بعثتها بنجاح باهر.

وحين رحل والد سهير القلماوي عن الدنيا، واشتدّ عليها الألم والحزن، كان العميد بجوارها، سندًا وداعمًا لا يملّ ولا يكلّ. أصرّ عليها أن تُكمل مسيرتها الأدبية، مُلحًّا عليها أن تكتب أولَ كتاب لها وتنشره. ولم يخيب الله مسعى العميد؛ وكتبت سهير كتابها الأول، وكان نشره بلسمًا خفّف عنها مرارة الفقد وأعاد إليها بعضًا من السلوى والأمل.

ويوم فقدت والدتَها، أرسل إليها العميدُ رسالةً وهو في إيطاليا، رسالةً لم تُفارق ذاكرتَها، فقالت عنها سهير القلماوي:

> أرسلتَ إليَّ من قريتك في إيطاليا رسالةً مفعمةً بالحنان والإشفاق ما زلت أقرؤها مرات كلما عصفت بي الهمومُ فأتعزَّى. كنتَ لي أبًا حنونًا وجدارًا ضخمًا أستند إليه كلما احتجتُ إلى سندٍ أو عونٍ أو عزاء.

وإن كنتُ قد ذكرتُ بعضًا مما فعله طه حسين، إلا أنَّ هناك الكثير والكثير لم أذكره بعد، فأول ما تقدَّم شابٌ لخطبة سهير كان العميدُ هو الوجهةَ الأولى لها لتستشيره وتعمل برأيه، وما إن تمَّ الزواجُ، كان العميدُ شاهدًا على عقد زواجهما، ولا تزال إمضاؤه في عقد زواجها شاهدةً على حبه ودعمه لتلميذته في دراستها وفي زواجها. أقول: إنني وإن كنتُ قد أطلت على القارئ في تلك المقدمة، فمن المستحيل أن أنهي هذه المقدمة دون أن أنقل كلمات كتبتها سهير القلماوي بقلمها عن العميد في ذكرى وفاته حيث كتبت تقول:

> وفي كتابِك «مع أبي العلاء في سجنه» تقول إنك تتعرض لحياة الكُتّاب والشعراء بالدرس، ولأعمالهم بالنقد، لا تحفل بأحد منهم حيًا كان أو ميتًا إذا سخط على ما كتبت أو غضب مما قلت. ولكن ما هكذا أبو العلاء المعري بالنسبة إليك. إنه لا يعنيك أن يرضى المتنبي أو يغضب، وما يعنيك أن يلقاك الطائيان — أبو تمام والبُحتري — بالرضا أو بالغضب في هذه الحياة أو تلك، لكنك تكره أن تقسوَ على أبي العلاء راضيًا أو كارهًا مخافةَ أن تلقاه فإذا هو متأذٍ بهذه القسوة؛ لأنك تحبه كما قلت. وهذا موقفي الآن منك. لا أدري أساخطًا ألقاك على هذا الكتاب أم راضيًا عنه. وإني لأشفق على نفسي أن تكون غير راضٍ أو تكون كلمة «لكن» تحمل بعدها ما يُشعرني بالذنب...
>
> مَن لي بأن أسمع منك «لكن» بكل هولها الذي كنتُ أخشاه! مَن لي بأن أرى ابتسامتك المُشجعة التي تحفزني على أن أكتب عنك ما أشعرُ أنه ربما أرضاك. وما كتابي هذا الذي أقدمه إليك اليوم إلا دمعة وفاء. فهل يشفع لي هذا عندك يا أبي.... وأستاذي! [١]

كان هذا هو حال سهير القلماوي، التي أرادت أن تلتحق بكلية الطب في جامعة القاهرة، فرفضتها الجامعة، ثم أعادت المحاولة فتكرَّر الرفض، حتى تدخَّل العميد، فسَنَّ بذلك سُنَّةً حسنة لا تزال آثارها باقية إلى يومنا هذا، مفتوحة الأبواب لبنات مصر في ساحات العلم والمعرفة.

ومن سهير القلماوي — التي رفضتها كلية الطب بجامعة القاهرة — إلى باريس، حيث انطلقت الشرارة الأولى مع رفاعة الطهطاوي، ثم قاسم أمين، ثم طه حسين، تلك المدينة التي أثارت فيهم جميعًا سؤال المرأة والتعليم والنهضة.

ومن هناك، إلى إدنبرة، إلى كلية الطب تحديدًا، حيث كانت صوفيا جيكس-بليك (Sophia Jex-Blake)، التي ستقود هي وزميلاتها معركةً من أشرس معارك التعليم في التاريخ البريطاني، وهن محور هذا الكتاب الذي بين يديك.

١- سهير القلماوي، **ذكرى طه حسين**، دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى، ١٩٧٤، ص ١٤٠

******

غير أن الهدف من كتابة هذا الكتاب لم يكن إعادة فتح قضية تعليم البنات، فهي قضية قد تجاوزها الزمن في العديد من المجتمعات، بل الهدف أن نتعلم من الماضي لنستنبط منه دروسًا تساعدنا على مواجهة قضايانا المعاصرة. فالغاية من ذكر قصص الماضي ليست تكرار ما تم إنجازه، بل أن نستقيَ منه العبرة والدرس وأن نستلهمم من هؤلاء الأبطال قوتَهم وإرادتَهم، وصدق الله إذ قال: ﴿لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب، ما كان حديثًا يُفترى، ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه، وتفصيلَ كل شيءٍ، وهدى ورحمةً لقوم يؤمنون﴾؛ فعندما نتحدث عن «إسحاق نيوتن»، ليس الهدف أن نعيد اكتشاف قوانين الجاذبية، إذ إن هذه القوانين قد اكتُشفت بالفعل، بل أن نتعلم من رحلته العلمية، ومن جهده وذكائه، ونستلهم منه كيف نبتكر قوانين جديدة ونفتح آفاقًا أوسع للعلم.

وعلى هذا المنوال، حين نقرأ عن المخترِع «توماس إديسون» ومصباحه الكهربائي، فليس الغرض أن نعيد اختراع المصباح الذي غدا من أبجديات حياتنا، بل أن ننهل من إصراره ومنهجيته في التجريب والتطوير، تلك الروح التي قادته من مئات المحاولات الفاشلة إلى نجاحٍ أحدث ثورةً في مسيرة البشرية.

كما يمكن للقارئ الكريم أن يَعُدَّ هذا الكتابَ سيرةً ذاتيةً لـ «صوفيا جيكس-بليك»، فإنّه — وإن كان المقصودُ منه بيانَ تلك المعركة الكبرى التي خاضتها المرأة لنيل حقّها في التعليم — لا يفصل بين سيرة صوفيا وتاريخ القضية، بل يجعلهما وجهين لعملة واحدة. فإنّ حياة صوفيا، بما فيها من صبرٍ وثبات، تستحق أن تُروى وتُدوَّن، وأن يطّلع عليها القارئ العربي، إذ فيها من العِبرة ما يتجاوز حدود الزمان، ومن الإلهام ما يُشعل نار النضال في كل نفس حرّة. وذلك أن حركة النساء لنيل حقهنّ في التعليم الجامعي لم تكن حركةً جماعيةً صمّاء، بل كانت تتجسّد — بكل ما فيها من آمالٍ وآلام، من مطالب وشعارات، من سكون وصخب — في شخص صوفيا نفسها. فلم تكن واحدةً من أفرادها، ولا مجرّد عضوٍ فيها، بل كانت صوفيا هي «الحركة» عينها، والعنوان الأبرز لها، والروح النابضة في جسدها، فما ذُكرت الحركة إلا ذُكرت صوفيا، وما خفَت صوتُ صوفيا إلا خفت صوت الحركة، وما أشرقت عزيمتها إلا أشرقت معها آمال النساء.

ولا أريد من هذا أن يُفهم أنني أتبنّى نظرية «الرجل العظيم» (The Great Man Theory) في التاريخ، التي كان من أوائل من أسسها هو المؤرّخ البريطاني «توماس كارلايل» (Thomas Carlyle) — والذي كان من خرّيجي جامعة إدنبرة بالمناسبة — وهي النظرية التي ترى أنّ

تاريخ البشريّة ليس إلا سيرة أولئك الأفراد العظماء الذين صنعوه، فإن أردت أن تفهم التاريخ، فاقرأ سيرهم؛ فهم التاريخ، والتاريخ هو هم. وإنما أردتُ أن أقول إنّ صوفيا كانت شخصيةً محوريّة، في غاية الأهمية، في تاريخ حركة تعليم البنات. غير أننا — كما سنرى خلال فصول هذا الكتاب — سنلتقي بكثيرٍ من الأسماء والشخصيات الأخرى التي كان لها أثرٌ كبير في هذه الحركة، من النساء والرجال على حدٍّ سواء. لكن صوفيا ظلّت واحدةً من أبرز رموزها.

كما ينبغي أن أُنوّه إلى أمرٍ هامٍّ للقارئ الكريم، وهو أنّه سيجد في هذه السرديّة عددًا وافرًا من أسماء الأشخاص، وقد يبدو له أنّ حفظها جميعًا أمرٌ عسير، لكنه في واقع الأمر غير ضروري. فالأشخاص المؤثّرون في هذه القصة لا يتجاوزون أصابع اليدين، وستجد أسماءهم مكرَّرة مرارًا في النص، مما يُسهم تلقائيًا في ترسيخها في الذاكرة دون عناء. فلا تدع كثرة الأسماء الإنجليزية تُثقل عليك، إذ أنّ تكرار أسماء الشخصيات الرئيسية سيجعلها مألوفة لك مع تقدّم القراءة.

وأخيرًا أقول: إنه في سالف أيام شبابها، إذ كانت صوفيا بَعدُ غضّة الطرف، يافعة العُمر، أرسل والدها إلى الرسّام الإنجليزي «صامويل لورنس» (Samuel Laurence)، يسأله أن يرسم لابنته صورةً بقلم الشمع. فما إن جاء الرسام، وألقى نظرةً فاحصة على ملامح الفتاة، حتى استغرق في الرسم برهةً من الزمان، ثم ما لبث أن توقف، وقال: «وجهٌ كهذا لا تفيه أقلامُ الشمع حقَّه، إمّا أن يُخلَّد بريشة زيتية، أو لا يُرسم أبدًا.»[١]

وهأنذا، إذ أُمسك القلمَ لأكتب هذا الكتاب، وضعتُ لنفسي شرطًا لا أتوانى عنه، وهو أن أصنع به كما صنع الرسّامُ حين رأى ملامحَ صوفيا، فلم يرضَ لها رسمًا عابرًا، ولا خَطًّا سريعًا، فلستُ أرتضي أن يُبصر النورَ كتابٌ لا ينير عقلًا، ولا أن يُطبع حبرٌ لا يُثمر فكرًا. فكما لم يرضَ الرسامُ أن تُرسم صوفيا إلا بريشةٍ تليق بجمالِها، كذلك لا أرضى للقارئ أن يُهدى كتابًا لا يُهدي إليه علمًا، ولا يَفتح له بابًا، ولا يترك في نفسِه أثرًا. فإن لم ينهض هذا الكتابُ بتلك الرسالة، فحسبه أن يبقى طيَّ الغيب، أو كما قال «شكسبير» في مسرحية هنري الرابع: «التروّي أَولى من الشجاعةِ المتهوّرة».

ولم يكن هذا الكتاب الذي بين يديك أوّل عهدي بالكتابة في هذا الموضوع، بل سبق أن نُشر كتابٌ بعنوان «The Edinburgh Seven» للسيدة الفاضلة «جيني جونز» (Janey Jones)، وقد تواصلتُ معها والتقيت بها في إحدى الليالي في مدينة إدنبرة، وسألتها الإذنَ في ترجمة كتابها الذي تناولتْ فيه سِيَر أولئك الفتيات. وقد ترجمتُه فعلًا صفحةً صفحة، حتى أتممتُ ما يربو على مئتين وخمسين صفحة، استنزفت من الوقت والجهد ما لا يعلمه إلا الله. غير أنّي، بعد أن فرغتُ من الترجمة، ألقيتُ بها في غياهب النسيان، إذ وجدتُ أن العمل، على ما فيه من صدق

١- Margaret Todd, The Life of Sophia Jex-Blake (London: Macmillan, 1918), p. 8

النية، لا يبلغ المستوى الذي أطمح أن أقدمه للقارئ العربي؛ فالترجمة — بطبعها — تُقيِّد الكاتب، ولا تتيح له من حرية السرد وبسط المعنى ما يبلّغ مراده ويُشبع ذائقته. وقد أدركتُ، بعد شهور من الانكباب على ذلك النص، أن الترجمة ليست الطريق الذي أريد أن أسلكه، فآثرتُ أن أشرع في كتابة كتابٍ جديد، هو من روحي وقلمي، يُعبّر عن رؤيتي، وأرجو أن يكون كما أتمناه للذائقة العربية.

وما فعلتُه يُذكّرني بما خطّته الكاتبةُ السعوديةُ ثريا التركي في كتابها الذي ذكرت فيه سيرتها الذاتية «حياتي كما عشتها»، إذ ذكرت أنها، أثناء دراستها للدكتوراه في جامعة كاليفورنيا بيركلي، التقت شابًا سوريًا يُدعى أسامة دوماني، وكان هو الآخر يعدّ رسالته للدكتوراه، حتى إذا دنا وقتُ المناقشة، أقدم على حرق أوراق رسالته، لأنه لم يرضَ عنها، وقال: «إما نكتب شيئًا له معنى، أو لا نكتب».[1] وكذلك كان أمري؛ أحرقتُ ترجمتي كما أحرق هو رسالتَه، وشرعتُ في هذا الكتاب، إيمانًا مني بأنّ ما لا يحمل إضافة علمية حقيقية، لا يستحق أن يُكتب.

محمد رضا

إدنبرة — ٢٠٢٥

١– ثريا التركي، **حياتي كما عشتها**، دار الكرمة للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٢٤، ص ١٢٧

الفصل الأول:
صوفيا جيكس-بليك

وُلدت صوفيا في ٢١ يناير ١٨٤٠ بمدينة هاستينجز بجنوب إنجلترا. كان أبوها السيد «توماس جيكس-بليك» (Thomas Jex-Blake) يبلغ من العمر وقتئذٍ خمسين سنة، وكان محاميًا ضمن مجموعة راقية تسمى (Doctors' Commons)، وهي مؤسسة قانونية فريدة من نوعها، حيث لم يكن كل المحامين في إنجلترا جزءًا منها، بل فقط المتخصصون في القانون المدني والكنسي الذين يحملون درجات عليا في القانون.[١]

وفي العام نفسه الذي وُلدت فيه صوفيا، كانت لها أسرة صغيرة تحيط بها، كان لها أخٌ أكبر يُدعى «توماس»، وكان آنذاك في الثامنة من عمره، وأختٌ تُدعى «كارولين»، تبلغ من العمر ست سنوات.

أمّا والدةُ صوفيا، فكانت تُدعى «ماريا»، وقد كان اسمُها قبل الزواجِ «ماريا كيوبت» (Maria Cubitt)، فلما اقترنَت بزوجها «توماس جيكس-بليك»، حملتْ اسمَه وعرَفها الناسُ به. وكانت الأم «ماريا» يوم وضعت صوفيا في التاسعةِ والثلاثين من عمرها، أي في سنٍّ يُوشِك فيه الأمل في الحمل والولادة أن يضعف، لا سيّما بعد أن ألمَّ بها البلاء؛ إذ فقدت ثلاثةً من أبنائها وماتوا قبل أن يُدرِكوا الحُلمَ أو يَشُبُّوا عن الطوق.[٢] فكانت صوفيا، ومعها أخوها «توماس» وأختها «كارولين»، بمثابة النور الذي أطلَّ بعد ليلٍ طويلٍ من الحزن والفقد.

١- (Doctors' Commons) كانت مؤسسة قانونية بارزة في لندن، تأسست عام ١٥٧٠، كمجمع للمحامين المتخصصين في القانون الكنسي والقانون المدني، الذين كانوا يحملون درجات الدكتوراه من جامعات مثل أكسفورد وكامبريدج. لعبت هذه المؤسسة دورًا محوريًا في التعامل مع قضايا الزواج والطلاق والميراث والوصايا والقانون البحري، حيث كانت المحاكم الكنسية والمدنية آنذاك مسؤولة عن هذه الشؤون قبل أن يتم نقل اختصاصاتها إلى المحاكم المدنية. كما كانت بمثابة رابطة مهنية مغلقة، حيث كان الأعضاء يُعرفون بلقب «Proctors»، وهو ما يعادل المحامين المتخصصين في المجالات القانونية. على مدار القرون، كانت (Doctors' Commons) تمثل نخبة قانونية تعمل وفق القانون الروماني والقانون الكنسي، على عكس المحامين العاديين الذين اتبعوا نظام القانون العام (Common Law) الإنجليزي. ومع تقدم الإصلاحات القانونية في القرن التاسع عشر، بدأت مكانة المؤسسة في التراجع، حيث أدى قانون الطلاق لعام ١٨٥٧ إلى إلغاء المحاكم الكنسية ونقل قضايا الزواج والطلاق إلى المحاكم المدنية، مما جعل هذه المؤسسة غير ضرورية. بحلول ١٨٦٥، تم هدم مقرها في لندن، وأصبحت جزءًا من التاريخ القانوني الإنجليزي.

٢- شبَّ عن الطَّوْق: كبُرَ واعتمد على نفسه، أو بلغ مبلغ الرجال.

وقد خلط البعضُ بين اسم عائلة «كيوبت» التي تنتمي إليها والدة صوفيا، وبين عائلة «كيوبت» الشهيرة التي تنتمي إليها ملكة بريطانيا الحالية الملكة «كاميليا»، زوجة الملك «تشارلز الثالث». ذلك أن والد «ماريا» كان يُدعى «توماس كيوبت» (١٧٦٠ - ١٨٠٦)، وتم الخلط بينه وبين «توماس كيوبت» (١٧٨٨–١٨٥٥) البَنَّاء الشهير الذي بنى أحياءً كثيرةً في لندن.[١]

لقد حظيت صوفيا بطفولة مغمورةً بالسعادة، مترعةً بالدفء والطمأنينة، حتى إنها كانت تقول — وهي تسترجع تلك الأيام الخوالي — إنها لا تظن أنّ أحدًا ذاق من الفرح والسعادة في صغره ما ذاقته هي. ولهذا، كانت إذا كبرتْ، وآنَ لها أن تستريح في عطلتها، عادت إلى مدينة «هاستينجز»، فتراها تتجوّل بين المناظر الخلابة، وتتأمل الأماكن التي شهدت فيها لحظاتٍ لا تُمحى من ذاكرتها، والكنيسة التي عُمّدت فيها وهي بعدُ طفلة بريئة.

غير أنّ النزعة الإنجيليّة التي غلبت على سنوات نُضجها الأولى، كانت تُقَيِّد الفكر وتُضيِّق الأفق. فلما كانت «كارولين» وصوفيا بعدُ فتيات صغيرات، كان أبواهما، عن حسن نية وصفاء مقصد، قد عَزَما أن يَحرِماهما من لذائذ الحياة الاجتماعية التي سبق لأمّهما أن نعمت بها في صباها. فتعلُّم الرقص، والخروج إلى المسرح، كان في نظرهما من المنكرات؛ وقراءة الروايات لم تكن إلا ترهاتٍ فارغة؛ ومجلّة «Punch» الأسبوعية الساخرة كانت تُعدُّ في عرفهم سوقيّةً مبتذلة. ولم يكن ثمّة شيء ذو بال يستحقّ التفكير سوى ملكوت المسيح، وكانت حملات التبشير هي الغاية الأكبر الذي يجب أن تتعلق بها القلوب.

ومن يُمعن النظر فيما تبقى من رسائلهم ومكاتباتهم، لا يكاد يملك إلا أن يستشعر أن أقصى ما كان يُنتظر من فتاة مسيحية صغيرة، هو أن تشغل نفسها بصنع أدوات بسيطة كمسَّاحات الأقلام وبعض مستلزمات الكتابة، لتُعرض للبيع في معارض صغيرة تُقيمها البعثات التبشيرية بين حين وآخر. إذ كان الأطفال — في مثل هذه البيوت الراقية — يُربُّون على أن يصنعوا بأيديهم تلك الحاجات المتواضعة، ليُباعَ منها ما يُباع، ويُجمعَ ثمنُه دعمًا لتلك الحملات التي كانت الكنيسة ترسلها إلى أصقاعٍ بعيدة من أفريقيا وآسيا، تنشر فيها تعاليمها وتبشر بمعتقداتها.

ولعل أحد مظاهر هذه التربية الدينية تتجلى في أحد الرسائل التي كتبتها والدتُها إلى صوفيا في عيد ميلادها السابع، حيث كتبت تقول:

عزيزتي صوفي،

1- Eleanor Fitzsimons, Edinburgh Seven: The Story of the First Women to Study Medicine in Britain (UK: Pen & Sword History, 2023), p. 7

لقد سُررتُ كثيرًا بعلامة الكتب التي صنعتِها، وأراها جميلة ومُتقنة. أتمنى لكِ عيدًا سعيدًا في يوم ميلادك، وأن تعود هذه المناسبة عليك مرارًا وأنتِ في خير وسرور. والآن وقد بلغتِ السابعةَ من عمرك، آمُل أن تُكثري من الدعاء للروح القدس، كي يحفظكِ من الخطيئة، ومن العصيان، ومن الغضب الشديد.

أُهديكِ بمناسبة عيدكِ هذا نصًّا من الكتاب المقدّس: سفر الأمثال، الإصحاح ١٦، الآية ٣٢، وأثق أنكِ ستبذلين جهدًا كي تعملي بما فيه. وأرجو أن تعتنِي بأبيكِ الحبيب قدر استطاعتكِ — يقول إنكِ فتاة طيّبة جدًا. وأخوكِ يُرسل إليك محبّته.

أما الآية التي أشارت إليها والدة صوفيا في رسالتها، فهي من حكم النبي سليمان كما وردت في سِفر الأمثال، تقول فيها: «البطيءُ الغضبِ خيرٌ من الجبارِ، ومالِكُ رُوحِه خيرٌ ممَّنْ يأخذ مدينةً.» وإنّ اختيار الأم لهذه الآية بعينها، ليشي بأن صوفيا — وهي في تلك السن الصغيرة — كانت مشاكسة الطبع، سريعة الانفعال، فأرادت أمُّها أن تُذَكِّرها بأن القوة الحقّة ليست في الغضب والانتصار للنفس، بل في التروّي، وضبط الهوى، وتملّك النفس عند الثوران.

وبعد يومين، كتبت الأمُ رسالةً أخرى إلى ابنتها، جاء فيها قولُها: «أفتقدُ شرح أبيكِ الجميل لكلام الله كلّ صباحٍ أثناء الصلاة — ويجب أن تخبريني عمّا كان يدور فيها.» وهذا التعبير العابر من الأم، يحمل في طيّاته تصويرًا للنشأة التي أراد الوالد أن يُرَبِّيَ بناتِه عليها. حيث كان الأبُ يجمع أسرتَه مع مطلِع كلِّ نهار، ليفتتح يومَه بالصلاة، ثم يفسر لهم كلامَ الله في الإنجيل، ويُفيض عليهم من حِكم الكتاب المقدس ومواعظه، فلا يترك الروحَ فارغةً، ولا القلبَ غافلًا.

ومن الهوايات التي مارستها صوفيا في طفولتها، والتي تكشف عن عقلٍ مبكر التشكُّل، ومخيّلةٍ مدهشةٍ في تنظيم الأفكار، أنها كانت ترسم خريطةً لجزيرةٍ خياليةٍ جعلتها مملكة الأحلام، أو بالأحرى «جمهورية الأحلام»، أطلقت عليها اسم «الجميلة ساكرمينا» (Sweet Sackermena)، ثم تمضي في إرساء معالمها كما لو كانت دولةً قائمةً على الأرض. فكانت تضع دستورًا مُفصَّلًا، وتحدّد عددَ سكان تلك الجزيرة، ونِسَبَ الذكور إلى الإناث، ثم تكتب القوانينَ التي تنظم شؤون الحياة فيها، وتُقرُّ العقوبات لكل جريمة، وتبيّن ما يجوز وما لا يجوز فعله في هذه الدولة.

في سن التاسعة، التحقت صوفيا وأختُها الكبرى بمدرسة «بلمونت» (Belmont)، التي كان يشرف عليها السيد «تيد» (Mr. Teed) وزوجته. وهناك، بدأت صوفيا تخوض تجربتها الأولى في البُعد عن البيت، غير أن دفء الأم لم ينقطع عنها، فقد كانت والدتُها تبعث إليها برسائل متتابعة، تفيض بالنصح والتوجيه، وتذكّرها فيها بضرورة الطاعة والالتزام، والاعتصام بالله في السرّ والعلانية، وألا تنقطع عن الدعاء، ولا تكلّ من طلب العون من السماء.

وكانت الأم الحانية لا تكتفي بالموعظة القولية وحدها، بل كانت ترفق رسائلها دائمًا بأرقام آيات من الكتاب المقدس، تحث صوفيا على قراءتها وحفظها عن ظهر قلب، وأن تتخذها دستورًا لحياتها، تَعمل بها في كل أمرها، وتُترجمها أفعالًا لا أقوالًا.

وفي العطلة الصيفية، سافرت الأسرةُ إلى منطقة البحيرات «ليك ديستريكت» (Lake District)، الواقعة بين مدينتي مانشستر وليفربول، وهي من أجمل بقاع إنجلترا، حيث تحتشد الطبيعةُ بسحرها، ففيها الجبال، والبحيرات، والغابات، والهدوء الرهيف. ورغم أن الرحلة كانت للتنزّه والاستجمام، فإن الطابع الديني لم يكن غائبًا عنهم قط. فقد حرصت الأسرة على حضور الصلوات في الكنائس المحلية يوميًا، كما كانوا يتدارس نصوص الكتاب المقدس جماعيًا، وكان من عادة صوفيا أن تُدوّن كل يوم الآيات التي قرأوها وتأمّلوها، وتسجّل ما دار فيها من معانٍ وتأملات.

وقد أمضت صوفيا عامين كاملين في مدرسة «بلمونت» (Belmont)، إلى أن قررت والدتُها، بعد مراقبة حال ابنتها، أن تنقلها منها. فقد لاحظت عليها علامات الوهن والانطفاء، وبدت كأنها تذبل شيئًا فشيئًا، وتبيّن لاحقًا أن سبب ذلك هو سوء التغذية وقلة الطعام المقدم في المدرسة. ولذا، قررت الأمُ أن تعهد بتعليم ابنتها إلى معلمةٍ خاصة، اختصرت صوفيا اسمَها في مذكراتها الخاصة باسم السيدة «بي» (Miss B)، وهي مربية ذات علم وخلق، كانت قد انتقلت للإقامة في مدينة رامسجيت (Ramsgate)، الواقعة في جنوب شرق إنجلترا.

ومع هذه المعلمة الجديدة السيدة «بي»، لم يغب البعد الديني أيضًا، بل كان ركنًا أساسيًا في برنامج التربية. فقد اعتادت أن تأخذ صوفيا إلى الكنيسة مرات متعددة في الأسبوع، كما كانت تطلب منها أن تكتب الآيات التي تمّت دراستها كل يوم، في دفتر خاص، وأن تتأمل في معانيها، وتحاول فهمها فهمًا عميقًا.

غير أن أبرز ما يستحق الذكر في هذه المرحلة هو رسالة طريفة أرسلها والد صوفيا، يُمازح فيها ابنته على سبيل الدعابة والتفكّر، فقال لها: «لماذا يُعدّ من الخطأ أن نقاوم الاعتداء أو الظلم الذي يقوم به البابا؟ وإذا لم تستطيعي الجواب، سأخبرك أنا!» وكان السؤال مصوغًا بنبرةٍ مازحة، لا يُنتظر منها فيه جوابٌ جدي، بل يُراد به أن يُداعب خيال الطفلة، ويثير فيها بعض التفكير.

لكن صوفيا، بما عهد فيها من جدّية وميلٍ إلى التفكير والتحليل، لم تدرك أن السؤال من قبيل المداعبة، بل تلقّته على محمل الجد، وأخذت تُفكّر فيه تفكيرًا دينيًا عميقًا، ثم شرعت في كتابة ردٍّ مُفَصَّل، تُجيب فيه عن السؤال، مستندة إلى ما تعلمته من عقيدتها وفهمها الديني في تلك السن الصغيرة فقالت:

وأمّا ما سألتني عنه، يا أبتِ، من قولِك: «لِمَ يُعَدّ من الخطأ مقاومة الظلم البابوي؟» فإني لا أرى في الأمر وجهَ خطإٍ أصلًا، بل أراه الحقَّ البيِّن والصوابَ المَكين. وكيف يَستقيم في العقل أو يَسكن في الضمير، أن يُلام عبدٌ غيورٌ على دين الله، أنكر بقلبه ولسانه وجوارحه ما فيه اعتداءٌ على كلمة الله، وانتقاصٌ لقدره وشرعه؟ أما قال الكتاب المقدس: «لا يستطيع أحدٌ أن يأتي إلى الآب إلا بي»؟ فكيف يُقال لنا بعد ذلك: إنّ السبيل إلى الله إنما يكون عبر العذراء والقديسين أو القساوسة؟! بل الحقّ أنّه لا سبيلَ إلى الله إلى بالله، وبواسطته وحده، لا شريك له في ذلك.

وقد يُغالط المغالِطون فيقولون: «بل هذا [الظلم الواقع] قَدَرُ الله وإرادتُه، فلا تعترضوا»، وقد يحتجّون بما وقع لبني إسرائيل من الابتلاء، ويقولون: «إنّ الاختبار الذي وُضِع أمامهم إنما كان بمشيئة الله». لكنني أقول: إن [بني إسرائيل] قد نُهوا عن الإبقاء على ما يُغضب الله، وأُمروا أن يُبعدوا تلك الضلالة عن أنفسهم، وأن يُطهّروا الأرض منها.

فكذلك نحن اليوم، ما هذا «العدوان البابوي» إلّا فتنةٌ وضعها الله في طريقنا، ليَبلُوَ صدقَنا ويختبر عزمَنا: هل نُداهن ونُجامل، أم نقف في وجهه صادقين، ولو كلّفنا ذلك أرواحنا؟

أما أنا، فإنّي أرى أنه لا يُنال رضا الله إلّا برفض الظلم والعدوان والقهر ومجاهدته، وليس بالرِّضا به والخضوع له. وإن كنتَ يا والدي أدرى مني وأعلم، فبلّغني رأيك، وبيِّن لي لِمَ تُعدّ مقاومته خطأً، إن كان الأمر كذلك في ميزان حكمتك؟

وإذ أروي هذا الجواب البديع على تمامه، فلست بصدد التعليق عليه أو الخوض في شرحه إذ فيه من الجمال ما يغني عن التعليق، وإنما أمضي منه إلى رسالةٍ أخرى خطّتْها صوفيا بيدها إلى والدها، رسالة لا تحتمل التقديم، ولا تحتاج إلى توطئة، فقد اجتمع فيها من البيان صفاؤه، ومن الصدق وهجه، ومن الجمال رقّته، ما يُسقط الحاجة إلى تعليقٍ أو تفسير، ويُغني عن كل مدخلٍ أو تمهيد. كتبت صوفيا إلى والدها تقول:

يا أبتِ الأكرم، وسيّدي الأعز،

إني لأخشى أن يكون في قلبك قلقٌ عظيمٌ عليّ، فقد بدا لك أني لم أُظهر براهين واضحة على قلبٍ نقيٍّ جديد، لكن صدقًا، فإن في نفسي من العواطف ما يعجز لساني عن الإفصاح به، حتى لك.

إنِّي لا أُحسن الحديث، فكلّما جرت محاولةٌ للحديث عن هذا الأمر، قلبتُه إلى هزلٍ وسخرية، لكنني وجدت في القلم براحًا، وفي الكتابة ملاذًا، فها أنا أكتب إليك، إذ لا أقوى على النطق. وقد سطَّرتُ بعض الأسئلة، ثم حاولتُ أن أُجيب عليها، كما لو أنني أقف بين يدي الله. فصدِّق، صدِّق كلّ كلمة.

١. إنْ متَّ الآن، فما عاقبة أمرك؟ وهل تقدر أن تُقبِل على الموت بغير رهبة؟

لا أدري ما مصيري، لكنني أخشى أن أُلقى في عذابٍ أبديّ. فلا تظن أني أقدر أن ألقى الموتَ بثبات، فهاجس الجحيم يملأ قلبي.

٢. ما أول شعورٍ يثور في صدرك إذا وُجدتَ بين يدي الحَكَم، الديّان الحيّ، قاضي الأحياء والأموات؟

أظن أنه الخوف، ثم الخوف، غير أني أرجو أن ألجأ إلى وعود المسيح الممنوحة للخطّائين الضالين.

٣. لو جاءك المسيح هذه الليلة، وسألك: «أتحبّني؟» فبماذا تجيبه؟

أقول: نعم، يا رب، وإن كنتُ مذنبةً، باردةً، عديمةَ الإحساس، إلا أنني أقولها بغير شك أو تردد: إنّي أحبّك كثيرًا. كثيرًا ما أشعر بحرارة قلبي تهفو إليك، وتحدِّثني نفسي بأنني سأحبك يومًا حبًّا أعظم مما أنا عليه الآن بكثير.

٤. هل تستطيع أن تقول أمام الله صدقًا: «إنني أجتهد أن أعيش كما أرجو أن أموت»؟

لا، أخشى أن أقول ذلك، وإن كنتُ أحيانًا أجتهد أن أفعل ما يُرضي المسيح.

٥. هل أنت واثقٌ من أن دينك ليس قشرةً فارغة، بل ينبض بالحياة في قلبك، ويمنحك أثرًا واقعيًا؟

أعلم أنني أقول كثيرًا ما لا أؤمن به، بل لقد عصفت بي الشكوك حتى كدتُ أشكّ في وجود الله. ومع ذلك، فقد عشتُ لحظاتٍ نادرةً من الصفاء، شعرتُ فيها صدقًا أن المسيح لي، وأنا له. لكن الكآبة تغلِّف روحي، وتُسدل ستارًا كثيفًا على قلبي.

٦. هل تؤمن في قرارة نفسك أنك خُلِقتَ من جديد؟

لستُ على يقين، وأخشى ألّا أكون كذلك. مع أنني في بعض الأحيان شعرتُ باقتناعٍ شديدٍ بأني ابنة لله.

٧. هل ترغب بحقّ أن تكون كذلك؟

أجل، بكل شوقٍ وصدق. كلما لمَسَتْ كلماتٌ أو مشاعر ذلك الوترَ الحيَّ في قلبي، ذرفتُ دموعًا غزيرة. غير أنني — في الغالب — أشعر بجمودٍ شديد، وبلادةٍ تجاه روحي.

٨. هل تعتقد أنك ذقت طعم الصلاة الحقيقية؟

بكل تأكيد. وقد استُجيبت لي دعواتٌ، كانت من الكرامات الباهرة.

٩. أين تكون بعد مائتي عام من الآن؟

في الجنة — أرجو وأؤمن بذلك — فإني أعتقد أن الرب قد بدأ عملًا صالحًا في داخلي.

وإذا كانت صوفيا، وهي بعدُ زهرةٌ صغيرة في ربيع العمر، قد تطلّعت بقلبٍ مؤمنٍ وروحٍ تواقة إلى الجنّة بعد مئتي عام، فإنِّي، وقد انقضى على رحيلها نحو مئة وثلاث عشرة سنة، أسأل اللهَ الكريمَ الرحيمَ، واسعَ الفضل والمنّ، أن يكون قد أجاب دعاءها، وحقّق رجاءها، وأسكنها منازلَ الصالحين، في ظلالٍ وارفةٍ، وجنانٍ عالية، وأن تكون روحُها الطاهرة في دار الكرامة، تتنقَّل في رياضها، وتَرتقي في درجاتها، قد أُلبِسَت النور، وأُكرِمَت بالحُبور، ونالت من المولى جزاءَ الإيمان والصبر والصدق.

لكنّ القارئ لرسالة هذه الفتاة الصغيرة — التي لم تبلغ من العمر سوى إحدى عشرة سنة — لا يملك إلا أن يتأمّل في قسوة التربية الدينية التي نَشَأَتْ عليها، والتي نشأنا نحن عليها كذلك. فإذا كانت صوفيا، وهي لم تبلغ بعدُ سنَّ التكليف، يمتلئ قلبُها بالخوف من النار، ويلاحقها هاجس العذاب والموت، فبأيّ حالٍ نُربّي الأطفالَ على الفعل قبل الفهم، وعلى الخوف قبل الرجاء؟

ولا أنسى أنِّني نشأتُ على التربية ذاتها؛ تربية لا تعرف من الدين إلا عذاب القبر، ولا من الآخرة إلا صور الهلاك، ولا من الموت إلا سكراته، ولا من الله إلا غضبه، ولا من الحساب إلا ناره. أتذكّر تلك الصورة التي انتشرت على أجهزة كمبيوتر كل واحد فينا ونحن صغار، صورةُ شابٍّ عُذّب في قبره، قيل إنَّ الأرضَ لفظته بعد دفنه، فخرج جسده مشوّهًا، مقلوب العينين، أزرق اللون، ظاهرةٌ عليه آثار العذاب، فصار يُعرض علينا — نحن الأطفال — على سبيل العظة والترهيب. وقد كنّا وقتئذٍ صغارًا، لم نعرف بعد ما هي الحياة، فإذا بالناس يحدثوننا عن الموت.

إنّ هذا الأسلوب القاسي — وإن ظُنّ أنه سبيل للهداية — يزرع في الطفل شعورًا بالذنب المزمن، ويغرس فيه صورةً قاتمة عن الدين، تُلاحقه في أحلامه ويقظته، وتسرق من قلبه الطمأنينة التي ينبغي أن تكون أول ما يجده في علاقته بالله. فالخوف الفطري شيء، والرعب المصنوع شيء آخر. والموعظة التي تُبنى على الرجاء أرقى وأبقى أثرًا من تلك التي تُبنى على

الترويع. أما حين يُنتزع الطفل من براءته، ويُقذف في قلبه الهلع باسم العقيدة، فإننا لا نبنيه، بل نُهشّمه من الداخل، ونترك فيه شروخًا قد لا تُرمّمها السنوات.

وأقسم بالله غير حانث، إنّ آثار تلك المشاهد لا تزال راسخةً في نفسي، ولا أظنها ستزول، مهما كبرتُ، أو قرأتُ، أو حاولتُ الفهم والتجاوز. فما زال في أعماقي شيءٌ من ذاك التشويه، وما زالت صورة الله في قلبي مائلةً عن استقامتها، مثقلةً بالخوف، مشوبةً بالرهبة، لا كما ينبغي أن تكون، ملاذًا، وطمأنينة، ومصدرًا للرحمة.

أعود فأقول: استمرّت صوفيا في تعليمها عند السيدة «بي» لبعض الوقت، وقد وصلت مدة إقامتها معها إلى سنةٍ ونصف، ثم غادرتها وانتقلت إلى مدارس أخرى لاحقًا، غير أنّ هذه المرحلة، على امتدادها، لا تحمل في طيّاتها ما يَستوجب الوقوف عنده طويلًا، إذ لم يكن فيها ما يُلفت النظر أو يستحق أن يُعرض على القارئ.

ومع ذلك، نُشير — على سبيل الإيجاز — إلى أنّ صوفيا واصلت تنقّلها بين عدّة مؤسسات تعليمية، حتى إنها ارتادت ست مدارس مختلفة. وكانت أحيانًا تُنقَل من مدرسةٍ ثم تعود إليها بعد حين، فلم يُكتب لها أن تستقر طويلًا في موضع واحد. وكان بعض أساتذتها مغرمين بها، يستقبلونها في كل مرة بفرحٍ وسعادة بعودتها. لكن هذا الوجه المضيء من شخصيّتها لا يلغي وجود جانب آخر سنراه يرافقها في أغلب محطات حياتها، وهو ما يطفو بجلاء في الرسالة التي بعثتها أمها إليها وهي لا تزال طفلة صغيرة. ويبدو من خلالها أنها كانت ذات طبعٍ عنيدٍ، وسريعة الانفعال، وهي سماتٌ ستُعرّضها لاحقًا لمواقف حرجة ومشكلات متكرّرة.

غير أنني لا أريد أن أقدّمها في هذا الكتاب على هيئة مخلوق ملائكيّ، بل أحرص على أن أنقل صورةً حقيقيةً عنها، صورةً لإنسانٍ من لحمٍ ودم، فيه من النور كما فيه من الظلام. نعم، كانت عنيدة، وأحيانًا إلى حدٍّ يتجاوز المقبول. وإن كانت الكتابة عن الأشخاص — خاصّة في الكتب — كثيرًا ما تميل إلى تجميل الشخصيّات وتقديسها، فإنني لا أُريد للقارئ أن يُحب صوفيا لأنها خالية من العيوب، بل لأنها إنسانة حقيقيّة، تُصيب وتُخطئ، تُضيء وتُظلم، وتبقى جديرة بالاحترام والتقدير رغم كل شيء.

بل إننا إن تأملنا سير أولئك الذين حاول التاريخ أن يرفعهم فوق مصاف البشر، لوجدنا فيهم ما يُذكّرنا دومًا بطبيعة الإنسان وضعفه. فـ «إسحاق نيوتن» — الذي سعى البريطانيون وغير البريطانيين إلى تأليهه بوصفه أعظم عقلٍ علمي في التاريخ — لم يكن كما صوّرته الأساطير الحديثة على أنه عقلٌ رياضيٌ نقيٌّ يعيش في برجٍ عاجيّ. فقد كتب في الدين والخيمياء أكثر مما كتب في الفيزياء والرياضيات، وخصّص سنواتٍ طويلةً من حياته لدراسة نبوءات الكتاب المقدّس، وكان يؤمن بأن العالم المسيحي سينتهي سنة ٢٠٦٠ نتيجة دراسته لرموز الكتاب المقدس. واعتقد بأن هناك أسرارًا خفيّة في الكتاب المقدّس تُكشف للصفوة فقط.

أما على المستوى العملي، فقد كانت له جوانب استبدادية في تعامله مع مخالفيه، بل ربما وصلت إلى حدّ الانتقام الشخصي؛ فحين أصبح رئيسًا للجمعية الملكية (Royal Society The) استخدم سلطته في تصفية خصوماته العلمية. ففي النزاع الشهير مع العالم الألماني «جوتفريد لايبنتز» (Gottfried Leibniz) حول أسبقية اكتشاف علم التفاضل والتكامل، شكّل «نيوتن» لجنة للتحقيق في القضية، كتب هو بنفسه تقريرها دون أن يعلن ذلك، ودان فيه «لايبنتز» صراحةً، فكان هو الخصم والحكم في آنٍ واحد. أما «روبرت هوك» (Robert Hooke)، وهو أحد العلماء الروّاد في البصريات والميكانيكا، فقد كان بينه وبين «نيوتن» عداء مستحكم، إلى درجة أن «نيوتن» رفض الاعتراف له بأي فضل.

وقد بالغ «نيوتن» في الشك والريبة، وكان لا يتسامح مع النقد، ولا يحتمل أن يُنسب الفضل لغيره في أي فكرةٍ شارك في صياغتها. كما اتُّهِم بتهميش عدد من زملائه، والإضرار بمسيرتهم العلمية، وهو ما يجعلنا نقف أمام شخصيةٍ معقّدة، عظيمة في إنجازها، ولكنها ليست خالية من العيوب.

ومن أروع ما قرأتُ في هذا الباب كتابٌ ماتعٌ بالغ الذكاء، عنوانه «المثقفون» (Intellectuals) للمؤرخ الإنجليزي «بول جونسون» (Paul Johnson)، وهو عمل فذّ يتتبّع فيه المؤلف سِيَر مجموعة من أعلام الفكر والفلسفة والأدب، مثل جان-جاك روسو، وكارل ماركس، وجورج أورويل، وتولستوي، وسارتر، وآخرين، كاشفًا النقاب عن التناقض الصارخ بين ما كتبوه ونادوا به من مبادئ، وبين حياتهم الشخصية التي حفلت بالنَّزَق، والتسلط، والنرجسية، والأنانية، بل أحيانًا بالإساءة لمن حولهم. يريد «جونسون» أن يقول: إن كثيرًا من أولئك الذين أُلبِسوا رداء الحكمة والفلسفة والعقلانية كانوا — في حقيقة الأمر — بشَرًا مثقلين بالعيوب، وتضجّ حياتهم بما لا يتناسب أبدًا مع صورهم المثالية. والجميل أن هذا الكتاب قد نُقِل إلى العربية بلُغة رفيعة وسلسة، على يد المترجم الكبير الأستاذ «طلعت الشايب» ونشرته مؤسسة هنداوي، لمن أراد أن يستمتع بقراءته بالعربية دون أن يفقد شيئًا من جماليته الفكرية والأدبية.

أعود فأقول: في هذه الفترة التي تنقلت فيها صوفيا من مدرسة لأخرى، كتبت إحدى زميلاتها التي كانت معها في المدرسة، وكانت تدعى «لوسي بورتال» (Lucy Portal) تقول:

> كنت أصغر من صوفي — كما كنا نُسميها دائمًا — لذا لم تكن بيننا علاقة وثيقة، ومع ذلك لم أنسها أبدًا. فقد كانت شخصية قوية وذكية للغاية، بل أذكى حتى من معلمتنا في قدراتها العقلية، وتركت أثرًا دائمًا في كل من تعامل معها. وكلما ورد اسمها في حياتي لاحقًا، ارتسم أمامي مشهد فتاة شابة ذكية، تطرح أسئلةً حيّرت مَن تُشرف على تعليمها.

ذات يوم، كنا نسير في منطقة تُعرف بـ «داونز»، وبرفقتنا معلمة مساعدة تمشي خلفنا، فرأت صوفي حجرًا كبيرًا بجانب الطريق فجلست عليه. فقالت لها المعلمة: «ما الذي تفعلينه؟». فأجابت صوفي: «أنا متعبة ويجب أن أستريح». فردّت المعلمة: «انهضي فورًا! أتظنين أننا جميعًا سننتظر ونقف لأجل متعتكِ أنتِ وراحتكِ بهذه الطريقة؟». فقالت صوفي بهدوء: «من المستحيل أن يقوم الإنسان بما يتجاوز طاقته ومجهوده». ولكن التهديد لم يُجدِ نفعًا. وفي النهاية، فقدت الآنسة أعصابها وقالت: «صوفي، افهمي جيدًا، إن لم تنهضي، فسأتركك هنا وأستدعي شرطيًا ليأخذك». فردّت صوفي مبتسمة: «آه، تلك فكرة طيبة. أنا واثقة أنه سيكون عونًا كبيرًا لي. لكن، هل يمكنك أن تطلبي شرطيين؟ فأنا لا أظن أن شرطيًا واحدًا سيتمكن من حملي، بينما قد ينجح اثنان.»

وذات يوم طلبت المدرسة من التلاميذ أن يكتبوا بكل صدق أراءهم في بعضهم البعض، فكتب بعض زميلات صوفيا متحدثات عنها ومنتقدات لها قائلات: «لا شك أن صوفي ذكية إلى درجة لافتة، لكنها — للأسف — تدرك هذه الحقيقة، وتسعى دائمًا لإبراز ذكائها في كل فرصة تتاح لها. إنها مثال للصدق، والثقة بها لا غبار عليها. كما أنها انفعالية للغاية، لكنها ما تلبث أن تندم بشدة بعد نوبات غضبها. وهي عطوفة بطبعها». وكتبت أخرى تقول:

إن صوفي فتاة عاطفية للغاية، وتملك في داخلها من الخير أكثر مما يظنه الناس. فهي صادقة وجديرة بالثقة. غير أنّها تتميز بدرجة عالية من الزهو بالنفس، والاعتماد الشديد على نفسها وفقط، والاعتداد الكبير بكبريائها. لا تقاد إلا بدافع من المودّة والحب أو بدافع من الرغبة في أن تُظهر نفسها لتنال إعجاب الآخرين. وهي ذات موهبة كبيرة وذكاء لامع، وتحب أن يُنظر إليها على أنها شخصية استثنائية، خارجة عن المألوف، وقد نجحت فعلًا في ذلك. إلا أنّها تفتقر إلى الرقة في المشاعر والنعومة في التعامل.

وكتبت طالبةٌ ثالثة تقول:

ذكية، وشغوفة، وتحب غيرها. تحمل في طبعها عادات سيئة كثيرة، لكنها تحاول — في الآونة الأخيرة على الأقل — أن تتغلب عليها. فيها من المقوّمات ما يؤهلها لتكون إنسانة عظيمة. لكنها متعلقة ومتمسكة بآرائها إلى حد الإفراط الزائد. وأظنّ أن هذا الوصف دقيق لشخصيتها.

تلك الصفات التي لاحظتها زميلات صوفيا سنُدرك لاحقًا أنها كانت أوصافًا صادقة كل الصدق، وتكشف عن ملامح حقيقية من شخصية صوفيا. فقد كانت، منذ صغرها، تدرس في مدارس داخلية، مما يعني أنها لم تكن تقيم مع أسرتها إلا لفترات قصيرة، لا تتجاوز بضعة أيام

أو أسابيع خلال العام الدراسي، وربما زاد ذلك من استقلالها وحدة مزاجها. وخلال تلك الفترات القصيرة التي كانت تقضيها مع أسرتها، لم تكن صوفيا سهلة المعشر، بل ظلت على عنادها، متمسكةً برأيها، حادة الطباع في كثير من المواقف، حتى أثقلت كاهلَ والديها بسلوكها وشدة مراسها. ولعلّ ما كتبته والدتُها لها في أحد الخطابات يكشف شيئًا من هذه المعاناة، ويُظهر لنا كيف كانت الابنةُ المتفوقةُ مصدرَ مشقة نتيجة لقوة شخصيتها، ورفضها المستمر للترويض. قالت أمُّها في رسالةٍ كتبتها إليها:

> تلقيتُ رسالتك، وسُررنا كثيرًا بسماع خبر وصولكِ سالمًة، ولكن، يا ابنتي العزيزة، كادت كلماتُكِ أن تبكيني. كانت كلمات رقيقة ومفعمة بالعاطفة، لكنها نقيضٌ تامٌ لما تفعلينه... إما أن تكون ابنتي صادقةً فيما تكتب، أو لا تكون. فسلوككِ يناقض تمامًا ما تدّعينه في رسالتك. ومن الصعب أن يتصوّر المرء تصرّفًا أشدّ حزنًا وطيشًا من سلوككِ هذا.
>
> لقد أسأتِ التصرف إلى حدٍ جعلني أشك في قدرتي على احتمال يومٍ آخر دون أن أُنهك وأُطرح على فراش المرض، وربما ما كنتُ لأتعافى بعدها أبدًا. أما أن تعودي إلينا وتمكثي معنا لثلاثة أسابيع متواصلة، فهذا أمر مستبعد تمامًا، ما لم تكتسبي من الحكمة — كما يفعل الأطفال في مثل سنك — ما يجعلكِ تدركين أن السبيل إلى سعادتنا وراحتنا. ولكي أتمكن في وضعي الصحي الضعيف من استقبال وجودك، لا بد أن تكوني طيبة السلوك، حسنة الخلق. وحين يظهر فعلاً أنكِ تشعرين بندمٍ صادق على ما بدر منكِ من إساءة، فربما — في وقت لاحق — نسمح لكِ بالمجيء إلى المنزل لأسبوع، وإذا وجدتكِ مخلصةً في وعدك (وهو ما لا تفعلينه الآن)، فسنرحّب بكِ مرارًا وتكرارًا.
>
> وقد قال والدكِ إنه يشعر بأنه مهما فعل، فلن يكون كافيًا ليُسعدك سعادةً تامة، ولكنكِ أنتِ — بتصرفاتكِ — تدمّرين سعادتكِ وسعادتي، وقد قال الأطباء إنهم لن يسمحوا لنا بالبقاء معًا. فكّري مليًّا، يا ابنتي، في حماقتكِ العظيمة، وفي خطيئتك.

لكن لإيجاز واختصار تلك المرحلة أقول: إنها استمرت في التنقل من مدرسة إلى أخرى، وفي بعض الأوقات طُردت من المدرسة نتيجة لعنادها الشديد وعدم التزامها بما يجب على الفتيات الالتزام به. كما تركت عائلتُها مدينةَ هاستنجز (Hastings) وانتقلت للعيش في مدينة برايتون (Brighton)، وذهبت صوفيا إلى مدرسة في لندن في منطقة «نوتنج هِل» (Notting Hill) الشهيرة، وكانت تستمع بوقتها ودراستها في تلك المدرسة، حيث كان التدريس بها أفضل بكثير من المدارس والمعلمات التي درست عندهن. وفي هذه المدرسة درست صوفيا الجبر

والحساب بصورة كبيرة، ووجدت نفسها مغرمة بالرياضيات، شديدة الذكاء فيها، سريعة البديهة في حل مسائلها.

وممّا لا يخفى على القارئ الكريم، أنّ للكنيسة سبعة أسرار مقدّسة، أوّلها سرّ المعمودية، وثانيها سرّ الميرون، ويُعرف كذلك بـ «سرّ التثبيت». وتُجري الكنائسُ الشرقيةُ عادةً هاتين الشعيرتين في وقتٍ واحد، أو في توقيتٍ متقارب، وذلك حين يكون الطفل لا يزال صغيرًا، فيُعَمَّد ويُثبَّت في آنٍ معًا. أمّا في الكنائس الغربية، فإنّ الأمر مختلف؛ إذ يُفصل بين الشعيرتين، فيُعَمَّد الطفل في صغره، ثم يُؤجَّل تثبيته إلى حين بلوغه سنّ النضج، ليكون وعيُه تامًا واستعداده الروحي مكتملًا. وسرّ التثبيت، كما تجريه الكنيسة الغربية، هو طقس ديني تُقام فيه مسحة مقدّسة بالزيت، يُجريها الكاهنُ على المؤمن، لتكون علامةً على تثبيته في الإيمان، وتأكيدًا لولائه للديانة المسيحية وللسيّد المسيح — عليه وعلى جميع أنبياء الله ورسله الصلاة والسلام —. وحين بلغت صوفيا السنَّ التي تُؤدَّى فيه هذه الشعيرة، وآن أوان تثبيتها بحسب طقوس الكنيسة، كتبت إلى أمّها رسالة مؤثرة تطلب فيها النصح والمشورة تقول:

> لقد طُرح موضوع التثبيت الكنسي مجددًا، ولا يسعني إلا أن أقول إنني مصدومة من الطريقة التي يُناقش بها. فالأسئلة التي تُطرح دائمًا هي: «كم عمرك؟» و«هل والدك يرغب في تثبيتك؟» ولا أحد يسأل: «هل أنتِ مستعدة لذلك؟» أو «هل ترغبين فيه حقًا؟». وكأن الأمر محاضرةٌ تاريخيةٌ يجب حضورها، وليس تجربةً دينيةً روحيةً يجب أن أعيشها بروحي وعقلي. وأنا أرى هذا خطأً كبيرًا. لقد افترضتْ الآنسة (H) تلقائيًا أنني سأُثبت، وقامت بتسجيل اسمي دون استشارتي. فرفضتُ بأدب، وقلت لها: «لا شكرًا، يا آنسة H.»، فغضبت جدًا. وأخبرتُها أنكِ أعطيتني الحريةَ الكاملةَ في هذا القرار، لكنها لم تصدقني، وأصرتْ أنني أرفضُ فقط من باب العناد.
>
> لكن الحقيقة يا أمي أنني أرغب بذلك، وأظن أنه سيفيدني كثيرًا. أنا أشتاق لتناول العشاء الرباني معكِ. فهل تسمحين لي بأن أتم التثبيت من المنزل؟ — أي أن أقضي يوم التثبيت في البيت، حتى أستطيع أن أركز في الأمور الجوهرية — مثل العهود التي سأقطعها أمام الله — وليس على مظهري أو على مدى نجاحي في الاختبارات.
>
> ربما كان من الأفضل أن أؤجل الأمر لسنة أخرى، لكنني لا أعتقد أنه يليق أن أطلب بركةَ الله، وأنا أتهرب من الاعتراف بانتمائي له بشكل كامل.
>
> آه، يا أمي، كم أتمنى لو كنتِ هنا معي! لكن يبدو أن الله ترك لي هذا القرار وحدي في كل مرة يُطرح فيها موضوع التثبيت. كما لا أظن أنك سترفضين طلبي،

ولا أن تمنعيني من هذه الخطوة، إلا إذا خشيتِ أن يكون الأمر مرهقًا لكِ. فوجودك ليس ضروريًا يا أمي، فقط أحتاج إلى إذنك وبركتك.

غادرتْ صوفيا مدرسةَ «نوتنج هِل» في لندن، وانتقلت إلى مدرسةٍ أخرى في مدينة «برايتون»، حيث كان يقيم والدَاها، ومكثت فيها حتى أتمّت ما كان مُتاحًا للفتيات من التعليم في تلك المرحلة. ثم، في عام ١٨٥٧، أنهت دراستَها تمامًا وغادرت المدرسة.

وهنا برز السؤال الذي لا مفرّ منه: وماذا بعد؟ ولم يكن الجواب بحاجةٍ إلى كثيرٍ من التفكير أو بحث؛ فالمسار المُعتاد لفتاةٍ في مثل سنّها، بعد إتمام التعليم، هو الزواج. ومن هنا بدأ الحديث بين صوفيا وأمِّها يتطرق إلى هذا الأمر، وتكرّر الحوارُ بينهما حوله، ما بين احتمالاته ورغباته وشروطه.

لكن صوفيا لم تكن متفائلةً، ولم تكن ترى أنَّ الأمرَ ميسورٌ؛ فقد كانت تؤمن أن الصفات التي تطلبها في شريك الحياة نادرة الاجتماع، وإن اجتمعت في رجل، فمن غير المضمون أن يكون ذلك الرجل راغبًا فيها أو مشاعره تجاهها مماثلة. وفي لحظة تفكير صادقة لما يدور في نفسها، كتبت تقول:

> كنت أحدث أمّي بشأن الزواج — أراجِع معها مدى إمكانه، بين القبول والرفض. قلت لها: إنني لا أظن أنّي سأتزوج يومًا، لأنني أعتقد أنني أبحث في الرجل الذي أقبله زوجًا عن خصالٍ كثيرة، نادرًا ما تجتمع في إنسان واحد؛ ولهذا، فمن غير المُرجَّح أن أجد رجلًا بهذه الصفات، ثم يكون في الوقت نفسه راغبًا في الاقتران بي من دون باقي نساء العالمين.
>
> دعيني أفكّر… ما الصفات التي لا أستطيع التنازل عنها؟ أظنها كالتالي: أن يكون رجلًا مهذّبًا، نبيل الطباع، مؤمنًا إيمانًا صادقًا بالمسيحية، متسامحًا، منفتح الفكر، لا يتعصّب لطائفة أو مذهب. وأن يكون ذا عقل سامٍ ورفيع، يُشرفني أن أذعن له، ويسعدني أن أتوافق معه. وأن يملك إرادةً قويةً، يكون من الممتع أن أشاركه الرأي، وأجد متعةً في مجاراته. وأن يكون جميلَ الهيئة أو على الأقل مريح المظهر — فإنني لا أستطيع أن أُحبّ رجلًا لا أجد في وجهه شيئًا من الجمال، حتى لو لم يكن جميل الهيئة بشكل كبير. ثم أخيرًا، أن يكون ميسورَ الحال، بحيث إن جُمِع دخلُه إلى دخلي يرفعنا فوق خطّ الفقر، ويمنحنا حياةً كريمة لا تشوبها الحاجة، حتى وإن لم تكن حياةً مليئةً بالترف.

في تلك الفترات، كانت صوفيا تمر بحالة من الاكتئاب الشديد. ساورها شك في قدرتها على محبة أي شخص لفترة طويلة، وبدأ يساورها الخوف من أن تفقد عقلها، أو أن تُصاب

بالجنون، أو أن تموت في سن مبكرة. ويبدو أن السبب الرئيسي وراء هذا الشعور كان الفراغ والملل الذي استبدّ بها بعد أن أنهت تعليمَها، فلم تعد تذهب إلى مدرسة أو تنشغل بأي دراسة.

لكن زيارة فتاتين من أقاربها ساعدتها على الخروج من تلك الحالة. فقد جاءت «إلينور» و«سارة جيكس-بليك» ضيفتين على منزل العائلة في مدينة برايتون، وأقامتا لعدة أسابيع، مضيفتين جوًا من الحيوية والمرح، مما خفف كثيرًا من حدة الاكتئاب الذي كانت تعانيه.

وكانت صوفيا في غاية السعادة حين علمت أن «إلينور» ستشاركهم عطلة الأسرة المقبلة في ويلز. وقد كانت تلك العطلة الصيفية تجربةً ناجحةً ومميزةً بكل المقاييس؛ فإلى جانب الاستمتاع بجمال الريف وهدوئه، قررت الفتيات أن يقمن بشيءٍ مفيد. فقد لاحظن وجود مدرسة صغيرة للأطفال في القرية، لكنها كانت تفتقر إلى مُعلِّم دائم؛ إذ كان إسكافيُ القرية يتولى تدريسَ الأطفال كلما سنحت له الفرصة.

عندها قررت الفتيات الثلاث أن يخصصن جزءًا من وقتهن يوميًا لمساعدة الأطفال وتقديم الدروس. وقد قوبلت هذه المبادرة بتقدير بالغ من الأهالي، واستمتعت الفتيات بالتجربة، حتى غدت ذكرى عزيزة عليهن. ويُرجَّح أنَّ تلك العطلة تحديدًا هي التي جعلت صوفيا تفكر لأول مرة في أنَّ التعليمَ قد يكون هو الطريق الذي تبحث عنه، وأنها قد تجد فيه رسالتَها ودورَها الحقيقي في الحياة.

على أن من أبرز المحطات التي تستوقف القارئ في هذه المرحلة من حياة صوفيا، ما وقع في ربيع عام ١٨٥٨، حين تعرّفت إلى الآنسة «أدا بنسون» (Ada Benson)، شقيقة كبير أساقفة كانتربري. وكان هذا اللقاء بعد عشر سنوات من افتتاح مدرسة «كوينز كوليدج» (Queen’s College)، حيث كانت أخت الآنسة «أدا» طالبةً فيها.

وقد ترك حديثُ «أدا» مع صوفيا عن أختها، وعن دراستها في تلك المدرسة الوليدة، أثرًا عميقًا في نفس صوفيا، إذ كشفت لها عن بيئةٍ علمية متقدمة لم تألفها الفتياتُ في ذلك العصر، وعن برامج دراسية فتحت أمام الطالبات آفاقًا جديدة للتعلم والمعرفة.

وقد أثار هذا الحديثُ في نفس صوفيا شوقًا قديمًا، وأيقظ فيها الحنينَ إلى مقاعد الدراسة، بعد أن كانت قد ركَنَت إلى السكون وعافت التعلّم. ومن تلك اللحظة، بدأت فكرة العودة إلى الدراسة تنمو في قلبها، وراودها طموحٌ جديد بالحصول على المزيد من الشهادات، والتوسّع في طلب العلم والمعرفة، بما يفوق ما كان مُتاحًا للفتيات في زمانها.

وقد حاولت الحديث مع والدها بشأن هذا الأمر ورغبتها في الذهاب إلى هذه المدرسة، إلا أنه لم يُبد مرونةً أبدًا ولا سماحًا لابنته في أن تسلك طريقًا جديدًا لم تسلكه زميلاتُها في هذا التوقيت، وهو ما ضايقها كثيرًا وجعلها تدخل في شجارات كثيرة مع والدها بشأن السماح لها

بالالتحاق بتلك المدرسة. لكن ما هي إلا أيام حتى سمح لها والدُها بالالتحاق بتلك المدرسة الجديدة لتبدأ فيها فصلًا جديدًا من حياتها.

بدأت صوفيا دراسة العديد من المواد في تلك المدرسة، فدرست الجبر، والحساب، والهندسة، وعلوم الفلك، والتاريخ، واللغة الإنجليزية، واللغة الفرنسية، وعلوم العقيدة، وتاريخ الكنسية، والعلوم الطبيعية. التحقت بالمدرسة وبدأت دراستها في الخامس من أكتوبر، وبعد أيام من الدراسة والمتعة، وبعد أن أدركت المدرسة أن مستواها يتخطى الكثير من الطالبات، تقدمت صوفيا إلى وظيفة مُدرِّسة في تلك المدرسة وتم قبولها، فكتبت تقول عن هذا الشعور وتلك الحالة التي كانت تمر بها:

ما أهنأ هذا المقام، وما أصفى هذا الزمان! كأنّ الأرض قد رقّت، والسماء قد دانت، وفتحت لي — دون سائر الناس — بابًا من نعيمٍ خالص، لا كدر فيه ولا قيد. لو سُئل النعيم عن موطنه لأشار إلى هذه اللحظة، ولو نطقت السعادة لقالت: «هأنذا». إنها الجنة التي لا يُرتَقب ميعادُها، بل تُقطف ثمارُها في دنيا الناس قبل آخرة الآمِلين. أنا في مقامٍ تسمو فيه النفس إلى عنان العزة، وتشمخ فيه الإرادة على كل قيد قديم.

أنا أعمل، فأزدادُ عقلًا، وأستقل، فأشعر كأنني وُلدت من جديد. ما أكرم العمل حين يُنجز في ظل الحرية، وما أبهى الاستقلال إذا اكتسى بثوب العلم! ذلك هو الكمالُ حقًا، لا مجازًا ولا استعارة، بل هو الكمالُ بعينه، في ذروته ومنتهاه.

إنِّي لفي غايةِ السعادةِ والرضا بهذا النمطِ من العيش، حتى ليَغلبُ على ظنِّي ألا أسلوبَ سواه يرضيني، ولا طرازَ غيره يُناسبني. فما بين استقلالٍ تامٍّ، وانشغالٍ نافع، وراحةٍ هانئة، وحالٍ كافيةٍ من غير ترفٍ مسهب، ولا إسرافٍ مُذهِب. أعيش في كفافٍ لا يُعكِّره ضيق، وفي غِنى لا يشوِّههُ فُحشُ الثراء.

ويا لها من حكمةٍ جليلة، بل ويا له من حُسنِ رأيٍ أصيل، أنْ رَضِيَ عنِّي والِدَايَ الحبيبان، وأذِنا لي أن أعيشَ هذه الحياة على هذا النحو. فلقد كنتُ، مذ كنت، أشتهي الاستقلال، وأحنّ إلى العمل، وها قد حصّلت ما رغبت، وما زلتُ أرجو أن أُحدث به نفعًا. وقد قال السيد «موريس» قولًا صدقًا: «إذا وجد المرءُ مركزَه، استقامت حوله الأشياءُ من تلقاء نفسها.» فأنا اليوم، وقد ثَبَّتُّ موضعي، أرجو أن تنمو حولي بقية الأمور، وتُنظِّم نفسَها كما تُنظمُ النجومُ أفلاكها.

وأما والديَّ الكريمين، فإني أرجو — من صميم قلبي — أن أكون لهما عونًا وسلوى، وسكينةً ورحمة، كما كانا لي في صغري سندًا وعناية.

وكما كنتُ في العام الماضي قد أحصيتُ ما أملكه من مال، كما يفعل «بيبس» (Pepys) [1] في مذكراته الطريفة التي أقرؤها هذه الأيام، فقد عدتُ لأُحصي ما لدي. إن لي أربعين جنيهًا في العام لمصاريف الملبس والشؤون الشخصية، وسأزيد عليها ما أتقاضاه من أجر التدريس، وأحسب أني أتلقى من والدي — جزاه الله عني خير الجزاء — خمسين جنيهًا في كل فصل دراسي، تشمل الطعام والمبيت والسفر وما سواها، إلا ما كان من أيام المدرسة وركوب الخيل. وبذلك، فإن ما أملكه نقدًا يقارب مئتي جنيه، ويزيد عليه ما يُنفَق عني مما يُعدُّ في حكم المال، فيُصبح المجموع نحو ثلاثمئة جنيه، وهي، في نظري، الغايةُ الوسطى من الثروة لامرأةٍ عزباء.

وأيُّ أبٍ هذا؟! كريمٌ جوّاد، قلَّ أن تجد له في الناس شبيهًا. يُعطي من غير مَنٍّ، ويبذل من غير تبرُّم، ويُنفق في سبيل سعادة بنيه كما ينفق المُحبُّ على حبيبه. وأيُّ مالٍ هذا؟! ما أُنفِقَ مالٌ قطُّ في موضعٍ أسعدَ نفسًا، ولا جرى في طريقٍ أكرمَ قلبًا، من هذا المال الذي يُنفقه والدي. فواجبٌ عليّ أن أردَّ الجميل، وأقابل الإحسان بالإحسان، وأُعطي كما أُعطيت، وأواسي كما وُصِّيت. بارك الله فيهما، وجزاهما عني خيرًا.

وأما المال، فأنا قانعةٌ به راضية. لا أشتهي أكثر، ولا أطمح إلى زيادة. وهذه حالٌ، وإن قلّ فيها المال، فإني أحببتُ أن أدوِّنها، عسى أن تُذكّرني إن نسيت. ولئن

١- يُعَدّ صموئيل بيبس (Samuel Pepys) (١٦٣٣–١٧٠٣) واحدًا من أبرز الشخصيات في التاريخ الإنجليزي، لا لما قام به من أعمالٍ في حياته الرسمية كموظف كبير في البحرية البريطانية، بل لما خلّفه من أثر أدبي وتاريخي بالغ الأهمية في مذكراته التي كتبها لنفسه في عزلة تامة، دون أن يقصد بها نشرًا أو شهرة. وُلد بيبس في لندن لعائلة من الطبقة المتوسطة، وتعلّم في جامعة كامبردج، ثم ارتقى في السلم الإداري حتى أصبح سكرتيرًا أول للبحرية الملكية، فكان شاهدًا مباشرًا على أحداث سياسية كبرى، وتقلبات زمنية جسيمة. غير أن أعظم ما خلّده في الذاكرة البريطانية والعالمية هو مذكراته اليومية التي بدأ بكتابتها في ١ يناير ١٦٦٠، واستمر فيها دون انقطاع حتى عام ١٦٦٩. كتبها بأسلوب شخصي دقيق، صادق، حيث كان يسجل فيها كل ما يخطر له من مشاهدات وأفكار ومشاعر، بدءًا من سياسيات الدولة الكبرى، وانتهاءً بأدق تفاصيل حياته الخاصة، مثل صحته، وزوجته، وخدمه، ونفقاته، وحتى مغامراته النسائية التي كثيرًا ما دوّنها بشيء من التستر مستخدمًا اللاتينية أو الفرنسية لإخفائها عن القارئ العام. وتكتسب هذه المذكرات قيمتها من كونها وثيقة حيّة نابضة بالحياة عن لندن في القرن السابع عشر، حيث وصف بيبس الطاعون العظيم الذي اجتاح المدينة عام ١٦٦٥، ثم الحريق الهائل الذي دمّر معظمها عام ١٦٦٦، كما دوّن مشاهداته عن الحياة اليومية، وأحوال الناس، والعادات الاجتماعية، والتدين، والموسيقى، والمسرح، والأسواق، والسياسة، والوظيفة العامة. وتمتاز هذه اليوميات، رغم طابعها الخاص، بجمال الأسلوب، وحيوية السرد، ومزيج مدهش من الطرافة والصدق والتحليل.
ظلّت هذه المذكرات مخطوطة غير معروفة حتى القرن التاسع عشر، حين قام «جون سميث» بفك رموزها المعقدة، ونُشرت أول مرة عام ١٨٢٥، ثم توالت الطبعات المنقحة لاحقًا حتى أصبحت تُعَدّ اليوم واحدة من أعظم اليوميات الشخصية في الأدب العالمي، وأساسًا لا غنى عنه للمؤرخين والأدباء لدراسة تلك الحقبة. ومما يزيدها أهمية أنها تُظهر لنا بيبس لا بوصفه بطلًا ولا مثاليًّا، بل إنسانًا بشريًّا بكل تعقيداته وتناقضاته. وقد حاولت البحث عن ترجمة لمذكراته تلك باللغة العربية فلم أجد لها ترجمة حتى الآن.

بدا القول «أنا قانعة» مثيرًا للضحك، فوالله إني لقانعة، وأستحي من نفسي إن لم أكن كذلك.

ومع ذلك، فلن أُخفي ما أنا فيه الآن: لا أملك من المال اليومي — في هذه اللحظة — إلا تسعة شلنات وتسعة بنسات، ولستُ أرى في الأفق إلا أربعة أسابيع كاملة قبل أن تأتي الدفعة التالية!

قد يمرّ القارئ على هذه الرسالة، فيقرؤها قراءة العابر المستبشر، فيجد فيها من البهاء ما يملأ النفسَ سرورًا، ومن الطرافة ما يُغري بالابتسام، فلا يملك إلا أن يتوقف عند مشهد جميل، وهو فتاة لا تزال طالبةً على مقاعد الدرس، ثم لا تلبث أن تُرقَّى إلى منصب الأستاذة، فتصير تدرِّس في المساء مَن كانت تجلس بينهن في الصباح، وتخاطب بالعلمِ مَن كانت تتلقاه معهن.

كل ذلك يراه القارئ بعين السرور، ويعدُّه من مباهج الحياة. غير أن والدها قد توقف عند موضع في الرسالة لا يكاد يلتفت إليه أحدٌ اليوم، ولا يخطر لهم على بال، بل لا يثير فيهم شيئًا! لم يُنكر تعليمَها، ولا استنكر مقامَها، لكنه توقف كثيرًا عندما قالت صوفيا أنها طارت معلمة وتأخذ راتبًا على عملها هذا. لقد ثارت نفس الأب لأنه كان يعتقد أن المالَ لا يليق أن يُدفع لامرأةٍ شريفة النسب، عالية الأصل. فكتب إليها قائلًا:

حبيبتي، لم أعلم إلا الآن أنكِ تفكرين في تقاضي أجر مقابل عملكِ مُدرِّسة. وإن في هذا ما لا يليق بمقامكِ، بل هو دونكِ يا عزيزتي. إني بحق لا أستطيع أن أوافقكِ على هذا الرأي. خذي هذا المنصب باعتباره موضع شرف وخدمة للخير، وسأكون مسرورًا بذلك، وأؤكد لكِ أنكِ لن تكوني من الخاسرين، بل على العكس تمامًا.

أمَّا أن تتقاضي أجرًا على هذا العمل، فذلك يُبدِّل جوهره كليًا، وينزع عنه كلَّ سموٍّ، ويجعلكِ في أعين الناس أقرب إلى مَن يعمل لطلب الرزق لا لرفعة العلم ولا لخدمة المجتمع.

لا تشغلي بالكِ بهذه المسألة يا حبيبتي، وستدركين لاحقًا كم كان القرار صائبًا حين تنظرين إلى الوراء، وقد احتفظتِ بكرامتكِ كاملة في عيون الجميع، ورضيتِ نفسكِ، وأرضيتِ مَن يحبكِ بصدق.

وأرسل لها رسالة بعدها مباشرة قائلًا:

عزيزتي صوفي،

أنتِ عزيزة عليَّ غاية العِزّة، وقد شغلتِ خاطري طَوال الأيام الماضية. لقد آلمني أن أعلم كم عانيتِ، وكم قاسيتِ من مشقة وضيق، قبل أن تهدئي وتستقرّي في

هذا المسكن الهادئ الوادع. والآن، وقد أراحكِ الله، وألبسكِ السكينة، فاذكري حال الذي يفيق من سُكره، كيف تنجلي عنه الغِشاوة، ويرى الأمور على حقيقتها. كذلك أرجوكِ أن تنظري في أمركِ برويّة، وتمنحيني أن أُبدي لكِ ما أراه لكِ خيرًا وأحكم تدبيرًا.

إني معجبٌ كل الإعجاب بحرصكِ على أن تستثمري مواهبكِ، وتحسني الإفادة منها، وتسخريها فيما فيه خيرٌ بيّن للناس. ولكن، أرجوكِ أن تصدقيني حين أقول: إنكِ إن قبلتِ المال على هذا العمل، فقد تقترفين خطأً جسيمًا، وتُسقطين من قدركِ، وتضعين نفسكِ في مقام لا يليق بكِ. فالناس، وأقاربكِ وأصدقاؤكِ من بينهم، لن يفهموا هذا الأمر ما حييتِ إلا على أنه انتقاص من مكانتكِ وإساءة إلى سمعتكِ. سينظرون إليكِ كما لو كنتِ بخيلة، ضيقة الأفق، وإن كنتِ في حقيقتكِ لا هذه ولا تلك؛ لأن تقاضي الأجر، في أعرافنا وأعرافهم، هو مِن شأن مَن هم دونكِ في المنزلة الاجتماعية، وسيُقال إنكِ أخذتِ ما لا يحق لكِ، وما لا يليق بمقامكِ مهما كانت الظروف.

فما كان من تلك الفتاة الذكيّة القوية إلّا أن نهضت بردٍّ قوي، وكتبت رسالةً رائعة. وإني لأرى أن أضعها هنا كاملةً، لا أزيد فيها حرفًا، ولا أنقص منها لفظًا، لما فيها من روعة العبارة، وقوّة الحُجّة، وكأنّها تقول لكل فتاةٍ بعدها: «هأنذا أكتب، ليس لأنني أريد أن أدافع عن المال، بل لأدافع عن حقي في أن أكون كما أريد، وأفعل ما أُحسن، ويُقدَّر عملي بقدر ما أبذل فيه من معرفة وكفاءة.» كتبت صوفيا لأبيها تقول:

يا سيّدي وأبي، أطال الله بقاءك، وبارك لي فيك،

لقد وصلتني رسالتك، فعلمتُ منها ما تنطوي عليه نفسُك من رأيٍ كريم، وموقفٍ جليل، وحرصٍ عليّ لا يخبو، فجزاك الله عنّي خير الجزاء.

أما بعد،

فإنني قد تدبّرت أمرَ الوظيفة التي عرضوها عليّ، وهي التدريس في المدرسة، وما يتعلّق بها من الأجر الذي يُعطى على أدائه، وها أنا أكتب إليك بما فكّرتُ فيه، وعقدتُ عليه العزمَ بعد نظرٍ وتمحيص. إني، يا أبتِ، أجد في نفسي ميلاً شديدًا إلى التدريس، وأحسبني أُحسن إيصال ما أفهمه إلى مَن أدرّسه. ولقد شهد لي بذلك مَن جرّبني، ورأى ما عندي مِن حُسن البيان، وسعة الإدراك، وسلاسة الشرح. فإذا كان هذا هو ميداني، وهذا هو موضع قوتي، فهل يُستنكَر عليّ أن أعمل فيه؟

ثم إني أرى أنَّ كثيرًا من الناس قد دخلوا ميدانَ التعليم والتدريس بغير حبٍّ له، ولا استعدادٍ فطريّ، ولا قدرةٍ على الشرح، فأساؤوا إلى العلم، وأساؤوا إلى نفوسهم، وأساؤوا إلى المتعلّمين. أفلا يكون من الخير أن يُفتح المجال لمن يحبّ التدريس ويُجيده ويُخلص فيه؟ بل إنّي لأراه من الواجب الذي يقتضيه المنطق، ومن الواجب الذي تفرضه علينا الأخلاق.

وإذا كانت المدرسة — وهي ما هي — قد رأت أن ترفع من قدر التدريس بأن تختار له مَن كان له في المجتمع منزلة، وفي الطبقة الاجتماعية مقام، فأنا، وإن لم أكن من علية القوم، فلستُ من أراذلهم، وقد رُشّحت لهذا المنصب، لا لقرابةٍ، ولا لمحسوبية، بل لما ظهر لهم من أهليّتي. وقد كان المنصب شاغرًا، لا راغب فيه، ولا قادر عليه، حتى طال زمنُه، وأبطأ عنه الطالبون، فلما جاءني، رأيتُ أنه حُقَّ لي قبوله، دون أن يُسلبَ من غيري.

أما شروط تلك الوظيفة، فهي واضحة: إن بلغ عدد الطالبات أربعًا — وهنّ إن اجتمعن شكلن فصلًا مدرسيًا — فالأجر خمس شلنات عن كل ساعة. وهو أجرٌ لا يُعطى إلا إذا توافر هذا الشرط، فالأجر مشروط بالعدد، ومرهون بالعمل، وهو ليس هبةً ولا منحة. وقد حصل أنني في الفصل الماضي لم أبلغ هذا العدد، فقلت للعميد: «ليس المال ذا شأنٍ لي، وسأُعلِّم الطالبات الثلاث كصديقة لهن، لا كأستاذة عليهن»، فقبِل، وأبدي سروره، وأظهرت الطالبات امتنانهن، وكنتُ أنا راضية. ثم جرت الأمور كما أحببنا. أما هذا الفصل، فإن اكتمل العدد، فلماذا أرفض الأجر؟ ألأجل الكِبْر وحده؟ إن الطالبات سيدفعن المال للمدرسة، فلماذا لا تدفع لي المدرسةُ كما دُفع لها؟

إنني لا أرى في تقاضي الأجر مهانةً، ولا في الكسب مذمّة، بل أراه عدلًا وحقًّا، ما دام الأجر في مقابل العمل، والتعب في مقابلة نفع الناس. أليس الرجال يعملون ويتقاضون، ولا يُنتقص من كرامتهم شيء؟ فلماذا إذن يُنتقَص من المرأة لأنها تعمل وتُؤجر؟ ألم تكن أنت نفسك تتقاضى أجرك، ولا يرى الناس في ذلك بأسًا؟ وهل شعرتَ حين قبضتَ راتبك الأول بشيءٍ من الفخر؟ أفلا يحق لي أن أشعر بما شعرتَ به؟

وتقول إنك قادرٌ على أن تدفع لي الأجر إن رفضتُه من المدرسة، فأقول: هذا يُفسد الأمر، ولا يُصلحه. لأنه سيُصبح موقفي زائفًا، وهو أنني أرفض المال أمام الناس لأبدو زاهدة، بينما آخذه في السر من أبي! فهل هذا كرمٌ أم رياء؟ وهل أقول للعميد: «سأعمل بلا أجر، ثم أقبض من أبي ما أخجل من أخذه من

المدرسة؟!» بل سأكون كمن يقول: «أبي يرى أن أتقاضى المال منه، لا منكم»، وأحسب أن العميد حينها سيعُدُّنا جميعًا من زمرة المجانين!

ثم إنك، يا أبتِ، لو رأيتني أؤلّف كتابًا، وتقاضيتُ عليه مالًا، لما رأيتَ في ذلك بأسًا. فلماذا حين أتقاضي الأجر على التدريس يُعدّ ذلك عيبًا؟ وحين كنتُ في المدرسة، كنتُ أُكافأ بجائزة نقدية على ذكائي وتفوقي، وكنتَ ترى ذلك تكريمًا لي، فكيف يُصبح المال اليوم إهانة لكرامتي؟

وهل كنتَ، حين دفعتَ الأجر للسيدة «تيد» التي كانت تدرسني، قد انتقصتَ من قدرها؟ وهل كنتَ ترى أن مقامها يرتفع لو أنها رفضت المال؟ أظنك — وأنت من أنت في كرم النفس — لم تفعل، ولن تفعل، لأنك أرفع من أن تزن الكرامة بالدرهم والدينار. ثم إنني لو قبلت المنصب ثم قصّرتُ فيه، أو توانيت عن أداء واجبي، لَكنتُ أحق بالازدراء من أن أُذمّ على تقاضي أجرٍ مُستحقٍ عن عملٍ أديته حقّه.

إن الناس يختلفون في آرائهم ومعتقداتهم. لكن الرأي الصحيح لا يتغيّر بكثرة مَن قال بخلافه. فإن كانوا مِن أهل العقل، أدركوا أنّ ما أفعله هو الصواب. وإن لم يكونوا، فإنني آسَفُ لحالهم، لا لحالي.

وأنتَ، يا أبتِ، وكذلك أمي، أعلم الناس بمكانتي، وأهمّ الناس عندي رأيًا، وأرجو أن تروا في موقفي إنصافًا وحكمة. بل إن السيدة «ماري جاين إيفانز» (Mary Jane Evans) — وهي مِن أرفع عائلتنا شرفًا — تؤيّد موقفي. والآنسة «وودهوس» (Wodehouse) — من عائلة أعرق من عائلتنا — لم تكتف بالكلام، بل عملت بما أقول، إذ قالت يوم عُرض عليها منصبٌ في مدرسة السيد «موريس»: «إن رأيتني أليق بأن أعمل مقابل أجر، فادفع ما ترى، وإن أبيتَ، فأنا أُعلِّم بلا أجر، عن طيب نفس.»

وأخيرًا، يا أبي الحبيب، أعلمُ أنني أطلتُ عليك، وما ذلك إلا لأنني رغبتُ أن أكون صادقةً واضحةً، لا أترك في نفسك ريبة، ولا في خاطرك ظنًّا لم أُجِب عنه. أرجو أن تغفر لي طول رسالتي، وتقبلها كما هي، من ابنة تحبك، وتقدّرك، وتثق بك.

والآن وبعد أن عرضت لكم رسالتها، أفَيظنُّ ظانٌّ، أو يتوهّم متوهِّم، أنّ أباها — وهو المحامي الكبير كما ذكرنا في بداية الفصل — سيسكت عن الرد على هذه الرسالة القوية، ويقف

موقف المتفرّج، لا ينبس ببنت شفة؟ كلا! ما كان ليقف مكتوف اليدين، فأخذ القلم وكتب إليها ردًّا قال فيه:

يا صفيّتي صوفيا،

لقد قرأتُ كتابكِ فغمرني سرورٌ لا يشوبه كدر، وامتلأ قلبي من البهجة ما يجلُّ عن الوصف.

أما ما ذكرتِه من أمر التدريس، فقد أحسنتِ في الكتابة وأجدتِ في البيان، غير أنّ حججكِ لم ترسُ على قواعد متينة، وأمثلتكِ، وإن أُحسِن بها الظن، فليست مما يُستند إليه، كما أرجو أن أُبيّنه لكِ. وإني لأشهد لكِ بأنكِ أهلٌ للتدريس، ومولعةٌ به. والسعي في رفع شأن المعلمين والتعليم مما يُحمد، غير أنّ مسألة أخذ الأجر أو تركه لا تمسُّ صميم هذا المسعي، ولا تزيده رفعةً أو تضعه منزلة.

وإني أُوافقكِ في كل ما قلتِه في فضل العمل، فهو شريفٌ وجليل، يستحق المدح والثناء، إلا أني أُنكِر عليكِ أن تأخذي مالًا في مقابله. فإن ذلك، في نظري، أدنى من قدركِ، ويليق بكِ أن تترفّعي عنه، وتدعي ما تأتينه من خير ينهمر إلى مجاريه الصحيحة، فينفع نفعًا واسعًا، ويُثمر ثمرًا طيبًا.

وإن المسألة، كما قلتِ، تتعلّق بالحق والباطل. ورأيي، وقد فكرتُ فيه بتمهّل ورويّة، أنَّ أخذَ الأجر على ما تفعلينه لا يليق بكِ، بل فيه شيءٌ من الخطل، وربما يعود عليكِ بالضرر فوق ما تتصورين. أما مَن ذكرتِهم من الحالات، فليست حججًا، وسأردُّ على كل واحدة منها كما سردتِها، ثم لكِ أن تحكُمي بعد ذلك.

أما أنا، فما قبضتُ أجرًا قط في حياتي على تعليم أو تدريس. كنتُ من أرباب المهن الحرة، في أشرف فروعها، وكنتُ أعيش مِن كدّي وتعبي، وأرى ذلك «حقًا» لا ريب فيه. وكان أخوك الكبير «توماس» كذلك، يفعل ما أفعله، ويرى في نفسه رجولةً تلزمه بإعالة زوجته وأولاده، وكان في مقامٍ عالٍ، لا يبلغه كثير من الرجال، وكانت وظيفته تُدرُّ عليه رزقًا وفيرًا، يُقارب الألفي جنيه في السنة.

أما السيدة «تيد»، فقصتها لا وجه للمقارنة بينها وبينكِ. لم يكن لها من المال شيء، فخرجت منذ نعومة أظفارها تعمل كمربية، تطلب الكسب الشريف. وقد ساعدتها موهبتها وكثرة سعيها، وقد بارك الله في عملها هذا، حتى صارت قادرة على أن تُعينَ أختها وتُؤمِّن لنفسها عيشًا كريمًا.

أما حالكِ، يا عزيزتي، فمُغايرةٌ كل المغايرة. فلا أنتِ فقيرة، ولا يُتوقع أن يعوزك المال يومًا من الدهر. وإن تم لك الزواج غدًا بمن أرتضيه لكِ، — وما أظنكِ ترضين بغير ذلك — فسأهبكِ ثروةً طيبة. فما حاجتكِ إلى مالٍ يجلب عليكِ الشبهة، ويُسيء الناس فهمكِ من أجله؟!

إني أنصحكِ — في أقل الأحوال — أن تنتظري حتى تشتدّ عزيمتكِ وتصفو رؤيتكِ، فإن رأيي القاطع أنّ العمل بأجر سيُسيء إليكِ، وإن لم نُحدِّد مقدار تلك الإساءة على وجه الدقة. نعم، العمل ذاته خيرٌ، وأنا أفرح به، لكن دعي المال يذهب إلى جهةٍ أخرى. دعي الأموال تسيل في مجرى غير محفظتكِ، ففي ذلك من الرضا والطمأنينة، ما لا تبلغه النقود ولا تعادله دراهم الدنيا بأسرها.

وبعد أن وصل هذا الخطاب إلى تلك الفتاة العنيدة، الذي لا تقبل أن تدع تلك الحجج بلا رد ولا جواب، كتبت رسالةً أخرى لأبيها قالت فيها:

يا أبي الحبيب،

أشكر لك كتابك الكريم. أما عن منطقي، فلا أعلم أكان سديدًا كله أم لا، — ولعلّه لم يكن كذلك — غير أني لا أرى وجاهةً في حججك التي تفرّق بين مقامي ومقام أخي «توم»، لا سيّما وأنّ ما عرضتُه أنا، في نظري، أبعد عن التكلّف، وأقرب إلى الحقيقة من مغالطة «التمييز دون فرق» التي قمتَ أنت بها.

ومهما بلغتَ في التنقيح والتحليل، فإنّ موقف أخي «توم» وموقفي متشابهان إلى حدٍّ كبير، وإن كان بينهما تفاوت. فإن كنتُ أتقصّى أسّ الفرق الذي ادّعيته، فهو أولًا كونه «رجلًا»، وهذا، كما قلتُ آنفًا، لا أراه فارقًا جوهريًّا. وثانيًا، أنّ منصبه لا يسدّه إلا «رجلٌ من الطراز الأوّل». وأظن — على الرغم من الفجوة الواسعة في العلم والخبرة والكفايات بيني وبين أخي — أنّ المقارنة لا تزال قائمة، فقد ثبتت صعوبة ملء هذا المنصب الذي أنا فيه، بدليل طول المدة التي ظلّ فيها شاغرًا.

وأزعم أنّ هذه الوظيفة هي من أعسر ما تُكلِّف به المدرسة، ولذلك فهي، في مستواها، لا تقل وجاهةً عن منصب الأستاذية الذي يشغله أخي. ثمّ إني لا أظنّك، يا والدي، تعتمد على ما يدرُّه منصبه من مال كدليل على استحقاقه؛ فالمبدأ، في نظري، واحد، سواءٌ أخذ قرشًا واحدًا أم قارب الألفيْن في السنة! ولا أستطيع أن أقول إنّي لا أحتاج إلى المال؛ بل إني أحتاجه، بل وأرغب فيه، وأرضى أن أكسبه

بجهدي، وأنا أعلم أنّ ما يُمنَح لي من النفقة ليس بكافٍ. ولا أرى أني آثمةٌ أو على خطأٍ في ذلك، إن كنتُ أفعل ذلك عن طيب خاطرٍ وصدق نيّة.

ولستُ أظنّ أنّ الجدال بيننا سيُجدي كثيرًا بعد الآن، فقد أفضيتُ إليك بما في نفسي بصدقٍ وأمانة... ومع ذلك، فلك منّي الشكر الجزيل لأنك أنصتَّ إليّ، وجاوبتني بحِلمٍ ورفق. ولستُ أحبُّ أن أُزعجك بعد كل ما قدمتَ لي من محبة وعطف، فأنت كنتَ ولا تزال كريمًا عليّ. وقد طلبتَ مني أن أُمهلَ نفسي، وأن أُعيدَ التفكير، وقد فعلتُ ذلك، وأقول لك: لا أرى أن التفكيرَ الزائد سيُغيّر رأيي. ومع ذلك، أعدُك وعدًا صادقًا، أنني في هذا الفصل الدراسي — فقط — لن آخذ أجرًا، ليس لأني تراجعتُ عن مبدئي، بل وفاءً وتقديرًا لرغبتك وحدها.

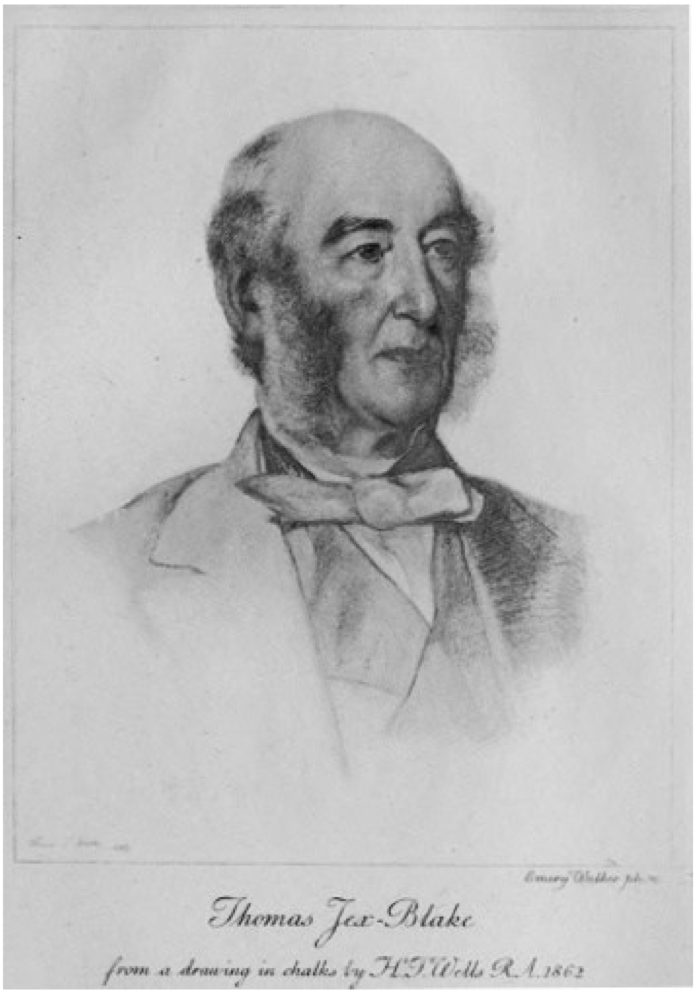
فإن وصلني مال، — ولا أدري إن كان سيصل — فسأُعيده إلى المدرسة كهبةٍ مني إليها. فإن انتهى الفصلُ، وظل رأيي كما هو، فإني أرجو منك ألّا تعارض عزيمتي على أخذه بعد ذلك.

اذكر هذا، وافهمه يا أبي، إنما أفعل ذلك محبةً لك، لا لأنّ في نفسي ميلًا للتراجع عن قناعتي. وأرجو أن تلقاني في منتصف الطريق، وألا تأسف إذا عدتُ في الفصل القادم إلى ما أراه صوابًا.

ومع أني أرى الحلّ الذي اختارته صوفيا حلًّا نبيلاً، فقد جمعتْ فيه بين طاعة والدها والثبات على هدفها في أخذ المال على التدريس، فتخلّت عن الأجر فصلًا دراسيًّا دون أن تتنازل عن رسالتها، وهو في نظري موقفٌ بالغ الذكاء والعقلانية؛ إلا أن صوفيا لم تُرضِها هذه التسوية، فقد ندمت بعد ذلك لأنها لم تصرّ على حقّها، ولم تمضِ في الطريق إلى نهايته، بل سارت إلى منتصفه، وتركت لأبيها أن يمشي هو النصف الآخر. وهذا الندم، وإن دلّ على علوّ همّتها، يكشف في شخصيّتها نفورًا من أنصاف الحلول والتي سنراها كثيرًا في الصفحات التالية.

ويَحسُن بنا، قبل أن نمضي، أن نقف وقفة إنصاف عند هذا الأب، الذي — على شدّة اعتراضه على وظيفة ابنته — لم يُهدّدها يومًا بقطع النفقة، ولا لوّح لها بحرمانٍ أو عقاب. وبرغم حِدّة النقاش بينهما، وثبات صوفيا في ردّها، لا يبدو أنّها خافت لحظةً أن يُقدِم والدها على مثل هذا الفعل، ولا خطر ببالها أن حُبَّه قد ينقلب سلاحًا يُوجَّه إلى تقييد حريّتها. وربما كان ذلك لأنه كان أبًا محبًّا بحقّ؛ يعرف ابنته، ويُقدّر طاقتها، ويشعر أن في داخلها شيئًا أكبر من أن يُقيّد. وربما أيضًا لأنه كان يُدرك، في قرارة نفسه، أن العالم الذي تمضي فيه صوفيا ليس هو العالم الذي نشأ فيه هو، وأن الأدوار التي عرفها للنساء، لم تَعُد كافيةً أو قابلةً للتطبيق في زمنٍ يتحوّل ويتغيّر.

كان معارضًا، نعم. لكنه لم يكن ظالمًا. وكان شديد الالتزام بعادات وتقاليد زمنه، لكنّه لم يكن غافلًا عن حقّ ابنته في أن تنتمي إلى زمنها كما انتمى هو إلى زمنه.



توماس جيكس-بليك، والد صوفيا

كانت صوفيا تعيش في حالٍ كأنّها من نعيم الآخرة، فقد أخذت من الحريّة نصيبًا، ومن السعادة حظًّا؛ فبدأت تَزور الأوبرا، وتذهب إلى المسرح، وتُقبِل على ما كان بالأمس من المحرّمات، أو يُعدّ من الزّلات، بل صارت لها حياةٌ مستقلة، فيها الفكر وفيها الذوق، فيها الجهد وفيها المتعة، فيها العلم وفيها الفن.

ولم يكن كلّ من حولها راضيًا عن هذا الانطلاق، بل كانت كلماتُ اللوم تلاحقها من أقلام أقاربها، إذ كتبت لها صديقتها «إيلي» في لهجةٍ رقيقةٍ لا تخلو من التحفّظ: «يبدو أنكِ تقضين وقتًا ممتعًا، لكن لا يزال غريبًا أن تتجوّل جماعةٌ من الفتيات في لندن متى وأين شئن. لا أظنّكِ ستقعين في ذنب، ولكن ثمّة كثيرات من الفتيات قد يفعلن ذلك».

وما لبثت صديقتها الأخرى «سارة» أن كتبت ممازحة: «ما أروع اللهو الذي قد تحظى به فتاة إن أرادت! لكنكِ صامدة كالصخرة، لا خوف عليكِ من الطيش». ثمّ جاءت كلماتٌ أشدّ وقعًا من والدتها تُذكّرها بالعُرف والتقاليد: «لقد خرجتِ عن موقعكِ الطبيعي كفتاة، ولا تفهمين حاجة الفتيات إلى الالتزام بالآداب التي يفرضها أبناؤهن. الفتيات الجميلات لا يجُبن شوارعَ لندن من غير مرافقة، ورغبة الأب تكفي أن تكون لهنّ مرشدًا ومانعًا». لكن صوفيا، وإن أرهقها هذا الضغط الخانق، لم تتخلّ عن احترامها لأسرتها، ولا عن حريّتها التي كسبتها بجهدها. كتبت في يومياتها:

> نصرٌ في الحياة! أخبرتُ أمّي يوم الإثنين أنني ذهبتُ من قبل إلى الأوبرا دون علمها، لكنني أعلنتُ نيّتي إبلاغها مستقبلًا، فلم تمنعني. تحدّثتُ قليلًا لتثبيت موقفي، ولما عدتُ يوم الثلاثاء إلى لندن، وجدتهم ذاهبين إلى مسرحية «مكبث» يوم الجمعة، فأخبرتُها بالأمر كأنه تحصيل حاصل. أبدت ارتياحًا، بل سرورًا بالصحبة الطيبة، وتمنّت ألا أُكثر من الذهاب، وهكذا زال الحظر تمامًا.

«نصرٌ في الحياة!» هذه العبارة تستحق أن نقف عندها كثيرًا في مذكّرات صوفيا، فقد كانت تلك العبارة تسجيلًا للحظةِ تحوّل فارقة في حياتها، لحظةٍ أضاء فيها وعيُها بحريّتها، ولو على هيئة بسيطةٍ وهو ذهابها إلى الأوبرا دون إذنٍ مسبق من الأم. في زمنٍ كان يُنتظر من الفتاة أن تستأذن من غيرها لا أن تُقرّر هي بنفسها، وأن تُصغي إلى آراء الآخرين لا أن تُعلن هي عن رغباتها، كانت هذه الخطوة الصغيرة «نصرًا» على منظومةٍ كاملةٍ من الوصاية الأبوية التي حكمت حياة النساء. وما بدا اليومَ أمرًا هيّنًا، كان يومئذٍ مؤشرًا على بداية امتلاك الذات، وعلى الاعتراف بحقّ الفتاة في أن تختار، وأن تُعلِم الآخرين لا أن تستأذن منهم في كل كبيرة وصغيرة.

وذات يوم، دخلت صوفيا إحدى الكنائس، فرأت القسَّ الذي يؤمُّ الناسَ في الصلاة، مرتديًا لباسًا كهنوتيًّا خاصًّا. وكان هذا المشهد عندها مدعاةً للعجب والاستنكار؛ إذ إن العقيدة الإنجيلية التي تتبعها — والتي كانت سائدة في بريطانيا آنذاك — لا تُقِرّ للكاهن بلباسٍ يُميّزه عن الناس، ولا ترى للكهنوت منزلةً تميزه ظاهرًا عن سائر المؤمنين. فلما رأت هذا التناقض بين ما ينصّ عليه المذهب العقدي، وما يصنعه ذلك القس، استشاطت غيظًا، وسخطت في نفسها، إذ كيف يكون باطنُ الرجل غيرَ ظاهرِه؟ وكيف يدعو الناسَ إلى عقيدةٍ لا يلتزم هو شخصيًا بها في ملبسه وهيئته؟! فأبت أن تُصلّي خلفه، وامتنعت عن أداء الشعائر معه، رفضًا لهذا التزييف، واستنكارًا لهذا التناقض بين القول والفعل. لكنها لم تلبث أن رجعت إلى نفسها، وراجعت ما فعلت، فرأت أنّ امتناعها لم يكن صوابًا، وأنّ فساد الكاهن لا ينبغي أن يحجبها عن ربّها، ولا أن يمنعها من الصلاة في بيتٍ يُذكر فيه اسم الله، وإن خالف فيه الإمامُ ما يدعو إليه.

هذا وإني أختلف معها في رأيها بعض الشيء؛ فإني لا أرى الصلاةَ «خلف كلِّ بَرٍّ وفاجر»، إنما وجب علينا محاربة الفُسّاق الفُجّار، لا أن نجعلهم أئمة لنا في صلاتنا التي نتقرب بها إلى

الله. فلا أدري أي صلاةٍ هذه الذي سيقبلها الله منّا ونحن لا نحارب الفاجر، بل نقدمه إمامًا لنا! ومع ذلك أتفق معها بعض الشيء، فالزي الذي يرتديه الإمام — وإن خالف فيه ما يجب أن يكون — إلا أنه ليس بالشيء الكبير الذي يدفعنا لنترك لأجله الصلاة.

كانت صوفيا تُكابد مشقةً عظيمة، وتُصارع تعَبًا لا يُحتمَل، فقد جمعت بين أمرين: بين الدراسة الجادّة كطالبة، والتدريس المتواصل كمعلمة. فقد كانت تدرس ثماني مواد تجمع بين الأدب والتاريخ، والعقل والإيمان، والرياضيات واللغات، وهي: الأدب الإنجليزي، وتاريخ إنجلترا، والفلسفة والأخلاق، والعقيدة، وتاريخ الكنيسة، والجبر، والهندسة، واللغة الألمانية.

وكانت كذلك تُعلّم سبعَ طالبات، تقف لهنّ موقف الأستاذة، تُبصّرهنّ، وتُقرّب لهنّ البعيد، وتشرح لهنّ الغامض، فلا هي طالبةٌ فحسب، ولا أستاذةٌ فقط، بل كانت جامعةً بين الوصفين، ومُنهكةٌ بهما معًا. ومع هذا كله خرجت من هذا المعترك ظافرةً منصورة، فنجحت بتفوّق وامتياز، ونالت من التقدير أعلى مراتبه.

واستمرّت صوفيا على حالها في تلك المدرسة عامًا كاملًا، لا تخرج من بين دفّتي الكتاب إلّا إلى قاعة الدرس، ولا تعرف من الدنيا سوى قاعات الدراسة وأحاديث الطالبات والسبورة. ولم تكن تعبأ كثيرًا بما كانت النساء يومئذٍ يتنادين به في مجالسهن من الزينة والموضة، ومن ألوان الثياب ونقوش القماش، ومن أحاديث الزواج والحب والرجال. كانت تلك الأحاديث تمرّ عليها كما يمرّ النسيم على الجبل، لا يهزّه ولا يحرك فيه شيئًا. فإن نظرت إلى الزواج، رأته قَدَرًا لا خيار فيه، أقرب إلى المصير المحتوم منه إلى الحلم المنشود، كأنّه شيءٌ يُنتظر، دون أن تسعى هي إليه أو تبحث عنه.

وفي ليلة رأس السنة، حيث يراجع الإنسان ما مضى من أيامه، ويتفكر فيما سيأتي، جلست صوفيا إلى نفسها، وكتبت من خواطرها ما يكشف عن نضجٍ وتحوّلٍ عميق في فكرها وروحها. فقالت، وهي تضع حجر الأساس لفكرة ستصبح فيما بعد رسالتها في الحياة ومحور الحديث في هذا الكتاب:

> لقد تطوّرت فكرتي هذا العام بشأن العمل في التعليم، حتى استقرت في ذهني على صورة مشروع واضح المعالم: مدرسة داخلية للنساء تحمل اسم «الثالوث الأقدس». ولا أدري — والله أعلم — هل يُكتب لها أن ترى النور يومًا ما أم لا؟!
>
> فإن تكن هذه الفكرة خيرًا، فأرجو أن يكتب الله لها التمام، وإن لم تكن، فليبعث الله من يقوم بأفضل منها. وإن كنتُ أخشى ألا أكون شديدة التديُّن، فإن في قلبي إحساسًا صادقًا بأن هذه الرسالة جليلة، وأن السعي فيها واجب ما دامت النية طيبة، والقصد نافعًا.

في تلك اللحظة الفارقة، بدأت صوفيا تنظر إلى تعليم النساء نظرة مختلفة؛ لم يعد الأمر بالنسبة لها وظيفةً طارئة، بل صار قضيةً كبرى، وبدأت تتهيأ لتجعل منها رسالة العمر. ومنذ ذلك الحين، كرّست حياتها شيئًا فشيئًا لهذا الهدف النبيل. لكن، قبل أن نواصل الحديثَ عن مسيرتها، أُفضِّلُ أن نتركها لحظةً في موضعها هذا: فتاةٌ في ريعان الشباب، تذوق طعمَ الحرية لأول مرة، وتغرق في جهدٍ يوميٍّ شاقّ بين الدراسة والتدريس، لكنها — رغم التعب — سعيدةٌ بما تصنع، فرحةٌ بما تعمل وتدرس.

*****

وأريد، في هذا الموضع تحديدًا، أن أقف مع القارئ وقفةً كنتُ قد أجّلتها حتى تكتمل الصورة في ذهنه، ويأخذ القَصَصُ مجراه، من دون أن تُقطَع عليه الخيوط. لقد كنت، حين أذكر المكان الذي تدرس فيه صوفيا، أكتفي بتسميته «المدرسة». وهذا، في ظاهره، قد يبدو غير دقيق، لأن الاسم الأصلي للمؤسسة هو «Queen's College»، أي «كلية الملكة» بحسب الترجمة الحرفية. لكنني تعمّدت أن أختار لفظ «المدرسة» في البداية، ليس تجاهلًا مني للاسم، بل حرصًا على إيصال المعنى للقارئ بشكل أفضل؛ إذ إن «Queen's College» لم تكن كليةً جامعيةً بالمعنى المعروف اليوم، بل كانت مؤسسةً تعليميةً خاصّةً بالفتيات، تُدرِّس المراحل التي تسبق التعليم العالي، من سن ١١ حتى ١٨. ولو قلتُ إنها «كلية» من أول الأمر، لظن القارئ أنها جامعة، أو شيءٌ يقاربها، وقد يُبنى على ذلك فهمٌ خاطئ لمسار صوفيا وتاريخها. فآثرتُ الترجمة بالمعنى وليس بالحرف، وأخّرت التوضيح حتى تستقيم الحكاية. أما الآن، وقد اتضحت الصورة، فبوسعي أن أستعمل الاسم الحقيقي للمؤسسة، دون خشية من لبس أو غموض. ويبقى السؤال الذي يطرح نفسَه: لماذا سمّاها الإنجليزُ «كلية الملكة» (Queen's College) وليس «مدرسة الملكة» (Queen's School)، رغم أنها لم تكن تمنح شهادات جامعية؟

ولعل هذا السؤال لأهميته ولغرابة استخدام هذا اللفظ هو ما جعل أولَ خطاب يُلقى في أول يوم لافتتاح تلك الكلية، تكون أولُ فقرة فيه وأولُ كلمة فيه خاصةً بالإجابة عن هذا السؤال، يقول «فريدريك موريس» (Frederick Maurice) أحد مؤسسي تلك الكلية في أول خطاب في افتتاح الكلية:

> تقرَّر افتتاح كلية في لندن بعد عيد الفصح مباشرة تُعنى بتعليم النساء. ولعلّ لفظ «كلية» في هذا السياق يبدو غريبًا أو مُبالغًا فيه عند بعض الناس، لما يحمله من

طابع جديد وطَموح في آذان الإنجليز. ولولا أن هذا اللفظ أصبح دارجًا، لتمنّينا لو وجدنا كلمةً أبسط تُعبّر عن مقصودنا بدقة ووضوح...

نحن نُدرك أن خططنا مهيأة للقبول أو الرفض بناءً على مدى مناسبتها أو عدم مناسبتها لتحقيق الغرض الذي وضعناه نصب أعيننا. غير أنكم — إن تذكّرتم النقطة التي انطلقنا منها — ستفهمون دوافعنا على نحوٍ أوضح. هذا التذكّر ربما يُبرّر لكم اختيارنا للكلمة الجريئة «كلية». ففي إنجلترا، ارتبطت هذه الكلمة عادةً بفكرة هيئةٍ تُعنى أولًا بتكوين المعلمين، لكنها — ولأنها كذلك — صارت صالحةً أيضًا لتأهيل كلّ من يطلب ثقافةً عامة غير محصورة في الجانب المهني البحت. وهي أقلّ غموضًا وتضخيمًا من كلمات مثل «مؤسسة» أو «هيئة»، وهي أيضًا أكثر ملاءمةً لغرضنا من الكلمة الوحيدة «مدرسة»، التي قد توحي بأننا نُشرف على نظامٍ إداريٍّ معين، وهو ما نرغب بشدة في أن يُعهد به إلى من هم أقدر منّا عليه...

يُدرك الكثير من الآباء أن أبناءهم الذكور، والمُعدّين لخوض غمار الحياة الصعبة، ينبغي أن يُرسَلوا إلى مدارس مرموقة كمدرسة «إيتون» (Eton)، أو «وستمنستر» (Westminster)، وهم يقبلون بذلك رغم قسوته. غير أنهم، في المقابل، لا يقبلون أبدًا أن تقضي بناتُهم سنوات الطفولة والمراهقة في أي مكانٍ خارج جدران منزلهم. وفي الوقت نفسه، لا يغيب عنهم أن التعليم المنعزل، حتى وإن اقتصر على التعليم العائلي، ينطوي على سلبياتٍ كثيرة. فهناك شعور بالتشظّي، ينشأ في ذهن الطالبة بسبب تعاقب المعلّمين الذين لا تربطهم رؤية موحّدة، ولا هدف مشترك. وحتى دون أن يكون لدى هؤلاء الآباء تصورٌ مثاليٌّ سامٍ عن تعليم النساء، فهم — على الأرجح — سيتضايقون بشدة من أيّ شخصٍ يقترح ذلك، ومع ذلك لا يكفون عن التساؤل: لماذا لا توجد كلياتٌ للفتيات كما هي موجودة للفتيان؟...

وأنا أعترف بوجود نقطة اختلاف واحدة، لها ما يبرّرها من الناحية المنطقية والاجتماعية، وهي أنّ الكلية ترتبط غالبًا بفكرة إعداد المعلمين. وقد يُظَنّ أن هذا يجعلها غير مناسبة للفتيات الصغيرات اللواتي يُسمح لهنّ بتلقّي التعليم في هذا السنّ المبكر. فمعلّمو المدارس قد يكتفون بنقل المعلومات، أما معلّمو الكلية، فعليهم أن يُرشدوا الطلاب إلى إدراك المبادئ العميقة. وهنا قد يُقال: «ما هذا؟ أطفالٌ في سنّ الثانية عشرة، بل بنات؟!» أليس في ذلك إقرارٌ ضمنيٌّ بأننا

بصدد مشروعٍ تعليميٍّ جديد، مشروع يختلف كليًّا عن مفاهيمنا المعتادة؟ أليس في ذلك إعلان حربٍ على كلّ ما اعتدنا عليه من أنماط التربية والتعليم؟ أليس بناءُ كليةٍ — مهما صغرت — يُذكّر بالخيال الشاعريّ الجامح الذي قدّمه أحد شعرائنا العظام في قصيدته «الأميرة»، تلك التي أظهرت لنا بطلتها الملكية في صورةٍ متخيّلةٍ مثالية، تشدّد على حقوق المرأة وقوتها؟

> إنَّ علمًا لا يتقصَّى الأصولَ، ولا يَسبُرُ الأغوارَ، ولا يَنفُذُ إلى جواهرِ الأشياءِ وبواطنِها، لَهوَ أشبَهُ بسَرابٍ خادعٍ، لا يَروي ظمأً، ولا يَشفي عليلًا. فإنَّ سطحيةَ العلمِ تُفسِدُ طبعَهُ، وتُذهِبُ نفعَه، وتَسلُبُ عنهُ فضيلةَ الفِكرِ والتدبُّر. ومن أرادت أن تُعلّم الأطفال، فعليها أن تُصبح كالأطفال، وأن تتعلّم معهم، لا عنهم فقط. إن معرفة الشيء عن ظهر قلب ومعايشته بنفسك شيءٌ، وتكراره بلسانك شيء آخر؛ فأن تَعرفَ حقيقةً واحدة معرفةً صادقة حقيقيةً دقيقة، فذلك نعمة لا يُحيط بها الوصف؛ أمّا أن تعرف ألفَ مسألةٍ معرفةً سطحية، فذاك حيرةٌ تُربكُ العقل، وعذابٌ لا يُطاق.[١]

لا أريد أن أذكر خطاب الأستاذ «فريدريك موريس» كاملًا، لكنني ألخص كلامه السابق وأذكر إجمالًا ما قاله في خطبته تلك في أول يوم لافتتاح تلك «الكلية». أعود فأقول: كان تسمية تلك المدرسة بـ «الكلية» تسميةً عجيبة وقد أقر بها الأستاذ «فريدريك موريس» نفسُه في أول جملة في خطابه، وأوضح أنها سيكون وقعُها على أذن الإنسان الإنجليزي وقعًا عجيبًا، لكنه اختار هذا الاسم تحديدًا لأنه وجده الأكثر ملائمةً لنظام التدريس الذي يريد أن تتبناه تلك المدرسة، وأنها في تعليمها ليست تقليديةً، وإنما سيكون تعليمُها من الدقة والأصالة ما يضاهي التعليمَ الجامعي حقًا. وأن الجامعات وإن كان هدفها أن تُخرج أساتذةً، فإن هذه الكلية ستفعل نفسَ الشيء مع طلابها، فكأن الطلبة يُراد لهم أن يفهموا المواد فهمًا يضاهي فهم الأساتذة لها. كما أن كلمة «كلية» كانت دائمًا حكرًا وحصرًا على الرجال؛ إذ لا مؤسسة تعليمية للنساء تحمل هذا الاسم، فأراد أن يجعل للرجال كليات، وللنساء كليات كذلك، والتعليم فيهما متساوي، وإن كان الاختلاف في الدرجة العلمية التي تعطيها كلا المؤسستين، والسن الدراسي الذي تقبل فيه الطلاب.

كما استعرضَ في خطابِه هذا مشروعًا تربويًا غير مسبوق، يسعى إلى إرساء تعليم جادّ للنساء، لا يقتصر على ما تعارف عليه الناس من «تحسينات» سطحية، بل يتوغّل في أعماق المعرفة، ويُؤسّس لفهمٍ راسخٍ وشامل يُعين المرأة على أداء رسالتها الطبيعية والإنسانية. ويؤكّد

١- Queen's College (London). (1849). *Introductory lectures, delivered at Queen's College, London*. London: John W. Parker.

«موريس» أن هذا المشروع لم يُنشأ لتحقيق نظرية مثالية، بل جاء استجابة لحاجة واقعية، ظهرت من خلال معاناة المعلّمات (Governesses) في المجتمع الفيكتوري، حيث وجدت الجمعية التي كانت تعنى بهنّ أن العون المادي لا يكفي، وأن الإصلاح الحقيقي لا يتم إلا بإعادة النظر في التعليم الذي تتلقّاه النساء. وينتقل «موريس» إلى تفصيل رؤية تربوية جديدة، تقوم على تعليم الفتاة مبادئ العلوم الأساسية ولا تكتفي بذكر المعلومات السطحية الساذجة؛ فالتعليم الحقيقي هو ما ينفذ إلى أصل الأشياء، ويكشف نظامها، ويحرّر العقل من الحفظ الجاف والتكرار المُمِلّ. ويشدد على أن المرأة، بما لها من دور فطريّ في تربية الأطفال، أولى الناس بأن تُمنح هذا النوع من التعليم، لأنها أقدر على إدراك روعة البدايات، ومعنى التكوين، وسرّ النمو العقلي. ويستعرضُ المناهجَ التي ستُدرَّس في الكلية — من الحساب والرسم والموسيقى، إلى التاريخ والأدب واللاهوت — مؤكدًا أن لكل مادة منها وظيفة تكوينية، وأن الغاية ليست التراكم المعرفي، بل البناء المعرفي. ويختم خطابه بتوكيد على الاستقلال الفكري للمؤسسة، وأنها لن ترضخ للرأي العام أو التقاليد السطحية، بل ستتثبت على قاعدة واحدة: أن المعلم لا يُعلِّم ليُرضي غيرَه من الطلبة والمؤسسة التعليمية، بل ليُخلِص في عمله، وأن الكلية التي لا تقوم على صدق أساتذتها وتحقيق أهدافها، لا تستحق أن تقوم أصلًا.

وإذا علم المرء أنّ الأستاذ «فريدريك موريس» كان من أساتذة «جامعة لندن»، وتحديدًا كان أستاذًا في «كلية الملك» (King’s College, London)، فربّما جاز له أن يتوقّف متأملًا متسائلًا: إذا كانت هناك مؤسستان تتشابهان في التسمية — إحداهما تُدعى «كلية الملك (King’s College) والأخرى «كلية الملكة» (Queen’s College) — فكيف يُدرِك الناظرُ، من ظاهر الاسم فقط، أن الأولى ليست كليةً بالمعنى الدقيق، بل جامعة تمنح شهاداتها الأكاديمية، وأن الثانية، رغم ما يوحي به اسمها من رفعةٍ ومكانة، ليست جامعة ولا حتى كلية مستقلة، بل ليست سوى مدرسة؟



إنّ الأسماء، في هذا السياق، لا تعبّر دومًا عن حقيقة المؤسسات، ولا تكشف عن طبيعتها ولا عن درجتها الأكاديمية. بل إنّ المتأمل في خريطة التعليم العالي، سواء في بريطانيا أو أمريكا، لا يلبث أن يقع في حيرة أشدّ، حين يرى مؤسسات تُعَدّ من أرقى جامعات العالم، ولا يُذكر في أسمائها لفظ «جامعة» أصلًا. فـ «معهد ماساتشوستس للتقنية (MIT)، مثلًا، لا يُعرّف نفسه بـ «جامعة» في اسمه الرسمي، وكذلك «معهد كاليفورنيا للتقنية» (Caltech) — حيث عمل الدكتور أحمد زويل، رحمه الله — يحمل صفة «المعهد» وليس الجامعة. وأذكر أنني وقفت يومًا على منشورٍ شائع في منصات التواصل الاجتماعي، يُحكى فيه عن شابٍّ تخرّج في جامعة (MIT)، فلما عاد إلى مصر ليستوفي أوراق تجنيده، نُظر إلى اسم المؤسسة التي تخرّج فيها، فقيل له ببرود: «أنت خريج معهد فوق متوسّط!» ولا أزعم أن تلك الرواية صحيحة، بل إنّ في أخبار الإنترنت من الخيال والادعاء ما يضيق عنه التصديق، ويَعلم الله كم نُسج على هذا المنوال من طرائف مختلقة. ومع ذلك، فسواء أكانت القصة واقعيةً أم موضوعة ومختلقة، فإنّ العبرة فيها هي أنّ الاعتماد على ظاهر الاسم دون وعيٍ بالسياق والتاريخ، قد يفضي إلى أحكام مضحكة، إن لم تكن مؤسفة.

أفلا يحقّ للعاقل أن يتساءل عن هذه الأسماء التي تَعدِل عن الإفصاح إلى الإلغاز، وتُلبس الكلياتِ لباس الجامعاتِ، وتسمّي المعاهدَ مدارسَ، والمدارسَ كلياتٍ؟ إنّ مَن اعتمد على ظاهر الاسم وحده، من غير معرفة ولا تثبّت، خُيّل إليه أن «كلية الملكة» جامعةٌ، وأن «معهد ماساتشوستس» دبلومٌ متوسط، وأن «مدرسة لندن للاقتصاد» (LSE) مدرسة ابتدائية!

فكيف إذًا يُميّز الإنسان بين هذه المسميات المتشابهة، بل المتضادة في كثير من الأحيان؟ الجواب، في رأيي، أنّ الاسم وحده لا يكفي، ولا يُؤخذ العلم بالمظاهر، بل لا بد من الرجوع إلى التاريخ، إلى سياق النشأة، إلى المعنى الذي وُضِع له هذا الاسم في زمانه، ثم كيف تطوّرت المؤسسة، وتحوّلت، وتغيّر وضعها القانوني والأكاديمي. بل يستحيل على الإنسان أن يفهم ماهيّة مؤسسة مثل «University College London» من ظاهر اسمها، إلا إذا اطّلع على تاريخها بتفاصيله الدقيقة. فهذه «الكلية الجامعية بلندن» تأسست أولًا على أفكار الفيلسوف الإنجليزي «جيريمي بنثام» (Jeremy Bentham)، مؤسّس المدرسة النفعية، وكانت ثورةً فكرية على الجامعتين العتيقتين أوكسفورد وكامبريدج، اللتين اشترطتا في طلابهما الانتماء إلى كنيسة إنجلترا. أمّا هذه الكلية، فقد فتحت أبوابَها لكل طالب علم، مهما يكن دينه أو مذهبه العقدي. وأطلقت على نفسها أولًا اسم «جامعة لندن» (London University). غير أنّ الكنيسة، وبدعمٍ من جامعتي أوكسفورد وكمبريدج، رفضت أن تُمنح تلك المؤسسة «الامتياز الملكي» (Royal Charter)، الذي يُخوّلها أن تمنح الشهادات بنفسها. بل إنّها نُعتت آنذاك بـ «المؤسسة الإلحادية» (The Godless Institution)!

وبعد سنوات من النضال، والتقدُّم إلى مجلس النواب، والسعي لدى الملك، تم تأسيس مؤسسة جديدة باسم «جامعة لندن» بصيغة قانونية مُعترف بها، واعتُبرت هذه الجامعة إحدى كلياتها، فسمّت نفسها «University College London» تحايُلًا على الاسم، بإضافة كلمة College، وكأنها تقول: «لسنا جامعة مستقلة، بل نحن كلية تابعة لجامعة لندن». وظلّت كذلك حتى عام ٢٠٠٥، حين حصلت أخيرًا على حقّ منح الشهادات باسمها، لا باسم جامعة لندن.

فما نراه اليوم من تَعدُّد المسميات — مدرسة، كلية، معهد، جامعة — إنما يعكس أزمانًا تاريخية، ومراحل مؤسسية، لا تُدرَك إلا بالبحث والتقصّي. فـ «معهد ماساتشوستس» كان يومًا معهدًا تقنيًا، ثم صار جامعة، ثم صار منارةً وأسطورةً علمية. والأمر نفسه ينطبق على جامعة (Caltech) وعلى غيرها من المؤسسات العلمية الكبرى. ولذلك، فإنّ النظر إلى الأسماء من غير تدبّرٍ ولا درايةٍ بتاريخها، يُفضي إلى أحكامٍ مغلوطة، بل إلى مواقف تثير الضحك، كما في قصة الشاب المتخرّج من MIT.

*****

ونعود إلى صوفيا، بعد أن أنهت امتحاناتها بتفوقٍ كما ذكرنا، لتبدأ فصلًا جديدًا من فصول حياتها، فقد قضت إجازتها القصيرة، ثم عادت إلى لندن وإلى «كوينز كوليدج» (Queen's

College)، لتواصل عملها في تدريس مادة الرياضيات. لكنها لم تكتفِ بذلك، بل التحقت بعدّة مؤسسات تعليمية كانت تُعنى بتدريس الفتيات، وكانت تؤدي هذا العمل كلَّه دون أن تتقاضى عليه أجرًا، رغبةً منها في أن يكون التعليم رسالةً وعملًا خيِّرًا.

وكان من بين تلك المؤسسات جمعيةٌ حديثة التأسيس آنذاك، تُدعى «جمعية تعزيز توظيف النساء» (Society for Promoting the Employment of Women)، وقد أنشأتها السيدة «جيسي باوتشيت» (Jessie Boucherett)، وهي من أوائل الناشطات البريطانيات في ميدان العمل النسائي.

وكان الدافع وراء تأسيس الجمعية مثيرًا للاهتمام؛ إذ قرأت السيدة «جيسي» مقالًا في مجلة «Edinburgh Review»، يرصد أعداد النساء الإنجليزيات اللواتي يعملن في الصناعات المختلفة، ويُعِلن أنفسهن دون عونٍ من الرجال، وقد كانت أعدادهن تَزيد على عدّة ملايين. وقد فجّر هذا المقال في نفسها وعيًا جديدًا بضرورة تأهيل النساء لسوق العمل، وتطوير مهاراتهن، حتى لا يكنّ معتمدات على الصدقة أو الشفقة، بل على الكفاءة والتمكين.

فبدأت الجمعيةُ برامجَها بتدريب النساء على أعمالٍ بسيطة، كالصرافة، والمحاسبة، والبيع، والعمل في المكتبات، ثم تطوّر الأمر تدريجيًّا. وكانت صوفيا من أوائل النساء اللواتي انضممن إلى هذا المشروع، فعملت فيه معلمةً للرياضيات، تدرّس للنساء المهارات الحسابية الأساسية التي يحتجن إليها، وتفتح لهنّ أبوابًا كانت موصدة أمام الإناث.

ومما يستحق الذكر أن نقول إن تلك الجمعية التي أُنشئت عام ١٨٥٩ لا تزال تعمل حتى يوم الناس هذا، لكن تحت اسم مختلف وهو «Futures for Women»، وهي الآن تقدم دعمًا ماليًا للنساء من أجل استكمال تعليمهن أو الحصول على بعض البرامج التعليمية.

لقد ذكرتُ سابقًا أن صوفيا، في ليلة رأس السنة، بدأت تفكر بجدٍّ في قضيّة تعليم النساء، لترسم لنفسها طريقًا واضحًا، وتجعل من هذه الرسالة هدفًا لحياتها. وفي السادس والعشرين من يناير من عام ١٨٦٠م، ستُضاف إلى حياتها شخصية جديدة، سيكون لها حضور لافت وتأثيرٌ لا يُستهان به في مسيرتها، هي الآنسة «أوكتافيا هيل» (Octavia Hill). كان اللقاء الأول بينهما في إطارٍ تعليميّ صرف، حين حضرت صوفيا درسًا في إدارة الحسابات كانت تقدّمه «أوكتافيا»، وقد ترك هذا اللقاء انطباعًا طيّبًا وسريعًا في نفس صوفيا، التي كتبت عن تلك اللحظة تقول: «فتاة ذكية لطيفة، ألطف بكثير مما كنت أتصوّر. تناولت العشاء معي.»

لكنّ العلاقة لم تكن من طرفٍ واحد؛ فلم تكن صوفيا وحدها مَن انفتحت على هذه الصداقة الجديدة، بل بادلتها «أوكتافيا» الشعورَ نفسَه من اللقاء الأول، ونشأ بينهما تقاربٌ وجدانيّ سريع. وقد كتبت «أوكتافيا» إلى أختها، تصف لقاءها الأول بصوفيا، فقالت:

لقد بدأتُ مؤخرًا في إعطاء بعض الدروس في إدارة الحسابات للآنسة صوفيا جيكس-بليك. إنها شابة ذكية، نابضة بالحياة، شجاعة وكريمة، تعيش وحدها، وكأنها رجل أعزب. استغرقت مني ثلاث ليالٍ متتالية لتعليمها، وفي كل مرة كانت تطلب مني أن أتناول العشاء عندها.

لديها صديقة ترهق نفسَها بالعمل المضني، فقط لتُعين شقيقاتها الأصغر سنًا. ويبدو لي أن صوفيا كانت لتقدّم لها المساعدة بكل سرور، فهي تتحدث بأسى عما تسميه «خرافة العصر الحديث» التي تزعم أن «المال لا يُعطى إلا إن كُسب». إنها ترى أن العطاءَ جائزٌ بين الأصدقاء الحقيقيين، وتقول: «لقد منحوني أعزّ ما لديهم، فما الذي يصنعه بعض المال أمام ذلك؟»

ولا يسعنا أن نمضي قُدُمًا في الحديث عن الصداقة التي جمعت بين صوفيا و«أوكتافيا» دون أن نقف لحظةً متأملين حياة «أوكتافيا هيل»، تلك الحياة التي مَهَّدت لهذا اللقاء الفريد بين امرأتين توحّدت رؤاهما، واختلفت مساراتهما في الحياة بعد ذلك. فعلى الرغم من أن «أوكتافيا» لم تكن تفوق «صوفيا» سنًّا إلا بعامٍ واحد، إلا أنّها كانت تتقدّمها بسنواتٍ من التجربة والنضج والخبرة.

وُلدت «أوكتافيا هيل» في الثالث من ديسمبر عام ١٨٣٨، وكان والدها «جيمس هيل» تاجرَ حبوب، وقد عمل من قبل في القطاع المصرفي. تزوّج مرتين، وتوفِّيت زوجتاه، وأنجب منهما ستة أبناء: خمس بنات وولد. ولمّا ترمّل، أراد أن يستجلب لأطفاله مربيةً تُشرف على تعليمهم وتربيتهم، وكان قد أُعجب بكتاباتٍ في التربية والتعليم، خطّتها السيدة «كارولاين»، ابنة الطبيب والمصلح الاجتماعي الشهير الدكتور «توماس ساوثوود سميث» (Dr. Thomas Southwood Smith)، أحد أبرز روّاد إصلاح الصحة العامة في بريطانيا.

في عام ١٨٣٢، استعان بها «جيمس هيل» لتكون مُدرّسةً خاصة لأطفاله، ثم ما لبث أن تزوّجها بعد ثلاث سنوات، في عام ١٨٣٥. وقد أنجبت له أربع بنات، كانت «أوكتافيا» هي الثانية من بينهن، فعاشت في أسرةٍ كبيرة، جمعت بين أبناءٍ من زواجين سابقين، وأربعة من الزواج الأخير، فصار إخوتها وأخواتها تسعة. ولم تدم نعمة الاستقرار طويلًا في بيت آل «هيل»، فقد عصفت بالعائلة محنةٌ قاسية حين تعرّض الأب لانهيارٍ نفسيّ، دخل إثره في أزمةٍ عقليةٍ لم يُشفَ منها قط، فأُعلن إفلاسه رسميًا سنة ١٨٤٠، وكان ذلك ضربة موجعة للأسرة، وخصوصًا للأطفال الذين لم يعوا بعد معنى الانكسار. وفي تلك اللحظة الحرجة، برز دور الجدّ لأم «أوكتافيا» — الدكتور ساوثوود سميث — الذي تدخّل ليحمل العبء عن كاهل ابنته وأحفاده، فتكفّل بدعم الأسرة ماديًا، وشارك في رعاية الأطفال وتوجيههم، ليملأ بعضًا من الفراغ الذي خلّفه غياب الأب.

كان الجدُّ، الدكتور «توماس ساوثوود سميث»، من أبرز المصلحين الاجتماعيين في بريطانيا خلال القرن التاسع عشر، وقد كرّس حياته لقضايا الصحّة العامة والرعاية الاجتماعية، واشتهر بنضاله في ملفاتٍ شائكة، كعمالة الأطفال في المناجم، وظروف المعيشة البائسة في الأحياء الفقيرة. أما الأم، «كارولاين هيل»، فكانت شريكةً له في الرأي والرسالة، تؤمن بالتعليم التقدّمي، وتُناصر الإصلاح التربوي.

كانت «أوكتافيا» تسمع كثيرًا عن جهود جدّها في إصلاح حياة الفقراء، وتُدرك أنه يكرّس جزءًا عظيمًا من وقته لتحسين ظروفهم، لكن رؤيتها كانت لا تزال نظريّة، خالية من التجربة الواقعية. أما التحوُّل الحاسم، فقد وقع في سنّ الثالثة عشرة؛ حين عُرض على والدتها منصبُ مديرةٍ لجمعية التعاون النسائية في لندن (Ladies' Co-operative Guild)، وهي جمعيةٌ أسّسها القسّ والمصلح الاجتماعي «فريدريك دينيسون موريس» (Frederick Maurice)، —— مؤسس «كلية الملكة» والذي ألقى المحاضرة في أول يوم كما ذكرنا، ولهذا الرجل دور كبير في الحياة الإصلاحية في بريطانيا ولعلنا نذكر بعضًا منها إذا سمح الأمر——، وكان هدف هذه الجمعية الرئيس هو تمكين النساء الفقيرات من إيجاد عمل كريم يُعينهن على صعوبات الحياة.

وكان منصب الرئيس الذي شغلته الأم يستلزم الإقامة في مقر الجمعية، مما اضطر الأسرة إلى الانتقال من منطقة «فينشلي» (Finchley) الريفية الهادئة إلى أحد أحياء لندن الفقيرة. هناك، بدأت «أوكتافيا» فصلًا جديدًا من حياتها؛ فصلًا غادرت فيه الطفلةُ براءتها، ودخلت المراهِقة عالَمًا لم تألفه من قبل.

وفي تلك البيئة الجديدة، بدأت «أوكتافيا» عملها معلّمةً داخل الجمعية، وهي لم تبلغ الرابعة عشرة بعد. ثم ما لبثت، في العام التالي مباشرة، أن أُوكلت إليها مهمّة إدارة مدرسةٍ للفقراء من الأطفال، في قلب أحياء لندن المعدمة. كانت هذه المدارس تُعرف بـ «مدارس الممزقين» (Ragged Schools)، لأن أطفالها كانوا يأتون بثيابٍ ممزقة، تنطق وحدها بكلِّ شيء وتخبرك كلَّ شيء عن تاريخ وحكاية هؤلاء الأطفال.

وكانت المدرسة تُدرّب الأطفال على صناعة ألعابٍ خشبية صغيرة، يستطيعون بيعها ليُعينوا بها أسرهم في كسب القوت. ورغم حداثة سنّها، فقد كانت «أوكتافيا» أشبه بالأم الثانية لهؤلاء الصغار، ترعاهم بعطفٍ وتحمُّل، وتُؤنس وحشتهم، وتزرع في نفوسهم الأمل وفي قلوبهم في السكينة.

وفي سنّ السابعة عشرة، التقت «أوكتافيا» بالكاتب والناقد الفني الشهير «جون رسكن» (John Ruskin)، الذي زار الجمعية ليتفقد أعمالها. وقد أبهره نضجها وموهبتها الفنية، فعرض عليها أن تُنجز له نسخًا ملوّنة من لوحاتٍ فنية شهيرة، كان يعتزم نشرها في كتابٍ كان قيد

الإعداد. لم يكن العرض مجرّد تشجيع فني، بل كان وسيلةً أراد بها «رسكن» أن يصقل موهبتها من جهة، وأن يُتيح لها مصدرًا شريفًا للكسب من جهة أخرى.

وهكذا، أضافت «أوكتافيا» إلى أعبائها التربوية والإنسانية عبئًا فنيًا إضافيًا، فغدت — وهي لم تبلغ العشرين — جزءًا من مشروعٍ ثقافي واسع، تُمارس فيه الرسم، والتعليم، والرعاية، وكلّها رسائل انبثقت من جذوة واحدة وهي الإيمان بالإنسان.

في عام ١٨٥٦، دبّ خلافٌ حاد في أروقة اللجنة الإدارية لــ «جمعية التعاون النسائية» (Ladies' Co-operative Guild)، إذ تباينت الآراء بين أعضائها حول المسائل الدينية، وكان من أبرز أسباب النزاع أنّ القس «فريدريك موريس» لم يكن على مذهبٍ تقليديٍّ في آرائه العقدية، بل اتسمت آراؤه بانفتاح لم يرق لبعض الأعضاء النافذين. فآثروا — على العمل معه — أن تُغلق الجمعيةُ أبوابَها.

وحين اشتدّ الخلاف وتفاقم، اختارت السيدة «كارولاين هيل» — والدة «أوكتافيا» — أن تقف إلى جانب صديقها وراعي مشروعها الفكري، فاستقالت من منصبها وفاءً لــ «موريس»، وكان ذلك قبيل انهيار الجمعية وتوقفها عن العمل نهائيًا. ولم تكن استقالتها خسارة منصبٍ، بل خسرت معها مورد رزقها الوحيد، ومسكنها الذي كانت تقيم فيه بوصفها مديرةً للجمعية. فاضطرت إلى مغادرة لندن، وعادت مع بناتها إلى منزل والدها القديم في منطقة «فينشلي» (Finchley)، تاركةً «أوكتافيا» وحدها في العاصمة.

وهكذا وجدت «أوكتافيا» نفسَها، وهي لا تزال في ريعان الشباب، تتحمل أعباء يومٍ طويلٍ من العمل المرهق، تجمع فيه بين الرسم لساعات ممتدة، وإدارة مدرسةٍ لأطفال الأحياء الفقيرة. ولكن جسدها النحيل لم يصمد أمام هذا العبء الثقيل، فانهارت صحتها، وأُصيبت بحمّى شديدة أقعدتها عن العمل شهورًا طويلة، وكادت تطيح بكل ما بَنَته.

فلما عادت إليها العافيةُ، لم تشأ أن تستسلم للضعف، بل استجمعت ما بقي من طاقتها، وأقنعت والدتها وشقيقتها «إميلي» بالعودة إلى لندن، على أن يتشاركن في استئجار منزل صغير، ويجمعن ما بأيديهن من موارد قليلة ليُؤسسن حياةً جديدة.

وفي هذا البيت، استأنفت السيدة «هيل» عملها بالتدريس، أما «إميلي» فقد حصلت على منحةٍ مكنتها من الالتحاق بــ «كلية الملكة» (Queen's College)، فيما عادت «أوكتافيا» إلى الرسم لحساب الناقد الفني الكبير «جون رسكن» (John Ruskin)، وشاركت في مشروعٍ جديد أسّسه «فريدريك موريس» بعنوان «كلية العاملات» (Working Women's College)، حيث عملت فيها معلمةً وسكرتيرةً في آنٍ واحد.

وهنا يظهر القس «فريدريك موريس» للمرة الثالثة، مؤسّسًا لكلية ثانية تُعنى بخدمة النساء وتعليمهن، بعد أن كرّس حياته لفكرة أن العلم والكرامة لا يليقان بالرجال دون النساء. ولعلّي أذكر لمحةً بسيطة من آرائه التي أثارت الجدل، وآثر لأجلها بعضُ أصدقائه إغلاقَ جمعيةٍ تُعنى بالفقراء وتعليمهم ورعايتهم على أن يعملوا تحت قيادته؛ فقد كان «موريس» من المفكّرين القلائل الذين رفضوا علنًا عقيدة العذاب الأبدي، وأعلن أن الله محبة، وأن رحمته أوسع من أن تُقيّد بمفاهيم كالخلود في العذاب المقيم. كما رأى أن الفداء ليس عقوبةً إلهيةً تقع على عاتق المسيح، بل فعل محبة يُراد به خلاص الإنسان وارتقاؤه. وكان يؤمن بأن الكنيسة لا ينبغي أن تكون حكرًا على مذهب دون آخر، بل أن تحتضن المؤمنين على اختلاف طوائفهم. وقد امتزج فكره الديني برؤية اجتماعية تقدمية، فدعا إلى أن يكون الدين حاضرًا في المدرسة والمصنع والشارع، وليس حبيس المعابد والمواعظ. ولهذه الأسباب، اتُّهِم بالخروج عن العقيدة، وفُصل من منصبه في جامعة «King's College»، وتفرّق عنه بعض أنصاره، حتى انهارت جمعية «التعاون النسائية» التي كان يرعاها لمجرّد أن بقي اسمه مرتبطًا بها.

وفي خضمّ هذه الحياة الحافلة التي عاشتها «أوكتافيا»، كان لقاؤها الأول بـ «صوفيا جيكس بليك». وهناك بدأت صداقةٌ مميزة، جمعت بين فتاتين تختلفان في الخلفيات، لكنهما تتلاقيان على طريقٍ واحد. كل واحدة منهما كانت تبحث عن قضيةٍ تُفجّر فيها طاقتها، وتسكب فيها شجاعتها، وتحقّق من خلالها ذاتها.

عندما عادت صوفيا إلى منزلها في مدينة «برايتون» لقضاء عطلة عيد الفصح، رافقتها «أوكتافيا». وقد أبدى والد صوفيا ووالدتُها إعجابَهما الشديد بصديقة ابنتهما، بعدما سمعا عنها الكثير مسبقًا. وقد لاقت هذه الزيارة نجاحًا كبيرًا، حتى إن صوفيا دعت «أوكتافيا» للانضمام إليها وإلى أختها «كارولاين» لمشاركتهما عطلةَ الصيف التي سيقضونها في «ويلز». وفي يوميات صوفيا، سُجّلت لحظة عاطفية مؤثرة بين الفتاتين، إذ كتبت: «وضعت رأسها في حضني بصمت، ثم رفعت وجهها والدموع في عينيها، وتبع ذلك قُبلة.»

إنّ تلك العبارة — التي قُبِّلت فيها صوفيا من صديقتها «أوكتافيا» — كثيرًا ما استُشهد بها من قِبل باحثين وأدباء معاصرين للدلالة على أن صوفيا كانت مثلية الجنس، وأن علاقتها بـ «أوكتافيا هيل» لم تكن مجرد صداقة بريئة، بل كانت علاقة عاطفية حميمية على غرار العلاقات المثلية. وتزداد هذه التأويلات حين يُشار إلى أن صوفيا لم تتزوج قط، وأن كاتبة سيرتها «مارجريت تود» عاشت معها حتى نهاية عمرها، فبات السياق برمته مؤشرًا على «هوية جنسية» مضمَرة أو مقموعة. لكن هذا التأويل لا يخلو من إشكالات منهجية كبيرة:

أولًا: إسقاط مفاهيم معاصرة على سياق تاريخي مختلف ما نسمّيه اليوم بـ «الهوية الجنسية» أو «الميول المثلية» هو مفهوم حديث نسبيًا، تشكّل خلال القرن العشرين مع صعود

علم النفس الحديث، وتبلور حقوق الأفراد، وتبدّل نظرة المجتمعات إلى الجسد والجنس والعاطفة. أما في العصر الفيكتوري — الذي تنتمي إليه صوفيا و«أوكتافيا» — فالوضع كان مختلفًا تمامًا، فقد كانت الصداقة الحميمة بين النساء مبالغًا فيها عاطفيًا من حيث التعبير، من دون أن يكون ذلك مرادفًا للحب الجنسي. كانت رسائل النساء لبعضهن تُكتب بألفاظ ملتهبة، وتُختم أحيانًا بـ «قبلاتي الحارة» أو «أحبك أكثر من كل شيء»، دون أن يُفهم منها دلالة جنسية بالضرورة. لم تكن القُبل بين النساء، خاصة في إطار الخصوصية، أمرًا يُعدّ جنسيًا، بل في بعض الحالات، يُنظر إليه على أنه عاطفة نقية، وجدانية، أمومية أو أختية. وهذا النمط من العلاقات عُرف في الأدبيات الغربية باسم «Romantic Friendships» أو «الصداقات الرومانسية غير الجنسية»، وقد وُثّقت في مئات الرسائل بين نساء القرن التاسع عشر، في إنجلترا وأمريكا وأوروبا عمومًا.

ثانيًا: العزلة والحرمان العاطفي في حياة المرأة الفيكتورية، فمن المهم أن نُدرك أن المرأة في القرن التاسع عشر لم تكن تمتلك — غالبًا — حرية القرار في الزواج أو الاستقلال، كما أن أغلب الفضاءات الاجتماعية والثقافية كانت مفصولة بين الجنسين. وكانت كثير من النساء المتعلمات، المتفرّغات للعمل الفكري أو الطبي أو التربوي، يُفضّلن العيشَ في جماعة نسائية متضامنة، وليس ذلك بدافع الميل الجنسي، بل لأسباب تتعلق بالحرية، والأمان، والعمل المشترك، والدعم العاطفي. وصوفيا، بما لها من طبيعة عقلية شديدة الصرامة، والتزامها الكامل بقضية تعليم النساء، وتحدّيها للنظام الذكوري، لم يكن لديها — كما يُستشف من سيرتها — ميول للزواج، وليس ذلك رفضًا للرجال في ذاتهم، ولكن لأنها كانت ترى في الزواج التقليدي قيودًا على مشروعها الذي كرست فيه حياتها. ثم إن «مارجريت تود» — التي كتبت سيرتها — كانت طبيبة وكاتبة، ولم تذكر في كتابها أبدًا ما يُفهم منه أن العلاقة بينهما جنسية أو رومانسية بالمعنى المألوف. بل صوّرتها كصديقة وفية، ورفيقة درب، لا أكثر.

ثالثًا: هناك إشارة صريحة باهتمام عاطفي منها تجاه شاب قد تعرفت عليه، ورمزت له بالرمز «H» دون أن تذكر اسمه صراحةً. عرفت صوفيا هذا الشاب أثناء زيارتها لبعض أقاربها، وخاضت حديثًا لطيفًا وتبادلًا ودودًا، حتى إنها كتبت وقالت إنه من النوع الذي ربما تتزوجه.

وأخيرًا، لا يُقلقني كثيرًا إثبات ما إن كانت صوفيا تميل إلى الرجال أم إلى النساء، ولا يشغلني تصنيف ميولها العاطفية أو الجنسية الخاصة، فذاك شأن يخصّها وحدها، وهو من دقائق النفس التي لا يطلع عليها إلا الله. فللإنسان أن يعيش حياتَه كما يشاء، ما لم يتعدَّ على غيره، ولسنا نحن من يُحاسب الخلق على ما لم يعلنوه، ولا نحن أوصياء على نوايا الناس ولا حُرّاسًا على مكنوناتهم. لكن ما يعنيني في هذا المقام هو الإنصاف في قراءة التاريخ، والصدق في التعامل مع النصوص، لا سيّما حين تُنتزع العبارات من سياقها، وتُحمّل ما لا تحتمل، ثم تُتخذ ذريعة

لإثبات ميولٍ جنسية لم تُصرّح بها صوفيا، ولم تُعرف عنها في زمانها، ولا ألمح إليها المقرّبون منها، ولا وجدت لها موضعًا في مراسلاتها، أو يومياتها، أو كتابات رفيقاتها.

إن إعادة تأويل بعض المواقف الوجدانية أو العاطفية في ضوء مفاهيم العصر الحديث —— كقُبلة بين صديقتين، أو عيش امرأتين في بيت واحد، أو غياب الزواج عن حياة إحداهن —— لا يكفي بذاته لإثبات ميولٍ جنسية مُحددة، خصوصًا إذا نُظر إلى كل ذلك بمعزل عن السياق الثقافي والاجتماعي الذي نشأت فيه. بل المؤسف أن بعض هذه القراءات لا تصدر عن رغبة في الفهم التاريخي النزيه، بل تنبع أحيانًا من إرادة لإعادة إنتاج الماضي على صورة الحاضر، وتحويل الشخصيات التاريخية إلى رموز معاصرة لقضايا لم تكن مطروحة أصلًا في زمنهم.

وأقولها بصدق: لو كان البحث في هذا الباب بحثًا علميًّا أمينًا، يستند إلى نصوص واضحة، وسياقات محكمة، لما وجدنا فيه غضاضة. لكن الإشكال يكمن في تلك القراءات الانتقائية التي تسعى إلى إثبات المثلية الجنسية ليس بهدف الوصول للحقيقة، بل رغبةً في الترويج لها. ومن هنا، فإن على القارئ أن يُدرك حجم هذا الانتشار المتزايد، والترويج المستمر، والحديث المتكرر عن المثلية الجنسية، وفرضها في كل مقام، بسببٍ أو بغير سبب، بداعٍ أو من غير داعٍ. ولهذا، فإن القارئ اليقظ، إذا رأى هذا النمط المتكرر، وهذه الرغبة الواضحة في تطويع الشخصيات التاريخية لخدمة قضايا حديثة كالمثلية الجنسية أو غيرها، فعليه أن يتوقف ليتبيّن ويتفحص ويتحرّى. فليس كل ما يُقال عن الماضي حقًّا، وليس كل ما يُراد له أن يكون حقيقةً، هو في بالفعل كذلك.

وفي النهاية، فلصوفيا حريتها، كما لكل إنسان حريته، ولسنا نحن من يُطلق الأحكام، ولا من يملك أن يحجب عنها شيئًا أو يضيف إلى سيرتها ما لم تُفصح عنه. لكننا نملك واجبًا أخلاقيًّا واحدًا وهو أن نقرأ بعين العدل، وأن نؤوّل ما حدث تاريخيًا بطريقة صادقة، وأن نُنزِّه سير الأموات عن أهواء الأحياء.

ونعود إلى صوفيا وأختها وصديقتها بعد أن قضت الفتيات الثلاث عطلة لا تُنسى، وسط المناظر الجبلية الخلابة في «ويلز». كانت تلك البيئة جديدة على «أوكتافيا»، لكنها استمتعت كثيرًا بالمشي لمسافات طويلة، والرحلات في أرجاء الريف. كما قمن بتعليم الأطفال في المدرسة المحلية، ونظّمن في نهاية العطلة حفلة ترفيهية للأطفال. وعندما عادت صوفيا إلى لندن، كتبت إلى والدتها تقول:

> يا أمي الحبيبة... لم أعش في حياتي سعادةً بهذه النقاء! لم يشُب عطلتَنا أيُّ كدر أو انزعاج. لقد تجاوزتْ كلَّ التوقعات. فعلنا كل ما نرغب، وزرنا كل الأماكن، ولم تعترضنا أيُّ مصاعب. بدت «أوكتافيا» أصغر بخمس سنوات، ومشرقة كأشعة

الشمس. وأنا نفسي أشعر بسعادة لا توصف، لدرجة أنني أظنني أصبحت أكثر لطفًا ورضًا...

في يوم الخميس أقيمت حفلة للأطفال، وكان من الممتع أن نرى «أوكتافيا» تلعب معهم... يا له من أمر غريب أن تنتهي هذه الأيام الجميلة، ويصعب تصديق أنني قد لا أعود هناك ثانية. لا أستطيع أن أقول إنني سعيدة بانتهاء هذه الرحلة، فقد كانت أسعد أيام حياتي، ولم أشعر بمثل هذا الفرح من قبل. ولا أستطيع أيضًا أن أقول إنني سعيدة بالعودة إلى لندن، وإن كنت أظن أنه يمكنني الرجوع إلى تلك الأماكن مرة أخرى، بكل فرح وسرور.

في شهر سبتمبر، علمت والدة «أوكتافيا» أن اثنتين من بناتها، وهما «فلورنس» و«ميراندا»، ستعودان من إيطاليا، وكانت ترغب في استضافتهما في منزلها. غير أن المنزل الصغير الذي تقيم فيه لم يكن يتّسع للجميع، فأصبحت المشكلة واضحة. عندما سمعت صوفيا بالأمر، عرضت حلًّا كريمًا وهو أن تتخلّى عن مسكنها الخاص، وتنتقل للعيش مع «السيدة هيل» وبناتها في بيت أكبر، يتشاركن فيه النفقات، بل وأبدت استعدادها لتحمّل أكثر من حصّتها في تكاليف الإيجار. ورغم أن «أوكتافيا» ووالدتَها كانتا مترددتين في قبول عرضها، فإن حماس صوفيا وحبها الصادق أقنعهما.

غير أن والديّ صوفيا كان لهما رأي آخر. فقد أبديا تحفظات شديدة تجاه هذه الخطوة. كانا يعلمان أن هذا الانتقال سيتطلب جهدًا كبيرًا، ويُدخل ابنتهما في دوامة عمل متواصلة، وقد تعرف «أوكتافيا» ووالدتُها طباع صوفيا الصعبة؛ فعندما تُرهَق صوفيا، تصبح سريعة الانفعال وصعبة المراس. ومع ذلك، لم يُمانعا من حيث المبدأ، بل عرضا إرسال الخادمة «أليس» لمساعدتها في ترتيب المنزل الجديد.

غادرت «أوكتافيا» ووالدتُها لندن مؤقتًا، وتركن لصوفيا مهمة البحث عن المنزل المناسب. لكنها فوجئت بأن الإيجارات كانت أعلى بكثير من المتوقع، خاصة في الأحياء التي تُفضّلها «السيدة هيل»، مثل شارع «هارلي ستريت» الذي توجد فيه «كلية الملكة». كتبت «أوكتافيا» إلى صوفيا رسالةً رقيقة، تُظهر فيها تقديرها لما تتحمّله صوفيا من مشقة فقالت: «أشكرك على كل العناء الذي تبذلينه في البحث عن المنزل، وأنا أشعر بالخجل أن يقع هذا كله على عاتقك.»

وأخيرًا، عثرت صوفيا على منزلٍ كبير وجذّاب، غير أنه لم يكن في شارع «هارلي» حيث تقع الكلية، بل في رقم ١٤ من شارع «نوتنجام بليس» (Nottingham Place)، القريب منه. وإدراكًا منها لثقل الأعباء المالية المترتبة على استئجار مثل هذا المنزل، قررت أن تؤجّر جزءًا من المنزل لسيدةٍ أخرى، فتُخفّف عن نفسها التكاليف، وتُحسن استثمار المساحة الزائدة. ولعلنا لا نُغالي إن قلنا إن صوفيا، جعلت من بيتها نسخة بدائية من فكرة «Airbnb» المعروفة في زماننا.

بدت الأمور تسير على ما يرام... إلى أن علم والد صوفيا بالخطة. فما إن عرف أن ابنته ستصبح شريكة في بيت يُؤجِّر غرفًا، حتى أسرع بإرسال خطاب شديد اللهجة، يرفض الفكرة تمامًا:

> لا يمكن أن تنوي حقًا استئجار منزل وتخصيص غرف للإيجار، رغمًا عن إرادتي أنا ووالدتك. سيكون ذلك أمرًا مشينًا لا نقبله مطلقًا. لا أستطيع أن أصدق، رغم محبتنا الكبيرة لك، أنك ستعصيننا هكذا، أو أن الآنسة «أوكتافيا هيل»، وهي على علم برأينا، ستشاركك في هذا العمل. لقد قلتِ إن محاميًا سيتولى إدارة عقد الإيجار، وكنتُ أظن أن الأمر لا يتعدى استئجار ثلاث غرف لك ولعائلة «هيل». لم يخطر ببالي قط أنكِ ستصيرين مديرة نُزُل (lodging-house)، فهذا لا يقل غرابة عن أن تفتحي متجرًا بنفسك! لا يمكنكِ أن تظني أنني سأُساعد الآنسة «أوكتافيا»، في أمرٍ أراه مذلًّا بهذا الشكل. أرجو أن تتخلي عن هذه الفكرة تمامًا، فهي إن نُفّذت، ستندمين عليها طول حياتك.

تم التوصّل إلى حل وسط يُرضي الجميع وهو أن تشارك صوفيا في السكن بوصفها مستأجِرة من «أوكتافيا» ووالدتها، لا كشريكة في المنزل. وافق والد صوفيا على هذا الحل، واعتبر أن المشكلة قد انتهت. لكن «والدة أوكتافيا» شعرت بإهانة بالغة، فقد بدا وكأنّ والديّ صوفيا يعتقدان أن ابنتهم تهبط بمكانتها الاجتماعية عبر تعمّقها في علاقتها بعائلة «هيل». ومن تلك اللحظة، فقدت «والدة أوكتافيا» استمتاعها بصحبة صوفيا.

وفي منتصف ديسمبر، تمكنت الأسرة أخيرًا من الانتقال إلى المنزل. وكان لكل واحدة منهن التزامات أخرى أيضًا، فـ «إميلي» تتابع دراستها في «Queen's College»، والبقية يعملن كمُدرّسات. وحين مرضت اثنتان من الأخوات، تضاعف العبء على الأخريات. تراكم التعب، فبدأ التوتّر يظهر في شكل مشاحنات حادة، وإن كانت قصيرة. وكانت «أوكتافيا» هي من تتولّى غالبًا دور المُصلِحة، لكنها — للأسف — كانت أضعفهن من الناحية الجسدية. وفي مايو من عام ١٨٦١، بلغ بها الإرهاق حده الأقصى، وكتبت حينها وصفًا دراميًّا لحالتها: «أشعر أنني شيء مكسور، هزيلة وشاحبة، وأعاني من آلام في الظهر واليدين... أبدو بخير إلى أن أبدأ بالحركة أو الشعور، وعندها أصبح كأنني ظلّ باهت، إحساس غريب يجعلني أشعر أن لمسة واحدة قد تدفعني نحو الهاوية... ومع ذلك، فلا فائدة من الحديث عن الأمر. لا أحد يعرف، لكن ربما تبقّى لي بعض السنوات من الحياة. على أي حال، هدفي الآن أن أرتاح — إن استطعت — دون أن أخيف نفسي.»

وبعد فترة قصيرة، جاء الفرج، فقد وصلت إلى «أوكتافيا» رسالةٌ من صديقةٍ قديمةٍ تُدعى «ماري هاريس» (Mary Harris). كانت «ماري» قد تعافت لتوّها من مرضٍ خطير، وتحتاج إلى من يؤنس وحدتها أثناء فترة النقاهة. وافقت «أوكتافيا» على السفر للإقامة معها، رغم أنها كانت

سابقًا تُعتبر شخصية لا غنى عنها في المنزل الجديد في «نوتنجهام بليس». وهكذا، بدأت عطلتها التي طال انتظارها، واستمرّت خمسة أشهر.

لم تتحسن الأوضاع في المنزل. ففي أكتوبر، كادت السيدة «هيل» أن تأمر ابنتها بالعودة إلى المنزل. وقد امتثلت «أوكتافيا» لذلك، على الأرجح بعدما قررت سلفًا ما يجب فعله. فالشابة الهزيلة التي كانت ترتعب سابقًا من أبسط خلاف أصبحت الآن تتصرّف بعزيمة قوية. فقد رفضت مناقشة المشكلة مع صوفيا، وأعلنت أن صداقتهما قد انتهت إلى الأبد، وأن على صوفيا مغادرة المنزل. كانت أخوات «أوكتافيا» يعرفن أن الخطأ لم يكن خطأ صوفيا وحدها، لكنهن لم يستطعن سوى التفرج على المشهد بأسى وهي تُوضّب حاجياتها وتغادر على عجل إلى مسكن بسيط. لم تستطع العودة إلى «برايتون» قبل أن تنتهي من مهامها التدريسية في «كلية الملكة».

شعرت صوفيا وكأنها فقدت عزيزًا. كانت تظن أن الموت وحده يمكن أن يُنهي صداقتها بـ «أوكتافيا هيل»؛ أما الآن فقد بدا وكأن ذلك الموت قد جاء بالفعل. سكبت صوفيا حزنَها في رسائل طويلة إلى والدتها، وبحثت عن العزاء في إيمانها الديني. وستظل تذكر دائمًا هذه الحادثة كواحدة من أشد لحظات حياتها حزنًا. وعلى مدى شهرين، واصلت صوفيا أنشطتها اليومية المعتادة، متماسكةً في الظاهر، بينما كانت تعاني في السر من اكتئاب شديد. ثم ما لبثت روحها الفتيّة أن استعادت شيئًا من توازنها. وفي مساء يوم من أيام الأحد، جلست حتى منتصف الليل تكتب ملاحظاتها في مفكّرتها. وحين فرغت، كتبت إلى والدتها تقول:

> لا تلوميني لأنني أكتب متأخرة، يا أماه. لا بدّ لي أن أكلّمك. لو أمكنني أن أنقل لك إحساسي بهذا المساء الهادئ السعيد — ذلك الذي أرسلني إلى الفراش ممتلئة بالحب، والفرح، والامتنان... لا، لم يتغيّر شيء في الظروف الظاهرة، لكن السلام الكامل قد حلّ، ولا أستطيع أن أصف لك مدى سعادتي. لقد كان مساءً مباركًا مع اثنتين أو ثلاث من الفتيات... وشعرت أن الله قد منحني قوّة عظيمة لأساعدهن، وأؤمن أنه فعل. لا أعلم كيف، لكنني كلما صحوت بعد وداعهن، أكتشف أن الله قد أزال حملي بالكامل. لقد نسيت نفسي ومشكلتي تمامًا، والآن لا أستطيع العثور على أيٍّ منهما. بالكاد أصدّق ما كنت فيه من ألم وشقاء في الصباح؛ يبدو الآن كذكرى باهتة، بعيدة، ضبابية.

وبرغم أن صوفيا استعادت هدوءها، إلا أن الإحساس بالفقد ظلّ حاضرًا في نفسها لأعوام، وظلت تتشبّث بأمل خافت في أن تُلين الأيامُ قلبَ «أوكتافيا»، وتعود الصداقة بينهما كما كانت، لكن ذلك لم يحدث أبدًا. وبمرور الوقت، وجدت كلٌّ من المرأتين طريقَها الحقيقي في الحياة — وقد كان طريق كل منهما مختلفًا للغاية، حتى إن صداقتهما كانت لتضعف حتمًا، حتى لو لم يقع ذلك الانفصال المؤلم.

بعد أن افترقت مسارات «أوكتافيا هيل» وصوفيا، ومضت كل منهما في دربها الخاص، لم تلبث «أوكتافيا» أن كرّست حياتها للعمل الاجتماعي والميداني الصرف، مبتعدة عن مجال التعليم الذي انطلقت منه في سنواتها الأولى، ومنهمكة في معالجة جذور الفقر والحرمان في قلب لندن الصناعية، وذلك بالتخطيط العملي والمراقبة الدقيقة والتجربة المتكرّرة. وكان أعظم إنجازاتها هو مشروعها الرائد في إصلاح الإسكان الحضري، إذ شرعت في ستينيات القرن التاسع عشر بإدارة مجموعة من البيوت القديمة المتهالكة التي اشتراها لها الناقد الفني «جون رسكن»، وطلب منها أن تؤجَّر للفقراء، ولكن بشروط تحفظ لهم الكرامة وتُحمّلهم المسؤولية. وعبر أسلوب فريد يمزج بين الإدارة الاجتماعية والرعاية التربوية، طورت «أوكتافيا» نموذج «الزيارات المنزلية» (The Housing Visitors Association)، فكانت تُرسل نساءً مثقفات يتابعن السكان أسبوعيًا، ليس لجمع الإيجارات، بل لإرشادهم في النظافة، وتنظيم المعيشة، وتربية الأطفال، والعمل، والانضباط، مؤمنةً بأن الإصلاح الحقيقي لا يكون بإعطاء الفقير مالًا، بل بتمكينه من أن يحيا حياة منتجة ومستقرة وكريمة. وقد توسع نموذجها تدريجيًا حتى أصبحت تُدير آلاف الوحدات السكنية، فصار اسمها مقترنًا في إنجلترا بمصطلح «إصلاح الإسكان» ذاته.

ولم تكتفِ «أوكتافيا» بذلك، بل التفتت إلى ما هو أرقى وهو الدفاع عن حق الناس في الجمال والطبيعة، فأطلقت حملات لحماية التلال والحدائق والمساحات الخضراء من التمدد العمراني، وأسهَمت في تأسيس «المؤسسة الوطنية للمحافظة على التراث» (National Trust) عام ١٨٩٥، وهي الهيئة التي لا تزال حتى اليوم مسؤولة عن صيانة أجمل ما في الريف الإنجليزي من أراضٍ، وبيوت تاريخية، وحدائق عامة. كما أنشأت جمعيات نسائية لتدريب السيدات على العمل الميداني والاجتماعي، وكانت من أوائل من آمن بفكرة أن النساء قادرات على الإدارة المجتمعية الرشيدة.

ولأجل ذلك نالت تقديرًا واسعًا في الأوساط الإصلاحية والملكية على السواء، فمُنحت وسام الشرف الملكي (Royal Red Cross) عام ١٩١٢، قبل وفاتها بعام، ودُفنت في «كاتدرائية ويستمنستر» (Westminster Abbey)، في المكان الذي يُدفن فيه كبار الشخصيات في تاريخ بريطانيا. وهكذا خُتمت سيرة واحدة من أعظم نساء القرن التاسع عشر، التي بدأت معلمةً في حي فقير، وانتهت رائدةً في التخطيط الحضري، وصاحبة أثر خالد في مسيرة العدالة الاجتماعية في أوروبا.

أما صوفيا، فقد كانت تُثني على نجاح «أوكتافيا»، رغم اختلاف رؤاهما في بعض جوانب الحركة النسوية. وكدليل على احترامها الدائم، أدرجت اسم «أوكتافيا» في وصيتها لتكون وريثة ومستفيدة من مال صوفيا بعد موتها. لكن كل هذا كان في المستقبل البعيد. أما في المستقبل القريب وتلك الشهور الأخيرة من عام ١٨٦١، فلم تكن صوفيا تشعر إلا بألم فقدانها لصديقتها.

وقبل عيد الميلاد بأيام، أنهت مهامها المتعددة في لندن، وغادرت المدينة — تلك المدينة التي طالما منحتها سعادة غامرة. وفي منزلها في برايتون، بدأت تضع خططًا جديدة للمستقبل.



أوكتافيا هيل

الفصل الثاني:
إلى إدنبرة للمرة الأولى

بعد أن انتهت صداقة صوفيا بـ «أوكتافيا هيل»، وخرجت من بيتها، استمرّت في لندن تُدرِّس في «كلية الملكة» (Queen's College) حتى نهاية العام الدراسي. ولمّا هدأت نفسُها، واستعادت شيئًا من توازنها بعد الحزن العميق الذي خلّفه هذا الفقد العاطفي، عادت إلى بيتها في مدينة برايتون، وبدأت تُفكّر في الخطوة التالية من رحلتها.

كان بعض أصدقائها قد نصحوها بالتوجّه إلى مدينة إدنبرة، حيث يُظَنّ أنّ فرصَ الدراسة والتعليم هناك أكثر تنوّعًا وثراءً. فقرّرت صوفيا أن تمضي في هذا الاتجاه، ورتّبت أمرَ إقامتها، واصطحبت خادمتها «أليس» (Alice)، وغادرت إلى إدنبرة لتبدأ فصلًا جديدًا من فصول حياتها الفكرية والروحية. لكنّها سرعان ما واجهت صدمة لم تكن في الحسبان؛ إذ اكتشفت أن الدروس المقدَّمة للنساء في إدنبرة سطحيةٌ إلى حدّ السذاجة التي لا ترقى لمستوى تعليمها. كان أحد الأسئلة المطروحة في الصف: «إذا كان القماش يُشترى بسعر شِلنين للياردة، فبأيّ سعر يجب أن يُباع ليحقق ربحًا بنسبة ٢٥٪؟»

وكانت الطالبات يرين في هذا السؤال صعوبة بالغة، بينما رأته صوفيا تافهًا لا يليق بمقام هذا الدرس، وقالت إنها إنما جاءت لتدرس علم الجبر وليس هذه الحسابات التجارية البسيطة. لكنّ المُدرِّسة لم تُخفِ شكَّها في قدرات صوفيا، وسألتها بنبرةٍ تشكّك: «هل تُجيدين فهم الكسور والنسب؟» فأجابت صوفيا بالإيجاب أنها تجيدها وتفهمها، إلا أن ردّ المعلمة جاء مُحمَّلًا بالتحيِّز ضدها حين قالت: «إن الفتيات الإنجليزيات لا يُعرفن بتفوقهن في الرياضيات.» فما كان من صوفيا إلا أن ضحكت وردّت بثقة: «ربما ينطبق هذا على غيري، أما أنا، فلستُ من هؤلاء أبدًا.»

شعرت صوفيا بخيبةٍ كبيرة، وفكّرت جديًّا في العودة إلى إنجلترا، يائسة من أن تجد علمًا يُرضيها، أو تعليمًا يليق بطموحها. لكنّ القدر قادها إلى ثلاثة من المعلّمين كان لهم الأثر الكبير في تغيير مجرى تجربتها هناك، أولهم السيد «بيجبي» (Mr Begbie)، وثانيهم السيد «ويسه» (Mr Weisse)، وثالثهم الآنسة «دي دريوكوس» (Miss de Dreux)، فاتفقوا على أن يُدرّسوها دروسًا في الرياضيات، واللغة الألمانية، والأدب الإنجليزي. وكانت سعيدةً بهم وهم سعداء بها، حتى أن السيد «بيجبي» (Mr Begbie) رفض أن يأخذ منها أيَّ مال على الإطلاق مقابل تدريسه

لها. وأخذت تتعلم وتدرس فإذا بها تجد عندهم ما كانت تفتّش عنه، وجدت علمًا جادًّا، وتعليمًا راقيًا، وجهدًا ذهنيًّا يُرضيها ويُسعدها.

كما يلاحظ المرء أن في هذا التوقيت بدأت علاقتها تتحسن كثيرًا بوالدتها، فكانت الرسائل المتبادلة بينهما تدل على حب طاغ بين الأم وصغيرتها، وبدأت تهتم الأمُّ كثيرًا برفاهة ابنتها طالبة منها أن تجد لنفسها متنفسًا من راحة أو لهو أو لعب، كما جارت بينهما مناقشات وحوارات حول مواضيع كثيرة، من الدين إلى الروايات إلى العقائد إلى العادات والتقاليد وغيرها. فقالت لها أمها: «لا أحد لديكِ لتلعبي معه، ولا أي نوع من الترفيه الإيجابي. أُعجب دومًا بما تُتيحه المدارس العامة من ألعاب ونُزهات، وأفكّر في طلاب أكسفورد أو كامبريدج الذين يملكون قواربهم أو يخرجون لركوب الخيل، أما أنتِ، يا حبيبتي، فلا تملكين شيئًا.»

وفي هذه المرحلة، وسّعت صوفيا آفاقَ قراءتها، فتجاوزت تخصّصاتها الدراسية التي كانت تشمل اللغة الألمانية والرياضيات، وبدأت تقرأ في الأدب والدين، بل ازدادت قراءاتها الدينية في هذه الفترة على وجه الخصوص لتبحث فيما يعرض لها من إشكالات عقدية أو لاهوتية. كما كانت تقرأ في السياسة أيضًا وكان يرسل لها والدُها جريدة (The Times) الشهيرة. فقرأت كتاب «معينات على الإيمان» (Aids to Faith)،[١] الذي يحتوي على مقال «الأيديولوجيا والانتماء الكَنَسي» لكوك،[٢] ومقال «الوحي» لبراون،[٣] ومقال «المعجزات» لمانسل.[٤] وذات يوم، قرأت رواية «جين إير» (Jane Eyre) للكاتبة «شارلوت برونتي» (Charlotte Brontë) للمرة الأولى، وقد تركت الرواية أثرًا عميقًا في نفسها، خصوصًا لأنها رأت فيها قصة معلمة شجاعة تحدّت الظروف وأظهرت روح المبادرة والثبات. وبرغم الانتقادات التي وُجّهت للرواية، بحجة أنها تُشوّه الأخلاق العامة لأن بطلتها تقع في حب رجل متزوّج، بل وما يزيد استهجان الناس لهذه الرواية هو أن العلاقة كانت بين مربية وربّ عملها رفضت صوفيا رفضت تلك الاعتراضات تمامًا، ودافعت عن الرواية بكل قوة وجرأة. فكتبت تقول: «كيف يجرؤ الناس على التحدث بالسوء عن كتاب كهذا؟! أظن أنهم ببساطة لا يستطيعون فهمه. إن قوّتَه، وثباتَه، وصدقَه، وطهارتَه... شيءٌ مجيد بحق.

١- كتاب «معينات على الإيمان» هو كتاب جماعي صدر في ستينيات القرن التاسع عشر، يضم مجموعة مقالات لاهوتية كتبها عدد من رجال الكنيسة الإنجليزية. هدفه الأساس هو الردّ على الشكوك الفكرية والعلمية في عصره (خصوصًا بعد صعود النقد التاريخي للكتاب المقدس ونظرية التطور)، وتقديم أدلّة وعناصر تعزّز ثقة المسيحيين في عقيدتهم.

٢- مقال يناقش مسألة التزام رجال الكنيسة بالعقائد الرسمية وعلاقة ذلك بالحرية الفكرية. يوضّح كيف أنّ الانتماء الكنسي يفرض نوعًا من الالتزام الأيديولوجي، لكنه في الوقت ذاته يُعطي إطارًا يحمي وحدة الكنيسة.

٣- مقال يعالج طبيعة الوحي الكتابي: هل نصوص الكتاب المقدس هي وحي حرفي من الله، أم إلهام موجَّه عبر البشر؟ يناقش آراء مختلفة في زمنه، محاولًا الدفاع عن مصدرية الوحي وموثوقيته مع الاعتراف بدور العقل البشري في التعبير.

٤- مقال يقدّم دفاعًا فلسفيًا ولاهوتيًا عن المعجزات كأدلّة على صحة الإيمان المسيحي. يؤكّد أن المعجزات ليست خرقًا عشوائيًا للطبيعة، بل دلائل مقصودة تكشف عن تدخل إلهي مباشر وتثبت الصلة بين العقيدة والإله.

لقد قرأتُه وأعدتُ قراءته مراتٍ عديدة، كما لم أفعل مع أيٍّ رواية أخرى، وكم كان لذلك وقعٌ شافٍ على نفسي!»

لكن والدتها لم تشاطرها هذا الإعجاب، فكتبت لها بلغةٍ حنونةٍ هادئة: «عزيزتي، يجب أن نؤجّل الحديث عن رواية «جين إير» حتى نلتقي وجهًا لوجه، فلن أستطيع التعبير عن رأيي كتابةً. إنني لستُ ممن يطالبون بمعايير أخلاقية مزدوجة بين الرجال والنساء، لكنني أتمنى للمرأة أن تكون رقيقةً وطاهرةً، وليس ذلك انصياعًا مني للعُرف والعادات، بل لأنني أرى في ذلك أساسًا لاحترام النفس والكرامة. ولا أظن أبدًا أن المربّيات النبيلات يسقطن في حب أرباب عملهن.»

وبالحديث عن تلك الرواية وكاتبتها أقول: وُلدت «شارلوت برونتي» (Charlotte Brontë) في عام ١٨١٦ في ريف مقاطعة يوركشير بشمال إنجلترا، وسط عائلة أدبية كان لها بالغ الأثر في الأدب الإنجليزي. نشأت في بيئة محافظة، وفقدت والدتَها وهي لا تزال في سنّ الطفولة، فتولّت خالتُها تربيتها مع شقيقاتها، ومرت بتجربة تعليم قاسية في المدارس الداخلية، وهي التجربة التي ستنعكس بوضوح في كتاباتها اللاحقة، خاصة روايتها الأشهر «جين إير». عُرفت «شارلوت» وأخواتها، «إميلي» و«آن»، بموهبتهن الأدبية المبكرة، وقد اضطررن في بداية مسيرتهن إلى النشر بأسماء ذكورية مستعارة بسبب التحيز الشديد ضد الكاتبات في القرن التاسع عشر. فكانت «شارلوت» تنشر تحت اسم «كير بيل» (Currer Bell)، وهو الاسم الذي صدرت به رواية «جين إير» لأول مرة عام ١٨٤٧.

أما رواية «جين إير» (Jane Eyre)، فهي تُعد من روائع الأدب الإنجليزي ومن أوائل الروايات التي منحت البطلةَ النسائيةَ صوتًا مستقلًا. تدور أحداث الرواية حول فتاة يتيمة تُدعى «جين إير»، تفقد والديها في سن صغيرة، وتُربّى في منزل خالتها الأرستقراطية التي تعاملها بقسوة واحتقار. ثم تُرسلها إلى مدرسة داخلية قاسية لا ترحم، حيث تعاني من الجوع، والبرد، والظلم، لكنها تُظهر قوةً وعزيمةً وتتفوق في دراستها. وبعد سنوات، تغادر «جين» المدرسة لتعمل كمربية في قصر ريفي يُدعى «ثورنفيلد»، وهناك تتعرف على صاحب القصر، السيد «روتشيستر» (Mr. Rochester)، وهو رجل غامض، وجذاب، ومليء بالتناقضات.

مع مرور الوقت، تتطوّر علاقة حب بين «جين» والسيد «روتشيستر»، إلا أن الأمور تأخذ منحًى مأساويًّا حين تكتشف ليلة زفافها منه أنه متزوج من امرأة مختلة عقليًّا يحتجزها سرًا في علية القصر. تُصاب «جين» بصدمة عاطفية وأخلاقية، وتقرر الهروب، رغم حبها العميق له، لأنها لا تقبل أن تكون جزءًا من علاقة محرّمة أو أن تضحّي بكرامتها. تغادر «جين» وتواجه رحلة طويلة من التشرد والاكتشاف، وتجد لاحقًا أسرةً جديدة وتكتشف أنها وريثة لثروة ضخمة. بعد أن تتبدّل الأحوال، تعود إلى السيد «روتشيستر» الذي فقد بصره في حريق دمَّر القصر، وتقرّر أن تبدأ معه حياة جديدة مبنية على المساواة والاحترام.

وقد تميّزت الرواية بلغة أدبية رفيعة، وبسردها بصيغة المتكلم (السرد الذاتي) وهو ما يسمّى بالإنجليزية (First-person narration)، مما أتاح للقارئ أن يقترب من مشاعر البطلة ويشاركها رحلتها الوجودية.

كما تُعد الرواية من الأعمال الرائدة في الأدب النسوي، فقد طرحت بوضوح مسألة استقلال المرأة وحقها في اتخاذ قراراتها بحرية تامة، بعيدًا عن سلطة الرجل والمجتمع والدين. «جين» لم تكن فتاة متمردة على القيم والأخلاق، كل ما هناك أنها كانت ترفض أن تُعامل ككائن أدنى لمجرد أنها امرأة فقيرة. وبينما أثارت الرواية إعجاب الكثيرين، فقد تعرّضت أيضًا لانتقادات من المحافظين في عصرها، الذين رأوا أن البطلة لا يليق بها أن تحب رجلًا متزوجًا، وأن العلاقة بين مربية وربّ عملها تُهدد التقاليد الاجتماعية. لكن «شارلوت برونتي» دافعت عن بطلتها ببراعة، وقدّمت صورة ناضجة ومتعاطفة لبطلٍ وبطلة يقعان في الحب عبر حوار فكري وأخلاقي معقّد، وليس مجرد انجذاب سطحي بين رجل وامرأة.

لقد تركت رواية «جين إير» أثرًا بالغًا في القُرَّاء والنُقَّاد على حدٍ سواء، ولا تزال تُدرّس وتُقرأ حتى اليوم، وأُعيد إنتاجها عشرات المرات في السينما والمسرح والتلفزيون. وتُعتبر السيدة «شارلوت برونتي» اليوم من أعمدة الأدب الإنجليزي الكلاسيكي، وقد ساهمت بشكل كبير في التمهيد لظهور الرواية النفسية والاجتماعية المعاصرة، وفتحت الباب أمام أصوات نسائية قوية في الأدب العالمي. كما تُرجمت هذه الرواية إلى اللغة العربية على يد «منير بعلبكي» لمن أراد أن يقرأها ويستمتع بها.

من الجدير بالذكر كذلك أن أقول بعد قراءتي لهذه الرواية، وبعد معرفتي بصوفيا وسيرتها وأفعالها: إن شخصية «جين إير» في الرواية بعنادها وقوتها، وصراعها لنيل حقها، ومعاناتها التي مرت بها، لهي صورة طبق الأصل من شخصية صوفيا، لذلك فلا عجب أن تُفتن صوفيا بهذه الرواية؛ فبطلة الرواية لا تختلف شخصيتُها عن شخصية صوفيا مثقال ذرة.

وفي هذه الأثناء التي كانت تدرس فيها صوفيا في مدينة إدنبرة، كانت تتواصل مع صديقة لها قديمة كانت تعرفت عليها في لندن، وهي الآنسة «إليزابيث جاريت» (Miss Elizabeth Garrett)، وقد كانت المناسبة التي التقين فيها لأول مرة سلسلة من المحاضرات العامة حول علم وظائف الأعضاء البشري، ألقاها العالِم الشهير «توماس هنري هكسلي» (T.H. Huxley). وقد عُرف هذا العالِم بصداقته القريبة من «تشارلز داروين» (Charles Darwin)، ودفاعه عن نظرية التطور، وبمناظرته الشهيرة في جامعة أوكسفورد التي تمت عام ١٨٦٠. كان «توماس هكسلي» يناظر فيها الأسقف «صموئيل ويلبرفورس» (Samuel Wilberforce) أسقف أوكسفورد، فقال له الأسقف «صموئيل»: «إذا كنتَ تعتقد بنظرية التطور وأن الإنسان قد تطور من القردة، فأخبرنا يا «هكسلي»، أي جديك كان قردًا، أكان جدك لأبيك قردًا أم جدك لأمك؟»

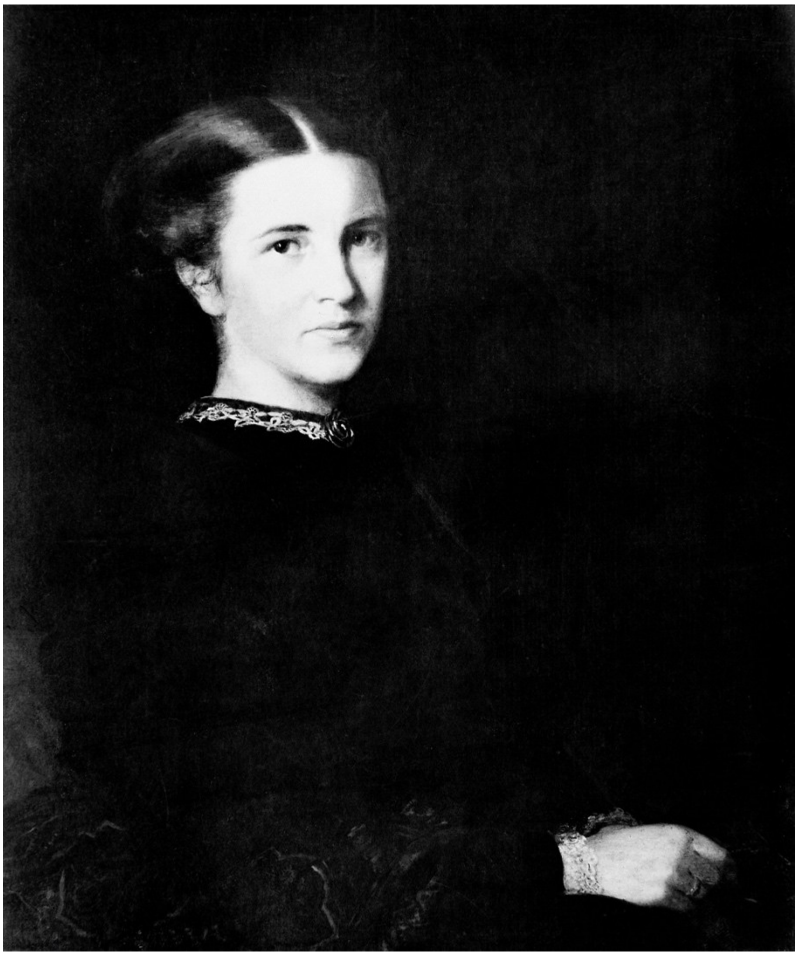
فأجابه «هكسلي» قائلًا: «إنني أُفضِّل أن يكون جدي قردًا على أن يكون شخصًا يستخدم ما أوتي من عقل وحجج، فقط ليهرب من الحقيقة وينكر الواقع ويزيف العلم.»

حينما كانت صوفيا لا تزال في لندن، رأت أن المعلمين ينبغي لهم أن يلمّوا بأساسيات علم وظائف الأعضاء والصحة العامة، فأقنعت اثنتين من أخوات «أوكتافيا هيل» بمرافقتها. لم يكن في القاعة الواسعة إلا نساء معدودات، وكانت «إليزابيث جاريت» وصديقتها الآنسة «دروري» (Drewry) من بين هؤلاء القليلات. وبعد انتهاء المحاضرة، أبدت النساء حماسة لتبادل الآراء وردود الفعل. وكانت «إليزابيث» تقيم حينها في منزل أختها المتزوجة، «لويزا» (Louisa)، فدعت الباقيات للعودة معها إلى المنزل لاستكمال الحديث.

ويبدو أن صوفيا قد تركت انطباعًا مُرضيًا في لقائها الأول مع «إليزابيث»، التي كانت تفتقد إلى مؤانسة أختها «لويزا» وعائلتها. فكتبت «إليزابيث»: «سأكون في غاية السرور إن عملتُ مع الآنسة صوفيا، لأنني بحاجة إلى من أحدثه؛ فالوحدة القاتلة التي أعيشها الآن لا تُحتمل، لا سيما وأنني، مثلك، لا أعوّض قلة الكلام بكثرة التفكير.» وقد ضاعت فرصة التعاون بينهما عندما غادرت صوفيا لندن، لكن «إليزابيث» تذكّرت أمرَها بعد بضعة أشهر، حين قررت زيارة إدنبرة.

كتبت «إليزابيث» إلى صوفيا تُعلمها بنيّتها التقدّم بطلب الالتحاق بجامعة إدنبرة لدراسة الطب، وطلبت منها المساعدة في ترتيب المقابلات اللازمة. أيقظت تلك الرسالةُ في نفس صوفيا ذكريات عن طموح «إليزابيث» الفريد والمصاعب التي كانت تواجهها. كانت «إليزابيث جاريت»

تكبر صوفيا بنحو أربع سنوات، لكنها كانت تشاركها الطموح والإصرار على إيجاد هدف ومعنى يستحق السعي إليه والعمل لأجله.



إليزابيث جاريت

«يا للآنسة جاريت وقوتها!» هكذا كتبت صوفيا في يومياتها بتاريخ ١٩ مايو ١٨٦٢، «إنها تدفعني لكسر الوصية العاشرة.[١] فهي تدرس حساب المثلثات والبصريات، وتنطلق بسرعة البرق، بينما أتحرك أنا زحفًا!» ومع ذلك، نشطت صوفيا في إدنبرة لترتيب مواعيد لـ «إليزابيث» لرؤية شخصيات مؤثرة في المدينة يدعمونها في قرارها للتقدم بدراسة الطب في جامعة إدنبرة، وفي التاسع والعشرين من الشهر ذاته أرسلت برقية لتتأكد من أن «إليزابيث» ستأتي فعلًا في اليوم التالي. بقيت «إليزابيث» معها لمدة أسبوعين في «٣ شارع مايتلاند» لتقوم بجولات على جامعة إدنبرة أملاً في القبول.

١- الوصية الأخيرة والعاشرة من الوصايا العشر في الكتاب المقدس التي أنزلها الله على موسى تقول: «لَا تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لَا تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلَا عَبْدَهُ، وَلَا أَمَتَهُ، وَلَا ثَوْرَهُ، وَلَا حِمَارَهُ، وَلَا شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ». وهنا تقصد صوفيا أنها غارت من «إليزابيث» نتيجة دراستها الموسعة وجهدها العظيم وتمنت لو كانت هذه هي حياتها ودراستها.

جالت الشابتان على عدد من الشخصيات المهمة، وفوجئ الكثيرون بأن صوفيا لم تكن هي الفتاة المتقدمة لطلب الدراسة، فقد كانت طويلةَ القامة، مفعمةً بالحيوية، ذات عيون سوداء لامعة تتحدث هي دومًا وتناقش وتجادل وتبذل كل ما يمكن بذله، بينما البطلة الحقيقية كانت صغيرة القامة، هادئة الأسلوب والتصرفات. كانت الفتاتان تتمتعان بروح الدعابة والمرح، وكان من الصعب عليهما الحفاظ على وجوه جادة عابسة. وللاحتفال بعيد ميلاد «إليزابيث» السادس والعشرين في ٩ يونيو، خرجتا في رحلة إلى منطقة «تروساش»، مستخدمتين عربات الدرجة الثالثة ونُزُل متوسط الحال لتوفير المال. تولت صوفيا القيادة، ورضيت «إليزابيث» بأن تترك لها دور القيادة، مفتونة بجمال الطبيعة. تسلقتا الصخور معًا، ولكل منهما أسلوبها المميز؛ إذ كانت صوفيا تختار دائمًا الأماكن الأكثر انحدارًا وخطرًا، بينما كانت «إليزابيث»، رغم إصرارها على إخفاء خوفها، تختار طريقًا أكثر أمنًا بين الأشجار والشجيرات. كانت طاقتهما فائضة، وفي صباح الأحد، قبل الإفطار، تسلقتا جبل «كريج مور»، وعندما بلغتا القمة، أطلقتا صرخة عالية في جو السماء، ثم جلستا لقراءة الصلوات المقررة لليوم.

بعد ثلاثة أيام عادتا إلى إدنبرة، حيث انضم إليهما والد «إليزابيث» السيد «نيوسون جاريت» لمصاحبة ابنته في جولة إضافية من المقابلات في الجامعة. وجاءتهما رسالة من الطبيبة «إليزابيث بلاكويل» تحثهما على المثابرة، لكن النتائج كانت مخيبة للآمال. إذ رفض اجتماعُ الأطباء في جامعة إدنبرة قبولَ الآنسة «إليزابيث» بأغلبية ١٨ صوتًا رافضين، مقابل ١٦ صوتًا موافقين.

غير أن هاهنا تفصيلة دقيقة، لها في فهم أحداث الحكاية وزنٌ ثقيل، لا يصح إغفالها لأنني سأُذَكِّرُ القارئَ بها بعد ذلك. فقد أوردتْ صوفيا في رسالةٍ بعثت بها إلى صديقتها، تسرد فيها ما جرى بينها وبين «إليزابيث»، فقالت:

> لا أعلم أن كان ينبغي علينا أن نعدَّ نتيجة اجتماع الأطباء هزيمة أم انتصارًا —— فقد رُفض اقتراح «النظر في مسألة قبول الآنسة جاريت» بفارق ١٨ صوتًا مقابل ١٦ —— وهذا محبط جدًا من حيث النتائج القريبة المباشرة، لكنه يُعد انتصارًا كبيرًا من حيث المبدأ وعلى المستوى البعيد، تمامًا كما حدث في جامعة لندن.
>
> إنهم، في جامعة إدنبرة، **لم «يرفضوا قبولَها» صراحةً، بل «أجلّوا النظرَ في المسألة» إلى أجلٍ غير مسمى**، حتى إذا ما تغيّر الزمنُ وتبدّلت الآراءُ، تمكّنوا من إعادة النظر في المسألة من غير أن يُتهموا بالتناقض.

الفصل الثالث:
إلى ألمانيا

لقد كان لتلك الأيام الوجيزة التي جمعت بين صوفيا وصديقتها «إليزابيث» وقعٌ عميقٌ في نفسها، إذ ما إن غادرت «إليزابيث» مدينة إدنبرة قاصدةً مدينة سانت أندروز مُحاوِلةً الالتحاق بجامعتها، حتى استيقظ في قلب صوفيا شغفٌ جارفٌ بالعلم والتعليم، وكأن تلك الصحبة القصيرة قد أضرمت فيها نار الطموح. وما لبثت أن انطلقت تُمنِّي النفس بأن تسلك طريق التعليم والتدريس كمُؤسِسةٍ لصرحٍ تربويٍ رفيع الشأن، يكون نموذجًا يُحتذى في تعليم البنات، ينافس أعظمَ ما أُنشئ من مدارس ومؤسسات في العالم أجمع.

ولم يكن في خاطرها قط أن تسير على خُطى صديقتها فتخوض غمار دراسة الطب، فلم يكن ذاك المجال مما تشتهي أو ترجوه. بل كان هواها وميلها إلى التعليم، وبناء العقول، وليس دراسة الطب لمداواة الأبدان والأمراض. بل إن التعليم الجامعي نفسه سواء كان في مجال الطب أو غيره لم يكن يومًا هدفًا لصوفيا، فهي كانت تساعد صديقتها «إليزابيث» في حصولها على ما تريد، لكنها لم تر هذا مطلبًا تسعى هي إليه! فلم يخطر ببالها أن تحصل على شهادة جامعية، فضلًا عن أن تكون هذه الشهادة في مجال الطب.

أما وأن التعليم صار هدفها الأسمى، فمن ثمَّ، عقدت العزمَ على أن تخرج من وطنها، باحثةً عن آفاق أوسع، وتجاربَ أغنى، تصقل بها خبرتها، وتنهل من ينابيع الحضارة والتقدّم، حتى تعود فتنشئ مدرسةً تضاهي بها أعظم ما في الدنيا من مدارس. وقد وقع اختيارُها على ثلاث دولٍ مناراتٍ للعلم والحضارة: فرنسا، وألمانيا، والولايات المتحدة الأمريكية. بيد أن والدها، كعادته، قد وقف معارضًا، ولم تكن معارضته على ما قد يتوقع القارئ من أسباب، بل عارض سفرها لأجل أمرٍ يثير العجب والاستغراب؛ فإنها حين عملت في التدريس سابقًا في «كلية الملكة» لم يعترض على سعيها في طلب العلم، ولا على رغبتها في العمل، ولم يمانع في سفرها ولا استقلالها، بل كان موضع اعتراضه الوحيد هو أن تعمل ابنته معلمةً تتقاضى أجرًا!

ثم تكرّر موقفُه هنا ثانيةً حين نوت الرحيلَ عن بريطانيا إلى بلد آخر؛ إذ لم يزعجه طموحُها، ولا أغضبه مشروعُها، ولا أرّقه بُعدُها، وإنما شغله أمرٌ واحد، كان باعث معارضته ومنبع قلقه، وهو أن تسافر ابنته ذات العقيدة الإنجليكانية إلى بلادٍ يغلب عليها الكاثوليك، فتتأثر بهم

وتضطرب عقيدتها. ذلك هو السبب الوحيد الذي أقلقه، وذاك هو الخوف الذي ألقى في نفسه الخوف والرفض والتردد.

آثر الأب أن تسافر ابنته إلى ألمانيا على أن تسافر إلى فرنسا، إذ رأى فيها شرًّا أهون؛ فألمانيا، في النهاية، تتبنى العقيدة البروتستانتية، والتي تعد بريطانيا جزءًا منها، وإن كان بينهما من الخلاف الكثير، لكنه أهون وأخف من الخلاف مع عقيدة مختلفة تمامًا كالكاثوليكية. وأرادت صوفيا أن تُرضيه، فاختارت أن تبدأ رحلتها من ألمانيا، سعيًا وراء العلم، ومُدافِعة عن قرارها برسالةٍ كتبتها إلى أمها. وأراها رسالةً في غاية الجمال، ولهذا أريد أن أنقلها كلَّها للقارئ لما فيها من نضج وخلق نبيل وهدف عظيم، كتبت صوفيا إلى أمها تقول:

> إلى أمي العزيزة. كنتُ أرجو أن يكون قراري بالسفر إلى ألمانيا أمرًا قد حُسم بالقبول، لا من جانبك وحدك، بل ومن جانب أبي أيضًا، إذ إنني، احترامًا لرغبته (أو ربما رغبتك أنت؟)، وضعتُ ألمانيا في مقدمة اختياراتي قبل فرنسا، واستجبتُ لرأيكِ بأن تكون قبل أمريكا.
>
> يا أمي الحبيبة، إنني أنظر إلى حياتي اليوم بنظرةٍ مختلفة، أراها أداةً وضعتها السماءُ في يديّ، وسأبذل جهدي لأجعلها في خدمة رسالتي، وأُشكّل كل منهما ليخدم الآخر. لقد تبلورت لديّ، منذ زمن، قناعةٌ قوية، تؤكدها الخبرةُ اليومية وآراءُ من حولي، بأن أفضل ما يمكنني فعله الآن هو أن أُكرّس سنواتٍ من عمري لتأمُّلِ تجارب الأمم الأخرى، وأن أستقي منها ما يُعينني على بناء صرحٍ فكريٍّ عظيم في المستقبل. وأعتقد أن بوادر هذه الرسالة قد تجلّت أمامي مبكرًا، وجاء معها شعور داخلي صادق بأن هذه السنوات، إن لم أُحسن اغتنامها الآن، فلن أتمكن من استعادتها يومًا. وأبسط ما يمكنني قوله، للتعبير عن هذا التكريس، هو أن أُقدم حياتي لله قربانًا خالصًا، وأقول: «يا رب، لقد منحتني هذا العمل، وقد منحتني ما يؤهلني له، فدلّني على الطريق لأُتمّه كما يليق.» ولأجل هذا، سأبذل حياتي لأُنمّي ما لديّ من قدرات، ثم أُوظّفها في الموضع الذي يرشدني إليه الله. إن قصدي الوحيد اليوم هو أن أذهب إلى حيث أستطيع أن أتعلم ما يُقوّيني فكريًّا وعمليًّا، وأن أكتسب الخبرة التي تُعينني على فهم النظم التعليمية، لأتمكن —— إن أُسند لي ذلك —— من بناء نظام أقوى هنا في بلادي.
>
> إن قدّر لي أن أكون قائدةً في هذا المجال، فسأسعى أن أكون على قدر هذه المكانة، وإن قدّر لي أن أكون في موقع أدنى، فسأخدم من موقعي بأقصى ما أملك من تفانٍ وإتقان. إنني أُصلي من أعماقي ألا أندم يومًا على تقصير، أو أقول في لحظة ضعف: «ليتني كنتُ أصْدَق، أو أحْرَص، أو أعمل بجدٍ أكثر.»

أنتِ، يا أمي، تعرفين الهدف الذي أحيا من أجله، وتعرفين الأمل الذي أسعى إليه. أرجوكِ أن تنظري في المسألة بعينك المجردة، واسأليني: هل هذا الطريق الذي اخترته هو الأقرب لتحقيق ذلك الهدف؟ انظري إلى حياتي كما لو كانت وسيلةً، واسألي: كيف أُحسن استخدامها لتُفضي إلى الغاية؟ إنني أُناجيكِ من داخل أعماقي أن تُساعديني في الوصول إلى الحقيقة. وإن بدا لكِ طريقٌ أفضل، غير الذي أسير فيه الآن، يُقرّبني من غايتي أكثر، فأرشديني إليه. أُقسم لكِ أنني لا أتشبّث بخيارٍ محدد لمجرد أنه فكرتي، بل أفتح قلبي وعقلي لكِ، مستعدة أن أتخلى عن كل ما فكرتُ فيه، إن دللتِني على ما هو أنفع، وأنا واثقةٌ أن الله سيرشدني لما هو خير.

خذي هذه المسألة في ذاتها، واحكمي عليها، وانظري: هل أحسنتُ الاختيار؟ فإن وافقكِ ضميرُك — وأنتِ مَن علّمني الصدق — فستجدين أن هذه هي النقطة الأهم وهي أن نعرف ما يجب علينا فعله، وأن نُعطى القوة لنُتمّه. لقد قلتُ لكِ من قبل، وأكرّره الآن: إن احتجتِ أنتِ أو أبي لوجودي بجانبكما، فسأتخلّى عن كلِّ شيءٍ وأعود، وأُفرغ وقتي لما أراده الله لي هنا، وليس ما أراه أنا. لكن حتى ذلكم الحين، فإنني أرى بوضوح ما أسمّيه «عمل إلهي سماوي»، فأعينيني، يا أمي، لأكرّس حياتي له كما أحب وأرجو.

أما التفاصيل اليومية، فأظنني سأُحسن التعامل معها بخبرتي المتواضعة. لقد أوليتِني ثقتكِ مرارًا، ولم أُخيبها، فهل أخطأتِ يومًا في الوثوق بي؟ سأجتهد بكل طاقتي أن أكون حريصةً في قراراتي، حكيمةً في ترتيباتي، وأعلم أنكِ ستجدين راحة في قلبي، حتى إن بدا لكِ هذا الطريق جديدًا أو صعبًا. لقد مررتُ من قبل بظروف أصعب وخرجتُ منها أقوى، وسأفعل الآن أيضًا. أما قلقي على نفسي، فلكِ أن تذكّري نفسك بما قلته لي دومًا: «ثقي بمن يحفظ إسرائيل»، وقلتِ لي إن حب الله أعمق من حبكِ لي، فهل لا يمكنكِ أن تثقي فيه من أجلي أيضًا؟

أعرف أن بعض ما سبق من أحداثٍ قد زاد الأمورَ صعوبةً، لكن، يا أمي، ما الذي يُخيف في هذا كلِّه؟ إن كان اللهُ قد اختار لي هذا العملَ، فسوف يحفظ حياتي ما دامت وسيلةً لإنجازه. وإن لم يكن كذلك، فلماذا أعيش؟ هل تُحزنكِ راحةُ من تُحبينهم إن كانت في ريعان شبابهم؟ عندما ندرك أننا كلّنا حلقات في سلسلة الله الكبرى، تتضاءل قيمة حياتنا الفردية. إن الهدف الأسمى ليس في طول العمر، بل في أن تتحقق مشيئة الله فينا، وفيما نصنع، وفيما نترك خلفنا، أحياءً كنا أو أموات.

لقد تعلمت مؤخرًا أنَّ كلَّ شيءٍ من فراقٍ وبُعْدٍ ومسافةٍ، إنما هو من سنن الحياة، وأن علينا أن نعمل لأجل الله، لا أن ننتظر الثمرة. تمسّكي، يا أمي، بما آمنتِ به دومًا وهو أن المعلمين ما هم إلا وسائل، وأنَّ الهدايةَ من اللهِ وحدِّه، سواء كان البشر موجودين أم لا. كما قلتُ هذا الصباح، أقولها الآن: «الرّبُّ قد ملك، فلتفرح الأرض.»

وبهمةٍ عالية، رتبت الآنسةُ «دي درو» (Miss de Dreux) أمور سفر صوفيا إلى ألمانيا، وتحدثت مع صديقتها هناك كي تُقيم صوفيا في مدينة «جوتينجن» (Göttingen) مع أسرةٍ ألمانية، ريثما تجد لها مقامًا بين المعلّمات. وفي ليلة الحادي والعشرين من شهر يوليو عام ١٨٦٢، سافرت صوفيا من لندن إلى بلجيكا، وكانت رحلتها هادئةً، باردة الطقس، مُمتعة المشهد. ومن هناك توجهت إلى مدينة «كولون» الألمانية، فباتت فيها ليلةً، ثم حطّت الرحالَ في «جوتينجن». وهناك، ورغم حاجز اللغة، رحّبت بها الأسرة الألمانية واحتضنتها، حتى صارت منهم. ثم قضت بينهم شهرين، تتعلم لغتهم، وتُعلّم ابنتهم الإنجليزية، وتبحث في شؤون تعليم البنات في هذا البلد الجديد. وظهر لها أن «معهد مدينة مانهايم الدوقي الكبير» (Grand Ducal Institute) هو ضالّتها المنشودة. ذاك المعهد، الذي أسسته الدوقة «ستيفاني» — ابنة «نابليون بونابرت» بالتَّبَنِّي — عام ١٨١٩، كان منارةَ علمٍ للفتيات اللواتي أتممن المرحلةَ الدراسية الأساسية وبلغن الرابعة عشرة. وفي سنتين، كانت تُدرَّس لهن علومٌ شتّى، وتُنمّى أذواقُهن في الفنون، ويُفتح البابُ أمام جميع الطوائف الدينية المختلفة، بلا تفرقة بينهم، وكانت الصلوات تُقام بشكل جماعي.

وفي عهد مديراته البارزات، بلغت شهرة المعهد الآفاق، وجذبت طالبات من أرجاء أوروبا، بل وحتى من أستراليا البعيدة النائية. وعندما علمت صوفيا أن أهداف المؤسِّسة لا تزال قائمةً، رغم تغير إدارة المعهد أكثر من مرة، كتبت إلى المديرة السيدة «فون بالاوس» (Fräulein von Palaus) تلتمس وظيفةً هناك لتعمل كمعلمة للغة الإنجليزية في ذاك المعهد العظيم.

غير أن المعهد آنذاك كان يرزح تحت وطأة أزمات ماليةٍ خانقة، فلم يكن بوسع المديرة أن تقبل صوفيا معلمةً للغة الإنجليزية في تلك المرحلة. فما كان من صوفيا إلا أن عزمت أمرَها، وشدّت الرحال إلى مدينة «مانهايم»، عاقدةً العزمَ على أن تلتقي بالمديرة وجهًا لوجه. فإن لم تُقبل كمُعلمة، فإن في داخلها طالبةً ظمأى للدراسة والمشاهدة ومعاينة التجربة عن قرب. فهي لم تكن تطلب من هذا السفر منصبًا أو جاهًا، بل كانت غايتُها أن تُبصر بأمِّ عينها كيف يُدار التعليم في أحد أعظم صروح العلم في العالم. فإن لم تُمنَح شرف التدريس، فحسبها أن تكون فيه طالبةً للعلم.

وفي صباحٍ من صباحات سبتمبر، نهضت صوفيا، وبدأت رحلتها جنوبًا. ولما بلغت مدينة «مانهايم»، نزلت بفندق وُصف بأنه «نظيف، زهيد، ومهذّب»، وبعد يوم من السفر، أسلمت نفسها للراحة والنوم. وتذكرت، وهي تبتسم، «لوسي سنو»، وهي بطلة رواية «ڤيليت» (Villette)، تلك الرواية التي كانت آخر ما نُشر من أعمال الكاتبة البريطانية الشهيرة «شارلوت برونتي» (Charlotte Brontë). وكانت بطلة الرواية فتاة إنجليزية سافرت إلى أوروبا وبدأت حياتَها هناك في تدريس اللغة الإنجليزية في مدرسة للبنات في مدينة «بروكسيل».

وفي اليوم التالي، ارتدت أجملَ ما عندها، وتوجهت إلى معهد «مانهايم». قابلتها الآنسة «فون بالاوس»، وكانت سيدةً رزينة، وفيها من الودّ ما تأنس له النفس. تم اللقاء باللغة الفرنسية. وصرّحت السيدة «فون بالاوس» بأنه لا توجد وظائف دائمة متاحة لديهم الآن، لكن إحدى المعلمات في إجازة مرضية، فثمة منصب مؤقت. كما نبهتها إلى أن غرف المعلمات بسيطة في تجهيزاتها، وطعامهن متواضع، وأن المعهد وإن لم يكن ينظر إلى عقائد الدارسين به إلا أن الصلوات اليومية واجبة على الجميع. ولم تجد صوفيا في ذلك حرجًا، وبعد أَخْذٍ ورَدٍّ، اتُّفقتا على أن تعمل ستة أشهر، تنال فيها المأوى والمأكل، دون راتب.

عادت صوفيا مهرولةً إلى فندقها، تلملم حاجياتها، وما هي إلا ساعة حتى استقرت في مساكن المعلّمين بمعهدها الجديد. وقد غمرتها الفرحةُ حتى كادت تطير بها؛ فها هي لأول مرة في حياتها تكسب رزقها بجهدها، وقد أصبحت نفقتها من أبيها تُنفق في الكماليات التي تحتاجها فقط. وفي الأسبوع الأول أو الثاني، لم تُكلّف صوفيا بإلقاء الدروس، بل اقتصر دورها على الإشراف على تدريبات الطالبات الموسيقية. وكان في قلبها شيءٌ من الرهبة تجاه هذه المسؤولية التي أُلقيت على كاهلها كمُعلِّمة. ففي لندن، اعتادت أن تدرِّس لفتياتٍ ناضجات، يتوقن إلى العلم، ولا حاجة فيهن للزجر أو التأديب. أما الآن، فقد صارت في مواجهة صفوف تضج بخمس وعشرين زهرة من زهرات الصبا، سريعات الملل، شاردات الذهن. ولكن، مرّت أولى حصص اللغة الإنجليزية بسلامٍ ورضا. كتبت تقول: «لقد قدمتُ اليوم درسًا واحدًا، وأنا على وشك تقديم آخر، — يا لها من لذة! كأنني حصان جائع أعيد إليه الشوفان بعد عام من الحرمان! كانت الآنسة «إليزابيث جاريت» على حق حين قالت لي: «ابدئي بالتدريس!» كم أفرح بنفسي وأنا أشعر بالنشاط يملؤني، وكأني عائدة إلى ميدان الكفاح والكدح بسرور لا يوصف.»

وإلى صديقتها «لوسي ووكر»، التي كانت تلميذتها ذات يوم في «كلية كوينز»، كتبت تقول: «يسرني ما أراه من انسجامٍ بين المعلمين والطلاب، ومن المبادئ العامة التي، وإن لم تكن في القمة، فهي خير مما تجده في أكثر المدارس الداخلية الإنجليزية.»

أما فيما يخص الدين والعقيدة، فقد وجدت صوفيا في طابعه التوحيدي ما يلامس وجدانَها. فكتبت لأمها تقول: «[ذلك التوحيد] أثّر في نفسي كثيرًا بجماله البديع حين قالت الآنسة

«فون بالاوس»: «ليس تحت السماء اسم آخر به نُخلَّص»، فتلّقيناه بخشوع ونحن راكعون — بروتستانت، كاثوليك، موحدون، وثالوثيون — كلٌّ بلغته ولسانه. أليس في هذا الاسم المبارك من العظمة ما يجمعنا كمسيحيين؟! نسعى جميعًا لروح المسيح الذي أحبنا، عسانا نحب بعضنا بعضًا.»

وقد حازت المديرة على احترام صوفيا ومحبتها، حتى وصفتها قائلة: «تلك السيدة الطيبة، «فون بالاوس»! لأشبهها بشعاع الشمس! كم تنير الدارَ بأسرِها! وكم هو بسيط ذاك المصباح الذي يبعث ضوءًا عظيمًا!» لكن، ما دامت الدنيا تدور، فلا يدوم السرور. ورحم الله المتنبي حين قال:

فما يدومُ سُرورٌ ما سُرِرتَ به ..... ولا يَرُدُّ عليك الفائِتَ الحَزَنُ

ففي «المعهد الدوقي الكبير»، كانت الحياة تؤخذ بمنتهى الجدية، وليس هذا بجديد في الثقافة الألمانية. ورغم أن هدفه كان تعزيز الصحة البدنية، إلا أن النجاح في هذا الجانب لم يُكتب له. فالطالبات كنّ يفتقرن إلى أبسط الأنشطة التي تُمارس الهواء الطلق. وكم اندهشن من شغف صوفيا بالتنزه والسير، ومن حبها لنوافذ مفتوحة تستقبل الهواء النقي. فلا توجد إجازات نظامية، ولا فترات راحة، والمديرة لا تأخذ إلا أسبوعًا واحدًا في السنة، وقد تفوِّته أحيانًا! وكانت الفتيات لا يُسمح لهن بالذهاب إلى بيوتهن إلا نادرًا ولمدة قصيرة. فليس بعجيب أن تصير الطالباتُ متجهماتٍ، والمعلماتُ متبرماتٍ.

ومع منتصف فترة تعيينها، تبدد فرح صوفيا، وحل محله الاكتئاب ولوم النفس، فكتبت في يومياتها تقول: «لا أدري ما السبب، ولكنني أشعر بثقل عظيم، ثقل العمل، — وضعفي البائس عن الإيفاء به. يا إلهي، كم أنا ضعيفة وبلهاء وغير مؤهلة! وليس هذا تواضعًا، بل الحقيقة الصادقة.» كانت طالباتها في البداية يتهيّبن المعلمة الإنجليزية الغريبة، ولكن ما إن ألفنها حتى بدأن يعرفن قدرتها على فرض النظام. وكانت صوفيا تشعر بعجزها في هذا المجال؛ فلم تستطع أن تضع لنفسها قوانين بسيطة تلتزم بها بقوةٍ وصرامة.

بدأت الفتيات يستهزئن بصوفيا ولم يكن ذلك بسبب ذنب اقترفته أو تعامل جاف كن يتلقينه منها، بل لأنّها لم تكن تجيد الغناء أو الرسم أو التطريز! ولم يتوقفن عند هذا الحدّ، بل ضحكن منها حين غلبتها العَبرة أثناء القُداس الديني والصلاة، واغرورقت عيناها بالدموع تأثرًا. إنّه بكل بساطة سلوك طفولي متوقع من هذه الفئة العمرية من الطالبات، لكنه كان مؤلمًا لشابة مغتربة، بعيدة عن أهلها، ووطنها، ودفء بيتها. ولعل صوفيا لو شاءت، لكانت أبهرت تلميذاتها بمظاهر الرفاه، ولبست أفخم الأثواب، وتزينت بما تشتهي من الحُلي، ولعبت دور «السيدة الأرستقراطية»، فأثّرت في نفوسهن، وأسكتت ألسنتهن. لكنها اختارت لنفسها طريق البساطة والزهد، ورفضت أن تتقمص شخصيةً لا تمثل حقيقتها.

وكما ذكرتُ سابقًا إنها تشبه «جين آير» في رواية «شارلوت برونتي» كثيرًا، فكانت «جين» لا تحب اللباس الفاخر، ورفضت أن ترتدي فستانًا غاليًا في حفل زواجها، كما رفضت كذلك أن تُعطى الذهب والأساور والفضة. كانت «جين» تريد أن تعيش حياةً عادية في مظهرها وطريقة تعاملها، وكذلك كانت صوفيا.

ثم جاءت نقطة التحوّل في علاقتها بالطالبات من حدث بسيطٍ لا يُلقى له بالًا في العادة، لكنه كشف عن طبيعة المشكلة التي عكّرت صفوها. ففي حفل الكرنفال المدرسي، ارتدت صوفيا فستانًا جميلاً، لم يكن هذا الفستان جديدًا، بل كان فستان اشترته لحضور زفاف صديقة لها بإنجلترا. ومع ذلك، نال الفستان إعجاب الحاضرات، حتى أشدّهن نقدًا وصفنه بـ «الرائع الجذّاب». وقد بدا أن هذا التفصيل البسيط أقنعهن بأن معلمتهن الإنجليزية إنسانة تشاركهن الاهتمام بذات الأمور التي تهمّهن. ومن تلك اللحظة، تغيّر سلوك الطالبات نحوها، وانقلب الجفاء ودًّا.

ومع أنّ مدّة عملها تم تمديدها لشهرين إضافيين، فإنّهما كانا أكثر أوقاتها سعادةً في المعهد. غير أنّ الفرح لم يكتمل، إذ أُصيبت بحمى قرمزية عشية مغادرتها، ما اضطرها للبقاء ثلاثة أسابيع أخرى. ثم أخيرًا، بعد طول انتظار، استطاعت أن تشدّ الرحال عائدةً إلى موطنها، لتطوي بذلك صفحةً أخرى من صفحات حياتها.

أخذت صوفيا إجازةً من العمل والتدريس لتستكمل فترة نقاهتها، واستثمرت هذا الوقت في زيارة أصدقاء قدامى، طال عليهم غيابها لسنوات. وهكذا انقضت بضعة أشهر من حياتها في هدوءٍ وراحةٍ لم تكن معتادةً عليها، وقد كانت تلك الفترة بالنسبة لها من أهدأ الفترات وأكثرها سكونًا. ومع ذلك، فإن روحها التواقة لم تهدأ، فكانت تسرع إلى عون الآخرين متى احتاجوها. وفي الوقت الذي كانت صوفيا تبدأ بإقناع والديها بخطتها للسفر إلى أمريكا لزيارة بعض المدارس، إذا برسالة تصلها وتقلب تفكيرها رأسًا على عقب، وتنسف فكرة السفر من أساسها. جاءت الرسالة من القس «مورْس» (Morse T.D.C.)، راعي «كنيسة سترتفورد» في مانشستر، وجاء فيها:

> لقد تواصلتُ مع البروفيسور «بلامبت» (Plumptre) من «كلية الملكة» بشأن فكرة إنشاء كلية للفتيات في هذه المنطقة في مانشستر، وقد رشّحك لي بوصفك أنسب شخص يمكنه مساعدتي في هذا المسعى النبيل. وعلى الرغم من مضي سنوات على انطلاق حركة إصلاح تعليم الفتيات، إلا أنّ هذا الحيّ المكتظ بالسكان لا يزال يفتقر إلى مؤسسات تعليمية تُعنى بالبنات. لديّ ابنتان، إحداهما تبلغ ١٢ عامًا، والأخرى ١٣، وبعد استقصاء واسع تبيّن أن المدرسة الوحيدة الجديرة بالاهتمام تقع في الطرف الشمالي من المدينة، ونحن نسكن في الجنوب، محاطين

بعدد كبير من العائلات الثرية، اللواتي لا بُدّ أنهنّ بحاجة ماسّة لمؤسسة تعليمية في منطقتنا.

أرغب في اختبار إمكانية تأسيس كلية للفتيات على هذا الجانب من مانشستر، وأودّ معرفة إن كنت تعرفين سيدةً مؤهلةً لتولي منصب مديرة هذا المعهد. وإن كنتِ أنتِ راغبة في قيادة هذا المشروع، فقد أُخبرت أنّه لن يكون بين يديْ أحد أفضل منكِ... بطبيعة الحال، لا يزال المشروع في مراحله الأولى، لكنه واعد.

لقد كانت هذه دعوة صريحة لأن تبدأ صوفيا مشروعَها التربوي الكبير الذي كانت تحلم به، وسافرت ألمانيا لأجل تحقيقه. فما إن قرأت الرسالة حتى أجابت بحماس شديد، وأبدت اهتمامًا فوريًا. وبعد أسبوعين فقط، وبعد إنجاز قدرٍ وافرٍ من العمل التمهيدي، كانت في مانشستر ضيفةً على عائلة السيد «مورس»، حيث وجدت في هذا القس رجلاً عمليًّا وواضح الرؤية. وإن كان محاطًا ببعض القيود الكنسية، إلا أن سلوكه العام كان متزنًا وفعّالًا.

ورغم أهمية الموقف ودقّته، لم تتردّد صوفيا في طرح أولى القضايا الحساسة وهي معتقداتها الدينية الخاصة. تحدّثت بصراحة مع السيد «مورس» عن ميولها الدينية، وأخبرته أنها تواظب على حضور كنيسة الموحدين التي ترفض الثالوث،[١] وتلقى هناك قبولًا ودعمًا. إحدى المسائل الجوهرية التي طرحتها كانت مسألة الصلاة اليومية في المدرسة. كان «مورس» يتوقع أن تشمل المدرسة قدّاسًا يوميًّا يجمع الطاقم والطلبة، لكن صوفيا عبّرت عن رأي مغاير، إذ رأت أنَّ الصلاةَ مسألةٌ شخصية، ينبغي أن تكون نابعةً من القلب، وليست مفروضة بانتظام أو طريقة مخصوصة. حتى الصلوات العائلية، تفقد معناها حين تُؤدّى آليًّا دون روح.

ورغم أن هذه العبارة تتعارض مع حديثها قبل ذلك عن إعجابها بالصلوات الجماعية في «المعهد الدوقي الكبير»، وإن كنت أظن أن إعجابها لم يكن بفكرة الصلاة الجماعية نفسها لكن ربما لأجل هذا الجمع والاختلاف من العقائد المسيحية المتباينة التي اجتمعت تحت راية واحدة وهي راية السيد المسيح، الذي هو الطريق الوحيد لخلاصهم. لكن يمكننا أن نقول إن حديثها عن هذا الأمر مع القس «مورس» يعكس مدى خصوصية نظرتها الدينية، المبنية على التفكير والتقلب منذ مراحل طفولتها والتجارب الجديدة التي تعيشها. كانت صوفيا امرأةً تفكر بعقلها هي، وتعيد تشكيل آرائها كلما اكتسبت معرفةً جديدة. وربما كان هذا ما جعلها مترددةً في تولّي مسؤولية

١- على الرغم من أن صوفيا لم ترتبط رسميًا بالكنيسة التوحيدية إلا أنها كانت تؤمن بهذه العقيدة في ذلك التوقيت، والعقيدة التوحيدية ترفض الثالوث، وتقول إن الله واحد، وأن المسيح ليس في منزلة الإله أبدًا، بل هو نبي من أنبيائه ورسول من رسله، وأن السيد المسيح — برغم عدم ألوهيته — هو الطريق الوحيد للخلاص. ويجدر القول إن إسحاق نيوتن كان موحدًا كذلك.

الصلوات اليومية، إذ كانت تخشى الوقوع في طقوس جوفاء تخلو من الإيمان الحقيقي. ولم يُجب القس «مورس» عن التساؤل الكبير وهو: هل ستكون المدرسة بيتًا للعلم وحده، أم للعبادة أيضًا؟

زارت صوفيا عددًا من المدارس المرموقة في منطقة مانشستر، واستشارت العديدَ من الخبراء، تستنير برأيِ هذا وتستفيد من خبرةِ ذاك. كانت واعية تمامًا للصعوبات المالية التي تهدد مشروعها الوليد، ولذلك التزمت بأقصى درجات الترشيد في التخطيط لشؤون المدرسة وإدارتها. واقتداءً بنموذج «كلية الملكة»، اقترحت أن يكون لمدرستها «زائرات شرفيات» — وهن نساء ذوات مكانة يزرن المدرسة بانتظام. ومن بين السيدات اللواتي وافقن على القيام بهذا الدور كانت الأديبة الشهيرة «السيدة جاسكل» (Gaskell).[١]

وفي اجتماعٍ عام، تم عرض خطط المدرسة على سكان مانشستر، وسارعت الصحف المحلية إلى تغطية الحدث ونشر خبره، لكن كل هذا لم يكن كافيًا، فنجاح المشروع كان معتمدًا بشكل كبير على دعم مالي سخي من أهل المدينة. ولسوء الحظ، لم يأتِ هذا الدعم كما كان مأمولًا. وبعد ثلاثة أشهر من العمل الدؤوب، بلغ صوفيا النبأ الصادم أنه لا بد من التخلي عن المشروع بسبب نقص التمويل. تقبلت صوفيا الخسارة برحابة صدر وارتياح، ولم تحزن كثيرًا، بل شعرت بالامتنان لأنها عُرض عليها تولي منصب المديرة، واعتبرت أن التجربة في حد ذاتها كانت ثرية للغاية، لما أتاحته لها من خبرة عظيمة في التخطيط والتدبير التربوي.

ثم عادت أفكارها إلى الخطة السابقة وهي زيارة الولايات المتحدة الأمريكية. أقنعت والديها بالموافقة، وزادت حججها قوة بعدما أعلنت أن صديقتها الحميمة «إيزابيل باين» (Isabel Bain)، زميلتها السابقة في «كلية الملكة»، سترافقها في الرحلة. كانت تطمح إلى زيارة عدد من الكليات والمدارس الكبرى في الولايات الشرقية. وقد منحها أصدقاؤها خطاباتٍ تعريف وتوصيات إلى بعض الأكاديميين الأمريكيين، وساعدوها في وضع جدول للرحلة، وإن كان من الصعب تأكيد جميع هذه الترتيبات قبل وصولها إلى بوسطن. وفي الأيام الأخيرة التي سبقت رحلتها، تلقت صوفيا دعوة من صديقتها «لوسي ووكر»، التي كانت قد تزوجت في نوفمبر ١٨٦٤ وصارت

١- وُلدت الكاتبة الإنجليزية «إليزابيث جاسكل» (Elizabeth Gaskell) عام ١٨١٠ في لندن، ونشأت في بلدة «كناتسفورد» (Knutsford) التي ألهمت العديد من أعمالها. تأثرت بتربيتها في بيئة المسيحيين الموحدين (Unitarian)، التي تؤمن بالتسامح والإصلاح الاجتماعي، وتزوجت من القس «ويليام غاسكل» وانتقلت إلى مانشستر، حيث شهدت تأثيرات الثورة الصناعية على الطبقات الفقيرة، ما دفعها إلى كتابة روايات اجتماعية واقعية. أصدرت روايتها الأولى «ماري بارتون» (Mary Barton) عام ١٨٤٨، وانتقدت فيها أوضاع الطبقة العاملة. من أشهر أعمالها أيضًا «شمال وجنوب» (North and South) و«كرانفورد» (Cranford)، حيث جسّدت الصراعات الطبقية وأدوار المرأة في المجتمع الفيكتوري. كما كتبت سيرة مهمة لصديقتها الكاتبة شارلوت برونتي (Charlotte Brontë). توفيت عام ١٨٦٥، واعتُبرت لاحقًا من أبرز الكاتبات اللاتي قدّمن الأدب كوسيلة لإصلاح المجتمع، وتمكين المرأة، والدعوة إلى التفاهم بين الطبقات.

تُعرف الآن باسم السيدة «أنوين» (Mrs Unwin). رغبت «لوسي» أن تلتقي صوفيا بزوجها قبل أن تغادر إلى أمريكا، فأجابت صوفيا على رسالتها تقول:

> أرغب بشدة في رؤيتك قبل السفر، وقد جعلتني رسالتك أتوق لذلك أكثر. إن وجدتُ فرصة لأمضي يومًا وليلةً معك، فهل ترين الأمر جديرًا؟ لا أعلم أن كانت الظروف تسمح، هل أنتم في المدينة؟ أم سيكون الوصول إليك من المحطة أمرًا شاقًا؟ هل سيتسبب حضوري ومغادرتي في أوقات غريبة بإزعاج لكم؟ أود كثيرًا أن أراكِ، وأرغب بشدة في لقاء زوجك الكريم — آمِلة ألا يتضايق من زيارتي المفاجئة وكل هذا الارتباك! شكرًا جزيلًا على صورتك. لا أمتلك صورًا جيدة لي، لكنني سأحاول العثور على واحدة «أقل سوءًا» لأرسلها إليك.

تم اللقاء المرتقب، وإن كان قصيرًا، فقد كان مليئًا بالفرح والذكريات. وكان حدثًا لا يُنسى، خصوصًا بالنسبة إلى «لوسي»، التي كانت تنتظر مولودَها الأول، فوجدت في صوفيا أختًا كبرى حانية تبوح لها بمشاعرها من فرح وقلق. ويُحتمل أن بحث صوفيا المضني عن صورة جيدة لها — ترسلها لأصدقائها أو تحتفظ بها للذكرى — كان ما دفع والديها إلى الموافقة على رسم بورتريه لها على يد الرسام الشهير «صموئيل لورنس» (Samuel Laurence) التي تحدثنا عنها في بداية هذا الكتاب. ومن المرجّح أنها جلست له في عام ١٨٦٥، قبل رحلتها إلى أمريكا بفترة قصيرة.

وفي ٢٧ مايو ١٨٦٥، أبحرت صوفيا برفقة «إيزابيل باين» (Isabel Bain) من ميناء ليفربول على متن السفينة البخارية «أفريكا» (Africa). استغرقت الرحلة اثني عشر يومًا، وقضت معظمها في جوٍ باردٍ قارس. وكان أبرز ما ميّز الرحلة مشهد الجبال الجليدية، تلك المنحدرات البيضاء الهائلة التي كانت ترتفع من أمواج البحر العاتية، وتتناثر قطراتها كرذاذ كأنها تنفجر من شدّة ارتطامها بالماء، تبدو شديدة القوة، وجميلة المنظر، تنضح بهاءً وروعة. وصلت السفينة إلى ميناء بوسطن عند منتصف الليل في ٨ يونيو. وفي صباح اليوم التالي، نزلت السيدتان إلى أرض أمريكا، لتبدأن أولى خطوات رحلتهن في العالم الجديد.

الفصل الرابع:
إلى أمريكا

في كل مرة يشرع المرءُ في استكماله لسرد هذه الحكاية، يتبدّى له بجلاء صدق تلك الكلمة التي اعتادت صوفيا أن تهمس بها لصديقتها ورفيقة دربها في السكن وكاتبة سيرتها الذاتية، «مارجريت تود» (Margaret Todd)، إذ كانت دومًا تقول لها: «لم يُرزق إنسان بوالدين كما رُزقت أنا». وإنْ كان الناس في الغالب لا يفتأون يثنون على آبائهم وأمهاتهم، بل إنك لا تكاد ترى أحدًا يُنقص من قدر والديه أو يراهما دون مقام باقي البشر، فإن قول صوفيا لم يكن مجرد مدحٍ مألوف اعتدنا عليه، ولا عاطفةً عمياء تربينا عليها، بل كان حقًّا يُقال في موضعه؛ فوالدها، بحق، كان من النماذج النادرة التي لا تكاد تُرى في زماننا، فضلًا عن أن توجد في زمنها قبل نحو قرنٍ ونصف. ومن العسير — آنذاك والآن — أن تجد والدين يقدّمان لابنتهما من الدعم ما يمكّنها من أن تخالف السائد من العادات والتقاليد، وأن تشقَّ لنفسها طريقًا فيه من الجرأة والتفرّد ما فيه، تسافر إلى إدنبرة في شمال بريطانيا، ثم تترك وطنها متجهة إلى ألمانيا في الشرق، وها هي الآن تُيمِّم وجهها شطر الولايات المتحدة الأمريكية في الغرب، لا لشيءٍ إلا لأنها آمنت بحقها في التعلُّم، وطَمَحت لأن تكون أستاذةً أو تؤسس مدرسةً خاصة بها.

وهذا، أيّدك اللهُ بالفهم، (كما يقول إمامنا الجاحظ) أمرٌ لا تزال كثيرٌ من الأسر في يومنا هذا تعجز عن تقبّله أو احتماله، فكيف بزمانٍ مضى قبل مئة وخمسين عامًا؟! وإنما أُورد هذا كلَّه، تمهيدًا لكلمةٍ قالتها والدة صوفيا، وفيها ما يُفصح عن جوهر هذه العلاقة العائلية، وما يكشف عن المزيج العجيب من الحب والقلق والتسليم، حيث كتبت والدتُها إلى إحدى صديقات ابنتها عند سفر صوفيا إلى أمريكا، فقالت:

> اليوم الثلاثاء، وصلتني للتو رسالة من صوفي، وأنا حقًّا بحاجة إلى دعواتكِ وتعاطفكِ. إنّ ألم الفِراق لا يُوصَف، ومع ذلك، آمل وأؤمن أن نظرتي ستغدو أكثر عقلانيةً وراحةً مع مرور الوقت. على أي حال، أعلمُ أنَّ اللهَ سيمنحني القوةَ لتحمُّل ما هو قادم.
>
> **إنني أشعر بالخوف والقلق، وكأنني أرغب في الهروب من كل شيء. ومع ذلك، لن أُوقفها، حتى لو كان بإمكاني ذلك.** كنتُ سأشعر بامتنانٍ عميق لو رافقتها

امرأةٌ أكبر سنًّا في هذه الرحلة... لا ينبغي لي أن أُثقل عليكِ، أنتِ صديقتها الطيبة والوفية.»

أيةُ أمٍّ هذه؟! وأي قلبٍ ذلك الذي يعصف فيه الحنين، ويخنقه الوجل، ثم لا يمنعه كلُّ ذلك من أن يَفتح لابنته جناحَ الطيران لتحلق في سماء الدنيا كما تشاء؟! أي إنسان هذا الذي في ظل قلقه وخوفه، إلا أنه يترك المجال لابنته لتعيش حياتها وتنطلق في دراستها وسفرها! وإنها لكلمة تستحق أن يخلدها التاريخ حين تقول الأم: «إنني أشعر بالخوف والقلق... ومع ذلك، لن أُوقفها، حتى لو كان بإمكاني ذلك.»

ألا ليت الآباء والأبناء يعقلون هذا المعنى الجليل، ويعون أن للأبناء حقًّا في أن يعيشوا الحياة كما يشتهون، ويسلكوا الدروب التي تختارها أرواحُهم، ويبلغوا ما تصبو إليه نفوسُهم، وإن لم تسكن الطمأنينةُ قلبَ الأب أو لم تهدأ لواعج الأم؛ فللأبناء أن ينهلوا من الحياة ما شاءوا، وأن ينطلقوا في آفاقها كما انطلق الآباء من قبل، فمن العدل ألا يُنكر الجيل الحاضرُ على الجيل اللاحق ما استمتع به هو نفسُه. ولعمري، أن يكون الأبُ سندًا كريمًا، ومؤيدًا صادقًا، يشدّ على يد ولده رغم خوفٍ يعتصره، وقلقٍ يساوره، لهو خيرٌ له ولابنه من أن يكون خصمًا عنيدًا، يحول بينه وبين حلمه، ولو استراح قلبُه واطمأنت ظنونُه. فالدعم رغم القلق أفضل من المنع في ظل الأمان.

مهما يكن من شيء، فقد وطئت الفتاتان أرضَ أمريكا وهما تحملان في جعبتيهما توصياتٍ لأناس يتعرفون بهم، وأماكن يأوون إليها، وأهلِ ثقةٍ يمكن الركون إليهم في هذا البلد العريض. وقد كان ذلك في عام ١٨٦٥، حين كانت أمريكا تلتقط أنفاسها الأخيرة من أتون حربٍ أهلية ضروس، لم يعرف لها التاريخ الأمريكي مثيلًا في عدد الموتى، حتى إن عدد قتلاها فاق قتلى الأمريكيين في الحرب العالمية الثانية. إذ بينما قُدِّر عدد القتلى الأمريكيين في الحرب العالمية الثانية، التي امتدت لست سنين، بنحو ٤٢٠ ألفًا؛ فقد تراوحت أعداد قتلى الحرب الأهلية بين ٦٢٠ إلى ٧٥٠ ألف قتيل!

وقد انتهت تلك الحرب الأهلية قبل وصول صوفيا إلى الأرض الأمريكية بأشهرٍ معدودات، وكان من آثارها العظيمة تحرير العبيد، ذلك الإنجاز الذي أتى ثمرةً لانتصار ولايات الشمال، بقيادة «إبراهام لنكولن» (Abraham Lincoln). بيد أن الساحة السياسية كانت تغلي غليان المراجل، فلا ينطق أحدٌ في مجلسٍ إلا وكان حديثه في السياسة، فكانت الألسن لا تملّ الحديث، ولا الأفواه تُغلق وتنتهي من الكلام.

وما زاد الطينَ بلَّةً أن الشعب الأمريكي حينذاك كان يضمر كراهيةً شديدةً للإنجليز، بسبب موقف بلادهم من الحرب الأهلية. وإن كانت إنجلترا قد أعلنت الحياد في موقفها الرسمي من تلك الحرب، إلا أن بعض تصرفات حكومتها أوقدت نار الغضب في صدور الأمريكان، لا سيما ما تعلق بقضية السفينة الشهيرة «CSS Alabama» التي شُيّدت في مدينة ليفربول، وجرى تسليمها إلى

ولايات الجنوب المتمردة لتهاجم بها سفن ولايات الشمال، فعدّتها أمريكا دعمًا خفيًّا للفريق الخصم. وليس هذا وحده، بل إن لهجة الصحافة البريطانية، التي كانت تتحدث عن أمريكا حديث المستعلين، واصفةً إياها بالدولة الناشئة التي لم تفقه بعدُ أصولَ الديموقراطية، قد صبّت الزيت على النار، فأجّجت مشاعر الحنق وزادت نفوس الأمريكيين غيظًا من الإنجليز.

وكانت ممن تعرفت عليهم صوفيا في أيامها الأوائل، هي الدكتورة «لوسي سيوول» (Lucy Sewall)، وكانت تبلغ من العمر الثامنة والعشرين، وقد كتبت اسمها بحروف من نور كواحدة من الرائدات في مجال الطب في أمريكا، إذ كانت تعمل طبيبةً مقيمةً في «مستشفى نيو إنجلاند للنساء والأطفال» (New England Hospital for Women and Children)، وكان والدها السيد «صامويل سيوول» (Samuel Sewall) قد دفع مبلغًا طائلًا للتبرع لأجل إنشاء هذا المستشفى.

كانت صوفيا غارقةً في تأثير ذلك الجو الجديد، إذ أخذت رؤيتُها لعمل المرأة ورسالتُها تتسع شيئًا فشيئًا. وفي الثاني والعشرين من يونيو، كتبت إلى والدتها تقول: «لقد رأينا الآنسة «كروكر» قبل أيام، وهي أستاذة للرياضيات في أنطاكية. أبهرتني بوقارها وحكمتها العالية، وتمكنها البارع في علم الرياضيات، وددتُ، واللهِ، لو أُتيح لي أن أدرس بين يديها يومًا. لقد شعرتُ حينها وكأنني قزم متعجرف يقف إلى جوار عملاق ساكن.»

وبعد أيام قليلة، كتبت تقول: «تلك العالِمة الفلكية الرائعة، «ماريا ميتشل»، التي أخبرتكِ أننا عازمون على رؤيتها، امرأة عظيمة الشأن، نبيلة الخلق، قوية البنية، طيبة القلب... وستكون أستاذةً في مدينة «بوكيبسي»، وإن مضينا إليها، فإني لأرجو أن أنهل من معين علمها، وإن كنت لم أتخيل يومًا أن علم الفلك سيدخل حياتي. لكنني على أيَّةِ حال، أعدّ لقائي بها متعةً عظيمةً وفرصةً ثمينةً.»

وفي اليوم ذاته، دوّنت في مذكراتها تقول: «قضيتُ ساعتين في عيادة الدكتورة «سيوول» هذا الصباح، إذ تم الكشف على نحو ستٍ وثلاثين حالة، تنوعت ما بين من جاء بوجهٍ مشرق يقول: «أشعر بتحسن كبير، يا دكتورة. وبين من جاء يتلوى من الألم، وكلهم أرواحٌ منهكةٌ مثقلة. كانت الدكتورة «سيوول» مثالًا للرفق، تُسدي إلى كل مريض علاجًا دافئًا بعاطفة صادقة، وأسلوبٍ يبعث في النفس الشفاء والدواء. لقد كانت هي المرأة المناسبة في المكان المناسب، لولا أن التعب يظهر على ملامحها بين حينٍ وآخر.»

كتبت صوفيا رسالةً إلى والدتها وقد شعرتُ شخصيًا بسعادة وأنا أقرأ هذه الرسالة، لذا قررت أن أترجمها وأحاول نقل شعور السعادة الذي شعرتُ به، كتبت تقول:

أمي الحبيبة، لا أظن أني سأتمكن من الكتابة في البريد القادم، لأننا ذاهبون في رحلة تستغرق بضعة أيام حول الجبال، ولذا عليّ إرسال رسالة طويلة قدر استطاعتي الآن لأخبرك بما كنا نفعله مؤخرًا.

بدايةً وقبل كلِّ شيءٍ، بدأتُ أكون نافعة جدًا كـ «حُوذيّ»[1] (teamster)، وهو مصطلح من اللغة الأمريكية (Yankee) ويُقصد به من يقود العربات التي تجرّها الخيول، إذ كنتُ أقود بعض الجيران بالعربة في أرجاء الريف مؤخرًا. كنتِ ستضحكين كثيرًا لو رأيتِ خيولي، أحدهما بُني، طويل نوعًا ما، والآخر بلون الفأر، أقل طولًا بثلاث بوصات تقريبًا، والاختلاف الجميل جدًا في لون أحزمة الخيول، وشكلها العام كان بديعًا. وخلف هذين الحصانين الجميلين كان يجلس ستة منّا في عربة ريفية كبيرة كلها مطلية من الخشب، وبها مقعدان كبيران مثبتان على عربة مفتوحة.

مررنا بنهر ضحل شديد الجمال، نهر «بينيجواسيث» (Penningewassett)، وعندما توقفت الخيول عن عض بعضها البعض استطعنا التحرك بكل رشاقة. ربما لا يمكنكِ تخيل معنى كلمة «الغابة» (woods) هنا؛ ففي إنجلترا الغابات تعني مساحات صغيرة من الأشجار المحمية بعناية وممنوع دخولها. أما هنا، فإنكِ تدخلين إلى غابة شاسعة، تمتد لأميال وأميال من كل جهة — وإن المرء ليُعد محظوظًا إذا وجد طريقًا واضحًا، وإلا فسيضطر لتتبع الشمس ومجرى النهر، وقد يستغرق الأمر ساعات وساعات ليتقدم ميلًا أو اثنين — ومع ذلك فإن كل شيء بديع جدًا، وأخضر جدًا، ولذيذ جدًا! ليتكِ كنتِ معنا بالأمس! كل بضعة دقائق كنا نلتقي بشجرة ضخمة ساقطة تعترض طريقنا، أو بركة سوداء من خشب الأرز أو الصنوبر المتحلل، يا إلهي! كم كانت الروائح زكية! وكان علينا أن نتسلل ونتسلق ونقفز أو ننزلق لتجاوز هذه العقبات. ثم كنا نصل إلى فسحة صغيرة في الغابة، ونشاهد مناظر رائعة للجبال. وبعدها نعود للطريق مرة أخرى ونكاد لا نرى ضوء النهار بسبب كثافة الأشجار. وهناك تجدين الطحالب والسراخس والتوت في كل مكان!

ثم عبرنا النهر بطريقةٍ ما، مِن صخرةٍ إلى أخرى، وتسلقنا بين الشلالات التي كانت تهبط كأنها فضة سائلة تحت أشعة الشمس، وكانت البركُ جميلةً جدًا لدرجة أننا رغبنا بالاستحمام فيها، لكننا امتنعنا عن ذلك بسبب قلة الوقت وعدم وجود مناشف! المسافة كانت ميلين ونصف إلى ثلاثة أميال، لكننا احتجنا ثلاث

١- حاذ إبله يحوذها حَوْذًا ساقها سوقًا شديدًا. (لسان العرب)

ساعات كاملة لقطعها، وعدنا بسرعة أكبر تقريبًا بنصف الوقت. كان الشيء الوحيد الذي أحزنني — وربما لن تتعاطفي معي — أننا لم نلتقِ بأي دب! هنالك العديد من الدببة في الغابة، ونسمع بين الحين والآخر عن مشاهدتها، لكن أعدادها تتناقص وهي خجولة للغاية، وتهرب بسرعة إذا شاهدتكِ. أليس من الممتع لو قابلنا واحدًا من الدببة؟

أظن أن ما يُدهش الإنجليز أكثر شيء هنا هو مدى رخص قيمة الخشب. في بريطانيا يُعدّ قَطع شجرة بمثابة جريمة، بينما هنا إذا أردتِ منديلًا، يكفي أن تقتطعي لحاء أول شجرة تصادفينها. وإن شئتِ، بإمكانكِ إشعال النار في الغابة وحرق عشرات الأشجار دون أن يعلّق أحد، وقد رأينا غابات تحترق مرارًا دون أن يتجاوز تعليق الناس جملة: «أوه، شخص ما أشعل النار في الغابة!» والأغرب أن النار لا تنتشر كما نتوقع. تجدين باستمرار مساحات بها جذوع محترقة. وكم أتمنى رؤية حريق كبير في غابة ضخمة ذات يوم، لكن يقال إنه خطير جدًا.

من الطريف جدًا ما نسمعه هنا، فحين سألت عن طريق من سانت لويس إلى كاليفورنيا قيل لي: «نعم هو أقصر، لكن الهنود غاضبون الآن، وقد قتلوا الكثير من الناس هناك!».

حبيبتي، عدنا في الليل وأضواء النجوم ترافقنا في رحلة جميلة جدًا، وحين وصلنا، كنتُ أمشي بطريقة غريبة بسبب التعب، فقيل لي: «أعتقد أنكِ متعبة، أليس كذلك؟ أنتِ تميلين كثيرًا أثناء المشي!»

بدأت صوفيا رحلتَها إلى أمريكا تستكشف المدارسَ والكليات الخاصة بتعليم النساء، وقد نشرت تلك التجربة لاحقًا في كتاب كان عنوانُه «زيارة إلى بعض المدارس والكليات الأمريكية» (A Visit to some American Schools and Colleges) الذي نشرته دار «ماكميلان» (Macmillan) في عام ١٨٦٧. وقد تلقت نصيحةً من رئيس جامعة هارفارد الدكتور «توماس هِل» (Thomas Hill) حول الكليات والمدارس التي تستحق الزيارة، وكانت نصائحُه ذات قيمة هامة.

كما أرسل لها أخوها رسالةً في عيد ميلادها، فردت عليه برسالة أظن أنها تستحق الذكر، أو على الأقل بعضًا منها يستحق الذكر، فكتبت له تقول:

عزيزي توم، جزيل الشكر على رسالتك في عيد ميلادي. رغم أنها وصلت متأخرة نوعًا ما، إلا أنني تلقيت في النهاية قدرًا كبيرًا من الرسائل.

أتفق تمامًا معك في أنه ينبغي لكَ أن تزور أمريكا، لتشاهد شعبَها ومناظرَها الطبيعية... إنها تجربةٌ غريبة من كل الجوانب؛ يجد المرءُ فيها الكثيرَ مما يستحق الإعجاب والاحترام، كما يجد الكثيرَ مما يثير الضحكَ والسخرية... في الواقع، لم أجد سوى ثلاثة أو أربعة أمريكيين فقط يتحدثون باللغة والطريقة التي يمكننا اعتبارها راقيةً أو متحضرة، أو يتصرفون كما لو كانوا جزءًا من مجتمع مثقف. إنهم ينظفون أسنانهم أثناء الحديث معك (حتى أصحاب المتاجر يفعلون ذلك)،[١] ويبصقون على بُعد بوصة واحدة منك، ويأكلون وهم يمشون في الشارع بجانبك، وقد يصفرون أو يغنون كذلك، ويتحدثون بطريقة مثل: «كان فرضًا على الأخرين أن يفعلوا كذا»، أو يسألون: «هل يُخرجون الشاي؟»، وليس «هل يقدمون الشاي؟» وما شابه ذلك. وكل هذا من رجال تخرجوا من الكليات، ومن نساء يعرفن من الرياضيات، واللاتينية، واليونانية، والفلسفة، ما لا أجرؤ حتى على التفكير فيه.

في الواقع، هناك تناقض غريب بين المستوى العالي جدًّا من التعليم، والمستوى المتدني الظاهري للتهذيب والرقي الخارجي، مقارنة بالمُعدّل الإنجليزي المعتاد. أخشى أننا، رغم امتلاكنا لبضع مئات من العلماء المتفوقين — الذين يتفوقون على أيِّ أمريكي — إلا أننا يجب أن نعترف بأن نسبة الأشخاص المطلعين والمثقفين عمومًا هنا في أمريكا أعلى بكثير من النسبة الموجودة لدينا في إنجلترا. وقد لاحظت هذا بشكل خاص لدى الفتيات؛ أما الرجال، فلا أعرفهم كثيرًا. لكن معظم الفتيات هنا درسن بجِدٍّ مواضيعَ لا تهتم بها كثيرٌ من الفتيات الإنجليزيات، خاصة الرياضيات والعلوم الطبيعية.

ثم إني متأكدة من أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يُثني على لطف الأمريكيين وكرم ضيافتهم أكثر مني؛ فأنا أظن أن قليلًا من الأجانب كانوا ليجدوا في إنجلترا مثل هذا الترحيب الذي لقيته هنا. لقد كان الناس لطفاء للغاية في مساعدتي بكل الوسائل الممكنة... ويبدو لي أن هناك هنا نزعة أقل من «الغرور بالمكانة الرسمية»، واستعدادًا أكبر بكثير لأن يسمحوا للمرء برؤية كل شيء، وأن يساعدوه دون تشبث مفرط بالكرامة الشخصية. وقد لاحظت هذا خصوصًا في حالة الدكتور «هِل»، رئيس جامعة هارفارد، وهي الأولى في أمريكا؛ وكذلك الأمر مع رؤساء الكليات المختلطة (للجنسين) في كثير من الكليات التي زرتها... لستُ أدري إن

١- يفترض من أصحاب المتاجر أنهم من الطبقة الراقية، أو على الأقل يحسنون التعامل مع الزبائن.

كانت هذه الملاحظات تهمّك، لكن ذكرك لأمريكا ورغبتك في زيارتها جعلتني أستفيض بها.

سرعان ما نشأت صداقةٌ بين صوفيا و«لوسي سيوول». وأثناء حديثِهما عن اهتمامهما المشترك بمستقبل المرأة المهني، اكتشفت صوفيا الصعوبات التي تواجهها النساءُ الأمريكيات الطامحات إلى دراسة الطب وممارسته. لم يكن هناك سجل وطني مُوحَّد للأطباء المعتمدين، لكن الجمعية الطبية الأمريكية (American Medical Association) — منذ تأسيسها في عام ١٨٤٧ — كانت قد وضعت معاييرَ صارمة للتدريب اللازم للأطباء من أجل الانضمام إلى عضويتها. وكان يُمنع على الطبيبات الانضمام إلى الجمعية، غير أنهن إذا لم يلتزمن بنفس المعايير الصارمة للتدريب، فإن المجتمع كان يصنفهن إلى جانب منتحلين مهنة الطب، والممارسين الدينيين المتطرفين، بل وحتى المُجْهِضات (القائمات على عمليات الإجهاض السرية).

كان في تلك الحقبة اثنتان من أفخم كليات الطبّ وأعرقها، أعني بهما «جامعة هارفارد» و«جامعة كورنيل»، قد أغْلقتا أبوابَهما، وأحكمتا أقفالَهما، وأغلظتا الإقفال في وجوه النساء، فصارتا حِكرًا على الرجال دون سواهم. وأمّا سائر الجامعات — التي تتمتع بسمعة راقية وتعليم رفيع — فإنّها لم تكن على طرازٍ واحدٍ، بل تذبذبَتْ مواقفها، وتقلّبتْ آراؤها، فتارةً تقبل فتاةً واحدة على استحياء، وتارةً تنكصُ على عقبيها، بغير سبب واضح أو معقول. وفي هذا السياق، برز اسمُ امرأة إنجليزية، كانت غايةً في السبق، أعني بها «إليزابيث بلاكويل» (Elizabeth Blackwell)، تلك التي تُعَدُّ أول امرأة في العالم الناطق بالإنجليزية كلِّه تنال شهادةً في الطب. لقد طرقت أبوابَ الكليّات بابًا بابًا، وسلكت الطرقات دربًا دربًا، حتى تقدمت بأوراقها إلى تسعٍ وعشرين كلية أمريكية، كلّها صدّتْها وردّتْها، وبعضها لم يُعنِه حتّى أن يردّ بردٍّ لائق. غير أنَّ طاقتها لم تنفد، ولا انكسرت إرادتها، حتى أطلّ عليها نورٌ من بلدةٍ في ولاية نيويورك، حيث «كلية جنيف» (Geneva College)، فكان فيها القبول، لكنّه لم يكن قبولًا عاديًا.

إنّك إن ظننتَ، عزيزي القارئ، أنّها قُبلت من فورها، بغير مشقّة ولا مكيدة، فأنت لم تعرف دهاء القوم ولا مكائدهم. لقد كان سكّان تلك البلدة يَشْكُون طلابَ كلية الطب، لما رأوا فيهم من صخبٍ وعربدة، وسُكرٍ ومجون، حتى صار يُضرب بهم المثل في الخروج عن الطور، وقلّة الحياء. فلما جاء طلبُ الآنسة «بلاكويل» إلى عميد الكليّة، أعرض عنه باديَ الأمر، ثم أراد أن يتخلص من مسؤوليّة الرفض، فجعل أمرَ القبول في يد الطلاب أنفسِهم، ولعله أراد أن يُلقي باللائمةِ عليهم، لا عليه هو.

ثم زاد العميدُ الأمرَ غرابةً بأن وضع شرطًا تعسّفيًّا، وهو أنّه إن اعترض طالبٌ واحدٌ فقط على وجود الفتاة في الكليّة، فإنّ طلبها يُرفض رفضًا قاطعًا. وكان عددهم يومئذٍ مئة وخمسين

طالبًا. فعُرض الأمر على الجمع، وإذا بالمفاجأة، إذ وافق مئة وتسعة وأربعون منهم على قبولها، ولم يبقَ إلا طالبٌ واحدٌ قد أبى وأعرض، فاستُهجن فعلُه، ولامه رفاقُه، واشتدّ عليه العتاب، حتى غيّر رأيه وقَبِل. فصار القبول بالإجماع الطلاب الذكور.

ولعلّكَ تظنّ أنّ هذا القبول كان موقفًا نابعًا من إنصاف الطلبة الذكور، أو مُظهِرًا لمناصرةٍ لقضايا المرأة وحقها، لكن هيهات! إنما كان الأمر برمته مزحةً ثقيلة، ومقلبًا شبابيًّا، صنعوه وهم يضحكون، إذ قال بعضهم: «دعونا نُظهر شهامة الرجولة، ونُخاطب العالَم بخُطب النُّصرة للمرأة، ونُعلن قبولنا لها، فإنّما هو لعبٌ ولهو»، وهكذا فعلوا، فارتدّت المزحة عليهم جِدًّا، وتحوّل التهكّم إلى واقع، وإذا بهم يفاجؤون بها تدخل قاعات الدرس، وتشاركهم المقاعد والمحاضرات.

لكنّ الأعجب من هذا كلّه، أنّ تلك الدفعة، التي كانت أكثر الدفعات صَخَبا وشرًّا، قد انقلبت حالهم رأسًا على عقب، فصار أولئك الصاخبون أهلَ انضباط والتزام، لا يُسمع لهم صوتٌ، ولا يُرى لهم فعلٌ يُعاب. فقد أعاد حضورُ تلك الفتاة بينهم إلى نفوسهم رُشدًا كان غائبًا، وأيقظ فيهم رجولةً لم تكن لتظهر لولا الحياء واحترام زميلتهم. والعجب كلّ العجب، أنّ هؤلاء الطلبة المازحين اللاعبين صنعوا تاريخًا، ورسموا بدايةً جديدةً لمسيرة المرأة في مجال الطبّ في العالم أجمع.

ومن العجيب أنّ الكلية التي فتحت بابَها لأول امرأة في عالم الطب، وهي «كلية جنيف» (Geneva College)، لم تلبث أن أوصدت ذلك البابَ مرّة أخرى، وكأنّها لم تفعل شيئًا، أو كأنّها تابت عن ذنب أو كبيرةٍ قد فعلتها! فبعد أن حصلت «إليزابيث بلاكويل» على شهادتها الطبية في عام ١٨٤٩، وهي أول شهادة طبّ تمنح لامرأة في العالم الناطق بالإنجليزية، تقدّمت شقيقتها الصغرى «إيميلي بلاكويل» (Emily Blackwell) بطلبٍ للالتحاق بالكلية نفسها، وذلك في سنة ١٨٥٢، أي بعد ثلاث سنوات فقط من تخرّج أختها الكبرى. لكن المفاجأة الْمُرَّة أنّ الكليةَ قد بدَّلت موقفَها، وغيّرت سياسَتها، بل لعَلّها أُحرجت من «المزحة» التي غيرت الواقع بكل جدية، فقررت ألا تكرّر التجربة، فرُفِضَ طلب «إيميلي» دون تردّد، لا لشيء، إلا لأنها امرأة.



إليزابيث بلاكويل

وما إن تكرّرت عليها الأبواب الموصدة، حتى توجّهت إلى «كلية روش الطبية» (Rush Medical College) في مدينة شيكاغو، فقُبلت فيها، ودرست لعامٍ كامل. لكن الشكوى ما لبثت أن بدأت تتصاعد من الطلاب الذكور الذين رأوا في وجود امرأة بين صفوفهم

أمرًا لا يُحتمل، فرفعت الشكوى إلى «الجمعية الطبية في ولاية إلينوي» (Illinois Medical Society)، فأصدرَتْ قرارًا برفض قبولها ومنع استمرارها في الكليّة. لكن إصرارها كان أقوى من العراقيل، فحملت أوراقها من جديد إلى «جامعة ويسترن ريزيرف» (Western Reserve University)، فكان فيها القبول، وكان فيها النجاح، وتخرّجت فيها «إيميلي بلاكويل» عام ١٨٥٤ بمرتبة الشرف.

وحتى وإن استطاعت الطالبات دخول الكليات الطبية، كن يُحرمن من التدريب العملي في المستشفيات، وبعد التخرج، لم يكن يُسمح لهن بالحصول على وظائف كمتدربات طبيات (internes) في المستشفيات. وقد عالجت الدكتورة «إليزابيث بلاكويل» هذا النقص في خبرتها بالعمل لمدة ستة أشهر كقابلة متدربة في باريس. ثم سافرت إلى لندن، حيث سُمح لها بزيارة أجنحة مستشفى «سانت بارثولوميو» (St Bartholomew's). وقد أثبتت تجربة الأختين «إليزابيث» و«إيميلي بلاكويل» أنه إن كانت النساء الأمريكيات يطمحن إلى دخول مهنة الطب، فعليهن أن يؤسسن كليات طب خاصة بهن، وأن يحصلن على حرية الوصول إلى التدريب في المستشفيات داخل بلادهن.

وفي عام ١٨٥٣، أنشأت «إليزابيث بلاكويل» في مدينة نيويورك عيادةً خارجيةً خاصةً بها لتقديم العلاج للنساء الفقيرات. وعلى الرغم من أن هذه الخدمة كانت في غاية الضرورة، إلا أن كثيرًا من النساء كنّ يترددن في الوثوق بطبيبة، ولهذا فإن العيادة لم تجتذب في البداية سوى عدد قليل جدًا من المرضى. غير أنه عندما اتضح أن العيادة تقدّم خدمة متميزة، توسع نشاطها بسرعة كبيرة. وفي عام ١٨٥٦ انضمت إلى «إليزابيث» كلٌّ من أختها «إيميلي» والطبيبة «ماري زاكشيفسكا» (Dr Marie Zakrzewska)، وهي مهاجرة أوروبية شابة كانت قد حصلت حديثًا على شهادة في الطب البشري من كلية الطب في كليفلاند.

وفي العام التالي، تمكّنت النساء الثلاث من افتتاح «مستشفى نيويورك للنساء» (New York Infirmary for Women)، وهو أول مستشفى داخلي يُدار بالكامل من قبل طبيبات. وكانت نية الدكتورة «بلاكويل» أن يوفر المستشفى ليس فقط الرعاية الطبية للنساء الفقيرات، بل أن يكون أيضًا أول مركز لتدريب الطبيبات والممرضات تدريبًا عمليًا.

*****

في عام ١٨٥٦، تأسست في مدينة بوسطن كلية طبية للنساء سُمّيت «كلية نيو إنجلاند الطبية للنساء» (New England Female Medical College)، وقد تطورت هذه الكلية من كليةٍ أقدم

كانت مخصصة لتعليم التوليد والتمريض. وكان المسؤول عن هذا المشروع السيد «صموئيل جريجوري» (Samuel Gregory)، وهو مُصلِح اجتماعي غريب الأطوار إلى حدٍّ ما، ولم يكن طبيبًا في الأصل. وقد نال «جريجوري» دعم العديد من المواطنين المتفتحين في ولاية «ماساتشوستس» لمخططه الهادف إلى تدريب النساء ليصبحن طبيبات. كانت الهيئة التدريسية الأولى في «كلية نيو إنجلاند الطبية للنساء» تضم ستة رجال وامرأة واحدة فقط، غير أن «جريجوري» كان متحمسًا لتوظيف المزيد من المدرسات النساء. وفي عام ١٨٥٩، أقنع الدكتورة «زاكشيفسكا» بالمجيء إلى بوسطن للعمل أستاذةً لمادة التوليد في الكلية. كانت تُعرف بين أصدقائها باسم «الدكتورة زاك» (Dr Zak)، وسرعان ما أدركت أنها لا تستطيع العمل تحت إدارة «جريجوري». فرغم افتقاره للدراسة والمعرفة الطبية، حاول أن يفرض آراءه على المنهج الدراسي، وكان يعارض الإنفاق المالي حتى على أبسط المعدات مثل المجهر. ولهذا السبب استقالت «الدكتورة زاك» من الكلية، لكنها بقيت في بوسطن، وقد قررت أن تكرّس نفسها لتأسيس مستشفى نسائي في تلك المدينة. وبفضل جهودها الكبيرة، تم افتتاح «مستشفى نيو إنجلاند للنساء والأطفال» (New England Hospital for Women and Children) في عام ١٨٦٢، وكان يضم عشرة أسِرَّة وعيادةً خارجية. وقد كان هذا أيضًا العام الذي تخرجت فيه «لوسي سيوول» (Lucy Sewall) من كلية الطب للنساء. وبعد أن أمضت سنةً في التدريب الإضافي في أوروبا، عادت لتعمل كطبيبة مقيمة في المستشفى ذاته، تحت إشراف «الدكتورة زاك»، وبدعم من اثنتين من الطالبات المقيمات.

كان المستشفى ناجحًا إلى درجة أنه بعد عامين فقط من افتتاحه، اضطر إلى الانتقال إلى مقر أكبر. وكان لمهارة الطبيبة المقيمة وتفانيها دور أساسي في هذا النجاح. كانت «لوسي سيوول» تنتمي إلى عائلةٍ مرموقة في بوسطن، فوالدها القاضي «صموئيل سيوول» (Samuel Sewall) كان ناشطًا بارزًا في حركة إلغاء العبودية، كما كان من أنصار حقوق المرأة. وقد كرّست «لوسي» نفسَها بكل طاقتها لمهنتها، لكنها في الوقت نفسه حافظت على أنوثتها في السلوك والمظهر. ولهذا كانت مصدر طمأنينة لأولئك الذين يخشون أن تضطر النساء للتخلي عن أنوثتهنّ كي ينجحن في مهنة «رجولية». وقد استقبلت الطبيباتُ الشاباتُ في «مستشفى نيو إنجلاند» كلًا من صوفيا و«إيزابيل» بحفاوةٍ بالغة. وقد كتبت صوفيا إلى والدتها تقول:

> أمي، لا تعرفين كم هو عظيم حصولنا على فرصة دخول الحياة في مستشفى النساء هنا، دائمًا لدينا شيء ممتع مع الطالبات والطبيبات — جميعهن نساء بالمناسبة. الدكتورة «سيوول» هي الطبيبة المقيمة، وهي دائمًا تدعونا لقضاء أمسيات ممتعة أو الذهاب للمسرح معها. بالأمس ذهبنا إلى مكان مشهور بالآيس كريم، كنا مجموعنا ثمانية: ٤ طبيبات (إحداهن جَرَّاحة رائعة، أول طبيبة جَرَّاحة أنثى أسمع بها). وطالبتان، وأنا وصديقة أخرى. بعد الآيس كريم عدنا إلى

المستشفى ولعبنا لعبة أوراق مضحكة جدًا تسمى «ماجينز» (Muggins)، وكانت ممتعة جدًا.

تحركت صوفيا وصديقتها «إيزابيل» إلى مناطق عدة في الولايات المتحدة ذاهبتان إلى المدارس والكليات التي يريدان التعرف عليها، ولقد منحت الرحلةُ الطويلة إلى مدينة «أوبرلين» (Oberlin) بولاية أوهايو كلًّا من صوفيا و«إيزابيل» فرصة للاستمتاع بوسائل الراحة التي توفّرها القطارات للمسافرين في أمريكا. حيث تكون العربات في السكك الحديدية الأمريكية عادةً على شكل عربات طويلة أشبه بالصالة، وبها ممرٌ في المنتصف يؤدي إلى الأبواب في طرفي العربة. وعلى جانبي الممر، يوجد صف من المقاعد، كل مقعد منها يتسع لشخصين ويطل على نافذة منفصلة. هذه المقاعد مصممة بحيث يمكن تدوير مساندها الخلفية، فيستطيع الركاب الجلوس إما في اتجاه المحرك أو عكسه. أمّا في حال كانت المجموعة من ثلاثة أو أربعة، فإنهم يفضّلون الجلوس في وضعية متقابلة، بما يشبه الجلوس وقت السمر. فكتبت صوفيا تقول:

> وبعد أن بدأنا رحلتنا في قطار مسائي، فقد قمنا على الفور بحجز أماكن للنوم مقابل دولار إضافي. وبهذا، اختبرنا الطريقة الذكية التي ابتُكرت لتصميم هذه الأسِرَّة. كانت المسألة بسيطة، وهو أن يُسحب ظهر مقعدين متقابلين ليلتقي كل منهما بالآخر، مما يشكّل سريرًا صلبًا يُوضع عليه فراش، وبساط بُنِّي، وبعض الوسائد. وكان هناك أيضًا ستارة تفصل السرير عن الممر. قد حجزتُ وصديقتي سريرين متقابلين، ومع نوافذ مفتوحة جزئيًا من كل جانب، تمكّنا من النوم كأننا ننام نومًا هادئًا! ولم يزعجنا إلا قلق المفتش من النوافذ المفتوحة، حيث قال: «احذروا من البرد ومن الشرر المتطاير من المحرك!». لقد كان السرير مريحًا إلى درجة أن حركة القطار المنتظمة على المسار الواسع كانت أشبه بهدهدة لطيفة.

وعندما وصلوا إلى مدينة «أوبرلين» (Oberlin)، اكتشفوا أن الكلية لم تكن مبنىً واحدًا، بل مجموعةً من المباني والمكاتب المنتشرة في أنحاء مختلفة من المدينة. وقد استقبلهم الموظفون والطلاب بحفاوة، وسمحوا لهم بحرية الملاحظة وطرح الأسئلة على مستضيفيهم. وخلال الأيام العشرة التي قضوها في «أوبرلين» (Oberlin)، رأت صوفيا أشياءً كثيرة أعجبتها، لكنها أيضًا لاحظت بعض الجوانب التي تحتاج إلى تحسين في حياة الكلية.

تُعد «كلية أوبرلين» أقدم كلية مختلطة في أمريكا، إذ كانت منذ تأسيسها تقبل الرجال والنساء كطلاب وأساتذة على حد سواء. كما أنها لم تميز بين الطلاب على أساس اللون. ففي عام ١٨٦٥، كان عدد الطلاب فيها يبلغ ٩٠٠ طالب. ودوّنت صوفيا ملاحظتها الآتية: «الجنسين كانا ممثلين على قدم المساواة بين الطلاب، رغم أن عدد النساء كان أقل. وكان هناك أيضًا طلاب «سود» من أعراق مختلفة — يشكلون نحو ثلث عدد الطلاب. وأظن أنه من النادر أن تجد في

أمريكا مجتمعًا يجتمع فيه السود والبيض على هذا القدر من المساواة الصادقة والحقيقية كما هو الحال في «أوبرلين»».

كانت الرسوم الدراسية منخفضةً جدًا — فقط ٩ دولارات سنويًا للدراسة، و٣ دولارات أسبوعيًا للسكن والطعام. وهذا مكّن الطلاب من العائلات الفقيرة جدًا من التمتّع بالتعليم الجامعي. لكن ذلك كان له أثر سلبي أيضًا — إذ إن هذا الدخل الزهيد جعل الكليةَ غيرَ قادرةٍ على دفع رواتبَ جيدة لطاقمها التدريسي. ومع ذلك، بقي بعض المعلمين المتميزين، الذين استطاعوا دعم أنفسهم وعائلاتهم، في الكلية لسنوات طويلة، بينما اضطر آخرون للرحيل بحثًا عن وظائف أفضل أجرًا. نتيجة لذلك، كان هناك أيضًا بعض المعلمين الأقل كفاءة، الذين اكتفوا بالإشراف على دراسة الطلاب للكتب المقررة.

كانت الحياة في الكلية متقشفة، وكان يسودها جوٌ صارمٌ من الانضباط الأخلاقي. فعلى الرغم من أن الطلاب والطالبات كانوا يحضرون نفس الحصص الدراسية، إلا أنهم لم يكونوا يجلسون معًا، ولم يكن من المفترض أن يختلطوا اجتماعيًا خارج الصفوف. كما مُنعت الألعاب الترفيهية — بل حتى لعبة الشطرنج كانت ممنوعة. وكذلك حُظر شرب الكحول، بل وحتى شرب الشاي والقهوة. وكان يُطلب من الطلاب أداء أعمال يدوية يومية للمساهمة في زيادة دخل الكلية. ولكن لم تكن هناك منشآت للألعاب الرياضية أو الترفيه. لاحظت صوفيا الفرق بين هؤلاء الطلاب وبين نظرائهم في بلدها؛ فالشباب الإنجليز كانوا أقل التزامًا بالدراسة، وأكثر اهتمامًا بالرياضة، ويبدون بصحة أفضل. وقد حضرت صوفيا اجتماعًا للصلاة جذب انتباهها إلى النقص في اللياقة البدنية والذهنية لدى شباب «كلية أوبرلين».

بعد مغادرة «أوبرلين»، توجهت صوفيا و«إيزابيل» إلى كلية «هيلزديل» (Hillsdale) في ولاية ميشيغان. مكثتا هناك أسبوعًا، وقد استُقبلتا بلُطف كبير.

وبوجه عام، كانت إدارة الكلية تتبع نمطًا «أبويًا» (patriarchal)، ولكن بأسلوب بسيط ومباشر. كان يُرحّب بالطلاب «سود البشرة» (ذوي الأصول الإفريقية) في كلية «هيلزديل»، ولكن عددهم لم يكن كبيرًا كما في «أوبرلين». ومن بين ٦٠٠ طالب، كان أقل من نصفهم بقليل من الإناث. بلغت الرسوم الدراسية ٣٠ دولارًا سنويًا، وهو مبلغ أعلى مما كان في «أوبرلين»، لكنه يظل منخفضًا نسبيًا. وقد وجدت «صوفيا» أن مستوى التدريس في «هيلزديل» كان عاليًا، والأساتذة مؤهلين، والطلاب يتمتعون بلياقة بدنية ومزاجٍ مرح، رغم غياب الأنشطة الرياضية المنظمة أيضًا. بعد أسبوع في «هيلزديل»، بدأت صوفيا و«إيزابيل» رحلةً طويلة بطول ٥٠٠ ميل إلى وجهتهما التالية، إلى «سانت لويس» (St Louis) في ولاية «ميسوري» (Missouri).

انطلقت الرحلة من «هيلزديل» في الساعة ٥:٣٠ صباحًا، في السادس من أكتوبر. وعند دخول «شيكاغو»، لاحظتا ظاهرة غريبة؛ إذ كانت خطوط السكك الحديدية تمر مباشرة في شوارع

المدينة الرئيسية، وسط صفوف من البيوت والأرصفة الخشبية والمارة والعربات، وكان الجميع يبدو وكأنهم على وشك أن يمروا تحت عجلات القطار، ومع ذلك لم يحدث ذلك فعليًا! وصفت «شيكاغو» بأنها واحدة من أسرع المدن الغربية نموًا، لكنها تعاني من طابع رديء في البناء، حيث تظهر الفخامة في أماكن، ويقابلها نقص وإهمال في أماكن أخرى. وكانت محطة الوصول من أكثر الأماكن اتساخًا وبدائية. أما الفندق الذي تناولتا فيه الطعام فكان فاخرًا إلى حدٍّ كبير، حتى أن الأرضية كانت من الرخام، ويُعد من أفخم الأماكن التي شاهدتاها في أمريكا حتى ذلك الحين.

بعد عشاء مريح، غادرت صوفيا و«إيزابيل» مدينة «شيكاغو» بالقطار، وقد حجزتا مرة أخرى مقصورات نوم مريحة. ومن وقت لآخر كانت صوفيا تستيقظ وتحدق في الحقول والسهول الزراعية الممتدة تحت ضوء القمر الساطع، حيث لا يعكّر صفوَ المشهد أيُّ سور أو جدار أو شجرة. وعندما وصلتا إلى الضفة الشرقية لنهر «الميسيسيبي»، نُقلتا إلى عربة كبيرة تجرها الخيول نزلت بهما من منحدر شديد الانحدار لتصل إلى عَبَّارة. وبهذا تكونان قد وصلتا إلى ولاية «ميسوري»، أول ولاية من ولايات العبودية السابقة تزورها صوفيا و«إيزابيل».

جاءتا إلى «سانت لويس» لرؤية معهد «ماري» (Mary Institute)، وهو مؤسسة تعليمية لا يُقبل فيها سوى الطالبات فقط. وكان المعهد تابعًا لجامعة واشنطن، ويُشرف عليه أستاذان (أخ وأخته). وكان أصغر من كلٍّ من معهدي «أوبرلين» و«هيلزديل»، إذ لم يكن فيه سوى ١٣٢ طالبة، وجميعهنّ من البيض. علّقت صوفيا على ذلك بقولها: «إن إدارة المدرسة تأسف بشدة لأن التعصّب الشعبي لا يزال قويًا إلى درجة تمنع قبول الطالبات السود». ومع ذلك، فقد أثنت صوفيا على التسامح الديني الذي رأته هناك، إذ كان طلاب الكاثوليك واليهود والبروتستانت يشاركون في طقوس دينية مشتركة يجدها الجميع مقبولة.

لم يكن هناك سكن داخلي مخصص للطالبات؛ فمَن كانت تقيم بعيدًا عن مدينة «سانت لويس» كانت مضطرة للبحث عن إقامة خاصة بها. وكانت الرسوم الدراسية تتراوح ما بين ٨٠ و١٠٠ دولار سنويًا، حسب المقررات المختارة. وكانت معظم المعلمات في المعهد من النساء. ووجدت صوفيا أن مستوى التدريس هناك هو الأفضل في جولتها حتى الآن. وكان بإمكان الطالبات المجتهدات التقدُّم لاختبارات الدرجة العلمية في جامعة واشنطن، بنفس الشروط المطبقة على الذكور. كان النظام المدرسي العام في أمريكا جانبًا آخر جذب اهتمام صوفيا. زارت عددًا من المدارس في «سانت لويس» و«سينسيناتي».

رأت صوفيا أن هذه السياسة التعليمية المتساوية ستكون ميزة كبيرة لو أن الأسلوب المصقول والراقي لأبناء الطبقات المرفهة هو ما يُعتمد معيارًا للجميع. لكن المشكلة تكمن في أن سلوكيات أبناء الطبقات العاملة هي التي أصبحت النموذج السائد، مما يثير الخشية من أن يسود

الأسلوب الفظ والبسيط. مع ذلك، لاحظت أن الأمريكيين يُعيرون اهتمامًا أقل بكثير للآداب الاجتماعية مقارنة بالأوروبيين. كانت صوفيا تشعر غالبًا بالخداع؛ فعندما وصلت لأول مرة إلى أمريكا، صُدمت بسوء النطق وركاكة الإنجليزية لدى الكثيرين، لكنها فوجئت لاحقًا بأن هؤلاء الأشخاص كانوا بالفعل رجالًا ونساءً على قدرٍ عالٍ من العلم. وقالت إن هذه العيوب اللغوية والأسلوبية — وأحيانًا حتى في خطّ اليد — منتشرة بين الأمريكيين، وهم بذلك يظلمون أنفسهم أمام الأوروبيين.

عندما عادت صوفيا إلى بوسطن، كانت وحدها، إذ قررت صديقتها «إيزابيل» أن تصبح طالبة في إحدى الكليات التي زارتاها. وقد دُعيت صوفيا لقضاء بعض الوقت في مدينة «ناساو» مع صديقة قديمة درست معها، لكنها شعرت بنداء داخلي يدفعها للعودة إلى «مستشفى نيو إنجلاند للنساء والأطفال» في بوسطن. وعندما اقترحت عليها «لوسي سيوول» أن تقيم معها في المستشفى مقابل المساعدة في العمل، وافقت صوفيا بحماسٍ شديد. وبفضل تدريبها في مجال المحاسبة، استطاعت صوفيا أن تتولى العملَ الكتابي في المستشفى، وأعادت ترتيب الدفاتر المُهمَلة بشكل جيّد. كما ساعدت في صرف الوصفات الطبية عندما اضطر موظف الصيدلية للمغادرة، وعاونت النساء الفقيرات في طرق عديدة.

مع مرور الوقت وتعمُّق صوفيا في العمل بالمستشفى، أصبحت أكثر وعيًا بقسوة الفقر وتأثيره على الناس، خصوصًا النساء. روت في إحدى رسائلها لوالدتها كيف أنه وُجد طفلان حديثا الولادة في الشارع في اليوم التالي لخروج أمهما من المستشفى، وهو ما يكشف حجم اليأس وغياب الشعور بالأمومة بين النساء الفقيرات في المدينة. رغبت صوفيا في تقديم ما هو أكثر من الرعاية الجسدية، فعرضت أن تعمل كقسّيسة تزور المرضى الذين لا عائلة لهم، وتُقيم لهم الشعائر الدينية يوم الأحد، غير أن هذا الدور لم يكن ناجحًا كما كان دورها العملي. وبعد ثلاثة أشهر كتبت أنها تخلت عن مهامها الدينية وسلمتها لقسٍّ آخر، لأن العبء النفسي الذي سببه لها الشعور بالمسؤولية فيما تقول كان يفوق قدرتها، فكانت تفضّل الصمت على أن تخالف ضميرها، معترفة بأن التجربة كانت تُرهق أعصابها أكثر مما توقعت.

ومع انغماس صوفيا في أجواء المستشفى وملامستها اليومية لنبض الحياة الطبية، أخذ حبُّها للطب يتسلّل إلى قلبها رويدًا رويدًا، حتى غدا ميلًا صادقًا وشغفًا حقيقيًا. ومن هذه اللحظة، نستطيع أن نزعم أن القصة الحقيقية التي أعزم على سردها في هذا الكتاب قد بدأت تسطّر الآن أول فصولها. نعم، لقد وصلنا الآن إلى مئة صفحة، والقصة الحقيقية لم تبدأ بعد.

لقد كانت اهتمامات صوفيا فيما مضى تنحصر في التعليم والرياضيات، وكانت همّتها معقودةً على تأسيس المدارس الرفيعة التي تنشر العلم النافع وتُعلي من شأن المعرفة. غير أن شغفًا جديدًا بدأ يشق طريقه إلى قلبها، هو شغف دراسة الطب، ذلك الفنّ الذي يجمع بين المعرفة

العلمية والرحمة القلبية. ولتأريخ هذه اللحظة الفارقة، أنقل هنا ما كتبته صوفيا إلى والدتها، إذ قالت في رسائلها:

من الممتع جدًا، أمي العزيزة، أن أتعلم كيف أكتبُ وأعدّ الوصفات الطبية بهذه السهولة! سأتمكن قريبًا من أن أُصبح بمستوى الأطباء! لقد كتبتُ اليوم واحدةً بنفسي تحت إشراف الطبيب، وكان ذلك مسليًا جدًا... على الرغم من أنه كريه! ومن الرائع أن أكون ذات نفعٍ في هذا الوقت، فالجميع منهك جدًا حاليًا... بالإضافة إلى عملي في صيدلية المستشفى، فأنا أيضًا السكرتيرة العامة — أكتب كل الرسائل الرسمية (التي يكره الأطباءُ كتابتها)، وأسجّل الحالات في دفاتر المستشفى، وما إلى ذلك...

في هذه اللحظة، أنا مرتاحة بشكلٍ لا يوصف في مقرّي المتواضع اللطيف، وسط بيئة العمل الجديدة تلك... أشعر بأنني لا أحتاج إلى شيء أكثر! ومن دواعي سروري أن أرى الدكتورة «سيوول» وهي تعمل وسط مرضاها الفقراء — إنسانةٌ بكل ما تحمله الكلمة من معنى، عيناها زرقاوان تمتلئان بالشفقة، لكنها تملك يدًا قوية تُعالج حتى من خلال الألم! أقول لنفسي عشرات المرات كل يوم: «لو لم أكن مُعلّمة، لكنتُ طبيبة!».

هذا المستشفى مدهش! الحياة هنا مزدحمة وجميلة وبسيطة ومليئة بالحياة. أندمج أكثر فأكثر في تفاصيلها كل يوم، وأجد لنفسي المزيد من الأماكن لأملأها. أساعد أحيانًا في العمليات بإعطاء الدعم اليدوي حيثما دعت الحاجة...

ولكِ أن تعرفي، عزيزتي، أنّ أكثر نتيجة غير متوقعة من هذه الحياة الجديدة هي أنني وقعتُ في حب الطب بشدة، كعلم وفن، إلى درجة لم أكن أتصورها! كنت أعتبر الطب مقززًا، لكنني الآن — من كثرة اقترابي منه — لم أعد أشعر بذلك مطلقًا. إذ يبدو أن جمال تنظيمات الطبيعة، وابتكارات الفنّ، يستهوي العقل ويُنسيه كل ما هو كريه. أقول بيني وبين نفسي عشرات المرات: «لو لم أكن وهبت نفسي لشيء آخر، لصرت طبيبة على الفور!»

سأستغلّ كل وقتي في التعلّم بالملاحظة — وهي فرصة نادرة — وحتى الآن، أجد أنني ألتهم الكتب الطبية بنهم، وأتفاجأ بمدى الفهم الذي اكتسبته في هذه المدة القصيرة! فهاهنا مكتبة طبية ضخمة، وكل الأطباء الشباب مستعدون لشرحي كل ما أريده. أنا بدوري أبذل كل جهدي في إنجاز الأعمال الإضافية لتخفيف العبء عنهم.

اليوم، سُلّمت إليّ دفتر الملاحظات، ورافقت الأطباء لتدوين تعليمات الطعام والأدوية، ثم أعددت الطلبات وأوصلتها إلى العنابر. لم يكن العمل كثيرًا، لكنه كان ممتعًا، وساعد كثيرًا في تخفيف العبء عن الطبيب المقيم. وإني لأشعر الآن أنني أقوى جسديًا ونفسيًا مما كنت منذ زمن طويل.

نستيقظ عند الساعة ٦:٣٠ صباحًا، ونتناول الإفطار في الساعة ٧، ثم نذهب إلى الجولات الصباحية مع الطبيبات، وبعدها أشرع في تجهيز الأدوية المطلوبة، ومعرفة ما ينبغي طلبه إلى الصيدلية. تفتح الصيدلية أبوابَها الساعة ٩. وفي أيام الإثنين والخميس — وهما يوما عمل الدكتورة «سيوول» — أكون هناك طوال الصباح، أُحضّر الوصفات الطبية بسرعة، فور أن تُملِيها عليّ. أحيانًا نكون اثنتين تعملان معًا، لكنني أكون وحدي أحيانًا كثيرة. وغالبًا ما لا نكون قد فرغنا بعد حين يرنّ جرس الغداء عند الساعة ١ ظهرًا. الدكتورة «سيوول» لديها عدد كبير من المرضى دائمًا — من ٦٠ إلى ٧٠ مريضًا — وإذا نزلتُ إلى غرفة الانتظار الخاصة بالصيدلية، غالبًا ما ينهال عليّ الناس بالسؤال: «هل الدكتورة سيوول هنا؟»، لأنها كثيرًا ما تكون مضطرة للغياب عن العيادة لبعض الوقت.

وبعد أن نقلت لكم بعضًا من رسائلها إلى والدتها، نستكمل الحديث ونقول: واصلتْ صوفيا عملَها في «مستشفى نيو إنجلاند»، وكانت تستمتع به أكثر فأكثر مع مرور الأيام، لكنها ظلّت غير متأكدة مما إذا كان الطبّ يمكن أن يحلّ محل التعليم كمهنة حياتها. فقد ظلّت لسنوات تخطّط لامتلاك مدرستها الخاصة، لذا لم يكن من السهل التخلّي عن هذه الفكرة. تجربتها السيئة في «معهد مانهايم» في ألمانيا لم تُثنِها، لكن قضية التعليم الديني كانت تثير قلقًا متجددًا في نفسها. لم يُحسم هذا الموضوع في مانشستر، وها هو يعود للظهور مجددًا في «مستشفى نيو إنجلاند». وافقت صوفيا على رأي الدكتور «أرنولد» (Dr Arnold of Rugby) الذي رأى أن مدير المدرسة يجب أن يكون أيضًا القَسّ الرسمي للمؤسسة. كانت صوفيا تتوق لهذه المسؤولية، لكنها كانت تُشَكِّك في قدرتها على القيام بها.

لقد بدت إقامة صوفيا في أمريكا أشبه بالمنعطف الحاد الذي بدّل مجرى حياتها تبديلًا لا رجعة فيه، إذ كان لتلك الفترة أثرٌ بالغ في نسيج شخصيتها ومسارها الفكري والمهني. فبعد أن كانت تخطو بخُطى ثابتة في حقل التعليم، غيّرت وجهتها فجأة، واتجهت نحو الطب، وكأنها وجدت في مداواة الأجساد شيئًا أفضل من مداواة العقول والأفكار.

أما إيمانها الديني، فقد صار عرضةً للمدّ والجزر؛ فتارةً تجدها مؤمنةً غاية الإيمان، غارقة في وجدانيات التوحيد، وتارةً أخرى يعتريها شكٌ مرير، مردّه ما عايشته في أمريكا من صخب الحوارات الدينية ومخالطة الملحدين، حتى صارت ترى العقيدةَ وكأنها حقل ألغامٍ من الأسئلة

التي لا تنتهي. وقد عبّرت عن تفكيرها في العقيدة التوحيدية بقولها: «أحيانًا أشعر بتعاطفٍ شديد وشفقةٍ للمسيح، فقد تم تأليهه رغمًا عن إرادته. فبعد أن قضى حياته كلها يُعلِّم ويحدّث الناسَ عن أبيه، يجدهم، بعد موته، يحاولون أن يجعلوا منه هو الإله، ويحجبوا بذلك الأب، جاعلين من الله مجرد ظلٍّ للمسيح!» وبمثل هذا الصدق الذي يستحق الإشادة، كتبت إلى والدتها تقول: «كنت أفكر في مدى غرابة أنني لم أقرأ قط كتابًا واحدًا من كتب التوحيديين، ومع ذلك كنت موحِّدة بالكامل — لم أقرأ سوى الكتاب المقدس، على الأقل، إذا كان ذلك يُحتسب!»

غير أن هذا الإيمان لم يكن دائمًا مستقرًا؛ فقد اجتاحتها لحظات من القلق والاضطراب، فقالت: «أشعر بقلقٍ واضطرابٍ شديدين... لا أزال أؤمن، ولكن هذا النوع المريع من الشكّ في وجود الإله حين يدخل النفس — ليس إنكارًا للإيمان، بل فشلٌ في الثقة الدائمة — دخولٌ لفكرة أن الإلحاد قد يكون معقولًا — وهذا مؤلمٌ للغاية. أليس في ذلك إعلانٌ أن العالم كله قد أصبح عديم القيمة؟»

وما بين إصرارها على الطب، إذ كانت تردد على نفسها عشرات المرات في اليوم أنها تريد أن تكون طبيبةً لا معلمة، وبين رجوعها في أوقات التأمل والسؤال، كانت تتذبذب. فتسائل نفسها: هل كان اختياري للطب فرارًا من حيرتي الدينية؟ وإذا مضيتُ في هذا الطريق، هل أريد أن أكون ممرضةً أم طبيبة؟ وهل أسلك درب الجامعة أم أختار التجربة الحية بين جدران المستشفيات؟

لقد كانت أمريكا مرحلة التحوّل الكبرى في حياتها. فالتغيرات السياسية التي أعقبت الحرب الأهلية الأمريكية أبانت لها وجوه الحق من الباطل. كما أنّ النساء العظيمات اللائي التقت بهن هناك فتحن أمامها آفاقًا ما كانت لتبلغها لولا تلك اللقاءات. ويكفي وصفها لأستاذة الرياضيات بأنها كانت «عملاقةً هادئةً رزينة»، في حين كانت ترى نفسَها قزمًا أهوجًا ثرثارًا بجوارها.

وكما زلزلتها الشكوك، أثقلها أيضًا سؤال الشر الإلهي: لمَ سمح الله بالشر؟ كيف يُوفق بين قدرته ومحبته، وهذا الكم من المعاناة؟ وهكذا كانت تتأرجح ما بين الإنكار والإيمان، بين التوحيد والتثليث، وبين التدريس والطب، بين الدراسة الجامعية وبين الممارسة العملية.

كل ذلك جعل من تلك الفترة من حياتها غربالًا نخلها نخلًا، وصقلها صقلًا. ولذلك كتبت في لحظة صفاء وجوديٍّ قائلةً: «أُدرِك أكثر فأكثر أن كثيرًا من سنوات حياتي، إن لم تكن حياتي كلها، ستكون على نسق واحد فقط من الصراع، وربما التشهير، بل النبذ من المجتمع. ولكن، هل

سينجح الأمر في النهاية؟ نعم، بلا شك. طالما قال «روبرتسون»[١]: إن وجودَك على ثغرٍ لا يسده أحدٌ غيرك هو النجاح بعينه، هو أن تكون جنديًا في جيش الفاتحين، حتى وإن لم تكن من القادة الفاتحين أنفسهم.»

بعد أن انقضى عامٌ على مقام صوفيا في أمريكا، وقد امتلأ وجدانها بعظمة هذه التجربة وارتجّ عقلها بما أحدثه فيه من التحوّل، قررت أن تعود إلى بريطانيا لتزور أهلها وأسرتها بعد هذه المدة من الغياب والسفر.

هناك، في كنف الأهل والأصدقاء، شرعت تحدثهم عن قرارها المصيري بترك مجال التعليم والتدريس، والانخراط في ميدان الطب، فأدهشها ما لقيته من ترحيبٍ وتأييد لم تكن تظنّه موجودًا. لقد كان والداها سندًا لها، وأصدقاؤها باركوا خطوتها الجديدة هذه. إلا أن أصوات المعارضة لم تكن بدورها غائبةً عن المشهد. فكانت أبرزها الآنسة «إليزابيث جاريت»، التي أرادت الدراسة في جامعة إدنبرة من قبل فرفضتها الجامعة. أقول: عارضت الآنسة «إليزابيث جاريت» قرارَ صوفيا في دراستها للطب وقالت لها إن صوفيا غير مناسبة لهذه المهنة بتاتًا. كما عارضتها سيدةٌ أخرى كانت تعتبر أن من غير اللائق أن تعرف امرأةٌ غير متزوجة كل هذه الأمور عن أجساد البشر.

وفي تلك الأثناء، توجَّهت صوفيا إلى دار النشر العريقة «ماكميلان» (Macmillan) في لندن، وسألتهم عمَّا إذا كانوا مستعدِّين لنشر كتابٍ لها يتناول موضوع المدارس والكليّات في أمريكا. وقد عبّرت الدار عن سرورها بالفكرة، وأبدت رغبة واضحة في المضي قُدمًا بنشره. ومن ثم شرعت صوفيا في تهذيب ما كانت قد دوَّنته من ملاحظات، وصياغته بأسلوبٍ يلائم روح الكتابة والنشر. وهو ما تم بالفعل بعد شهرين حين أرسلت لهم نص الكتاب، وتم نشره تحت عنوان «زيارة إلى بعض المدارس والكليات الأمريكية» (A Visit to some American Schools and Colleges).

******

١- أظنه «فريدريك وليم روبرتسون» (Frederick William Robertson)، المشهور باسم Roberson of Brighton، وهو واعظ أنجليكاني بريطاني بارز في القرن التاسع عشر، عُرف بخطبه ومواعظه ذات الطابع الروحي والفكري، التي جمعت بين الروح الإصلاحية والبعد الأدبي. اشتهرت عباراته بكثرة الاقتباس منها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، خصوصًا في الأوساط الدينية والأكاديمية.

قبل أن أضع القلم وأختم هذا الفصل، لا بد من التوقف عند حقيقة هامة، تُعدّ المفتاح الذي يفسّر التحوّل العميق الذي طرأ على حياة صوفيا، وهو أن السبب الأعظم، بل لعلّه السبب الوحيد، كان هو سفرها إلى أمريكا. فقد كانت هذه الرحلة هي المفرق الذي قلب وجهتها الفكرية والمهنية والروحية.

لقد غادرت لندن من قبل إلى إدنبرة، ثم تركت بريطانيا بأسرها متوجهةً إلى ألمانيا، ولكن شيئًا من هذه الرحلات لم يُحدث فيها ما أحدثته أرض أمريكا من زلزلة في الذات، واتساع في الأفق، وانبعاث جديد للروح.

ومن العجب أن من أطلق شرارة هذا التحوّل العظيم لم يكن سوى امرأة تُدعى «لوسي سوول»، شخصية قد يراها المرءُ عابرةً لولا ما أثمرت من أثر بالغ، بل نقول، إنها كانت السبب الرئيس، ولو قلنا الوحيد، لما جانَبْنا الصواب، في تغيير مسار صوفيا — ذلك المسار الذي لم



لوسي سيوول

يبدّل حياتها هي فقط، بل سيمتد ليعيد تشكيل ملامح التعليم العالي والطب النسائي في العالم بأسره. ولن نترك الدكتورة «لوسي سوول» الآن، بل ستستمر معنا حاضرةً فاعلةً حتى نهاية هذا الكتاب.

تأمل، إذن، كيف لموقفٍ واحد عارضٍ، أن يهزّ تاريخًا كاملاً!

وهنا، لا يسعنا إلا أن نستدعي سيرة الطبيبة الإنجليزية الرائدة «إليزابيث بلاكويل»، التي لم يكن قرارها بدراسة الطب إلا ثمرة لحادثة مؤلمة، حين قالت قريبتها التي كانت تحتضر من مرض السرطان، بكلمات دامعة: «كنتُ لأرتاح أكثر لو كانت هناك طبيبة تعتني بي.»

كانت جملة واحدة، نُطقت عند حافة الموت، كفيلة بأن تزرع في «إليزابيث بلاكويل» البذرة التي أثمرت أول طبيبة في العالم الناطق بالإنجليزية. وحين تقدّمت إلى كلية الطب في نيويورك، لم يكن قبولها أمرًا جادًا في بدايته، بل مزحة ثقيلة من الطلاب الذكور الذين ظنوا أنه طلب هزلي، فوافقوا عليه ساخرين، لتصير تلك المزحة بدايةَ عهدٍ جديد فتح مجال الطب أمام نساء العالم من بعدها، كما ذكرنا في الصفحات السابقة.

فانظر، رعاك الله، كيف يمكن لكلمةٍ صادقة على فراش الموت، أو مزحةٍ طائشة، أو رحلةٍ غير محسوبة، أن تُغيّر مجرى التاريخ! تلك هي أسرار الحياة التي تحتاج إلى إيمان بأن لكل موقف، مهما بدا صغيرًا، القدرة أن يفتح للمرء بابًا لم يُطرَق من قبل.

وقد حدث هذا الأمر مع كثير من العلماء، ربما موقف بسيط كفيل أن يغير حياته رأسًا على عقب، وليس أدل على ذلك من حجة الإسلام أبي حامد الغزالي — رحمة الله عليه — إذ كان، وهو في صباه، يذهب إلى الشيخ أبي نصر الإسماعيلي في مدينة جرجان، وأخذ عنه العلوم والدروس، ثم وهو في طريقه عائدٌ في الطريق، إذ خرج لصوص وقطعوا عليه وعلى زميله الطريق. وأخذ اللصوصُ جميعَ ما معه، ومضوا. فذهب إليهم الغزالي، فقال له رئيسُهم: «ارجع، ويحك، وإلا هلكت». فقال الغزالي: «أسألك بالذي ترجو السلامة منه، أن ترد عليَّ تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به». قال اللص: «وما هي تعليقتك؟» فقال الغزالي: «كتبٌ في تلك المخلاة، هاجرت لسماعها، وكتابتها، ومعرفة علمها». فضحك، وقال: «كيف تدعي أنك عرفت علمها، وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها، وبقيت بلا علم!» ثم أمر بعضَ أصحابه، فسلَّم لي المخلاة. فقال الغزالي: فقلت: «هذا مُستنطَق أنطقه الله ليرشدني به في أمري، فلما وافيت طوس، أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين، حتى حفظت جميع ما علقته، وصرت بحيث لو قُطِعَ عليَّ الطريق لم أتجرد من علمي».[1]

كانت شخصية «لوسي سيوول» هي الشعلة التي أضرمت في قلبِ صوفيا نارَ التغيير، فانقلبت من فتاةٍ يحدوها حلم التعليم وتأسيس مدرسة، إلى امرأة تهفو روحُها إلى ميادين الطب وعلومه. فما لبثت أن شرعت تخوض غمارَ التقديم إلى الجامعات الأمريكية، والبريطانية فيما بعد. تخوض حربًا ضروسًا من أجل أن تظفر بموضعٍ قدم فيها، ليس لنفسها وفقط، بل لكل امرأة أخرى، لتدخل إلى محراب الجامعة.

١- تاج الدين السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، دار الكتب العلمية: بيروت، الجزء الثالث، ص ٤١٨

نعم، لقد كانت صوفيا امرأةً جبّارة، فتحت أبوابًا كانت موصدةً في وجه النساء، ومهّدت السبيل لملايينٍ من بعدها. غير أنّ الفضل الأكبر يعود إلى تلك المرأة العظيمة، الدكتورة «لوسي سيوول»؛ فلولاها ما استيقظت في صوفيا شرارةُ الطموح، ولولاها ما تبدّلت وجهتها من التدريس إلى علاج المرضى، ولولاها ما خطَت قدمٌ نسائيةٌ إلى قاعات الطب إلا ما كان في علم الله، ولولاها ما تحدّت صوفيا قوانينَ الجامعة ولا جابهت عتاة الأكاديميين، ولولاها ما شُقّ الطريق أمام المرأة نحو المشرحة وغرفة العمليات ومعامل الكيمياء، ولولاها ما اهتزّ عرشُ الهيمنة الذكورية في التعليم العالي، ولولاها ما كُتبت في سجل الطب أولُ سطورٍ بأنامل نسائية، ولولاها ما سُمِعت للمرأة في الحقل العلمي كلمةٌ، ولا رُفع لها لواءٌ، ولولاها ما تغيّر مصير صوفيا، ولا تبدّلت حياة آلاف الطالبات، ولولاها لبقيت أبوابُ الجامعات مؤصدةً في وجه الطموحات النسائية. فلولاها، ثم لولاها، ما انقلبت الموازين، ولا تبدّل التاريخ.

الفصل الخامس:
أول كلية طب للنساء في أمريكا

توقفنا في الفصل السابق عند عودة صوفيا إلى بريطانيا لتزور أهلَها وأصدقاءها، وعلى مرورها على دار النشر في لندن تعرض عليهم فكرةَ الكتاب، فوافقوا على نشره ما إن تُتِمه كتابةً وإعدادًا. وبعد مدةٍ قضتها مع والدتها وأصدقائها، عادت صوفيا إلى أمريكا مُغادِرةً بريطانيا في اليوم الأول من شهر سبتمبر عام ١٨٦٦، وكان شغلها الشاغل طيلة الشهرين الأولين من مقامها هناك أن تُتمَّ نسختها من الكتاب وتبعث بها إلى لندن بغية النشر. وقد فعلت، فأكملت النسخةَ وأرسلتها إلى دار النشر في شهر نوفمبر.

ومن المعروف، كما سبقت الإشارة، أن صوفيا لم تَزُر إلا عددًا محدودًا جدًا من المدارس والكليات، إذ لم تَشمل جولتُها جميعَ كليات أمريكا، ولا حتى أكثرَها، بل ولا نصفها؛ لذا فقد أعلنتْ صراحةً في كتابِها أنها اعتمدت على مشاهداتٍ محدودةٍ نسبيًّا، وأنها تتناول جانبًا صغيرًا من جوانب موضوع كبير قلما يستطيع إنسانٌ أن يحيط به بحثًا ودراسةً. ومع هذا القصور الكمي، جاء الكتابُ غايةً في البيان والوضوح، فاستُقبل بقبول حسن وتقدير صادق من أهل الاختصاص في هذا المضمار. بل إن من محاسن هذا الكتاب الأخرى التي لا تقل شأنًا عن المعلومات التي بداخله، هو كونه كتابًا شيِّقًا في قراءته، جذّابًا في أسلوبه. وفي ختام مراجعة مطوّلة امتدت لأربعة أعمدة، قالت مجلة «أثينايوم» (Athenaeum) ما نصّه:

> إن معلمةً إنجليزية، أهلتها ميولُها التخصصية لأن تسترعي انتباه الأساتذة الأمريكيين على الفور، ووهبتها قدرةً على التمييز بين ما له قيمة حقيقية وما لا طائل تحته، قد ألّفت، وهي الآنسة «صوفيا جيكس-بليك»، كتابًا مُرتَّبًا ماتعًا في موضوع ذي شأن. وبينما نشكرها على ما أفادتنا به من معلومات نافعة، نجرؤ كذلك على شكرها على الأسلوب الجميل والبليغ الذي ساقت به تلك المعارف.

وكذلك جاء في رأي محرر مجلة «ذا ستيشنر» (The Stationer) البريطانية قوله إن الكتاب «يفوح بالحكمة والتجارب العملية والفطرة السليمة»، وقد أطرى رأي المؤلفة المتزن إزاء الموضوع بأسره.

وبعد أن أتمّت صوفيا تأليفَ كتابها، وقد امتلأ قلبُها بالرضا والغبطة، انفسح لها المجالُ لتُفرغ عقلها وتُكرّس جهدها كليًّا لدراسة الطب، فيبدو أنها التحقت رسميًّا بصفتها طالبة في

«كلية نيو إنجلاند». وعلى أية حال، فقد كانت تمارس التشريح عمليًا كلما سنحت لها الفرصة وتوافرت المواد اللازمة.

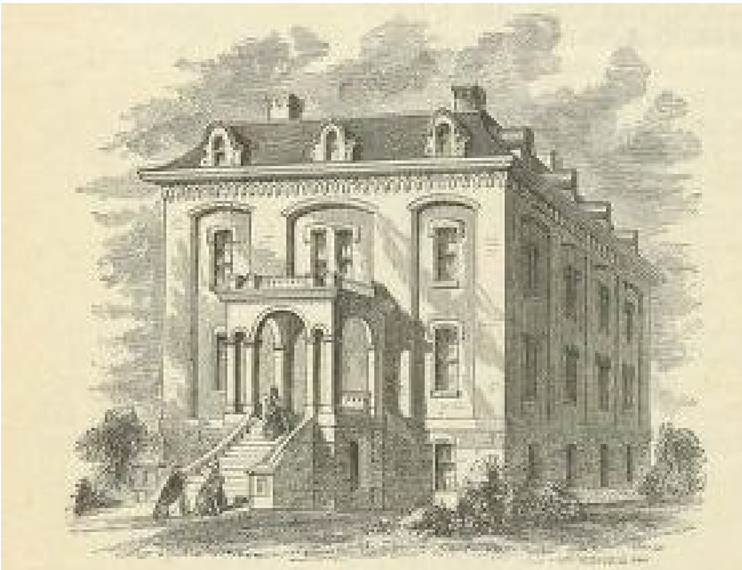
وفي تلك الآونة، كان يُنجز في «مستشفى النساء في نيو إنجلاند» عملٌ جليل في علاج المرضى وتخريج طبيبات بارعات كفؤات سنةً بعد سنة. غير أن الوجه الأكاديمي للعمل آنذاك كان ضعيفًا وواهن البنيان؛ فالتدريب العملي كان نادرًا، والموارد اللازمة لتدريب الطلبة كانت شحيحةً إلى حدّ الفقر. أما مؤسس الكلية ومدير المستشفى، السيد «صامويل جريجوري»، والذي أراد إدخال الفتيات في مجال الطب لدراسته والتخصص فيه، فلم يكن يومًا طبيبًا ولا درس الطب في حياته، ولم يكن دافعه إنصاف المرأة أو نصرة حقها في التعليم، ولا كان يسعى لإشاعة العلم بين الرجال والنساء على السواء. كلا، لم يكن هذا همه، بل كان دافعه دينيًّا عرفيًّا محضًا، إذ لم يُرِدْ أن تُعرض أجسادُ النساء على أنظار الأطباء من الرجال، فأسّس هذه الكلية كي تعالج النساءَ نساءٌ مثلهن، وليس ذلك حبًّا منه في العلم، ولا تقديرًا منه للمعرفة، ولا إعلاءً من شأن المرأة أو تمكينها من سُبل الحياة الكريمة.

وهذا المنطق المعوج، ما زال موجودًا في مجتمعاتنا حتى يومنا هذا! فلطالما سمعنا حجج المؤيدين لتعليم المرأة عندنا وهم يجابهون أهل الجهالة والرجعية ممن يُحرِّمون على المرأة كلَّ شيءٍ، — وأُقسم أنهم لو استطاعوا أن يُحرِّموا عليها الماءَ والهواءَ لفعلوا. أقول: تجد من ضمن حجج هؤلاء المناصرين لتعليم المرأة وعملها ومشاركتها في الحياة، أن بعضًا من هذه الحجج ليست تعبيرًا عن إيمان الناس بحق المرأة الأصيل في التعلم والتمكين والقيادة، بل خوفًا من ألا تجد النساء مَن يعالجهنّ أو يُوَلِّدهنّ أو يُسعفهنّ. إن طلب المرأة للعلم في بلادنا ما هو إلا سترٌ للعورات، وليس سعيًا إلى العلم، ولا توقًا إلى الكرامة، ولا ارتقاءً بمقام الإنسان، بل هو فقط خشيةٌ من العار، وهاجس من ظهور العورة... إنها العورة، العورة فقط، هي آخر ما تبقى من أسباب لكي تنهض هذه الأمة المتخلفة بأن يرتقي رجالُها ونساؤها بالعلم.

*****

كلية الطب النسائية في نيوإنجلاند

قبل الاستكمال في سرد الأحداث التاريخية، أريد أن أقفَ بالقارئ وقفةً سريعةً لننظر على تاريخ «كلية الطب النسائية في نيو إنجلاند»، ذلك أن تاريخها فيه من الأحداث ما يستحق الذكر، وفيه من العبر ما يستحق الوقوف عنده. بدأت القصة حين أعلن السيد «صامويل جريجوري» في صحف مدينة بوسطن اليومية عام ١٨٤٧ عن محاضرةٍ بعنوان «فضح التوليد الرجالي» (Man-midwifery Exposed). وقد وعد «جريجوري»، الذي ألقى المحاضرة، بأن يُثبت — من خلال «حقائق عديدة» و«شهادات لأبرز الأطباء المرموقين» — أنّ ممارسة الأطباء الرجال للتوليد لم تكن مجرد «بدعة حديثة مُحرَّمة»، بل كانت أيضًا «إساءةً صارخةً للحياء... وغير أخلاقية إلى أبعد حدّ، وتحمل في طيّاتها نزعةً شهوانيةً فاسدة». لقد دقّ «جريجوري» ناقوس الخطر حول الانحدار الأخلاقي الذي وصل إليه هذا العصر الحديث، موجهًا اتهاماته إلى العديد من الرجال المنتمين إلى المهنة الطبية في بوسطن، وقدَّم أمثلةً مُعبّرة عن التأثيرات المُروّعة التي يخلّفها حضور الأطباء الرجال في غرف الولادة.



كلية الطب النسائية في نيوإنجلاند

وعلى الرغم من أن ظاهرة «الولادة على يد الرجال» لم تكن جديدة — إذ كان هناك ممارسون معروفون لها في بوسطن منذ أكثر من أربعين عامًا — فقد لقي تحذيره هذا صدىً لدى الجمهور والناس من سكان تلك المدينة. كما قدّم «جريجوري» في محاضرته اقتراحًا لما سمّاه «علاجًا لهذا الشرّ»، وهو ما سيبدأ بالتجسُّد قريبًا على أرض الواقع متمثلًا في إنشاء «كليّة الطبّ النسائيّة في نيو إنجلاند» (NEFMC).

ولعل الناظر إلى تلك المسألة سيتوقع أن الداعمين والمؤيدين لتلك الأفكار كانوا من أنصار تحرير المرأة وإعطائها حقوقها المسلوبة، أو من الراغبين في تمكين المرأة لتعمل في مجالات العلم المختلفة، في الطب والقبالة والصيدلة وغيرها... لكن الأمر لم يكن كذلك أبدًا، لقد جاء الدعم

لحملته الحماسية تلك في الغالب من أشخاص كانوا يقاومون التمدُّن والحداثة الجاريَين مِن حولهم، وليس من أولئك الذين سعوا إلى توسيع دور المرأة في المجتمع.

حذّر «جريجوري» من «مخاطر التمدن، والفِخاخ والمصائد التي تُنصب للشباب من الجنسين» في هذا العالم الجديد غير المألوف. ومع ذلك، فقد أشاد بـ «الرجال والنساء المتدينين والغيورين على الأخلاق» الذين تجاوزوا إغراءات المدينة ووجدوا سُبلًا لكسب عيشٍ شريف. وحين كان «جريجوري» يسعى لتحديد طريقه في المدينة، كان في الوقت ذاته يتبنى قضايا تهدف إلى مساعدة الآخرين على عيش حياةٍ شريفة وتقيّة وسط بيئةٍ محفوفةٍ بالمغريات. تُجسّد مشاركة «جريجوري» في «جمعية الشبان المسيحيين» في بوسطن (YMCA)، التي تأسّست عام ١٨٥١، رغبته في صَوْنِ الفضيلة لدى أبناء الريف الذين انتقلوا إلى المدينة. وقد كانت هذه الجمعية هي الأولى من نوعها في الولايات المتحدة، وأُسّست بصبغة إنجيلية واضحة، وهدفها المعلن كان منع أي شاب «قادِم للتّو من ريفه» من أن «يستسلم لإغراءات حياة المدينة».

قال «جريجوري» إنّ المُولِّدين من الرجال كانوا يقوّضون «الفضيلة العامة» في المدن، تمامًا كما يفعل الشبّان الذين يستسلمون لإغراءات الحياة المدنية. وقد جاءت هذه المخاوف حول الفضيلة في وقتٍ كان فيه عدد غير مسبوق من الشباب الطموح يغادرون منازلهم الريفية في أمريكيا سعيًا وراء العمل في المدن المتوسّعة بسرعة. وقد تأسّست العديد من جمعيات التبشير الديني في أوائل القرن التاسع عشر، وكانت تضم أفرادًا آخرين يشاركون «جريجوري» القلقَ بشأن تدهور الأخلاق نتيجة التمدّن.

كان «جريجوري» يربط بين الفساد الجنسي والتمدّن، مؤكدًا أنّ ضحاياه الرئيسيين هم المهاجرون الأبرياء من الريف — خصوصًا في ظاهرة الدعارة. وقد شدّد على الحاجة إلى إنشاء مؤسسات تدعم الأخلاق في المدن. وفي الكتيّب الذي نشره قبل سنة فقط مِن بَدء محاضراته عن «الولادة على يد الرجال» في بوسطن، عرض تفاصيل وبيانات صادمة عن كلّ الأخطار الجنسيّة في المدينة، بما في ذلك مرض الزُّهَرِي (syphilis)، وأمراض تناسلية أخرى. كما أظهر هذا الكتيّب تزايد اهتمام «جريجوري» بقضية دراسة النساء للطب؛ حيث أشار للمرّة الأولى بشكلٍ صريح إلى مشكلة «التوليد الرجالي»، وربطه بممارسات الدعارة والانحرافات الجنسيّة الأخرى.

انضم «جريجوري» إلى كنيسة «بارك ستريت» في بوسطن، وتمثّلت المهمة الأساسية للكنيسة في إحياء الروح الدينية ودعم المبادئ الأرثوذكسية والممارسات التقليدية. فعلى خلاف تيارات الحداثة، لم تكن الكنيسة تُشيد بالتجديد والتقدّم، بل كانت تُركّز على استعادة القيم القديمة — أو إن شئت قل: «السلفية المسيحية» — التي شعرت بأنّها تعرّضت للتآكل بسبب الحداثة في القرن التاسع عشر. وكان لدى أعضائها الجدد شعورٌ متزايد بأنّ لديهم مسؤولية

أخلاقية وقدرة حقيقية على إحداث التغيير — بل وأنّهم ملزمون بذلك. وقد اعتبروا أن من القيم الجديرة بالإحياء هو تقليص نطاق دور المرأة في المجتمع.

نعم، الجملة السابقة مكتوبة بشكل صحيح. وصدِّقْ أو لا تُصدِّقْ عزيزي القارئ، إن الأشخاص الذين ساعدوا في إنشاء أول كلية لطب النساء في الولايات المتحدة كان هدفهم «تقليص دور المرأة في المجتمع»، ولم يكن هدفهم فتح آفاق جديدة للمرأة. وحين هاجم «جريجوري» المولِّدين من الرجال، كان يتبنّى من حيث لا يشعر المبادئ الأخلاقية لكنيسة «بارك ستريت»، مطالبًا بدور متميّز ومحدود للنساء في المجتمع. وقد عبّر عن هذه النظرة القس «أندرو ل. ستون» (Andrew L. Stone)، راعي تلك الكنيسة، الذي كان من أبرز المعارضين لإعطاء المرأة صوتًا في الانتخابات العامة. فبعد أشهر قليلة من انضمام «جريجوري» إلى الكنيسة، ألقى القس «ستون» خطابًا رئيسيًا في احتفال كنسي. وفي تلك الخطبة، التي حملت عنوان «رسالة المرأة» (The Mission of Woman)، صرّح «ستون» بشكل مباشر أنّ المرأة لا ينبغي أن «تقف على قمم أو مناصب السلطة السياسية»، ولا أن «توجّه أو تقود عربة الدولة وسط عواصف الأحزاب». كما انتقد النساء اللواتي يحضرن اجتماعات المطالبة بحقوق التصويت، كما رأى أن المرأة التي تُشارك في المؤتمرات العامة تترك «منصة الطُّهر والكرامة والشرف الحقيقي» لتغادر «موقعها الشرعي والطبيعي». وقد عبّر، هو وغيره من قادة الكنيسة، عن رفضهم ليس فقط لعمل النساء في المجال العام، بل أيضًا لأي مشاركة لهن في الحياة الكنسية الدينية! ففي احتفال الذكرى الخمسين لتأسيس الكنيسة، عندما أرادوا تكريم امرأةٍ كانت الطفلة الأولى التي عُمِّدت في الكنيسة، لم يُسمح لها بإلقاء كلمة، بل طلب القس «ستون» من زوجها أن يتحدّث باسمها، رغم أنها كانت حاضرةً بنفسها في القاعة!

ولعل السائل يقول: كيف يمكن لهؤلاء الذين دعوا إلى إنشاء أول كلية طب نسائية في تاريخ الولايات المتحدة يكون هدفهم من هذا هو تقليص دور المرأة وليس تمكينها وزيادة دورها وفتح أبواب جديدة أمامها؟

وأقول: إن من وجهة نظر «جريجوري» وقادة كنيسة «بارك ستريت»، لم يكن تعليم النساء للطب يتناقض مع الحدود المفروضة على أدوار المرأة؛ بل اعتبروا أنّ الطب مجال مناسب للنساء، لأنّه لا يمنحهن سلطةً سياسيةً، ولا يخالف تصوّراتهم عن «الطبيعة النسائية». وقد رأى «جريجوري» أن العمل الطبي، في الحالة الاجتماعية المثالية التي يسعى إليها، هو من المجالات التي لا ينبغي أن يزاولها الرجال أصلًا، بل هي حقٌّ للنساء فقط. كما اعتبر أن العدد الكبير من النساء في مدينة نيو إنجلاند، ووجود العديد منهن غير متزوجات، يجعل من غير الممكن أن يصبحن جميعًا زوجات وأمهات في المنزل، لذلك فمن الطبيعي لأولئك اللواتي لم يتزوجن ولن

يكن لهن أولادًا، أن يصبحن قابلات أو طبيبات كي يعالجن غيرهن من النساء، أو يظهرن على عورات النساء التي لا يجب أن تُكشف للرجال من الأطباء.

وفي كتاباته المبكّرة حول «الفساد الجنسي»، أشار «جريجوري» إلى أنّ هذا الخلل الديموغرافي يقود كثيرًا من النساء إلى الوقوع في براثن الدعارة. وقد تحدث عن «قلة الأجر» و«شحّ فرص العمل» اللذين تواجههما النساء، وهاجم المصانع التي نتجت عن الثورة الصناعية بوصفها الخيار الشائع للعمل، قائلاً إنّها بيئة «مُفسِدة» بسبب كثرة الاختلاط بين الشباب من الجنسين. وأوضح أنه في هذا السياق «سيكون مئات من النساء مستعدات تمامًا لتلقّي تعليمٍ طبي إذا أُتيح لهنّ ذلك». وبالتالي، فإنّ تعليم الطب للنساء، من وجهة نظره، يُخرج المرأة من نطاق المنزل، ولكن بطريقة محدودة وضرورية فقط.

وقد أيّد القس «أندرو ستون» هذا المنظور بالكامل، بل أصبح في أوائل خمسينيّات القرن التاسع عشر عضوًا دائمًا في «جمعية تعليم النساء الطبّ» (Female Medical Education Society)، التي أنشأها «جريجوري» لإدارة الكليّة. كما كتب القس «ستون» مقالة نُشرت في جريدة (The Congregationalist)، وصف فيها التعليم الطبي للنساء — كما تقدّمه «كلية نيو إنجلاند» — بأنّه «بركة للطالبات وللمجتمع». وأكّد في المقال أن على كلّ جنسٍ أن يعمل في «ميدانه المناسب» في الطب، مشددًا على أن هذا النوع من التعليم يحافظ على مكانة المرأة المناسبة، بدلًا من أن يوسّعها خارج نطاقها.

حينما نشر «صامويل جريجوري» إعلان محاضرته الأولى حول التوليد الرجالي في عام ١٨٤٧، كان حريصًا على إحاطة قضيّته بكل مظاهر الاحتشام واللياقة. ففي الإعلان، طلب أن يقتصر الحضور على الرجال المتزوجين فقط. أمّا النساء، فقد رأى أن حياءهن سيُخدش مما يُقال، والرجال غير المتزوجين قد تثيرهم الأمثلة الصريحة التي سيعرضها، لذا لم يُدعَوا. وقد حرص على أن تُلقي السيدة «إليجاه أرنولد» (Mrs. Elijah Arnold)، وهي قابلة محترفة، محاضرةً منفصلةً مخصصة للنساء.

بعد محاضرته الأولى، كسب «جريجوري» تعاطف معظم النقّاد إلى صَفِّه مباشرةً. حيث أشادت الصحف بـ «الحشد الكبير والمحترم» الذي حضر، وأثنت على أسلوب «جريجوري» البليغ. وقد ذكرت صحيفة (Boston Evening Traveller) أن المحاضرة لم تُحدث أيَّ خروج عن الآداب العامة، بل على العكس، «نوَّرت» الجمهور بطريقة محترمة للغاية.

إنّ أهمية القضية التي طرحها «جريجوري»، وحرصه على تخصيص محاضرة للنساء تُلقيها امرأة، منحتاه مدخلًا قويًا إلى المشهد العام في مدينة بوسطن. وبعد أسبوعين فقط من محاضرته الأولى، كتب رسالةً إلى محرّر إحدى الصحف اليومية في بوسطن، يقترح فيها «توفير الوسائل في هذه المدينة لتعليم وإخراج طبيبات من النساء». كان من بين أكثر المؤيدين حماسةً

للقضية هم النساء أنفسهنّ. حيث تُظهر الإشارات في الصحف المحلية أنّ اهتمام النساء بالمقترح لم يكن هامشيًا. فقد ذكرت صحيفة «الديلي ميل» (The Daily Mail) أن النساء حضرن إحدى محاضرات سبتمبر ١٨٤٧ «رغم سوء الأحوال الجوية».

وفي مارس التالي، حين ألقى «جريجوري» محاضرة في «معبد تريمونت» (Tremont Temple) مباشرة إلى النساء — بعد أن تجاوز تردّده الأول — كتبت صحيفة «كرونوتايب» (Chronotype) أن اهتمام النساء بالموضوع كان «شديدًا». بل وأشارت المقالة إلى أن النساء بدَون وكأنّهن «متّفقات تمامًا» في دعمهنّ. وأثناء تلك المحاضرة، استُخدمت العريضة — وهي وسيلة سياسية كان يُسمح للنساء باستخدامها — فملأن عدّة صفحات بتواقيعهنّ، حتى إنّ أحد الرجال أُرسل إلى خارج القاعة لإحضار دفعة إضافية من الورق حين نفد الموجود. وبحلول ١٥ مارس، أي أقل من أسبوع من بدء الحملة، قدّرت صحيفة «بوسطن بوست» (Boston Post) أن «نحو ألف امرأة» قد انضممن إلى هذه الحملة وهذا النداء، ووقّعن العريضة الموجّهة إلى الهيئة التشريعية في ولاية ماساتشوستس بالسماح لهن قانونيًا بإنشاء تلك الكلية.

سارع «جريجوري» إلى تحويل اقتراحه بشأن إنشاء كليّة طب للنساء إلى واقع. لقد اجتذبت محاضراته الأولى في بوسطن الانتباه في مدن أخرى من ولاية ماساتشوستس. وبحلول ربيع عام ١٨٤٨، وجد كثيرًا من الشخصيات ذات النفوذ على استعداد لجمع أموال الرسوم الدراسية وإيجاد نساء من بلداتهم للذهاب إلى بوسطن وتلقّي تعليم في التوليد، ليعدن بعد ذلك ويُمارسن الطب هناك.

في الأول من نوفمبر عام ١٨٤٨، بدأ طبيبان استقطبهما «جريجوري» بتدريس أول سلسلة محاضرات في التوليد، لاثنتي عشرة امرأة وُصفن بأنّهن «ذكيات وطموحات». كما انجذب القساوسة — مستلهمين موقف القس «أندرو ستون» مثالًا لهم وقدرة لأفكارهم ومواقفهم — إلى تصوير «جريجوري» لتعليم النساء الطبّ بوصفه قضية تبشيرية دينية تهدف إلى الحفاظ على مكانة المرأة الأخلاقية في المجتمع الأمريكي. وقد أصبح هؤلاء القساوسة دعاةً علنيّين نشطين للكلية الجديدة للنساء. وفي منشور ترويجي صدر أوائل عام ١٨٤٩، أشار «جريجوري» إلى أن «أكثر من ثلاثين قسًّا من طوائف مختلفة» أصبحوا من المساهمين الماليين في الجمعية. وأثناء مواصلته السعي للحصول على الدعم، اقتبس «جريجوري» من رسائل كتبها قساوسة معروفون قدّموا مساهمات مالية وأعربوا عن تأييدهم له.

كان أوائل المدراء وأعضاء الهيئة التدريسية في الكليّة (وكان عددهم أحد عشر شخصًا، من بينهم «جريجوري») ينتمون إلى التيار الإصلاحي الإنجيلي، وكان معظمهم قد انتقل من الريف إلى المدينة في أوائل القرن التاسع عشر لبناء مسيرتهم المهنية. كما كان هناك اثنان من الأعضاء المؤثّرين في إدارة الكليّة في بداياتها لا ينتميان تمامًا إلى مجموعة المُصلحين الإنجيليّين

من الطبقة الوسطى. أوّلهم كان «إينوك رولف» (Enoch Rolfe)، أول رئيس لمجلس الإدارة وأول أستاذ في الكليّة. والثاني كان «صامويل إي. سيوُول» (Samuel E. Sewall) والد صديقتنا الدكتورة «لوسي سيوول»، الذي ذكرنا من قبل إنه تبرع بمبلغ كبير لإنشاء تلك الكلية.

كان «صامويل سيوول» عضوًا نشيطًا في مجلس الإدارة بين عامَي ١٨٥٠ و١٨٦١. لقد كان محاميًا بارزًا، عُرف بمواقفه في القضايا المناهضة للعبودية، وغالبًا ما كان ينتمي إلى الجناح الأكثر راديكالية في الحركة. كما كان معروفًا أيضًا بدعمه الصريح لحقوق المرأة السياسية، وقد ألّف كتابًا بعنوان «الوضع القانوني للمرأة في ماساتشوستس»، نُشر لأول مرة عام ١٨٦٨، وفيه شرح الحقوق القانونية للمرأة بالتفصيل، وأظهر بوضوح دعمه للمساواة السياسية للنساء. لم يكن من المستغرب إذن أن تكون زوجته عضوًا كذلك في «جمعية بوسطن النسائية لمناهضة العبودية»، وكانت — مثل زوجها — تنتمي إلى الجانب الراديكالي من النقاش حول حقوق المرأة السياسية.

لم يظهر ذكرٌ للنساء كفاعلاتٍ مباشرات بين الداعمين الأساسيين لـ «كلية الطب النسائية في نيو إنجلاند» حتى الآن، ومن الممكن بالفعل أن تمضي السنوات الأولى من تأسيس الكليّة من دون أن نذكر النساء إطلاقًا. وتماشيًا مع اعتراض «جريجوري» على وجود النساء في المجال العام، لم يُسمح لهنّ بشَغل أي منصب رسمي في إدارة الكليّة. وقد دفع احتياج «جريجوري» لجمع الأموال إلى نوعٍ من التناقض فيما يتعلّق بمشاركة النساء علنًا في الكلية. ففي حين ذكر في المواد الترويجية أن عضوية الجمعية مقتصرة على الرجال فقط، إلا أنّه أدرج أسماء نساء قدّمن تبرعات في قائمة الأعضاء، ممّا وسّع بشكل كبير عدد الشخصيات البارزة المرتبطة باسمه ومؤسّسته.

نعم، وللمرة الثانية، صدّق أو لا تصدّق، أيها القارئ الكريم، فقد كانت الجمعية التي أُنشئت خصيصًا لتعليم النساء الطب، تمنع النساء أنفسهن من أن يكنّ أعضاء فيها، إذ خُصِّصت عضويتها للرجال دون غيرهم. وهذا يثبت بما لا يدع مجالًا للشك ما أشرنا إليه من قبل، وهو أن الهدف لم يكن تمكين المرأة أو الاعتراف بدورها الكامل، بل اقتصر الأمر على تعليمها الطب بهدف الحفاظ على أخلاق المجتمع أو «قيم الأسرة المصرية» بلغتنا المعاصرة التي تحب أن تسميها الدولة في مصر حين تريد القبض على من تشاء من مشاهير مواقع التواصل الاجتماعي، لكن الدولة في مصر لا ترى غضاضةً في انتهاك قيم الإنسان والعدل والدين والعرف والشرف والكرامة والديموقراطية واحترام قرار الشعب.

ومن هنا، لا يُستغرب أن يُسمح للمرأة بدراسة الطب، ثم تُمنع من المشاركة السياسية أو الإدارية في أي جمعية مدنية. ذلك أن نظرتهم إلى المرأة لم تكن على أنها شريكة في بناء

المجتمع، بل كحالة استثنائية، يُسمح لها بقدرٍ من التعليم الطبي لتؤدي وظيفة محددة تُبقي العادات التقاليد على ما هي عليه.

لكن رغم أنّ العديد من النساء أكّدن دعمهنّ لمكانة المرأة كربة منزلية، فإنّ النظر فيما وراء خطابهن وخطاب «جريجوري» يُظهر كيف بدأت أولويات كل منهم في التباعد. مثال جيّد على ذلك هو «مارثا ساوين» (Martha Sawin)، وهي عضو في «معهد النساء الفسيولوجي»، وطالبة ضمن الدفعة الأولى في الكلية عام ١٨٤٨. كانت من أبرز المؤيدات لتوسيع معرفة النساء بالجسد وعلم وظائف الأعضاء. ففي رسالة إلى المحرّر نُشرت في مجلة « Boston Medical and Surgical Journal» في أكتوبر ١٨٤٩، أظهرت بعض التقاطع مع «جريجوري»، إذ قالت: «أنا لا أؤيّد حق المرأة في التشريع أو حكم الأمة، ولكنني أؤيّد حقها الكامل في فهم القوانين الفيزيائية التي تحكم جسدها، حتى تتمكن من أداء واجباتها كزوجة وأمّ بصدق». ورغم تشابه كلماتها مع خطابات «جريجوري»، إلا أنّ تركيزها الأكبر كان على رغبة النساء في المعرفة، وليس على مراعاة قواعد اللياقة. بل وربما كانت تشكّك في صدق نوايا «جريجوري»؛ فقد أشارت في نفس الرسالة إلى أحد المحاضرين الذي وزّع منشورًا على نطاق واسع (من المرجّح أنّه «جريجوري») وقالت إنّ دافعه قد لا يكون الإصلاح الأخلاقي، بل تحقيق مكاسب شخصية.

لقد اقترحت بعض الطالبات، من المتزوجات وربّات البيوت، تنظيم حفلة رقص في أكثر قاعات المدينة عموميةً وانفتاحًا. لكن صورة «جريجوري» عن الأخلاق الأنثوية لم تنسجم أبدًا مع هذا الحدث الاجتماعي الترفيهي. وقد عبّر عن معارضته علنًا لمثل هذه الأفعال، حيث نشر رسالة في نفس الصحيفة وُقّعت من قِبل مجلس إدارة الكليّة بأكمله باستثناء الدكتور «رولف».

إذن لم تكن المشكلة فقط أنّ أخلاقيات الطالبات كانت أكثر تساهلًا مما كان يريده «جريجوري»، بل أيضًا أنَّ معظمهن لم يتناسبن مع الصورة المثالية للمرأة الفاضلة التي نادى بها لتلقّي التعليم الطبي. فبدلًا من أن يكنّ شاباتٍ غير متزوجات وبدون آفاق للزواج والأسرة —— كما كان يتخيل —— فإنَّ الغالبية العظمى من النساء اللواتي التحقن بدورات التوليد في السنوات الأولى، كنَّ متزوجات ولديهنّ أطفال عليهن رعايتهم. لقد أراد «جريجوري» أن يُروّج لقضية طاهرة تبشيرية، لكنه وجد نفسه في واقعٍ أكثر تعقيدًا بكثير من الصورة الأخلاقية النقيّة التي كان يسعى لها.

*****

قلنا إن صوفيا، وبعد بضعة أسابيع فقط، أدركت أنّ التعليم في الكلية قد أصبح غير مُرضٍ إطلاقًا. ورغم أن مستشفى نيو إنجلاند الصغير، الذي كان تابعًا للكلية، قد تطوّر كثيرًا خلال ست سنوات، إلا أنه لم يكن قادرًا بعدُ على تقديم تدريب عملي شامل لطالباته. حينها، قرّرت صوفيا أن تطمح إلى ما هو أعلى. تذكّرت لُطفَ رئيس جامعة هارفارد معها، الدكتور «توماس هِل» (Thomas Hill)، فكتبت مع طالبةٍ أخرى، «سوزان ديموك» (Susan Dimock)، خطابًا إلى رئيس وأعضاء مجلس الجامعة يطلبن فيه الالتحاق بكلية الطب التابعة لها. وكان الخطاب نصه:

السادة المحترمون،

> بما أنه بات من المستحيل الحصول على تعليم طبي جيد في أي مكان آخر من نيو إنجلاند، فإننا نطلب منكم الإذن بالالتحاق بكلية الطب في جامعة هارفارد وفقًا لنفس الشروط التي يخضع لها سائر الطلاب، إذ لا نعلم بوجود أي قانون جامعي يمنع ذلك. وعندما طلبنا بطاقات الدورة الدراسية، أبلغنا عميد كلية الطب بأنه وزملاءه غير قادرين على إصدارها لنا بسبب قرار سابق من مجلس الجامعة، الذي نناشده الآن لإزالة هذا العائق القائم. ونضع هذا الطلب بين أيديكم بكامل الثقة بكلماتٍ قيلت مؤخرًا عن جامعة هارفارد: «الجامعات الأمريكية ليست أديرة لتعليم القلّة، بل هي مراكز للعلم يجب أن تبقى أبوابُها مفتوحةً دائمًا أمام كل طالب معرفة».

وصل الرد من جامعة هارفارد على جوابهما بعد ما يقرب من شهر، وجاء في رد جامعة هارفارد ما نصه:

٨ أبريل ١٨٦٧

جامعة هارفارد

> سيدتي العزيزة، بعد التشاور مع هيئة التدريس في كلية الطب، وجّهني المجلس الإداري لإبلاغك، أنتِ والآنسة «ديموك»، بأنه لا يوجد أي ترتيب داخل هذه الجامعة لتعليم النساء، وأن المجلس وهيئة التدريس لا يودّان إبداء رأي في مسألة أحقية النساء في التعليم الطبي أو مدى ملاءمته، بل يرغبان فقط في توضيح واقع الحال، وهو أن كليتنا لم تُعِدّ أيَّ برامج لهذا الغرض، ولا تنوي ذلك في الوقت الراهن.

نُشِر كلا الخطابين في صحيفة (Boston Daily Advertiser)، ويُحتمل أن صوفيا هي من أرسلهما، وقد أثارا نقاشًا عامًا أغلبه كان مؤيدًا لطلب النساء للالتحاق بكلية الطب بجامعة

هارفارد. ثم حاولت صوفيا و«سوزان ديموك»[١] مناشدة كل المحاضرين والأساتذة في كلية الطب بجامعة هارفارد فردًا فردًا وأستاذًا أستاذًا. كما خاطبا الأطباء في مستشفى ولاية ماساتشوستس طبيبًا طبيبًا، ثم توجهتا إلى مستشفى العيون والأذن كذلك، وحاولتا الحديث مع بعض الأشخاص ذوي النفوذ والعلاقات طالبين المساعدة منهم، وخاطبتا كلًّ من فيهما جميعًا.

كانت الردود التي تلقتها الفتاتان مشجعة وإيجابية للغاية، لدرجة أنهما ظنتا أنَّ أمرَ قبولهما في جامعة هارفارد بات قريبًا جدًا؛ فقد أبدى الكثير ممن خاطبوهما وتحدثتا إليهما كل الاستعداد والدعم والترحيب بهما ومساعدتهما في هذا الطريق الذي اختارتاهما. ولعل من أبرز هؤلاء الأطباء الذين كانوا مشجعين لهما وأرسل لهما رسائل كثيرة فيها الدعم والإصرار هو البروفيسور «أوليفر وندل هولمز» (Oliver Wendell Holmes) الذي قال لهما: «لن أكون فقط على استعداد، بل سأكون سعيدًا للغاية، بإلقاء محاضرات لأي عددٍ من السيدات. يمكننا توفير مكان لهنّ في قاعة المحاضرات التشريحية، شريطة أن تُقدّم المواضيع الحساسة التي لا تُناسب الجنسين إلى الطلاب الذكور فقط.»

وكان من المرحبين بهما كذلك الدكتور «براون-سيكار» (Brown-Sequard) الذي قال: «إنني أؤيد بشدّة قبول النساء في كلية الطب. هذه قناعتي الراسخة، وأكتبها بكل رغبة وارتياح.»

أدركت جامعة هارفارد تلك الأصوات العالية والمؤثرة التي تدعم تعليم النساء بين أساتذتها. ولهذا، بادرت الجامعة بما أوتيت من سلطان أكاديمي ونفوذ مؤسسي، إلى كبح جماح النزعات المستقلة لدى هؤلاء الأساتذة، فأعملت سيفَ الرفض دون هوادة، مانعةً أن يسري فيهم هوى المبادرة والتغيير، وكان لسان حال إدارة الجامعة إلى أساتذتها: ﴿ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾. وقررت إدارةُ الجامعة بشكل قاطعٍ أنها لا ولن تسمح بتعليم النساء بين أروقتها. أما إدارة مستشفى العيون والأذن فقد أرسلت إليها كاتبةً:

> إلى السيدة المحترمة صوفيا، إن جرّاحينا — وهم أيضًا أعضاء في الجمعية الطبية لولاية ماساتشوستس — يلتزمون بما يصدر عن مجلس مستشاريها من قرارات، وقد صدر مؤخرًا عنهم ما يجعلنا، مكرهين غير مخيّرين، نرى أنه لا يسعنا

١- بعد أن رُفضت من قِبل كلية الطب في جامعة هارفارد لمجرد كونها امرأة، اتجهت سوزان إلى أوروبا، حيث قُبِلَت في جامعة زيورخ في سويسرا — إحدى الجامعات القليلة آنذاك التي سمحت للنساء بدراسة الطب — وتخرجت عام ١٨٧١ بدرجة دكتوراه في الطب. عادت «ديموك» إلى الولايات المتحدة وعُيّنت طبيبة مقيمة في «مستشفى نيو إنجلاند للنساء والأطفال». أنشأت أول برنامج رسمي لتدريب الممرضات في الولايات المتحدة عام ١٨٧٢، وكان يُدرّس الممرضات بأسلوب علمي ومنهجي. لكن مسيرتها القصيرة انتهت بشكل مأساوي. ففي ٧ مايو عام ١٨٧٥، وأثناء رحلة إلى أوروبا لأخذ قسط من الراحة، غرقت سفينة (SS Schiller) التي كانت تقلها، قرب جزر «سيلي» البريطانية، ما أدى إلى وفاتها وهي في الثامنة والعشرين من عمرها فقط. على الرغم من قصر حياتها، تركت سوزان ديموك أثرًا بالغًا في الطب والتعليم الطبي للنساء، ولا يزال اسمها يُخلَّد في بوسطن من خلال «مركز ديموك الصحي المجتمعي» (Dimock Community Health Center) الذي حمل اسمها تخليدًا لإنجازاتها وريادتها.

الاستمرار في السماح للطالبات بحضور عياداتنا التعليمية. وإذ نُدرك قسوة هذا القرار، فإننا نشعر بواجب أدبي يدفعنا إلى الطلب منكم تعليق زياراتكن مؤقتًا. ولا يفوتنا أن نُصرّح لكن بكل صدق، أن لقاءاتنا بكنّ كانت محطّ ارتياح وسرور على الصعيد الشخصي.

وما كان من صوفيا إلا أن كتبت ساخرةً ونبرتها فيها حزن ويأس قائلةً في مذكراتها:

> كل ما قلمنا به... صار الآن هباءً منثورًا! إن أولئك الذين يزعمون الحكمة والعقلانية والرفعة من الأطباء في مستشفى العين والأذن، رأوا أن أجلَّ ما يُسدى من مروءة الرجال، وأسمى ما يُقال فيه من لطف المثقفين، هو أن يُغلق الباب في وجوهنا بعد أن دخلنا حتى نصف الدار!
>
> أما أحد الدكاترة، الذي قال إنه: «لا يخشى ولا يخاف من تحمل المسؤولية». فقد قرر ألا يقبلنا هو بنفسه، وإنما سينتظر حتى يقبلنا شخصٌ آخر غيره، ثم يكون هو من بعدهم تابعًا ومقلدًا!

كان هذا ما أرسلته إدارةُ المستشفى فيما يخص زيارة الفتيات وحضورهن إلى العيادات التعليمية، لكن بعض الدكاترة الآخرين سمحوا لهن بالتواجد في المستشفى وبحضور التدريبات السريرية، وشكرن على ذلك صنيعَ القوم، وإن كان في داخل تلك النعمة حسرة؛ إذ جعلتهن يشعرن بمرارة التقصير في الجوانب النظرية والمخبرية. وكان وجودهن في أروقة المستشفى محفوفًا بالوجل، إذ أن في صفوف الطاقم من كان يضيق بوجود المرأة ذرعًا، ويرصد بعين التربص زلّتها. وهكذا، شيئًا فشيئًا، بدأت صوفيا تشعر بثقل الرحلة، وتعب النفس، ووخز الكرامة، فخطّت في مذكراتها سطورًا تقطر ألمًا: «الخامس من يوليو. استرحت أمس، لكني اليوم، كما بالأمس، مثقلة بالخوف والرعب من هذا التهيّج الذي يبدو كأنه شيطان لا يُقهَر.»

لكن رغم هذا اليأس وتلك المحاولة التي باءت بالفشل، وتلك الكتلة الثقيلة من الأطباء، لم تيأس صوفيا ولم تستلم، فما إن أتيح لها الوقت إلا وقامت هي وصديقتها الدكتورة «لوسي سيوول» بالذهاب في رحلة إلى بعض الأماكن الرائعة في الولايات المتحدة، وأرسلت صوفيا إلى والدتها، تقول:

> بقي لنا يوم واحد هنا، ثم نبدأ رحلة العودة، ونُؤمِّل أن نصل إلى الديار يوم الجمعة. وبعدها — ربّما في شهر سبتمبر — سنقوم بمحاولة جديدة، بمعونة السيد «لورينج» (Mr. Loring)، والبروفيسور «روجرز» (Prof. Rogers) كي ندخل جامعة هارفارد، أو نحصل على بعض منافعها العلمية، وأظن أنّ نجاحنا يتوقف إلى حدّ بعيد على ما سنقوم به في شتاء هذا العام...

لكن غير معلوم ما الذي نصح به هذان الأستاذان صوفيا وزميلتها من عملٍ تقومان به في فصل الشتاء، إلا أنه بالتأكيد كان تحضيرًا للدراسة، أو ربما حضور محاضرات وقراءة كتب أو نوع من الاستعداد الذي قد يشفع لهما في التقديم للمرة الثانية في جامعة هارفارد. وبعد أن أتمت صوفيا ما نُصحت به، أرسلت مرةً ثانيةً إلى جامعة هارفارد تطلب منهم السماح لها بالدراسة بين أروقتها، فقالت:

> أيها السادة، بعد أن أُتيح لنا خلال العام الماضي الانتفاع بما تُقدّمه «مستشفى ماساتشوستس العام» من تدريب سريري، غير أنّنا لم نجد في ربوع «كلية نيو إنجلاند» مكانًا واحدًا يُتيح لنا تعليمًا نظريًا كافيًا في الطبّ، فإننا نلتمس منكم التفضُّل بإعادة النظر في مسألة قبول النساء لحضور محاضرات كلية الطب التابعة لجامعة هارفارد، إذ إنّ مثل هذا القبول لا تمنعه أيٌّ من قوانين الجامعة الحالية أو السابقة، بحسب ما فهمنا. ولا نرغب في الخوض في مسألة صلاحية النساء لممارسة الطبّ من عدمها، فإننا نؤمن بأنّ الزمن والتجربة وحدهما كفيلان بالإجابة عن ذلك.
>
> إلا أنّنا نرفع إليكم هذا الرجاء المُلحّ بأن تُمنح لنا الفرصة لنتلقّى تعليمًا معمّقًا في علوم الطب، وأن نحظى ببعض الامتيازات التي تُمنح للرجال، فنُختبر ونُوزن بمعيار الكفاءة والجدارة، ونُترك لنُثبت قدرتنا أو عدمها. ونحن — أيها السادة — على استعداد تام للخضوع لأيّ امتحانٍ يُحدَّد، والوفاء بأي معيارٍ يُطلب، وتقديم التزكيات اللازمة، والالتزام بكلّ نظامٍ أو قيدٍ ترونه مناسبًا أنتم أو مجلس الجامعة أو الهيئة التعليمية.
>
> وبما أنّ عددًا من الأساتذة قد عبّروا عن استعدادهم الشخصي للسماح لنا بحضور محاضراتهم في قاعات الجامعة، فإننا نلتمس بإلحاح من مجلس الجامعة أن يُجيز قبولنا في تلك الدروس التي لا يُمانع فيها أصحابُها من استقبالنا. ونرجو كذلك، في حال اعترض أحدُ الأساتذة، أن يُؤذن لنا بتلقّي دروسٍ خاصة على يد طبيبٍ من أهل الاختصاص، يكون معتمدًا من قِبل الهيئة التعليمية، على أن تُعدّ محاضراته لنا مُعادِلةً في مستواها ومحتواها لما يتلقّاه طلاب كلية الطب في ذات المادة.

أرسلت صوفيا خطابَها إلى جامعة هارفارد، وبقيت تترقّب ردَّ الجامعة، غير أنّها، حرصًا على استثمار وقتها في طلب العلم، شرعت تبحث عن بدائل تعليمية أخرى. فقررت الانتقال إلى نيويورك للالتحاق بالكلية النسائية التي كانت الطبيبة «إليزابيث بلاكويل» تعمل على تأسيسها آنذاك. وحين وصلت إلى نيويورك، التقت بالطبيبة «بلاكويل» وأطلعتها على ما مرّت به خلال

دراستها في «كلية نيو إنجلاند»، كما تحدّثت معها عن مشاركتها في التدريبات السريرية داخل المستشفى التابع للكلية، وعن المواد التي درستها، والخبرة العملية التي اكتسبتها في «مستشفى ولاية ماساتشوستس». كذلك أخبرتها بتفاصيل تقديمها إلى جامعة هارفارد، ورفض طلبها في المرة الأولى، ثم محاولتها الثانية بعد مزيد من التحضير، وها هي الآن بانتظار الرد للمرة الثانية، متمسّكة بعزمها على ألا تُضيّع وقتها إلا في التعلّم والتدريب الطبي.

وبينما كانت الكلية الجديدة التي تعمل «إليزابيث بلاكويل» على إنشائها صارت في مراحلها النهائية من التأسيس، فقد قررت صوفيا أن تبدأ الدراسة فيها مع بداية العام الدراسي الجديد. غير أنّ الوقت لم يكن قد حان بعد، فاغتنمت الفرصة للسفر إلى إنجلترا برفقة صديقتها الطبيبة «لوسي سيوول»، لقضاء إجازة قصيرة هناك. وقد لقيت هذه الزيارة ترحيبًا بالغًا من أسرة صوفيا، التي سرّها كثيرًا تعرّفها على هذه الصديقة العزيزة، ذات الطباع الرفيقة والأخلاق الرفيعة. كانت صوفيا تصحب «لوسي» في زياراتها وتقدّمها للناس، حتى إن بعض المرضى توجّهوا إليها لطلب العلاج. وكان من غير المألوف في المجتمع البريطاني آنذاك أن يروا شابةً تخرّجت من كلية طبّ في الولايات المتحدة، فخُيّل إلى البعض أنّها ستكون صارمة الطباع، خالية من الرقة والأنوثة. غير أنّ الطبيبة «لوسي سيوول» كانت مثالًا للجمال واللطف، وأناقة المظهر والمنظر، وحسن المعاملة ورقتها. وقد أسرت بذكائها، ورجاحة عقلها، ولباقتها، قلوب من التقتهم، وخلّفت أثرًا طيبًا في نفس عائلة صوفيا.

وحين عادت إلى أمريكا، وبينما كانت لا تزال في مدينة بوسطن، جاءها خطاب من جامعة هارفارد يرد على طلبها الثاني للتقديم، فكتبت صوفيا في ذلك اليوم تقول: «يؤسفني أن أقول إنّ جامعة هارفارد قد رفضتني مرةً أخرى، وعليَّ الآن أن أذهب إلى نيويورك من جديد! آه، حسنًا... كلّ الأمور أهون مما تبدو عليه!»

وفي تلك اللحظة، كان عليها الذهاب إلى نيويورك، لتكمل تعليمها هناك، ثم تحصل على التدريب السريري، ولعلها أرادت في النهاية أن تكون طبيبةً كصديقتها «لوسي» في مستشفى نيو إنجلاند. وربما لم يخطر في بال صوفيا وقتئذ قيمةَ شهادتها التي ستحصل عليها من أمريكا في بريطانيا، فخلال تلك السنوات من الدراسة في أمريكا، قد يكون الوضع والقانون قد تغير في بريطانيا ليكون مسموحًا للشهادات الأجنبية بأن تعمل في بريطانيا، وتمارس عملها هناك.

ذهبت صوفيا إلى نيويورك، وكانت ضمن أول دفعة على الإطلاق في كلية الطب النسائية بمستشفى نيويورك (Women’s Medical College of the New York Infirmary). وفي يوم افتتاح الكلية، طلبت الدكتورة «إليزابيث بلاكويل» من صوفيا أن تسجل خطاب الافتتاح ليتم نشر ما دونته صوفيا في الصحف. وبالفعل فعلت صوفيا ذلك، وكان بعض ما فيه أن قالت الدكتورة «بلاكويل»:

قد تطلّب الأمر خمسة عشر عامًا من العمل الصبور والإيمان، إذ كانت الطريق مظلمةً للغاية، لوضع أساسٍ متين للكلية. فقد واجهنا منحدرين شديدي الانحدار: قلّة المال ونقص الكفاءة، وكنا نحاول بكل وسيلة ممكنة أن نتسلّق تلك العقبات. لكننا، شيئًا فشيئًا، وضعنا حجرًا فوق حجر، حتى بات لدينا أساس يمكن الوقوف عليه. إنه أساس صغير، نعم، ولكنه متين وصلب...

الطبُّ مهنةٌ علميّةٌ تتّسم بالخصوصية والثقة، ويجب أن يُقبِل إليها أولئك الذين بلغوا أعلى درجات التعليم، وأثبتوا سُمُوّ الخُلُق وصلاح السيرة. فهذه المهنة النبيلة، كسائر المهن السامية، عرضةٌ لأبشع صور الاستغلال وسوء الاستخدام. ولذلك، فإن التعليم الطويل والدقيق يجب أن يكون الحصن الذي يحمي المجتمع من هذا الانحراف. ونظرًا لأسبابٍ عديدة، فإن النساء أكثر عرضة للوقوع في إغراء وجمال ممارسة الطب بجهلٍ وسطحية. لذا ينبغي على الكلية أن تتنبّه لهذا الخطر، وأن تقدّم تدريبًا طويلًا ودقيقًا، فهو وحده الكفيل بالتمييز بين من يستحق الانتماء إلى المهنة ومن لا يستحق. يجب أن تكون هذه الكلية محاوَلةً صادقةً وجادّة لتوفير أرقى مستوى من التعليم الذي يمكن أن تقدّمه العلوم الحديثة للنساء...

فلنُعطِ التعاطفَ مع المرضى وزنه المستحق، لكن لا ينبغي أن يحلَّ محلَّ المعرفة في الطبيب الحقيقي. فالمعرفة الحقيقية هي التي تمكّن الطبيب من وصف العلاج الصحيح. ومع أنّ الطباع الحانية والمُتعاطفة قد تكون من صفات الطبيب المثالي، إلا أنّها، دون معرفة قوية، تجعل من هؤلاء الأشخاص وضيعين غير موثوقين، بل وخطرين.

في اليوم التالي، بدأت صوفيا دوامَها في الكلية بشكل رسمي. وكانت راضيةً عن مستوى التعليم هناك، إذ عوّضت تلك الفرصة التعليمية المتاحة في نيويورك ما فاتها من الصحبة الطيبة التي تركتها خلفها في بوسطن وزيادة. وكان دوامُها اليومي منتظمًا طوال الأسبوع. كانت تذهب إلى غرفة التشريح في الساعة التاسعة صباحًا، وتعمل حتى الحادية عشرة والربع. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف تحضر محاضرة في التشريح وعلم وظائف الأعضاء بالتناوب بين الأيام، ثم تعود إلى المنزل لتناول الغداء قبيل الساعة الواحدة. وكانت خادمتها «أليس» (Alice) دائمًا تُحضّر لها كلَّ شيءٍ بعناية ولطف. تستريح صوفيا لنصف ساعة بعد الغداء، ثم تذهب إلى محاضرات بعد الظهر، التي تبدأ في الساعة الثانية وتستمر، باستثناء يوم السبت، حتى الخامسة مساءً، بمعدل ثلاث محاضرات، مدة كل منها ساعة.

وقد قدمت صوفيا التماسًا إلى الدكتورة «إميلي بلاكويل»، التي تتولى إدارة الأمور وتتحلّى بلطفٍ كبير، تلتمس فيه تخصيص خمس دقائق بين كل محاضرتين لتهوية القاعات والمشي قليلًا في الممرات، فوافقت على الفور وعدّت ذلك أمرًا مستحبًا.

ورغم أنّ حياة صوفيا كانت عملًا دائمًا ودراسةً من الصباح إلى المساء، إلا أنها كانت ممتنةً لهذا النوع من الحياة أعظم الامتنان؛ ذلك أنها بدأت تستمتع بشيءٍ من الاستقلال التام من جديد. فقد كان من المحتم في بوسطن أن تُصاغ كلُّ تفاصيل الحياة لتتناسب مع العمل في المستشفى، وكان ذلك مزعجًا في بعض الأحيان. أما الآن، فإنها تستطيع أن تدرس وتكتب وتقرأ براحةٍ واستقلالٍ أكبر بكثير مما كانت عليه هناك. في الواقع، لم يكن بالإمكان أن تمارس هذا النمط من العمل أثناء إقامتها السابقة، لما كان يعترضها من مقاطعات لا مفر منها.

لكن تلك الحالة من التحسّن والرضا لم تدم طويلًا. فما إن مرّ يومان، حتى تلقت صوفيا رسالة عاجلة من أسرتها في إنجلترا تطلب منها العودة فورًا، إذ إن والدها قد بلغ حالةً صحية حرجة، ولا بدّ من أن تُسرع إن أرادت رؤيته حيًّا. وفي رحلة طويلة استغرقت أسبوعين، سافرت صوفيا بأقصى ما يمكن من عجلةٍ، لكنها حين وصلت إلى منزل العائلة، اكتشفت أن والدها كان قد تُوفِّي بالفعل قبل عشرة أيام من وصولها، في السادس من نوفمبر.

يا له من أسفٍ عظيم، أن تُحرم الابنة من مرافقة والدها في أيامه الأخيرة، وكم كان ذلك ليخفف من آلام الفقد، لو قُدّر لها أن تكون بجانبه في لحظات الرحيل! من النادر أن يمرّ الإنسان بمرضه الأخير دون أن يئنّ أو يشكو، لكن والد صوفيا، السيد «توماس جيكس-بليك»، قد تجاوز ذلك بطودٍ من السكينة والتسليم. لقد أحسّ بقرب أجله منذ أشهر، فأعدّ أموره للرحيل من الدنيا، ورتّب كلَّ شيء، بل كتب رسائل وداع رقيقة، موجَّهة إلى أحبّ الناس إليه، لتُسلَّم إليهم بعد وفاته.

الشكوى الوحيدة التي صدرت عنه كانت في بداية مرضه، حين قال: «لا أستطيع أن أجمع أفكاري للصلاة» — وهو الذي كانت حياته، كما وصفه ابنه، صلاةً دائمة وحمدًا متصلًا. وكان وجودُ ابنه إلى جانبه في تلك الأيام الأخيرة مصدرَ راحةٍ له، إذ قال ذات لحظة: «أنا سعيد جدًّا، أشعر براحة عميقة... لا يمكنك أن تتخيّل كم أنا سعيد... إنّ الله رحيم بي.»

وعندما اقتربت النهاية، طلب أن يُرفع قليلًا عن السرير، لكنهم لم يجرؤوا على تحريكه إلا باستخدام الوسائد. وعند الساعة الحادية عشرة والنصف، قام الجرّاح بتحريكه قليلًا، ففتح الأب عينيه، وقال بنبرةٍ هادئة: «جميل، جميل»، ثم أسلم الروحَ لبارئها، ولم يتكلم بعدها قط.

ويمكن للمرء أن يتخيل المشاعر التي اجتاحت صوفيا، حين وصلت إلى إنجلترا لتسمع كل ذلك، بعد فوات الأوان، عبر روايات أحبابها، وقد صبغ الحزن كل ذكرى من هذه الذكريات.

روت صوفيا عن آخر لحظاتها مع والدها قبل سفرها إلى أمريكا فقالت:

كان قد نهض من سريره. جلستُ بجانبه، قبّلته، وأخبرني كم أسعده وجودي، وقال: «لم نقضِ صيفًا أجمل من هذا معًا.» قلت له إنني حاولت جهدًا، وإنني لم أنجح دائمًا، واعتذرت لأنني كنت حادة الطبع أحيانًا. فقال لي: «لا، لا، لم تفشلي — لا شيء يستدعي المغفرة.» ثم أمسَك بيديّ، وصلّى من أجلي. قبّلته ثانية، ونهضتُ. لكنه — وعلى غير عادته — نهض فجأةً، واحتضنني مرارًا وتكرارًا. افترقنا بمحبّة عميقة، وقلت له، وأنا أستودعه: «في المرّة القادمة، سيكون كل شيء بخير.» فأجابني: «وهكذا يكون، بإذن الله، إن كانت هناك مرّة قادمة!»

وهكذا تخلّت صوفيا عن كلِّ آمالها التي علّقتها على أمريكا، وضحّت بنفقاتٍ ماليةٍ كبيرة، ورسوم دراسة كانت قد دفعتها، وتخلّت عن عشّها الصغير المريح الذي أعدّته، وعن الأثاث والمقتنيات التي اقتنتها للتو، وقرّرت ألا تدع المحيط الأطلسي يفصلها مجددًا بينها وبين من تحب لتستقر في إنجلترا مع والدتها تاركةً أمريكا للأبد.

كان فراق الدكتورة «لوسي سيوول» مؤلمًا، وقد عبّرت رسائلُها الأولى عن حزنها وأسفها. لكن «لوسي»، وكانت صديقة عظيمة، أدركت أن ساعة الفراق لا تعني نهاية الرحلة، بل هي بداية جديدة. قالت لصوفيا مشجعة إياها: «إذا لم تعودي إلى أمريكا، فلن تتخلي عن رسالتكِ ومهمتكِ. ستفتحين باب المهنة للنساء في إنجلترا.»

وهكذا بدأت صوفيا فصلًا جديدًا في رحلتها، باحثةً عن تعليم طبي في بلدها الأم.

الفصل السادس:
جامعة إدنبرة

في ظل هذه السرعة التي تطلبت عودة صوفيا إلى بلدها من بوسطن، وفي ظل تنقلاتها وسفرتها السريعة، أرادت أن ترسل رسالةً إلى صديقتها الدكتورة «لوسي سيوول» وهي على متن السفينة التي تقلها إلى بريطانيا، فكتبت إليها تقول:

> أول ما أرغب في فعله هو أن أكتب إليكِ، لأُخبرك عمّا لم أستطع أن أُعبّر عنه جيدًا وقت رحيلك، وسط استعجالي وقلقي، وهو كم أثّرتْ بيِ لفتاتُكِ اللطيفة، حتى في ترتيب أبسط تفاصيل الكابينة... حتى الآن، وأنا أعود إلى المنزل في مثل هذه الظروف، فإن أكثر ما يلحّ في ذهني هو ما قدّمتِه لي، وكل ما أدين به لكِ. لقد منحتِني حبَّكِ ومساندتك، وأنا أعلم أن ما بيننا لم يذهب سُدىً. أنا الآن أعود إلى بيتي، عازمةً على أن أكون ابنةً بحقّ من جديد — لأحبّ أمي وأخدمها، ما استطعت، بمعونة الله (وأنا أؤمن به، في ألمي وفي محبتي العميقة له). وأؤمن بأن كوني ابنة بحق، قد يُعلّمني كيف أصبح إنسانة أفضل.

عادت صوفيا إلى بيتها، محاوِلةً الوقوف إلى جانب أمها الحزينة. وباعتبارها الابنة الأقرب لقلب أمها، فقد كان وجودُها له بالغ الأثر والأهمية، وقد ظلت إلى جانب والدتها طيلة تلك الأشهر التي عقبت وفاة والدها. لكن يبدو أن الأمور لم تتحسن، فقد كان الجميع حزينًا، صوفيا كانت حزينةً على فقدان والدها، وكانت حزينةً بجلوسها منفردة في هذا البيت الهادئ بعد أن كانت تعيش حياةً صاخبةً في أمريكا، فقد توقفت عن القيام بأي نشاط، وعن دراسة الطب، وعن السفر، وعن التعليم، وعن كل ما كان يجلب لها السعادة في الحياة. وكتبت إلى صديقها «لوسي» تصف لها الأحوال بعد أشهر كثيرة من المقام في بريطانيا فقالت:

> يمكنكِ أن تتخيلي هذا المنزل الآن — صامت وحزين ومقطوع عن العالم الخارجي؛ إذ لا شيء يربطنا به من ناس أو عمل أو حتى تسلية. أمي وأختي «كارولين» لديهما خططهما وحياتهما الخاصة... لكنني منذ أمد بعيد لم أعد أعيش هنا إلا كزائرة، لذا من الصعب أن أجد لنفسي مكانًا. فالجميع يشعر بالحزن على طريقته، وهذا لا يسهّل الأمور. أنا أرتب الآن أغراضي وكتبي وأجمعهم، وبعد ذلك،

سأحاول أن أقرأ شيئًا من الطب. وربما إن بقينا هنا طوال الشتاء، أقدّم طلبًا للزيارة والتدريب في أي مستشفى هنا، رغم أن ذلك سيكون كئيبًا وأنا وحدي.

يا «لوسي» العزيزة، إنّه لأمر مؤلم أن يُحتَّم عليَّ الاستمرار في دراسة الطب دونكِ — دون مَن يشاركني هذا الطريق ويبث في جنباته الحياة... لا أظن أنه سيكون لدي قلب للمضي قدمًا، إن لم تكوني حاضرةً حين أحتاجك. لكننا سنجتمع مجددًا، ذات يوم، أليس كذلك؟ آه، لقد سئمت من العيش والقتال والأمل! فكلّما ظننت أن لي موضع قدم، زُلزلت الأرض من تحتي.

وما كان من صديقتها الحنونة «لوسي» إلا أن أجابت عليها وقالت: «آمل ألا تفتقديني بقدر ما أفتقدك. وأتمنى ألا يكون هذا العام الجديد الذي بدأ بكل هذا الحزن عامًا عسيرًا عليك. حاولي أن تبدأي بزيارة المستشفى أو العمل في الطب في أقرب وقت — سيكون ذلك نافعًا لكِ ولوالدتكِ معًا.»

وجدت الأمُ عزاءً في معرفةِ أن ابنتها الصغرى قد عادت إلى إنجلترا بصفةٍ دائمة. وكان من دواعي سرورها أن تراها تستأنف دراستها وتستعيد عافيتها النفسية. لكن، سرعان ما جاء مشروع جديد ليملأ وقت صوفيا بالكامل لعدة أشهر ويخرجها من حالة الضيق واليأس التي كانت تعيشها بعد وفاة أبيها وتوقف دراستها في أمريكا. ففي نهاية تلك السنة، تلقت دعوة من دار «ماكميلان» (Macmillan) — تلك الدار التي نشرت كتابها عن المدارس والكليات الأمريكية — للمشاركة في مجموعةٍ من المقالات حول تعليم المرأة ودورها في تغيير المجتمع.

كان السيد «ألكسندر ماكميلان» ينوي في البداية أن تكون جميعُ المقالات بقلم نساء فقط، لكنه في النهاية اختار لجنةً من عشرة كُتّاب: خمسة رجال وخمس نساء. وقد عُيّنت السيدة «جوزفين بتلر» (Josephine Butler) — النسوية البارزة — كمحررة لهذا العمل، وكانت هي التي ستكتب المقدمة. أعجبت صوفيا بالسيدة «بتلر»، لذا قبلت بسرور المشاركة في المشروع، وقررت الكتابةَ حول موضوع «الطب كمهنة للنساء». أما الآنسة «إليزابيث جاريت» (Elizabeth Garrett) —، فقد كانت مرشحة للمشاركة في الكتابة في هذا العمل، لكن السيدة «بتلر» فضّلت عدم التعامل معها بسبب اختلاف في الرؤى، لا سيما حول مسألة كانت تمس قلب «بتلر» بشدة.

كانت السيدة «جوزفين بتلر» في أوائل الأربعينات من عمرها، وهي زوجة مدير مدرسة في ليفربول. وكانت معروفة بعملها في تأهيل النساء الفقيرات والعاملات في البغاء، حيث أسست عددًا من المراكز لإيوائهنّ ومساعدتهن في الحصول على عمل كريم. ومع استمرار هذا النشاط، انغمست «بتلر» في قضية أخرى أصبحت لاحقًا محور اهتمامها لمدة عشرين عامًا تقريبًا، وهي حملة إلغاء قوانين الأمراض المعدية (Contagious Diseases Acts).

ما هي قوانين الأمراض المعدية؟

ظهرت «قوانين الأمراض المعدية» في منتصف القرن التاسع عشر في إطار تحولات اجتماعية عميقة شهدتها بريطانيا. فقد كانت القوات العسكرية، المنتشرة في المعسكرات والمدن الساحلية، تعاني تفشي الأمراض التناسلية على نطاق واسع، مما أثار قلق السلطات من تدهور صحة الجنود. وفي ظل تصاعد المخاوف القومية، رأت الحكومة أن حماية صحة الجنود واجب استراتيجي، فقننت بيوتَ الدعارة وفرضت فحوصاتٍ طبيةً دورية على النساء العاملات بها. وهكذا جرى تحميل النساء — وليس الرجال — عبء السيطرة على الأمراض، ضمن رؤية أخلاقية مقلوبة، اعتبرت البغاء شرًا «مقبولًا» ينبغي تنظيمه وليس محاربته وإزالته واستئصاله.

لكن «بتلر» رأت أن هذه القوانين لم تفشل فقط في الحد من انتشار الأمراض، بل إنها كانت تشجّع على البغاء، فقد كانت هذه القوانين تُعامل النساء كمشتبه بهنّ بشكل دائم، تمنح الشرطة سلطات واسعة للاعتقال والفحص القسري، مما أدى إلى إذلال كثير من النساء البريئات وإلحاق وصمة العار بهنّ. وفي عام ١٨٦٩، أسست السيدة «بتلر» جمعية وطنية نسائية (Ladies’ National Association) لمحاربة هذه القوانين، وكان من بين مؤيديها العديد من الشخصيات المؤثرة، منهم «فلورنس نايتينجيل» (Florence Nightingale). لكن، في المقابل، كان هناك تيار قوي يُؤيد الإبقاء على هذه القوانين، بل ويدعو لتوسيع نطاقها لتشمل كامل إنجلترا، وليس فقط المدن العسكرية.

وكان «الجمعية الطبية البريطانية» (British Medical Association) من بين المؤيدين لإبقاء هذه القوانين، وكانت «إليزابيث جاريت»، مؤيدة كذلك للإبقاء عليها، ما جعل «جوزفين بتلر» تغضب منها ولا تحبذ العمل معها. فقد رأت «إليزابيث جاريت» في هذه الإبقاء على القوانين شرًّا أقل مقارنةً بإلغائها. لذا، كانت تؤيد بقاءها باعتبارها وسيلة ضرورية للحد من الأمراض التناسلية. وقد حزنت السيدة «بتلر» بشدة لأن الآنسة «إليزابيث جاريت» كانت من معارضيها، خاصّة أن دعمها كان ليكون في غاية الأهمية.

وفي الوقت نفسه، كانت صوفيا تمضي ساعات طويلة في مكتبة المتحف البريطاني، تجمع موادًا من أجل مقالتها حول موضوع «الطب كمهنة للنساء». وقد أصبح ذلك المقال منبعًا لا يُستهان به للبحث والحجج التي استخدمها كل من جاء بعدها من الكُتَّاب والخطباء في هذا المجال.

افتتحت صوفيا المقالةَ بمراجعةٍ تاريخيةٍ مختصرةٍ لدور المرأة في التاريخ الطبي، مدعيةً أن غريزة المرأة الطبيعية تقودها للاهتمام برعاية المرضى. ففي العصور الوسطى، كانت الأديرة

النسائية، مراكزًا للرعاية والتعليم. لكن مع القرن السابع عشر والثامن عشر، تطور الطب ليصبح علمًا قائمًا بذاته، في حين ظلّ تعليم الفتيات محصورًا في المهارات المنزلية، ففقدت النساء فرصة منافسة الرجال في الطب.

ومع ذلك، كانت هناك استثناءات. فبعض النساء المتعلّمات جيدًا أثبتن قدرتهن على التفوق في هذا المجال. فعلى سبيل المثال، في القرن السابع عشر، اشتهرت «آن هالكِت» (Ann Halket) و«إليزابيث بوري» (Elizabeth Bury) بمهارتهن كطبيبات. وفي العصر الحديث، عُيّنت نساء في مناصب أكاديمية مرموقة في كليات الطب في بعض الجامعات الإيطالية. لكن صوفيا أشارت إلى أن هذه الحالات، رغم استثنائيتها، لا تُثبت شيئًا عن تفوق المرأة أو دونيتها، بل تدعو إلى تجربةٍ عادلة عبر إعطاء النساء «ميدانًا متكافئًا» لا مزايا فيه، وتعليمهن كما يُعلّم الرجال، وإخضاعهن للامتحانات نفسها.

ثم ناقشت في مقالتها بعض الحجج المتكررة التي كانت تُستخدم ضد تدريب النساء في مجال الطب:

١. أن الطب «يُفسد نقاء المرأة».
٢. أن الطلب على الطبيبات قليل.
٣. أن النساء يُستبعدن من الممارسة بسبب قانون الطب لعام ١٨٥٨.
٤. صعوبة إيجاد كليات طب مهيأة للنساء.

ردّت صوفيا بأن معظم هذه الاعتراضات إما وهمية أو يمكن حلّها بسهولة. لكنها حذّرت من خطر حقيقي وهو أن تتعجل بعضُ النساء دخولَ المجال الطبي فيقبلن بتدريب طبي دون المستوى، مما قد يُضرّ بالمرضى، ويشوه سمعة الطبيبات. وختمت مقالتها بنداء موجّه إلى الجامعات البريطانية: «أليس من بين جامعات إنجلترا أو إسكتلندا أو إيرلندا من يتقدّم الآن ويُعلن أنه سيتوقف عن سياسة الإقصاء التعسفي؟ دعوا النساء يلتحقن بالمحاضرات العادية دون قيود، أو اسمحوا لهن بتنظيم دراستهن بأنفسهن، على أن يُختبَرن لاحقًا، ومتى ثبتت كفاءتهن، يحصلن على شهادة الطب.»

ثم أضافت: «هذا ليس طلبًا مبالغًا فيه، بل هو الحد الأدنى من الإنصاف. فإن كانت المزاعم حول ضعف النساء صحيحة، فسيُثبت الامتحانُ فشلَهن. وإن اجتازته بعضُ النساء، رغم العقبات، فليكن لهن الترحيب والتشجيع، ولنودعهن في رحلتهن الطبية بكلمة: باركَكِ الله!»

وحين أنهت صوفيا المسودة الأولى من مقالتها، أرسلتها إلى عدد من أصدقائها لطلب آرائهم. وفي ذلك الوقت، حاولت صوفيا البحث عن فرصة للتقدم بالدراسة في الجامعات البريطانية، فسعت إلى الدراسة في جامعة لندن، لكن لم يكن الأمر مقبولًا، فبحث عن فرصة في

جامعة كامبريدج، وتواصلت مع أحد الأساتذة هناك وهو البروفيسور والفيلسوف «هنري سيدجويك» (Henry Sidgwick)، الذي حاول مساعدتها بكل الطرق الممكنة، وبحث عن أي فرصة لها في جامعة كامبريدج، فلم يتمكن. فحاول التأثير على جامعة لندن، فلم يتمكن. ومع كثرة المحاولات، ومع الرفض من جامعة كامبريدج، وجامعة لندن، بدأت صوفيا تشعر باليأس والأسى، فكتبت إلى صديقتها «لوسي» في أمريكا تقول: «ستلاحظين أنني، بعد التفكير، أصبحتُ أشكّك بعض الشيء في فائدة التقديم لدراسة الطب. لكن، بشكل عام، لا زلتُ أعتقد أن ذلك سيكون أمرًا جيدًا إن داومتُ على المحاولة.»

وفي تلك الأثناء التي كانت صوفيا على علاقةٍ جيدة جدًا مع السيدة «جوزفين بتلر»، تتحدث معها وتشاركها سعيها حول دراستها للطب، وقد حاولت السيدة «بتلر» أن تساعد صوفيا بكل الطرق الممكنة وتتحدث مع من تعرفهم من الأساتذة الجامعيين. وقد أرسل أستاذٌ في جامعة إدنبرة هو البروفيسور «ديفيد ماسون» (David Masson) رسالةً إلى السيدة «جوزفين بتلر» يقول فيها: «سيكون من دواعي سروري الكبير أن ألتقي الآنسة جيكس-بليك (التي اسمها معروف لي)، وسيسعد «السير جيمس سمبسون» (Sir James Simpson) أيضًا برؤيتها... لكنني أخشى أن احتمالات فتح التعليم المهني والدرجات الأكاديمية في الوقت الراهن ليست كبيرة كما تتصوّر الآنسة بليك! ولكن، من يدري ما قد يحدث أو متى؟»

قلنا إن صوفيا كانت على تواصل مستمر مع البروفيسور «هنري سيدجويك» (Henry Sidgwick) في جامعة كامبريدج، وكان هو من الداعمين لها، ومن الباحثين لها عن فرصة للدراسة، ليس فقط في جامعة كامبريدج، بل حاول جاهدًا في جميع الأماكن والجامعات الأخرى. فبعد أن أخبرها أن طلبها إلى جامعة كامبريدج سيلقى رفضًا قاطعًا، بدأ معها رحلة البحث في جامعات أخرى، فكتب إليها يقول: «لقد استشرتُ صديقًا لي هنا — «ج. ستيوارت» (J. Stuart) — وهو الآن ممتحِن في جامعة سانت أندروز. وقد وعدني بأن يكتب إليكِ ويقدّم لك توصيات إلى اثنين أو ثلاثة من الأشخاص هناك ممن قد ترغبين في زيارتهم. أظن أن جامعة إدنبرة أو جامعة سانت أندروز ستكونان أقرب إلى تحقيق غايتك من جامعة جلاسكو أو جامعة أبردين. وإن وجدتُ وسيلةً لمساعدتك في إدنبرة، فسوف أكتب إليك من جديد.»

في اليوم التالي، وصلت رسالة من السيد «ستيوارت»، قدّم فيها كل ما بوسعه من مساعدة، فكتب فيها:

> آمل أن تعذري بساطة أسلوبي في الكتابة، لكن دافعي هو أنني أُكنّ لنجاحك اهتمامًا بالغًا. أنا وزوجتي نعتقد معًا أنه من الأفضل ألا تحاولي دخول كامبريدج وفقًا لرأي السيد «سيدجويك» (Sidgwick)؛ فلا أحد أقدر منه على معرفة أحوال الجامعة. آمل أن يأتي اليوم الذي تشعر فيه إنجلترا بالخزي من موقفها هذا. علينا

أن نبذل كل ما في وسعنا، بهدوء وبمنهجية مدروسة، للتأثير في قلوب وضمائر الرجال. هل ستحاولين في إدنبرة؟ وإن لم يكن، فهل تفكرين في نيل شهادة أجنبية؟ ليتني أراك طبيبة! سيكون لك الكثير من المرضى فورًا، وأنا أولهم.

وبعد تلك الرسالة كانت صوفيا قد عزمت عزمها على الذهاب إلى جامعة إدنبرة، وكتبت في يومياتها: «الإثنين، ١٥ مارس. إلى إدنبرة. كم رهبتُ الرحلةَ وتسلسلَ الأحداث! عند استيقاظي، قلت: «إن لم تكن معي، يا رب، فلا تخرجني من هنا!»

تقول صوفيا واصفةً سبب ذهابها إلى جامعة إدنبرة:

بما أن لوائح وقوانين جامعة لندن كان لا تتيح شيئًا يمكن عمله لصالح النساء الساعيات إلى نيل الدرجات الطبية، علمتُ أنَّ الأمرَ في جامعتي أكسفورد وكامبريدج أكثرُ تعقيدًا، حيث كانت المسألةُ برمتها مثقلةً باللوائح المتعلقة بالدراسة، ومع أن أيًا من هاتين الجامعتين لم تكن تقدم تعليمًا طبيًا مكتملًا، فلم يكن التقديم إليهما مفيدًا من الناحية العملية. وهكذا، توجَّه تفكيري نحو إسكتلندا، تلك البلاد التي يُشاد بها دائمًا بسبب نظرتها المستنيرة إلى قضايا التعليم، والتي طالما تباهت جامعاتُها بتحررها من القيود الدينية وسائر القيود الأخرى.[١]

وإنني لأذكر وصف «مارجريت تود» الذي ذكرته في كتابها عن سيرة صوفيا، ـــ والذي أنقل منه كل هذه الرسائل ـــ، وهي تقول عن ذهاب صوفيا إلى إدنبرة وعن لقائها بالأساتذة هناك، الذين لم يكونوا يدركون أن هذا اللقاء هو بداية معركة حامية الوطيس بينهم وبين تلك الفتاة، كتبت «مارجريت» تقول: «لم يكن لدى هؤلاء الأساتذة من النية والرغبة لقبول النساء في الجامعة أكثر مما لديهم لتأسيس كرسيّ أكاديمي لفن الخياطة.»

كان من أوائل الداعمين لصوفيا في رحلتها ومعركتها تلك هو البروفيسور «ديفيد ماسون» أستاذ البلاغة والأدب الإنجليزي في جامعة إدنبرة، إذ كان داعمًا لها بكل ما أوتي قوة من أول لحظة وطأت فيها أقدامُها أرضَ تلك الجامعة، واستمر دعمُه لها حتى اللحظة الأخيرة، بل وما بعد الأخيرة. وحين وصلت إلى المدينة، أرسلت إليه وجلست معه، ووعدها بمساعدتها، وكتب رسالةً إلى عميد كلية الطب ما نصها:

عزيزي بلفور،

1- Jex-Blake, S. (1886). *Medical women: A thesis and a history*. Edinburgh: Oliphant, Anderson, & Ferrier; London: Hamilton, Adams, & Co. p.71

الآنسة «جيكس-بليك»، وهي سيدة إنجليزية معروفة بكتابتها عن المدارس الأمريكية، موجودة الآن في إدنبرة لبضعة أيام، وهدفها الرئيسي هو محاولة معرفة ما إذا كانت جامعة إدنبرة قد ترى — كما فعلت باريس وبعض المدن الأخرى — أن تمنح شهادة طبية بعد الدراسة والتأهيل المناسبين لطالبةٍ أنثى.

ومن الحق، وقد جاءت إلى إدنبرة لهذا الغرض، أن تقابل سيادتكم بصفتكم عميد كلية الطب، لتحصل على أفضل المعلومات والنصائح بشأن هذا الأمر؛ وسأكون ممتنًا لتكرمكم بهذا الشأن.

حاولت صوفيا التواصل مع أكبر عدد من الأساتذة والأشخاص الذين يمكنهم مساعدتها في مسعاها، فتواصلت مع دكتور آخر وهو الدكتور «جيمس يونج سمسون» (James Young Simpson)، وكذلك تعرفت على رئيس تحرير مجلة (Scotsman) وهو السيد «ألكسندر راسل» (Alexander Russel)، هؤلاء الأشخاص الثلاثة سيكونون حاضرين معنا في الفصول التالية، وسيكون لهم بالغ الأثر في حياة صوفيا.

كتبت صوفيا في مذكراتها يومئذ تقول: «اليوم، ولأول مرة، راودتني فكرة مذهلة، وهي أنه ربما — فقط ربما — من الممكن حقًّا أن أنجح في النهاية! وإن فعلتُ! — سأكون أول من تدخل جامعة بريطانية! («أول»؟ — نعم، أعلم أن ذلك يبدو أنانيًا قليلًا، لكنه إحساس فطري!)»

وفي اليوم التالي، أرسلت صوفيا طلبَها الرسمي إلى عميد كلية الطب، قالت فيه:

سيدي، بما أني أفهم أن قوانين جامعة إدنبرة لا تمنع بأيِّ شكل من الأشكال قبولَ النساء، وبما أن جامعتي باريس وزيورخ قد فُتحتا بالفعل أمامهن، أطلب منكم بإخلاص، ومن باقي السادة أعضاء كلية الطب، أن تأذنوا لي بحضور المحاضرات في كليتكم الطبية خلال الفصل الدراسي القادم.

أودّ أن أعبّر عن استعدادي لقبول أي شروط أو تحفظات ترونها مناسبة، بل وحتى سحب طلبي تمامًا إذا تبيّن بعد تجربة كافية أن الاستمرار في هذه الفرصة التي أطلبها الآن أمرٌ غير ممكن.

أنتم، سيدي، تدركون بلا شك مدى الصعوبة البالغة التي تواجه من تدرس الطب في غير الكليات الكبرى، وبالنظر إلى تزايد الحاجة إلى خدمات طبية تُقدَّم للنساء من قبل بنات جنسهن، فأنا واثقة أنكم ستُقِرّون بأهمية توفير التعليم المناسب لمن ترغب في تأهيل نفسها تأهيلًا كاملًا للقيام بواجبات المهنة الطبية. كما أرجو أن أنال منكم ومن زملائكم الاعتبار الكريم لطلبي.

كما هو واضح من هذا الطلب، فإن صوفيا لم تطلب فيه تسجيلًا رسميًا في الجامعة أو نيل شهادة طبية منها؛ إذ كان هذا الطلب سيُقابل بالرفض لا محالة. لذلك أرادت أن تبدأ التقديم خطوة بخطوة، وتضع قدمَها في الجامعة، ثم بعد ذلك تتقدم فيها شيئًا فشيئًا. لذلك لم تطلب سوى الإذن «بحضور المحاضرات في كليتكم الطبية خلال الفصل الدراسي القادم.» فإذا كان الطلب في بدايته سهلًا هينًا، فمن المرجح أن يتم قبوله، وما إن تدخل الجامعةَ، فإنها قادرة على إثبات قدراتها، وعلى طمأنة أساتذتها بأنها أهل لأن تستكمل الدراسة الكاملة وتتخرج بالشهادة الجامعية.



الدكتور بالفور

وفي مجلسٍ خاص جمع بين صوفيا والدكتور «بالفور»، عميد كلية الطب، كان يتوقع أن يُقابل طلبُها بالردِّ الصارم والرفض القاطع. فاقترح عليها، مداراةً للأمر، أن تحضر دروسه ودروس أستاذ آخر، فإذا ما شهد الأساتذة والطلبة جِدّها وتفوقها، كان لها أن تتقدَّم رسميًّا إلى الجامعة، وقد يغدو الأساتذة حينئذٍ أميلَ إلى القَبول منهم إلى الرفض. ويبدو أن صوفيا قد تلقَّت هذه النصيحة بصدر رحب ونفسٍ مطمئنة، حتى إن زوجات بعض الأساتذة أسرعن إلى إخبارها بعزمهن على مرافقتها وحضور المحاضرات معها متى بدأت. ولربما صح القول إن هذه الخطة كانت «الخطة البديلة» (Plan B) التي أُعدّت تحسبًا لفشل محاولتها الأولى للالتحاق بالجامعة.

كانت صوفيا تعلم الهيكل التنظيمي لجامعة إدنبرة، إذ يتكون من أربع جهات بعضها فوق بعض، وهما كالآتي:

١. كلية الطب، وتضم أساتذة الطب فقط.
٢. مجلس الشيوخ (Senatus)، ويضم جميع أساتذة كل الكليات.
٣. محكمة الجامعة (University Court)، وتتشكل من: الناظر (Rector)، المدير العام للجامعة (Principal)، المحافظ الأعلى لمدينة إدنبرة، وخمسة أعضاء آخرين.

٤. المجلس العام (General Council)، ويتكون من جميع خريجي الجامعة الذين سجّلوا أسماءهم كأعضاء رسميين.

شرعت صوفيا بكلّ عزم في مقابلة أساتذة كلية الطب واحدًا تلو الآخر، وذلك بعد أن قرر عميد الكلية، السيد «بلفور»، النظر في طلبها على وجه السرعة. وقد حُدِّد موعد التصويت النهائي بشأن قبولها في يوم ٢٣ مارس، أي بعد ثلاثة أو أربعة أيام فقط من تقديم طلبها. فأدركت صوفيا أن عليها اغتنام هذه الفرصة القصيرة في استمالة من بيدهم القرار، فانطلقت في زياراتها، تتحاور وتناقش وتقنع، حتى بدأت تتكوّن لديها صورة أوضح عن مواقف الأساتذة وتوجهاتهم حيال طلبها. وبعض هؤلاء الأساتذة كانوا لطيفين جدًا معها، حتى أن الدكتور «جيمس يونج سمسون» قد دعاها لتناول الإفطار معه ومع زوجته في أكثر من نهار، وما كان منها إلا أن كتبت في مذكراتها تقول: «يا إلهي، كم يبدو هؤلاء الناس رائعين مقارنةً بجامعة هارفارد!»

وعلى الرغم من وجود عدد من الأساتذة الذين أيدوا طلبَ صوفيا، إلا أن الساحةَ لم تخلُ من معارضين أيضًا. ومن أبرز هؤلاء كان الدكتور «لايكوك» (Laycock)، الذي لم يُخفِ موقفَه المعارض لدخول النساء للمجال الطبي، وقد عبّر عنه بوضوح وقال لها: «بصفتي رجلًا، أجد أن من واجبي أن أعارض. فالنساء لا يُدركن موضعهن، وقد أفسدن مواقعهن في هذا العالم، وهن عاجزات عن امتلاك القوة اللازمة لمزاولة مهنة الطب. وإذا كانت النساء صالحات للحرب، سأعتبرهن صالحات للطب.» وعندما ذكّرته صوفيا بمحاربات الأمازون الشهيرات في التاريخ، سخر من المثال قائلًا إنّه لا يحمل أي دلالة، مؤكدًا أن النساء يفضّلن أن يتولى الرجال عنهن كل الأمور — حتى أبسطها، كخدمة الزبائن في المتاجر. وقال لها صراحةً: «لا أستطيع أن أتصور أنَّ امرأةً محترمة قد ترغب في دراسة الطب، فضلًا عن رغبة النساء النبيلات في دراسة الطب، فهذا أمر مستحيل خارج حدود النقاش!»[1]

وبعد مجهود متواصل، استطاعت أن تحدد مواقف الأساتذة الذين قابلتهم على النحو الآتي:

1- Jex-Blake, S. (1886). *Medical women: A thesis and a history*. Edinburgh: Oliphant, Anderson, & Ferrier; London: Hamilton, Adams, & Co. p72

مؤيدون	معارضون	مترددون
ألمن (Allman)	كريستيسون (Christison)	تورنر (Turner)
بينيت (Bennett)	لايكوك (Laycock)	سبينس (Spence)
بلفور (Balfour)	هندرسون (Henderson)	سايم (Syme)
سمسون (Simpson)		

وأثناء هذه الأيام القلائل التي كان على صوفيا الانتظار فيها كي يجتمع أساتذة كلية الطب، بدأت في التفكر فيما مضى من عمرها وما تستقبله، فكتبت في مذكراتها تقول: «إن استطعت أن أكونَ أولَ امرأةٍ تفتح أبوابَ جامعةٍ بريطانية — فلا شك أنني، كما قالت «شارلوت برونتي»: «قد أديت واجبي، وأرضيت قلبي ونفسي» — حتى إن متُّ الآن.»

حلَّ اليوم المرتقب، الثالث والعشرون من مارس عام ١٨٨٩، وبعد أن انفضّ اجتماع أساتذة كلية الطب، قصدت صوفيا الدكتور «سمسون» تبحث عنه، فلم تعثر عليه في مكتبه، غير أنها لمحته يسير في الطريق. فلما رآها مُقبِلة، تهلّل وجهه بالبشر، وناداها قائلاً: «لقد تم قبولك لحضور المحاضرات.»

نعم، لقد صدر القرار المفصليّ، بالموافقة على أول طلب تقدّمت به امرأةٌ للالتحاق بالدراسة في أول جامعة بريطانية في التاريخ، وجاءت الموافقة بأغلبية الأصوات. وفي أجواء هذا الحدث البهيّ، وتلك اللحظة المضيئة، خطّت صوفيا كلماتها احتفاءً بانتصارها الذي لم يحدث قط في تاريخ بريطانيا، وتدوينًا لأولى خطوات المرأة في محراب العلم:

> حقًا، إني لعازمةٌ على أن أجعل من الثالث والعشرين من مارس عيدًا يُحتفى به، فما أبهى هذا اليوم وما أروعه! وأتساءل مع نفسي: من هي تلك القديسة التي أُهدي إليها هذا اليوم؟! وإنه لَعجب كل العجب أن يمرّ في حياتي يوم يضاهيه شأنًا أو يُقاربه مقامًا، إن سارت الأمور كما أرجو. أشعر وكأن الناس كلهم إخواني وأخلائي، وكأن قلبي يناديهم ليصافحوني وأضمهم واحدًا تلو الآخر. آهٍ، ما أعظم هذا الابتهاج الذي يملأ صدري!
>
> آهٍ، يا إلهي! ما هذا الفرح العارم الذي يعصف بقلبي! إنه فرحٌ لا تصفه الكلمات، ولا تبلغه العبارات. وها أنا اليوم، أُبصر الماضي، فأدرك أن كل ما مررتُ به لم يكن عبثًا، بل كان تمهيدًا لازمًا، وطريقًا لا بد منه. فذاك المقام الذي عشته في الولايات المتحدة لم يكن إلا زادًا يُعِدّني لهذه اللحظة الحاسمة؛ إذ منحتني

الحياةُ هناك ما كنت في أمسّ الحاجة إليه، منحتني عافية الجسد وصفاء النفس، لأقتنص الفرصة حين أقبلت. ولستُ أهاب الغد، ولا أخاف من الطلبة الذكور، ولا أرهب العمل؛ فإيماني بنفسي قد أضحى درعي وسلاحي. وإن كان في قلبي شيء من الأسى على بُعدي عن أمي، إلا أنني أرجّح أن هذا البُعد هو خيرٌ لنا، وإن في البعد ما يصنع القرب. أربع سنوات كاملة من الدراسة الجامعية... وحدي؟ نعم، وحدي، لكني لست وحيدة، إذ في قلبي رجاء، وفي عقلي نور، وفي روحي شعلة لن تنطفئ.

لقد نُظر إلى قرار كليّة الطب بوصفه القرار الأهم في هذه القضيّة، إذ إن التصويت هناك يمثّل حجر الزاوية في مسار الموافقة، ومن ثَمّ تُرفع المسألة إلى مجلس الشيوخ، ليُبتّ فيها، قبل أن تُحال — بعد ذلك — إلى محكمة الجامعة. غير أنّ المعوّل عليه كان، في المقام الأول، موقف كليّة الطب، فهي المعنيّة بالقرار، وأساتذتها هم أهل الشأن، فما دامت قد وافقت الكلية، فلن يكون لمعارضة سائر الكليّات والأساتذة وزنٌ يُعتدّ به، فهم — في نهاية المطاف — ليسوا طرفًا مباشرًا في الأمر، ولا شأن لهم به.

ومن هذا المنطلق، لم يُعرِ الكثيرون بالًا لما قد يأتي بعد تلك الموافقة من كلية الطب، إذ بدا الأمر وكأنه تحصيل حاصل، وسيرٌ في طريق مرسوم. غير أن صوفيا لم تترك شيئًا للصدفة، ولم تُرد أن تُبقي احتمالًا واحدًا يُهدّد مسعاها. فبعد أن التقت بجميع أساتذة كليّة الطب، واستكشفت مواقفهم من التصويت، عقدت النيّةَ على مواصلة الجهد، فبدأت بجولاتها إلى الكليّات الأخرى في الجامعة، تزور الأساتذة وتحادثهم فردًا فردًا.

وقد لقيت من أكثرهم تفهمًا، فمن وجهة نظرهم أن ما دامت كليّة الطب قد وافقت، فلا موجب لرفض قرارها. إلّا أنّ أحدهم حذّرها من أمر لم يكن في الحسبان؛ فقد أخبرها أن الدكتور «كريستسون» — وهو أبرز معارضي طلبها — يُبيّت النيّة لتعطيل قرار مجلس الشيوخ أو تأجيله، ويسعى إلى التأثير على أساتذة الكليّات الأخرى كي يصوتوا بالرفض، أو على الأقل يُرجِئوا اتخاذ القرار. وعندها أدركت صوفيا أن الطريق لم يُعبَّد بعد، وأن عليها أن تُحكِم العملَ وتُضاعِف الجهد، لتفويت الفرصة على مَن أراد أن يَحُول دون مطلبها. فجاء اليوم الموعود، السابع والعشرون من مارس، حيث انعقد مجلس الشيوخ، وأسفر التصويت عن نصر آخر؛ أربعة عشر صوتًا مع القرار، وأربعة فقط للمعارضة.

وبذلك، تكتمل مساعي صوفيا، وتُكلَّل جهودها بالنجاح. فقد ظفرت بموافقة كليّة الطب، وحازت تأييد مجلس شيوخ الجامعة، ولم يبقَ سوى محكمة الجامعة، التي يُرجَّح ألا تُخالف ما جرى من اتفاقٍ، ولا يُتوقع أن تُبدِّلَ شيئًا من مساره.

في هذه الأيام عاشت صوفيا نشوة الانتصار والفرح، وكانت تُستقبل بسرور من جميع الناس في مدينة إدنبرة، فكانت حديثَ الساعة، ومضربَ المثل، والمحبوبةَ من الجميع، كانت تتناول طعام الغداء مع إحدى الشخصيات البارزة وتتشارك العشاء مع شخصية بارزة أخرى؛ وبعض زوجات الأساتذة عرضن مرافقتها إلى المحاضرات إذا لم تتقدم نساء أخريات للانضمام إليها؛ وبعض الطلاب الذين التقتهم على العشاء أخبروها بأنهم يعتقدون أن الطلاب سيكونون في غاية السعادة بانضمامها إلى الصف.

نُقِل إلى صوفيا أن البروفيسور «مويرهيد» (Muirhead) قد أعلن في ختام اجتماع مجلس الشيوخ عزمه على الطعن في القرار أمام محكمة الجامعة، كما بلغها من بعض زوجات الأساتذة أن الدكتور «كريستسون» وجّه تهديدًا صريحًا إلى كلية الطب، مفاده أنه سيقدّم استقالته إن جرى اعتماد القرار النهائي بقبول فتاة للدراسة في الجامعة. ولم يكن هذا التهديد من رجلٍ عاديّ، بل من أحد أعمدة الطب البريطاني، وشخصية لها ثقلها الكبير في الوسط الجامعي، حتى ليمكن القول إن الجامعة كانت تعده من كنوزها الثمينة. ومن ثمّ، بدا الأمرُ أكبرَ من مجرد موقف فردي، بل تحوّل إلى معادلة صعبة، فهناك فتاة صغيرة تطمح في العلم، في مقابل قامة علمية تهدد بالرحيل من الجامعة.

ولمّا رأت صوفيا أن الموقف يزداد تعقيدًا، لجأت إلى الأستاذ «ديفيد ماسون» ترجوه أن يرتّب لها لقاءً مع البروفيسور «مويرهيد»، عساه يوضح ما غمض من أسباب اعتراضه، لا سيّما وقد كان في السابق ساكتًا لم يُبدِ رأيًا. فلما اجتمعت به، أفصح لها أنه لا يُخاصمها ولا يعترض على سعيها، لكنه يرى أن القرار قد اتُخذ على عجل، من غير بحثٍ وافٍ ولا استكمال للإجراءات النظامية. وقال إنه لا يبتغي سوى أن يستوفي القرارُ أركانَه القانونية، ليكون مستندًا قويًّا، يضمن لها حقّها الكامل في الدراسة دون عوائق أو عراقيل مستقبلية.

ثم مضت صوفيا بعد ذلك تقابل أعضاء محكمة الجامعة، واحدًا تلو الآخر، تلتمس آراءهم وتعرف مواقفهم، فوجدت بين أيديهم لينًا، وفي كلماتهم ترحيبًا، ولم تصطدم بمعارضة تُذكر، حتى بدا أن النتيجة تميل لصالحها، وأن الطريق بات ممهّدًا لانتصار الحق، ولو بعد لأيٍ.

لكن كان هناك شخص واحد ضمن أفراد محكمة الجامعة لم تذهب للحديث معه، وهو البروفيسور «كريستسون»، ذلك العدو الذي وقف في طريقها من أول لحظة، وقد كان هو الأستاذ الوحيد والطبيب الوحيد الذي له مقعد في محكمة الجامعة. وقد امتاز بميزة فريدة؛ إذ كان عضوًا في جميع الهيئات التي تحدد مصير النساء في هذه القضية: كان عضوًا كلية الطب، وعضوًا في مجلس الشيوخ، وعضوًا في محكمة الجامعة، وعضوًا في مجلس الجامعة، وعضوًا في مجلس المستشفى الجامعي. وإلى جانب ذلك، كان رجلاً محترمًا وشخصيةً بارزة في المجتمع، ذا تأثير كبير على جمهور الكنيسة والمتدينين. قال الأستاذ «ديفيد ماسون» آنذاك: «لا أحد يسير في

شوارع إدنبرة أحترمه أكثر منه... لكن هذه ليست المرة الأولى، ولا أظنها ستكون الأخيرة، التي يُرى فيها رجال حكماء وعقلاء يدافعون عن استبداد وظلم لن يدوم.»

ولا أظن القارئ الكريم سيفاجأ، أبدًا، عندما يعلم أنه في التاسع عشر من أبريل، تم اتخاذ القرار التالي في اجتماع لمحكمة الجامعة، جري في سرية تامة:

> إن المحكمة، نظرًا للصعوبات القائمة حاليًا في تنفيذ قرار مجلس الشيوخ، كترتيبٍ مؤقت لمصلحة سيدة واحدة، وبما أنها غير مستعدة للفصل النهائي في مسألة ما إذا كان يجب تعليم النساء في الصفوف الطبية للجامعة، فإنها تؤيد الاستئناف وتُلغي قرار مجلس الشيوخ.

وقد سجلت صوفيا هذا القرارَ الصادر من المحكمة في مذكراتها دون أي تعليق، تركته هكذا دون أن تنبس ببنت شفة!

وحين تلقت صوفيا هذا النبأ كانت قد تركت إدنبرة وعادت إلى مدينة برايتون مع والدتها، إلا أنها كتبت إلى صديقتها «لوسي» في أمريكا تقول لها:

> لا بد أنكِ قرأتِ أخباري السيئة في الصحف التي أرسلتها لكِ يوم السبت —— لم أعد أستطيع أن أطلب منك أن تأتي وتستقري في إدنبرة، لأن كل خططي هناك قد انهارت مجددًا. لقد رفضت محكمةُ الجامعة التصريحَ الذي منحته كليةُ الطب وأكّده مجلسُ الشيوخ. هذا أمر غير معتاد أبدًا ويبدو صعبًا للغاية. أتوقع أن أذهب إلى اسكتلندا خلال أسبوع أو أسبوعين لأرى ما إذا كان يمكن فعل شيء حيال ذلك. لو كان لدي أي سند قانوني لكنت رفعت القضية إلى المحاكم. وإن لم أستطع دخول جامعة إدنبرة، فسأحاول في جامعة جلاسكو أو غيرها... لكنني أُفضل إدنبرة بشدة... أنا واثقةٌ من أن كل ما أحققه في الطب سيكون بفضلكِ أنتِ.

أما الأسباب الجوهرية التي حملت محكمة الجامعة على رفض قرار قبول صوفيا فقد كانت على النحو الآتي:

أولًا: أنّ الجامعة لا تملك القدرة على إنشاء الترتيبات والتنظيمات الخاصة لتدريس الطب من أجل طالبة واحدة بعينها، وهو أمرٌ يتجاوز إمكاناتها ويخالف مبدأ المساواة في المعاملة.

ثانيًا: أنّ جمعًا من الطلاب بلغ عددهم مئتين، قد اجتمعوا وقدّموا عريضةً إلى محكمة الجامعة يصرّحون فيها بأن وجود فتاة بينهم من شأنه أن يعوق سيرَ العملية التعليمية، لا سيّما في دراسة الموضوعات الطبية الحسّاسة، معتبرين أن حضور النساء في هذا السياق أمرٌ غير لائق ولا مستحبّ.

وإن كان بعض الأساتذة قد أفصحوا في رسائلهم إلى صوفيا عن مخالفتهم لهذا الرأي السائد، الذي يرى في اختلاط الجنسين مفسدةً أو خدشًا للحشمة، لا سيّما عند التطرّق إلى الأمور الطبّية الدقيقة، إلا أنّهم رأوا أنّ حضورها في المحاضرات العامة بين زملائها الذكور، أحفظ للأخلاق وأصون للنية، من أن تُفرَد بتلك الدروس الحساسة على يد طبيب ذكر في لقاءٍ ثنائيّ مُغلق قد يفتح باب التأويلات ويُفضي إلى ما لا يُحمد عقباه. وهكذا، فإن وجودها في الصفوف المختلطة، وإن كان مستنكرًا عند بعضهم، فقد عُدّ عند غيرهم أحوط وأليق من الناحية الخُلقية.

ولم تكن فصول هذه القصة تدور في الخفاء بين صوفيا والمسؤولين في جامعة إدنبرة من وراء الحُجُب، بل كانت أحداثها تُذاع على الملأ، وتُروى على صفحات الجرائد اليومية، وذلك لما نشأ بينها وبين السيد «ألكسندر راسل»، رئيس تحرير جريدة (The Scotsman)، من معرفةٍ وصِلةٍ. فصار الناس في مدينة إدنبرة، وسائر أنحاء بريطانيا، يتابعون مجريات هذا الصراع العلمي الأخلاقي كأنهم شهود عيان، يتقلبون مع كل فصل جديد في أروقة الجرائد. وقد سعت صوفيا — لما ضاق بها السبيل — إلى استشارة أهل الخبرة والمعرفة في القانون، لعلّ في الأمر مندوحة للطعن في قرار محكمة الجامعة أو وسيلة لمعارضته، إلا أنّ ما تلقّته من ردود واقتراحات لم يكن فيه إلا الخيبة؛ إذ أجمع الرأي القانوني على أن الرجوع عن ذلك القرار يكاد يكون من المُحال، وأن باب النقض عليه قد أوصد دون رجاء في الوصول إلى حل.

فلما استقرّ الأمر، وصار قرار المحكمة قضاءً نافذًا لا رجعة فيه، انبرى بعضُ الأساتذة والنفوس الحكيمة يقترحون تنفيذ القرار ليس على ظاهره ونصه، بل على نحوٍ يتواءم مع غايته دون أن يحبط سعي صوفيا أو يئد طموحها. إذ قالوا: لا مفرّ من الامتثال لحكم المحكمة، غير أنّ ذلك لا يعني أن تُقصى صوفيا عن طريق العلم أو تُثني عزمها، بل أن تُعالج المسألتان اللتان كانتا سبب المنع معالجة ذكية تُراعي روح القرار وليس حرفه ونصه وظاهره.

فأما المسألة الأولى، وهي أنّ الجامعة لا تستطيع إعداد المنهج والوسائل لتعليم فتاة واحدة، فقد قيل: ولم لا تسعى صوفيا في دعوة نساء أُخريات يشتركن معها في طلب العلم؟ فإن اجتمع العدد الكثير، انتفت الحجة، وتيسر للجامعة أن تُهيّئ الأمر لهن.

وأما الثانية، وهي ما زعمه البعضُ من أنّ اختلاط الجنسين في قاعة الدرس يبعث الحرج ويُضعف من فاعلية التعليم، فقد كان الجواب أن تُخصّص للنساء محاضرات مستقلّة، تُدرّس فيها العلوم الطبّية دون أن يُمسّ الحياءُ أو يُخدش الوقار.

وبحلّ هذين الإشكالين، يتحقّق من جهة احترام قرار المحكمة، ومن جهة أخرى تُمهّد الطريق لصوفيا لبلوغ غايتها دون أن تتنازل عن حلمها. لذا، اتّجهت صوفيا بخطواتها الجريئة إلى الصحافة، مستنهضةً همم النساء البريطانيات، من ذوات الطموح والرغبة في دراسة الطب، ممن يستطعن الإقامة في مدينة إدنبرة لمدّة ثلاث أو أربع سنوات، داعيةً إياهن للانضمام إليها

في هذا المسعى النبيل. وهذه نسخة من نداء دعمته جريدة (The Scotsman) مؤيدةً طلب صوفيا:

نــداء

إلى السيدات اللواتي يرغبن في الانضمام إلى الآنسة صوفيا جيكس-بليك في مسعى شجاع وتاريخي: للالتحاق بالدورات الطبية في جامعة إدنبرة.

بدعم من صحيفة (The Scotsman).



بعد ذلك الإعلان المدوِّي وذلك النداء الذي تناقلته الصحف في أيامه، جاءت صوفيا البشرى على هيئة رسالةٍ من السيدة «إيزابيل ثورن» (Isabel Thorne)، تلك المرأة التي كانت في ربيعها الرابع والثلاثين، أُمًّا لأربعة أطفال. وُلدت «إيزابيل» في لندن سنة ١٨٣٤، وتلقت تعليمها في «كلية الملكة» (Queen's College)، ثم اقترنت بتاجر الشاي الإنجليزي السيد «يوسف ثورن» (Joseph Thorne) سنة ١٨٥٦، وانتقلت معه إلى مدينة شنجهاي بالصين، حيث كانت تجارته ومصدر رزقه. وفي تلك الأرض البعيدة، وضعت طفلَها الأول، غير أن قَدَر السماء سبقها، فاختُطف منها صغيرُها على إثر مرضٍ ألمَّ به، فاكتوت بجمر الحزن، وكانت تلك الواقعة نقطةً فاصلةً في حياتها. لقد عايشت هناك الألم الذي يكتمه النساء في صدورهن حياءً من الأطباء الرجال، وتلمَّست حاجة الأنثى إلى مَن تفهم مشاعرها وتواسي آلامها. وزاد هذا الاعتقاد في قلبها رسوخًا حين زارت الهند، فرأت ما تقاسيه النساء من أوجاع لا تجد من يُحسن الإنصات أو يُجيد العلاج.

وحين عادت إلى لندن مع زوجها، الذي كان لها نعم السند وخير المعين والصديق، اعتزمت أن تُحوِّل ألمها إلى رسالة، فالتحقت بـ «كلية النساء الطبية في لندن»، حيث كان يُدرَّس فن

التوليد للنساء. غير أنها لم تجد فيها بغيتها، إذ بدا التعليم هزيلًا لا يُروي ظمأ، ولا يُشبع جوعًا. وما إن وقعت عيناها على إعلان صوفيا حتى شعّت في روحها بارقةُ الأمل، فبادرت إلى مراسلتها، تلبيةً لدعوتها، ومؤازرةً لحركتها، في سعيها لفتح أبواب العلم للنساء في جامعة إدنبرة. وكان نص خطابها إلى صوفيا كما يلي:

> سيدتي الفاضلة، أكتب إليكِ متأثرةً بما قرأتُه عن قرار «محكمة جامعة إدنبرة»، إذ جاء في منطوقه أنّهم لم يجدوا مبررًا كافيًا لوضع «ترتيبٍ مؤقت لصالح سيدة واحدة». وقد اطّلعت في صحيفة (The Scotsman) على ما يفيد بأنّكِ، في بعض المواضع، أبديتِ استعدادًا لاستبدال الحضور الإجباري للدروس العامة بتلقّي دروس خاصة، حرصًا منكِ على التيسير والبعد عن التعنت.
>
> وإذ كانت هذه هي آراؤكِ الحكيمة، فإني لأُبدي لكِ سروري العظيم، وأعبّر لكِ عن استعدادي التام لأن أكون إلى جانبكِ، إن قررتِ تجديد الطلب، بل وأظنني أعرف اثنتين أو ثلاثًا من النساء ذوات الهمّة والعزم، ممن سيجدن في هذه الخطوة بُغيتَهنّ، ويُبدين حماسةً لفعل الأمر نفسه.
>
> ألتمس منكِ العذر إن كنت قد شغلتكِ برسالتي، لكن ما حملني على الكتابة إلا شعورٌ عميق بالمسؤولية، وحرصٌ لا يفتر على فتح أبواب هذه المهنة النبيلة أمام النساء الطامحات.
>
> المخلصة لكِ، «إيزابيل ثورن»



إيزابيل ثورن

وبعد أن جاءت تلك الأخبار الطيبة وهذه الرسالة التي تحمل بوارق الأمل من السيدة «إيزابيل ثورن»، أتت رسالةٌ أخرى، ولكن من نَفْسٍ ما زالت في مهد التردد، تخالها الريح فتخفق ثم تستقيم، إنها رسالة الفتاة «إيديث بيتشي» (Edith Pechey)، وقد كُتبت بنبرةٍ يغلب عليها التواضع الجمّ، حتى كادت أن تنكر على نفسها أهلية الطموح، وتحمل في ثناياها قلبًا قلقًا ونفسًا حائرة بين الأمل والخوف، فقالت لصوفيا:

قبل أن أُقدم على اتخاذ القرار الحاسم بدخول المجال الطبي، أرغب أن أتيقّن من قدرتي على النجاح، وليس ذلك لنفسي فقط، بل لأن التعثّر في هذه المرحلة سيكون ضربةً قاسية للقضية برمّتها. فنجاح أولئك اللواتي يُقدِمن على هذه المغامرة ينبغي أن يكون ناصعًا، ونتائجهنّ فوق المتوسط مقارنةً بالرجال، لتكون حجتنا أقوى وصوتنا أعلى.

أتساءل في حيرة: هل يكفي الذكاء المتوسط والمثابرة الحثيثة للوصول إلى النجاح والتفوق؟ إنني أعتقد أنني أمتلك هذين، ومعهما حبٌّ صادق للعلوم، غير أنني أفتقر إلى المعرفة القوية في كثيرٍ من الموضوعات. أخشى ألا أفلح في اجتياز الامتحان التمهيدي دون جهدٍ كبير، فقد ذكرتِ مادة «اللاتينية»، وهي عندي ضعيفة جدًّا، والهندسة الإقليدية كذلك، لا أكاد أُلمّ بها إلا قليلًا.

ومع ذلك، إن لم يكن المطلوب فوق طاقتي، فقد أكون مستعدةً للامتحان القادم. وإذا استطعتُ ترتيب شؤوني المالية، فسأسعى للالتحاق في شهر أكتوبر كما نصحتِني. وعلى الرغم من أنني أُفضل الانتظار لعامٍ آخر، إلا أنني في الرابعة والعشرين من عمري، وربما يكون من الحكمة ألا أُؤخّر الأمر أكثر من ذلك.

لكِ مني جزيل الشكر وعظيم الامتنان على ما قدمتِه من نصحٍ ومؤازرة، فإني لا أملك صديقًا سواكِ يزوّدني بما أحتاج من معلومات، وأعتمد بعد الله على كرمكِ وصدركِ الواسع.

المخلصة لكِ «إيديث بيتشي»



إديديث بيتشي

في تلك الآونة التي عادت فيها صوفيا إلى بيتها في مدينة برايتون، كانت والدتها قد زارها بها المرض من جديد، إذ كانت صحتها متقلبةً لا تستقر، فما إن تنعم بأيام من العافية حتى تعاودها العلّة، وتُثقلها وطأة السقم.

رافقت صوفيا والدتَها إلى المستشفى، وفي أثناء تلك الزيارة التقت بالطبيب «توماس كينج تشامبرز» (Thomas King Chambers)، وهو طبيب تلقى علومَه في جامعة أوكسفورد، ويعمل في مستشفى «سانت ماري» (St Mary's Hospital) في لندن. كان رجلاً لطيف الشمائل، حسن المعاملة، فأخبرته صوفيا بأنها درست الطب في الولايات المتحدة، وباحت له برغبتها في استكمال دراستها الطبية هنا، في بريطانيا، وسألته إن كان هناك أمل في الدراسة ضمن هذا المستشفى. فأجابها الطبيب أنه سيستفسر عن هذا الأمر، وإنه، شخصيًا، لا يرى مانعًا إن كان في جَيب طالبة الطب ما يسدّ نفقات التعلم.

ولم يطل به الزمن حتى جمع الأساتذة والأطباء، وعرض عليهم أمرَ انضمام النساء إلى صفوف الدراسة. غير أنّ ما وجده لم يكن كما تمنّى، إذ جاءت الردودُ كلُّها رافضة، ولم يكن هذا الرفض لأن الأساتذة يعارضون، بل لأن الطلاب الذكور هم الذين أبدوا الاعتراض، بل وشاركهم أولياء أمورهم، الذين رأوا في وجود النساء زعزعةً لما اعتادوه من أعراف وتقاليد.

كانت حجّة الأطباء والأساتذة التي أملت على الجميع الخضوع أن «رأس المال» الذي تقوم عليه الكليات إنما هو في يد هؤلاء الطلبة، فإن سخطوا أو انسحبوا، خسرت الكلية موردَها، وضاعت فرص كثيرة. فكتب إليها الطبيب برسالةٍ تفيض أسًى، قال فيها:

> أخشى أن يصيبكِ خيبة أمل من نتيجة طلبي إلى لجنة «كلية سانت ماري». لقد عُقد اجتماعٌ مطول، وحرصتُ على الاستماع إلى آراء الزملاء جميعًا. والحق أنني أوافقك الرأي: العقبة الكبرى لا تكمن في الأساتذة، بل في الطلاب! فالكليات ترى فيهم زبائن، وليس طلاب علم فحسب، وهم يرتعدون من كل تغيير، حتى إن رفضت أقلية صغيرة فكرةً جديدة، خشي الآخرون فرضها.
>
> ويا للأسف! تُجبر النساء البريطانيات على الارتحال إلى أصقاع الدنيا لنيل ما هو مبذول للرجال عندنا في سهولة ويسر... ولكن ما الحيلة؟ إن الظروف تحكم، والواقع يفرض نفسه.

وإن تكن تلك المحاولة التي بذلها الدكتور «توماس كينج تشامبرز» (Thomas King Chambers) قد آلت إلى الفشل، وخذلها القرار الجائر، فإن صوفيا لم تخرج منها صفر اليدين، بل ربحت منها ربحًا أثمن من القبول ذاته، إذ تعرّفت على رجل سيكون لها صديقًا وفيًّا لها مدى الحياة، وركنًا ثابتًا في نضال المرأة من أجل نيل حقها في التعليم الجامعي. لقد وجدت فيه سندًا

يحمل همّ القضية كما تحمله، ويؤمن بأن طلب العلم لا جنس له، وأن للمرأة الحق أن تُعامَل لما تملكه من عقل، لا أن تُحجَب وتُمنع وتُقصى بسبب جنسها.

قرّرت صوفيا ألا تُسلم رايتها بعد، ولا تُنزل سلاح العزيمة قبل استنفاد كل سُبل الرجاء، فعادت إلى المدينة التي كانت مسرح كفاحها، تطرق أبوابَ الأمل من جديد، هذه المرة بخطة أكثر نضجًا وأقرب إلى شروط الواقع. فكتبت إلى «محكمة الجامعة» خطابًا تسألهم فيه صراحة: إن هي أتت بمجموعة من النساء الراغبات في دراسة الطب، على أن تُخصَّص لهن فصولٌ مستقلة، وكنّ يبتغين الحصول على شهادة جامعية في هذا التخصص، فهل ترفع الجامعة يد المنع عنهن؟ وهل يمكن أن يُعاد النظر في القرار السابق؟

وفي الوقت نفسه، خاطبت عميد كلية الطب، تعده بأنهن مستعدّات لدفع ما يلزم من نفقات، إيمانًا منهن بأن للعلم كلفة، وأن الطريق إلى المساواة لا يُمهد إلا بالبذل والصبر. ومع محاولتها للقاء بالرجال الداعمين لقضيتها وجدت أن الجو العام صار أقل حماسًا لها ولقضيتها، وأن الداعمين لموقفها باتوا خائفين مترددين، فبدأت تُصاب نفسها بفتور، وقلبها بخيبة.

حُدِّد موعد إعادة النظر في قضية صوفيا المصيرية في الأول من يوليو، وفي الليلة السابقة لذلك اليوم، أمسكت القلم تكتب مشاعرها المتأرجحة، فقالت بنبرة تجمع بين بوارق الأمل والسخرية: «اضطر «كريستيسون» للذهاب إلى لندن، وقد قيل إنه فعل ذلك غاضبًا — يا للفرحة! سمعت أنه طلب تغيير الموعد، لكن الدكتور «بالفور» رفض — يا له من رجل نبيل! غدًا سيصدر قرار كلية الطب على الأقل. هل سأُحبَط من جديد؟ اليوم، ولأول مرة منذ يوم الجمعة، أستشعر بعض الأمل، رغم أن في داخلي صوتًا مشاكسًا يقول: من سوء الحظ أن تُعلن ذلك!»

وفي صباح ذلك اليوم المنتظر، جاء الخبر كأنّه شمس تشرق بعد ليلٍ طويل؛ فقد أصدرت «محكمة الجامعة» قرارها بالموافقة على طلبها، وكانت تلك لحظة انتصار لا تنسى. فكتبت تخطّ فرحتها بمداد من السعادة: «فزتُ في النهاية! وأعتقد فعلًا أن هذا هو بداية النهاية. أربعة أصوات من أصل ستة أيّدوني.»

ثم توالت الانفراجات، فبعدها بيومين فقط أقرّ مجلسُ شيوخ الجامعة القرارَ، ولحقته «كلية الطب» بموافقتها، فباتت ثلاث جهات من أصل أربع في صفّها، ولم يبق إلا خطوة واحدة — أو ربع خطوة، لتُتوَّج الجهود المضنية بالنصر، ولتُفتح أبواب الجامعة على مصراعيها لبنات حوّاء.

وفي هذا السياق المضيء، كتبت صوفيا إلى صديقتها «لوسي» في أمريكا، رسالة تفيض بالأمل، فقالت:

> عزيزتي، لقد صوّتت كليةُ الطب ومجلس الشيوخ لصالح إنشاء فصول خاصة بالنساء في الجامعة، ووافق مجلس الجامعة كذلك في اجتماعه بالأمس. لكن يبدو أن هناك عقبات قانونية تتعلق بالميثاق القديم، وقد يتطلب الأمرُ موافقةً من مجلس الملكة الخاص، مما قد يسبب بعض التأخير، لكنني لا أرى صعوبة حقيقية — فالملكة معروفة بتأييدها لطبيبات المستقبل، والحكومة الحالية ليبرالية إلى حدٍّ بعيد. وهذا في الواقع يمنح الأمرَ ميزةً كبرى، إذ سيجعل هذا القرار عامًا، وآمنًا، ودائمًا، حتى يصير من المستحيل تقريبًا استبعاد النساء في المستقبل. أنا الآن أتطلع إلى سنوات من العمل الجاد هنا، وسعيدة جدًا لأنني أستطيع أن أبدأ ذلك!

مهما يكن من أمر، فقد أنجزت مهمتها. فرغم الرفض الصريح الذي اقترحه القس الدكتور «فن» (Revd. Dr. Phin)، فقد أُقرّت لائحة مجلس الجامعة من قِبل المجلس العام (General Council) في التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٨٦٩، وتم التصديق عليها من قِبل المستشار (Chancellor) في الثاني عشر من نوفمبر. وقد صدرت القوانين التالية رسميًا في التاريخ نفسه وأُدرجت في «دليل الجامعة» (Calendar of the University):

١. يُسمح للنساء بدراسة الطب في الجامعة.
٢. يُشترط أن يتم تدريس الطب للنساء في فصول دراسية منفصلة، مخصصة بالكامل للطالبات.
٣. يجوز لأساتذة كلية الطب، إن ارتأوا ذلك مناسبًا، أن ينظّموا فصولًا خاصة للنساء لهذا الغرض.
٤. يُسمح للنساء اللواتي لا ينوين ممارسة الطب كمهنة، بالالتحاق ببعض هذه الفصول أو أجزاء معينة من المنهج، بحسب ما يراه مجلس الجامعة مناسبًا ويوافق عليه من حين لآخر.
٥. الرسوم الكاملة للالتحاق بفصل دراسي كامل هي أربع جنيهات (guineas). وإذا كان عدد الطالبات في أحد الفصول قليلًا جدًا بحيث لا يغطي هذه التكاليف، فبإمكان الأستاذ أن يطلب رسومًا أعلى، بشرط موافقة مجلس الجامعة على ذلك.
٦. تُطبق جميع القوانين الجامعية السارية — في الحاضر أو المستقبل — على النساء الملتحقات بهذه الفصول، سواء تعلقت بالتسجيل الأكاديمي، أو الحضور، أو أداء الامتحانات، أو غيرها.
٧. تدخل هذه اللوائح حيز التنفيذ بدءًا من الفصل الدراسي لعام ١٨٦٩–١٨٧٠.

وهكذا فُتِحت أبواب أول جامعة بريطانية — جامعة إدنبرة — أمام النساء.

في خضم هذه المسيرة التي بدأت بخطوةٍ فردية، أخذت القافلة تنمو شيئًا فشيئًا، حتى اكتملت بخمس نساءٍ، حملتهن رغبتهن الصادقة في اقتحام ميدانٍ طالما أُقصيت عنه المرأة. فانضمّت إلى الثلاث الأول — صوفيا، و«إديث بيتشي»، و«إيزابيل ثورن» — سيدتان أخريان أضفتا على هذا الجمع تنوّعًا جديدًا في الخبرات.

إحداهما كانت «هيلين إيفانز» (Helen Evans)، التي لحقت بالركب وهي تحمل في قلبها آثار جراح لم تلتئم بعد، فقد فقدت زوجها «هنري إيفانز» (Henry Evans)، الضابط في سلاح الفرسان، وما كادت تتعافى من ذلك المصاب، حتى شاء القدر أن تفقد طفلتها الوحيدة، وهي لا تزال في سنّ الرضاعة. ومع أن الحزن ظلّ يطارد حياتها، إلا أنّها لم تستسلم له، بل جعلت من طلب العلم هدفًا جديدًا ترنو إليه. وكانت يومئذٍ في الرابعة والثلاثين من عمرها.

أما السيدة الخامسة فكانت «ماتيلدا تشابلن» (Matilda Chaplin)، وقد بدأت دراستها كما فعلت «إيزابيل ثورن» في «كلية النساء الطبية بلندن»، حيث التحقت ببرنامج يركّز على التوليد (القبالة). لكنها شعرت أن ما يُقدَّم هناك لا يكفي لتحقيق طموحها، ولا يمنح المرأة ما تستحقه من تعليم طبي حقيقي. لم تجد في تلك الدراسة ما يُرضي فضولها العلمي، ولا ما يؤهلها لممارسة الطب بجِدّة وإتقان، فقررت أن تسلك طريقًا آخر، فانضمّت إلى صوفيا في إدنبرة، حيث فتحت الجامعةُ بابَ الأملِ أمام النساء الراغبات في دراسة الطب.

وهكذا، تكوّنت مجموعة من خمس طالبات، لكل واحدة منهن قصة مختلفة. منهن المتزوجة، والأرملة، ومن لديها أبناء، ومن فقدت طفلها، ومن لم تتزوج أصلًا. لكنهن جميعًا اجتمعن على أمر واحد وهو حب العلم، والرغبة في دراسة الطب، والسير في طريق لم تمشِ فيه امرأةٌ في تاريخ هذا البلد من قبل. كان هذا المجال حكرًا على الرجال، ورأين أن الوقت قد حان لتطالب النساء بحقهن فيه.

حاولت صوفيا أن تُمهّد الطريق لرفيقاتها في كل ما يتصل بهذه التجربة الجديدة، فبدأت بتنظيم أمور السكن، ووجدت بيتًا كبيرًا، قريبًا من الجامعة، يقع في عنوان سيغدو مألوفًا لمن يتابع هذه القصة: ١٥ Buccleuch Place. وليتنبّه القارئ الكريم إلى هذا العنوان، فإنه لن يكون مجرد سكن طالبات عادي، بل سيكون بمثابة مقر رئاسة الأركان التي تدار فيها الحرب القادمة.

وفي خضم هذه الاستعدادات، كان لا بد أن تخضع الفتيات الخمس لامتحان القبول في جامعة إدنبرة. وقد جاء هذا الامتحان على قسمين: القسم الأول إجباري، ويتكوّن من ثلاث مواد هي: اللغة الإنجليزية، واللغة اللاتينية، والرياضيات. أما القسم الثاني فهو اختياري، وعلى الطالبة أن تختار منه مادتين فقط من قائمة تشمل اللغة اليونانية، واللغة الألمانية، واللغة الفرنسية، والرياضيات المتقدمة، والفلسفة الطبيعية (الفيزياء)، وفلسفة الأخلاق، وعلم المنطق. وكان من

اللازم أن تُسهم صوفيا بدور إضافي، فعملت معلمةً للرياضيات، تُدرّب من احتاجت من زميلاتها على مفاتيح هذا العلم، وتعينهن على اجتياز ما قد يُشكل عليهن من مفرداته.

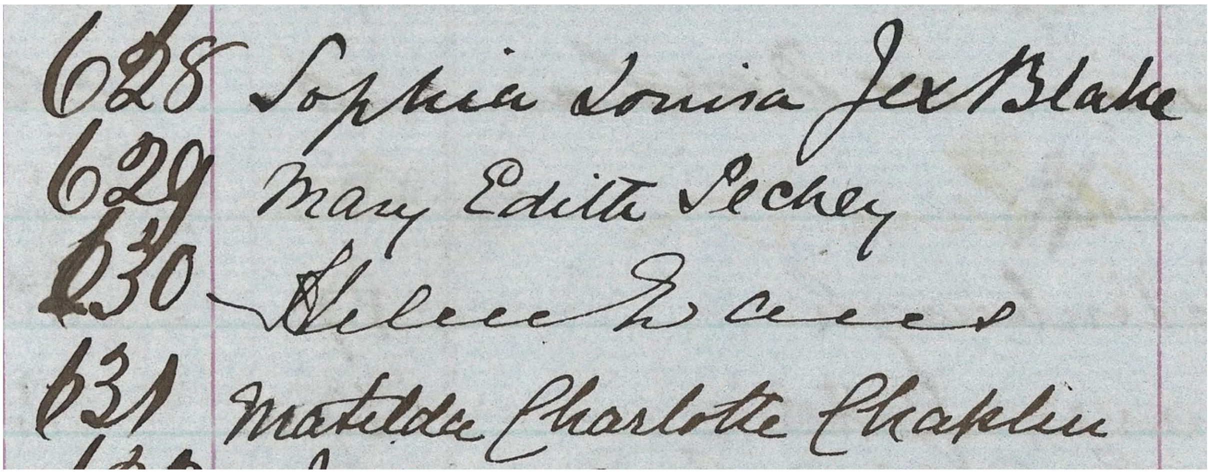
أُجري الامتحان في يوم التاسع عشر من أكتوبر، وظهرت النتائج في الثاني من نوفمبر، وكانت النتيجة حدثًا مفصليًا في تاريخ التعليم الطبي البريطاني إذ نجحت النساء الخمس جميعهن، وتم تسجيلهن رسميًا كطالبات في كلية الطب بجامعة إدنبرة. كانت المرة الأولى في تاريخ بريطانيا التي يُسجَّل فيها هذا العدد من النساء للدراسة بدوام كامل في هذا التخصص.

لكنّ ما يزيد اللحظة بهاءً هو ما كشفته النتائج من تفوّقٍ لافت، فمن بين ١٥٢ طالبًا تقدّموا للامتحان، كانت أربع من هؤلاء النساء الخمس ضمن المراكز السبعة الأولى. لم يكن النجاح ما كُتب لهن، بل التميّز الباهر الذي طغى على جميع المتقدمين من الذكور. وفي ذلك اليوم، كتبت صوفيا تقول:

> اليوم كُتب فصلٌ جديد في حياتي — لقد تمّ الأمر، الأمر الذي يوازي الحياة نفسها! هذا الصباح، عند الساعة الحادية عشرة والنصف، أنا، صوفيا جِكس بليك، أصبحتُ رسميًا أول امرأة تُسجَّل كطالبة في جامعة إدنبرة تحت اللقب اللاتيني Civis Academiae Edinensis — أي «طالبة أكاديمية في جامعة إدنبرة». وهذا المساء، ولأول مرة في تاريخ الجامعة، أصبح هناك خمس نساء من بين طلابها — يا لها من لحظة مجيدة!

كما بعثت الدكتورة «إليزابيث بلاكويل» (Elizabeth Blackwell)، والتي كانت آنذاك مستقرة في لندن، رسالة تهنئة، جاء فيها: «أهنئكنّ جميعًا من أعماق قلبي. أعتقد أنّه أعظم إنجاز حققته النساء حتى الآن في بريطانيا؛ إنه المبدأ العظيم الذي ستنبثق منه كل نهضة نبيلة.» ثم أضافت تقول: «أشعر أن عليّ أن أذهب إلى إدنبرة هذا الشتاء لأرى وأبارك هذه الدفعة. وربما في نهاية الفصل الدراسي يكون ذلك أفضل.»

وها هنا نسخة من بطاقة التسجيل في الجامعة بخط اليد، وكانت صوفيا أول اسم بين الأسماء الخمسة.



628 Sophia Louisa Jex Blake
629 Mary Edith Pechey
630 Helen Evans
631 Matilda Charlotte Chaplin

الفصل السابع:
منحة توماس هوب

سارت الأمور في بداياتها على خير ما يُرام، ومضى الفصل الدراسي الأول كما لو كان صفحة خيالية من كتب الأحلام، لا تُعكّرها شائبة، ولا يرهق فيها وجوهَهم قترٌ ولا ذلة. وكانت الفتيات الخمس في ذروة من الفرح لا يُجارين فيها. وفي تلك اللحظات السعيدة، كتبت صوفيا إلى صديقتها الدكتورة «لوسي سيوول» في الولايات المتحدة تقول بحماسة خالصة: «أليس من الرائع أن نلتحق بأول جامعة بريطانية تفتح أبوابها للنساء؟»

وكتبت صوفيا في سيرتها الذاتية تقول:

> لقد حظينا بلطف معلمينا ومجاملة الطلاب الذكور كلما صادفناهم في الساحات أو على الدرجات. وأتذكر أنه في إحدى المرات، أثناء عبورنا لساحة الكلية، كان بعض الطلاب يتقاذفون بكرات الثلج، فأصابت إحدى الكرات بالخطأ واحدةً من زميلاتنا. عندها ارتفع صوت الاستياء والأسف بين الطلاب، مما أظهر أن انزعاجهم من الحادث كان أكبر بكثير من انزعاجنا نحن أنفسنا — وكما يقال، «القشة تُظهر اتجاه الريح» (أي أن التفاصيل الصغيرة تكشف الحقيقة الكاملة).[١]

لكن القارئ، وقد رافقنا هذا المشوار صفحةً بعد صفحة، لا بد أن يعلم علم اليقين أن الفرح في هذا الطريق لا يأتي إلا متبوعًا بعقبة، ولا تُفتح نافذة إلا وتنبثق منها ريح عاصف لم تكن في الحسبان. والمشكلة لم تكن في الدراسة ذاتها، بل في النصوص التي تنظم وجود الطالبات في الجامعة. فإذا نظرنا إلى البندين الثاني والثالث من لائحة تنظيم دراسة النساء في جامعة إدنبرة، وجدنا ما يلي:

٢ – يُشترط أن يتم تدريس الطب للنساء في فصول دراسية منفصلة، مخصصة بالكامل للطالبات.

1- Jex-Blake, S. (1886). *Medical women: A thesis and a history*. Edinburgh: Oliphant, Anderson, & Ferrier; London: Hamilton, Adams, & Co. p80

٣ – يجوز لأساتذة كلية الطب، إن ارتأوا ذلك مناسبًا، أن يُنظّموا فصولًا خاصة للنساء لهذا الغرض.

ولنتوقف هاهنا قليلًا، ونتأمل ما تحمله هذه البنود من تبعات. فالبند الثاني واضحٌ في اشتراط الفصل التام بين الجنسين في الدراسة، أي لا يُسمح للفتيات بالانضمام إلى الفصول التي يدرس فيها الذكور. أما البند الثالث، فهو بيت الداء؛ إذ يجعل مسألة تدريس النساء مسألةً اختيارية، لا إلزام فيها على الأساتذة إذ يقول: «يجوز لأساتذة كلية الطب، إن ارتأوا ذلك مناسبًا». وهو ما يُفهم منه أن الأستاذ إن شاء درّس لهن، وإن أبى ورفض فلا حرج عليه، ولا لَوم يُوجه إليه. وما الذي يعنيه هذا عمليًا؟ يعني أن على هؤلاء الفتيات أن يطرقن أبوابَ الأساتذة واحدًا تلو الآخر، يستعطفن موافقتهم على التدريس لهن، ويستجدين شيئًا من العدل في هذه الساحة التي لم تعرف بعد ما معنى العدل والإنصاف.

ومن الأمور التي زادت الوضع تعقيدًا، أن الأساتذة الذين يُبدون استعدادهم لإلقاء المحاضرات على هذه المجموعة الصغيرة من الطالبات، يطالبون بأجور أعلى لقاء جهدهم؛ إذ يرون أن تدريس عدد قليل من الفتيات لا يُقارن بتدريس الصفوف الممتلئة من الطلاب الذكور. ومن هنا، أصبح ثمن المحاضرة الواحدة يُقسّم على عدد صغير، ما يعني أن كلفتها ستكون أعلى بكثير، تُقسّم على جيوب هؤلاء النسوة الخمس، فلا عجب أن تجاوزت الرسوم ما يدفعه أقرانهن من الذكور بأضعاف.

وهكذا وُضعت الفتيات أمام معادلة شاقّة وهي أنه لا إلزام على الأساتذة أن يُدرّسوا لهن، وإذا تفضّل أحد من هؤلاء الأساتذة ووافق على تدريسهن، فالثمن باهظ، والعبء المالي ثقيل جدًا. وفي ظل هذا الواقع المعقّد، كتبت صوفيا إلى صديقتها «لوسي سيوول» تقول:

> كل شيء على ما يُرام تمامًا كما أردنا. لكن الأساتذةَ غيرُ مُلزَمين بإعطائنا محاضرات. لقد نسّقنا بالفعل لإقامة دورتين دراسيتين لهذا الشتاء — كل منهما تضم خمس محاضرات أسبوعية — في مادتي علم وظائف الأعضاء والكيمياء. ونحن الآن نُرتب لمحاضرات نظرية وتدريب عملي في مادة التشريح.
>
> بما أن علينا تنظيم ترتيبات مستقلة بالكامل، فإن تدريس التشريح سيكون مُكلفًا للغاية — حوالي ١٠٠ جنيه إسترليني لخمس طالبات — وسأدفع من هذا الثلثَ تقريبًا، لأن اثنتين من الطالبات ليستا من الأُسر الميسورة. ومع ذلك، فإن أيَّ مبلغ يُدفَع في سبيل تحقيق هذا الهدف يستحق العناء. وأنا ممتنة لأنني أستطيع دفع المال، ولو كنت أستلفه من والدتي.

> عزيزتي، لا بد أن تأتي هذا الصيف لزيارتنا. لقد أخبرتُ الطالبات هنا أن الفضل يرجع إليكِ في المقام الأول. فعندما يُعبّرن عن امتنانهن لي، أقول لهن: «اشكرن الدكتورة «سيوول» — هي من جعلتني أحب الطب، وهي من غرست فيَّ الإيمان بأن التعليم الكامل يجب أن يكون متاحًا للنساء الإنجليزيات.»

بدأت الفتيات في الحديث مع بعض الأساتذة، وكان من بين هؤلاء الدكتور «كرم براون» (Crum Brown) الذي وافق على تدريسهن مادة الكيمياء و«لم يتفوه بكلمة عن الرسوم، يا له من رجل طيب!»، هكذا وصفته صوفيا. ومع نهاية الفصل الشتوي، في شهر مارس، بدأت ثمار الجهد تتضح، إذ بيّنت النتائج أن الآنسة «إيديث بيتشي» قد أحرزت المركز الثالث من حيث أعلى الدرجات في مادة الكيمياء، على مستوى جميع الطلبة، ذكورًا وإناثًا. ولم يسبقها في الترتيب سوى طالبان، كانا قد درسا هذه المادة من قبل، أي أنهما أعادا حضورها، فيما كانت «إيديث» تدرسها للمرة الأولى، فكانت بذلك الأولى بين الطالبات والطلبة الجدد، وبذلك كانت هي الأولى على سبيل الحقيقة.

وأريد أن أذكر ها هنا نص كلام صوفيا وخاصةً فيما يتعلق بباقي المواد ومدى تفوق الفتيات بشكل عام في دراستهن، حيث كتبت صوفيا في سيرتها الذاتية تقول:

> ولا بد لي الآن أن أذكر النتائج التي ظهرت في قوائم الجوائز، لا بقصد الادعاء بتفوق السيدات (رغم أن رغبة المرأة القوية في تحصيل التعليم قد تجعلها أكثر اجتهادًا من معظم الطلاب العاديين)، وإنما لأنني أعتقد أن الوقائع التي سأوردها لها صلة مباشرة بالأحداث اللاحقة. في مادة علم وظائف الأعضاء (Physiology)، كان هناك ١٢٧ طالبًا من الذكور، ظهر منهم ٢٥ فقط في قائمة الشرف. وفي فصل الكيمياء، بلغ عدد الطلاب الذكور ٢٢٦، حصل منهم ٣١ على مرتبة الشرف. أما من بيننا نحن النساء — وكنا خمس — فقد حصلت أربع منا على مرتبة الشرف في كلا الفصلين. وقد احتلت إحدى السيدات المرتبة الثالثة في قائمة الجوائز في مادة الكيمياء، ولو علمنا أن الطالبين اللذين تفوقا عليها كانا قد حضرا دورات سابقة في نفس الموضوع، لتبين أن الآنسة «بيتشي» كانت، فعليًا، الأولى على دفعتها.[١]

ولم يكن في هذه النتيجة ما يدعو للاستغراب، لولا أنها ارتبطت بمنحة دراسية، أُسِّست خصيصًا لهذا الغرض. فأحد أساتذة الكيمياء السابقين، الدكتور «توماس هوب» (Thomas

1- Jex-Blake, S. (1886). *Medical women: A thesis and a history*. Edinburgh: Oliphant, Anderson, & Ferrier; London: Hamilton, Adams, & Co. p81

Hope)[1]، كان قد خصّص عائدَ سلسلةٍ من محاضراتٍ ألقاها للنساء، بلغ مجموعها نحو ألف جنيه، لإنشاء أربع منح دراسية. هذه المنح تُمنح لأول أربعة طلاب يحققون أعلى الدرجات في مادة الكيمياء، وتُخوِّل الحاصلين عليها استخدام معامل الكلية مجانًا، وهو امتياز بالغ الأهمية في دراسة الطب.

وبما أن الطالبيْن الأوّليْن لم يكونا مؤهليْن للحصول على المنحة، نظرًا لكونهما يعيدان دراسة المادة للمرة الثانية، فقد أصبحت «إيديث بيتشي» مؤهلة رسميًا للحصول على المنحة؛ لأنها الأولى في الترتيب بين الطلبة المستجدين الذين تنطبق عليهم الشروط.

رغم أن الأستاذ «كرم براون» كان كريمًا مع الطالبات، ومن غير المعقول أن يكون منحازًا ضد فتاة ذكية، ذات عقل راجح، بل وتقدّر مُعلِّمَها بصدق — إلا أنه لاحظ الكثير من أصوات الأساتذة من ذوي النفوذ في الجامعة بدأوا في التعبير عن استيائهم من وجود النساء في الجامعة، كما بدأ الطلاب الذكور يظهرون حنقهم ومعاداتهم لزميلاتهم نتيجة حصولهن على درجات عالية وتفوقن عليهم. فحين لاحظ الدكتور «براون» هذا الجو المشحون قرر تهدئة الأوضاع ورأى أن منع «إيديث» من الحصول على المنحة هو القرار السليم والمناسب في هذا التوقيت، فحرمها ومنعها من منحتها المستحقة وأعطى هذه المنحة إلى طالب جاء في ترتيب أدنى من ترتيب «إيديث» من حيث الدرجات.

وقد برّر الأستاذُ موقفَه قائلاً: بما أنها حضرت المحاضرات في مواعيد مختلفة، فبالتالي لم تكن عضوًا رسميًا في صف الكيمياء. ومع ذلك، فقد منحها الميدالية البرونزية الرسمية للجامعة — والتي لا تُمنح إلا لمن يُعترف بعضويتهم في الصف — كما أدرج اسمَها وأسماء النساء الأخريات في قائمة الشرف بحسب درجاتهن. فكيف يقول تارةً إنها لا تعتبر عضوًا رسميًا في مادة الكيمياء ثم هو في الوقت ذاته يعطيها الميدالية البرونزية التي لا تُعطى إلا لأعضاء صف

١- وُلِدَ الدكتور «توماس تشارلز هوب» عام ١٧٦٦م في مدينة إدنبرة، وهو أحد أبرز العلماء في تاريخ الكيمياء والطب خلال أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر. تعود شهرته العلمية إلى اكتشافه لعنصرٍ كيميائيٍّ جديد سُمِّي لاحقًا باسم السترونتيوم (Strontium)، وقد استخلصه لأول مرة من معدن وُجِد في منطقة «سترونتيان» (Strontian) الواقعة في المرتفعات الأسكتلندية، ولهذا سُمِّي العنصر بهذا الاسم. تلقّى هوب تعليمه في جامعة إدنبرة، حيث درس الطب والعلوم الطبيعية، وتم تعيينه لاحقًا أستاذًا في الكيمياء في الجامعة ذاتها عام ١٧٩٥م، وظل في هذا المنصب حتى تقاعده في عام ١٨٤٣م. كما شغل أيضًا منصب «أستاذ الطب العملي» (Professor of Practical Medicine) لفترة، ما يدل على تداخله العميق بين الطب والكيمياء. من بين إسهاماته العلمية المميزة أيضًا ما يعرف بـ «تجربة هوب» (Hope's Experiment) التي برهن فيها على أن كثافة الماء تكون أعلى عند درجة حرارة ٤ درجات مئوية، وهو ما يُعَدّ اكتشافًا مهمًّا في فيزياء السوائل وله تطبيقات في علم المناخ والهيدرولوجيا.

أنشأ «منحة هوب الدراسية» (Hope Scholarship) تكريمًا لإسهاماته في التعليم الكيميائي، وهي منحة تُمنَح لأفضل الطلبة أداءً في مادة الكيمياء في الجامعة، وكانت تُعَدّ من أعلى درجات التكريم الأكاديمي في وقته. توفِّي الدكتور «توماس هوب» عام ١٨٤٤م، لكن إرثه العلمي والتعليمي لا يزال حاضرًا إلى اليوم، خصوصًا في تاريخ تعليم العلوم والجهود المبكرة لتقنين المناهج التجريبية في الكيمياء والفيزياء.

الكيمياء؟ لا يسعنا حيال هذه التصرفات إلا أن نقول كما قال أبو العلاء المعري — عليه رحمة الله —:

يَدٌ بِخَمسِ مِئينَ عَسجَدٍ[١] فُدِيَت .... ما بالُها قُطِعَت في رُبعِ دينارِ

تَناقُضٌ ما لنا إِلّا السُكوتُ لَهُ .... وَأَن نَعوذَ بِمَولانا مِنَ النارِ

كانت محاولةُ الدكتور «براون» لتسوية الأمر بهذه الطريقة كي لا تتفاقم المشكلات على تلكم الفتيات محاولةً جائرة منه وظالمة، رغم حسن نيته، ولم تؤدِّ إلا إلى مزيد من التعقيدات لاحقًا. فبما أنه قد قال إنّ النساء لسن عضوات في صف الكيمياء، كيف يمكنه إذًا أن يمنحهن شهادات تثبت حضورهن لهذه المادة، بل وتفوقهن فيها؟ وكان من الواضح أن هذا مستحيل، فاقترح منحهن شهادات تثبت أنهن حضرن «صفًا نسائيًا في الجامعة» — وهي شهادات لا قيمة لها البتة من وجهة نظر أكاديمية.

تقول صوفيا أنها كانت تعتقد أن صديقتها «إديث بيتشي» كان ربما تُمنع من الحصول على المنحة بشكل كامل، وأن يجار عليها وعلى حقها في بعض الأمور، لكنها تقول: «لم يخطر ببالنا أبدًا أن حتى مجرد اللقب بكونها — «حاصلة على منحة هوب» (Hope Scholar) — قد يُنتزع من الفائزة، ويُمنح للطالب الخامس على القائمة لمجرد كونه ذكرًا.» أي أنها كانت تعتقد أن المستحقات المالية لربما تُمنع، لكن حتى الألقاب والأسماء تنتزع منهن! فهذا ما لم يخطر ببالهن قط!

كما بدأت تظهر بوادر الكراهية والحنق ضد الفتيات، فتتذكر صوفيا: «أن بعض المعارضين، في تلك المناسبة، قد أغلقوا بوابات الكلية في وجه السيدات، لكن الأستاذ الشجاع سمح لهن بالدخول عبر نافذة في الطابق الأرضي من شارع الكلية.»[٢]

في حقيقة الأمر، لم تمضِ القصةُ كما خُيّل في البداية، لقد كانت نتيجة «إيديث بيتشي» نقطة تحوّل قلبت الأمورَ رأسًا على عقب، وليس ضدّ الفتيات كما يتصور القارئ للوهلة الأولى، بل قلبت الأمور لصالحهنّ، وبأثرٍ لم يكن في حسبان أحد. فلم تَكن «إيديث» بحاجة فعلية إلى المنحة التي خُصصت لاستخدام معامل الكلية بالمجان؛ إذ كانت الفتيات قد سبقن الأحداث، فاشترين ما يلزم من أدوات وتجهيزات لإجراء التجارب الكيميائية داخل بيتهن في ١٥

١- العسجد هو الذهب.

2- Jex-Blake, S. (1886). *Medical women: A thesis and a history*. Edinburgh: Oliphant, Anderson, & Ferrier; London: Hamilton, Adams, & Co. p82



١٥ بكلو بليس، المكان الذي أقامت فيه الفتيات أثناء فترة الدراسة

Buccleuch Place، (يُنطق الاسم بَكْلُو) الذي تحوّل إلى ما يشبه مختبرًا مصغّرًا، يعجّ بالنشاط في طلب العلم.

أما الدكتور «كرم براون»، الذي حاول أن يُسكن هذه الموجة ويهدّئ النفوس، فإذا به، من حيث أراد الإصلاح، أشعل نارًا امتدّ لهيبُها إلى ما هو أبعد من أسوار الجامعة. فقد انتشر خبر حرمان «إيديث» من المنحة في كبرى الصحف البريطانية، وتحوّلت المسألة من شأن أكاديمي

ضيّق إلى قضية رأي عام، يتحدّث فيها القريب والبعيد، ويُثار حولها الجدل في أوراق الدراسة كما في صفحات الجرائد. وإن بدا للقارئ في الظاهر أن «إيديث بيتشي» قد ظُلِمت في هذا القرار، فإن الحق أن ما نالته — هي ورفيقاتها — كان أعظم بكثير من منحة دراسية. لقد كسبن تعاطفًا واسعًا، لم يكن ليتحقق لولا هذه الحادثة. فقد التفّت حولهنّ القلوب، وعلت الأصوات الشعبية بنصرتهن، من داخل الجامعة وخارجها، من الأكاديميين والعامة على السواء.

فالهدوء الذي أراد الدكتور «براون» الحفاظ عليه انقلب إلى عاصفة حرّكت الرأي العام. والظلم الذي وقع على «إيديث» تحوّل، بقدرة العلي القدير، إلى معروفٍ عظيم لقضيتهن، فتح لهنّ بابًا من الدعم ما كان ليفتح لولا أن وُصد باب المنحة.

علا صوتُ الغضب في أرجاء البلاد، وارتفعت موجة السخط حتى بلغت أوجها، فقد شاركت كبريات الصحف في هذا الاستياء العارم، وكانت جريدة «ذا تايمز» (The Times) مِن أوائل مَن تناولوا القضية بجدية، بينما عبّرت «ذا سبيكتيتور» (The Spectator) — والتي كانت منذ البداية من أبرز المؤيدين لحق النساء في التعليم الطبي — عن غضبها الصريح من هذا الظلم، بل وانضمت إليهم حتى «المجلة الطبية البريطانية» (British Medical Journal)، التي نادرًا ما تدخل في جدالات خارج النطاق المهني، فعبّرت هي الأخرى عن امتعاضها الواضح من هذا التصرف المجحف. لكن ما يُضاعف من مرارة الموقف أن الرجل الذي تسبّب، عن غير قصد، في إشعال هذه العاصفة، وتحمّل تبعاتها الثقيلة، لم يكن خصمًا ولا مناهضًا لهؤلاء الطالبات، بل كان في عداد الداعمين والمناصرين لهن. لقد أحبّهن، واحترم جِدَّهن، ودرّس لهن مادة الكيمياء بإخلاص وإتقان، وأكرمهنّ كما يكرم الأستاذُ طلبته المميزين. كان من أصدقائهم، ولم يكن يومًا من خصومهم، لكنّ سعيه لإرضاء الأطراف كافة جاء بنتائج معاكسة، فانقلبت عليه الألسنة، وأصبح في مرمى النقد؛ لأن اجتهاده جاء في غير موضعه، وأدّى، وإن بحسن نية، إلى فعل جائر وظالم.

إنها من مفارقات حركات النضال هي أن يُصاب الصديق أحيانًا بأذى القضية التي يحبّ، ويُلام على ما لم يُرِد به سوءًا، لكننا هنا إذ نقرأ التاريخ، فلا بد أن ننظر إلى النوايا بعين العدل والإنصاف وإن أخطأ التقدير والفعل.

رُفعت القضية إلى مجلس شيوخ الجامعة (Senatus)، وقد بدا أن الأزمة لن تمرّ بصمت. وفي هذا المحفل الأكاديمي الرفيع، صوّت الأعضاء على أهلية الآنسة «إيديث بيتشي» للحصول على منحة «هوب»، فجاء القرار بأغلبية وبفارق صوت واحد فقط، ليُعلن أن المنحة غير مستحقة للطالبة، ويُحسم الأمر ضدّها. غير أن المجلس، في الجلسة نفسها، وباقتراح من البروفيسور «تايت» (P. G. Tait)، عاد فصوّت — وبالأغلبية ذاتها، وبفارق صوت واحد كذلك — على قرار

آخر، يقضي بأن تُمنح الطالبات شهادات الصف العادية، وليس تلك الشهادات التي لا قيمة لها التي كانت تُخصَّص للفصول النسائية.

كتب البروفيسور «ديفيد ماسون» يعلّق على هذا التطوّر قائلًا: «أتفق معكِ في أن الصوت الواحد ألغى أثرَ الآخر. وأظن أنَّ الناسَ بدأوا يدركون ذلك. كنت قد قررتُ عند التصويت الأول أنه يجب أن يترتب عليه التصويت الثاني، لكن لم يكن من دوري أن أُبقي على تماسك المجلس. وعندما أعلن «تايت» رأيه، أدركت تقلبات المشهد، فدعمت اقتراحه.»

ورغم هذا الانصاف الجزئي، لم تهدأ مشاعر الغضب، بل استمرت في التمدد والانتشار، فقد كان الناس — من العامة والخاصة — عاجزين عن فهم دقة التفاصيل بين أنواع الشهادات، لكنهم فهموا جيدًا معنى أن تُحرَم طالبة متفوقة من منحة تستحقها. ولمّا انتشر الخبر، أُغرقت الآنسة «بيتشي» برسائل التعاطف، إلى درجةٍ أربكتها، إذ لم يكن الضرر من وجهة نظرها بهذه الكارثية، لكنّ وعي الناس وإحساسهم بالعدالة المجروحة فاق توقّعات الجميع. أما المجلة الطبية البريطانية (British Medical Journal)، فقد قالتها صراحةً:

> أيًّا كانت آراؤنا بخصوص دراسة النساء للطب، فإنّ جامعة إدنبرة قد أعلنت رسميًا فتح أبوابها لهن على قدم المساواة. وبغياب أي تفسير عقلاني لقرار مجلس الشيوخ، لا يسعنا إلا أن نرى في هذا القرار ظلمًا ألحقته الجامعة بنفسها، أكثر من كونه ظلمًا لإحدى أبرز طالباتها المتفوقات.

راود البعضُ في خضمّ هذا الجدل المحتدم أن تُحال القضية إلى «محكمة الجامعة» (University Court)، علّهم يجدون فيها حكمًا يُنصف «إيديث بيتشي» ويُعيد الأمورَ إلى نصابها. لكن لحسن الحظ، تغلّبت الأصواتُ الرصينة، وسُحبت الفكرة من التداول. أما الآنسة «بيتشي»، فقد آثرت أن تنأى بنفسها قليلًا عن ضجيج المدينة وهموم الجدل، فعادت إلى منزلها الريفي، حيث وجدت في سكون الطبيعة عزاءً لطيفًا، وكانت تستمع هناك لتغريد العندليب، وفي تلك الخلوة البسيطة، كتبت إلى صوفيا تقول:

> شكرًا على رسالة الدكتور «ماسون». إنه رجل عظيم بالفعل. أرسل لي «ويلسون» محضر اجتماع مجلس الشيوخ بشأن المنحة. أظن أنه ينبغي عليّ أن أكتب له. تمنيت لو كنتِ هنا لتخبِريني بما ينبغي فعله. أعلم أنني أترك لكِ حرية التصرف كما ترينه صائبًا بخصوص المنحة. فقط تذكّري أن رأيي الشخصي — بعيدًا عن المشاعر — هو ألا نستأنف القرار، ولا أرغب في ذلك ما لم يكن أصدقاؤنا مقتنعين بوضوح بأننا يجب أن نفعل.

وقد أحسنت «إيديث» في وصفها، حين قالت: «إنه رجل عظيم.» فقد كان البروفيسور «ماسون» أحد أولئك القلائل الذين لا يقفون في منتصف الطريق، فقد تبنّى قضية النساء بكل قوة وشجاعة وصدق، وكان إيمانه بها إيمانًا حقيقيًا، ووقفَ إلى جانبهن في اللحظة التي فرّ فيها كثيرون، وكان صوتُه في مجلس الشيوخ امتدادًا لصوته الأخلاقي الذي لا يقدر بثمن.

وفي الاجتماع التالي لـ «المجلس العام للجامعة»، اتخذ البروفيسور «ماسون» خطوة جريئة طال انتظارها، فطرح اقتراحًا — دعمه فيه البروفيسور «بالفور» عميد كلية الطب — يدعو إلى إلغاء نظام التعليم المنفصل، والسماح للنساء بالالتحاق بالمحاضرات العادية جنبًا إلى جنب مع الطلاب الذكور، بِلا فَصْلٍ ولا تمييز، سوى ما تقتضيه الضرورة. وقد جاء نص مشروع القرار الذي تقدّم به كما يلي:

> نظرًا لأن الترتيبات الحالية لتعليم الطب للنساء في الجامعة تُلقي بأعباء كبيرة وغير ضرورية على الطالبات والأساتذة على السواء، وقد تؤدي، إن استمرّت، إلى إلغاء قرار الجامعة القاضي بقبول النساء لدراسة الطب، — وهو ما سيكون مُحرجًا لسمعة الجامعة إن ادعت أمرًا ولم تفعله — فإن المجلسُ العام يوصي محكمةَ الجامعة بأن تسمح للنساء الراغبات في دراسة الطب بالانضمام إلى الصفوف العادية مع الذكور، وفق نفس الشروط، إلا في الحالات التي ترى المحكمة سببًا خاصًا لتفريق التعليم.

قال الدكتور «ماسون» في تعقيبه: «قد يكون القرارُ طويلًا، لكني أردتُ أن يُطبع بشكله الكامل ليشرح نفسه، ويجذب انتباه أعضاء المجلس. وأنا الآن أكثر اقتناعًا بصواب تحريك المجلس العام بهذا الاتجاه، حتى وإن خسرنا، لأنني ألاحظ تراجعًا لدى بعض من وافقوا في السابق، ونوعًا من النشوة لدى المعارضين، وكأن تجربة هذا الفصل الدراسي أصبحت دليلًا على فشل القبول المختلط، وأن الجامعة ارتكبت خطأً فادحًا حين قبِلت بنات حواء من الأصل.»

وكان من الواضح أن القضية قد دخلت مرحلة «الصدام التام»، ولم يعُد فيها مجال للمهادنة أو المساحات الرمادية. فقد تقدّم المعارضون بحججٍ ظاهرها الحرص على النظام الأكاديمي، وباطنها الخوف من التغيير والتجديد، وأثاروا بذلك ردود أفعال غاضبة، لعلّ أبرزها ما صدر عن البروفيسور في الفلسفة الأخلاقية، الدكتور «كالدرود» (Calderwood)، الذي لم يُخفِ استياءه مما سمع، ورأى في تلك الطروحات انتكاسة فكرية وليس حوارًا علميًا. لم تعد المسألة مجرّد جدل حول مناهج التدريس أو تنظيم الصفوف، بل صارت مواجهة بين رؤيتين: إحداهما ترى في الجامعة حصنًا مغلقًا على الرجال، ولا يُفتح إلا بأمر الرجال ولا يدخله إلا الرجال، وأخرى تؤمن أن المعرفة لا جنس لها، وأن المرأة إذا وقفت على أعتاب العلم، فلا يليق بالجامعات أن تُغلق الأبوابَ في وجهها.

قال البروفيسور «لايكوك» (Laycock) في هذا الاجتماع، وحين سمع مناداة الدكتور «ماسون» بالسماح للنساء بالدراسة جنبًا إلى جنب مع زملائهن الذكور، قال: «إنّ بعض النساء الراغبات في التعلُّم الطبي قد يكنّ «ذوات ميول منحطّة»». قاصدًا بذلك أنهنّ ينوين أن يصبحن قابلات للإجهاض؛ «وإن لم تُجرَ تحرّيات دقيقة حول شخصيات المتقدّمات من النساء، فقد يكون الأساتذة يؤوون في صفوفهم «نساء منحرفات زانيات» (Magdalenes).

وتساءلت صحيفة (The Times) حين سمعت هذه اللغة الوضيعة من هذا البروفيسور متعجبةً من ازدواجيته الأخلاقية: «ولماذا لم يقلق الأستاذ «لايكوك» من شخصيات طلبته الذكور، فقد نُقل عن الأستاذ «كريستيسون» قولَه إنّ الذكور من الطلبة يتّسمون أحيانًا بسلوك «غير منضبط»، وإنّه لا يعتقد بأنّهم سيتحسّنون في وجود سيدات من أعمارهم. وبعبارة أخرى، يجب أن تكون أخلاق النساء الطالبات وسلوكياتهنّ لا تشوبها شائبة، أمّا الرجال فيُسمح لهم بأن يكونوا على ما يشاؤون من الدناءة.»

وقد علّقت الصحيفة قائلة: «إنّ أقوى حجة ضدّ قبول الشابات في صفوف الطب في إدنبرة، هي أنّهنّ سيحضرن محاضرات يُلقيها أساتذة يستطيعون التحدّث بهذا الأسلوب القذر الذي لا يليق بإنسان محترم فضلًا عن أن يكون أستاذًا لهن».

ورغم أنّ الصحيفة قلّلت من شأن مساهمة «كريستيسون» في النقاش، إلا أنّها أغفلت أهم ما جاء في خطابه. فقد جادل بأنّه من غير المنطقي إجراء تغييرات جذرية على تنظيم كلية الطب لمجرّد أنّ خمس طالبات أحرزن درجات جيدة في امتحانات الكيمياء وعلم وظائف الأعضاء خلال الفصل الأول. إذ لم تكن هناك أي مؤشرات تدلّ على رغبة أعداد كبيرة من النساء في دراسة الطب، ولا وجود لأي دليل على وجود طلب شعبي قوي على الطبيبات.

وقد دفعته تحرّياته إلى الاعتقاد بأنّ هذا الرغبة النسائية في لدراسة الطب غير موجودة أصلًا. كما أنّ الصفوف المختلطة لدراسة الطب كانت غير مقبولة، وأعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة لا يمكنهم تخصيص الوقت لإدارة دورتين منفصلتين، إحداهما للرجال وأخرى لمجموعة صغيرة من النساء. وختامًا، قدّم «كريستيسون» للنساء النصيحة غير المرغوبة التي كثيرًا ما تلقينها من خصومهنّ: «صِرْنَ قابلات، لا طبيبات!».

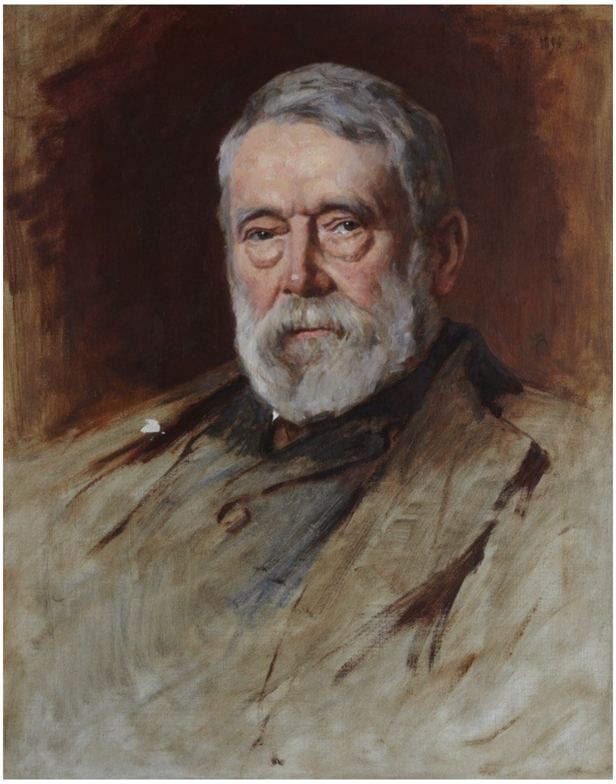
لكن رغم هذه الانتقادات القوية، لم يُكتب للاقتراح الذي تقدم به البروفيسور «ماسون» أن يمر. فقد خسر التصويت بفارق ٤٧ صوتًا مقابل ٥٨، وكانت الهزيمة موجعة، نتيجة ما كشفت من تصلّب الرأي وتحجّر المواقف.

كتب الدكتور «ماسون» في أعقاب الجلسة، برسالة تفيض صدقًا ومرارة: «ما من شيءٍ نستطيع فعله أو القيام به كان ليُغيّر نتيجة التصويت؛ لأن الحاضرين كانوا قد حسموا رأيهم

مسبقًا. لقد أبلَى «كرم براون» بلاءً حسنًا، ووجّه توبيخًا لائقًا لـ «سترذرز». صوّت معنا «نيكولسون» — الذي كان مخلصًا حين جاء الوقت — وكذلك الدكتور «كروفورد»، الذي أعلن تأييده لنا. لكن في صفنا، غاب كل من «ويلسون»، و«بنيت»، و«تشارترس»، و«تايت»، ما أضعف موقفنا بشدة.»

ثم أضاف، بنبرة الموجوع الحليم إلى صوفيا: «يحاول الناس الآن مواساتي — فقد كنت محبطًا بحق — بقولهم إن النتيجة، رغم الهزيمة، تُعدّ نصرًا من نوعٍ ما، وإنها فألٌ طيب لنصرٍ لاحق، حين يُطرح الأمر مجددًا، كما لا بد أن يحصل. كل هذا جميل، لكن كيف أعزّيكِ أنتِ؟ ماذا ستفعلين هذا العام؟»

وأردف في تأملٍ صادق لحال الواقع: «أكثر ما أزعجني في خطاب «كرم براون» جملته الافتتاحية، حيث قال إن الاقتراح سابق لأوانه — وكأن التجربة القائمة لم تُختبر بما فيه الكفاية! ثم عاد وقال إن الأسلوب الحالي غير قابل للتطبيق! لا بأس، لقد قدّم أداءً جيّدًا رغم ذلك.»


البروفيسور ديفيد ماسون

وختم رسالته بنداءٍ شخصي نابض بالمودّة والقلق: «وماذا عساني أقول، سوى أن قلبي معكِ في هذه الخيبة المؤقتة؟ الوقت — عام أو اثنان — كفيل بإصلاح الأمور عامةً، هنا وهناك، لكن السؤال الآن هو: كيف ستواصلين أنتِ هذا العام؟ الدكتور «كريستيسون» لا يزال يصرّ على الاستمرار بالطريقة الحالية المعادية لكِ، ويحاول التخلّص منكِ، ويظن أنه قادر على ذلك. وإن استطعتِ أنتِ إيجاد وسيلة لمجابهته، فذلك أمر متروك لمهارتكِ. وليتكِ تفعلين ذلك».

أصبح الرأي القائل إن نتيجة الاقتراح كانت «نصرًا بنوع ما» يتردّد على الألسنة، لكن ليس على سبيل المجاملة، بل كتقدير موضوعي لما كُشف من تحوّل تدريجي في الرأي العام داخل أروقة الجامعة وخارجها. ومع أن الاقتراح الذي قدّمه البروفيسور «ماسون» رُفض، فإن النقاش لم يُغلق، بل اتسعت دائرته لتشمل الصحف على اختلاف توجهاتها، من الدينية إلى الطبية إلى الصحافة العامة التي تلتقط نبضَ الناس وهمومهم. وقد برزت صحيفة «الجارديان» (The Guardian) بموقف عقلاني متّزن، حيث كتبت:

> لا يوجد ما يمنع من تقديم القدر الأكبر من التعليم للنساء والرجال معًا، باستثناء بعض الدروس العملية في المنهاج الطبي التي يصعُب فيها الجمع بين الجنسين، وهي حالات يمكن دومًا إيجاد ترتيبات خاصة لها. أما تخصيص محاضرات منفصلة في عدد محدود من المناسبات، فلا يُمكن اعتباره نظامًا مزدوجًا كاملًا يشمل جميع الأقسام والمواد؛ إذ إن مثل هذا النظام لا يضيف سوى مزيد من التكاليف والتعقيد بلا مبرر. وعلى الرغم من رفض اقتراح البروفيسور «ماسون»، فقد كان سقوطه بفارق ضئيل — أحد عشر صوتًا فقط من أصل ١٠٥ — مما يدل على أن نجاحه في المستقبل أمرٌ شبه مؤكد. فلنترك الفتيات يبرهنّ على ما يشهد به لهنّ العالم من صبر ومثابرة، وستنال النساء لا محالة ما ينشدن.

كان هذا الخطاب يُمهّد لما يمكن اعتباره تحولًا بطيئًا في الرؤية المجتمعية والتعليمية، إذ لم تعد المطالبة بحق التعليم تُواجه بالرفض المطلق كما في السابق، بل باتت تُناقَش بَندًا بَندًا، وتُوزَن بحجج عقلانية. ولئن فشل الاقتراح في المرور، فإن أثره لم يكن فاشلًا، بل كان خطوة أُضيفت إلى رصيد طويل من المحاولات، وكلّها تُقرّب النساءَ أكثر فأكثر من لحظة الانتصار.

كما أبدت صحيفة «ذا سبيكتاتور» (The Spectator)، التي كانت من أوائل المؤيدين لانفتاح الجامعة أمام الطالبات، موقفًا متأرجحًا كشف عن التوتر العميق الذي كانت تثيره القضية في المجتمع البريطاني آنذاك. ففي تعليقٍ صريح، قالت الصحيفة:

> ربما تستحق الطالبات هذا الرفض — لأنهن قدّمن تنازلات لأخلاقيات العفة الإنجليزية، تنازلات لم تطلبها فرنسا أو النمسا أو الولايات المتحدة. لكن الأساس الوحيد الآمن الذي يمكن للنساء الوقوف عليه هو: أن العلم لا يعرف جنسًا، ولا يمكن أن يكون فاضحًا ما لم يُقصَد به الخبث. وبمقتضى شروط المهنة ذاتها، يجب أن يُستبدل جهل الحياء بإحياء النية الخالصة.

كلمات تمتلئ بالتناقضات الفجة، فالصحيفة كانت تحاول أن توازن بين تقاليد مجتمعها المحافظ، وبين قناعتها بأن للمرأة الحق في طلب العلم، لا سيما في ميدانٍ كالمجال الطبي.

غير أن الحقيقة التي ينبغي أن تُقال أن الدعم الصحفي لم يكن إجماعًا شاملاً، ولا صوتًا موحدًا، بل كان ساحة تضجّ بالآراء المتعارضة. فقد عادت «ذا سبيكتاتور» نفسها، بعد ستة أو سبعة أشهر، لتكتب بتعجّب ظاهر: «نحن نحاول أن نفهم الآن المرارة — وربما الحقد غير المسبوق — الذي تواجهه النساء الطامحات إلى أن يصبحن طبيبات، من قِبل رجال الأدب والإعلام.» وكانت هذه النبرة محاولة متأخرة لفهم حجم العدائية التي جوبهت بها الطالبات، وربما لتخفيف حدّة المواقف السابقة، بعد أن بدأت ملامح الإنصاف تتبلور في أذهان الرأي العام.

غير أن التوقف عند هذا التقلّب الصحفي لا ينبغي أن يشغلنا كثيرًا؛ إذ إن المقاومة لهؤلاء الفتيات كانت أمرًا متوقَّعًا، بل وحتميًا، كما قال بعد أعوام «السير جيمس ستانسفيلد» (Sir James Stansfeld)، في قولٍ بليغ أوجز المشهد كله: «إن من دروس التقدم البشري أن الإصلاح، حين يأتي أوانه، لا يمكن منعه أو إيقافه. وإن حاولتَ مقاومَته، فإنك قد تساهم في تعجيله أو توسيع مداه. وحتى المعارضون، عندما يحين وقت التغيير، لا يجرّون عجلات التقدم إلى الخلف، بل هم في واقع الأمر يشاركون في دفعها إلى الأمام. إن أشد أنواع المعارضة، وإن بدا أنها تعمل في الاتجاه المضاد، فإنها تكون غالبًا أكثر نفعًا وفائدةً من ضررها الظاهر.»

هذه الكلمات تصلح أن تُعلّق على جدران التاريخ بمداد من ذهب، وكانت صوفيا ورفيقاتها، من حيث يدرين أو لا يدرين، جزءًا من تلك العربة التي لن تتوقف.

ومن المبشّرات في هذا الطريق الشائك، أن بعض الأصوات المعتدلة والعاقلة كانت حاضرةً منذ البدايات، لا سيما في الصحف التي عُرفت باتزانها ومسؤوليتها في الطرح. بل وحتى المجلات الساخرة لم تكن بعيدة عن نُصرة الحق، كما فعلت مجلة «بانش» (Punch)، التي وإن عُرفت بأسلوبها اللاذع، فقد أبدت تعاطفًا مبكرًا، وصوّرت الموقف بما يحمل روح الإنصاف وسط ضجيج السخرية.

وفي ذلك الجو الملبّد بالغموض والخيبة، كتبت الآنسة «إيديث بيتشي» من ريفها البعيد، برسالة فيها الكثير من خفة الروح، فقالت: «أنا منزعجة جدًا من نتيجة اجتماع المجلس العام، لكن لا فائدة من القلق — هكذا قالت لي طائر العندليب! لقد غنّت لي ساعتين خارج نافذة غرفتي الليلة الماضية، وقالت أشياء جميلة جدًا! كم أتمنى لو أحضرتها معي إلى إدنبرة، لكنها لن تحب ذلك، فهي من عائلة عريقة، عاشت في هذه البقعة منذ عهد البريطانيين القدماء، ولن تحبّ مغادرتها.»

ثم تضيف في لمسة عائلية: «بابا لم يكتب إلى صحيفة (The Scotsman)، وكنت أعلم أنه لن يفعل ما لم يُملَ عليه ما يكتب! أعتقد أنه، إن قيلت الحقيقة، لا يزال في نفسه بعض التحامل ضد فكرة الصفوف المختلطة. إنه ليس رجلًا علميًّا، لا يلاحظ الفراشات والخنافس أثناء النزهة، إلا إذا أشرتُ لها، ومع ذلك هناك فراشات جميلة الآن: الطاووس، والبرقوقي، وقواقع البحر ذات الألوان البديعة.»

رسالة تكشف أن قلب «إيديث» — رغم العاصفة — ما زال مفتوحًا لجمال الحياة، يتأمل الفراشات وقواقع البحر، ويصغي لعصافير الحقول.

يمكننا أن نقول إنّ هذا الفصل المخصوص بمنحة «هوب» قد آل في خاتمته إلى صالح الفتيات، بما يفوق ما كان يُرتجى عند هذا بدء الأمر. فهؤلاء النسوة — وإن حُرمن نيل المنحة

— فإنّ ما كُتب لهن من مؤازرةٍ في الصحف، وما ناله شأنُهنّ من تضامنٍ في الرأي العام، وما جرى من محاولاتٍ جادةٍ لفرض وجودهن وإثبات تفوقهن، لأمرٌ لا يُقدَّر بثمن.

بل لقد أخذت ألسنةُ النّاس تهمس وتصرّح داخل مجلس الجامعة بوجوب إزالة هذا الحاجز المصطنع بين الذكور والإناث، ليجلسن جنبًا إلى جنب، في مدارج واحدة، ومقاعد لا تعرف التفرقة بين رجال ونساء. وإن لم يُفعّل القرار رسميًّا بعد، إلا أن آثاره كانت غائرة وعميقة. فقد بدرت عن بعض الأساتذة — سامحهم الله — إساءاتٌ أخلاقية شنيعة، وجُرآت لفظيّة لا تليق بمقام العلم ولا برجال التربية، مما أثار السخط والغضب، ورفع من وتيرة التأييد لتلكم الفتيات المظلومات.

أما التصويت، فقد كان كما قيل، «نصرًا من نوعٍ ما»، وإن لم يكن حاسمًا، إلا أنه أزاح شيئًا من الغشاوة، وأشعل نور الأمل لإحداث تغيير في المستقبل.

******

الدكتور «روبرت كريستسون»

ولا يفوتنا أن نُعيد إلى الذهن كلمة ذلك الرجل النبيل، الدكتور «ماسون»، الذي لم يدّخر وُسعًا في نصرة هؤلاء الفتيات، وكان لهن سندًا قويًّا، وقال: إنّ الدكتور «كريستسون» هو العدو الأول لهن، والمقاتل الأشدّ ضراوة ضد وجودهن في الجامعة.

وأقول: إنّ الدكتور «ماسون» كان صادقًا كل الصدق فيما نطق به، وهو ما كشفته الفصول السابقة من هذا الكتاب، وستجلوه الفصول اللاحقة بأوضح بيان. لكنّ من حق القارئ الفاضل أن يتساءل، في شيء من الحيرة: ما الذي حمل «كريستسون» على هذا العداء المستميت ضدهن؟ ولماذا وقف هذه الوقفة المتصلّبة في وجه الفتيات؟ ولكي نُجيب عن هذا السؤال الجوهري، لا بدّ أن نعرج على منزلته ومكانته، ونقف عند الأسباب التي دفعته إلى اتخاذ موقفٍ مخزٍ كهذا، لا يمكن أن يغفره له التاريخ.

فعند الحديث عن الخصوم، يبرز اسم البروفيسور «روبرت كريستيسون» كواحد من أكثر الشخصيات تأثيرًا وإثارةً للجدل في الساحة الطبية الأسكتلندية؛ إذ يُجمِع معظم الشهود على أن «كريستيسون» كان الخصم الأبرز في معركة فتيات إدنبرة السبع. وقد وصف «جيمس ستانسفيلد» (James Stansfeld)، أحد هؤلاء الشهود، هذا الصراعَ بقوله:

> إن القوى الرئيسية التي اصطدمت في هذه المعركة، كما أراها، كانت بين جامعة إدنبرة بقيادة «السير روبرت كريستيسون»، وبين النساء الساعيات لنيل حقوقهن، بقيادة «الدكتورة صوفيا جيكس-بليك».

بل لسنا بحاجة إلى ذكر كلام «جيمس ستانسفيلد» ولدينا كلام صوفيا نفسها، إذ كتبت تقول:

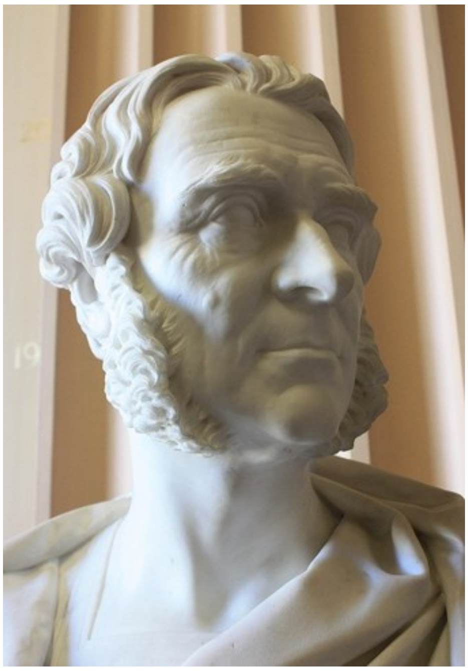
> أعتقد أنني لا أستطيع أن أروي القصةَ بصورةٍ كاملةٍ دون أن أوضح منذ البداية أن المعارضة الكاملة لتعليم النساء للطب في إدنبرة كانت، في رأيي على الأقل، مدفوعةً بشخص واحد وأتباعه المقربين. ولا حاجة بي أن أقول إن ذلك الرجل كان «السير روبرت كريستيسون»، الذي منحته شيخوختُه الكبيرة ومدةُ خدمته المديدة وزنًا استثنائيًا في الجامعة وبين أطباء إدنبرة.

فبفضل امتيازات هذا الرجل، كان خصمًا مرهوب الجانب بالنسبة لصوفيا، يُجسد في نظرها صورة العدو العنيد بكل تفاصيلها. تمتع بشخصية قاتمة تقترب في بعض جوانبها من صورة «الشرير» التقليدية، حيث اجتمع فيه شغف عميق بدراسة السموم والتشريح مع ازدراء صارخ للنساء، حتى إنه لم يتوانَ عن وصفهن بـ «ناقصات العقل». وأظنه لو كان عربيًا مسلمًا لقال: و«الدين».[١]

١- تناولتُ هذا الحديث في مقالٍ كتبته بعنوان «كاملات عقل ودين»، أُفنّد فيه الحديث المكذوب الذي نُسب إلى رسول الله ﷺ زورًا وبهتانًا، ولمّا قرأته الأستاذة الفاضلة «أسماء عثمان الشرقاوي»، استأذنتني أن تجعل من عنوان مقالي اسمًا لكتابها، فوافقتُها شاكرًا ومقدّرًا. https://sci-academy.net/3502

لكنّ ما إن نزل الكتاب إلى الأسواق تحت هذا العنوان الجريء — «كاملات عقل ودين» — حتى ثارت ثائرةُ الناس في مصر، كأنّهم أبوا إلا أن تبقى المرأة ناقصةً في كل شيء، عقلًا ودينًا. وقد كان من أثر هذا الرفض المجتمعي أن اضطُرّت دار النشر إلى سحب الكتاب من معرض القاهرة الدولي للكتاب في دورته السادسة والخمسين، خضوعًا لضغط الشارع، ونزولًا على رأي العامة.

كان مظهره الخارجي ينطق بهيبةٍ وقوةٍ لا تخطئها عينُ أي ناظر؛ فقد تميّز بملامح حادة، وحاجبين كثيفين يزيدان وجهه صلابة، وسوالف بارزة تُضفي على هيئته حضورًا طاغيًا، بينما كان شعره الغزير يُحيط به كأنه هالة من القوة. في صُوَرِه، غالبًا ما ارتسمت على ملامحه تجاعيد مُتَجَهِّمَة، مما أضفى عليه طابعًا من الرهبة والغموض.


روبرت كريستسون

وُلد السير «روبرت كريستيسون»، عام ١٧٩٧، ليصبح واحدًا من أبرز الأطباء وعلماء السموم الأسكتلنديين. تركّزت أبحاثُه الرائدة على كشف السموم الخطيرة، مثل الشوكران والأفيون والرصاص والزرنيخ. كما خاض تجارب دقيقة على حبة «كالابار» القادمة من غرب إفريقيا، التي تحتوي على مركب «الإيسيرين»، وهو المركب الذي لا يزال يُعدّ حتى اليوم من أكثر المركبات أهميةً في علم الأدوية الحديث.

حظي السير «روبرت كريستيسون» بتقدير واسع في الأوساط الطبية، حيث تقلّد مناصب مرموقة، من أبرزها رئاسة الجمعية الطبية البريطانية والكلية الملكية للأطباء في إدنبرة. وخلال فترة الصراع مع فتيات إدنبرة السبع، كان يقيم في حي البلدة الجديدة الراقي بالعاصمة الأسكتلندية. لقد كان أسلوب حياته الراقي انعكاسًا جليًا لمكانته العلمية والاجتماعية الرفيعة وشخصيته البارزة.

عاش «روبرت كريستيسون» حياةً تقليديةً في مدينة إدنبرة، حيث بدأ مسيرته التعليمية في المدرسة الملكية الثانوية، ثم واصل دراسته في الطب بجامعة إدنبرة. وخلال سنوات دراسته، قدّم أطروحةً علميةً تناولت موضوع الحمى، وذلك أثناء عمله مساعدًا طبيًا مقيمًا في المستشفى الملكي. وبعد أن أتمّ رحلاته التدريبية إلى كلٍّ من لندن وباريس، عاد إلى إدنبرة عام ١٨٢٢ ليتقلد منصب أستاذ الطب الشرعي، المجال الذي برع فيه بامتياز. كانت خبرته في تحديد أسباب الوفاة مضرب المثل، مما أهّله ليكون شاهدًا خبيرًا في قضايا بارزة وشهيرة، لعلّ أبرزها القضية المرعبة لخاطفي الجثث «ويليام بورك» (Burke) و«ويليام هير» (Hare) والذي سنتحدث عنهما بعد قليل؛ إذ من المستحيل أن نتحدث عن كلية الطب في جامعة إدنبرة ولا نذكر هذه الحادثة.

لطالما انجذب «كريستيسون» إلى الجوانب المظلمة من عالم الطب، حيث وضع تعليمات دقيقة لفحص الجثث لأغراض قانونية، لتُصبح لاحقًا المعيار المُعتمد للإجراءات الطبية في عصره. وبفضل طموحه الكبير، ارتقى سريعًا ليشغل منصب الطبيب الرسمي في المستشفى

الملكي بحلول عام ١٨٢٧. وفي عام ١٨٢٩، نال تعييناً رفيعًا كمسؤول طبي للتاج الملكي في اسكتلندا. تلك الرحلة المهنية البارزة والمليئة بالإنجازات كانت الخلفية التي جعلت منه الخصم الأشد شراسة والأكثر تحديًا لصوفيا وزميلاتها.

شغل «كريستيسون» منصب رئيس قسم الطب والعلاج حتى عام ١٨٧٧، وامتدت خبراته لتشمل أمراض الكلى والحمى، مما عزز مكانته الرفيعة وسمعته المرموقة التي أهلته لنيل العديد من التكريمات. ففي عام ١٨٤٨، عُيّن طبيبًا خاصًا للملكة «فيكتوريا»، وحصل على لقب البارون الأول عام ١٨٧١، وهو العام ذاته الذي شهد المواجهة الكبرى بين صوفيا وتلميذه «إدوارد كونينجهام كريج»، في محاكمة أثارت الكثير من الجدل، وسوف نذكر تفاصيلها كاملةً في الفصول القادمة.

أثار «كريستيسون» جدلًا آخر باقتراحه استبدال الإعدام شنقًا بحقنة قاتلة، وهي فكرة لم تلقَ قبولًا واسعًا في بريطانيا العظمى.

لقد كان البروفيسور «كريستيسون»، كما أشرنا سابقًا، من أشد المعارضين لمنح الطالبة «إديث بيتشي» منحة «هوب» الدراسية، رغم جدارتها التي لا مراء فيها، واستحقاقها الذي لم يكن محلّ شكّ. ولم يُخفِ موقفَه هذا، بل عبّر عنه جهارًا في مجلس الجامعة، رافضًا أن تُمنح هذا التقدير الرفيع. ولم يكن اسمه غائبًا عن أي طورٍ من أطوار هذا النزاع؛ إذ ظلّ حاضرًا بوصفه رمزًا للممانعة الشرسة. فقد كان يرى أنّ النساء يفتقرن إلى الكفاءة العلمية، والقدرة الجسدية على تحمّل أعباء الدراسة الطبية ومتطلباتها الصارمة، وكان يعتقد أن انخراطهن في هذا المجال سيُفضي، لا محالة، إلى انحدار المعايير المهنية، وتراجع هيبة الطب ومكانته.

لكن، ومع هذه السيرة الذاتية الحافلة، وهذا المقام العلمي الرفيع، لنا الحق أن نطرح سؤالًا مشروعًا: كيف لشخصٍ بهذه المنزلة أن يكون من أشدّ خصوم التحاق النساء بالجامعة؟

أقول: إنَّ بين رفعة المنزلة الأكاديمية من جهة، ورجاحة العقل، وسَموّ السلوك الأخلاقي، من جهة أخرى، بَوْنًا شاسعًا، وهوّةً كبيرة، فكم من أناسٍ بلغوا الثريا في التحصيل العلمي، وارتقوا إلى أعالي المراتب العلمية والعقلية، وتسيّدوا مجالس المعرفة، غير أنّ مواقفهم في ميادين العدالة والإنصاف والحقوق، وسلوكهم في ميادين الأخلاق، لم تبلغ مبلغًا محمودًا، بل انحدرت أحيانًا إلى دركاتٍ يَشِينُها الجهل، وتَفْتَقِدُ كلَّ ملامح الرشد، حتى لَيُخَيَّل إلى الناظرِ في أحوالِهم أنّهم لم يشموا من العلم رائحته، ولم يَنهلوا من الحكمة شربة ماء.

ولعل القول المنسوب للعالم الأمريكي «ريتشارد فاينمان» — إذ لم أجده في أي مصدر رسمي له أو كتاب أو مقابلة له — يعتبر خير شاهد على ما نقول، فقد نُسب إليه قوله: «لا تُخْطِئ فتخلِط بين التعليم والذكاء، يمكنك أن تَحصُل على دكتوراه وما زلتَ أحمقًا.»

وفي هذا السياق، يحسن أن نذكر مثالًا من تراثنا العلمي، يُجسّد هذا المفارقة الصارخة: الإمام «فخر الدين الرازي» — عليه رضوان الله ورحماته — الذي يُعَدُّ من أعظم العقول الموسوعية في تاريخ الحضارة الإسلامية. فقد كان إمامًا في التفسير، رائدًا في علم الكلام، متبحرًا في أصول الفقه، مُتقنًا للمنطق، وموسوعيًا لا تكاد تجد له مثيلًا في تاريخنا الإسلامي كله. ولعلّه لم يكن ثمة علم من علوم عصره إلا وأخذ فيه نصيبًا وافرًا يفوق نظراءه. ومع ذلك، نجد في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ رأيًا يُثير العجب، ويُثير أيضًا التساؤل حول موقع المرأة في تصوّرات بعض كبار العلماء، مهما علا شأنهم العلمي:

> قوله: ﴿خَلَقَ لَكُمْ﴾ دليلٌ على أن النساءَ خلقن كخلق الدواب والنبات وغير ذلك من المنافع، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرضِ﴾ وهذا يقتضي ألا تكون مخلوقةً للعبادة والتكليف، فنقول خلق النساء من النعم علينا، وخلقهن لنا، وتكليفهن لإتمام النعمة علينا لا لتوجيه التكليف نحوهن.[١]

ولم يكن «كريستيسون» بدعًا في مواقفه المتحيّزة، بل كان عبدًا وأسيرًا للثقافة الغربية آنذاك، حيث ساد الاعتقاد بتفوق الرجل فكرًا وعقلًا، وانحُطاط المرأة إلى مراتب أدنى منه. فها هو «تشارلز داروين» (Charles Darwin)، أحد أعمدة الفكر العلمي في العصر الحديث، ومُنشئ نظرية التطور، يُسجّل في كتابه الشهير «The Descent of Man» («نزول الإنسان») رأيًا لا يكاد ينفصل عن هذا النسق العقلي المنحاز. إذ كتب يقول إنّ المرأة تمثّل «مرحلة أدنى» من حيث التطور العقلي، مُعلّلًا ذلك بأن الرجال — بما واجهوه من صراعٍ دائم في الحياة، وتنافسٍ من أجل البقاء — قد تطوّرت عقولهم بما يفوق نساءً بقيت أدوارهن البيولوجية «محدودة»، على حدّ تعبيره.[٢]

وليس «داروين» إلا حلقة في سلسلةٍ طويلة من المفكّرين والعلماء الذين امتلكوا مفاتيح العِلم، لكنهم عجزوا عن فتح أبواب العدالة. خذ مثالًا آخر وهو «جيمس واتسون» (James Watson)، أحد مكتشفي البنية الحلزونية المزدوجة للحمض النووي (DNA)، بالشراكة مع «فرانسيس كريك» (Francis Crick)، والحائز على جائزة نوبل في الطب عام ١٩٦٢، يَسقط في شَرَك التحيّز الجندري، حين قال في مناسبة علنيّة بأنّ النساء لا يصلحن لأن يكنّ عالِمات مثل

١– الرازي، فخر الدين، **التفسير الكبير**، (عمان: دار الفكر، ١٩٨١) الجزء ٢٥، ص ١١١

2- Darwin, C. (1889). *The descent of man, and selection in relation to sex* (Rev. & augmented ed., p. 564). D. Appleton and Company.

الرجال، زاعمًا أن عقولهن «غير مصمَّمة للتفكير العميق»، وكأنّ الذكاء حكرٌ على البُنية البيولوجية للرجل دون غيره.[١]

أما «آرثر شوبنهاور» (Arthur Schopenhauer)، ذلك الفيلسوف الألماني الكبير، الذي أثّر تأثيرًا عميقًا في مجرى الفلسفة الأوروبية الحديثة من خلال مؤلفه الأشهر «العالم كإرادة وتمثّل» (The World as Will and Representation)، فقد عبّر عن عداءٍ صارخٍ تجاه النساء، لا تخطئه عين، ولا تخفيه ألفاظ. في مقالته المعنونة بــ «عن النساء» (On Women)، كتب واصفًا المرأة بأنها «طفل كبير»، لا تملك القدرة العقلية ولا الأخلاقية التي تؤهلها للحكم أو المشاركة في الحياة الفكرية. بل مضى إلى أبعد من ذلك حين قال: «خُلِقت المرأة من أجل تربية الأطفال وخدمة الرجل، وليس لشيءٍ آخر.»[٢]

هكذا تحدّثت ألسنة العلم والفلسفة — بكل ما أوتيت من مقام ومكانة — فإذا بها تُعيد إنتاج صورة المرأة المُهمَّشة، على أساس ثقافةٍ بائسة، وانحيازٍ فج، قد يلبس ثوب المنهج العلمي حينًا، أو يتوارى خلف زخرف القول الفلسفي حينًا آخر.

ومن أطرف ما يُروى في هذا الباب ما قاله الفيلسوف الإنجليزي «هِربرت سبنسر» (Herbert Spencer)، أحد أبرز منظّري «الداروينية الاجتماعية»، وهو نفسه من صاغ العبارة الشهيرة «البقاء للأصلح» (Survival of the Fittest). فقد زعم، بكل ثقة تنوء بجهل، أن المرأة تطوّريًا أقل قدرة من الرجل على التفكير المجرد والعلمي، واعتبر أن خوضها غمار التعليم العالي أو دخولها الميادين العلمية من شأنه أن يُضعف قدرتها البيولوجية على الإنجاب. ولم يتردّد في القول بأن «التعليم العالي يُضعف جسد المرأة، ويضرّ بوظيفتها التناسلية».[٣]

وإذا بدا هذا القول غريبًا، فإنّ ما هو أغرب منه، وأشدّ إثارة للسخرية، ما نطقت به بعض الألسنة في زماننا المعاصر، ممن تزيَّوا بلباس الشريعة وهي منهم براء. فقد قال أحد الدعاة السلفيين، وهو «صالح بن سعد اللحيدان» — إبّانَ ما كانت قيادة المرأة للسيارة تُعدّ حرامًا، قبل أن تنقلب حلالًا بقرار ولي الأمر — ما نصه: «إذا قادت المرأة السيارة لغير الضرورة... قد يؤثر ذلك عكسيًا على الناحية الفسيولوجية، فإن علم الطب الوظيفي الفسيولوجي قد درس هذه الناحية، بأنه يؤثر تلقائيًا على المبايض، ويؤثر على دفع الحوض لأعلى... لذلك نجد غالب اللاتي يقدن السيارات بشكل مستمر، يأتي أطفالهن مصابين بنوع من الخلل الإكلينيكي المتفاوت لدرجات عدة».[٤]

1- https://www.independent.co.uk/news/science/james-watson-racism-sexism-dna-race-intelligence-genetics-double-helix-a8725556.html
2- https://www.gutenberg.org/files/10732/10732-h/10732-h.htm#ON_WOMEN
3- https://www.britannica.com/topic/education/The-educational-awakening
4 -https://www.bbc.com/arabic/middleeast/2013/09/130929_saudi_cleric_women_driving

ومن أعجب المواقف وأشدّها سخرية في مشهد التحيّز ضد المرأة، ذلك الانقلابُ الدراماتيكي في فتاوى بعض مشايخ السلفية، الذين ملأوا الدنيا وعظًا وتحريمًا لسنوات طوال، يؤكدون ويصرخون بأن قيادة المرأة للسيارة فتنةٌ تهدم الدين، ومفسدةٌ تُهلك المجتمع، وبابٌ من أبواب الفجور والانحراف.

ثمّ، وفي لحظةٍ واحدة، تغيّر كل شيء، وليس لأن دليلًا شرعيًّا جديدًا ظهر، ولا لأن مبايض المرأة أصبحت فجأة أكثر تحمّلًا للاهتزازات الميكانيكية، بل فقط لأن مرسومًا ملكيًّا صدر من سمو ولي العهد. فتحول ما كان منكرًا إلى معروف، وما كان رجسًا من عمل الشيطان إلى خطوة إصلاحية حكيمة، وصار ما حرّموه بالأمس «مصلحة شرعية»، و«ضرورة وطنية»، و«تمكينًا للمرأة». ولم يجد أولئك المشايخ حرجًا في أن يناقضوا أقوالهم، ويخالفوا دينهم، بلا خجل ولا حياء ولا ذرة من دين أو عقل أو مروءة.

فلنَعُد الآن إلى الدكتور «كريستيسون» في موقفه المتشدد وعدائه لحركة النساء وسعيهن للدخول إلى قاعات الدراسة في كلية الطب. ولنحاول أن نفهم هذا العداء؛ إذ من المألوف والمتوقع، حين يُواجَه الطبيب الجديد بالرفض، أن ينبعث هذا الرفض من أولئك الذين يخشون على أرزاقهم، أو يخافون على مكانتهم من المنافسة، خصوصًا من الأطباء الفقراء أو متوسطِي الحال، الذين يرون في كل وجه جديد خطرًا على ما تبقى لهم من امتياز، ومزاحمةً على منصب أو لقمة عيش أو لقب. فالحسد عند هؤلاء مفهوم، والغيرة مفهومة، بل هي، إن شئتَ الدقة، متوقَّعة.

لكن الغريب أن الدكتور «كريستيسون» لم يكن في حاجةٍ إلى دفاعٍ عن مكانة أو جاه أو مال. فهو في زمانه لم يكن يُضاهَى في علمه ولا في منزلته ولا في ثروته ولا فيما حازه من مجدٍ أكاديمي وطبي. فلماذا إذن هذا التشدد؟ لماذا هذا العناد في منع الطالبات، وعلى رأسهن صوفيا وصديقتها «إديث بيتشي»، من حقٍ يكاد يكون بديهيًّا؟ ما الذي يدفع رجلًا بلغ القمة إلى مُنازَلة مَن لم تصعد السُّلَّمَ بعدُ؟

لعل الجواب يكمن في تلك «القمة» نفسها. فـ «كريستيسون»، وقد جاوز السبعين من عمره حينها، كان قد أمضى عمرًا طويلًا في ممارسة الطب وتدريسه، حتى صار، في نظر نفسه وفي أعين الكثيرين، تجسيدًا حيًّا لمهنة الطب في بريطانيا. ولما امتلك المهنة بعمره ومكانته، ظنّ نفسه وصيًّا عليها، وكأنها إرثٌ خاص له، لا يدخل إليه إلا من رضيه هو، ولا يُستدرج إلى تلك المهنة من لم يستوفِ شروطه المضمرة في رأسه، والتي كانت تشمل جنس المتقدم، وطبقته الاجتماعية. لقد آمن «كريستيسون» آنذاك، كما آمن كثيرون من أبناء طبقته، أن الطب ليس مجرّد مهنة، بل طبقة اجتماعية محروسة ومصانة، وأن المرأة، بضعفها وقصورها العقلي كما كانوا يزعمون، ستمثّل تهديدًا لهذه «الطبقة»، وستجعل من المهنة الحصينة ميدانًا مشتركًا، وربما في نظره: مبتذَلًا. فمكانته الرفيعة لم تكن مانعةً له من التحيّز والظلم، بل كانت —— على العكس من

ذلك — دافعةً له؛ إذ من امتلك المهنة زمنًا طويلًا، ظنّها حقًّا شخصيًّا، واعتقد أنه يملك صلاحية أن يُحدد من يستحق شرف الانضمام، ومن لا يستحق. وهكذا، اجتمع في داخله شعور الوصاية المهنية، مع إرث ثقافي يرى في المرأة كائنًا ناقص الأهلية، لا يصلح إلا لما خُلق له من رعاية البيت والأطفال والخضوع التام للرجل. وقد عبّر «كريستيسون» عن هذه القناعة غير مرة، ولعل هذا النص الذي كتبه يعبر عن رؤيته للمرأة:

> سمعتُ مؤخرًا قصةً غريبة عن مستشفى للولادة، يبدو أنّه في حالة يُرثى لها من حيث الرعاية الطبية، والطعام الجيد، والأسِرّة، والنظافة. القذارة كانت مفرطة بشكل خاص، ولا أمل في تحسين الوضع. وفي محاولة جادّة للإصلاح، تمّ تشكيل لجنة من السيدات للإشراف على قسم التنظيف. عقدن العديد من الاجتماعات، واختلفن كثيرًا بشأن الوسائل، وفشلن تمامًا في كل ما جرّبن، وناقشن المسألة بجدّية، وتقاتلن بالكلام مرارًا، دون التوصّل إلى أي قرار، ثم استسلمن في النهاية يأسًا من تنظيف المرضى؛ فقالت إحداهنّ في نهاية النقاش، في لحظة تعزية: «على أي حال، ما أهمية كونهم نظيفين أم لا، إذا كانوا سيموتون ويذهبون إلى الجنّة!».[١]

كان من المتوقع أن يتبنى «كريستيسون» هذا التصوّر المشوَّه عن النساء لأنّه عاش في عالم ذكوري مغلق. فقد عاش أرملًا لمدّة عشرين سنة؛ وله ثلاثة أبناء ذكور، ولكن لا بنات له، ولا أخوات. وكان يعمل مع الرجال، ويقضي وقت فراغه في تسلّق الجبال وقيادة فرقة «بنادق الجامعة» (University Rifles)، وهي فرقة عسكرية جامعية. وهذا جعله في صحبة الرجال دومًا. كما شهد مهنةَ الطب وجامعةَ إدنبرة يهيمن عليهما الرجالُ لثلاثة أجيال.

عندما بدأت صوفيا حملتَها في إدنبرة، سرعان ما أدركت قوّة «كريستيسون» ونفوذه. فقد كان من أكثر الشخصيات العامة شهرةً واحترامًا في المدينة. وكان كثير من زملائه الأصغر سنًّا يشيرون إليه بلقب «نِسْتور» (Nestor) — في إشارة إلى الحكيم العجوز في الميثولوجيا الإغريقية. وبنيته النحيلة الطويلة، وشعره الأبيض الكثيف، وصوته الجهوري، وهيبته الواضحة، جعلته قادرًا على السيطرة على أكثر الطلبة شغبًا. فتسلّم دور القيادة في مواجهة طالبات الطب. وهكذا، وُضع كلّ من صوفيا و«روبرت كريستيسون» في مواجهةٍ مباشرة، كما لو كانا قائدين متعارضين في معركة.

1- *Life of Sir Robert Christison*, Bart (edited by his sons), London and Edinburgh: William Blackwood & Sons, vol. II, pp. 46–9

******

جرائم «بورك» و«هير»

قبل أن نُعاود الحديث عن أولئك الفتيات الرائدات، اللواتي حقّقن في فصلِهنّ الدراسيّ الأوّل في كلية الطبّ تقدُّمًا باهرًا يستحقّ الوقوف عنده، دعونا نأخذ لحظة تأمُّل في تاريخ هذه الكلية العريقة؛ وهو تاريخٍ حافلٍ بالإنجازات، ومشحونٍ بالأحداث التي شكّلت ملامح المدينة نفسها.

ففي الوقت الذي اشتهرت فيه مدينة إدنبرة — عاصمة اسكتلندا — بلقب «أثينا الشمال» لما امتازت به من رقيّ أدبيّ وأناقةٍ فكرية، فإن وراء هذا الوجه الحضاري جانبًا قاتمًا من الحكاية. من بين تلك الصفحات القاتمة تبرز حادثة الجريمة الشهيرة التي هزّت كيان المدينة، والتي أدلى فيها الدكتور «روبرت كريستيسون»، أستاذ الطب الشرعي بشهادته، والتي أصبحت مضرب المثل في دقة التحليل وصرامة المنهج العلمي، وأسّست لبداية جديدة في علم السموم الشرعي (Toxicology).

لقد بزغ نجم كلية الطبّ في جامعة إدنبرة في مطلع القرن الثامن عشر، حين تأسّست رسميًّا عام ١٧٢٦م، على يد الطبيب الشهير «جون مونرو» (John Monro)، لتصبح أول كلية طبّ ضمن منظومة جامعية في بريطانيا العظمى. بل إنّها أول كلية طبّ في العالم الناطق بالإنجليزية، إذ سبقت كلًّا من إنجلترا وأمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا وكندا في هذا الميدان.

وعلى مدى القرون التالية، لم تكن كلية الطبّ في جامعة إدنبرة صرحًا أكاديميًّا محليًّا، وإنما كانت معملًا فكريًّا خرّج أجيالًا من الأطباء والعلماء الذين شقّوا طريقهم إلى أقاصي الأرض، وأسسوا أشهر كليات الطبّ في العالم. فإن خريجي هذه الكلية هم من أنشؤوا وأسسوا كلية الطبّ بجامعة هارفارد وجامعة ييل (Yale) وجامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة، كما ساهم خريجوها في وضع اللبنات الأولى لكليات الطبّ في جامعتي ماجيل (McGill) ومونتريال في كندا، وجامعة سيدني في أستراليا، بل وحتى جامعة كيب تاون في جنوب أفريقيا.

لقد أحدثت كلية الطبّ بجامعة إدنبرة ثورةً حقيقية في طريقة تدريس الطب، وأقول ثورة ليس على سبيل المجاز، بل بالمعنى الحرفي للكلمة. فكانت هي أوّل من أدخل مفهوم التدريب السريري الإلزامي ضمن المنهج الدراسي، حين فرضت على طلابها حضور جولات طبية منتظمة في المستشفيات، والمشاركة الفعلية في العمليات الجراحية، في وقتٍ كانت فيه معظم كليات

الطبّ حول العالم تحظر على الطلبة مجرد الاقتراب من سرير المريض، ناهيك عن الحضور في غرفة العمليات. وقد أُطلق على هذه الطريقة التعليمية لاحقًا اسم «طريقة إدنبرة في تدريس الطب» (The Edinburgh Method of Medical Teaching)، والتي أصبحت النموذج المعياري الذي اقتدت به كليات الطبّ في العالم كلّه.

ولا عجب، إذًا، أن يكون من بين خريجي هذه الكلية فقط ثلاثة عشر عالِمًا حاصلًا على جائزة نوبل، في مجالات الطب والكيمياء على حدّ سواء، من بينهم العالِم السير «ألكسندر فلمنج» (Alexander Fleming)، مكتشف البنسلين، الذي غيّر مجرى الطبّ الحديث وأنقذ حياة الملايين من البشر. كما خرج منها رائد علم التخدير «جيمس يانج سمبسون» (James Young Simpson)، الذي كان أوّل من استخدم «الكلوروفورم» في العمليات الجراحية. أما جامعة إدنبرة ككل، بباقي كلياتها، فقد حصل فيها عشرون عالمًا على جائزة نوبل في مختلف المجالات.

مع منتصف القرن التاسع عشر، وتحديدًا في عام ١٨٤٧م، سجّلت كلية الطب بجامعة إدنبرة إنجازًا غير مسبوق حين قدّم طبيب التوليد الإسكتلندي والصديق الداعم لصوفيا في سيرتها، والذي كان يدعوها لتناول الإفطار معه وزوجته، السير «جيمس يانج سمبسون» الكلوروفورم كمادة مخدّرة تُستخدم في العمليات الجراحية، لتكون إدنبرة بذلك مهدًا لثورة هائلة في تاريخ الطب.

وقد مثّل الكلوروفورم — واسمه الكيميائي «ثلاثي كلوريد الميثان» $CHCl_3$ — فتحًا علميًا حقيقيًا، إذ أتاح للمرضى أن يخضعوا للجراحة وهم في حالة تخدير كامل، بلا ألم، لأول مرة في التاريخ. لكن أعظم ما في الأمر لم يكن فقط الجانب الطبي، بل التحول الكبير في نظرة المجتمع والدين إلى الجراحة والتخدير. فقد كانت الآراء الدينية والأخلاقية في ذلك الزمان ترى في الألم جزءًا «مُقدَّرًا» من التجربة الإنسانية، وربما «تكفيرًا» عن الذنوب، خصوصًا في حالات الولادة. وعليه، فقد أثار استخدام الكلوروفورم في البداية جدلًا شديدًا، واعتبره بعض رجال الدين تدخُّلًا غير مشروع في «إرادة الخالق».

غير أنّ هذا الجدل تبدّد سريعًا بعد حادثة تاريخية لافتة، حين استخدم «الكلوروفورم» لتخدير الملكة «فيكتوريا» أثناء ولادتها لطفلها الثامن، الأمير «ليوبولد»، عام ١٨٥٣. وقد أعلنت الملكة، بعد استعادة وعيها، ارتياحها الشديد لهذه التجربة، في لحظة مفصلية منحت التخدير قبولًا شعبيًا ورسميًا غير مسبوق.

لقد أسّست وأرست هذه الكليةُ تقاليدَ أكاديميةٍ صارمةً، وربّت أجيالًا من الأطباء على أسس البحث العلمي والالتزام الإنساني. ولا تزال إلى اليوم تُعدّ من بين أفضل كليات الطبّ على مستوى العالم، وتُصنّف ضمن الجامعات الأولى عالميًّا في مجال التعليم الطبي والبحث العلمي.

فإذا كان للطبّ الحديث أن يُنسب إلى مدينةٍ أو صرحٍ علميٍّ واحد، فإنّ إدنبرة تستحقّ هذه النّسبة بكلّ جدارة، بما قدّمته للبشرية من علمٍ، وما أخرجته من عقول، وما أرسته من قواعد أصبحت من البديهيات في عصرنا الحاضر.

لكن التاريخ لم يكن دومًا منيرًا ومشرقًا، ففي عام ١٨٢٣، صدر قانون «أحكام الإعدام» الذي أحدث تحولًا كبيرًا في النظام القضائي، إذ قلّص بشكل ملحوظ عدد الجرائم التي تستوجب عقوبة الإعدام. ورغم أن هذا التطور كان خطوة إيجابية نحو العدالة، إلا أنه ألقى بظلاله على المدارس الطبية، التي وجدت نفسها تواجه أزمة غير متوقعة وهي النقص الحاد في الجثث اللازمة لدروس التشريح. فقد قَصَر القانون استخدام الجثث لأغراض طبية وعلمية على أولئك المجرمين الذين نُفذت فيهم عقوبة الإعدام فقط أو من مات منتحرًا أو عن طريق جثث اللقطاء والأيتام.

وفي خضم هذا النقص، برز نظام غير أخلاقي في مدينة إدنبرة، حيث بدأت الكليات الطبية تعرض المال مقابل الحصول على جثث حديثة الدفن، متجاوزةً بذلك أيَّ اعتبار أخلاقي أو قانوني. وكان هذا الإغراء كافيًا لإثارة جشع معدومي الضمير. وسرعان ما انتشرت ظاهرة سرقة القبور، حيث نشط ما يُعرف بـ «نباشي القبور» أو (Resurrectionists) في فتح القبور واستخراج جثث حديثة الدفن لبيعها، دون أن توقفهم قدسيةُ الموت أو حرمةُ القبور.

بلغت الأزمة ذروتها إلى حد اضطرت فيه المقابر إلى تشييد أبراج مراقبة لحماية القبور من العبث، ولا يزال أحد هذه الأبراج موجودًا حتى يوم الناس هذا في مقبرة تقع على الطرف الغربي من شارع الأمراء (Princes Street)، ليظل شاهدًا على تلك الحقبة المظلمة. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، إذ أخذ أقارب الموتى على عاتقهم مهمة حراسة القبور بأنفسهم، يتناوبون الليل والنهار لضمان عدم المساس بحرمة موتاهم، استخدمت بعض الأُسر ما يسمى بـ (mortsafe) وهو عبارة عن قفص حديدي يُحيط بالتابوت من كل جانب، وقد رأيتُ بعيني هذا القفص الحديدي لا يزال موجودًا في مقبرة (Greyfriars) هنا في إدنبرة بينما كنت أتجول في المدينة.

كانت قيمة الجثث ترتفع كلما كانت الجثة حديثة الوفاة، مما جعل هذه الممارسات تنتشر بشكل مرعب، خاصة خلال الأيام الأولى التي تلي مراسم الدفن. ولكن المأساة الأكبر لم تكن في سرقة القبور فقط؛ بل تمادى البعض إلى القتل العمد، مستهدفين الضعفاء والفقراء بوحشية لا تعرف الرحمة، ليحصلوا على جثثهم ويبيعوها مباشرة للجامعات الطبية، في تجارةٍ سوداء تجردت من أي قيم إنسانية.

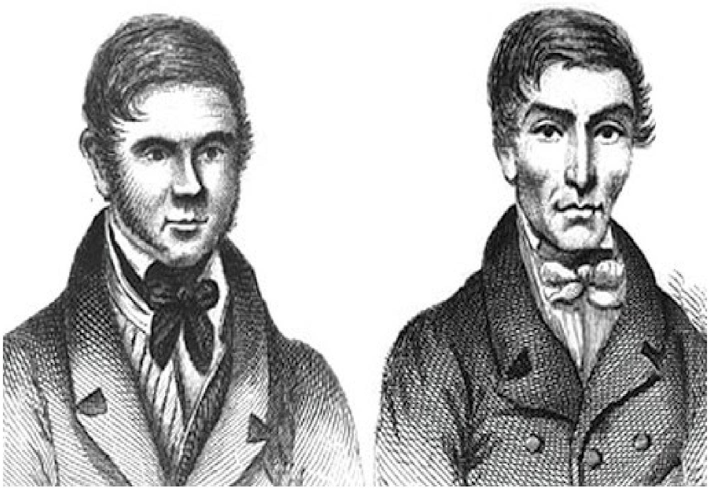
هذا تحديدًا ما شهدته إدنبرة على يد الثنائي سيئ السمعة، «ويليام بيرك» (William Burke) و«ويليام هير» (William Hare). ففي الفترة بين عامي ١٨٢٧ و١٨٢٨، ارتكب هذان الرجلان سلسلةً من الجرائم المروعة، أزهقا خلالها أرواحَ العشرات لتزويد كلية الطب بالجثث،

في فترة مظلمة سابقة بعقودٍ على وصول صوفيا وزميلاتها إلى هذا الصرح الطبي الذي طالما اعتُبر رمزًا للتميز الأكاديمي.

وُلِد كل من «بيرك» و«هير» في شمال أيرلندا، حيث كانت بدايتهما المتواضعة قبل أن يشقّا طريقهما إلى إدنبرة للعمل في مشروع «قناة الاتحاد» (Union Canal). وبالمناسبة تمر هذه القناة بجوار بيتي، إذ بيني وبينها أمتار معدودات. وسرعان ما توطدت الصداقة بينهما بعد أن انتقل «بيرك» إلى منطقة ويستبورت (Westport) في إدنبرة، حيث كان «هير» يدير دار إقامة مع زوجته «مارجريت». وهكذا تشكّل هذا التحالف الشيطاني الذي سيُسجل في صفحات التاريخ كرمزٍ للجشع والخيانة.

في ديسمبر من عام ١٨٢٧، توفي أحد مستأجري «ويليام هير» المسنين وفاة طبيعية، تاركًا دينًا متواضعًا بقيمة ٤ جنيهات لم يُسدّد. لكن الثنائي لم يضيع الوقت في الحزن أو الانتظار. قاما بإخراج الجثة من التابوت، ووضعا أوزانًا بديلة فيه لخداع الجميع ومنع إثارة الشكوك، ثم نقلا الجثة سرًا إلى الدكتور «روبرت نوكس» (Robert Knox)، المحاضر البارز في علم التشريح بكلية الطب. هناك، بيعت الجثة مقابل مبلغ مغرٍ بلغ ٧ جنيهات.

كانت تلك المكافأة السهلة بمثابة الشرارة التي أشعلت سلسلة من الجرائم المروعة. وسرعان ما تحولت خطتهما من استغلال الموت الطبيعي إلى القتل العمد، بعد أن أدركا أن الجثث «الطازجة» تحمل قيمة أكبر في السوق. أصبح أسلوبهما الشيطاني معروفًا، فهو يعتمد على استدراج الضحايا إلى شرب الويسكي لإفقادهم وعيهم، ثم خنقهم بحذر، لضمان أن تبقى الجثث سليمة دون أي علامات قد تعيق استخدامها في دروس التشريح.



على اليمين هير، وعلى اليسار بيرك

واصل «بيرك» و«هير» جرائمهما البشعة بلا رحمة، حتى ارتكبا خطأً قاتلًا مع ضحيتهما الأخيرة، «مارجريت دوكيرتي» (Margaret Docherty). فعند فحص جثتها، اكتشف الدكتور «روبرت كريستيسون»، عدو الفتيات الأول، بمساعدة زميله «ويليام نيوبيجينج» (William Newbigging)، أن سبب الوفاة كان الخنق. كانت هذه الاكتشافات بمثابة الخيط الذي قاد إلى فضح سلسلة الجرائم التي زلزلت أرجاء مدينة إدنبرة.

حتى الدكتور «روبرت نوكس»، المحاضر في علم التشريح، لم يسلم من الشبهات. ففي مقابلة أجراها معه الدكتور «كريستيسون»، دافع «نوكس» عن نفسه مدعيًا أنه كان يعتقد أن «بيرك» و«هير» يحصلان على الجثث من دور الإقامة الرخيصة قبل أن تُدفن. ومع ذلك، أكد «كريستيسون» لاحقًا أن «نوكس»، رغم «افتقاره للمبادئ والرحمة»، لم يكن قد انتهك القانون بشكل صريح.

لكن تلك العبارة ذاتها، «افتقار للمبادئ والرحمة»، كانت لتبدو وصفًا مثاليًا يليق بـ «كريستيسون» نفسه في عيون صوفيا جيكس-بليك، التي واجهته لاحقًا كواحد من أشرس معارضيها ومعارضي النساء الطامحات لدخول عالم الطب. وهكذا، تداخلت خيوط التاريخ لتجمع بين ضحايا الظلم، سواء كانوا في مشارح جامعة إدنبرة أو في قاعاتها الأكاديمية.

باشرت الشرطة تحقيقًا حول جرائم «بيرك» و«هير»، حيث اشتبهت بأنهما ارتكبا العديد من الجرائم قبل اكتشافهما. ومع ذلك، كانت الأدلة المتوفرة محدودة وغير كافية لإدانتهما. تحت إشراف عمدة مدينة إدنبرة السير «ويليام راي»، اتخذت الشرطة خطوة جريئة بعرض الحصانة على «هير» مقابل أن يصبح شاهدًا ضد شريكه «بيرك». لم يتردد «هير»، حيث اعترف بارتكاب ستة عشر جريمة قتل، وقدم تفاصيل مفصلة عن جريمة «مارجريت دوكيرتي» وغيرها من الجرائم.

تمت إدانة «بيرك» بتهمة القتل وحُكم عليه بالإعدام. أما زوجته، التي وُجهت لها أيضًا اتهامات، فقد صدر بحقها حكم «غير مثبت» — وهو حكم قانوني أسكتلندي غامض يقر بوجود شكوك لكنه لا يُثبت الإدانة.



هيكل «بريك» العظمي
المعروض في متحف الجامعة

عقب إعدامه، ولتحقيق العدالة الإلهية، تم تشريح جثة «بيرك» لاستخدامها في البحث الطبي، ولا يزال هيكله العظمي محفوظًا ومعروضًا حتى اليوم في متحف التشريح بكلية الطب في جامعة إدنبرة. ومع ذلك، ظل «بيرك» مصممًا على نفي تورط الدكتور «نوكس» في أي تشجيع لهما على ارتكاب هذه الجرائم.

أثارت هذه الجرائم المروعة جدلًا واسعًا في أوساط المجتمع حول الحاجة الملحة إلى توفير الجثث لأغراض البحث الطبي بطرق قانونية وأخلاقية. وجاء الرد عبر قانون التشريح لعام ١٨٣٢، الذي أتاح استخدام جثث الإصلاحيات والسجون غير المطالب بها بعد مرور ٤٨ ساعة، مما أنهى اعتماد كليات الطب على جثث المحكوم عليهم بالإعدام، وفتح فصلًا جديدًا في تنظيم التعليم الطبي.

في أعقاب المحاكمة، عكست إحدى الأشعار الساخرة التي انتشرت بين سكان إدنبرة وقع هذه الأحداث على النفوس، مسلطة الضوء على أدوار الأطراف الثلاثة المتورطين:

فوق الدرجِ وتحتَ السطوحْ

بيرك يقتل وهير يبوحْ

ونوكس المُشترِي في وضوحْ

يبتاعُ الموتَ ويرضى الجروحْ[١]

كانت هذه القافية تلخيصًا لواقعٍ مظلم عاشته كلية الطب، لتصبح تلك الحقبة واحدة من أحلك الفصول في تاريخها، حيث كشفت عن عمق الثغرات الأخلاقية التي شابت نظام التعليم الطبي في ذلك الزمن، وأظهرت الحاجة الملحة لإصلاح جذري طالما تم تجاهله. وقد تحولت هذه القصة إلى فيلم يحمل نفس العنوان (Burke and Hare) تم إصداره عام ٢٠١٠ لمن أراد أن يشاهده.

١- حاولت أن أترجم هذا عن الإنجليزية بشكل شعري يحفظ معنى الأبيات الأصلية، إذ الأبيات الإنجليزية تقول:

up the close and doon the stair
but and ben' wi Burk and Hare
Burke's the butcher, Hare's the thief
Knox the boy that buys the beef

الفصل الثامن:
أعمال الشغب

بعدما أحرزت الفتياتُ الخمسُ قَصَبَ السبقِ[1] في فصلهن الدراسيِّ الأوّل، التحقت بهنّ لاحقًا فتاتان، كانت أُولاهما «إيميلي بوفيل» (Emily Bovell)، التي تقاربت سيرتُها ونشأتها من سيرة صوفيا، إذ تلقّت تعليمها في «كلية الملكة» (Queen's College)، ثم عملت في تدريس الرياضيات كما فعلت صوفيا سواءً بسواء.

وأمّا الثانية فهي «ماري أندرسون» (Mary Anderson)، التي لا تذكر المصادرُ كثيرًا من الأخبار عن حياتها السابقة قبل انضمامها إلى زميلاتها في رحاب إدنبرة. وهكذا أصبح عدد الطالبات سبعًا، يخضن غمارَ دراسة الطب، في سابقةٍ تاريخيةٍ لم تعرفها من قبلُ جامعةٌ بريطانية. ومع انطلاقة الفصل الدراسي الثاني، أخذت العقبات تتراءى كعادتها، فما كان لهن أن يخطون خطوةً، ولا حتى نصف خطوة، إلا ووجدنَ في طريقهن من العناء والمشقة ما يحتاج إلى عظيم الصبر، وجليل العمل.

كان لزامًا على الفتيات، كما أشرنا من قبل، أن يتوجهن إلى كلِّ أستاذٍ على حدة، يلتمسن منه أن يُدرِّس لهنّ في فصولٍ خاصّةٍ منفصلةٍ عن الطلبة الذكور. فإن وجد الأستاذ في وقته متّسعًا، ورأى في ذلك ميلًا ورضى، أجاب طلبهنّ، غير أن موافقتَه كانت غالبًا مشروطةً بطلب أجرٍ مرتفع، تعويضًا عن قلّة عدد الطالبات. وبعد تلك المسعى الذي اضطلع به الدكتور «ماسون»، ساعيًا لإلغاء نظام الفصول المنفصلة، وجمع الفتيات مع الطلاب الذكور في قاعات الدرس، إلا أن تلك المحاولة، كما أوضحنا من قبل، قد خابت مساعيها ولم يُكتب لها النجاح؛ لكنها، مع ذلك، كانت بمثابة حركةٍ في ماءٍ راكد. ومع ذلك، ورغم هذا الرفض، أرادت تلكم الفتيات أن يُنفِذن أرادتهن، فبحثن — رغم أنف المجتمع والجامعة — على الدراسة في فصول مختلطة كما يدرس الجميع.

قد أبدى أستاذ علم النبات الدكتور «بالفور» — عميد كلية الطب — رغبته في قبولهن ضمن صفه العادي، لكنه لم يستطع أن يقوم بذلك ويدرسهن جنبًا إلى جنب مع الذكور، فاضطر إلى تنظيم دروس خاصة بهن بشكل منفصل.

١- «أحرز قصب السبق» أي: نال المكانة الأولى.

كما أعلن البروفيسور «ألمن» (Allmann) استعداده لقبول صوفيا ضمن صفه مع الذكور في مادة التاريخ الطبيعي، إلا أنه لم يستطع أن يقوم بذلك، ولا حتى استطاع أن يقوم بتخصيص دروس منفصلة لهن لانشغال وقته. ولحسن الحظ، كان لدى النساء وتَرٌ ثانٍ في قوسهن يتمثل في الدكتور «ألين نيكولسون» (Alleyne Nicholson)، المُحاضر في فصول خاصة خارج أسوار الجامعة (Extra-Mural School)، وقد أدى توجّههن إليه إلى رسالة تُظهر حجم الصعوبات التي واجهت حتى أكثر الرجال لطفًا وانفتاحًا. وقبل أن أذكر رسالة الدكتور إليهن أريد أن أعرج بشكل بسيط على قضية التعليم خارج أسوار الجامعة؛ إذ من الصعب على القارئ الآن أن يفهم بشكل جيد نظام التعليم الجامعي قبل قرن ونصف.

*****

يعود تاريخ «التعليم الطبي خارج أسوار الجامعة» في مدينة إدنبرة إلى أوائل القرن السادس عشر، وتحديدًا إلى سنة ١٥٠٥م، حين بدأت جمعية جرّاحي الحلاقين (Incorporation of Barber Surgeons) بتنظيم محاضرات عامة في علم التشريح.[١] كانت هذه المحاضرات تُعقد في المدينة لقاء رسوم محددة يدفعها الحضور، وهو ما ساهم في خلق تقليد علمي جديد، يقوم على نقل المعرفة الطبية إلى الجمهور مقابل أجر. هذا الأسلوب كان سابقةً في نشر المعرفة الطبية لجميع، كما أرسى أُسسَ التعليم غير النظامي الذي سينتشر لاحقًا.

وعلى الرغم من أن جامعة إدنبرة تأسست عام ١٥٨٣م، فإن كلية الطب فيها لم تُنشأ إلا في عام ١٧٢٦م. هذا التأخر الزمني دفع العديد من الطلّاب إلى التوجه نحو ما يُعرف لاحقًا بـــ «المدارس الخارجية» أو المدارس خارج أسوار الجامعة (Extramural Schools)، وهي مؤسسات تعليمية لم تكن تابعة مباشرة للجامعة، لكنها اجتذبت كبار الأساتذة والأطباء المحترفين الذين أرادوا التدريس خارج الإطار الرسمي.

كان من أبرز الأسماء التي لمع نجمُها في هذا النوع من التعليم: «جون ليزارز» (John Lizars)، وكان من أبرز الجرّاحين وأساتذة التشريح. وكذلك السير «وليم فيرجسون» (Sir

١- لا أظن القارئ الكريم قد يخفى عليه ارتباط مهنة الحلاقة بالجراحة، إذ، في الأزمنة الماضية، لم تكن الجراحة تُعدّ جزءًا من الطب «النبيل» الذي كان يمارسه الأطباء المتعلّمون في الجامعات، بل كانت تُعتبر عملًا يدويًا منخفض المقام، يُشبه النجارة أو الحدادة. ولذلك، تُركت الجراحة لأولئك الذين يمارسون المهن اليدوية، ومنهم الحلاقون. وليس لفظ «حلاق الصحة» مننا ببعيد، وقد كان هو السبب في فقد العميد «طه حسين» بصره، إذ يقول العميد في الأيام: «وعلى هذا النحو فقد صبيُّنا عينيه؛ أصابه الرمد فأُهمل أيامًا، ثم دُعي الحلاقُ فعالجه علاجًا ذهب بعينيْه.»

William Fergusson)، الذي شارك في التدريس داخل المدارس الخارجية لعدة سنوات. ساهم هؤلاء الروّاد في تعزيز مكانة المدارس الخارجية، حيث كانت تُعرف تلك المدارس بجودة التعليم وتميّز المحاضرين فيها، بل إن كثيرًا من أساتذتها كانوا يُعتبرون الأفضل في مهنتهم.

حتى منتصف القرن التاسع عشر، كانت هذه المدارس تُدار بشكل غير رسمي. إذ يتجمع المحاضرون في مجموعات صغيرة، يستأجرون غرفًا لإلقاء المحاضرات، ثم يفترقون ليشكلوا مجموعات جديدة، مما خلق بيئة ديناميكية ومرنة للتعليم الطبي. لاحقًا، تولّت الكلية الملكية للأطباء والجراحين في إدنبرة (Royal Colleges of Physicians and Surgeons of Edinburgh) مسؤولية تنظيم هذه المدارس ومراقبتها، واعترافها بتدريب الطلاب المُعدّين لنيل دبلومات الكليات الملكية.

من أشهر المباني التي استُخدمت آنذاك كان قاعة الجراحين (Surgeons' Hall)، والتي كانت ملاصقة للكلية الملكية للجراحين. احتوت القاعةُ على غرف محاضرات، بالإضافة إلى قاعة تشريح مجهزة بالكامل (Dissecting Room) مخصصة للدروس العملية في علم التشريح.

نشأ نوع من المنافسة بين كلية الطب في جامعة إدنبرة وبين تلك المدارس الخارجية. فقد اتُّهمت الجامعة أحيانًا بالجمود والمحافظة، في حين اشتهرت المدارس الخارجية بالابتكار وتقديم مواد غير تقليدية، مثل: أمراض الجلد (Diseases of the Skin)، والأمراض النفسية والعقلية (Mental Disorders)، وأمراض الأطفال (Children's Diseases). بل إن كثيرًا من المحاضرين في هذه المدارس كانوا يُستقطبون لاحقًا للعمل في مناصب عليا في الجامعة، وهو ما يعكس التقدير الذي حظيت به خبراتهم.

في عام ١٨٥٥م، قامت جامعة إدنبرة رسميًا بالاعتراف بهذا التعليم الخارج عن الجامعة كجزء من برنامجها التعليمي، وسمحت لطلابها باختيار ما يصل إلى أربعة مواد أو مقررات دراسية من هذه المدارس لاستكمال متطلبات التخرج. جاء هذا القرار نتيجة ضغط الواقع والطلب الطلابي، وأصبح حلًّا لمشكلة ازدحام البرامج الجامعية وعدم توفر ما يكفي من فرص التعليم داخل الحرم الجامعي. وعندما كانت الجامعة ترفض توفير بعض الدورات، كان الطلبة يتوجهون تلقائيًا إلى المدارس الخارجية، مما وفّر لهم مسارًا موازيًا ومعتمدًا أكاديميًا.

*****

الآن، نعود إلى صوفيا حين لم تجد طريقًا لدراسة التشريح داخل أسوار الجامعة، إذ لم يقبل أحد تدريسهن منفردات، ولا حتى في فصولهم العادية مع الذكور جنبًا إلى جنب، فما كان منها إلا أن اتجهت إلى تلكم المحاضرات الطبية خارج أسوار الجامعة، فأرسل لها الدكتور «ألين نيكولسون» يقول:

عزيزتي الآنسة صوفيا بليك، لم أوفّق حتى الآن في الحصول على تأكيد قاطع من الناحية القانونية يُجيز لي قبولك ضمن صفي العادي، مع أنني لم أعد أشك مطلقًا في حقي الكامل، من الناحية الشخصية، في هذا الأمر، طالما أن الجامعة لا تمنع ذلك صراحةً. لقد تشاورتُ مع عدد من زملائي، وكانوا في مجملهم متفقين على أن الأفضل أن أطرح المسألةَ على طلاب الصف. لقد نصحوني — وأنا أوافقهم الرأي — بألا أبدأ المحاضرات بشكل مفاجئ يوم الإثنين دون تمهيد، وإنما أن أقدّم محاضرتي الافتتاحية بشكل منفصل، في الساعة الواحدة للصف العادي، وفي الساعة الثانية لكِ، ثم في نهاية المحاضرة أوضح للطلاب مجريات الأمور وأطلب منهم رأيهم في حضوركِ بينهم.

أنا مدرِك تمامًا أن هذا الاقتراح لن يكون مُرضيًا لكِ بقدر ما هو مُرضٍ لي، كما أنني أطلب منك أن تتفهمي أن هذا الأمر لا يرضيني تمامًا من الناحية الشخصية. فلو كنتُ رجلاً مستقلاً تمامًا، لَمَا منعتني العواقبُ المحتملة من أن أقوم بما أراه صائبًا في هذه المسألة. لكن، كما هو الحال، لا أرى أن من الحكمة أن أخاطر بخسارة صفي العادي — جزئيًا أو كليًا — وأنا شبه متيقن من أنني إن أقدمت على هذه «الخطوة الجديدة» دون تمهيد، فسيكون لذلك أثر سلبي. لو كنت أعرف طلابي معرفة جيدة، أو قضيت معهم يومين أو ثلاثة لأفهم طبيعتهم، لربما اطمأننتُ أكثر إلى رد فعلهم، لكنني الآن أتعامل مع متغيِّر غير معروف تمامًا، ولا أملك أي بيانات ترشدني إلى القرار الصحيح.

رأيي الحالي هو أنني، على الرغم من رغبتي الشديدة في قبولكِ ضمن صفي العادي، أرى أن الأكثر أمانًا هو أن أطرح الأمر على الطلاب وألتزم بما تقرره الأغلبية.

تبيّن لاحقًا أن صوفيا قد نالت تعديلًا شفهيًّا مُرضيًا — وإن لم يُدوَّن كتابةً — على تلك الإجراءات، إذ اقتُرح أن تُدعى صوفيا وزميلاتُها إلى الوقوف بجوار المحاضر عقب انتهاء درسه للطلبة الذكور، حيث يُقدَّمْنَ أمام الحاضرين ويُعرض الأمر بلسانهنَّ، فيطلبن بأنفسهنَّ أن يُسمح لهنَّ بالدراسة معهم في قاعةٍ واحدة، كما يفعل سائر الطلبة دون تمييز. على أن هذا الإجراء، وإن بدا في ظاهره خطوة إلى الأمام، كان في حقيقته شكليًّا، إذ كان نجاحه رهنًا بطريقة عرض

الفتيات للقضية، ومدى حُسن تأييد الدكتور «نيكولسون» لطلبهنّ. ولم يكن من الغريب أن جاء الرد إيجابيًّا، لا من أكثرية الصف فقط، بل من جميع الطلبة دون استثناء، إذ رحّبوا بحضور الفتيات إلى جانبهم في قاعات الدرس.

وفي هذا السياق كتبت صوفيا تقول: «لقد بدأ أولُ صفٍّ مختلط، واستمر طوال الصيف دون أدنى إزعاج.» كما تحدثت كذلك عن التطابق التام بين ما يتم تدريسه لهن وما يتم تدريسه لزملائهن الذكور فقالت في سيرتها الذاتية: «ورغم أن المحاضرات كانت تُعقد في ساعات مختلفة، إلا أن التعليم الذي تلقيناه نحن والطلاب الذكور كان متماثلًا تمامًا. وعندما حان وقت الامتحانات الصفية، تلقينا جميعًا نفس أوراق الأسئلة، في نفس الوقت، وبنفس الشروط. وقد أُبلغنا بأن توزيع العلامات سيتم بلا تمييز بين «القسمين من الصف» — وهي العبارة التي كان الأساتذة يكررونها مرارًا طوال الفصل الدراسي.»[١]

غير أنّ بعض الصحف اليومية لم تلبث أن نشرت ذات يوم خبرًا زعمت فيه أنّ الدكتور «نيكولسون» اضطر إلى تعديل المحتوى الذي كان يقدّمه من قَبْلُ للطلبة الذكور وحدهم، كي يُلاءم وجودَ الفتيات في الصف المختلط. وإزاء هذا الادعاء، كتب الدكتور «نيكولسون» ردًّا يدحض فيه هذه التهمة، ويوضح حقيقة الموقف:

> المقرر الدراسي لعلم الحيوان الذي أقدمه الآن للصف المختلط هو نفسه تمامًا الذي قدمته لطلابي الذكور في الشتاء الماضي. لم أقلِّص محتوى محاضراتي على الإطلاق، ولا أنوي ذلك. إنني أقدم المادةَ بنفس القدر من الجدية والصرامة، مدفوعًا بإيمان مني بأن القليل من العفة والحياء كافيان لمنع الأفكار غير اللائقة تجاه موضوع علمي محض مثل علم الحيوان، مهما كان مطروحًا بحرية.

ومع أن هذه كانت خطوة موفقة، فإن الصفوف التي أُتيحت للنساء حتى الآن لم تكن إلا «ثكنات خارجية»؛ أما «القلعة الحصينة» الحقيقية فكانت في مادتي التشريح (Anatomy) والتعليم السريري (Clinical teaching)، حيث اصطدمت صوفيا — على وجه الخصوص — بموجة مستمرة من العوائق في سبيل تأمين الحصص اللازمة. فقد كان من الضروري أن يكون الأستاذ معترَفًا به من الجامعة، وإن لم يكن عضوًا في هيئة التدريس بها، ولكن بعض ممثلي الجامعة لم يكونوا راغبين في تيسير الأمر. تكررت الآمال وكذلك تكررت خيبات الأمل، وفي إحدى المرات، وبعد نقاش طويل، وافق أستاذ علم النبات أخيرًا على أداء المهمة، بل وقَبِل الأجرَ، لكنه

1- Jex-Blake, S. (1886). *Medical women: A thesis and a history*. Edinburgh: Oliphant, Anderson, & Ferrier; London: Hamilton, Adams, & Co. p80

انسحب في اللحظة الأخيرة، معيدًا الأجر ومُبدِيًا اعتذاره لأن صحته لم تعد تحتمل تدريس صفين. «كم كنتُ منزعجة!» تقول صوفيا: «كنتُ شديدةَ التوتر والانزعاج.»

وقد حاولت الفتيات تأمين فصل دراسي في مادة التشريح، لما لهذه المادة من أهمية قصوى. غير أن أستاذ الجامعة، السيد «تيرنر» (Mr. Turner)، رفض رفضًا قاطعًا أن يقوم بنفسه بتعليمهن أو أن يسمح لمساعده بذلك بأي شكلٍ من الأشكال.

تكرر ذلك مرارًا، حيث كان الرجال الذين يرغبون بالمساعدة قد سبق واتخذوا مواقف تقدمية ومعارضة للرأي العام في مواضيع أخرى، وبالتالي لم يجرؤوا على تبني قضية جديدة، خوفًا من استعداء زملائهم المحافظين.

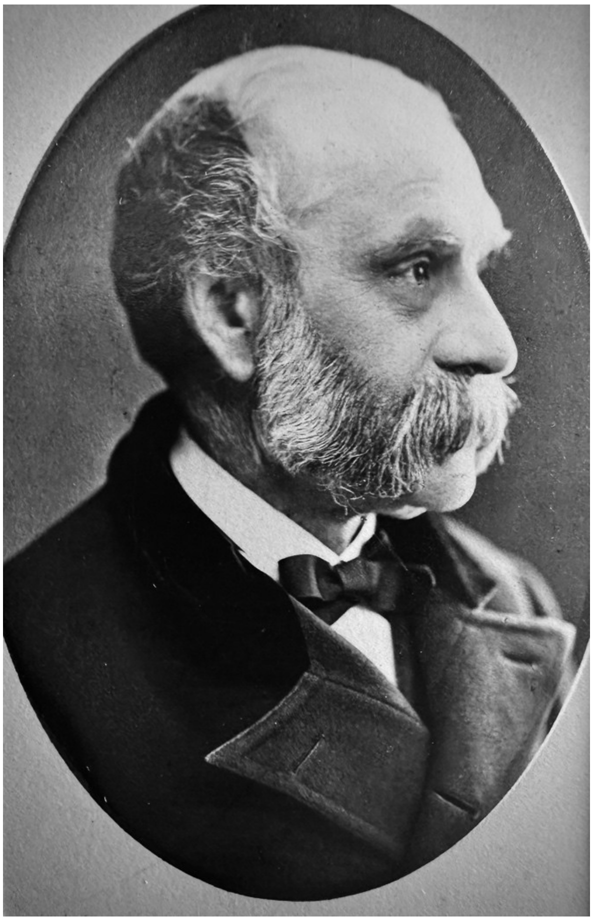
دُعيت صوفيا للذهاب إلى مدينة زيورخ لتعلّم التشريح، ولكن ما هو الضمان الذي كان لديها بأن الجامعة ستعترف بشهادتها عند عودتها من دولة أخرى؟ وماذا عن بقية الطالبات، اللواتي كنّ في ازدياد؟ هل يذهبن ويجربن حظوظهن في مكان آخر، ويواجهن المصير المحتوم؟

ورغم أن نفرًا من الرجال الشرفاء قد وقفوا إلى جانب الفتيات مرارًا، فإن قلة قليلة منهم أدركت على وجه الحقيقة جسامة المصاعب التي اعترضت طريقهن. وأخيرًا، وفي نهاية المطاف، وافق الدكتور «آرثر جامجي» (Dr. Arthur Gamgee) على قبول النساء في صفه الاعتيادي لتدريس مادة التشريح، وكذلك في غرفة التشريح التابعة لـ «قاعة الجراحين»، على أن يكون ذلك مشروطًا بعدم اعتراض بقية الأساتذة — ولحسن الحظ، لم يعترض أحدٌ منهم.

وهكذا تم تنظيم الترتيبات اللازمة للفصل الشتوي التالي. وكانت الخطة التي اتبعتها صوفيا لجلب الدعم، أن تتوجه إلى الأساتذة أو الأطباء المؤيدين لها ولموقفها، فتستخلص منهم موافقةً مكتوبة، فإذا قصدت آخرين، عرضت عليهم قائمةً تحوي أسماء الشخصيات البارزة والمؤثرة التي أبدت تأييدها لقضيتها، مما كان له أبلغ الأثر في كسب المزيد من الأنصار وإقناع المترددين. كتبت صوفيا في يومياتها تقول:

> السبت، ٢٥ يونيو، زرتُ الدكتور «واتسون» (Watson) — وهو طبيب جرّاح — فقام بتوقيع عريضتي دون تردّد. وقال إنّنا إذا لم نثر المتاعبَ، فلا ينبغي لأحدٍ أن يعترض على الصفوف المختلطة — فكل من كان جادًا في تخصّصه يجب أن يكون قادرًا على تدريس جميع الطلبة. بالطبع، ينبغي للأستاذ أن يكون حازمًا... فالتلاميذ يتبعون رأي أساتذتهم ويأتمرون بأمرهم.
>
> رأيت الدكتور «كيلر» (Keiller) أيضًا... كان متعاطفًا مع الدكتور «هانديسايد» (Handyside) والصفوف المختلطة — وقد درّس سابقًا لطلبة ذكور وقابلات إناث على السواء.

كنا قد أشرنا من قبل إلى أنّ مادة التشريح كانت من أعسر المقرّرات التي واجهت فيها صوفيا مشقّةً بالغةً في العثور على أساتذةٍ يوافقون على تدريسها لطالباتٍ في فصولٍ خاصّةٍ بالنساء. غير أنّها الآن قد ظفرت بفرصةٍ نادرة، إذ سُمِح لها أن تدرس مادة التشريح مع الطلبة الذكور في «قاعة الجراحين»، تحت إشراف الدكتور «هانديسايد» الذي استأجر هو وجماعةٌ من المحاضرين هذا المبنى المعروف بقاعة الجراحين. على أنّ تلك المحاضرات لم تكن تُدرّج ضمن المحاضرات الرسمية التي تُقام داخل حرم الجامعة، بل كانت تُعدّ معتمدة ومقبولة طالما كان القائم عليها أستاذًا معترفًا به من قبل الجامعة، وإن أُلقيت الدروس خارج أسوارها، وبمبادرةٍ شخصية منه.



الدكتور «هانديسايد» أستاذ التشريح

نشرت الصحف احتفالًا بهذا التقدم قائلين تحت مقال كان عنوانه «تشريح من قِبل السيدات»:

> ست سيدات، يشاركن حاليًا في تشريح جثة أنثى داخل قاعة التشريح العملي التابعة للدكتور «هانديسايد». ويعمل الطلاب الذكور بجدٍّ في القسم نفسه. وبهذا،

أُزيلت واحدة من أبرز العقبات التي كانت تعيق حصول النساء على تعليم طبي كامل في إدنبرة.[1]

لكن هذه الصفوف المختلطة في المحاضرات الخاصة كانت تُعد من الناحية الفنية خرقًا للوائح المادة الثانية في دليل الجامعة، إذا أن البند الثاني من لائحة تنظيم الدراسة للنساء تقول:

٢ – يُشترط أن يتم تدريس الطب للنساء في «فصول دراسية منفصلة»، مخصصة بالكامل للطالبات.

وأما الآن، فقد انتقل الأمر من فصولٍ دراسيةٍ منفصلةٍ للنساء، إلى صفوفٍ مختلطةٍ يدرس فيها الذكور والإناث جنبًا إلى جنب. وقد أثار هذا التغييرُ اعتراضًا من بعض الأساتذة، الذين رأوا فيه خرقًا صريحًا للبند الثاني من النظام القائم، فبادر أحدُهم إلى رفع المسألة إلى «مجلس شيوخ الجامعة»، مقترحًا أن تُحال القضية لاحقًا إلى المحكمة الجامعية.

غير أن البروفيسور «بينيت» (Bennett)، مدعومًا بالبروفيسور «تايت» (Tait)، تقدّم باقتراحٍ مضاد، مفاده أنّ «مجلس شيوخ الجامعة لا يرى في الأمر ما يستوجب التدخّل». وقد طُرح الاقتراحان للتصويت، فجاء الحسم بفارق صوتٍ واحد، هو صوت رئيس الجامعة ذاته، الذي رجّح كفة الإقرار. وبهذا، جرى تجاوز العقبة بنجاح، ودوّنت صوفيا تعليقها على ما جرى بقولها: «إذن فقد حُسم الأمر. آه! كم تتسارع الأحداث! آملُ حقًا في إقامة الصفوف المختلطة داخل الجامعة قبل عام ١٨٧١.»

يبدو أن صوفيا تفاءلت بصورة كبيرة، وربما أكثر من اللازم، ونسيت أن تُقدّر بشكل كافٍ قوة المعارضة التي يقودها خصومها. وفي هذه الأثناء، كانت والدة صوفيا، تلك الأم العظيمة، تتابع هذا النضال المحتدم في مدينة إدنبرة وجامعتها. كما كانت والدة الآنسة «بيتشي»، قد شعرت ببعض الذهول في البداية من فكرة الصفوف المختلطة وأن تدرس ابنتُها في نفس الصفوف مع الرجال، لكنها كتبت بعد وقت قصير:

> لم أعد أُعارض الصفوف المختلطة على الإطلاق. ما دامت الدروس تُدرّس حاليًّا من قِبَل الرجال، فلا أرى سببًا لعدم وجود صفوف مختلطة للحضور والدرس. وأشعر بالثقة أنّكِ، إن واصلتِ مع هذه المجموعة الراقية من النساء، فسيرتفع المستوى العام للطلبة الذكور. وإذا كانت الصفوف المختلطة تنجح في مدينتي زيورخ وباريس، فلماذا لا تنجح هنا؟ — لكنّي أعترف بجهلي الكبير في الأمر.

١– صحيفة (Midland Counties Express)، السبت، ٨ أكتوبر ١٨٧٠

على الصعيد الأكاديمي، لم يُظهِر أداء الطالبات أيَّ علامة على الضعف. وقد عرضت «الليدي آمبرلي» (Lady Amberley)[١] منحةً دراسية تُمنح لمن تتفوّق في امتحان القبول في شهر أكتوبر، وسجّلت صوفيا بفخر آراء المُمتحنين عن أداء الطالبات:

> ورقة المنطق التي قدّمتها الآنسة «باركر» (Miss Barker) كانت الأفضل على الإطلاق من بين كلّ طلبة كلية الطب، وورقة امتحان اللغة الفرنسية التي كتبتها الآنسة «بوڤيل» (Miss Bovell) كانت الأفضل في الجامعة قاطبة، ما عدا واحدًا من الفرنسيين الذي تفوق عليها.
>
> أما الآنسة «ووكر» (Miss Walker) حصلت على العلامة الكاملة (١٠٠٪) في الرياضيات، وكانت الوحيدة من بين طلاب الجامعة جميعهم. كما كتب أحد المُمتحنين في مادة «الآداب الكلاسيكية»: «لقد أُعجبت كثيرًا بدقّة بعض الأوراق، فضلًا عن أناقتها في الأسلوب.»

لربما نجحت امرأة — أو رجل — في اجتياز امتحانٍ صعب في الرياضيات أو الكيمياء، لكنها قد تعجز، عند أول صدمةٍ إكلينيكية، عن الثبات أمام حالةٍ مرضيةٍ بالغة التعقيد. وكانت هذه الحقيقة، على ما فيها من الاحتمال، كافية لأن يُدركها الأطباء من الرجال، بل ويجعلوا منها ذريعةً لإثارة الشكوك حول أهلية النساء لممارسة الطب. فلم يكن يُنتظر منهم، وهم خصوم شرسون، أن يدّخروا وسيلةً في الانتقاص من أولئك الفتيات إلا استغلوها، وأساءوا استغلالها أبشع استغلال. غير أنّ المفارقة، أنّ بعض هؤلاء المعارضين كانوا من الغفلة أو السذاجة بمكانٍ جعلهم عاجزين عن تسخير مواطن الضعف تلك على الوجه الذي يُراد. فجاءت هجوماتهم أشبه بحربٍ مرتجلة، تستند إلى أسلوبٍ هزيلٍ، وتقوم على حججٍ واهيةٍ لا تصمد أمام المنطق أو التجربة. ويكفي للدلالة على هذا، ما ورد في الخطاب المنشور في مجلة «ذا لانسِت» (The Lancet)، الذي يُعبّر عن ضيق الصدر وضحالة الرؤية أكثر مما يعبّر عن موقف علمي:

> في كلّ الحركات الشعبيّة — مهما بدت منحازة أو غير منطقية — هناك دومًا أجزاء من الحقيقة مخفية خلف سحابة من الغيوم. وهذا ينطبق الآن على حركة قبول النساء كممارسات طبّيات.
>
> إنني أؤمن، بكلّ ضمير وصدق، بأنّ النساء، كجنسٍ كامل، غير مُهيئات — لا فسيولوجيًّا ولا ذهنيًّا — لتحمُّل أعباء الممارسة الطبية العامة والجراحية. ومع ذلك، أؤمن بالقدر ذاته أنّ هناك فرعًا من الطب — التوليد (midwifery) — يُمكنهنّ، بل يجب أن يُقبَلن فيه، لكنّ ذلك يجب أن يكون دائمًا في مرتبة أدنى.

١- هي «كاثرين راسل» (Katharine Russell)، والدة الفيلسوف الإنجليزي الشهير «برتراند راسل».

في فرنسا، وفي أجزاء كثيرة من أوروبا، يُقسم العمل في التوليد تقسيمًا واضحًا، وهذا يعود بالنفع على الطرفين: الطبيب يُعفى من المهام المتعبة وغير المدفوعة غالبًا، والنساء — من ذوات الموهبة الطبية — يجدن في ذلك مصدر دخل محترم. وأعتقد أنّه يمكنني القول بثقة أنّ القليل فقط من الأطباء الذكور، بعد ممارسة لمدة عشر سنوات، سيُمانعون في تسليم هذا العمل إلى قابلات مثقّفات وودودات. ففي بداية المسيرة، يتحرك المرء بدافع الشغف والطموح، لكن بعد عشر سنوات من العمل، يظهر التغيّر الحتمي الذي يُبدّد حماسة البدايات.

لقد وصلت الشهرة فعلًا إلى قِلّة من النساء، مثل السيدة «سومرفيل» (Mrs. Somerville)،[1] اللاتي قدّمن أدلة على أنهنّ لا يتمتّعن فقط بالموهبة والكفاءة، بل بقدرات أعلى، أعني القدرة على استيعاب تعاليم العلم الغامضة والعميقة. ومع ذلك، فإنّ هذه القدرة — أعني القدرة على استيعاب وفهم الحالة الراهنة للعلم — لا تُعدّ سمة مميزة للعقل الذكوري في العرق الأوروبي. إنّ السمة الأساسية التي تبدو لي مميّزة للعرق الأوروبي، والتي ترفعه فوق بقية الأعراق، هي قدرة الكثير من الذكور فيه على توسيع آفاق المعرفة العلمية، وتخطّي حدود المعرفة القائمة — أي: قدرة الاكتشاف العلمي.

لا أعلم أن الإناث من عِرقنا يشتركن في هذه القدرة، في هذا التطوّر الأسمى للعقل البشري؛ على الأقل لا أعرف أيّ اكتشاف عظيم غيَّر وجهَ العلم تعود أصوله إلى امرأة من عِرقنا أو من أيّ عِرق آخر. فما الذي يُخوّل النساء المطالبة بالمساواة العقلية مع الرجال؟

لا يصعب على القارئ أن يتخيّل تلك الابتسامات الساخرة التي صاحبت تداول تلك المقالة في الأوساط داخل إدنبرة؛ بل لعلّ ذات الابتسامة التي ارتسمت على وجوه الفتيات آنذاك، ترتسم الآن على وجه القارئ وهو يقرأ تلك السطور بعينٍ ساخرةٍ ممزوجةٍ بالأسى. ومن الإنصاف أن نُقرّ بأنّ كثيرًا من خصوم صوفيا لم يكونوا من الجهل بحيث يصدر عنهم هذا النوع من العداء الفجّ، بل لعلّهم أدركوا، في قرارة أنفسهم، أنّ مثل هذه الخطابات المرتجلة لا تُضعف موقف الفتيات، بل هي في الحقيقة تُعزّز من قوّة موقفهم وتُضفي عليه مشروعية جديدة. وربما كانوا، وهم

١- «ماري سومرفيل» (١٧٨٠–١٨٧٢) كانت عالِمة أسكتلندية بارزة في الرياضيات والفلك، وتُعد من أوائل النساء اللاتي حظين باعتراف واسع في المجتمع العلمي البريطاني. بدأت تعليمها بشكل ذاتي في سن متأخرة، وبرزت بقدرتها الفذة على شرح أعقد المفاهيم العلمية بلغة مبسطة. من أشهر إنجازاتها ترجمتها وتفسيرها لعمل «لابلاس» «الميكانيكا السماوية»، وهو ما جعلها مرجعًا علميًا معتمدًا حتى في جامعة كامبردج. أسهمت في ترسيخ استخدام مصطلح «عالِم» (scientist) وكانت من أوائل من حملوه. دافعت عن تعليم النساء وحقوقهن السياسية، ووقّعت على أول عريضة للمطالبة بحق المرأة في التصويت. كرّمتها جامعة أكسفورد بتأسيس «كلية سومرفيل» على اسمها، كما سُمّي كوكب صغير باسمها، تقديرًا لإسهاماتها في العلم والمجتمع.

يقرؤون ذلك المقال، يتمنّون لو هتفوا: «Non tali auxilio, nec defensoribus istis!»[١] أي: «ليس هذا هو العون الذي نحتاجه، ولا هؤلاء المدافعون!»

لم تكن مجلة «ذا لانسيت» (The Lancet) مناصرةً للطالبات في تلك الأيام، ومن الجيد أن نعلم أن المحرر أتاح لصوفيا فرصةً للرد. وكانت رسالتها نموذجًا للأسلوب الكتابي الذي بدأ يميزها — وضوح شديد، وإيجاز، ونبرة مهنية، خالية تمامًا من الزخرفة الأسلوبية التي ميزت كتاباتها في شبابها، فكتبت صوفيا ردًا على هذه الرسالة قالت فيه:

> طالعتُ في عددكم الصادر بتاريخ الأوّل من يونيو عام ١٨٧٠، رسالةً بعنوان «النساء كممارسات لمهنة التوليد»، وإني أستأذنكم، إحقاقًا للحق، في أن أقتطع ربعَ المساحة التي شغلتها تلك الرسالة، لأُدلي بكلمة يسيرة في الرد عليها.
>
> ليس ثمّة كبير جدوى في مناقشة مستهلّ تلك الرسالة، إذ تكفي فقرتها الثانية وحدها لدحض فقرتها الأولى. فبعد أن يقرّر الدكتور «بينيت»، على نحو قاطع، أنّ النساء «غير مؤهّلات من حيث التكوين الجنسي، والبدني، والعقلي، لتحمّل العناء المتواصل والشاق»، يمضي بعد ذلك ليقترح أن يُسند إليهنّ وحدهنّ ذلك الجزء من المهنة الطبية الذي يصفه هو نفسه بأنّه «الأشدّ عناءً، والأكثر إرهاقًا، والأقلّ مردودًا». وها هنا، في تلك الصفة الأخيرة تحديدًا، يبدو أنّه يكمن مُبرّر تقسيم العمل، حسبما يراه الكاتب؛ فهو يرى أنّ قدرات النساء محددة على نحو يجعلها منسجمةً تمامًا مع الحالات التوليدية زهيدة الأجر، بينما الحالات التي تستلزم أجرًا أعلى ينبغي أن تُسند إلى «عقول الرجال من العرق الأوروبي»، بحسب تعبيره!
>
> فما دام الأجر مجزيًا، فلْيكن من نصيب الرجل؛ أمّا ما شَحّ عائدُه، فليُلقى إلى النساء، تَفَضُّلًا ومِنَّةً عليهن! وهكذا تنكشف الرؤية الحقيقية لكاتبٍ يُفكّر بعقلية التُجَّار. ولعلّه من الجيد أن تُعبِّر هذه الرؤية عن نفسها هذه المرّة بصراحة ووضوح. وإذ أُوقن أنّ الغالبية الساحقة من الأطباء سيتحرّجون من تبنّي مثل هذا المبدأ، بل وأُجزم بأنّ الرأي العامّ سينبذه برُمّته، فلا أرى حاجة للإطالة في مناقشته.

١- هذه العبارة مأخوذة من ملحمة «الإنيادة» (Aeneid) للشاعر الروماني الكبير «فرجيل» (Vergilius)، حيث قيلت العبارة على لسان البطل «إينياس» (Aeneas)، عندما يرى كيف يحاول بعض سكان طروادة الدفاع عن مدينتهم ضد هجوم الإغريق، لكنهم يفعلون ذلك بطريقة ساذجة غير مجدية، وبأسلحة لا تنفع، وبقيادة من ليست لديهم دراية أو كفاءة في الميدان. فيعترض قائلًا: هذه ليست النجدة المطلوبة، ولا هؤلاء هم الرجال الجديرون بالدفاع.

لكن حين ينتقل الدكتور «بينيت» إلى إلقاء الأحكام فيما يتعلّق بما يُسميه «المساواة العقلية»، نغدو بإزاء مسألة مختلفة، وأكثر خطورة. أما أنا، فلا أعني أبدًا أن أُطالب بتلك المساواة، ولا أن أُنكرها، إذ لا أراها بتاتًا ذات أهمية جوهرية في موضوعنا الآن.

اسمحوا لي أن أُوجز، في كلماتٍ قلائل، الموقف الذي أتبنّاه، والذي — كما أعتقد — يتّخذه أكثر زملائي من الطلبة والطالبات، وهو أننا نقول لسلطات المهنة الطبية: «بيِّنوا لنا، بجلاء، المؤهلات والشروط التي ترونها لازمة لمن أراد أن يمارس الطب. ضعوا المعايير التي تحبون وتشاؤون، لكن عبّروا عنها بوضوح، ولا تزرعوا الأشواك في الطريق. فإمّا أن تُتيحوا لنا سُبل التعليم الطبيعية، كما أُتيحت لغيرنا، أو أن تصرحوا بأنّكم تشترطون علينا سبيلًا آخر لا يُتاح لسوانا.»

وفي الحالتين، اخضعونا للامتحانات والاختبارات ذاتها التي يخضع لها الطلبة جميعًا، فإن فشلنا في أن نكون على قدر أداء زملائنا، فلكم أن ترفضونا. أمّا إن اجتزنا الصعوبات، وبلغنا معاييركم، واستوفينا شروطكم كاملة، فقد انتهت عندئذٍ مسألة «المساواة العقلية»، على الأقلّ فيما يخصّ قضيتنا. فامنحونا إذًا الرخصة الطبيّة، أو الشهادة الجامعية المعتادة، ودَعوا الحُكْمَ على مدى نجاحنا أو فشلنا في ميادين العمل يصدر عن التجربة التي سنخوضها، وعن رأي الناس.

هذا هو موقفنا، وإني لا أناشد النُّبل ولا أناشد أخلاق الفروسية، بل أناشد عدالة المهنة الطبية، أن تقول لنا إنّ موقفنا ومطالبنا غير مقبولة، أو أن تُقرّ بها فورًا وتنفذها مباشرة.

خادمتكم المتواضعة، صوفيا جكس-بليك

كانت صوفيا — بشخصيتها الصلبة والعنيدة — تأبى أسلوب المُهادنة، وتأنف طأطأة الرأس والانحناء، فما كانت لتقبل أن يُمنح لها الحق تفضُّلًا أو شفقة، بل كانت ترى أن الحقوق تُنتزع انتزاعًا، لا تُستدرّ بالعواطف ولا تُستجدى بالدموع. ولم تكن ترضى أن يُقال عنها: «أعطوا هذه الفتاة الصغيرة المسكينة حقها»، بل كانت ترفض كلَّ وصفٍ يُنقص من عزيمتها، أو يُحيل قضيتها إلى باب الرثاء والمواساة. كانت تريد الحق خالصًا، مُجرّدًا من كلّ منّة، خاليًا من كل شفقة.

ولعلّ هذه الصرامة التي تحدثت بها، وهذا الإصرار القوي على موقفها، قد أطالا أمد معركتها، وربما لو لانتْ عبارتها وهدأت لهجتها لكان الطريقُ إلى تحقيق ما تريد أقصر. لكنها كانت تكتب صفحةَ نضالٍ لا تليق بها إلا هذه الحِدّة، ولا يليق بها إلا هذه القوة والشجاعة. كما

قال المناضل الفرنسي العظيم «فرانتز فانون» (Frantz Fanon): «إن محو الاستعمار إنما هو حدثٌ عنيفٌ دائمًا». وهذا بخلاف الأسلوب الذي كانت تُفضِّله غيرُها من زميلات المهنة كالدكتورة «إليزابيث جاريت»؛ إذ أبدت استياءها من نشر مقال صوفيا في مجلة (Lancet). فمن وجهة نظرها، كانت سخريةُ امرأةٍ صغيرة من طبيبٍ رجل قد تؤجج العداءَ لقضية النساء، خصوصًا بين أولئك الذين يظنون أنفسهم من ذوي «العقل الذكوري الأوروبي المتفوق». وقد فضّلت «إليزابيث» التركيز على منجزات النساء بدلاً من نقائص الرجال.

وأمّا أنا، فإنني لا أستطيع إلا أن أُجِلَّ طريقة صوفيا، وأفضّلها على غيرها، لأن الظالمين كانوا جريئين في التعدي على الحقوق وسلبها، فلا بد أن يُواجَهوا بجرأةٍ أبلغ وشجاعة أكبر، وأن تُقارَعَ صَرامتهم بصَرامة أشد وأقسى، لا أن يُنتظر منهم عدلٌ يتكرمون به، أو شفقة يتفضلون بها. إن الله يقول: ﴿أم أبرموا أمرًا، فإنا مبرمون﴾، والله يقول: ﴿إنهم يكيدون كيدًا، وأكيد كيدًا﴾، والله يقول: ﴿ومكروا مكرًا، ومكرنا مكرًا﴾. فلا بد أن يُواجَه الكيدُ بكيدٍ يُبطله، ويُقابَل المكرُ بمكرٍ يُفشله، ويُردّ الإبرامُ بإبرامٍ يُنقضه. ولا أقول إلا كما قال الشاعر «أبو القاسم الشابي»:

إنَّ السَّلامَ حَقيقةٌ مَكذوبةٌ .... والعَدلُ فَلسَفَةُ اللّهيبِ الخابي

لا عَدلَ إلا إنْ تَعادلَتِ القُوى .... وتَصادَمَ الإرهابُ بالإرهابِ

******

نعود إلى دراسة التشريح ونقول: كانت خبرة «صوفيا» الطبية، خلال إقامتها في أمريكا، تقتصر في معظمها على العمل التطبيقي داخل المستشفيات، وقد تركز نشاطها خصوصًا في مجال الأمراض النسائية. وكانت قد مارست بعض دروس التشريح على نحوٍ بدائي وسريع، ولم تنل ما كانت تعدّه آنذاك «تعليمًا حقيقيًا» إلا خلال دراستها في نيويورك، قبل أن تضطر إلى العودة إلى وطنها بسبب مرض والدها.

ومع ذلك، امتلكت صوفيا ميزةً كبرى على زميلاتها الطالبات، إذ أدركت أن «رعب» غرفة التشريح لا يزول إلا بالمواجهة القوية والصمود، وبالروح الجادة التي لا تهاب شيئًا. وقد علّمتها التجربة أنَّ المرءَ إن لم يتحكم بنفسِه منذ اللحظة الأولى، فقد يُلحق أذًى بالجثث التي يعمل عليها، ولا ريب أن للجسد الميت حرمةً تستوجب التعامل معه بأقصى درجات الأمانة والاحترام.

وقد بدأ صف التشريح رسميًا في شهر نوفمبر، غير أن القاعات كانت قد فتحت أبوابها منذ مطلع أكتوبر، وكان الأساتذة حاضرين لمن شاء من الطلبة أن يستبق الموعد الرسمي

بالحضور والمشاركة. وقد انتهزت النساءُ هذه الفرصة، فكانت لهن ميزة السبق إلى المحاضرات، مما زادهن حماسةً وجدًّا يفوق سائر الطلبة. ولو أن غرفةً منفصلةً خُصصت لهن، لفضّلنها، ولكن إذ لم تتوفر، عملن في صمتٍ ومثابرة في ركنٍ من القاعة، بجانب الطلاب الذكور الذين كانوا يتوقعون أن يرون إغماءات أو نوبات هستيرية. أما الفتيات السبع فقد نسين — وسط انهماكهن في طلب العلم — العالمَ بأسره. وسارت الأمورُ سيرًا حسنًا، حتى أن المحاضر نفسه أقرّ بأن جودة العمل في فصله لم تكن يومًا بمثل هذا المستوى الرفيع.

وفي تلك الأثناء، كان بعض الأصدقاء المخلصين والمؤثرين يبذلون جهودهم خلف الستار لدعم مصالح النساء؛ إذ لا بد من التذكير بأن الطالبات اللائي تم تسجيلهن رسميًا في الجامعة، كنَّ ملزمات بالحضور «داخل أسوار الجامعة». أما الدروس الخاصة التي يتلقينها على أيدي أساتذة معتمدين خارجها، فكانت محدودة، وتُقبل شهادتها في حدود ضيقة لتُضم إلى البرنامج الدراسي الرسمي.

وفي الثامن والعشرين من أكتوبر، قُدِّمت إلى المجلس العام للجامعة مذكرةٌ تطالب بتقديم مزيدٍ من التسهيلات للطالبات، بيد أن الاقتراح رُفض رفضًا قاطعًا. وقد صعد عدوهم اللدود البروفيسور «كريستيستون» إلى المنبر، وألقى خطابًا أعلن فيه أن جلالة الملكة «فيكتوريا» — وقد كان هو طبيبها الشخصي — قد أبدت تأييدها للآراء التي سبق أن تبناها هو والدكتور «لايكوك» (Laycock)، والتي تقضي بعدم السماح للنساء بالمشاركة الكاملة في الحياة الجامعية أسوةً بالرجال.

وإن صحَّ هذا النقل، فجدير بالمرء أن يتساءل: بأي سبيل وصلت هذه الأخبار إلى مسامع جلالة الملكة؟ إذ لم تكن هذه القضية، في ذلك الوقت، من الأخبار الكبرى التي تتصدر افتتاحيات الصحف الكبرى مثل جريدة «التايمز» (The Times)، مما يجعل احتمال اطلاع الملكة عليها ضعيفًا. فهل كان البروفيسور «كريستيستون» نفسه من نقل إليها الأخبار مصبوغة برأيه الشخصي دون سماع وجهة النظر الأخرى؟ لا نعلم!

على أية حال، عُرض اقتراحٌ جديدٌ في المجلس لمنح النساء مساحات أوسع وحريات أكاديمية أكبر، لكنّه رُفض مرة أخرى بفارق صوتٍ واحد: سبعة وأربعون صوتًا ضد ستة وأربعين. ومع ذلك، لم تيأس صوفيا، بل قالت بقوتها المعهودة: «حسنًا، نحاول مرة أخرى في العام المقبل!»

وعند تأمل هذه القصة بتأنٍّ، يُصاب المرء بالدهشة من ضيق الفارق الذي كانت تُحسم به القرارات المصيرية. حقًا، كم هي عظيمةٌ مسؤولية الأشخاص الضعفاء والمترددين، أولئك الذين يختارون لأنفسهم موقف «الحياد»، بينما هم في الحقيقة هادمون للحق متخاذلون عن نصرته. ولا أجد تعبيرًا أصدق من قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب — عليه السلام — حين وصف

أولئك الذين تركوا القتال معه، وتركوا كذلك القتال ضده في جيش معاوية — عليه من الله ما يستحق —، قائلًا: «لم ينصروا الباطل، لكنهم خذلوا الحق».[١]

في هذه المرحلة، سواء كان القرار صائبًا أو لا، فقد نُصحت النساء بأن يطلبن الإذن للعمل في أجنحة «المستشفى الملكي» (Royal Infirmary). وكان هذا المستشفى الوحيد في إدنبرة الذي تتوفّر فيه الشروط التي يتطلّبها «المجلس العام للطب» (General Medical Council) لتسجيلهنّ كطبيبات ممارسات. وبما أنهنّ كُنّ يحملن بطاقات الانتساب الرسمي للجامعة، فقد كان طلاب الجامعة يحصلون تلقائيًا على حق التدريب داخل المستشفى. وكنّ يعرفن أنّ بعض الأطباء متعاطفون معهنّ. وهذه مقتطفات قصيرة من المذكرات اليومية تبيّن حالهم:

> الدكتور «واتسون»، ودود للغاية، سعيد بقبولنا كطالبات. لم يتوقّع أن تكون هناك مشكلة في المستشفى... الدكتور «ليتلجون» (Littlejohn) توقّع أن تؤدي النساء إلى تدمير مستقبل ابنه في الطب، وقال ضاحكًا: «سيتجرّع المرارة حتى الثمالة، ثمّ يُصوّت لصالحهنّ!»

وهذا الحق والامتياز الذي يُعطى تلقائيًا للطلاب الذكور، خاضت الفتيات معركةً، بالمعنى الحرفي للكلمة، لنيل هذا الحق، وقوبل طلبهنّ بالتدريب في المستشفى الجامعي بالرفض القاطع، وقد نُصحن من قِبل بعض الأساتذة أن يقدمن عريضةً مكتوبة، وأنه ما دمن طالبات رسميات في الجامعة، فلا يعلم قانونًا يمنعهن من التدريب في المستشفى الجامعي.

كان جليًّا أنهنّ قد طرقن باب «عرين الأسد»، وبلغن معقلًا حقيقيًّا للخصوم، حيث لا يُحتكم إلى العدل والحقّ بقدر ما يُحتكم إلى النفوذ والسلطة، وحيث يُختزل القانونُ في قبضة من يملكه ويُسخِّره لهواه. لقد باتت قضيتهنّ بين يدي هيئة إداريةٍ يتسلّط عليها أطباء لا يضمرون للنساء ودًّا، ولا يرغبون لهنّ إنصافًا، ولا يقبلون لهنّ وجودًا في حيزٍ طالما انفردوا به وسيطروا عليه. وهكذا صار لزامًا على الطالبات أن يُفصحن ويدافعن عن موقفهنّ بأقصى ما أوتين من وضوح وبيان، وأمام مَن؟ أمام خصومٍ يجمعون بين سلطان القرار وعداء الخصومة، إذ غدا أعداؤهنّ خصومًا وحُكّامًا في آنٍ واحد.

وقد قالت صوفيا في سيرتها الذاتية: «إن نتائج الامتحانات الفصل الأول التي ذكرتها قد زرعت قناعةً راسخةً لدى معارضينا، مفادها أن «التجربة» لن تفشل من تلقاء نفسها، كما كانوا يأملون، بل إنهم أدركوا أنه إن أرادوا إيقافها، فعليهم اتخاذ إجراءات صارمة لتحقيق ذلك.»[٢]

١- العلامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الطبعة الأولى ١٩٩٢، الجزء ٣٤، ص ٢٨٦، (النقل بتصرُّف).

2- Jex-Blake, S. (1886). *Medical women: A thesis and a history.* Edinburgh: Oliphant, Anderson, & Ferrier; London: Hamilton, Adams, & Co. p83

ولعلّ القارئ الكريم قد لاحظ أن اسم المستشفى الملكي يُدوَّن بالإنجليزية على هذا النحو: (The Royal Infirmary)، وليس (The Royal Hospital)، وقد تبدو لفظة «Infirmary» غريبةً عن السمع العربي، إلا لمن خاض غمار الدراسة الطبية أو اقترب من مصطلحاتها.[١] والحقيقة أن الكلمتين في اللغة الإنجليزية في بريطانيا تؤديان المعنى ذاته، فـ «Infirmary» ترادف «Hospital»، ولا فرق بينهما من جهة الوظيفة أو الدلالة، غير أن التفاوت بينهما يعود إلى اعتبارات تاريخية وأخرى جغرافية؛ إذ قد تسود إحداهما في زمن دون آخر، أو تُستعمل في إقليم دون غيره. غير أنّ الخلاصة واحدة: كلاهما يدل على المكان الذي يُرتاد للتطبيب والتداوي.

نعود فنقول: لم يكن أمام تلكم النسوة بدًا من أن يجمعن المؤيدين لهن من الرجال والأساتذة، رافعين طلب السماح لهن بالتدريب في المستشفى الجامعي عن طريق الأساتذة وليس عن طريق الطالبات، فكتب الأساتذة الدكتور «هانديسايد» (Handyside) والدكتور «واتسون» (Watson) اللذين درسوهن التشريح والجراحة عريضةً وتقدما بها إلى إدارة المستشفى الجامعي يقولان:

> يا صاحب السعادة والسادة المحترمون،
>
> بصفتنا محاضرين في كلية الطب بجامعة إدنبرة، نتقدّم إلى مجلسكم الموقّر بهذا الخطاب نيابةً عن الطالبات الثماني في هذه الكلية، اللواتي —حسبما نُفهم— ترفضون قبولهن لمزاولة التدريب في المستشفى الملكي الجامعي. ونرجو أن نُبيّن لكم بالنيابة عنهن الآتي:
>
> ١. إنهن طالبات مسجّلات رسميًا في كلية الطب هذه.
>
> ٢. إنهن، في الوقت الراهن، يحضرن مع سائر الطلبة دروسنا في التشريح، والتشريح العملي، والدروس التطبيقية في التشريح، والجراحة المنهجية، وذلك في الكلية الواقعة في «قاعة الجراحين».
>
> ٣. إننا، بصفتنا أساتذة في مادتي التشريح والجراحة، لا نواجه أيةَ صعوبة في إدارة صفوف مختلطة كهذه، يجلس فيها الطلبة والطالبات جنبًا إلى جنب على المقاعد نفسها؛ وإن وجود هؤلاء الطالبات الثماني لم يدفعنا إلى تعديل أو تغيير أي جزء من منهجنا التعليمي بأي صورة من الصور.

١- سألت بعض أصدقائي الأطباء عن مدى تداول واستخدام هذه الكلمة في دراستهم ومجالهم وتخصصهم، فوجدتهم لا يعلمون معناها، لا يعلم أصدقائي الأطباء أن كلمة «Infirmary» تعني مستشفى. اللهم إلا بعض الأصدقاء الأطباء في الولايات المتحدة؛ إذ الكلمة هناك تعبر عن مستوصف صغير، كعيادة السجن أو غيرها.

٤. إن حضور الطالبات، بدلاً من أن يُنقِص أعداد من يسجل في صفوفنا، زاد في الحقيقة من الإقبال، حيث لاحظنا أن عدد الطلبة المنتظمين في هذا الفصل فاق ما سُجل في الفصول السابقة.

٥. إن خبرتنا في الصفوف المختلطة أظهرت لنا أن سلوك الطلبة يكون أكثر نظامًا وهدوءًا، وأن التزامهم بالدراسة أكثر جدية واجتهادًا، مقارنةً بالجلسات السابقة التي كان فيها الطلبة من الذكور فقط.

٦. ونرى، من وجهة نظرنا، أنه إذا حُرمت الطالبات من التدريب العملي على أسرّة المستشفيات ومن فحص الحالات وعلاجها — وهو حق لطلبة الطب — فإن أي منهج تدريسي في الجراحة سيفتقر بذلك إلى التوضيح العملي اليومي، وسيصبح دون المستوى الممنوح للطلبة الذكور الذين يتمتعون، علاوة على ذلك، بميزة حضور المستشفى وتلقي التعليم العملي من المدرّس نفسه.

٧. إن التعليم الجراحي، إذا جُرّد من جانبه التطبيقي بسبب حرمان الطالبات من دخول المستشفى الملكي الجامعي، وبالتالي من التواصل مع أستاذهن — الجراح الرئيسي داخل الأجنحة، فإن معرفة الطالبات لا بد وأن تتضرر، لا فقط في اختبارات الصف، بل في قدرتهن مستقبلًا على ممارسة مهنتهم الطبية.

٨. إن تجربتنا في الصفوف المختلطة أقنعتنا بأن وجود الطالبات في الزيارات العادية للمستشفى، مع زملائهن من الذكور، لا يمكن أن يكون أشد اعتراضًا من وجود الطلبة الذكور أنفسهم أمام الممرضات أو أمام المريضات، تمامًا كما لا يُعد وجود الطالبات اعتراضًا أمام المرضى الذكور.

٩. إن الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها هؤلاء الطالبات، إضافة إلى تحفظهن في السلوك، وروح الاحترام الجاد التي يخصّصنها لدراستهن الطبية، تجعل من غير الممكن أن ينشأ أي تصرّف غير لائق من جراء وجودهن في الأجنحة، سواء مع المرضى أو مع زملائهن من الطلبة.

وخلاصة القول، نرجو من مجلسكم الموقّر أن يرى في هذه البيانات ما يكفي لاتخاذ قرار بعدم استبعاد هؤلاء الطالبات من الممارسة، لا سيّما في حضور أولئك الأطباء والجراحين الذين لا يعارضون وجودهن خلال الزيارات العادية مع بقية الطلبة.

إن استبعاد الطالبات كليةً من أجنحة المستشفى الجامعي، إذا ما صدر بهذا الشكل من مجلسكم الموقّر، فلا يسعنا إلا أن نراه عملاً من أعمال الظلم

العملي الواقع على الطالبات اللواتي، بعد قبولهن في دراسة الطب، سيُمنعن من التقدم في دراستهن إن حُرمن من حضور التدريب في المستشفى.

أقول للقارئ الكريم، إنه وبعد هذا الخطاب البديع والرائع الذي كتبه هذان الأستاذان، أرادت الفتيات أن يزدن من موقفهن قوةً وصلابة، فكتبن بأنفسهن عريضةً تقدمنها إلى إدارة المستشفى، وهذه العريضة، وللمرأة الأولى يجتمع فيها أسماء البطلات السبع، وكان الخطاب والتوقيع بأسمائهن كالآتي:

يا أصحاب السعادة والسادة المحترمون، درءًا لأي سوء فهم محتمل، أتشرف، باسم زملائي الطالبات وباسمي، أن أوضّح صراحة أننا، ونحن نلتمس بإلحاح من مجلسكم الموقّر أن يصدر لنا بطاقة حضور كطلبة عاديين للمستشفى الملكي (لأننا وحدنا سنكون مؤهلين للتخرّج)، ليس لدينا، في حال منحنا هذا الإذن، أية نية للحضور في أجنحة أولئك الأطباء والجراحين الذين يعارضون وجودنا هناك، وذلك مراعاةً للّياقة، وأيضًا لأننا سنكون قد حصلنا سلفًا على وسائل كافية للتعلّم من خلال الحضور في أجنحة أولئك الذين عبّروا بوضوح عن ترحيبهم باستقبالنا.

Sophia Jex-Blake

Mary Edith Pechey

Isabel Thorne

Matilda Chaplin

Helen Evans

Mary Anderson

Emily Bovell

لقد عُرفت هؤلاء الفتيات المناضلات فيما بعد باسم «فتيات إدنبرة السبع»، وهو لقبٌ ذاع صيته عالميًا ليُصبح رمزًا للتحدي والإصرار. أو وفقًا للعبارة اللاتينية « Septem contra Edinam»، التي تعني «سبعة ضد إدنبرة». استُوحي هذا الاسم من الأسطورة اليونانية الشهيرة «سبعة ضد طيبة»، والتي تحكي عن سبعة أبطال خاضوا معركةً داميةً ضد مدينة طيبة في

محاولتهم لاستعادة العرش بعد سقوط ملكها (أوديب). بهذا اللقب، رُمز إلى كفاحهن المستميت في الأدبيات التاريخية.[1]

أما الورقة الثالثة التي قدمنها إلى إدارة المستشفى فكانت تحمل توقيعات من أطباء داخل المستشفى الذين يوافقون على تواجد الفتيات وتدريبهن تدريبًا عمليًا بها. فكان نصه ما يلي:

> نحن، الأطباء والجرَّاحون الموقّعون أدناه من المستشفى الملكي، نود أن نُعبّر عن استعدادنا للسماح لطالبات الطب بحضور التدريب العملي في أجنحة المستشفى، ونؤكد أن حضورهن هذا لا يعيق بأيِّ شكلٍ من الأشكال أداءَ واجباتنا الكاملة تجاه المرضى وسائر الطلبة.

كان مدراءُ المستشفى الجامعي والذي يُسمّى «المستشفى الملكي» (Royal Infirmary) رجالًا محترمين، وبحسب ما تقول صوفيا فإن «عددًا» منهم كانوا معروفين للنساء بكونهم «منصفين واسعِي الأفق»، فلا عجب أن الغالبيةَ منهم تأثرت بهذه الحجج، وتبنّت مطلب النساء. لكن، بذريعة ضيق الوقت، نجح الفريقُ المناوئ والمعادي للفتيات في تأجيل البت في الأمر لأسبوع آخر. وقد بدا الآن أن اللحظة الحاسمة قد حانت، لحظة يجب فيها بذل كل جهد لطرد النساء تمامًا. فإن نجحوا في الاجتماع التالي في منع الفتيات من التدريب الجامعي، فكل شيء قد يُفقد.

وعند هذه النقطة، بدأ بعض الطلاب لأول مرة بإظهار سلوك عدائي، فصاروا، كما تقول صوفيا: «يُغلقون الأبواب في وجوهنا، ويتزاحمون عمدًا على المقاعد التي كنا نشغلها عادةً، وينفجرون ضحكًا عاليًا وصراخًا عندما نقترب، وكأن مؤامرة قد حيكت لتجعل وجودَنا غيرَ مريحٍ بقدر ما يستطيعون من قوة.» ثم جرى توزيع عريضة بين الطلاب ضد قبول النساء في «المستشفى الملكي»، ووقّع عليها ٥٠٠ طالب. وكان نص هذه العريضة كالآتي:

> سيدي الرئيس، نحن، طلاب الطب الموقّعين أدناه، من جامعة إدنبرة وكلية الجراحين الملكية، نعلم أن الطالبات اللاتي يدرسن حاليًّا في إدنبرة قد تقدّمن بطلب للقبول في المستشفى. وبناءً على ذلك، نرفع هذه العريضة نطلب فيها بأدب

١- تحكي الأسطورة عن الملك أوديب (Oedipus)، حاكم مدينة طيبة ذات الأبواب السبعة، الذي قرر التنازل عن العرش لولديه. اتفق الشقيقان إيتوكليس (Eteocles) وبولينيكس (Polynices) على التناوب في الحكم، بحيث يتولى كل منهما العرش عامًا بالتناوب. لكن بعد أن أمضى إيتوكليس السنة الأولى في الحكم، رفض التنازل عن العرش لأخيه. واعتراضًا على هذه الخيانة، لجأ بولينيكس إلى مدينة أرجوس (Argos)، حيث تزوّج من ابنة الملك أدراستوس (Adrastus) وطلب مساعدته لاستعادة عرشه. استجاب الملك أدراستوس وعيّن سبعة من أفضل فرسانه لقيادة حملة عسكرية، تهدف إلى مهاجمة أبواب طيبة السبعة، بحيث يدخل كل فارس من باب. لكن الحملة انتهت بالفشل، إذ لقي الفرسان السبعة مصرعهم في المعركة، وقُتل الأخوان إيتوكليس وبولينيكس في مواجهة أخيرة مأساوية.

ألّا يُمنح هذا الطلب — في جزئه المتعلق بالسماح لهن بزيارة الأجنحة ما بين الساعة ١٢ والساعة ٢ ظهرًا — للأسباب التالية:

١. لأن العديد من الأطباء يعارضون هذا التغيير.

٢. لأنه، إذا سُمِح للنساء بدخول الأجنحة في الأوقات المعتادة، فإن أحد أمرين سيقع بالضرورة: إما أن تُعالج الموضوعات الطبية باللغة الأهمية بشكل ناقص أو يُتَغافل عنها تمامًا، أو، إذا طُرحت بالتفصيل، فسنضطر إلى مغادرة المكان، لأن هذه المواضيع لا يصح مناقشتها أمام جمهور مختلط.

٣. ولأننا، عند دخولنا للدراسة السريرية، لم يكن لدينا أي سبب لتوقع أن تجري الأمور في ظروف غير مريحة كهذه. ولو كنا قد علمنا بذلك مسبقًا، لتأثر خيارنا في اختيار كلية الطب.

وبناءً على كل ما سبق، نرى أن فتح أبواب المستشفى لتعليم مختلط بين الذكور والإناث يضر بمصلحة المؤسسة والطلاب معًا.

وفي الاجتماع التالي، لقيت تلك العريضة اهتمامًا بالغًا، غير أن طلب النساء بالتدريب داخل المستشفى الجامعي قوبل بالرفض بأغلبية ساحقة، كانت كفيلة بإظهار عمق العداء الذي لا يزال يحيط بهنّ من كل جانب. لقد كانت هذه الضربة قاسيةً لا ريب، ولكن صوفيا كانت تزداد مع كل نكسةٍ صلابةً ودهاءً؛ إذ أخذت تتعلّم من خصومها: فإن كانوا قادرين على المثابرة في الحرب، فهي قادرةٌ على المثابرة أعظم منهم، وأصلب عودًا، وأرسخ قدمًا. والحق يُقال إن هؤلاء الذين صوتوا ضد الفتيات لم يكونوا جميعهم معارضين لهن، بل تقول صوفيا: «وقد اعترف لي أحد أولئك الذين صوّتوا ضد قبولنا بأنه قد فعل ذلك بناءً فقط على نصيحة الأعضاء الطبيين في المجلس، وأنه لم يكن على علم حتى بأننا كنّا طلابًا مسجَّلين رسميًّا في الجامعة، وأننا لا نستطيع إكمال تعليمنا من دون حضور الدروس العملية في المستشفى.»[1]

وهكذا، لم يكن هذا الرفض نهاية المعركة وإقصاء الفتيات، لكنه كان إعلانًا لبداية فصلٍ جديد منها. لقد بدأت الآن معركة الولوج إلى المستشفى الجامعي، معركة ستستنزف الكثير من الجهد والتخطيط والمواجهة. واستمر أثرُ هذا الأسبوع الحافل بالحملات محتدمًا في أروقة الجامعة وخارجها، حتى بعد اجتماع مديري المستشفى، وحتى بعد صدور القرار الظالم برفض الطلب؛ إذ كانت القضية قد تجاوزت حدود طلبٍ إداريٍّ بسيط لنيل ما يناله زملاؤهم الذكور تلقائيًا.

1 -Jex-Blake, S. (1886). *Medical women: A thesis and a history.* Edinburgh: Oliphant, Anderson, & Ferrier; London: Hamilton, Adams, & Co. p89

وهكذا، فاز المعارضون بنقطةٍ لصالحهم، وحقق الفريقُ المناوئ نصرًا سهلًا. قال أحدهم: «تابعوا الأمر.» وأضاف آخر: «لا تتوقفوا عند هذا الحد. طالما أنكم بدأتم، فلماذا لا تتخلصون من النساء بالكامل؟»

لم يكن هذا اقتراحًا جديدًا أو غير متوقع؛ فقد كان وجود النساء يثير شعورًا بعدم الارتياح لدى البعض؛ لكن مَنْ قدَّم هذا الاقتراحَ لا بُدَّ وأنه كان يعرف جيدًا كيف سيتصرّف الطلاب لتنفيذه، وأي نوع من الطلبة سيتولى زمام المبادرة، يبدو أن أحدهم كان يخطط ويحدد أدوار اللاعبين كما يريد.

وقبل أن نمضي في حديثنا قُدُمًا، يحسن بي أن أستوقف القارئ الكريم هنيهةً عند رفض طلب التحاق الفتيات بالمستشفى الجامعي، فأذكّره بما قد ذكرته من قبل؛ إذ إن الخطاب الذي صاغه أستاذَا التشريح والجراحة جاء في بنده الثالث قولهم: «وإن وجود هؤلاء الطالبات الثماني لم يدفعنا إلى تعديل أو تغيير أي جزء من منهجنا التعليمي بأي صورة من الصور.»

ولعل القارئ النبيه يسأل نفسه: كيف جمع الأستاذان بين القول «الطالبات الثماني» وبين أن عدد الموقعات على طلب الالتحاق بالمستشفى لم يتجاوز السبع؟ وكيف ذاع في الآفاق بعد ذلك لقب «فتيات إدنبرة السبع» وهن — فيما يبدو — ثمانٍ؟ وهنا أقول: إن لاحظ القارئ هذا التناقض الدقيق، فله مني أسمى آيات التقدير لما أبداه من حِدّة الذهن وقوة الملاحظة، وإن غاب عنه هذا التفصيل، فها أنذا أبادر إلى بيان الأمر قبل أن نستكمل الطريق.

فالحقيقة أن عدد الطالبات اللواتي قيدن أسماءهن رسميًا في سجلات الجامعة كان سبعًا، أما اللواتي كن يحضرن المحاضرات الخاصة بأستاذَي التشريح والجراحة، فكن ثمانيًا. وهنا يثور سؤال لا بد منه وهو: من هي هذه الطالبة الثامنة؟ ولماذا لم تُسجَّل مع زميلاتها في الجامعة؟ ولماذا لم تطلب مثلهن الالتحاقَ بالتدريب في المستشفى الجامعي؟

والجواب على ذلك أن هذه الطالبة الثامنة كانت تُدعى «مدام كينجسلي» (Mrs Kingsley)، — زوجة السيد «هنري كينجسلي» (Henry Kingsley) محرر صحيفة «ديلي ريفيو» (Daily Review) —، ولم تكن تتوق إلى دراسة الطب، ولا رغبت في تسجيل اسمها في الجامعة، ولا سعت إلى نيل فرصة التدريب في المستشفى الجامعي. إنما حضرت محاضرات التشريح والجراحة مع الفتيات دعمًا لهن ومناصرةً لقضيتهن العادلة وليس حبًا في الطب ولا في دراسته. لقد كانت تؤمن أن الكثرةَ قوةٌ، وأن اجتماع السواعد يُثبّت الصفوف ويعلي الرايات؛ فرأت أن حضورها بينهن يزيد جمعَهن عزّةً، ويعزز صفوفَهن ثباتًا، ويجعل من عددِهن سدًّا منيعًا في وجه العقبات.

لم تبتغِ تلك السيدة الفاضلة الكريمة لقبًا ولا منصبًا، بل أرادت أن تكون سندًا ومعينًا وحصنًا يُضاعف قوة باقي الفتيات. بل جاوزت ذلك إلى أن دفعت من مالها، وأعطت من وقتها، وسخرَّت هي وزوجُها ما أوتيَا من قوةٍ ونصرةٍ لتلكم الفتيات، إيمانًا يقينيًا منهما بعدالة قضيتهن، وحقهن الأصيل في نيل التعليم الجامعي، نصرةً للحق فقط، وإعلاءً لشأن المرأة ووقوفًا إلى جانب المظلومين.

ولعل هذا الموقف النبيل من تلك السيدة النبيلة يذكرنا بالمقولة الشهيرة المنسوبة إلى «فولتير»: «قد اختلف معك في الرأي، ولكنني على استعداد أن أموت دفاعًا عن أن تقول رأيك.»

نعود إلى فتياتنا البطلات، وبعد رفض طلبهن للتدريب في المستشفى الجامعي، وفي غضون يومٍ أو يومين، جرت محاولة جبانةٌ وواهيةٌ للحيلولة دون دخول النساء إلى قاعة الدرس. وقالت صوفيا معلقة على سلوك الطلاب في ذلك التوقيت:

> بدلاً من أن يكون الطلاب، كما في السابق، صامتين وغير مؤذين، أصبح قسمٌ منهم ممن كنا نعمل إلى جانبهم فظّين وعنيفين للغاية، وسلكوا سلوكًا عدائيًا، وانتهزوا كلَّ فرصة لممارسة المضايقات الصغيرة التي عادةً ما يقترفها الفتيان سيئو التربية، مثل إغلاق الأبواب في وجوهنا، أو التزاحم في المقاعد التي كنا نجلس عليها عادة، والانفجار بالضحك العالي والصفير حال اقترابنا، وكأنما قد تشكلت مؤامرةٌ هدفها جعل وضعنا أكثر ما يكون إزعاجًا.

غير أنّ صوفيا، وقد كانت تتقدّم رفيقاتها بثبات وقوة، تجاهلت تلك الشرذمة من الطلبة الذين اعترضوا سبيلها، وشقّت طريقها بينهم في إباءٍ وقوة، غير عابئة بمحاولتهم الدنيئة، ولا ملتفتة إلى صَغار فعلهم. وعقب ذلك، قررت الفتيات المشي مجتمعات معًا إلى قاعة الجرّاحين، وألا يمشين فرادى كما اعتدن أن يفعلن من قبل، بل في مجموعات تحمي إحداهن الأخرى.

تقول صوفيا: «وقد أُبلغت آنذاك أن أحد أساتذة الطب قال لبعض طلابه: «إنه ليُحسب لكم أنكم لم تقذفوا السيدات بالحجارة لإبعادهن عن حضور المحاضرات!» فقلت حينها: «الآن سنُقذف»، وقد صدق ظني.»

ثم وقع ما صار يُعرف لاحقًا بـ «أحداث الشغب في قاعة الجراحين»، ذاك الحدث الذي قيل فيه الكثير بعد ذلك، واستفاد منه الكاتب «تشارلز ريد» (Charles Reade) في وصف مثير

ضمن روايته «كاره النساء» (A Woman Hater)[١]. وإن أردنا أن نسرد ما حدث بوضوح، دون تزييف أو مبالغة، لا نجد أفضل من الاقتباس من صحيفة (Courant) ـــ الصحيفة الصباحية الوحيدة في إدنبرة والتي كانت ضد النساء ـــ، وكذلك سنقتبس مما ورد في السجل الموجز في مذكرات صوفيا. ولنبدأ أولًا بما ذكرته الصحيفة ونشرته وقالت:

> شهد يوم الأمس حادثةً ذات طبيعة مشينة أمام الكلية الملكية للجراحين (Royal College of Surgeons)، وذلك على خلفية دخول طالبات الطب إلى القاعات الدراسية. ومهما بدا هذا التصرف غير المهذب من جانب بعض الطلاب، فلا ريب أن عددًا كبيرًا منهم قد أبدى عداءً ظاهرًا تجاه وجود النساء في الصفوف. وللأسف، لجأ بعضهم إلى وسائل وضيعةٍ للتعبير عن استيائهم، مما ألحق ضررًا بالغًا بسمعتهم ومقامهم.
>
> وقبيل الساعة الرابعة عصرًا ـــ وهي الساعة التي تصل فيها السيدات عادةً إلى الكلية ـــ تجمّع نحو مئتي طالب أمام بوابة المبنى. وكما هو متوقعٌ في مثل هذه الأجواء المشحونة، لم تخلُ الأوضاع من الحماسة الصاخبة؛ فقد تعالت الألحان الشائعة مثل «الحوت»[٢] و«جسد جون براون» (John Brown's Body)[٣]، بأصواتٍ جاوزت حدود الذوق بمئات الأصوات المستهترة.
>
> وقد جذبت هذه التظاهرةُ الصاخبة حشدًا غفيرًا من المارة، وأحدثت اضطرابًا شديدًا في حركة المرور العامة. وقبيل الرابعة، لمَّا لاح للواقفين على

١- رواية «كارِه النساء» (A Woman Hater)، التي نُشرت عام ١٨٧٧م، هي عملٌ روائيّ اجتماعيّ استوحاه «تشارلز ريد» من الواقع، وتحديدًا من أحداث نضال النساء في جامعة إدنبرة لدخول كلية الطب، مع التركيز على واقعة «شغب قاعة الجراحين» الشهيرة. تدور أحداث الرواية حول طبيبٍ ناجحٍ يُدعى «أرشيبالد» (Archibald)، وهو رجلٌ ساخطٌ على النساء، ويُؤمن بأنّهنّ عاجزات عن بلوغ مراتب الجديّة والكفاءة في العِلم، بل ويُعارض فكرة دخولهن كليات الطبّ. لكنّه يصطدم بشخصيّة نسائية قويّة تُدعى «إديث» (Edith) ـــ وهي طالبة طب ذكيّة ومثابرة ـــ تسعى لإثبات قدراتها في بيئة عدائية مليئة بالتحامل الذكوري. من خلال العلاقة المتوتّرة بين «أرشيبالد» و«إديث»، يستعرض الكاتب الصراعات الفكرية والاجتماعية حول موقع المرأة في المجال العلمي والطبي، ويُجسّد بأسلوب درامي مشاهد التمييز، والعنف الرمزي، وأحيانًا الجسدي، الذي تعرّضت له الطالبات، مُستلهمًا في ذلك مشاهد الشغب الحقيقي الذي واجهته «مجموعة إدنبرة السبعة». ومع تطوّر الحبكة، يبدأ «أرشيبالد» في إعادة النظر في مواقفه، بعد أن تُبرهن «إديث» ـــ بعملها، وعلمها، وشخصيّتها المتّزنة ـــ أنّ المرأة ليست أدنى شأنًا من الرجل، بل جديرة بأن تُعامَل بندّية واحترام. تنتهي الرواية بنغمة من التحوّل الأخلاقي والانتصار الرمزي للعدالة، حيث يُدرك المجتمع (والبطل نفسه) أنّ التحيّز ليس سوى جهل مقنّع، وأنّ النساء قادرات على التفوّق والمساهمة في تقدّم الطبّ والإنسانيّة.

٢- الحوت هي أغنية أو لحن شعبي كان يُعرف بين الطلاب البريطانيين في القرن التاسع عشر. حيث كانت تستخدم غالبًا كأغنية صاخبة أو ساخرة تُغنّى بصوت عالٍ للتشويش أو للتسلية الجماعية، خاصةً في حالات التجمهر والمظاهرات الطلابية. الكلمات الدقيقة لهذه الأغنية غير محفوظة، لأنها كانت تُغنّى بأشكال متغيرة ومتبدلة بين الطلبة حسب المناسبات.

٣- «جسد جون براون» هي أغنية مشهورة جدًا في التاريخ الأمريكي. كان «جون براون» ناشطًا أبيض مناهضًا للعبودية في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر، أعدم سنة ١٨٥٩ بعد محاولته إشعال ثورة مسلحة لتحرير العبيد. هذه الأغنية أصبحت رمزًا للثورة والاحتجاج والصمود، ثم تبنتها لاحقًا الجيوش مثل الجيش الأمريكي خلال الحرب الأهلية.

المدرجات العليا طلوعُ الطالبات، استُقبلن بعواءٍ عالٍ يكاد يثني عزيمة أرسخ الرجال، غير أنه لم يفلح في التأثير على السيدات، اللواتي تقدمن نحو البوابة بثباتٍ وهدوء، دون أن يلتفتن إلى صخب هذه الجموع وسخريتها. فلما بلغن البابَ، وجدنه مُغلقًا في وجوههن، وسط ضحكاتٍ ساخرةٍ وهمهمات استهزاء من الحاضرين.

غير أن بعض الطلاب، وقد أنفت نفوسُهم من هذا المشهد المشين، هتفوا: «يا للعار!» مُعبرين عن رفضهم لهذا السلوك المنحط.

وبعد وقت قصير، تمكن البواب من فتح أحد مصراعي البوابة، فاندفعت السيداتُ إلى الداخل وسط ازدحامٍ شديد، تعرضتْ فيه بعضُهنّ للدفع والاحتكاك.

كانت قاعةُ التشريح التي توجهن إليها مكتظةً إلى حدٍّ كبير، مما حال دون بَدء المحاضرة، إذ وجد الدكتور «هانديسايد» (Handyside) أن الضوضاء والتشويش قد بلغا مبلغًا لا يُطاق، فصار من العسير عليه تمييز طلابه الحقيقيين من بين الجموع. فأمر بخروج الغُرباء من القاعة، ولمَّا هَمَّ بالبَدء، إذا بالخروف الأليف — الذي كان يرعى عادةً في حديقة الكلية — يُدخَل إلى القاعة وسط موجة من الضحك الرخيص.

وقد علَّق أحدُ الطلاب ساخرًا بأنّ الخروف سيكون «عينة مناسبة للأغراض التشريحية». ومع كل هذا العبث، أُبقي الخروف، الملقب بـ «مالايلي» (Malaily)، محبوسًا في مكان بعيد داخل القاعة، بينما أُتيح للدكتور «هانديسايد» أن يستأنف درسه أخيرًا. وعلق المحاضر قائلًا بمرارةٍ ذكية: «اتركوا هذا الخروف هنا، فهو أرجح عقلًا ممن أرسله.»

ولما انتهى الصف، بدا أنَّ عددًا من الطلاب قد قرروا مطاردة السيدات في طريق العودة، غير أن الشرطة كانت لهم بالمرصاد، فألقت القبض على بعضهم، واضطرت إلى فرض النظام بقوة القانون.

غير أنّ كاتبة اليوميات واللاعبة الرئيسية في المشهد رأت الأمور من زاويةٍ مختلفة؛ فقد كتبت تحت تاريخ «الجمعة ١٨ نوفمبر»:

عند اقترابنا من قاعة الجراحين، رأيتُ جمعًا من الطلاب وحشدًا متنوعًا. اضطررنا إلى التوقف عند مكتب البريد ومتجر «هولدن» (Houlden) لقضاء بعض

الحاجات الخاصة بالسيدة «إيفانز».[1] ثم عبرنا الطريق: كنتُ أنا والسيدة «إليزابيث ثورن» في المقدمة، تتبعنا السيدة «كينجسلي» (Kingsley) وزميلات أخريات. وما إن لاحت لنا بوابات القاعة، حتى رأينا حشدًا كثيفًا يملأ الطريق أمامها، يتألف من عدد من أوضع زملائنا الطلاب، بالإضافة إلى آخرين من الجامعة، وعدد من المشاغبين من العامة، وحشود من المتفرجين الفضوليين الذين لم يشاركوا في الأمر، ولكنهم احتشدوا بأعداد غفيرة تكفي لعرقلة المرور لمدة ساعة تقريبًا. لم يكن هناك شرطي واحد في الأفق، رغم أن الزحام كان كفيلًا بتعطيل السير بالكامل. تقدمنا مباشرة نحو البوابات، التي كانت لا تزال مفتوحة إلى أن اقتربنا منها مسافة ياردة واحدة (نحو متر تقريبًا)، فقام بعض الشبان، الذين كانوا يقفون داخل الساحة يدخنون ويتبادلون زجاجات الويسكي، بإغلاق البوابات فجأة في وجوهنا، وأمطرونا بأبشع العبارات وأحط الألفاظ، لدرجة أنني، بحمد الله، لم أسمع بمثلها من قبل ولا بعد ذلك اليوم.

انتظرنا بهدوء على الدرج لنرى إن كان المشاغبون سيطروا على الوضع كما يحلو لهم. وفي غضون دقيقة، رأينا أحد زملائنا الطلاب، السيد «ساندرسون» (Mr. Sanderson)، يندفع من قاعة الجراحين ويفتح البوابة بقوة، رغم صياح الخصوم وجهودهم المتعثرة بفعل السُّكر. كنا سريعين في انتهاز الفرصة، وفي غضون ثوانٍ معدودة كنا جميعًا قد عبرنا البوابة ودخلنا قاعة التشريح، حيث أُجري الامتحان المعتاد وسط أصوات الصراخ والعويل بالخارج.

خرج الدكتور «هانديسايد» للاحتجاج على هذه الفوضى، وقبل أن يستعيد النظامُ توازنَه، أُدخل خروفٌ أليف مسكين —— كان يرعى عادةً في حديقة الكلية —— إلى قاعة الدرس! وقد أطلقوا عليه لاحقًا اسم «مالايلي»، وقال أحد الطلاب ساخرًا: «إنه عينة مناسبة للأغراض التشريحية.» ورغم هذه المشاغبات، أُجري الامتحان بدرجة معقولة من النجاح.

وفي نهاية الحصة، عرض علينا المحاضر أن نخرج من باب خلفي، غير أنني نظرت حولي إلى صفوف زملائنا الطلاب، ولاحظت أن عدد الرجال الحاضرين كان كافيًا لمنع أي أذى قد يلحق بنا. وقد كان حكمي صحيحًا. ففي لحظة، نزل بضعة عشرات من الطلاب من مقاعدهم، يتقدمهم السيد

١- يبدو أن المرء ليعجز حقًا عن العثور على امرأة لا تهتم بالتفاصيل، مهما كانت الظروف المحيطة بها قاسيةً أو استثنائية؛ فحتى في أتون المعركة، وأمام صخب الخصوم، ووسط التظاهرات، والشتائم، وامتحان التشريح، والشرطة التي رافقتهن للبيت، بقيت صوفيا وفيةً لروح الأنثى التي، من المستحيل، أن يمضي تفصيلٌ دون أن تلتفتَ إليه.

«سانديرسون»، والسيد «هوجان» (Mr. Hoggan)، والسيد «ماكليود» (Mr. Macleod)، والسيد «ليون» (Mr. Lyon)، وشكلوا حولنا طوقًا كحرسٍ شخصي، أمامنا وخلفنا وعلى الجانبين. وتحت حمايتهم، اجتزنا الحشد الصاخب عند البوابة وعدنا إلى منازلنا دون إصابات تُذكر، باستثناء بعض الأوساخ التي لطخت ملابسنا نتيجة الوحل الذي قذفه خصومنا «الرجال» علينا. بينما كانت السيدة «كينجسلي» قد تعرضت لإصابة طفيفة بسبب الزحام، فبادر السيد «ويلسون» (Wilson) إلى مساعدتها وأمسك بذراعها. واصلنا سيرنا ونحن تحفّ بنا مواكب صغيرة: فرسان شجعان، وبعض رجال الشرطة، وجمع من الغوغاء، وكل الفتيان والفتيات الفضوليين من أنحاء المدينة.

لكن لم يكن ذلك نهاية القصة. ففي اليوم التالي، وعند ذات الساعة، حين وصلنا إلى الكلية، وجدنا مجموعةً قوية من «الرجال النبلاء»، يحملون عصيًّا ضخمة بأيديهم، يصدّون بها الحشد الغاضب الذي كان يُبدي اشمئزازًا ظاهرًا، لكنه لم يجد وسيلة للتعبير إلا بأسوأ الألفاظ.

في حين كان أولئك الحماة يرفعون قبعاتهم تحيةً لنا، ثم يتبعوننا إلى داخل القاعة ويجلسون في المقاعد الخلفية لحمياتنا. وفي الممر، صافحني القائد الشجاع بقوة، وأقسم أنه يشرفه أن يُقدِّم أيَّ عون لي ولزميلاتي. وبعد انتهاء المحاضرة، التفّوا حولنا كما في الليلة السابقة، وأوصلونا إلى منازلنا وسط ثلاث جولات من التصفيق الحارّ، ثم انصرفوا.

كما رافق السيد «أوهايلوران» (O'Halloran) الآنسة «إيميلي بوفيل»، (وكانت قد وُلِدت في فرنسا)، فخاطبها بمودة قائلاً: «Ma belle»، (أي عزيزتي بالفرنسية) وأضاف: «إن الحياة ليست بشيء كثير، ولكننا — نحن الإيرلنديين — نضحي بأرواحنا فداءً لكُنّ.»

لقد سمع هؤلاء الفتيان النبلاء إشاعاتٍ عن نية بعض الغوغاء تكرار الشغب، فقرّروا ألّا يسمحوا بذلك، وبالفعل رافقونا على مدى يومين أو ثلاثة، حتى اضطرّ المشاغبون إلى التراجع عن عدائيتهم ضمنًا. عندها طلبتُ بنفسي من زملائنا المتطوّعين أن يُنهوا هذه الحراسة الآمنة، فعاد الهدوء إلى أروقة الكلية.

كان «روبرت ويلسون» (Robert Wilson)، الذي أقسم الولاء ضمن «لواء المشاة الإيرلندي»، طالبًا شابًا، وقد بقي طوال حياته نصيرًا مخلصًا لقضية تعليم النساء، ومؤيدًا ثابتًا لحقوقهنّ. وقد كتب، في يوم الأحد الذي تلا حادثة الشغب الكبرى، رسالةً إلى الآنسة «بيتشي» (Pechey)، تعد بحق من الوثائق الجديرة بالاهتمام، قال فيها:

عزيزتي الآنسة بيشي، أرغب بتحذيرك — ومن خلالك تحذير صديقاتك — أنكن ستتعرضن مجددًا للمضايقة يوم الاثنين. أخشى أن هناك مؤامرة منظمة أُعدت لهذا الغرض. أرجو منك إبلاغ صديقاتك أن المظاهرة المتوقعة ضدكن ستكون، كما يبدو، أشد خطرًا مما وقع يوم الجمعة، وأن الغاية منها إخافتكن ودفعكن إلى التراجع، ولكن لا داعي أبدًا للخوف منها. لقد أعددت ترتيبات فعالة لحمايتكن، ونشرت الكلمة بين أصدقائي — ممن ليسوا قليلي الخبرة بمثل هذه الأمور — وأنتم ستكونون بخير.

وقد عقدتُ لقاءً مع صديقي «ميكي أوهايلوران» (Micky O'Halloran)، قائد فرقة قوية تعرف في الكلية باسم «اللواء الإيرلندي»، وقد وافق على إرسال رجاله لمرافقتكن يوم الاثنين. كان «ميكي» ذلك البطل الشجاع ذو الشارب الأحمر الكثيف الذي وقف معنا يوم الجمعة، وأزعج حضوره المتظاهرين الذين، فيما أعتقد، كانوا يعوّلون على غيابه وغياب رجاله. أعتقد أن مجرد ظهور رجال قادرين ومستعدين لحمايتكن سيكفي لردع الحشد عن محاولة إثارة الفوضى. هم شرذمة جبانة، أغلبهم شباب صغار لا خبرة لهم حقيقية بأعمال الشغب، كما كان الحال في الأزمنة الماضية حين كان شغب الشوارع يعد مهارة بين طلبة إدنبرة. ولذلك، فهم ليسوا خطرين إلى هذا الحد. أعتقد أنهم سينهارون إذا أظهرتم لهم شجاعة وثباتًا في المواجهة. لدي نفوذ لا بأس به بين طلاب منطقة وسط أسكتلندا، وأتوقع أن أحصل منهم على دعم إضافي.

اسمحي لي أن أُلمّح إلى أن السبب الحقيقي وراء هذه الاضطرابات هو ما دأب عليه بعضُ الأساتذة من نقد لكنّ خلال محاضراتهم، فلا يفوتهم إثارة الكراهية ضدكن. وقد يكون لبعضهم علم أكبر بمؤامرة الشغب مما يتصوره الناس. ومع ذلك، لا تخشين شيئًا، فكل شيء سيكون على ما يرام يوم الاثنين. المخلص لكِ: روبرت ويلسون.

كان السيد «هنري كينجسلي» (Henry Kingsley) يشغل في تلك الفترة منصب محرر في صحيفة «ديلي ريفيو» (Daily Review)، وكان من أشجع أنصار قضية تعليم النساء، وكان لا يقل بأسًا وحمية عن الصحفي الكبير «ألكسندر رَسل» محرر صحيفة (The Scotsman). أما زوجته السيدة «كينجسلي»، فقد كان إخلاصها للقضية فوق كل وصف؛ إذ دافعت عنها بكل ما أوتيت من جهدٍ وقوة، سواء في الصالونات الثقافية، أو أعمدة الصحف، أو على المنصات العامة أمام الناس. وكما ذكرنا من صفحات قلائل إنه لم يكن حضورها في الدروس العلمية بدافع

الطموح المهني أو رغبة في أن تصير طبيبة، بل بدافع التأييد الصادق للحركة النسائية، ومساندة الذين ناضلوا من أجلها بكل إخلاص.

انتشر خبر «أحداث الشغب» الذي وقع ضد الطالبات انتشار النار في الهشيم، فلم يلبث أن بلغ أرجاء البلاد، بل وامتد إلى خارجها، مثيرًا سخطًا شعبيًا تجاوز، في شدته، الغضب الذي كانت قد أثارته قبل سنوات مسألة «منحة هوب» (Hope Scholarship). وقد عبرت بعضُ الصحف عن هذا الغضب بلهجة صارمة؛ فجاء في أحد المقالات: «نحن نثق أن سلطات كلية الطب في إدنبرة ستنزل العقاب المناسب بتلك الشرذمة الجبانة — وليس لدينا وصف ألطف من هذا — الذين تصرفوا تجاه السيدات بهذا الشكل المعيب، بالرغم من أنهن عاملنهم بلياقة، وافترضن أنهم سيتصرفون كرجال نبلاء. لقد فقدت إدنبرة جاذبيتها كمركز للتعليم.»

وكان هذا النموذج مثالًا صادقًا للغضب العام الذي عمّ الأوساط العلمية والاجتماعية. ومن اللافت أن أسرع مَن تبرأ من هؤلاء المشاغبين كانوا من بين أكثر طلاب الجامعة احترامًا واعتبارًا. كمثال على هذا الذي نُشر في صحيفة (The Scotsman) بتوقيع طالب من كلية الطب يقول فيه:

> سيدي، على الرغم من أننا لا نرى أنَّ وجودَ الطالبات في «المستشفى الملكي» أمرٌ مرغوبٌ فيه خلال الساعات التي نحضر فيها، إلا أنني مقتنع تمامًا بأن قلّة قليلةً فقط منّا يوافقون على الطريقة المخزية التي تم بها التعبير عن هذا الرأي يوم أمس.
>
> نحن نملك كامل الحق في استخدام الوسائل المشروعة، ولكن إهانة النساء هي تصرف جبان وغير رجولي، ولا يمكن لأي رجل — ناهيك عن كونه «رجلاً نبيلاً» — أن يُقدِم عليه. من المؤكد أننا قادرون على إبعاد الطالبات عبر الوقاحة المُتعمَّدة كلما ظهرن في قاعات الدروس، ولن يبقى لهن حينها من خيار سوى ترك دراسة الطب هنا؛ ولكن إذا حصل ذلك تحت تأثير تلك الظروف، فسيكون ذلك عارًا عظيمًا على شخصياتنا كرجال.
>
> من المرجح جدًا أن «العار» سيُنادى به ضدنا من أقصى الإمبراطورية البريطانية إلى أقصاها، وهو ما يحدث الآن بالفعل.
>
> ولذلك، وحتى لا نخجل فيما بعد من أن نُعرّف أنفسنا على أننا من «الطلاب القدامى في جامعة إدنبرة»، فليتخذ كلُ من يقدِّر سمعةَ هذه الجامعة موقفًا حاسمًا، وليُوقِّعْ فورًا على القائمة الموجودة منذ صباح اليوم في محل السيد «ليفينجستون» (Livingstone)، مظهرًا بوضوح رفضه لما حدث بالأمس،

وليوضح أن ليس كل طلاب طب إدنبرة يفتقرون إلى أحد أهم صفات الرجل النبيل، وهي الاحترام والرقة في معاملة النساء.[١]

ومع ذلك، فإن بعض الصحف الأخرى — بل وبعض الصحف المحترمة — لم تتورع عن الانحياز إلى جانب مثيري الشغب، ولم تجد بُدًّا من مهاجمة النساء أنفسهن وتشويه سلوكهن بطرق مبتذلة أثارت استنكار كل رجلٍ شريف. وقد عقبت صحيفة (Spectator) ساخرةً بقولها: «بشاعة كهذه يخجل منها حتى بائع سمك في شجار في الشارع.»

ولا عجب أن نتخيل طبيعة الرسائل المجهولة التي كانت تصل إلى النساء في تلك الأيام؛ فقد كانت رسائل مرعبة بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وقد علقت صوفيا على هذا الوضع بقولها: «حسنًا! نحن الآن في القاع — وهذا في حد ذاته عزاء؛ فلن يكون هناك سقوط ولا تدنٍّ أكثر من ذلك.»

كما كتبت الآنسة «دو بريه» (Du Pre) بقلق قائلة: «ما الذي تظنين أنَّ بِنْيَتَكِ مكوّنةٌ منه لتتحمل كل هذا الجهد؟ ستكونين شهيدةً للقضية إن لم تأخذي حذرك. لكني أعلم أنك لا تستهلكين ذرةً من قوتكِ بلا داع. ومع ذلك، يخيفني حجم العمل الذي تواجهينه. أتمنى لو أنكِ فقط تجلسين وتدرسين بهدوء كما يفعل الطلبة الذكور.»

وقد عبّرت صوفيا عن مشاعرِها إزاء الهجمات الصحفية الرخيصة بقولها: «أما المقالان الصحفيان فقد أغضباني بشدة! أعتقد أنه من الصعب قياس درجة الانحطاط التي وصلا إليها، ولكن حين يصل الأمر إلى هذا الدرك الوضيع، يصبح من العسير وصفه. أظن أن مثل هذه الهجمات تجعلك تشعر وكأن جميع من يعارضونك أناس أشرار ووضيعون — أليس كذلك؟ من الصعب دائمًا تصديق أن الخصوم قد يكونون طيبين وشرفاء وعقلاء؛ ولكن حين يكتب بعضهم مثل تلك الرسائل، لا يسعني إلا أن أعتقد أنهم لا بد أن يكونوا في منتهى الخبث.»

أما المقالات التي كانت تتحدث عنها صوفيا، فقد نُشرت في صحيفة (Medical Times and Gazette)، وقد رجعتُ إلى هذه الصحيفة من الأرشيف ووصلتُ إلى المقالات المقصودة، ونظرًا لطولها، سأحاول أن أذكر بعض المقتطفات منها.

أما مقال الأول الذي كان بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٨٧٠، فقد جاء فيه ما نصه:

> الآن وقد أوشكتْ قوائمُ كليات الطب على الاكتمال، من المُرضِيِّ أن نجد أنه، على الرغم من التغيرات الكبيرة التي طرأت على هيئة التدريس، لا تزال جامعة إدنبرة تحتفظ بمكانتها البارزة بين كليات الطب في إسكتلندا...

١- جريدة (The Scotsman)، الاثنين، ٢١ نوفمبر، ١٨٧٠

ومهما كانت مزايا هيئة التدريس الجديدة — وفي بعض الحالات تكون مزاياهم معترفًا بها وعظيمة — فإن هذا التغيير الجذري قد أثار قلقًا كبيرًا بشأن مستقبل كلية الطب في إدنبرة. وقد زاد هذا الشعور قلقًا مع التقدم السريع الذي أحرزته جامعة جلاسكو، ولم يكن قليلًا ما أضافه القرار غير الشعبي الذي اتخذته جامعة إدنبرة العام الماضي، عندما قررت أن تتلقى النساء التعليم الطبي فيها، مما زاد الأمر سوءًا هو دعم بعض الأساتذة هذا العام لفكرة الصفوف المختلطة (أي تعليم الذكور والإناث معًا) …

إن الاقتراح بإدخال النساء إلى الصفوف العادية للجامعة أضر بشعبيتها بشكل واضح، كما يتبين من الموقف الحازم الذي اتخذه الطلاب الذكور ضد ذلك. فعندما طُرح الأمر على مجلس الجامعة في اجتماعه يوم ٢٨ أكتوبر، قُرئت عريضة وقَّع عليها ١٦٠ طالبًا، يعربون فيها عن شكرهم للمجلس لاتخاذه قرارًا سابقًا ضد الصفوف المختلطة. ثم مرة أخرى، عندما قرر مدراء مستشفى (Royal Infirmary)، في اجتماعهم يوم ٣١ أكتوبر، بأغلبية ساحقة، عدم منح بطاقات القبول للنساء في أجنحة المستشفى، أثار هذا القرار استياءً واسعًا بين الطلاب الذكور، حتى بلغ عدد الموقعين على عريضة ضد قبول النساء في غضون يوم أو يومين ٥٠٤ توقيعات.

وقد صيغت هذه العريضة بأشد العبارات، حيث قال الطلاب: «إذا سُمِح للنساء بزيارة الأجنحة في الأوقات المعتادة، فإن أحد أمرين سيقع بالضرورة: إما أن يتم التعامل مع بعض الموضوعات الطبية بالسطحية أو الإهمال؛ أو، إذا لزم تناول مثل هذه الموضوعات بتفصيل، فسنُضطر إلى مغادرة الجلسة أثناء مناقشتها أمام جمهور مختلط.» وأضافوا: «لو كنا نعلم عند التحاقنا بالدراسة السريرية أن مثل هذه الظروف ستفرض علينا، لكنا أثرنا الالتحاق بكلية طبية أخرى.» …

ورغم أن لجنة طلابية كانت قد احتجّت على قبول النساء في المستشفى الملكي، فقد أعربت هذه اللجنة عن استيائها من ذلك التصرف الفاضح (الذي حدث في قاعة الجراحين)، ونفت أيَّ علاقة لها به. لكن لا يمكن إنكار أن هذا التصعيد كان نتيجة مباشرة لتجربة الصف المختلط.

وقد ظهرت رسالة في جريدة (The Scotsman)، من طالب طبٍّ ذكر، عبّر فيها عن رأي الطبقة الأكثر رصانة بين الطلاب، بأنهم، رغم رفضهم لهذا

الأسلوب من الاحتجاج، فإنهم مع ذلك مصمِّمون، بشكل قانوني ومشروع، على تخليص الجامعة من عنصر يعتبرونه مرفوضًا لديهم.

أما كلية الطب بجامعة إدنبرة والتي هي تابعة للكليات الملكية، فقد تورطت في خطأ إداري عندما سمحت للنساء بالانضمام إلى صفوفها، دون الحصول على ضمان مسبق بأن هذا الحضور سيُحتسب ضمن متطلبات التخرج. وأما المستشفى الملكي، فقد أغلق أبوابه في وجه الطالبات، وبهذا حرمهن من أحد فروع التعليم الطبي الأساسي. فهل يُعَدُّ هذا مُشرِّفًا لكلية الطب في إدنبرة؟

وفي الختام، مهما كانت الفوائد المرجوة من هذه الدعوى، فلا يمكن إنكار أنها أهدرت قدرًا كبيرًا من الوقت والجهد، وليس من العدل أن يُشتت مئات الطلاب الذكور من أجل ست أو سبع فتيات فقط، خلال جزء مهم من العام الدراسي.

لقد هنأنا أنفسنا على الزيادة العددية في طلاب كلية الطب هذا العام؛ لكن من الواجب أن نحذر من أن تجاهل رغبات غالبية الطلاب الذكور، في وقت فقدت فيه الجامعة العديد من أساتذتها البارزين، قد يؤدي إلى إدراك الطلاب بأن الجامعة لم تعد كما كانت من قبل، وأنهم قد يُفضِّلون الانتقال إلى جامعة جلاسكو الجديدة، لمتابعة دراساتهم المهمة بعيدًا عن هذه الفوضى.

وقبل أن أمضي في الحديث، أحب أن أستوقف القارئ وقفة تفكير جادة؛ فإنّ ما نحن بصدده ليس مقالة قديمة نُشرت في صحيفة قبل قرن ونصف، بل هو صورة من موقف يتكرّر، وحجج تُعاد، ومنطق ما برح مستخدمًا حتى يوم الناس هذا. وليس بين ما قاله الإنجليزُ آنذاك، وما نقوله نحن العرب في حاضرنا المعاصر، سوى اختلاف في الموضوع، وليس اختلافًا في الأسلوب ولا في المنطق ولا في الظلم ولا في الجهل. فقبل مئة وخمسين سنة، كان الجدل حول قضية دخول النساء الجامعات وتعلُّمهنّ الطب كما يتعلّمه الرجال، أما الآن، فلم تغير فقط سوى الموضوع، غير أنّ الظلم باقٍ على حاله، والمنطق الأعوج لم يتبدّل، والنظرة الذكورية المستعلية ما زالت على قبحها لم تتغير. إذ لا تزال الأصوات التي ترفض مساواة المرأة بالرجل في كرامتها وحقوقها في مختلف مناحي الحياة تلوّح بذات الذرائع الواهية: مرةً باسم الطبيعة، ومرةً بذريعة الدين، وثالثةً بحجة الأعراف والتقاليد. وكلها، وإن تنوّعت أثوابها وجلودها، فإنّ عظامها واحدة، وأصلها واحد، وغايتها كبح النصف المكمّل من المجتمع، وإبقاءه في دائرة القمع والذل والقهر وليس في دائرة المشاركة والعدالة والإنصاف.

أقول: إن هذه النظرة التي قدمها الإنجليز في تلك الصحيفة منذ مئة وخمسين سنة، لا تزال هي نفسها النظرة التي يراها الكثير من العرب في وقتنا الحالي وبعد مرور قرن ونصف القران تجاه المرأة. لا ينظرون إلى المرأة إلا باعتبارها مخلوقًا يُراد له أن يبقى تابعًا، تُختزل

قيمته في صمته، وتُقاس مكانته بقدر ما يتخلّى عن طموحه. وإنّ هذا لعَينُ الظلم الذي لا يبرره عقل، ولا تُقرّه شريعة عادلة، ولا يسكت عليه أي ضمير حي.

إن هذا المقال، من بدايته حتى نهايته، مشبع بنَفَسٍ يُقدِّم «رضا الطالب الذكر» بوصفه المعيار الأعلى، بل المصلحة العليا للجامعة وللمجتمع، التي يجب أن تُقاس عليها كل القرارات، حتى القرارات التعليمية والأخلاقية. فهو:

- يُقوِّم الجامعةَ من زاوية الحفاظ على مكانتها عند الذكور، وليس من زاوية كفاءتها أو عدالتها.
- يرى في احتجاج ٥٠٤ طالبًا على دخول النساء للمستشفى التعليمي نصرًا كبيرًا، ولا يرونه علامةً على تراجع أخلاقي شنيع، أو جهل قبيح بحق الآخرين.
- يطرح معاناة مئات الطلاب الذكور كقضية مركزية، لكنه لا يعبأ بالطالبات السبع، وكأن عددًا قليلاً من النساء لا يستحق أي دعم أو حق.
- يركِّز على «تشتيت الذكور» بدلًا من «حرمان الإناث»، مما يفضح منطقًا قائمًا على محورية الرجل وتهميش الآخر.

بمعنى آخر: المرأة هنا لا تُعامل كإنسان له كرامة وحق، بل تعامل كعقبة، أو مشكلة، أو «عنصر دخيل». وهذا هو جوهر الذكورية المتطرفة، وهو أنها تُحوِّل الضحية إلى مُذنبة، والمطالِبة بحقّها إلى منغِّصةٍ على سعادة الآخرين!

إن الفكرة التي يروِّج لها هذا المقال، هي أن أي تغيير يُزعج الرجل أو يضعه في موقع غير مريح، يجب أن يُلغى، حتى لو كان حقًّا مشروعًا للمرأة، بل، حتى لو كانت مصلحة المجتمع كله في كفَّة وراحة الرجل في كفة، لرجحت كفة راحة الرجل ولو هلكت الأرض بمن فيها لأجل أن يرضى جلالة سيادة فخامة جناب معالي فضيلة نيافة سماحة الرجل الذكر!

انظر إلى قولهم: «ليس من العدل أن يُشتت مئات الطلاب الذكور من أجل ست أو سبع فتيات فقط.» وهنا نرى الكمّ والعدد يُستخدم لإلغاء الحقوق وسلبها. وهكذا يريدون أن يمنحوا الإنسان حقوقه بناءً على رأي الأغلبية، وليس لأنها حقوق يجب علينا أن نعطيها لمن يستحقها، سواء رضي الأكثرون أم لم يرضوا. وانظر كذلك إلى قولهم: «لو كنا نعلم أن النساء سيحضرن معنا، لما التحقنا بالجامعة.» وهنا نُواجَه بخيارين، إما راحة الرجل، أو حق المرأة. خياران لا ثالث لهما! فصار المجال العلمي لا يسع الاثنين معًا، أو صارت كرامة الذكر لا تقوم إلا على تهميش الأنثى.

إن أحد أخطر ما في هذا المقال هو أنه يُفرغ التعليم من مضمونه الإنساني النبيل، ويُحوِّله إلى موقع امتياز طبقي وجندري (أي قائم على التمييز الجنسي). فالجامعة لا يُنظَر إليها كمنارة

للعلم، بل كانوا ينظرون إليها كقلعة ذكورية تُهدَّد عند دخول النساء إليها. والأدهى، أن المقال لا يناقش أداء الطالبات، ولا جديتهن، ولا تفوقهن، بل يناقش «انزعاج الذكور» و«الحرج من مناقشة بعض الموضوعات الطبية أمام النساء»!

هذا الخطاب الصحفي لا يكتفي بالتحامل على النساء، بل يسعى لإعادة إنتاج واقع بائد قديم، تكون فيه المرأة كائنًا صامتًا، بلا حقّ، لا ينبغي أن يُوجَد في أماكن تُعَدّ «حكرًا على الرجال». ومشكلة هذا المنطق أنه:

- يؤسس لمجتمع غير عادل، تكون فيه الحقوق حكرًا على الأقوياء عدديًّا أو صوتيًّا.
- يُضيِّع طاقات النساء، ويمنع المجتمع من الاستفادة من نصف أفراده.
- يجعل العلم تابعًا للمزاج الاجتماعي، وليس تابعًا لما يقتضيه الحقّ والمنطق.

وإذا أردنا أن نعيد صياغة فكرة المقال بمنطقه الساخر، لقلنا: «لا بأس إن ضاعت العقول والحقوق، وهلك الحرث والنسل، وانهار نظام التعليم، ما دام الذكر مرتاحًا، لا يرى امرأةً تُزاحمه في مجال الطبّ، أو تُنافسه في الساحة العلمية!»

وليس أدل على ذلك من كلام بعض مشايخنا وعلمائنا من الراسبين في العلم[١]، أن الرجل إذا دعا زوجته إلى الفراش ولم تجب طلبَه، باتت والملائكةُ تلعنها، كما تتحدث مروياتهم وأخبارُهم. لكنهم، وفي الوقت ذاته، إذا دعت المرأةُ زوجَها إلى الفراش ولم يُجِبْ، فيبدو أنَّ الملائكةَ ستصفق له وتمدحه وتسبح بحمده وتقدس له! ولعلنا نجد مثالًا على التحيز الجائر في كلام «النووي» في كتابه الذي يُعدُّ من أهم كتب الفقه الشافعي حين كان يتحدث عن نشوز المرأة، فقال: «[إذا] ظهر أمارات نشوزها، وعظها بلا هجر. فإن تحقق نشوز ولم يتكرر، وعظ وهجر في المضجع، ولا يضرب في الأظهر. قلتُ: الأظهر يضرب والله أعلم».[٢]

كان هذا إذن كلام «النووي» فيما يخص نشوز الزوجة، وقد شرحه بعد ذلك أحد أعمدة الفقه الشافعي أيضًا وهو «شمس الدين الرملي»، فقال إن لعلامات نشوز المرأة صور وأشكال مختلفة: «كخُشونةِ جوابٍ، وتعبيسٍ بعد طلاقةٍ، <u>وإعراضٍ بعد إقبالٍ</u>... وينبغي أن يذكر لها خبر الصحيحين «إذا باتت المرأةُ هاجرةً فراش زوجها لعنتها الملائكةُ حتى تصبح. فَإِنْ تحقَّق نُشُوزًا كَمَنْعِ تَمَتُّعٍ وَخُرُوجٍ بِغَيْرِ عُذْرٍ...»[٣]

إذن، نُلخِّص كلامَهم كالآتي: «النوويُ» يرى أنَّ المرأةَ إذا ظهرت منها علامات النشوز في البداية، على الزوج أن يعظها، فإن وقع منها النشوزُ مرة واحدة، هجرها في المضجع، وضربها؛

١- مصطلح «الراسبين في العلم» مأخوذ من صديقنا العزيز جيفارا أبو دقة.

٢- يحيى بن شرف النووي، **منهاج الطالبين وعمدة المفتين في الفقه**، دار الفكر، ٢٠٠٥م، ص. ٢٢٥.

٣- شمس الدين الرملي، **نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج**، دار الفكر، ١٩٨٤م، الجزء السادس، ص ٣٩٠.

لأن هذا هو الأظهر. ثم يكمل شارحُ كتاب «النووي» فيوضح أن علامات النشوز هي مجرد خشونة في الجواب وعبوس بعد سعادة، ثم على الزوج أن يذكرها بلعن الملائكة لها، أما النشوز نفسه فهو منعها أن يتمتع بها، أو خروجها من بيتها لغير عذر.

ثم يأتي مشايخنا الفضلاء، الأجلاء، المنصفون، العاقلون، العالمون، الموقعون عن الله، والآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، ويذكرون في نفس الفصل وفي نفس الموضوع وفي نفس الكتاب، بل وفي نفس الصفحة تقريبًا أن الرجل المتزوج من أكثر من امرأة: «لو أعرض عنهن أو عن الواحدة لم يأثم. ويستحب ألا يعطلهن»[١]

هكذا يصير الإعراض من جهته بلا مؤاخذة، ويبيت هجره لزوجته مباحًا، وتركه لها جائزًا، أما هي، فإن أعرضت لسبب، أو جاوبت بجفاء، أو عَبَس وجهُها يومًا، أو امتنعت عن إقامة علاقة معه، فهي ناشز، تُضرب من زوجها في الأرض، وتُلعن من الملائكة في السماء!

وبهذا يغدو عقد الزواجُ عقدًا منحازًا، لا احترام فيه بين الزوجين ولا عدل ولا كرامة ولا شرف. فهو يُسلِّط على المرأة سيف الطاعة العمياء لزوجها، بينما يُعفي الرجل من أدنى مساءلة. فإن شاء أقبل، وإن شاء أدبر. وإن شاء هجر أو نكص أو أعرض، فهو في حلٍّ من كل لوم. أما هي، فمأمورة بالبشاشة والطاعة والانقياد، لا يجوز لها امتعاض ولا ضيق. إن هذه الصورة الموجودة في الفقه الإسلام عن عقدُ الزواج تجعله عقدَ استعباد وذل وإهانة للمرأة. وفي المقابل تجعله عقدَ استمتاع، وجنس، وإفراغ شهوة، وتلذذ، وحرية تامة، وتسلط مطلق للرجل.

أما المقالة الثانية التي أغضبت صوفيا والتي قالت عنها: «حسنًا! نحن الآن في القاع —— وهذا في حد ذاته عزاء؛ فلن يكون هناك سقوط ولا انحدار أكثر من ذلك.» وقد كانت بالفعل أصعب بكثير من السابقة، فهذه المقالة الأولى لا تساوي شيئًا إذا ما قورنت بالمقالة الثانية التي نُشرت في نفس المجلة، وسأفعل كما فعلت مع المقال الأول، فقد رجعتُ إليه وسأورد منه أهم العبارات التي تستدعي الذكر. نشرت صحيفة (Medical Times and Gazette) في عددها بتاريخ ٣ ديسمبر ١٨٧٠:

> إن كلية الطب في جامعة إدنبرة، التي تضم هذا الشتاء أكثر من ستمائة طالب، تُعد بلا شك الأكبر في المملكة المتحدة. ولذا، فإن السلوك الأخير من قِبَل الطلاب الذكور تجاه الطالبات قد أثار قلقًا شديدًا وجدالًا واسعًا. أن تُعامَل حفنةٌ من النساء (نصف دزينة فقط) كما لو كُنّ أسوأ من المنبوذات من قِبَل عدد كبير من المتقدّمين للالتحاق بمهنة شريفة وفروسية، هو في حد ذاته أمر خطير، خاصة أن هؤلاء النساء يُفترض أنهن من الفتيات المتعلِّمات النبيلات. ولا يكفي تفسير

١- يحيى بن شرف النووي، **منهاج الطالبين وعمدة المفتين في الفقه**، دار الفكر، ٢٠٠٥م، ص. ٢٢٤.

هذا السلوك بالقول إن هؤلاء الشباب هم «أوغاد وسفلة»، إذ من المعروف تمامًا أنهم في الشتاء الماضي قد تصرّفوا مع هؤلاء الطالبات بكل لطف واحترام. لذلك، من المعقول أن نفترض أن هناك أمرًا ما قد حدث مؤخرًا غيَّر مشاعر هؤلاء الشباب، وإن كانت طريقة تعبيرهم عن ذلك مستهجنة.

إذا كان الأمر كذلك، فإن اللوم الحقيقي لا يقع على الذكور أو الإناث من الطلاب، بل على أولئك المؤثّرين الذين جاهروا بتأييد الصفوف المختلطة. إن سبب هذا التغير في السلوك لا يصعب معرفته، ففي حين كانت الطالبات يتعلّمن ضمن صفوفهن الخاصة، كن يُعاملن بكل احترام. لكن التغير طرأ عندما شاركن في صف مختلط لتشريح الجسم البشري في كلية الجراحين، وخاصة في تشريح الأعضاء التناسلية (pudenda) أمام الطلاب الذكور.

قد يبدو الأمر غريبًا لمن يظن أن دارسي التشريح ليس لديهم حسّ بالحياء. لكن حتى الكلمة نفسها «pudenda» ذات أصل لاتيني (pudor) تعني الحياء. وفي القاموس الألماني، تُسمى هذه الأعضاء «Schaamtheile» أي «أجزاء الحياء». وطبيب التشريح الحقيقي، وكذلك أخصائي الأمراض، لا يُظهِر الأعضاءَ التناسليةَ من الجثة إلا عند الضرورة القصوى، احترامًا لهذا الإحساس الفطري بالحياء. وبالتالي، من الممكن أن نُفترض أن الطالبات، عندما قمن بتشريح هذه الأعضاء في حضور الطلاب الذكور، لم ينتهكن فقط حياءهن الفطري، بل صَدمن أيضًا زملاءهن الذكور.

إن احترام الجسد البشري — كجزء من الاحترام الفطري للإنسان — أمر متجذّر لدى كل الحضارات البشرية، وهو ما يشكّل العقبة الكبرى أمام تقدُّم علم التشريح. تشريح الجثث المتحللة ليس أمرًا ممتعًا؛ بل إنه مقزّز لدرجة أن بعض الشباب يتركون المهنة الطبية بالكامل بسببه. وقد ثبت من خلال صور نشرت في صحيفة «ليزلي المصوّرة» (Leslie's Illustrated Newspaper) في ١٠ أبريل الماضي، أن ممارسة التشريح قد تؤثر سلبًا على مشاعر النساء، حتى وإن جرى ذلك في صفوف غير مختلطة. ففي إحدى الصور، تظهر سيدةٌ تُشرِّح ساقًا بشرية، وفي أخرى تظهر ست طاولات عليها جثث تحيط بها النساء. وفي صورة ثالثة، تظهر تسع عشرة سيدة حول جثة واحدة. لو كان الرجال هم من ظهروا في هذه الصور، لقيل إن هذا المشهد تهديدٌ للأخلاق العامة!

لقد طُرحت مبررات عديدة لهذه «الخطوة الجديدة في التعليم»، وأهمها: أن النساء يقمن «بواجبٍ نبيل وشريف»، ولهذا فكل شيء طاهر يُصبح مباحًا في

نظر الطاهرين. وقد قيل إن هؤلاء النساء يضحين بحيائهن الفطري ليتمكنّ من علاج آلاف النساء اللواتي يُصَبن بأمراض تناسلية ويشعرن بالخجل من الذهاب إلى أطباء ذكور. صحيح أن النساء قد وجدن سابقًا في الأطباء الرجال أصدقاء نبلاء ومساعدين شهماء، ونحن لا نعترض على هذه الحقيقة. لكن... إذا كانت النساء الحساسات والرقيقات يُرِدْن أن يصبحن طبيبات، فلماذا لا يُعالجن فقط النساء، ويتركن أمر التعامل مع الأعضاء التناسلية للذكور للأطباء الذكور؟

ولا يكفي الردّ بأنهن يفعلن ذلك لأجل المال، لأننا نعلم أن بعض النساء يفضلن الموت على كشف أسرار أجسادهن للرجال. ومن الصعب تصديق أن هؤلاء السيدات النبيلات في صف الدكتور «هانديسايد» قد قبلن — بموافقة أولياء أمورهن — بمثل هذا الصدمة لمجرد نُبل الهدف، لأن ما يفعلنه ويقمن به هو أكثر جرأة بكثير مما يقتضيه أي التزام طبي. بل إنهن دفعن رسومًا إضافية للدراسة مع الطلاب الذكور، وهذا دليل على أن هناك دافعًا آخر غير الشرف والمروءة. ولا ينبغي أن ننسى أن هؤلاء الطالبات، وهن يُضحّين بحيائهن، قد سببن صدمة مماثلة لزملائهن الذكور الذين اضطروا لمشاهدة هذا الأمر دون اختيار منهم، كما سيُجبر المرضى الفقراء على تحمُّل ذلك لاحقًا.

إن الحقيقة الصريحة هي أن كل هذا النبل في العاطفة والغاية ما هو إلا ادعاء كاذب. فالنساء يسعين لدخول مهنة تبدو لهنّ مربحة، والدراسة في صفوف مختلطة ضرورية لنجاحهنّ المستقبلي. وقد عبّرت الآنسة «جاريت» عن هذا الأمر مرارًا في الاجتماعات العامة وفي الصحف مثل (The Times). وقد أعلنت رفضها الصريح لفكرة الصفوف الخاصة للطالبات، وصرّحت بأنها ترغب في أن «تكون كل امرأة تدخل المهنة خلال السنوات العشر القادمة قادرة على استدعاء أي طبيب في لندن، وتتحدث معه بصراحة عن كل مرض طبي». وبما أن الأطباء الذكور يتحدثون بالفعل بكل صراحة مع المريضات والممرضات — لأن حياءهن يسمح لهنّ بذلك — فإن ما تشير إليه الآنسة «جاريت» هو رغبتها في التعامل مع مرضى رجال. وعليه، فإن الصفوف المختلطة مثل تلك التي في إدنبرة تشكّل تدريبًا وانضباطًا مفيدًا لحياة مهنية نسائية في المستقبل.

إنه لأمر مفهوم أن خطتها هذه قد أثارت استياء الشباب في كلية الطب بإدنبرة، فهؤلاء غير مؤهّلين لتقدير هذا «النبل والطهارة» التي تتحدث عنهما زميلاتهم. ومما يوضح طابع الداعمين لهذه الأفكار ما قاله الأستاذ «ماسون»، أستاذ البلاغة والأدب، الذي شبّه صف التشريح المختلط بصفوف العبادة

المشتركة بين الرجال والنساء! وكذلك الأستاذ «بلاكي» (Blackie)، أستاذ اللغة اليونانية، الذي تساءل ساخرًا: «ما المانع أن يجلس الطالب بجوار خطيبته، ممسكًا بيدها طوال المحاضرة؟» ونحن نسأل بجدية الآن: من المسؤول عن هذه الفوضى في إدنبرة؟ هل هما هذان الأستاذان، أم الطلاب الذكور الذين عبّروا بحدةٍ عن صدمتهم؟

إن المسألة المطروحة في إدنبرة، رغم كونها مرتبطة بالمصلحة التعليمية، تحمل تبعات أخلاقية عميقة على المجتمع بأكمله. فحين يُنتهك التمييز الطبيعي بين الجنسين في التعليم، فإن ذلك يُشبه ما تفعله الطوائف المنحرفة التي تريد تغيير كل ما هو طبيعي وأخلاقي وديني في العلاقات بين الرجال والنساء. فكما أن بعض الطوائف تمارس «الشيوعية الجنسية» باسم الدين — مثل طائفة «الأجابيمون» (Agapemone) التي كان يرأسها شخص يدعى «برينس» (Prince)، وادّعى أنه يؤدي واجبًا دينيًّا حين جعل فتاةً صغيرة تحمل بطفل «المسيح الثاني» — كذلك نجد في التعليم الطبي المختلط تشابهًا غريبًا. لقد كتب «هبيوورث ديكسون» (Hepworth Dixon) في كتابه «الزوجات الروحانيات» (Spiritual Wives) عن مثل هذه الطوائف، حيث تُرتكب هذه الأفعال بدعوى النقاء والقداسة، لكنها في جوهرها تُظهر احتقارًا للمجتمع بأسره. ونحن نرى حالات مشابهة لهذا «الجنسانية الطبية» (Medical Sexualism).

ذُكر أن فتاةً طُلِب منها أن تتعلّم إدخال القسطرة البولية لوالدها المريض! وقد برّر المدافعون عن ذلك بأنه «ضروري» و«ليس فعلًا فاحشًا، بل هو فقط مجرد إجراء شكلي». وبالتالي، فإن الطبيبة يمكن أن تدخل القسطرة لمريضها، بل حتى لأخيها، باسم «المهنة»!

بل إن المستشفى في فيينا طرد رجلًا لأنه رفض أن يُفحَص عاريًا أمام طلاب وطالبات في آنٍ معًا. وإذا سُمح بمثل هذا المنطق — أي تبرير كل شيء إذا كان الهدف نبيلًا — فإن أي فساد أو انحراف يمكن أن يُغطّى برداء الطهارة! ولذلك، فإن شباب إدنبرة كانوا محقين تمامًا في رفضهم لهذا «المبدأ» ويستحقون الشكر عليه.

كيف يُمكن لعاقل أن يقرأ هذه السطور، ثم لا يرى فيها جريمتين؟ جريمة بحق النساء، حين يُطعن في شرفهن، وفي حيائهن، وفي دوافعهن، بلا دليل سوى أوهام «الرجولة المجروحة» للطلاب الذكور، وجريمة بحق القارئ، حين يُخاطَب عقلُه بهذا المنطق المريض البائس.

بل الأدهى، أن الكاتب يصوّر حياءَ الرجل على أنه أعمق وأصدق وأشرف من حياء المرأة. فإن تعلّمت المرأةُ التشريحَ صارت فاجرةً، وإن تعلم الرجل التشريح، صار هو الإنسان الطاهر المتألم الذي أُجبِر على ما يكره! فيصور هذا المقالُ المرأة على أنها عدوٌّ للحياء منذ خُلِقت، وإن أرادت أن تطلب العلم، فقد باعت شرفها، حتى لو كانت تدرسه لتُعالج المريضات اللاتي يرفضن الذهاب إلى طبيب رجل!

ومن فنون التضليل في المقال، ذلك التوسُّل الماكر بالكلمات، إذ يذكر مصطلح «pudenda» ويشرح جذره اللاتيني الذي يدل على «الحياء»، فصارت اللغة هي التي تُحرِّم التشريح! ثم يَستشهد بالقواميس الألمانية، ليُقنِعنا أن كشف هذه الأعضاء جريمة أخلاقية، وليس لأنها ضرورة طبية، وأن مَن تجرّأت على تشريحها فقد خانت فطرتها، وصدمت الذكور المساكين من حولها!

أين حياء صاحب المقال والجريدة حين يُقال للمرأة إنها أقلّ حياءً، وأضعف خُلقًا، وأهون شرفًا؟ وأين الدين، حين يُقدَّم الغمز والطعن والتشكيك في شرف هؤلاء الفتيات اللواتي ما أردن شيئًا إلا دراسة الطب كما يدرسه الباقون؟!

ثم يأتي الكاتب في نهاية مقاله ليقول: «لو أرادت النساء أن يحافظن على شرفهن، فلماذا لا يَدْرُسن الطب دون التعرّض للأعضاء التناسلية؟» وتلك دعوى باطلة ظاهرة البطلان! وهل يُعقَل أن يُدرَّس الطب على طريقة «الحياء الانتقائي»؟ هل نقول للجراح: عالج القلب، ولكن لا تلمس الصدر؟ وهل نمنع طبيب المسالك من التخصّص لأن مجال عمله «مُحرِج»؟! وهل المطلوب من المرأة أن تبقى أسيرة الجهل، لأن دراسة الجسد «مُزعِج» لبعض الذكور الذين لم يتعلّموا بعد أن بين الطب والحياء جدارًا من الرُّقيّ وليس الغرائز؟

وكعادة الخطابات الذكورية المُذعورة، يَقفز الكاتب قفزة درامية من «الصفوف المختلطة» إلى «الجنسانية الطبية»، ثم إلى «الشيوعية الجنسية»، ثم إلى طائفة تزعم أن فتاة حملت من «المسيح الثاني»! لماذا؟ فقط ليقول للقارئ: «احذر، فإن السماح للنساء بدخول كلية الطب قد يؤدي إلى انهيار المجتمع كله!»

وهكذا نرى كيف يتحوّل الجدل من نقاش علمي حول العدالة التعليمية، إلى حملة فكرية شعواء، تريد أن تُلبِس المرأة ثوب الفتنة، وتُظهِرها كأنها رأس الخطيئة، ثم تُخلي مسؤولية الرجل عن سلوكه، وكأنه كائن مسلوب الإرادة لا يحتمل أن يرى زميلته تمسك مشرطًا في قاعة تشريح!

هذا المقال لا يجب أن يُقرأ بوصفه «رأيًا تاريخيًّا»، بل يجب أن يُفكَّك ويُفضَح بوصفه نموذجًا من الخطابات التي تستخدم الحياءَ كذريعة للتمييز ضد النساء، والطهارةَ كستار لإقصاء النساء، واللغةَ الدينية كأداة للهجوم الأخلاقي على النساء.

لقد آن الأوان أن نقول إن المرأة لا تفقد حياءها حين تطلب العلم، بل الذي يفقد حياءه هو مَن يُعرقل طريقها، ويطعن في شرفها، ويُقدِّم غرائزه على حقّها، ومشاعرَه على مستقبلها، وخيالاته القذرة على طُهرها ونبلها.

ومن أكثر ما يُثير الريبة في هذا المقال، هو محاولته رسم صورة للرجل الحييّ النقيّ، الذي لا يقوى على رؤية امرأةً تُشرِّح جثّةً بشريةً، لأن حياءه يهتز، ونبلَه يُهان! لكن هل هذا الحياء حقيقي؟ أم هو حياء مُتخيّل، يُستخدم فقط كسلاح أخلاقي لطرد المرأة من الميدان التعليمي؟ لأن نفس هؤلاء «الرجال الحيِيّين» لم يهتز لهم ضمير حين صرخوا في وجه الطالبات، أو حاصروهن، أو سعوا لطردهن، أو وقّعوا على عرائض لمنعهن من التعليم. أليس الأولى بمن يُحسن الظن بـ «حياء الرجل»، أن يُحسن الظن أولًا بـ «نية المرأة»؟

إن كاتب هذا المقال قد ذكر كل شيء، لكنه لم يسأل أبدًا:

- لماذا لا نربّي الرجال على احترام العلم بدلًا من الانسحاب عند أوّل مشهد؟
- لماذا لا نُعدّهم لأن يكونوا أطباء حقيقيين، يرون الجسد في ضوء المعرفة الطبية، وليس في ضوء الشهوة؟
- لماذا لا نُعلِّمهم أنّ الفضيلة ليست في الفرار والهروب والمنع، بل في الانضباط؟ وأن الكرامة لا تُنتهك بحضور النساء، بل تحضر الكرامة وتُصان حين نُعاملهن بمساواة واحترام؟

يصل الكاتب إلى ذروة التهويل حين يقارن التعليم المختلط بطائفة دينية منحرفة تُمارس الشيوعية الجنسية، ثم يُشبه ما يحدث في كلية إدنبرة بما حدث في طائفة «الأجابيمون» (Agapemone)! وأيّ خلطٍ وكذب ومقارنة زائفة أفظع من هذا؟ هل تُقارَن طالبة علم تحضر درس تشريح، بمن يدّعي أن فتاةً حملت من «المسيح الثاني»؟ هل نخلط بين هدف طبي إنساني، وبين فِعل جنسيّ طائفي منحرف؟ وهل كل ما يخصّ الجسد صار رجسًا لمجرد أنه يدخل في برنامج دراسي تشارك فيه النساء؟

إنّ «الحياء» الذي يكثرون من الحديث عنه حين تُطالب المرأةُ بحقها، ليس سوى اسمٍ مستعارٍ لمنظومة كاملة من القمع الناعم، والهيمنة المغلَّفة بالأزهار والورود. فالمرأة في هذه الخُطَب لا تُعامل كإنسانٍ عاقلٍ كامل الأهلية، بل تُقدَّم في صورة «الملكة المتوَّجة»، التي يجب أن تبقى في القصر، جميلةً، صامتةً، منزوية، لا تعمل ولا تُنتج ولا تناقش، لأن «التاج لا يليق بالكدح»، والنساء خُلقن للزينة، وليس لكبد للحياة.

كُفُّوا عن خِداع النساء بكلمة «الحياء»، كُفُّوا عن تغليف القيود بورقٍ معطّر من الفضيلة الكاذبة، كُفُّوا عن تزيين السلاسل والأغلال والقيود بعبارات الخوف والشفقة والحرص، فالمرأة ليست غبية، ولا ساذجة، ولا جاهلة — لتُخدع بكل هذا التمثيل الرديء!

لقد مللنا هذا الدور المكرر والبارد والساذج، وهو أن تُقدَّم المرأة على أنها «ملكة متوَّجة»، ثم يُقال لها: لا تخرجي، لا تتكلّمي، لا تعملي، لا تُشاركي، لا تدرسي، لا تفكّري، لأنك «ملِكة»! ولأن الملوك لا يعملون في الأسواق، ولا ينزلون إلى ساحات الطب، ولا يمارسن السياسة، ولا يخرجن في الجهاد، ولا يسعين للمعرفة!

مللنا هذا الإخراج الفاشل لمسرحية الحياء،

حيث المرأة حيِيَّةٌ جدًّا، حتى تُمنع من دراسة الطب،

وضعيفةٌ جدًّا، حتى تُمنع من القتال،

وعاطفيةٌ جدًّا، حتى تُمنع من القضاء،

وغاليةٌ جدًّا، حتى تُمنع من كل شيء!

وهكذا — بكل خُبث ولؤم — تُحرم المرأة من حقّها الكامل، ثم يُقال لها: «نحن نحميك، نحن نخاف عليك، نحن نصون حياءك».

لكن الحقيقة المُرَّة هي أن المرأة لا تُمنع لأنها ضعيفة، بل تُمنع لأنهم يريدونها ضعيفة. ولا تُقصى لأنها تفتقر إلى الحياء، بل لأنهم يريدون أن يبقى الحياءُ حجةً أبدية لإقصائها من جميع الساحات. ولا تُصان المرأة لأنها جوهرة ثمينة، بل تُعزَل لأنها خطر — خطر على احتكارهم للسلطة، والمعرفة، والكلام.

إنها ليست حمايةً للمرأة، بل تحكُّم فيها.

وليست غيرةً عليها، بل غَيرة من خصم ومنافس يُراد لها أن تبقى أسفل منهم.

وليست حياءً، بل خوف. خوفٌ من صوت المرأة، وعقل المرأة، وبصمة المرأة، وعلوّ مكانة المرأة إن سُمح لها أن تدخل الميدان.

إن كاتب ذلك المقال لم يكن ناصحًا لهن، ولم يمدّ يده للمرأة إلا ليكبلها بسلاسل من العبارات المعسولة. فلا تكوني يا أختي المرأة فريسةً لابتسامة الذئب حين يتظاهر أنه يحميكِ، بينما هو في الحقيقة يضعكِ في قفص من ذهب، يُحكِم إغلاقه، ثم يُقنعك أن هذا هو العرش!

لا تصمتي حين يُقال لكِ: «نخاف عليكِ». بل قولي: «ومن أنتم حتى تُحدِّدوا للحياء اسمَه وحدوده؟ ومن أعطاكم الحقّ لتتكلموا باسم مَن لم تستأذنوها يومًا؟ أنتم آخرُ مَن يحقّ له أن

يَخاف، وآخرُ مَن يَحكم، وآخرُ مَن يُوَجِّه؛ فحياةُ المرأة ليست ميدانًا تُمارسون فيه وصايتكم. لا الحياء شأنكم، ولا العمل شأنكم، ولا قراراتها، ولا اختياراتها، ولا صوتها، ولا جسدها من أملاككم. أنتم لستم أهلًا أن تُقرِّروا عنها، ولا أن تتكلموا نيابةً عنها، بل لستم أهلًا حتى أن تكونوا طرفًا في الحديث.»

لا يُراد لكِ أن تكوني طاهرة، بل يجب أن تكوني مطيعة.

ولا يراد لكِ أن تكوني صامتة، بل يجب أن تكوني تابعة.

ولا يراد لكِ أن تكوني حيِيّة، بل يجب أن تكوني خانعة.

وهنا مكمن الفخّ، وهو أنهم لا يقدرون أن يقولوا لكِ بوضوح: «اسكتي»، فيقولونها بغير لسان، ويُجمِّلونها بغير لفظ، ويُقدّمونها باسم الدين والحياء والحكمة والغيرة، ثم ينتظرون منكِ أن تبتسمي، وتشكرينهم على سجنك الجميل هذا.

لكن آن الأوان أن يُقال إن الخوف الحقيقي ليس على المرأة، بل منها. من فكرها، من عزيمتها، من استقلالها، من علمها، من شخصيتها، من قدرتها على أن تكون بحق «نصف المجتمع».

نعود إلى صوفيا وفتياتنا السبع وما حدث معهن من الشغب أمام قاعة الجراحين، والذي جعل من هذا الحدث أمرًا مفصليًا في قصة تلكم الفتيات أنه كان أمرًا دُبِّر بليل، ولم يكن اعتراضًا عابرًا من زملائهم الذكور، وفي هذا تقول صوفيا:

> أرغب هنا أن أُوضّح أمرًا مهمًا: لو كنتُ أظن أن ما وقع من شغب كان مجرّد ثورة غضب عفوية من بعض زملائنا، لما وجدتُ داعيًا لأن أروي هذه التفاصيل. لكنني على يقين تامّ بأنه لم يكن كذلك. بل إنّه كان جزءًا من خطة مُحكَمَة جرى إعدادها سلفًا داخل الجامعة، وذلك بعد التصريح الذي أدلى به أستاذ الطب الذي ذكرتُه سابقًا. وكان أوّل فصلٍ من هذه التمثيلية يتمثّل في توزيع منشور سرّي بين طلبة الجامعة (بما في ذلك طلاب لم يكن لنا أي علاقة بهم في تلك الدورة)، يدعو جميع معارضي النساء إلى الاجتماع أمام قاعة الجرّاحين في الموعد المحدّد.

وكما شاهد القارئ الكريم تلك المقالات الصحفية المخزية، بلغتها الدنيئة التي تطعن في شرف وكرامة هؤلاء الفتيات، فقد طُبع أجزاء من هذه المقالات الصحفية وتم توزيعها على الداعمين في المستشفى الجامعي ليُمعنوا في إغلاق الطريق أمام الفتيات والتأكد من أن الباب تم إغلاقه، وإغلاقه للأبد.

وإن كان أولئك الطلبة الذين تجردوا من خِلال الرجولة والمروءة والشرف، فأساؤوا إلى زميلاتهم من الإناث، قد ضربوا مثالًا قبيحًا يُستقذَر، فإن من بين الطلبة أنفسهم من انتصبوا مدافعين عنهن، متكفّلين بحمايتهن، وفي تأمينهن في السير في الطريق حتى يبلغن بيوتَهن، بل اصطحبوهن إلى قاعات الدرس ذهابًا وإيابًا، حرصًا على ألا تمتد إليهن يدُ أذى أو لسانُ اعتداء.

وكما وقف بعض الأساتذة، يتقدمهم الدكتور «كريستيسون» وشيعته، حجر عثرة في طريق الطالبات، معارضين لهن في كل خطوة، واضعين العراقيل تلو العراقيل، فقد وقف في الجهة الأخرى من الأساتذة مَن كان لهم موقفٌ مشرِّفٌ، سجّله لهم التاريخُ بأحرفٍ من نور، ودوّنه بمدادٍ من ذهب.

وكما كانت بعض الصحف والجرائد فاحشةَ القول، متجردةً من الذوق والضمير، متطاولةً على الفتيات بحربٍ قذرة لا خُلُقَ فيها ولا عدل، فإن من الصحف مَن وقفت إلى جانبهن، وقفة صدق ونُصرة، دافعت عنهن بعدلٍ، وانتصرت لقضيتهن بحكمة وإنصاف.

وكما كان من عامة الناس من حُشِي قلبه بالبغضاء، فعادى الفتيات وسعى إلى إفشالهن، فإن من العامة كذلك مَن آزروهن، وأيّدوا خطواتهن، ورفعوا أصواتهم بالدعم والتشجيع.

ومن ثَمّ، فإن هذه اللغة السوقيّة التي تمادت فيها بعض الصحف، حين طعنت في الفتيات، لم تُفلح في هدم عزيمتهن، بل جاءت من حيث لا تقصد، دعمًا غير مباشر لقضيتهن، إذ لم يرضَ أحدٌ من أهل الشرف والمروءة بذلك الأسلوب الوضيع، ولا بتلك الأخلاق المطموسة. وكانت المقالات التي استُهدِف بها تشويه الفتيات، وتشويه ما قمن به من مطالبة بحق، سببًا في أن يُقبل الناس على التساؤل: من هؤلاء الذين يشيعون هذا السُمّ الزُّعاف؟ وما الذي يحرّكهم إلى هذا اللون من الحقد والتشويه؟

ولِيَغوص القارئُ الكريمُ في أعماقِ هذه الحكاية بعينِ البصر والبصيرة، فقد ذهبتُ إلى حيثُ جرتِ الوقائعُ، وصوّرتُ مشاهدَها بعدسة الكاميرا. صورتُ ذاك الموضعَ الذي خطت فيه صوفيا وزميلاتُها خطاهنّ الأولى، ومعالمَ جامعة إدنبرة، وقاعةِ الجراحين، تلك التي ضجّت بأصواتِ السخط والاحتجاج، فصورت مقطعًا قصيرًا، عالي الجودة، ولحسن الحظ كان رجل جميل يعزف بآلة Bagpipes وهي أشهر الآلاتِ الموسيقية في إسكتلندا، وأشدّها تعبيرًا عن روحها وثقافتها، ليحيا المشهدُ في سمع القارئ وبصره.

وأعلمُ أن غالبيةَ القرّاء سيقرؤون هذا الكتاب عبر نُسخته الرقمية، بصيغة (PDF)، ولهذا يسهل عليهم بلوغ الرابطِ التالي لمشاهدة المقطع. أما من اختار النسخة الورقيّة، فحرصتُ على جعل الرابط مختصرًا، يسيرًا، لا يشقُّ عليهم كتابتُه ولا في نقله.

تلك خطوةٌ رجوتُ بها أن أُقرّب لكم البعيد، وأُجسّد لكم الغائب أماكم، كي يكون ما جرى مشهدًا يُرى، ويُحَسّ، ويُعاش، ويُسمع على أنغام أشهر موسيقى إسكتلندية.[1]

أختم وأقول: كانت لهذه الحادثة جانب مشرق بالنسبة لقضية النساء، فحين تكون المعارضة بهذه الدرجة من الوقاحة، يصير تأثيرها عكسيًا وسلبيًا، فصحيفة (Queen's Lady's Newspaper) قالت:

> لا يمكن لهذا الشعور — الذي تجلّى في ذلك السلوك المشين — أن يكون قد نشأ في يومٍ وليلة، فلا بد أن هناك الكثير من التصرفات والأحاديث الطائشة التي قادت إلى هذه النتيجة المخزية التي نأسف لتسجيلها. هل فكّر هؤلاء الشباب أن تصرفاتهم ستؤدي في عقول ذوي الفكر السليم إلى أحكام معاكسة تمامًا لتلك التي يرغبون في أن يتبناها الناس بشأن هذه المسألة؟ هل يظنون أن بتصرفاتهم هذه أثبتوا تفوق الرجال على النساء؟ أم يظنون أن معارضتهم العقيمة هذه ستدفع الطالبات للتخلي عن الهدف الذي كرّسن أنفسهن له؟
>
> إدنبرة ليست الكلية الطبية الوحيدة في العالم، وحتى لو كانت كليةً رفيعة المستوى، فإن تصرف طلابها مؤخرًا — في هذه الحادثة وغيرها — قد يدفع الجادّين في طلب العلم إلى التفكير مليًا فيما إذا كانت جامعة إدنبرة هي المكان المناسب لهم ليقضوا فيه سنوات دراستهم.

ولمن يتذكر السيدة «كينجسلي» التي كانت تذهب مع الفتيات لدراسة التشريح والطب فقط دعمًا لهن لا أكثر، فقد كتبت كذلك في جريدة (Henley Advertiser) معلقةً على ما حدث قائلةً:

> قد نشأ في إدنبرة شعور قوي بالسخط تجاه المشاغبين، وأيضًا تجاه أستاذٍ معيّن يُعرف بموقفه العدائي، الذي يوجِّه تعليقات ساخرة ضد الطالبات في السرّ، داخل قاعة محاضراته. والواقع أن الطالبات يتعرضن الآن إلى كثير من الاضطهاد؛ إذ إن إدارة المستشفى الملكي رفضت السماح لهن بدخول أجنحته، وبدون سنوات من التدريب العملي في المستشفى، لن يكنّ قادرات على الحصول على شهادة التخرج.
>
> لا شك في أن هذا العداء من بعض الطلاب الذكور نابع من الغيرة؛ فقد عملت الطالبات بجدٍّ، وتميّزن كثيرًا في قائمة الشرف، لدرجة أن إحدى الطالبات حصلت على ميدالية في الكيمياء في أحد الفصول، ثم ميدالية أخرى في علم

1- https://youtu.be/YsSPdR_EEKY

التاريخ الطبيعي، وهو ما جعلها تتفوق على أقرانها وتُثير غضب فئة من الطلاب الذكور الكسالى والجبناء، الذين لا يُمثّلون سوى أقلية ضمن من يُسمّون أنفسهم طلابًا في الجامعة وكلية الجراحين. لكن في المقابل، هناك عدد كبير من الشخصيات النافذة يدعم هؤلاء الطالبات بثبات، ويؤمن بأن التعليم الطبي الذي يسعين إليه سيكون مصدرًا للخير الديني والأخلاقي العظيم.[١]

وكي نختم هذا الفصل، لم يتبق لنا إلا أن نقول إنه تم القبض على ثلاثة طلاب هم، «فريدريك رايس» (Frederick Raese)، و«ويليام جينكينز» (William Jenkins)، و«ويليام هيوز» (William Hughes) بتهمة الإخلال بالنظام العام في محيط قاعة الجراحين. وقد أقر الثلاثة جميعًا بالذنب، وقام القاضي بتغريم كل منهم جنيهًا واحدًا، أو السجن لمدة عشرة أيام، وكفالة مالية قدرها جنيهان.

كما تم القبض على طالب طب رابع يُدعى «والتر روبرتسون» (Walter Robertson)، حيث وُجّهت إليه نفس تهمة الإخلال بالنظام العام، بالإضافة إلى تهمة الاعتداء على أحد ضباط الشرطة أثناء أدائه لواجبه. ثم حُكم عليه بغرامة قدرها جنيه إسترليني أو السجن عشرة أيام، وكفالة قدرها خمسة جنيهات وإلا يُسجن عشرة أيام أخرى.

١- جريدة (Henley Advertiser)، السبت، ٣ ديسمبر ١٨٧٠

الفصل التاسع:
المستشفى الجامعي

يمكننا أن نُرجع ما جرى لتلك الفتيات أمام قاعة الجرّاحين إلى طلبهن الانضمام إلى الجولات السريرية في «المستشفى الملكي»؛ إذ إنّ خطوة التقدُّم إلى الجامعة — على ما فيها من جرأةٍ لم تشهدها قط أيُّ جامعة بريطانية — قد جرى التغاضي عنها، وحضور محاضرات التشريح خارج أسوار الجامعة قد أعرض البعضُ عنه صفحًا، بل إنّ جلوسهن إلى جانب الذكور في صفوف العلم في دروس التشريح داخل قاعة الجرّاحين قد تقبّله البعض على مضض، أمَّا أن تُقدِم أولئك الفتيات الصغيرات على اقتحام عقر دار الطب، وأن يلجن أبوابَ «المستشفى الملكي»، فهذا ما لم يتحمل الأطباءُ تصوّره، فضلًا عن قبوله.

لقد اعتُبر ما سبق من أفعالهن أشبه بصدقة عابرة أُعطيت لفتاة يتيمة. نعم، لقد كان بعضُ الأساتذة يقفون إلى جانب صوفيا، وليس ذلك رغبةً منهم في تعليم النساء ولا إيمانًا منهم بصدق قضيتها، لكنهم كانوا يفعلون ذلك من باب الشفقة وباعتبارها «فتاة يتيمة» — بالمعنى الحرفي للكلمة —؛ فقد تُوفي والدها قبيل أن تلتحق بالجامعة، كما أسلفنا الذكر.

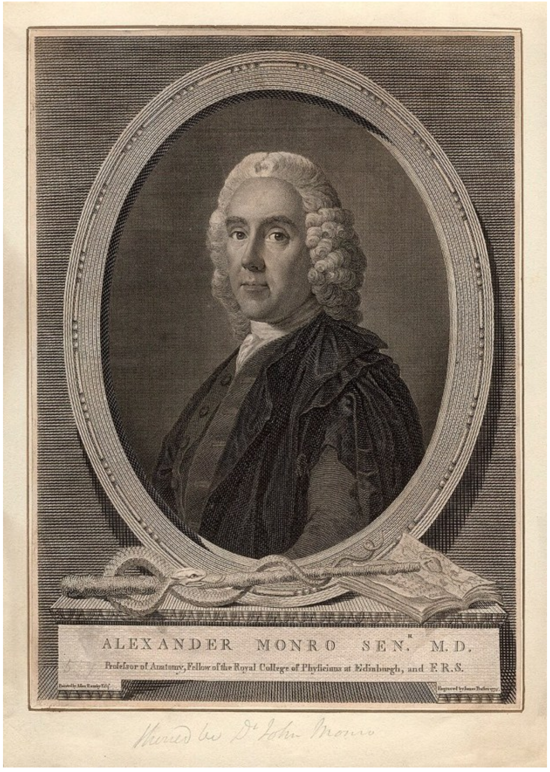
قلنا إن ما مضى من أفعال الطالبات كان يمكن تحمله والتجاوز عنه، تارةً من باب الشفقة، وأخرى من باب الاستحقاق، وتارةً لأجل النفوذ والضغط، أمّا أن تَجرؤ إحداهُن على التطلّع إلى الوقوف في صفوف الأطباء الكبار وأن تتواجد معهم في عقر دارهم، وأن تُعامَل ندًّا لندّ، فهذا لونٌ من التمرّد لا يُغتفَر، وتطاولٌ لا يُحتمل، وغايةٌ دونها خَرْطُ القتاد.

وقبل أن نمضي في سرد الوقائع، لا بد للقارئ الكريم أن يُلمَّ بتاريخ هذا «المستشفى الملكي» (The Royal Infirmary)، وأن يتبيَّن أصلَ نشأته، ومراحلَ تكوينه، وهيئةَ إدارته؛ فإنَّ ما سيأتي من أحداثٍ لا يستقيم فهمُه ولا يكتمل تصوُّره إلا على ضوءِ هذه المقدمة التمهيدية.

كانت البدايات الأولى للمستشفى الملكي على يد الطبيب البارع «ألكسندر مونرو» (Alexander Monro)، الذي التحق بجامعة إدنبرة للدراسة، لكنه لم يُتمّ فيها التخرّج، بل تلقّى العلمَ على يد والده الطبيب، ثم مضى في طلبه شرقًا وغربًا، فشدّ الرحال إلى القارة الأوروبية، فتتلمذ في جامعة ليدن بهولندا، وعمل في مستشفى بمدينة باريس. وقد نبغ في علم التشريح نبوغًا أذهل أطباء عصره، فقد كان يبعث ببعض عيناته التشريحية إلى أطباء جامعة إدنبرة، فلما

وقف الدكتور «آدم دروموند» (Adam Drummond) على تلك النماذج، أُعجب بها غاية الإعجاب، وقال إنه على استعداد أن يتنازل عن كرسي الأستاذية في الجامعة لأجل «مونرو».

وما إن عاد «ألكسندر مونرو» من رحلته الأوروبية، حتى كان الدكتور «آدم» قد وفّى بوعده، فاستقال من منصبه في الجامعة، وفتح الطريق لـ «مونرو»، فعُيِّن أستاذًا للتشريح، ليكون أول من تولّى هذا المنصب في تاريخ جامعة إدنبرة.



ألكسندر مونرو

وحين استقرت به الحال، طمح إلى تغيير مسار تعليم الطب في بلده، فكان أول من اقترح، في تاريخ بريطانيا كلها، أن يكون لكلية الطب مستشفى خاص بها، إذ كان التعليم آنذاك نظريًا صرفًا، ومَن أراد التطبيق العملي وجب عليه أن يلتمسه خارج أسوار الجامعة. فكتب كُتيبًا صغيرًا، دون أن يضع اسمَه عليه، وربما كان ذلك خشيةً على سمعته أو منصبه، انتقد فيه ضعفَ تدريس الطب في بريطانيا، وقال إن جامعة إدنبرة إن كانت تريد لنفسها مكانةً بين كبريات الجامعات، فعليها أن تحذو حذو جامعة ليدن وتُنشئ مستشفًى خاصًا بها.

ولم يكن هذا الكتيب صيحةً في وادٍ أو نفخةً في رماد، بل كان شرارةً أشعلت همم أطباء آخرين؛ فشرع «مونرو»، بمعونة بعض النافذين وذوي المناصب، في جمع التبرعات، حتى استأجروا مكانًا صغيرًا أُعدّ فيه ستة أَسِرّة للمرضى، وكانت تلك هي اللبنة الأولى لما صار يُعرف فيما بعد بـ «المستشفى الملكي» (The Royal Infirmary).

نعم، كان أستاذ التشريح هو المؤسس الحقيقي لهذا الصرح الطبي، الذي أصبح اليوم يضم أكثر من تسعمئة سرير! وقد كانت بدايته بستة أَسِرَّة فقط. ففي عام ٢٠١٢ وحده، استقبلت وحدةُ الطوارئ — دون بقية الأقسام — ما يربو على ١١٣,٠٠٠ مريض!

فتأمّل، رعاك الله، كم من الأجر كُتب لهذا الإنسان؟ كم حسنة كُتبت له مع كل طالبٍ نهل من علوم الطب؟ وكم من الأجر وُضِع في ميزانه مع كل طبيب عالج مريضًا؟ ومع كل مريض وجد في المستشفى عافيةً بعد ألم، وشفاءً بعد سقم؟ تأمّل كيف بدأ الحلمُ سريرًا بعد سرير، ثم صار المستشفى منارةً من أعظم منارات الطب في بريطانيا كلها!

كان أول ما أُطلق على هذا المستشفى هو اسم «مستشفى المرضى الفقراء» (Hospital for the Sick Poor)، وقد كان الأطباء يعالجون فيه المرضى مجانًا، ويعطونهم الأدوية كذلك دون أي أجر. وبعد سبع سنوات ضاق المقرّ المؤجَّر بعدد المرضى المتزايد، فأصدر الملك «جورج الثاني» سنة ١٧٣٦، إيذانًا برعايةٍ ملكيّة، ومنحةً مالية لهذا المستشفى، وحين أُصدر هذا القرارُ الملكي، تم تغيير اسم المستشفى رسميًا إلى اسم «المستشفى الملكي».

كان نظام إدارة المستشفى يتكون من جهتين، الأولى تسمى «هيئة المساهمين» (Court of Contributors) —— إذ كان المستشفى يعتمد في تمويله كلِّه على أموال التبرعات ——، والثانية كانت «هيئة المديرين» (Board of Managers).

ولكي ينضم الشخصُ إلى هيئة المساهمين، كان لا بد أن يتبرع على الأقل بمبلغ خمسة جنيهات أسترليني كل عام، وما إن انضم إلى هيئة المساهمين فسيكون له الحق في التصويت السنوي واختيار لجنة المديرين التي تتكون من ٣٠ عضوًا.

كان هذا هو الوضع القائم المعمول به حتى دخل قانونٌ جديد في «المستشفى الملكي» حيّز التنفيذ في ذلك الوقت، وكان على جميع مديري المستشفى أن يتقاعدوا ما لم يُعاد انتخابُهم. وبصدور هذا القانون الجديد أصبح الوقتُ مناسبًا لصوفيا وزميلاتِها لانتخاب أعضاء جدد يؤيدون قبول النساء إن أمكن ذلك. فما بالنا لو علمنا أنَّ صوفيا كانت من هيئة المساهمين في المستشفى، أي أن لها، شخصيًا، الحقَّ في التصويت في الانتخابات القادمة، وعليها أن تفعل شيئًا لأجل الإتيان بإدارةٍ جديدةٍ تدعم قبول الفتيات للتدريب داخل المستشفى الجامعي.

ويمكن للمرء أن يتخيّل مدى قوة الحملات الانتخابية التي دارت من كلا الجانبين؛ إذ كانت هناك مجموعتان متنافستان في الانتخابات، المجموعة الأولى بقيادة عمدة مدينة إدنبرة (Lord Provost)[١] وكان هو السيد «ويليام لو» (William Law)، وقد كان من الداعمين لصوفيا وحركتها. والمجموعة الثانية من المناوئين لها والرافضين لتواجد النساء داخل أروقة وأجنحة المستشفى.

كان من المقرر أن يُعقد الاجتماع السنوي للمساهمين (أو المتبرعين) في الثاني من يناير عام ١٨٧١، وكانت صوفيا قد نذرت نفسَها حينذاك لمساعٍ جبّارة في سبيل ضمان انتخاب مدراء للمستشفى يقفون في صف الحركة المناصرة لحقوق النساء. وفي حين عادت سائر الفتيات إلى

١- لقب Lord Provost هو المنصب المكافئ لـ Mayor (عمدة) في المدن الإنجليزية، لكنه يختص بأربع مدن كبرى في اسكتلندا: إدنبرة، جلاسكو، دندي، وأبردين. الفرق الأساسي أن Lord Provost يجمع بين دور العمدة ورمز تمثيل التاج الملكي داخل المدينة، بخلاف الـ Mayor الذي تكون سلطاته مدنية فقط. كما أن لقب Lord Provost يحمل طابعًا شرفيًا ونبيلًا يعكس مكانة المدينة القومية والتاريخية، خاصةً إدنبرة باعتبارها عاصمة البلاد. أما في إنجلترا، فبعض المدن الكبرى تستخدم لقب Lord Mayor بدلًا من Mayor، بنفس الدلالة الشرفية تقريبًا، لكن مع اختلاف التقاليد بين اسكتلندا وإنجلترا.

منازلهن ليشاركن أُسَرَهُنّ أفراحَ عيد الميلاد، بقيت صوفيا مرابطةً في إدنبرة، لا تغادر أروقة صحيفة (The Scotsman)، تكتب المقالات وتستنهض همم الجماهير، وتطرق أبواب المدراء والمتبرعين، في مسعى شاقّ، إذ ليس من الهيّن مخاطبة هذا الجمع الغفير من الناس، باختلاف أهوائهم، وتباين مقاصدهم، وتنوّع طرائق تفكيرهم، لتستنفر دعمَهم وتستقطب تأييدَهم لقضيتها. فقد كتبت، على سبيل المثال، عن شخصٍ متبرعٍ من هيئة المساهمين التقت به وقالت: «مشترِكٌ بألف جنيه. هادئ، بسيط، ليس ضيق الأفق ولا قاسٍ في طبعه، لكنّه لم يكن مهتمًا بالأمر من قبل. قال إنه «يجب أن يُفكر في الأمر الآن». رغم أن ميوله كانت ضد الطبيبات، أوضحتُ له أن هذا مجرد تفصيل، — وأن تحقيق العدل والحق والإنصاف أهم من ذلك بكثير.»

إذا نظرت إليها فستراها لا تكلّ من اللقاءات، ولا تملّ من المراسلات، وتظلّ تكتب وتخاطب وتدافع، حتى في يوم عيد الميلاد نفسه، وقد شُغلت عن العيد حتى نسيت موعده، لولا أن ذكَّرَها به الدكتور «ماسون» — ذاك الرجل الجليل الذي سنذكر دائمًا أنه ساندها من أول لحظة — فدعاها هو وزوجته لتقضي معهما العيد وتتشارك مائدتهما. لهذا، حين قلتُ في صدر هذا الكتاب إن «صوفيا كانت هي الحركة»، لم يكن ذلك من باب المبالغة، بل هو الحقّ والإنصاف؛ فهي التي لم تنسَ حين نسي الجميعُ، ولم تعد أدراجَها كما عادوا، ولم تتوقف لتحتفل كما توقفوا. كانت غايتها أسمى من الأعياد، وهمّها أكبر من العطلات، إذ ارتفعت بقضية تعليم المرأة فوق كل مطلب، وكل لذّة، وكل ميل إلى الدعة أو الركون إلى الراحة.

ولا أظن، وقد تجاوزنا هذا القدر كله من الكتاب، أن يغيب عن ذهن القارئ ذكر صحيفة (The Scotsman)، تلك التي لم تكن مجرّد منبر إعلامي، بل كانت بمثابة البطل الثامن الذي ساند الفتيات السبع في معركتهن الوجودية. أما رئيس تحريرها، السيد «ألكسندر راسل»، فكان من أولئك الرجال الذين شاركوا في المعركة بقلمه وموقفه ولم يقفوا موقف الحياد، ثم شاء القدر أن يرتبط مصيرُه بإحدى تلك النساء المناضلات، وهي السيدة «هيلين إيفانز» (Helen Evans)، التي أسلفنا ذكرها في موضع سابق، وذكرنا أنها كانت قد اقترنت بضابط، ورزقت منه بطفلة سُمّيت «هيلين» كذلك، ثم شاءت المقادير أن يُغيِّب الموتُ صغيرتَها، ثم يخطف منها زوجها بعد ذلك.

لكن الحياة لم تَدَعها في وحدتِها طويلًا، فما مضى عام على تلك المآسي حتى تزوّجت رئيس التحرير السيد «ألكسندر راسل»، وأول ما رزقا به كانت بنتًا، أسمياها «هيلين» أيضًا، وبعد ذلك رزقا بابنة أخرى ثم بولد.

أما «هيلين» — ولا أعني الأم، ولا الطفلة الأولى التي غيّبها الموت، بل أقصد البنت الأخيرة التي أنجبتها من السيد «راسل» — فقد كانت امتدادًا حيًّا لمسيرة أبويها، إذ لم تلبث أن أصبحت

من أعلام الحركة النسوية في بريطانيا، لتصدق الحكمة القديمة التي تقول: «ومن شابه أباه فما ظلم». لكنها كانت تشبه أمها أكثر من شبهها بأبيها.

كان السيد «ألكسندر راسل» من أشدّ الرجال نصرةً لصوفيا وقضيتها، ومن أخلص الداعمين لحركتها التي رفعت لواء حقوق النساء في زمنٍ عزّ فيه النصير. وإن أردنا أن نُسطّر قائمةً بأبرز الرموز الرجالية التي ساندت هذه الحركة الوليدة، فلا جرم أن يتصدّرها البروفيسور «ماسون»، أستاذ البلاغة والأدب في جامعة إدنبرة؛ ويليه الدكتور «بالفور»، عميد كلية الطب في الجامعة، الذي لم يتردد في الانتصار للعدالة ولو كلّفه ذلك مجابهة التيارات الأكاديمية المتشددة؛ ثم السيد «ألكسندر راسل»، رئيس تحرير صحيفة (The Scotsman)، الذي كان قلمه وجريدته سيفان في معركة الصحافة والإعلام، والتي كانت من أهم الأصعدة التي تدور فيها رحى الحرب.


ألكسندر راسل

فهؤلاء الثلاثة، كلٌّ منهم في مجاله، كانوا أعمدة الحراك الإصلاحي النسائي في إدنبرة، هؤلاء الرجال آمنوا أن قضية المرأة نداءُ حقٍّ وعدل لا يمكن لرجل يدعي أنه على شيء من الخُلق أن يرده أو يرفضه. ومن تمام الحكاية وجملة القول، أن السيد «ألكسندر راسل» كان من بين المدعوّين إلى حفل افتتاح قناة السويس في مصر، ذلك الحفل الأسطوري الذي أقامه الخديوي إسماعيل عام ١٨٦٩ سعيًا وراء المظاهر البرّاقة وكسب مودة الأوروبيين وإبهارهم بعظمة الشرق المُتَفرنِج. وقد أُنفقت في ذلك الاحتفال أموالٌ طائلة، حتى قيل إن تكلفته تجاوزت المليونين والنصف من الجنيهات، رقمٌ جللٌ في زمانه، أُهدرت فيه خزائن الدولة على ألوان البذخ والترف. ولم تلبث هذه السياسات أن أثقلت كاهل مصر بالديون، وكان من نتائج ذلك أن اضطر الخديوي، بعد أعوام قليلة لم تتجاوز الست سنوات، وتحديدًا في سنة ١٨٧٥، إلى بيع أسهم مصر في شركة قناة السويس لبريطانيا، وهي نسبة بلغت ٤٤٪ من إجمالي الأسهم. وكان هذا البيعُ الشرارةَ الأولى التي مهدت الطريق للتدخّل البريطاني، ثم الاحتلال المباشر عام ١٨٨٢، حين ترسّخ النفوذ الأجنبي وابتُلِعت الإرادة المصرية وأُلغيت.

قلت إن صوفيا كانت، في تلك الأيام الهامة، لا تغادر مقر صحيفة (The Scotsman)، تمسك بزمام ما يُنشر، وتلتقي مَن تيسّر لقاؤه من المساهمين والمدراء في المستشفى، مستنفدةً كل طاقاتها لتُمهِّد الأرض لهيئةٍ إداريةٍ تقف في صف النساء وقضيتهن، وتحمل راية الإصلاح دون وجل.

غير أنّ ما قرأتُه حديثًا لباحثة تدعى «سارة غازيدي» (Sarah J. Ghasedi) من جامعة واشنطن يضيف بُعدًا جديدًا، بل مفاجئًا، إلى سيرة صوفيا. فقد كشفت الباحثةُ في أطروحتها لنيل الدكتوراه عام ٢٠٢١ — والتي كانت عن صوفيا وسيرتها — أن صوفيا كانت تعمل صحفيةً في السر لدى تلك الجريدة، تتقاضى أجرًا على المقالات التي تكتبها، وهو ما لم تُفصِح صوفيا عنه يومًا، بل حرصت على كتمانه طوال حياتها.[١]

وقد توصلت الباحثةُ إلى هذا الكشف خلال زيارتها إلى إدنبرة، حين ولجت أرشيف المكتبة الوطنية في إسكتلندا، وأخذت تقلّب السجلات والوثائق، فإذا بها تعثر، مصادفةً، على ما يدل بجلاء أن صوفيا كانت موظفةً في الصحيفة، وأن المقالات التي ظنّ الناس طويلاً أنها من قلم السيد «ألكسندر راسل» إنما كانت من بنات أفكارها هي، وإن نُسبت إليه هو. وهنا، لا نُنكر فضل «راسل» الذي فتح لها الباب، وأتاح لها المنبر، ولكن الحقيقة التي تبرز الآن أن اليد الخفية وراء تلك المقالات الجريئة لم تكن يد الرجل، بل يد المرأة التي كانت تقاتل في كل جبهة، وتنتصر لقضية النساء بكل سلاح مشروع (وغير مشروع).

وما يزيد هذه الخطة دهاءً أن صوفيا لم تذكر قط، لا في سيرتها ولا في مذكراتها، إلى كونها صاحبة تلك المقالات، رغم أنها طالما استشهدت بها وأحالت عليها كدليل على الرأي العام المؤيد لقضيتها. وكان في هذا الإخفاء عبقرية؛ فإنها لو أعلنت أنها هي الكاتبة، لأمكن أن يُنظر إلى تلك الآراء على أنها محض رأيٍ شخصي لها، محدود الأثر. أما حين تُقدَّم على أنها كلمات كتبتها الصحيفة، فالرأي إذ ذاك يكتسب قوة المؤسَّسة، وليس الفرد، وتُغلفه هالة من الموضوعية والاستقلال.

ورغم أنه لم يُتح لي الاطلاع على رسالة الدكتوراه كاملةً حتى الآن، فقد بعثت برسالة مباشرة إلى الباحثة «سارة غازيدي» (Sarah J. Ghasedi)، ألتمس منها أن ترسل إليّ نسخةً من أطروحتها، غير أنها — حتى لحظة كتابتي هذه السطور — لم تجبني، لا بالقبول ولا بالرفض، ولعل السبب أني راسلتها عبر بريدها في جامعة واشنطن، ولعلها أنهت الدكتوراه وتركت الجامعة. كما تواصلتُ مع مكتبة جامعة إدنبرة، راجيًا أن يسعوا في الحصول على نسخة من تلك الرسالة، غير أن الجامعة نفسها، إلى الآن، لم تتحصل على نسخة منها.

على أن الباحثة، لحسن الحظ، كانت قد نشرت ورقةً بحثيةً تكشف فيها عن أبرز ما توصلت إليه من نتائج،[٢] وقد قرأتُ تلك الورقة، فوجدت فيها من الومضات ما يكفي لأن يُثير

1- Ghasedi, Sarah J. *Medical Women and the Periodical Press: Sophia Jex-Blake, the Scotsman, and the Politics of Anonymity*. 2021. University of Washington, PhD dissertation.

2- Ghasedi, S.J. (2021). *The Authority of Anonymity: Sophia Jex-Blake's Scotsman Leaders and the Politics of Self-Citation*. Victorian Periodicals Review 54(4), 583-603. https://dx.doi.org/10.1353/vpr.2021.0045.

الإعجاب ورسم الصورة عن الفكرة التي أرادت الباحثة قولها. لكنني — بطبعي — لا أرضى بالكلام المقتضب، ولا أكتفي بالإشارات العارضة، بل أعشق السياق المتكامل، وأحب أن أستمع إلى الحكاية في تفرّعاتها وتشعّباتها، كما أحب أن أنصِت إلى رواية تُروى على مهل، وليس إلى موجز يُلقى على عجل. فإن ظفرتُ برسالة الدكتوراه تلك يومًا، فسأقرؤها صفحةً صفحة، رغبةً في الوفاء لصوفيا، التي آن لنا أن نسمع صوتها الخفيّ كما سمعنا صوتها الجهري.

لماذا لم تشر صوفيا يومًا أنها كانت تعمل صحفية في الجريدة؟ ولماذا أبقت على نسبة تلك المقالات التي نشرتها إلى الجريدة وليس لها هي؟

لمحاولة فهم ما كان يدور في عقل صوفيا يجب علينا أن نعود بالزمن قليلًا إلى زمان «أرسطو»، ففي كتاب «الخطابة» (Rhetoric)، الذي أسس فيه نظريةً متكاملةً لفنون الإقناع والخطابة، والتي ما زالت حتى اليوم حجر الأساس في فهم كيفية تأثير المتحدث على الجمهور، حدد أرسطو ثلاث ركائز رئيسية لنجاح الخطاب وهي: Logos، وEthos، وPathos، وكل واحدة منها تمثل بُعدًا مختلفًا في العملية الإقناعية، لكنها متداخلة ومتكاملة ولا يمكن أن يَستغني عنها خطيبٌ يسعى إلى التأثير العميق في مستمعيه. أول هذه الأركان هو Logos، وهي كلمة يونانية تعني في الأصل «الكلمة» أو «العقل» أو «المنطق»، ومنها اشتق لاحقًا مصطلح «Logic». ويمثل Logos البُعد العقلي والمنطقي للحجة؛ إذ يتطلب من المتحدث أن يقدّم أدلة واضحة، واستنتاجات عقلانية، وحججًا مرتكزة على الشواهد والبيانات. فإذا كان المتحدث يناقش أهمية الطاقة المتجددة، فعليه أن يدعم كلامه بإحصاءات حول انخفاض تكاليف الطاقة الشمسية، أو تقارير علمية تثبت أثرها الإيجابي على البيئة والاقتصاد، كي يقنع العقول المتشككة.

أما الركيزة الثانية فهي Ethos، المأخوذة من الكلمة اليونانية ἦθος والتي تعني «الطبع» أو «الخلق» ومنه جاءت كلمة «أخلاق» (Ethics). ويشير هذا العنصر إلى المصداقية الشخصية للمتحدث، ومدى ما يمتلكه من مؤهلات وسمعة حسنة تجعله جديرًا بالثقة في نظر الجمهور. فالمستمع يميل إلى تصديق من يراه خبيرًا أو صاحب تجربة شخصية أو شخصًا مشهودًا له بالإنصاف والنزاهة. ولهذا تجد السياسي الناجح أو المفكر المرموق يبدأ حديثه بإبراز خبراته أو الإشارة إلى إنجازاته في المجال المعين، فحين يتحدث طبيب مشهور عن مخاطر التدخين، فإن Ethos الخاص به يُقوِّى حجته، حتى قبل أن يسرد الأدلة العلمية، لأن الجمهور يثق فيه بحكم مهنته ومكانته.

وأخيرًا، يأتي Pathos، من الكلمة اليونانية πάθος التي تعنى «العاطفة» أو «الانفعال»، وهو بُعد التأثير العاطفي في الجمهور، حيث يسعى المتحدث إلى تحريك مشاعر السامعين، سواء كان ذلك بالخوف، أو الأمل، أو الحزن، أو الفرح، أو حتى الشعور بالواجب الأخلاقي. في الخطابة السياسية، مثلًا، قد يعرض المتحدث قصة مأساوية عن عائلة فقيرة تعاني من ويلات الحرب، مما

يثير الشفقة والغضب في نفوس الجمهور ويدفعهم لتأييد مواقفه. إن الـ Pathos يعطى للكلمات روحًا وحرارة؛ لأن الناس لا تتحرك دائمًا بالمنطق وحده، بل لربما تحركهم مشاعرهم أكثر.

ما أريد الوقوف عنده الآن هو النقطة الثانية التي تحدث عنها «أرسطو»، وهي الـ Ethos، والمقصود بها مصداقية الشخص المتكلم. وأريد القارئ أن يسأل نفسه الآن: إذا أرادت صوفيا إثقال حجتها بإثقال شخصية ومصداقية الشخص المتكلم والناطق بهذه الحجة، أتراها تنسب القولَ إلى نفسِها وهي بعدُ لا تزال طالبة في الجامعة وتدور حولها جميع هذه الأحداث الشائكة؟ أم تنسب هذه المقالات والأقوال إلى جريدة مشهورة ذات مصداقية وقبول لدى الناس؟

لن يشك عاقل أن صوفيا بنسبتها هذه المقالات إلى جريدة (The Scotsman) ومحررها، سيزيد من موقفها قوةً، ومن حججها صلابة ورصانة. لذلك أرادت أن يبقى هذا الأمر سرًا دائمًا، لتظل مقالاتها باسم الجريدة وتتمتع بقوة الجريدة ومصداقية الجريدة.

نعود إلى صوفيا وإلى يوم الثاني من يناير، ذلك اليوم الموعود، والمشهد المشهود، الذي تقرّر فيه أن يجتمع المساهمون في مستشفى إدنبرة الملكي ليصوّتوا على الهيئة الإدارية الجديدة، وكان لهذا اليوم في ذاكرة المدينة وقعٌ خاص، إذ كان لحظةً فاصلة بين زمنين، وكان الأمل يحدو صوفيا ورفيقاتها أن يحمل إليهن هذا اليوم انتصارًا طال انتظاره. ازدحمت قاعة البلدية (Council Chambers) قبل الموعد المعلن، واكتظّ المكان بالوجوه المتحفّزة، والأنفاس المترقّبة. وكان من بين الحاضرين نساءٌ مساهِمات قد تبرعن بأموالهن لأجل أن يستمر هذا المستشفى في عمله الشريف النبيل، حضرن هذا الاجتماع الرسمي لأول مرة في تاريخ المستشفى، في سابقة لم تعرفها المؤسسة من قبل، إذ لم تجرؤ امرأةٌ قط، قبل ذلك اليوم، على دخول هذه الدائرة التي ظلت حكرًا على الرجال.

وما إن بدأت الإجراءات، حتى اشتدّ الجدل بين وجهاء المدينة وممثِليها، وقد ترأس الاجتماعَ عمدةُ إدنبرة، السيد «ويليام لو»، الذي ما إن رأى كثرةَ الحضور، حتى اقترح نقلَ الجلسة إلى رحاب كاتدرائية «سانت جايلز» (St Giles' Cathedral) التي تتسع لأعداد أكبر. غير أن سكرتير «لجنة المفوضين الكنسيين» أبدى اعتراضه، بل رفض الاقتراح، وطُرِح الأمر على رئيس المفوضين الكنسيين، فظهر عليه الانزعاج، وكأنه قد زُجّ به زجًّا فيما لا يريد الخوض فيه.

ومع ذلك، لمّا طُلب إليه الكلام، قال إنه يعترض على انعقاد مثل هذا الاجتماع في مكان مخصّص للعبادة؛ إذ يرى أن ما سيُقال في هذا الاجتماع لا يليق سماعه في كنيسة، ولا يجوز أن تتحوّل بيوت الرب إلى منابر للجدال والشؤون المدنية.

وما أكثر العِبر في هذه الواقعة! فقد ابتُليت أمتنا العربية، كما ابتُليت الأمة الإنجليزية، بأن صار بعض من تولّوا شأن الدين — شيوخًا كانوا أو قساوسة — من أجهل الناس بروحه،

وأبعدهم عن جوهره. هذا القسّيس يُحرِّم أن يجتمع المساهمون في بيت من بيوت الله، رغم أنهم أرادوا الاجتماع لإدارة شؤون مستشفى أوقفوا له أموالَهم وأراضيهم. فإذا لم يكن هذا الاجتماع من العبادة، فما هي العبادة إذن؟ وهل العبادة شيئًا إلا خدمة الإنسان، ورفع الضرّ عنه، وعلاج المريض، وإنصاف المظلوم؟

وهذا يذكرني بما قاله «محمد بن صالح العثيمين» أحد شيوخ الوهابية في العصر الحديث، إن قال في كتاب «شرح رياض الصالحين»:

> وإنشاد الضالة له معنيان. المعني الأول: ما ذكرنا وهذا واجب على الإنسان. المعني الثاني: منهيٌ عنه وذلك مثل ما يقع في المساجد، وهو أن يطلب الإنسان الضالة فيه، مثل أن يقول: من رأى كذا وكذا؟ أو: يا أيها الناس قد ضاعت لي كذا وكذا فمن وجدها؟ فهذا لا يجوز في المسجد، وهو مُحرَّم، لأن المساجد لم تُبن لهذا، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا سمعتم أحدًا ينشد ضالةً في المسجد فقولوا له: لا ردها الله عليك؛ فإن المساجد لم تُبن لهذا». فنحن مأمورون أن ندعوا الله عليه، فنقول: لا ردها الله عليه، فنقول: لا ردها الله عليك، كما أننا إذا سمعنا شخصًا يبيع ويشترى في المسجد فإننا نقول: لا أربح الله تجارتك؛ لأن المساجد لم تُبن للبيع أو الشراء.[1]

فأيُّ منطق هذا؟ وأي قلبٍ هذا الذي يستسيغ أن يُدعى على ملهوفٍ ضاع ماله، لأنه تجرأ وسأل عن المال الضائع في بيت من بيوت الله؟! أليس الله هو الرؤوف الرحيم؟ أليس المسجد بيتَ الله الذي يُستغاث فيه، ويُسأل فيه العون؟ وكيف نغلق أبوابه في وجه الضعفاء، ثم نزعم أننا على هدى النبوة؟!

إن هذا الفقه الغبي لا يعرف من المسجد إلا بناءه وهيكله، ولا من الدين إلا طقوسه وصورته. بينما كانت المساجد في عهد النبي ﷺ مناراتٍ للعلم، ومجالسَ للعدل، ومقارَّ للقضاء، وأماكنَ لاجتماع الأمة في كل شأنها، دينيًّا كان أو دنيويًّا. فقد نُصبت الخيام في المسجد لعلاج الجرحى، واحتُجز فيه الأسرى، ووقعت فيه المبايعات، وأُلقي فيه الشعر، وخُطب فيه في الشأن السياسي والعسكري.

نعود إلى صوفيا وهذا القس الذي رفض أن يعقد مجلس المتبرعين في المستشفى في الكنيسة، وأقول: أما كان من الأولى أن يغضب هذا القسّ لِما يقع في المستشفى من تهميش النساء، وليس من مجرد نقاش يفضح ذلك التهميش والاستبعاد؟ أليس الأولى أن تُفتح الكنيسة لصوت المظلومين قبل أن تُفتح لترتيل المزامير؟

---

١ - محمد بن صالح بن محمد العثيمين، **شرح رياض الصالحين**، دار الوطن للنشر، الرياض، الجزء ٢، ص ٦١٨

وهكذا رأينا كيف تحوّل بيت العبادة إلى بيتٍ مغلقٍ على الكلام، ضيّقٍ على الفكر، خانقٍ للحق. ولو كان ذلك القسّ — ومن على شاكلته من مشايخنا المسلمين — ممن يحملون روح الدين وليس مظاهره، لقال: «افتحوا أبواب الكنائس والمساجد، فإن كنيسةً يُطالِب الناسُ فيها بحقوقهم لهيَ أصدق عبادة من ألف عظة وألف صلاة تُلقى على أناسٍ لم يحقوا حقًا، ولم يبطلوا باطلًا، ولم ينصروا مظلومًا، ولم يأخذوا على يد ظالم.»

نقول: بعد تداولٍ كثير، وبعد أخذٍ وردٍّ، وطرح اقتراحات مختلفة كتأجيل الاجتماع إلى يوم آخر، أو بنقله إلى مكان آخر كـ «قاعة شارع كوين» (Queen Street Hall)، وغير ذلك؛ لكن في النهاية، قرر الاجتماع بالإجماع الانتقال إلى الكنيسة. وهكذا، عَبَرَ الجمهورُ الشارعَ إلى الكنيسة. وقد مضت بضع دقائق قبل إحضار المفاتيح، وبدت الحشود من الرجال والسيدات الواقفين أمام باب الكنيسة العليا مشهدًا غريبًا للمارّة. وما إن تم الحصول على الإذن بالدخول، حتى امتلأت ساحة الكنيسة سريعًا.

قال السيد «ويليام لو» مدير الاجتماع إنه إذا تمكّن المساهمون من الجلوس بشكل لائق، وكانوا على استعداد للهدوء — وهنا ضحك الناس — فإن أعمال الاجتماع يمكن أن تبدأ الآن. وأضاف أن الحضور في الكنيسة في ذلك الوقت كانوا يتمتعون بصحة جيدة بشكل لافت؛ وقال إنه على الأرجح، فإن القس سيكون سعيدًا جدًا لو رأى مثل هذه الجماعة والحشود تأتي إلى الكنيسة كل يوم.

بدأت الجلسة بالحديث عن عدد المرضى في العام السابق، وأكثر الحالات التي تم علاجها، وإيرادات المستشفى مقابل مصروفاتها، والأموال التي تبرع بها الناس، وبعض التحسينات المتوقعة للمستشفى خلال الفترة القادمة. وبعد أن تم ذكر كل الأمور المتعلقة بالأراضي، والمبنى الجديد للمستشفى، وكل ما يتعلق بالإدارة والأموال، قال السيد «ويليام لو» إن البند التالي هو الأهم الذي سيُعرض في هذا الاجتماع، وقد اقترح ستة مدراء جدد للمستشفى يثق فيهم ويظن أنهم سينالون تصويت الجميع واستحسانهم. وكان من ضمن هؤلاء البروفيسور «ماسون» ذلك العظيم الذي رافقنا طول صفحات هذا الكتاب. وبعد أن مدحهم وذكر فضلهم وأثنى عليهم وذكر كل ما يتعلق بهم، أراد أن يشير سريعًا إلى مسألة «التعليم الطبي للنساء». ولم يكن ينوي الخوض في جوهر المسألة باعتبارها موضوعًا عامًا، ولا شعر بأنه مدعوّ لإبداء رأيه حول ملاءمة أو ضرورة أو جدوى الصفوف المختلطة التي يدرس فيها الرجال والنساء الطب سويًا. لم يكن بصدد مناقشة المسألة على أساس موضوعي، لكنه شعر بضرورة الإشارة إلى ما أُبلغ به حول أن بعض الداعمين لتعليم النساء يدفعون بهذا الأمر بقوة على المجلس، رغم أنه قد يتسبب، في رأيه، بالإضرار بمصالح كلية الطب في إدنبرة.

وسأل المساهمين إن كانوا مستعدين لتحمّل مسؤولية مثل هذا القرار. وقال إنه يعتقد أن التعليم المختلط بين الجنسين في المستشفى أمر مستحيل. وطلب من المساهمين التوقف والتفكير مليًا قبل تحميل المجلس مسؤولية اتخاذ قرار قد يكون مضرًا بمصلحة كلية الطب في المدينة — وهي ليست كلية صغيرة، بل واحدة من أكبر وأرقى الكليات في بريطانيا.

وبعد أن أبدى الكثير من المساهمين رأيَهم في قضية تعليم النساء، فمنهم من يرى إنه لا فائدة منه، ومنهم من ظن أن التعليم المنفصل هو الحل، ومنهم من قال إن دراسة المرأة للطب ضرورية لتتمكن من معالجة وتوليد النساء بدلًا من أن يكون الرجل هو الذي يتولى عملية توليد النساء. بعد تلك الآراء وقفت السيدة «كينجسلي» (J. A. Kingsley) — تلك البطلة التي رافقت الفتيات ودرست معهن — لتدلي برأيها وقالت:

> بعد الخطابات التي سمعناها لتوّنا، أعتقد أنه يُسمح لي بأن أقول بضع كلمات. هذه ليست مسألة تخص «النساء اللواتي يدرسن الطب في إدنبرة» فحسب، بل هي مسألة أكبر بكثير — إنها مسألة «التعليم الطبي للنساء». وأعتقد أن معظمنا سيسرّه أن يرى إدنبرة تفتخر بفتح أبوابها أمام النساء لمنحهن هذا التعليم. أنا السكرتيرة الفخرية لإحدى الجمعيات المعنية بالتعليم الطبي للنساء، وقد تلقيتُ رسائل من جميع أنحاء بريطانيا العظمى وإيرلندا تؤكد لي أن هذه القضية ذات أهمية كبرى لعدد كبير من أبناء جنسنا.
>
> أنا لا أتحدث باسم قلة، بل باسم الكثيرين — بين ستة آلاف وسبعة آلاف شخص قد وقّعوا العريضةَ التي أشرتُ إليها. هؤلاء النساء سيحصلن على التعليم الطبي عاجلاً أم آجلاً؛ ولم يبقَ إلا أن نرى إن كان مَن في هذا الاجتماع سيشرِّفون أنفسَهم بالسماح للمستشفى بأن يفتح أبوابَه لتوفير هذا التعليم. إن المستشفى يقوم على تبرعات كثيرة، تأتي من النساء كما من الرجال؛ ولهؤلاء النساء، أيضًا، الحق في المطالبة بأن يُتاح لهن التعليم الطبي. أطالب بذلك كامرأةٍ ترغب في تلقِّي الرعاية على يد مَن ينتمي إلى جنسها. أعتقد أنه لا شك في نجاح النساء عندما يُمنحن الفرصة لمزاولة مهنة الطب، وأعتقد أن لدينا مثالاً قويًا أمامنا على هذا النجاح. ما قيل قبل قليل يستحق أن يُقال مرة أخرى: «عندما يتعلق الأمر بجيوب الناس، فإن كثيرين يترددون في التعبير عن آرائهم».

وقد أُشير بعد ذلك إلى عدم قانونية إجراءات المديرين في استبعاد الطالبات. ورأى السيد «مكلارين»، عضو البرلمان (Mr McLaren) أن المديرين تصرفوا بشكل غير قانوني وغير لائق، بل ذهب إلى حد القول إنه إذا اضطرت الطالبات، نتيجة قرار المديرين، للذهاب إلى جامعات أجنبية لاستكمال تعليمهن، فسيكون لهن حق قانوني في مقاضاة المديرين، لأنهم خالفوا شروط

تعيينهم. وأضاف أن القرار الصادر عام ١٨٦٩ بشأن الطلاب لم يُشر إلى «الطلاب الذكور»، بل استُخدم فيه مصطلح «الطلاب» فقط، وبالتالي فإن حصر القبول على الذكور هو تقييد غير قانوني. وقد أشار إلى حالات سابقة فُسرت فيها كلمات مثل «ناخب» أو «دافع ضرائب» على أنها تشمل الرجال والنساء، وطلب بناءً على ذلك أن يُسمح للنساء بالاستفادة من ٨٠ سريرًا على الأقل من بين ٣٠٠ أو ٤٠٠ سرير في المستشفى.

أقف مع القارئ برهة لأقول: ألا ترون أن نفس هذه الحجة التي استخدمها السيد «مكلارين» هي بعينها تمامًا الحجة التي استخدمها طه حسين في التحايل على فهم كلمة «المصريين» التي كُتبت في الدستور ليستطيع قبول سهير القلماوي بالجامعة؟

نعود ونكمل ما جرى في الاجتماع، حيث قال «السيد إدوارد بليث» (Mr E. Blyth) إنه من الواجب الإشارة إلى أن كل الحجج التي قُدمت لــ «السيد سميث» (Mr Smith) كانت قد قُدمت له هو أيضًا، ومع ذلك توصل إلى نتيجة مختلفة تمامًا. وقد لخّص أسبابه للتصويت لصالح السيدات بإيجاز. فقال إنه قبل أسبوع أو اثنين من اجتماع المديرين كان ميّالًا إلى رأي مختلف وهو عدم قبول الطالبات في المستشفى، لكنه في ذلك الوقت لم يكن يعلم أن السيدات قد تم قبولهن في الجامعة كطالبات طب مسجلات رسميًا. وقد شعر بأنه طالما تم قبولهن، فيجب أن تُمنح لهن كل الامتيازات الممكنة لأي طالب. كما أوضح أنه لم يقترح قبول السيدات في صفوف أي أستاذ أو طبيب غير راغب في استقبالهن. وعلى الرغم من وجود مجموعة كبيرة من الأطباء في المستشفى عارضوا الفكرة، إلا أن حالة واحدة فقط جربت الأمرَ عمليًا، وكانت ناجحة تمامًا. وأشار إلى أنه عندما يرى رجلين، أحدهما يمارس العمل فعليًا والآخر يتحدث فقط، فإنه يميل دومًا إلى تفضيل صاحب التجربة العملية. ومن الأسباب الأخرى التي دفعته إلى التصويت لصالح السيدات هو مراعاته لمشاعر المرضى. فقد كان هناك فئتان من المرضى يجب التفكير فيهما: النساء والرجال، وأكد أن وجود السيدات الطالبات سيُوفّر حماية كبيرة للنساء المريضات، خصوصًا في حالات عديدة. وقال إنه إذا كان ثمة فئة تستحق تقديرًا واهتمامًا أكبر من غيرها، فهي النساء الفقيرات اللواتي يضطررن، بحكم ظروفهن، إلى التوجه للمستشفى، ويصبحن موضوعًا للتعليم الطبي والممارسة السريرية. وبناءً على هذه الآراء، دعم قبول السيدات في صفوف أولئك المستعدين لاستقبالهن، وأنكر تمامًا أن يكون ذلك بمثابة منح إذن شامل لحضور جميع الصفوف. ورفض القول إنهم لا يثقون بكلمة السيدات اللواتي التزمن بحضور بعض الصفوف فقط، واعتبر أن الشك في صدق كلمتهن موقف لا يستطيع هو أن يتبناه.

ثم قامت صوفيا وطلبت الحديث وقالت:

> بما أن المسألة قد طُرحت من جوانبها التي تخصنا، فربما يُسمح لي أن أقول بضع كلمات. ما أريد للجمهور أن يفهمه بوضوح هو أن إقصاءنا من جميع أجنحة

المستشفى ليس حالة فردية — فهو ليس نتيجة رأي قاضٍ عادل اضطرته الظروف لإصدار قرار ما؛ بل هو حلقة من سلسلة طويلة من الإجراءات التي صدرت من نفس المصدر وتؤدي إلى نفس النتيجة. حينما جئت إلى إدنبرة منذ نحو عامين، جعلتُ من مهمتي زيارة معظم الأساتذة والأطباء البارزين، وقد قُوبلت (مع استثناءات قليلة جدًا) بأقصى درجات المجاملة الشخصية والكرم — رغم أنني كنت أختلف معهم أحيانًا في الرأي. لكن كانت هناك استثناءات. فعندما زرت البروفيسور «لايكوك»، غادرت منزلَه بعد أن اتفقت معه على نقطة واحدة فقط، وهي أن «أي امرأة تحترم نفسها لا ينبغي تدخل قاعة محاضراته».

وحين قالت صوفيا هذه الجملة، ضجت القاعة بالضحك والصيحات، وهنا اعترض البروفيسور «كريستيسون» ووقف قائلًا: باسم زميلي، أرفع الأمر إليكم، يا سيدي، ضد أي تلميح من هذا النوع موجّه إلى البروفيسور «لايكوك».

فقال رئيس الجلسة السيد «ويليام لو»: حسنًا، أعتقد أن الآنسة «جكس بليك» لم تطلق أي تلميحات قوية.

فأكملت صوفيا حديثها وقالت:

زرتُ «الدكتور كريستيسون»، الذي أخبرني في وقت مبكر أن المسألة قد حُسمت لديه، وأنه لا جدوى من دخول أي نقاش معه. ولم أزر «الدكتور أندرو وود»، لكن تم تقديمي له في غرفة «السير جيمس سيمبسون» مِن قِبَل «السير جيمس» نفسه، الذي كان منذ اللحظة الأولى صديقًا ومساندًا عظيمًا بعقله الكبير وقلبه الكبير. في تلك المناسبة، طلبت من الدكتور «وود» أن يكرمني بخمس دقائق من الحديث معه، فأجابني بأنه «يفضّل عدم ذلك»، ثم أدار وجهه وأعرض عني، وبدأ الحديث مع أشخاص آخرين في الغرفة.

هذه أمثلة على الطريقة التي استُقبلنا بها مِن قِبَل قلة قليلة من الرجال عند وصولي إلى إدنبرة. ويجب أن أقول، إن هؤلاء القلائل قد حافظوا على نفس الموقف المتعنت والثابت منذ ذلك الحين. فلم نطلب أبدًا تسهيلات تعليمية من أي نوع إلا وقُوبلنا برفض حاسم لا هوادة فيه، وبما يتجاوز سلطتهم وحقوقهم في الرفض.

عندما منحني مجلس «الأساتذة الأكاديميين» الإذن بالدخول كزائرة إلى صفوف مادتي «علم النبات» و«التاريخ الطبيعي»، كان أولئك المعارضون من هذه الفئة العدائية هم مَن حصلوا على حق الفيتو لحرماني من ذلك الإذن.

وعندما طلبنا إذنًا للسماح لنا بالدراسة في صفوف منفصلة، واجهنا نفس المعارضة القوية. وعندما حصلنا على هذا الامتياز أخيرًا بفضل تعاطف الرأي العام، استمر أولئك المعارضون في مضايقتنا في كل مناسبة، حتى بعد أن أعلن أحد قادتهم في مجلس الجامعة علنًا أنه سيوظف كلَّ وسيلة بيده ليُفشل التجربة.

حاولنا بجهد كبير، وبتكلفة عالية، تنظيم دروس تشريح خاصة، لكننا قوبلنا دومًا بالقول إن جهودنا ستفشل (وقد فشلت فعلًا)، لأن بعض أعضاء «كليات الأطباء والجراحين» قد قرروا معاقبة أي طبيب يوافق على تعليمنا بمقاطعةٍ مهنية.

وعندما أصبح من المستحيل تمامًا الحصول على برنامج تعليمي متكامل بشكل منفصل، طلبنا السماح لنا بالانضمام إلى الصفوف المختلطة في الجامعة، وكان العديد من الأساتذة على استعداد لقبولنا، لكن نفس الجماعة المعارِضة أطلقت اتهامات «بعدم اللياقة»، رغم علمهم أن الرأي العام أصبح إلى جانبنا، وأن المسألة الحقيقية الآن هي «حق النساء في التعليم».

والآن، أود أن أشير إلى أن هؤلاء الرجال، الذين أعلنوا أنفسهم منذ البداية أعداء لآمالنا في التعليم، قد نجحوا في إحباط جهودنا، وأجهضوا كلَّ مساعينا، مستغلين سلطتهم الواسعة المؤقتة في مجلس المستشفى. أعتقد أن غالبية المديرين كانوا يرغبون في التصرف بعدالة، لكن تأثير هذه الفئة المتعصبة، مع دعمها الضخم من وسائل الضغط، كان كافيًا للهيمنةِ على القرار ورفضِ طلبنا، ليس فقط للدخول بشروط عادية، بل وحتى لرفض كل فرصة يمكن أن تحقق هدفنا.

وأنا أعلم عن احتجاجات عظيمة ونبيلة قُدمت ضد هذا الظلم من قِبَل بعضٍ مِن أرقى وأعلم أعضاء المجلس، لكن جهودهم باءت بالفشل، لأن «الخيوط كانت تُسحب» و«الأسلحة كانت تُشهر»، وهي أدوات لم يكونوا يعرفون طبيعتها أو لم يستطيعوا كشفها. ثم، على مدى خمسة أسابيع، كان سلوك الطلاب الذين تعاملنا معهم في «قاعة الجراحين» في أصعب مراحل دراستنا، ألا وهي مادة «التشريح العملي»، وكان سلوكنا هناك هادئًا، محترمًا، وبلا أي إساءة من أي نوع. وقد تقبلونا هناك بصمت وجدية على أنه أمر طبيعي، وأخبرني الدكتور «هاندايسايد» —— ردًا على سؤال وجهتُه له بعد خطابٍ ألقاه في اجتماع «المجلس العام» —— إنه خلال عشرين دورة دراسية تقريبًا، لم يشهد شهرًا واحدًا من العمل الجاد والهادئ كما شهده منذ دخولنا قاعاته.

ولكن، في أحد اجتماعات المديرين، عندما قُدم طلبنا للالتحاق بالمستشفى الجامعي، كان غالبية الحضور مؤيدين لقبولنا فورًا في المستشفى. لكن الأقلية اعترضت بدعوى عدم وجود مُدة إشعار كافية عن المسألة، ونجحوا في تأجيل القرار. لا أعرف ما الذي جرى في تلك الأثناء، أو أي تأثير قد تم استخدامه؛ لكن ما أعلمه أن سلوك الطلاب تغيّر تمامًا منذ ذلك اليوم، فأولئك الذين كانوا هادئين ومهذبين أصبحوا وقحين ومهينين. ثم جاءت اللحظة المخزية لذلك الشغب، حين أُغلقت بوابات الكلية في وجوهنا، وتعرضت مجموعتنا الصغيرة للإهانة والوحل من الرأس إلى أخمص القدمين.

صحيح أن طلابًا آخرين، كانوا أكثر شجاعة من أن يكونوا «دُمًى في أيدي خصوم دنيئين»، اندفعوا للدفاع عنا، وفتحوا البوابات، ورافقونا في طريق العودة إلى منازلنا. لكن، رغم ذلك، كان من الواضح أن تأثيرًا جديدًا (مختلفًا تمامًا عن أي حادث سابق) كان يعمل في الخفاء. لا أقول إن أعمال الشغب كانت بأوامر من أحد، لكن لا أستطيع أن أرفض ما قيل لي من قبل بعض الطلاب الغاضبين، إن هذه الحادثة المشينة لم يكن من الممكن أن تحدث، أو يتم تدبيرها في ذلك التوقيت بالذات، لولا علم خصومنا أنهم بحاجة إلى سلاح ضدنا في مجلس المستشفى. وأعلم يقينًا أن تلك الفوضى لم تكن بسبب طلاب قاعة الجراحين فقط.

أعلم أن مساعد «الدكتور كريستيسون» كان من قادة الشغب الرئيسيين، وأن الكلمات البذيئة التي نطق بها لا يمكن تبريرها إلا بكونه كان «سكرانًا»، حسبما قيل لي. لم أقل إن «الدكتور كريستيسون» كان يعلم بوجوده أو أقرّه على ذلك، لكنني أقول إنه لو كان يظن أن ذلك المساعد سيحضر، لاعترض بشدة على وجوده.

وهنا قاطعها الدكتور «كريستيسون» مرةً ثانية وقال: أكرر مناشدتي لك يا سيدي، أرى أن استخدام كلمات من هذا النوع بحق مساعدي لا يليق في اجتماع كهذا. ولا يستطيع المساعد الدفاع عن نفسه، ولا أعرف إن كان الكلامُ صحيحًا أم لا. لا أعرف ما إذا كان قد كان مخطئًا، لكنني أعلم أن مساعدي رجل محترم بكل المقاييس، ولو لم يكن كذلك لما اخترته ليكون مساعدي. وأنا أطلب منك مرة أخرى، يا سيدي، أن تحكم هل يُسمح باستخدام مثل هذا الكلام عن شخص غائب. وأنا على يقينٍ تامٍ أنَّ أحدًا في هذا الاجتماع لم يكن ليستخدم مثل هذا الكلام عن شخصٍ غير حاضر.

قالت صوفيا: إذا كان الدكتور «كريستيسون» يُفضِّل ذلك... وقبل أن تُكمل الجملةَ، قاطعها للمرة الثالثة وقال: لا أرغب إلا في إنهاء هذا الكلام البذيء.

قال رئيس الجلسة: لا أعلم ما هي الكلمة البذيئة المقصودة.

قال الدكتور «كريستيسون»: إن رأيها أن الرجل كان مخمورًا.

قالت صوفيا: لم أقل إنه كان مخمورًا. قلت إنني «قيل لي» إنه كان كذلك.

قال رئيس الجلسة: إذًا، احذفي كلمة «مخمور».

قالت صوفيا ساخرةً مستهزئة: لقد قلت إن ذلك «السُكْر» كان العذر الوحيد لسلوكه البذيء. وإذا كان الدكتور «كريستيسون» يفضّل أن أقول إنه استخدم تلك الألفاظ البذيئة وهو في «كامل وعيه»، فسأسحب الافتراض الآخر بكل بساطة. ثم أكملت حديثَها وقالت:

> إنما أُريد أن أبيّن — لا أكثر — أن إقصاءنا لم يكن نتيجة حكمٍ جماعيٍ من قضاةٍ نُزَّهاء، مجرّدين من الهوى، منصفين في التقدير، بل كان ثمرة حنظلٍ زرعته جماعةٌ متعصبة وحاقدة، سخّرت كلَّ وسيلةٍ تطالها أيديها للتأثير على عقولٍ لم تكن قد تشبّعت بعدُ بتلك الأحكام المسبقة البالية، التي لا يزحزحها دليل ولا يغيرها برهان.
>
> لقد وُجِّهت إلينا تهمة إيذاء أناس لم يفعلوا أيَّ شيءٍ سوى إيذائنا نحن، وتلك لعمري مفارقة دامية؛ فما نُسب إلينا، لو صح، لما نال أذاه إلا مهنتنا الشريفة، التي أردنا لها رفعةً وصيانة، لا تقويضًا وهدمًا. وما كنتُ لأقف هذا الموقف اليوم، لولا أن حرقة الظلم قد نخرت وجداني، وألم التحيّز قد أَمَضَّ نفسي. إن ما جرى لم يكن سجالًا شريفًا، بل كان محاكمةً عقدتها أيدٍ جبانة، وحكمًا أصدرته ضمائر مشروخة، في محفلٍ أُغلِقت فيه أبواب النزاهة وارتفعت فيه رايات التحيّز الأعمى.
>
> أما خطيئتنا الكبرى، فليست إلا أننا لم نقبل أن نتنازل عن حلمنا، ولم نرضَ أن نُدير الظهر لغاياتنا النبيلة، لنُرضي غرور الدكتور «كريستيسون»، أو نُشبع أهواء الدكتور «أندرو وود». لقد سمعتم — أمدكم الله بالعافية — أن قبولنا كان أمرًا هينًا وفي متناول اليد، وأن منفعة الجميع كانت لتتحقق لو وُضعت الأحكام المسبقة جانبًا، وأُعلِيت قيمة الإنسان.
>
> ونحن اليوم في زمنٍ تُستنهض فيه نساءٌ من بيوت العز والدعة لتمريض جرحى الحروب، فيُباشرن مداواة المصابين في ساحات الوغى، ويُدرَّبن في مستشفيات لندن الكبرى على تولّي مسؤولية أجنحة كاملة، رجالًا ونساءً، يعملن جنبًا إلى جنب مع طلاب الطب، ويتقاسمن معهم غرف العمليات وأسرّة المعاناة؛ أفبعد هذا كله، يُنازع أحدٌ في صلاحية المرأة لأن تكون طالبة طب؟! أيُعقل هذا؟

لقد نُفخت الأبواق وضُخمّت اعتراضات أُلبست لباس «الأكاديمية»، فبدت عظيمةً كبيرةً في الظاهر، لكنها في الحقيقة خاوية على عروشها. وأشيرُ أولًا إلى تلك العريضة الضخمة التي لم تطل إلا مسألة وجود النساء والرجال معًا — لا أكثر. وثانيًا، أن هذه العريضة لم تُراجع من جهةٍ نزيهة محايدة، ولا دُقّقت تواقيعها، ولا وُزنت حججها. وثالثًا، أن العريضة التالية المقدّمة إلى «كلية الجراحين» لم تحظَ إلا بتوقيع ثمانية طلاب فقط من زملائنا، ممن تُركوا لتأثيرٍ وتعامل مباشر معنا، فقط ثمانية، لا أكثر.

لقد قيل إن وجودنا يُهدد أركان الكلية، ويُضعف بُنيانها. لكن ها أنتم ترون — مذ أكثر من عام ونصف — النساء يحضرن الدروس في رحاب الجامعة، ولم تنخفض نسبة الإقبال، ولم تُمسّ سمعة الكلية بسوء. بل العجب أن يُقال إن الرجال لا يجوز لهم أن يروا النساء يتعلّمن كيف يُضمد الألم، ويُعالج الجسد، بينما لم يعترض أحد إذا اضطُرت المرأة لاستدعاء الطبيب الرجل ليُداويها، أو يدخل حجراتها، أو يشهد على آلامها. فهل الأخلاق تُستنفر عندما تطلب النساء العلم، لكنها تُنسى وتُهمل عند علاجهن؟!

وقد قلنا، ولن نملّ التكرار، إننا لا نشترط التعليم المشترك، بل نرضى بفصولٍ منفصلة. كما أريد أن أشكر ثلاث أيادٍ نزيهة، من ثلاثة أطباء شجعان، امتدت إلينا، ففتحت لنا أبواب أجنحتها. وقد قلنا بوضوح أننا لن نتجاوز عتبة جناح في المستشفى يُعارض طبيبُه وجودَنا فيه. وقد قيل إن المستشفى فسيح، وفيه خمسة عشر أو ستة عشر طبيبًا. ولا يوجد طالب — رجلًا كان أو امرأة — يدرس في جميع الأجنحة. فدعونا نلتمس العلم في تلك الأجنحة التي فُتحت لنا، واتركوا بقية الأجنحة الثلاثة عشر أو الاثني عشر للطلاب الذكور وحدهم.

نحن لا نطلب امتيازًا لنا من دون الناس، بل نريد مساواة بيننا وبين الجميع. فإن شاء طالبٌ أن يلتحق بجناحٍ نحن فيه، فله ذلك، وإن شاء أن يتفادى التعليم المختلط، فليجد له ملاذًا في الأجنحة الباقية. فأي عقل حرّ، وأي منطق نزيه، يمكن أن يجد في هذا الطلب المتواضع ما يُثير الرفض؟ ومع ذلك، فقد رُفض وبشدةٍ بسبب عناد هؤلاء الخصوم، وليس لعيبٍ فينا.

وأسمحوا لي، أن أختم — ليس بلساني أنا وحدي — بل بلسان كل أولئك النسوة القلائل، لقد أتينا غرباء إلى مدينتكم، نحمل شغفًا بالعلم، ونستودع ضمائركم أملًا في العدل، ونعتمد على ما اشتهرت به جامعة إدنبرة من تسامح وريادة. أفبعد كل هذا الجهد، وهذا الجَلد، وهذا النضال، نُطرد خائبات؟!

إننا لم نخُض معركتَنا من أجل مجدٍ شخصي، ولا لغايات ذاتية ضيقة، بل لأننا نؤمن إيمانًا لا يعتريه الشك أن الطب مهنةٌ إنسانية، وطبيعتها تقتضي أن تكون النساء جزءًا فاعلًا فيها. فكم من نساءٍ مريضاتٍ متألماتٍ، ينفُرْن من البوح لطبيب رجل، ويشتقن لطبيبة تحفظ لهن الخصوصية، وتُخفف عنهن الحرج، لكنهن لا يجدن الطبيبة، فيضطررن مُكرهات إلى استشارة الطبيب الرجل. ومع ذلك، تأتى الحُجج الواهية، فتُشيطن رغبةُ المرأة في دراسة الطب، وتُوصم بالفُحش والأذى، فقط لأنها تسعى لتعلّمه مع زملائها من الرجال.

إنني لا أتحدث باسمنا نحن فقط — هذا الجمع القليل الذي كابد وتحمّل وتجلّد — بل أنطق باسم نساءٍ كثيراتٍ، لا تُعرَف أسماؤهن، ولا يُحتفى بوجودهن، لكنهن يعانين في صمت، ويتألمن في وجوم، وينتظرن ساعة الانتصار. وكما قالت أديبةٌ من بنات اسكتلندا: «إنهنّ، وسط ما يتجرعن من معاناة، يتطلعن إلى نضالنا، ويستلهمن منه الشجاعة».

يا سادة، لقد خرجت هذه المسألة من أيدي القلّة المعادية والمتحيزة ضدنا — مهما بلغ سلطانها — وأصبحت الآن في رحاب الرأي العام، بين أيدٍ أكثر عدلًا واتزانًا. ونحن، إذ نضع هذه القضية بين أيديكم، لا نطلب سوى الإنصاف. فقط... أن تُنصفونا.

كان هذا خطاب صوفيا كاملًا الذي نشرته في جريدة (The Scotsman) في اليوم التالي بتاريخ ٣ يناير ١٨٧٢، وقد شغل التعليقُ على ما جرى في المجلس ثلاثةَ أعمدة كاملة. وأظن أنكم تأثرتم بقراءته كما تأثرت أنا؛ إذ حاولت أن أترجمه بأسلوب يعكس ما فيه من نبرة حزن وألم.

بعدما أنهت صوفيا حديثها، قال الدكتور «كريستيسون» إنه، بما أن الحديث تطرّق إليه، فسيبيّن موقفه كما كان. فقد زارته الآنسة صوفيا وطلبت دعمه، لكنه أخبرها بأن لا جدوى من تقديم أي حجة له، لأنه كان قد ناقش المسألة بالكامل مع الآنسة «إليزابيث جاريت»، ولم تستطع هي أن تُقنعه بتجاوز اعتراضه على إدخال النساء إلى الجامعة كطالبات طب. وأضاف أن الآنسة صوفيا لم تقل إنه تصرف معها بوقاحة، وإن كانت قد ذكرت أنها قوبلت بعدم لياقة من البعض، لكنها لم تُشر إليه تحديدًا. وسألها إن كان قد بدر منه في تلك المناسبة ما يخالف الأدب؟ فقالت صوفيا: لا، لا. فتابع الدكتور «كريستيسون» قائلًا إنه إن كان قد تصرف بأي نوع من قلة اللياقة، فهو يعتذر بصدق، لكنه لم يكن واعيًا بأنه أظهر أيَّ تصرف غير لائق. وأكد أنه كان شديد الحذر، وتجنب عمدًا كل ما يمكن أن يُعد جفاءً، لكنه كان في الوقت ذاته مصممًا على ألا يُهدر وقت الآنسة صوفيا أو وقته.

وأضاف «كريستيسون» قائلًا إنها قد اشتكت من أنه لم يحاول توعية العامة أو الهيئات مثل مديري المستشفى بشأن مسألة «الصفوف الطبية المختلطة»، لكنه رأى أنه من حقه التمسك برأيه، وإذا اقتنع بشيءٍ، فمن حقه أن يترجمه إلى فعل. وهذا بالضبط ما فعله. كما نفى بغضبٍ أن يكون قد اتخذ أيَّ إجراءٍ سري لمعارضة هذه الحركة، وأكد أن كل ما فعله كان علنيًا وصريحًا. وقال أيضًا إنه تجنب عمدًا معرفة ما كان الطلاب يقومون به، وتدخّل بالاعتراض في بعض المناسبات حين بدأ يفهم ما الذي كان يُخطط له. أما بالنسبة للعريضة، فلم يكن يعلم عنها شيئًا سوى أنها موجودة، ولا يعرف، حتى الآن، مَن وقَّع عليها، لكنه يعرف طلابه جيدًا بما يكفي ليعتقد أن هناك توقيعًا واحدًا على الأقل لم يكن لطالب. وقال إنه قد أُشير إلى الشغب الذي حدث في «قاعة الجراحين»، ويجب تذكّر أن الطلاب كانوا شبابًا، وإذا أُثيرت مشاعرهم، فستظهر بينهم فئة صغيرة تتصرف بطريقة غير لائقة وغير مبررة.

وبعد أن تحدث مَن يريد الحديث، جرت عملية التصويت، مع تسجيل أسماء المصوّتين، وتبيّن أن: «١٠٠» صوتوا لصالح اقتراح الدكتور «دوجلاس»، و«٩٦» صوتوا لصالح اللورد «ويليام لو» وقد دعمت جميعُ السيدات الحاضرات اقتراح اللورد «ويليام لو»، وبهذا تكون هذه المرة الأولى في تاريخ المستشفى التي تحضر فيها النساء اجتماع هيئة المساهمين، وتلك هي المرأة الأولى في تاريخ المستشفى التي تصوت فيها النساء على اختيار مديري للمستشفى، وقد صوتت النساء اللواتي حضرن — بالإجماع — على اقتراح اللورد «ويليام لو» الذي كان الأشخاص الستة الذين اقترحهم يدعمون تعليم النساء. وتم تأجيل الجلسة الثانية من الاجتماع إلى يوم ١٦ يناير.

على الرغم ممّا بذلته صوفيا من جهد، وما أظهرته من عزيمة، إلا أنّها صُدمت بالخسارة بفارق أربعِ أصواتٍ فقط. فقد ظفر اقتراح الدكتور «دوجلاس»، الرافض لتعليم النساء، بقبول المجلس وانتصاره. ولم تُجْدِ مؤازرة جميع النساء لصوفيا وزميلاتها في تغيير النتيجة. نعم، أربعة أصواتٍ فحسب كانت كفيلة بأن تحرم الفتيات من فرصة الوصول والتدرّب في المستشفى الجامعي لعامٍ كامل، حتى يحين موعد انتخاب إدارة جديدة، لعلّها تكون أكثر إنصافًا ودعمًا لطموحات النساء في أروقة الطب والتعليم.

وقبل أن نشرع في سرد وقائع الاجتماع الثاني الذي سيُقام في السادس عشر من يناير، أود أن أتمهّل قليلًا عند هذا اليوم الجليل، وأن أقف معه وقفة قصيرة لأطرح عليكم سؤالًا: أما رأيتم كيف انطلقت صوفيا بالكلام، فملأ صوتُها أرجاء الكنيسة بالحجة الواضحة، والشجاعة الكبيرة؟ أما أبصرتم كيف وقفت، شامخة، وسط جموع الحاضرين، في تلك البقعة المهيبة من تاريخ إدنبرة، داخل أروقة أعرق كنائسها وأكبرها، كنيسة «سانت جايلز» التي لم تعرف من قبل صوتَ امرأةٍ يتحدث فيها علنًا منذ قرون؟!

إنها الكنيسة نفسها التي خُلد فيها اسم امرأة واحدة قبل صوفيا، هي «جيني جيديس» (Jenny Geddes)، تلك البائعة البسيطة التي كانت تبيع بضاعتها المتواضعة في سوق المدينة، وتذهب إلى الكنيسة يوم الأحد للصلاة. فإذا بها، في أحد تلك الأيام، تشهد القسيس يقرأ من كتاب الصلاة الإنجليزي، الذي فرضه الملك تشارلز الأول، في محاولة لفرض الطقوس الإنجليزية على العقيدة الأسكتلندية المشيخية.

وهنا، وقع الحدث الذي خلده التاريخ، وكانت بريطانيا قبله ليست هي بريطانيا بعده: فقد نهضت «جيني جيديس» من مجلسها، ثم أمسكت بالكرسي الذي كانت تجلس عليه، وألقته بكل ما أوتيت من قوة وغضب في وجه القسيس، وهي تهتف: «إن ما تقرأه ليست صلاتنا! كُفّ عن التجديف، ولا تتعدَّ على ديننا القويم!»

وقد كانت تلك اللحظة شرارة أشعلت لهيب حركة سياسية ودينية، وما لبث أن اشتعل إثر ذلك فتيل الحرب الأهلية الإنجليزية، التي دامت تسع سنين كاملة، وبدّلت وجه التاريخ البريطاني الحديث بأسره.

ومنذ أن صدحت «جيني جيديس» بصوتها في كنيسة «سانت جايلز» في القرن السابع عشر، وحتى مطلع القرن العشرين، لم تتجرأ أيَّةُ امرأة أن تُخاطب الجمعَ في ذلك المقام العالي، إلا صوفيا. نعم، صوفيا وحدها، هي التي عادت لتكسر هذا الصمت بعد ثلاثة قرون.



لوحة تذكارية داخل كنيسة سانت جايلز تخليدًا لذكرى صوفيا، تحتوي هذا النص التالي:
«مكرَّس لذكرى صوفيا لويزا جيكس-بليك، دكتوراه في الطب، التي بفضل طاقتها وشجاعتها، وتضحيتها وإصرارها، فُتِح عِلم الطب وفن الشفاء أمام النساء في اسكتلندا. ١٨٤٠ – ١٩١٢»

أقول: كانت صوفيا تمتلك من العقل ما يجعلها تحدد كيف تسير الأمور، فإن أرادت القضيةُ مالًا، فكان لا ينقصها المال، وإن أرادت القضية شهرةً ودعمًا من الرأي العام، لجأت إلى صفحات الجرائد تكتب وتنشر وتجادل. بل حتى إلى أبعد من ذلك، فلم تكن تكتب باسمها، بل باسم الصحيفة كي تزداد قضيتُها وفكرتُها قوة. إن الشخص الذي يريد أن يقاتل لأجل قضية لا بد أن يمتلك من العقل ومن الحكمة ومن القدرة على تحريك الواقع كما يحرك الواحد منا قطع

الشطرنج. نعم، كانت تدرك أن الرأي إذا صدر منها فلن يكون له نفس الأثر إذا صدر من الصحيفة نفسها، لذلك كانت على وعي بنفسية القارئ، وكيف تجعله مقتنعًا بالحجة بأفضل وسيلة.

لذلك: مَن أراد أن يكون قائدًا، ولا علم له بنفسية مَن يُخاطب، ولا دراية له بكيفية التأثير على الجماهير، فلن يكون قائدًا، بل يُقاد دون أن يشعر. ولا يظننّ ظان أن هذا من مكر السياسة أو ضربٍ من الميكافيلية،[١] بل الحق أن الناس، وإن تفاوتوا، إما قادة وإما أتباع، ومن رام أن يكون من الفريق الأول، وأن يُحدث أثرًا في مجتمعه، فليتعلم كيف يفكّر الناس، وكيف يُقنَعون، وكيف يُخاطَبون. ومن لم يُحط بالنفوس علمًا، ولم يُتقن مفاتيحها، ولم يُجِد الوقوفَ أمام الجمع والتأثير فيهم، فلن يكون سوى لعبة تتقاذفها أيدي من عرفوا تلك الأبواب، وهو غافل عنها، لا يدري من أين يُؤتى.

فكيف يُتصوّر أن ينهض إنسانٌ للدفاع عن قضيةٍ يؤمن بها، ويقف أمام الناس متحدثًا، داعيًا، مُقنعًا، وهو لا يُحسن الحديث، ولا يعرف كيف يصوغ أفكاره، ولا كيف يرتبها، ولا متى يثير عاطفة السامع، ومتى يُخاطب عقله؟ كيف يُقنع الناس، وهو لا يعلم أصلًا كيفية عمل عقولهم، ولا طبيعة استجابتهم للخطاب، ولا طرقهم النفسية للاقتناع أو المقاومة؟ كيف يختار أسلوب حديثه، وهو لا يُفرّق بين خطاب يُلقى في ساحة عامة، وآخر يُكتب في مقالة، وثالث يُوجّه إلى نخبة مثقفة أو جمهور بسيط؟

******

نعود إلى صوفيا التي تركناها في اجتماع الثاني من يناير بعد أن قالت تلك الخطبة العظيمة التي كانت مؤثرة أبلغ الأثر. نعود إليها بعد أن قلنا إن بعض القساوسة رفض أن تقام الجلسة داخل كاتدرائية «سانت جايلز»، لكن كان هناك قسٌّ آخر وهو البروفيسور «تشارترس» (Charteris) وقد كان أستاذًا للعقيدة واللاهوت في جامعة إدنبرة، قد حضر الاجتماع وشارك فيه حتى نهايته. وعندما رُفعت الأيدي للتصويت، وانتهى الأمر بهزيمة القائمة التي ضمّت مرشّحين مؤيدين لحقوق النساء، لم يتردد «تشارتِرس» في أن يتقدّم باقتراح صريح، يدعو فيه الإدارة الجديدة للمستشفى إلى السماح للطالبات بالتدرّب فيه، غير أنّ اقتراحه رُفض بدعوى أنّه خارج عن موضوع الجلسة. لكنّه لم يتراجع عن موقفه، ولم يثنه الرفض عن عزيمته، فما إن حلّ يوم السادس عشر من الشهر

١- بل الحقُّ أنّ في هذا مكرًا، لكنه من جنس المكر المشروع، بل هو من كمال العقل. فإن كان أهل الباطل يُدبّرون الحيلة لنصرة باطلهم، فواجبٌ علينا أن نُدبّر مثلها، بل ألف ضعفٍ منها، لنجعلها في خدمة الحق. وإن كانوا يُسخّرون السياسة لتمكين ظلمهم وطغيانهم، فحريٌّ بنا أن نسخّرها ألف مرة لنصرة حقنا، ورفع راية العدل والحق في وجه الباطل أينما كان. ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ذاته، حتى أعاد طرح اقتراحه على الملأ، مشددًا على ضرورة اتخاذ إجراء عاجل بقبول الطالبات في المستشفى الملكي، وقد لقي في ذلك تأييدًا من الطبيب البارز السير «جيمس كوكس» (James Coxe). وقد تم رفض هذا الطلب مرة ثانية.

غير أنّ ذلك الاجتماع، وإن خسر فيه أنصار القضية نصرًا رسميًّا، فقد شهد ما هو أنفع للقضية وأعمق أثرًا من أي فوز بالتصويت؛ إذ قُرئت فيه عريضة حملت تواقيع ٩٥٦ امرأة من مدينة إدنبرة، أعربن فيها عن «اهتمامنا الكبير بالمسألة المثارة، وأملنا الصادق بأن يُتاح للنساء كامل التسهيلات للتدريب في المستشفيات، من قبل إدارة المستشفى، لكل من ترغب في دخول المهنة الطبية.»

بيد أنّ أبرز ما في الجلسة، وأبلغه تأثيرًا في النفوس، كان ظهور السيدة «إليزابيث نيكول» (Elizabeth Nichol)، وهي امرأة طاعنة في السنّ تجاوزت السبعين، مشهورة بالرفق والكياسة، ومحبوبة من عامة أهل إدنبرة. تقدّمت هذه السيدة الوقورة، رغم تدهور صحتها، بكل سكينة لتطرح سؤالًا، فقالت بلهجة يملؤها الصدق: «ليس من أجل الطالبات أتحدث، بل نيابة عن النساء اللواتي ينتظرن أن يعرفن نوع الرجال الذين سيكونون أطباء الجيل المقبل، إن لم يُسمح للطبيبات بدخول المجال.» ثم أتبعت قولها بتساؤل بليغ: «إذا كان الطلاب الحاليون في المستشفى الملكي، لا يستطيعون التعايش بسلام مع وجود زميلات لهم من النساء، فكيف يُعقل أن يكون لديهم الروح العلمية أو النقاء الأخلاقي الذي يُبرر وجودهم في أجنحة النساء أثناء أكثر العمليات والفحوص حساسية؟»

وما إن أنهت سؤالها حتى دوّى التصفيق في أرجاء القاعة، وساد الصمتُ بعد ذلك كأنما خُتمت الأفواه، فلم ينبس أحدٌ ببنت شفة، ولا تجرأ أحد على الرد بكلمة.

إنّه مما يُثلج الصدر ويهزّ الوجدان أن ندرك أنّ مدينة إدنبرة لم تحتضن سبعًا من الطالبات البطلات فحسب، بل أنجبت أيضًا امرأةً مسنّة عظيمة الشأن، لا يقلّ موقفها نُبلًا عن جهاد أولئك الفتيات. تلك السيدة الجليلة جاءت إلى مجلس الاجتماع، لا تهاب جمعًا ولا يُثنيها وَهَنُ السنّ، فتكلمت بجرأة، وسألت سؤالًا هزّ أركان المكان، فجزاها الله عنّا خير الجزاء، وبارك في ذكراها.

كان في الجمع رهطٌ من طلابٍ ذكور، قد تسللوا إلى شرفات الكنيسة سعيًا وراء اللعب والعبث، تتقاذفهم الرغبة في التشغيب والتهكم. جلسوا هناك، يرمقون المشهد من علٍ، يفتّشون عن هفوة، ويتربصون بالكلمات، فما إن بدا لهم وجهُ طالبة حتى أخذوا يزمجرون، ويقذفونها بعبارات لا تليق، تكشف وضاعة نفوسهم وقصر عقولهم.

لكن صوفيا لم تهتزّ، بل التفتت إليهم ووصفتهم بأنهم «كحديقة حيوان» — لا رقي فيهم ولا أخلاق ولا مروءة، بل يُحرَّكون كما تُحرَّك الأشياء الجامدة، تُسيّرهم أهواء غيرهم. ولم يجرؤ

أولئك على تجاوز الحدّ إلا حين قامت صوفيا للكلام، فما إن نهضت لتتحدث أمام الجميع حتى انفجر صياحهم كنوبة غوغاء، ضجّ المكان بأصواتهم العالية، ثم تجرّأوا — في قبح ما بعده قبح — على أن يقذفوها في وجهها بحبّات البازلاء، في مشهدٍ يدلّ على إفلاس خُلُقيّ منقطع النظير.

قال البروفيسور «بلاكي» (Blackie) المعروف بخفة دمه وكلماته الساخرة: «الآن يمكنك القول إنك قد قاتلتِ الوحوش في أفسس.»

وهذا التعبير الساخر لا يمكن للقارئ العربي المسلم فهمه إلا بعد أن يعلم القصة التي خلفه، فقد كان البروفيسور «بلاكي» يُقارِن بين ما تعرّضت له صوفيا من صياح وسخرية وعدوان من الطلاب الذكور، وما واجهه «بولس الرسول» من هياج جماهيري عدائي في مدينة «أفسس» حين ذهب هناك ليبشّر بالمسيحية، فقد خرج عليه أهل مدينة «أفسس» الذين كانوا يعبدون الأوثان، وكاد أن يُقتل.

والحق أنها لم تكن تنوي التحدث مجددًا، لكن الأستاذ «مويرهيد» (Muirhead) أجبرها على ذلك، إذ ألقى خطابًا مطولًا زعم فيه أن إحدى الكليات في أمريكا، بسبب التعليم المختلط، قد انحدر مستواها إلى درجة دفعت النساء المحترمات إلى رفض التخرج فيها والعودة إلى منازلهن دون إكمال دراسة الطب، مُفضِّلات التخلي عن ثمار سنوات دراستهن بدلًا من نيل شهادتهن من تلك المؤسسة.

قالت صوفيا: اذكر اسم الكلية.

وردد آخرون من الحضور الهتاف: اذكر الاسم!

قال أحدهم: لقد تكلّم عن علم

ثم جاء صوتٌ من الحضور يسأل: أي علم؟

فأُجيب: بناءً على كلام الآنسة صوفيا نفسها، التي، عندما سُئلت عن سبب عدم بقائها في أمريكا لمواصلة دراستها، قالت إن أخلاق طالبات الطب هناك قد تدهورت إلى حدّ أنها لم تقدر على البقاء معهن.

طلبت صوفيا الكلام وقالت: «لم أُخبر الأستاذ «مويرهيد» أبدًا أنني تركت أمريكا لأني لم أرغب في الدراسة مع النساء الأخريات. لقد درست في مستشفى نسائي، وكل يوم كان يعمّق قناعتي بضرورة وجود طبيبة لكل امرأة مريضة. كانت مغادرتي لأسباب عائلية بحتة، لا علاقة لها بكُرهٍ للمستشفى أو لزميلاتي. عدت إلى أوروبا فقط لأكمل دراستي في مكان آخر.»

ولمّا توالت الدعوات، نهض البروفيسور «مويرهيد» وقال: إنني نقلتُ، وفقًا لذاكرتي لما جرى قبل عامين، ما ظننتُ أنه هو الحقيقة في نقاشي مع الآنسة صوفيا. فإن كنتُ قد فهمتُ

كلامَها خطأ، أو خانتني ذاكرتي، وصرّحتُ بما هو غير صحيح، فأنا أعتذر، إذ كان ذلك عن غير قصد.»

وإن كان الدكتور «بلاكي» قد تحدث مازحًا عن وحوش مدينة أفسس التي حاربتهم صوفيا، فإنه خلف تلك الكلمات الضاحكة كان يخفي قلبًا يعتصره الألم والحزن، فقد أرسلت زوجتُه إلى صوفيا رسالة تقول فيها:

عزيزتي الآنسة صوفيا، قد لا يعنيك هذا الآن، لكني أرسل لك خالص مشاعري، وكامل اشمئزازي من سلوك أعدائك؛ وأود أن أخبرك كم أُحزِن زوجي لما سمعه ورآه في اجتماع المستشفى الملكي الأسبوع الماضي. جلس وقت الشاي يضع يديه على عينيه ويقول مرارًا: «أشعر بالخجل من جنسي». لم أره قط بهذا الحزن من قبل. أنا على يقين أن سلوك هؤلاء الشباب غير الرجولي، وخيانة زعمائهم للحقيقة، سينقلب يومًا ما لصالحن. فإن فقد الرجال احترامنا وثقتنا، فعليهم أن يلوموا أنفسهم. رسائلك الرائعة لا بد أنها تُحدِث أثرًا طيبًا عظيمًا. اعذري تدخلي، وكوني على يقين من إخلاصي، صديقتك الوفيّة.

ولعل السيدة العجوز «إليزابيث نيكول» قد أرادت أن تواسي صوفيا من هول ما رأت من تصرفات تجاهها، فأرسلت إليها تلك المرأةُ الحنون رسالةً تقول فيها:

عزيزتي الآنسة صوفيا،

لا يسعني أن أُعبّر كما ينبغي عمّا يجيش في صدري من مشاعر التقدير لكِ ولرفيقاتك الكريمات هذا المساء. إنّ في نفسي رغبةً لا تُقاوَم لإخبارك بمدى امتنان كل ذي قلب حيّ وكل من يحمل همّ الجيل القادم، لما تقمنَ به من نضالٍ نبيل، معركة لا بدّ لها من الظفر، وإن طال الطريق.

أعتقد جازمةً أن ثمار هذا الجهد العظيم ستُقطف، ولو بعد حين، حتى وإن وُوريت رؤوسكنّ تحت الثرى. إنّ ما أنتنّ فيه من كفاحٍ ومضاء، يُذكّرني بما خاضته نساء أمريكا يومًا في وجه العبودية والرقّ؛ معركتهنّ كانت طويلة، ومعركتكنّ، وإن أرجو أن تكون أقصر مدى، لا تقلّ عنها شرفًا ولا عظمة.

ورغم أنّ قلبي معكنّ، فإنني أرى أنّ ما لقيتُنّه من معارضة، على شدته، قد أسهم إسهامًا جليلًا في تثقيف الرأي العام، ولعلّ تلك المعارضة كانت، على وجه من الوجوه، ذات نفع أكبر مما لو سارت الأمور في هدوءٍ وسلام. فحين يعتاد الناس الفكرة بعد الجدل، يكونون أكثر استعدادًا لتقبّلها عند التطبيق.

وفي الأثناء، لا تبخلي علينا بإعلامنا عمّا يمكننا، نحن الذين نقف خارج دائرتكنّ، أن نُقدّمه دعمًا وعونًا. وبلّغي عني أصدق مشاعري للآنسة «بيتشي»، وأخبريها بحبي.

وأحب أن أطمئنك أنني لم أشعر بأدنى تعب يُذكر، لا مِن مشاركتي اليوم، ولا مِن قدومي إلى الجلسة، رغم ما قد بدا عليّ من استعجال أو شيء من الإعياء، فاعذريني في ذلك.

وفي خضمّ تلك الأحداث، بعث إليها أخوها برسالة، قصد بها أمرين: أولًا، أن يُناصرها ويشدّ من أزرها في وجه تلك الأفعال الدنيئة التي ما كان ينبغي أن تصدر عن طلاب يُنتسبون إلى كلية الطب؛ وثانيًا، لأنها كانت على مشارف عيد ميلادها، فقد وُلدت صوفيا في الحادي والعشرين من يناير، وبهذا كانت تُتم عامها الحادي والثلاثين.

كانت هناك أكثر من مستشفى في مدينة إدنبرة، فقررت الفتيات المحاولة للتقدم والتدريب في أي واحد منهم، فتقدمن بطلب إلى «مستشفى الأطفال المرضى» (Hospital for Sick Children)، ومستشفى «تشالمرز» (Chalmers' Hospital)، وحتى إلى مستشفى «ليث» (Leith Hospital)، لقبولهن تحت أي شروط يراها المديرون مناسبة، لكن رُفض طلبهن في كل مكان وفي جميع المستشفيات.

لكن كما هو مشهود، فإن أي مشكلة تمر بها الفتيات، يشاء الله أن تتحول إلى نقطة فاصلة داعمة لهن في طريقهن، فإن نتيجة كل ما جرى، سواء من المنحة، أو من أحداث الشغب، أو مما حدث في «كاتدرائية سانت جايلز»، أو الآن في الاجتماع الثاني، أو حتى من المقالات الوضيعة التي كتبها الصحف، كل هذه الأشياء جعلت الرأي العام مؤيدًا، وبشكل كبير، إلى الفتيات وإلى حقهن في التعليم، فتم تشكيل لجنة تسمى بـ «لجنة تأمين التعليم الطبي للنساء في إدنبرة» (Committee for securing a Medical Education to Women in Edinburgh) و كان عدد أعضاء اللجنة المقيمين في إدنبرة ٣٧٥ عضوًا، وكانت تضم أيضًا ١٦٠ عضوًا مقيمًا في مناطق بعيدة، كان من ضمن هؤلاء الداعمين والمسجلين في هذه اللجنة «تشارلز داروين»، والسيدة «تشارلوت برونتي» صاحبة رواية «جين أير» التي تحدثنا عنها قبل ذلك.

تحكي صوفيا في سيرتها الذاتية عن هؤلاء الرجال الذين ساعدوها ووقفوا إلى جانبها في تلك الأوقات الصعبة وتقول:

لهذه اللجنة التي تأسست على هذا النحو، نحن مدينون بدَينٍ لا أعرف كيف أعبّر عنه بالكلمات على نحوٍ وافٍ. فمنذ ذلك الحين وحتى نهاية معركتنا في إدنبرة، ظلوا بجانبنا بإخلاصٍ واستعدادٍ رجولي للمساعدة، لم يعكّره قط تطفّلٌ أو تدخّل غير ضروري. وفي وقتٍ قصير للغاية، أزالوا عن كاهلنا عبء المخاطر المالية

والمسؤولية، وجعلوا، من خلال دعمهم الشخصي والعام بكل أشكاله، استمرارنا في النضال أمرًا ممكنًا؛ ذلك النضال الذي، لولا تلك المعونة، لكنا قد وجدنا أنفسنا في وضع ميؤوس منه من فرط ما كنا مُجابهين به من قوى تفوقنا عددًا.

لقد قدّم لنا الكثيرون من العون ما لا يُقدَّر بثمن، حتى إنه من الصعب أن نميز أحدهم عن غيره لنشكره على وجه الخصوص؛ ومع ذلك، لا يسعني إلا أن أسجّل هنا امتناننا الشديد لثلاثة رجال، كان اثنان منهم قد رحلوا بالفعل عن دنيانا، وهم: عمدة إدنبرة «ويليام لو»، الذي منحنا على الدوام دعمه وتأييده الرسمي والمساعدة؛ السيد «ألكسندر رَسل»، محرر صحيفة (The Scotsman)، الذي كانت مناصرته لنا لا تُقدّر بثمن في تلك الأيام، حينما كانت أكبر آمالنا وأعظم صعوباتنا أن نُظهِر الحقيقة كاملة، وبلا خوف، أمام أعين الجمهور؛ وكذلك صديقنا الذي لا يزال لا يُقدَّر بثمن، البروفيسور «ماسون»، الذي كانت دفاعاته عن الضعفاء والمضطهدين آنذاك — ولا تزال — جديرة بأشرف معاني الفروسية.

الفصل العاشر:
صوفيا تُحاكَم

عادت الطالباتُ إلى مقاعد الدرس، بعد أن أُغلِقت أبوابُ المستشفى الجامعي في وجوههنّ، بل وأُغلِقت كذلك أبوابُ سائر مستشفيات مدينة إدنبرة قاطبة. وقد حاولت صوفيا أن تطرق أبواب تلك المستشفيات علّها تجد إلى التدريب السريري سبيلًا، فما وجدت إلا الرفض المطلق من الجميع دون استثناء. ورغم ذلك الصدّ والجفاء، فقد واصلن المسير والدرس والاجتهاد، وأظهرن في هذا الفصل الدراسي من التفوق ما لا يقلّ شأنًا عمّا قدمنه في الفصل الذي سبقه. وظهرت أسماؤهنّ في قوائم الشرف والتميّز، كما اعتدن.

وكان من المتعارف عليه أن يُكرَّم المتفوّقون في نهاية كل فصل دراسي، لكنَّ المعترضين لم يدّخروا فرصةً دون أن يُفسدوا بها فرحًا أو يُطفئوا بها بصيص إنصاف. فقد أبى رئيسُ كلية الجرّاحين، ورئيس كلية الأطباء، أن يُشاركوا في حفل تكريم توجد فيه أي طالبة من الطالبات بين المكرَّمين. فاستُجيب لطلبهم، وأُلغي الحفل. وعوضًا عن تكريمٍ علنيّ يليق بالمقام، قُدّمت الجوائز للمتفوقين — ومن بينهم الطالبات — على استحياء، داخل قاعات المحاضرة والدروس، بعيدًا عن المنصة والضوء والاعتراف العام.

ولم يمض وقت طويل حتى جاءت رسالة يحملها البريد إلى بيت صوفيا من المحكمة، تخبرها بأنها متهمة في قضية تشهير، وكان الشخص الذي اتهم صوفيا بالتشهير هو السيد «إدوارد كريج» (Edward Cunningham Craig) وكان طالبًا في كلية الطب بالجامعة، ومساعدًا للدكتور «كريستيسون»، وأراد تعويض مقداره ١٠٠٠ جنيه إسترليني لما لحقت سمعته من ضرر. وكانت صوفيا حين ألقت حديثها في كاتدرائية «سانت جايلز»، ذكرت فيه أن بعض الناس أخبروها بأن أحد مساعدي الدكتور «كريستيسون» هو مَن قاد ذلك الشغب المشين، وأنه ارتكب أفعاله تلك وهو تحت تأثير السُّكْر. فهبَّ الدكتور «كريستيسون» معترضًا، وطالبها بسحب هذا التصريح. لكن صوفيا، أجابته بسخرية قائلة: «أنا على استعداد لسحب قولي إنه كان مخمورًا، إن كان يُسرك أن أقول إنه ارتكب تلك الأفعال الدنيئة وهو في كامل وعيه!»

في غضون يوم أو يومين، انتشرت الأخبار في جميع أنحاء البلاد. لقد كان من غير المتوقع من الطبيعة البشرية ألا يشعر بعض الطالبات بالاستياء من أن الوضع قد تعقّد بسبب اندفاع

قائدتهن. ولكن بشكل عام كنّ وفيات ووقفن معها بكل ما أوتين من قوة، لا سيما، «إيزابيل ثورن»، و«هيلين إيفانز»، و«إديث بيتشي».

لكن، كما هو معتاد، التف الأصدقاء الأوفياء حولها، وإذا كان قد أصبح من المخيف انتظار زيارة ساعي البريد، فقد كان يجلب أيضًا الكثير من البهجة. وتلك رسالة من زوجة أحد كبار رجال الدين:

> عزيزتي السيدة «إيفانز»، لقد «توّج» المعارضون «البناء» بإقامة دعوى تعويض ضد الآنسة «جكس-بليك»، — يا له من عمل دنيء وغير رجولي بكل معنى الكلمة. لم أكن أعلم من قبل أن القول بأن رجلاً كان مخمورًا يمكن أن يُعتبر موضع مُساءلة قانونية؛ وإذا كان الأمر كذلك فعلينا أن نكون في غاية الحذر في حديثنا حتى مع أقرب الناس إلينا وأعزهم. أعتقد أنه ينبغي إطلاق حملة لجمع التبرعات على الفور لتسديد نفقات الآنسة «جكس-بليك»، وسأكون سعيدة بالمساهمة بجزئي الصغير.

كما أرسل إليها أخوها رسالةً يقول فيها:

> سأسعد بتحمل نصف نفقات قضيتك بتهمة التشهير التي رفعها مساعد الدكتور «كريستيسون». أرى أنه من الضروري أن تحصلي على أفضل تمثيل قانوني ممكن، وتفوزي. كوني حذرة، ولا تدعيهم يجرّونك إلى تصرفات متهورة، قد تُغتفر أخلاقيًا، لكنها تضر بالقضية فعليًا. لا أريد أن أُلقي عليك محاضرة أو أتصرف كأنني مرشد. إنني فقط أريدك أن تفوزي في كل الجبهات.

كما جاءتها رسالة فيها موقف جميل من أربعة أشخاص كتبوا في عنوان الرسالة ما يلي:

> إلى «الآنسة جكس-بليك» (Miss Jex-Blake, Ph.D.). سيدتي، نحن الموقعون أدناه نرغب في التعبير عن خالص تعاطفنا مع قضيتكم وآمالنا الصادقة في نجاحكم...

يبدو موقفًا جميلًا أن يكتب أحدهم كلمة (Ph.D.) بجوار اسم صوفيا على سبيل الثناء والدعم، وإن كانت الترجمة الحرفية لــ (Ph.D.) هي «دكتوراه في الفلسفة»، إلا أنني أظنهم لو استطاعوا أن يكتبوا «دكتوراه في الطب» لما تأخروا عن ذلك.

كان الرأي العام ضد صوفيا. وكانت تنتشر شتى أنواع القصص، كثير منها كذب محض ليس فيه مثقال ذرة من صدق، وبعضها يحتوي على ذرة واحدة فقط من الصدق، ثم يُبنى عليه بعد ذلك جبال من كذب وتشويه. لكن من ناحية أخرى، كانت تزيد شهرة صوفيا بشكل ملحوظ،

والبعض بدأ في تقديرها واحترامها بشكل أوسع لما يحدث لها من مشكلات لأجل ما كانت تريد إلا أن تدرس الطب كما يدرسه باقي البشر.

تم تحديد جلسة المحكمة في نهاية شهر مايو، لكن قبل ميعاد الجلسة بشهر، وفي أبريل، طلب منها نساء بارزات من اللواتي يدعون إلى حق المرأة في التصويت أن تلقي كلمة في اجتماع في لندن لدعم حقوق التصويت، وبعد أن استشارت البروفيسور «ماسون» وأصدقاء آخرين في إدنبرة بشأن التأثير المحتمل لذلك على «قضيتها» الخاصة، وافقت وذهبت إلى لندن. فكتبت والدتها لها تقول: «عزيزتي، الكلام في اجتماع عام لن يكون راحة على الإطلاق. إنك بحاجة فعلية إلى الراحة لكي تواصلي العمل الحقيقي والمجهد الذي ينتظرك. عسى أن تُرشدي للصواب.»

لكن المحاضرة أُلقيت، وكانت ناجحة للغاية. إن «صوتها المؤثر» والشرح الواضح للحجج المستمدة من تجاربها الشاقة جعلت محاضرتها مميزة. ويمكننا أن نعتبر أن هذه المحاضرة كانت أول مشاركة علنية لها في قضية أصبحت، طيلة حياتها، من أكثر مناصريها ومنظريها. ولو لم يكن من هذه المحاضرة إلا أنها تعرّفت إلى السيد «جيمس ستانسفيلد» (James Stansfeld)، الذي تبيّن أن دوره ودعمه ومكانته كانت من أهم الفوائد لتلك الحركة النسائية. وسنلاحظ حضوره الهام في الفصول التالية من هذا الكتاب.

وكما قد يتوقّع كل عاقل، فقد كانت النتيجة المنطقية أن تُدان صوفيا بتهمة التشهير؛ فهي وإن لم تنسب القول إلى نفسها صراحةً، إلا أنها ردّدت ما يتداوله الناس عن الرجل، قائلةً: «أُخبرت أنه كان مخمورًا». وسواءٌ أقالت: «هو كان مخمورًا»، أو قالت: «قيل لي إنه كان كذلك»، ففي كلا الحالتين قد روّجت قولًا يمسّ سمعته، ويُسيء إليه. وعليه، فإن الأمر لا يخرج عن احتمالين: إما أن تُدان بتهمة التشهير، وتُجبر على دفع تعويض لقاء ما لحق بالرجل من أذى معنوي؛ وإما أن تُثبت أن ما قالته لم يكن افتراءً، بل هو الحق بعينه، فإن استطاعت أن تُثبت أن الرجل كان فعلًا في حالة سُكر، وأنه كان من المشاركين في أحداث الشغب، فحينها لا يكون ما قالته تشهيرًا، بل شهادة صدق.

وقد أشار بعض المحامين عليها بعدم محاولة إثبات صحة قولها؛ لأنها نفسها قد أقرت بأنها لا تعرف هذا الرجل معرفة شخصية، فإن لم تكن تعرفه، ولم تره بعينها في حالة سُكر، فلا يصح أن تدّعي عليه أمرًا لم تشهده بنفسها، ولا سبيل لها لإثباته على وجه مباشر.

لكن ههنا يبرز الفرق الجوهري بين أن «تُثبِت هي» الأمر، وبين أن «يُثبَت» عن طريق الغير. فإذا كانت شهادتها غير مقبولة لعدم معرفتها الشخصية بالمدّعي، فبوسعها أن تستجلب شهودًا آخرين ممن لهم معرفة به، أو ممن شهدوا عليه في حال تُظهر السكر.

غير أن إثبات السُكر أمر عسير؛ إذ لا يكفي أن يُقال: بدا عليه السكر، أو ظهر عليه تصرف غريب، بل لا بد من شاهد عيان رآه يشرب الخمر، ورآه يبلغ حدّ السُكر، وأن يكون ذلك في توقيت قريب من أحداث الشغب. فإن توافرت هذه الشروط، كانت حجة صوفيا مقبولة، وكانت في موقف قويّ. لكن الواقع أن من شهدوا السيد «كريج» رأوه من بعيد، وسمعوا فظاظة ألفاظه، ولاحظوا اضطراب سلوكه، مما يدل على أنه لم يكن في حال طبيعية. وقد بدا لهم — وهم أهل عقل — أنه كان في حال سكر، ولكن «أن يبدو» ليس كـ «أن يُثبت»، ومجرد الانطباع لا يقوم مقام اليقين أمام ميزان العدالة والقضاء. وهكذا ضاقت السبل، ولم يبقَ أمام صوفيا سوى ثلاثة حلول لا رابع لها:

١. أن تُثبت «باليقين» أن السيد «كريج» كان في حال سُكرٍ وقت وقوع الشغب، وهذا، كما لا يخفى، أمر في غاية الصعوبة، بل يكاد يكون متعذرًا، لما يتطلبه من شهود مباشرِين، ودقة في التوقيت، وجزمٍ في الرؤية.
٢. أن تتراجع عن كلامها وتُعلن اعتذارها، وتسحب ما قالت، وتشهد بذلك أمام المحكمة.
٣. أن تُقِر بأنها هي من قالت ذلك، ولكنها لم تقصِد به التشهير ولا الإضرار، وإنما ورد في سياق حديث لا يراد منه النيل من سُمعة أحد، بل جاء عرضًا، كما يُقال في مقام الحجاج لا القذف.

ولا أظن القارئ الكريم، وقد تابع خيوط هذه القصة، يظن للحظة أن الخيار الأول كان ميسورًا، أو أن إثبات السُكر على وجه اليقين كان أمرًا ممكنًا. كما لا أظنه، وقد عرف صوفيا ووقوفها الشامخ في وجه الظلم، يُرجّح أنها قد تتراجع عن قول تراه صوابًا، أو تعتذر عن كلمة مؤمنة بأنها حقٌّ. فأن تتراجع وهي في خضمّ المعركة، تُقاتل لأجل ما تؤمن به، فذلك ما لا يليق بصاحبة عزيمة مثلها. فلم يبقَ إلا أن تُسلّم المحكمة بأن هذا القول قد قيل، وأنه، بغضّ النظر عن صحة مضمونه، وبغض النظر عن كونه في حالة سكر أم لا، وبغض النظر عن مشاركته في الشغب من عدمها، إلا أن هذا الكلام لم يكن يُراد به تشويه السُمعة، ولا الطعن في الكرامة، بل جاء في سياقٍ لا يُجرّمه القانون، ولا يستوجب العقوبة.

كان الميعاد المحدد لجلسة المحكمة في ٣١ من مايو ١٨٧١، وكان دعم الأصدقاء لها من أفضل ما يكون، فقد قال لها البروفيسور «جون ويلسون» (John Wilson) إنها إن خسرت في هذه القضية فسيكون هو أكثر حزنًا منها. كما أرسلت إليها والدتُها في صبيحة هذا اليوم رسالة تقول فيها: «يكن معكِ حفظ الله وبركاته، يا طفلتي العزيزة الغالية. لن أزعجكِ وأثقل عليكِ بالمزيد من الكتابة سوى أن أؤكد لكِ أنني معكِ بالروح. وأنني بخير، وأتصور كم أنت هادئة ومتماسكة.»

أما ما حدث في قاعة المحكمة فقد حصلت على الأوراق الصادرة من المحكمة نفسها، وقرأت أوراق القضية كلمة كلمة، لكنني لم أجد في صياغتها القانونية المقتضبة ما يصح أن يوضع في هذا الكتاب، فلم أنقل ما فيها، وإنما عوضًا عن ذلك سأنقل ما نشرته جريدة (The Scotsman) بعد تلك الواقعة بيوم، ولربما — بعد معرفتنا بأن صوفيا كانت تعمل صحفية سرية في الجريدة أن تكون هي من نقلت تلك الأحداث — وكان صياغة المقال في الجريدة أفضل بكثير من الأوراق القانونية الصادرة من المحكمة.

ولكي ألخص ما حدث بحيث يكون القارئ واعيًا بما كان يدور في قاعة المحكمة تلك، فإننا، كما ذكرنا، قد نُصحت صوفيا بأنها لن تثبت صحة ما قالت؛ إذ من العسير جدًا إثبات إنه كان مخمورًا بيقين. وعليه، فإن محامي السيد «كريج» سيحاول أن يوقف أيَّ حديث أو سؤال من شأنه أن يدين «كريج» أو يثبت مشاركته في الشغب، لأنه لو اعترف بنفسه أنه كان مخمورًا أو مشاركًا في الشغب، فقد ثبت أن ادعاء صوفيا كان صحيحًا. وإنما كان حديث المحكمة وقضاؤها فقط فيما يخصص قضية التشهير، هل ما قالته في هذا السياق، يعد تشهيرًا أم لا.

وكلت صوفيا السيد «ويليام لو»، عمدة مدينة إدنبرة، محاميًا عنها، وكان محامي السيد كريج هو السيد «شاند» (Mr Shand)، وكان القاضي هو اللورد «مور» (Mure). وكما هو معلوم فإن نظام القضاء في بريطانيا يعتمد على هيئة المحلفين، إذ يؤتى بأشخاص من العامة، ويسمعون القضية بكل ملابساتها، ومن ثمَّ يحكمون إذا كان الشخص مدانًا أم لا، ولا بد أن يكون حكمهم بالأغلبية.

كانت قاعة المحكمة يومئذ مكتظّة بالرجال والنساء. وقد احتشد الناس من كل صوب، لا ليشهدوا مُحاكمةً عابرة، بل ليُعاينوا بأعينهم أولئك الفتيات اللواتي أشعلن أعمدة الصحف، وملأن أعين الرأي العام حديثًا وجدلًا. جاء الجمع وقد تملّكهم الفضول، وجاء الصحفيون يحملون أقلامهم وأوراقهم، يتربصون باللحظة، ليسجّلوا ما عساه أن يكون من مشهد نادر. لقد جاءوا ليروا: كيف ستقف الفتيات؟ كيف سيصمدن؟ وما هيئة حضورهنّ؟ أستكون فيهنّ وداعة أم بأس؟ أفيهنّ خجل أم ثبات؟ لقد كان الحضور لا يريد أن يسمع الحُكم وحده، بل أراد أن يقرأ في وجوههنّ، في نبرات أصواتهنّ، في وقفتهن وجلستهن، شيئًا عن طبيعة الجيل الجديد من النساء، وعن أولئك اللواتي كسرن بابًا طال انغلاقه. وهذا ما كُتب في الصحيفة بتصرف كثير مني:

استُدعيت الآنسة «صوفيا جكس بليك»، وخضعت للاستجواب من قبل محاميها السيد «ويليام لو»:

س: كيف دخلتن؟

ج: فُتح لنا الباب بعنف من قبل رجل كان يركض من جهة قاعة الجراحين، علمتُ لاحقًا أنه السيد «ساندرسون» الذي كان طالبًا في الجامعة. دخلت الطالبات، وأعتقد أن عددنا كان خمسًا.

س: كيف تصرف الطلاب عند دخولكن؟

ج: أظن أنهم فوجئوا بفتح الباب، وبدؤوا في الاعتداء على «ساندرسون». تلقّى ضربات شديدة، وسمعتُ لغةً نابية، وتعرَّض للدفع العنيف.

س: ماذا فعلتن بعد دخولكن؟

ج: ذهبنا مباشرة إلى قاعة الدكتور «هانديسايد» أستاذ التشريح، لأن اليوم كان يوم امتحان. أظن أن هناك كان نحو اثني عشر إلى خمسة عشر طالبًا عندما دخلنا.

س: هل دخل معكن أحد؟

ج: بعدنا بدقيقة، اندفع جمعٌ من الرجال إلى الداخل، عبر الممر، ثم صعدوا إلى المقاعد الخلفية. بخلاف هذا الاندفاع، لم أرَ شيئًا غير لائق. سُمع صياح في الممر، لا أعلم إن كان من الداخلين أو من خارج القاعة.

س: كم عدد الداخلين؟

ج: ربما نحو اثني عشر.

س: هل لاحظتِ شيئًا أثناء الامتحان؟

ج: بدأ الامتحان، وبعد دقيقة، أمر الدكتور «هانديسايد» بعضهم بالمغادرة لأنهم ليسوا طلابه. بعد ثلاث أو أربع دقائق عاد الصياح من الممر، واستمر دقيقتين أو ثلاث. ثم خرج الدكتور «هانديسايد» فجأة. خفّ الضجيج بعض الشيء، ثم عاد. أحد الطلاب فتح الباب وقال: «يا سادة، المظاهرة اليوم في الخارج». ثم عاد الدكتور «هانديسايد»، واستؤنف الامتحان. لكن الضجيج استمر، ثم فُتح باب القاعة بعنف ودخلت نعجة كانت ترعى بالخارج. جاء البواب ليُخرجها، فقال الدكتور «هانديسايد»: «دعوها، فهي أعقل من الموجودين في الخارج!» (ضحك).

س: هل استمر الامتحان؟

ج: نعم، إلى أن انتهى الجميع من أداء الامتحان.

س: وماذا عن الضجيج؟

ج: لم يتوقف. وإن خفّ، إلا أنه أظهر أن الحشد لا يزال موجودًا.

س: هل خرجتن من الباب الخلفي؟

ج: سألني الدكتور «هانديسايد» إن كنت أود ذلك، فأجبت أن هناك عددًا كافيًا من الرجال لمرافقتنا. وبالفعل، جاء بعض السادة من الطابق العلوي وشكّلوا دائرة حولنا. قابلنا السيد «هوجان»، وسار أمامنا مع رجلين، والبقية بجانبنا وخلفنا حتى المنزل.

س: هل كنتن بحاجة لتلك الحماية؟

ج: بالتأكيد. عند خروجنا من القاعة، سُمع صفير، ثم ضجيج، وكان الحشد أكبر من ذي قبل. لولا وجود الرجال، لتعرضنا للأذى. تم الاعتداء علينا، ضُربت إحدانا على ظهرها، ودُفعت أُخرى. عندما عدت إلى المنزل وجدت ملابسي مغطاة بالطين حتى كتفي، وكذلك الأخريات، ما يدل على أنه رُمي علينا عمدًا.

س: حتى تاريخ الدعوى، هل كنتِ تعرفين السيد «كريج»؟

ج: لا، لم أكن قد سمعت باسمه.

س: في الثاني من يناير، بعد الإشارة إلى الشغب، قلتِ: «أعلم أن الشغب لم يكن كليًا أو في معظمه من قاعة الجراحين»، هل قلتِ هذا؟

ج: نعم، أعلم هذا جزئيًا من ملاحظتي، فقد رأيت كثيرين لم أرهم من قبل في قاعة الجراحين، وجزئيًا لأنني أُبلغت بوجود عدد كبير من طلاب الجامعة في الحشد. قلت ما قلت لأنني اعتقدت أنه صحيح، ولا زلت مقتنعة بذلك.

س: قلتِ أيضًا: «أعلم أن مساعد الدكتور «كريستيسون» كان من قادة الشغب، وأن اللغة البذيئة التي استُخدمت لا يمكن تفسيرها إلا بحالة السُكر التي سمعتها من آخرين»، هل قلتِ هذا؟

ج: أعتقد أنني قلت: «قائد»، أو «أحد القادة»، وقلت: «هذا ما قيل»، بدلًا من «كان مخمورًا».

س: كيف توصّلتِ إلى هذا القول؟

ج: كان قد أُشير إلى العريضة المقدمة والمُوقَّع عليها من الطلاب، ورأيت أنه من المناسب أن أُظهر سلوك أولئك الذين يتمتعون بمكانة معينة بين الطلاب.

س: هل أخبرك أحد بأن السيد «كريج» استخدم لغة بذيئة؟

ج: الدكتور «هانديسايد» قال ذلك.

س: هل أخبركِ بأن السيد «كريج» كان مخمورًا؟

ج: قال إنه تصرّف تصرفًا لا يُفسّر إلا بأنه كان مخمورًا، أو على الأقل أكثر مما ينبغي له أن يشرب. لا أذكر الكلمة بالضبط، لكن هذا كان المعنى الذي وصلني.

س: هل تلقيتِ رسالة بريدية عن هذا الموضوع؟

ج: نعم، رسالة بريدية مجهولة، ذُكر فيها أن السيد «كريج» كان قائد الشغب، وأن هذا متوقع منه باعتباره مساعد الدكتور «كريستيسون».

س: هل أشرتِ إلى هذه الرسالة في خطابك؟

ج: لا، لم أشر إليها، لكن الرسالة كانت أول ما عرّفني بشخصية السيد «كريج» ووظيفته.

س: هل استندتِ إلى الرسالة في تصريحك بشأن منصب السيد «كريج»؟

ج: تلقيت المعلومة منها، ثم تحقّقت من صحتها من خلال أشخاص آخرين.

س: هل تحدثتِ إلى الدكتور «هانديسايد» عن ذلك؟

ج: نعم، وأكّد لي أنه رأى السيد «كريج» هناك وتحدّث معه، وعندما عاد إلى القاعة سمعه يسخر منه، مما دفعه إلى الاعتقاد بأنه لم يكن في وعيه الكامل.

س: هل تظنين أن الدكتور «هانديسايد» قال إن السيد «كريج» كان مخمورًا؟

ج: أعتقد أنه قال شيئًا من هذا القبيل، أو أنني فهمت ذلك بوضوح من كلامه، حتى لو لم يستخدم الكلمة نفسها.

س: هل استندتِ إلى هذه الروايات فيما قلته في اجتماع المساهمين؟

ج: نعم، تحدثت بما قيل لي من الدكتور «هانديسايد» وآخرين.

س: هل كنتِ تعتقدين أنكِ تقولين الحقيقة؟

ج: نعم، كنت مقتنعة تمامًا بذلك.

س: هل كنتِ تتعمدين الإساءة؟

ج: لا، إطلاقًا.

س: هل لديكِ أي عداوة شخصية تجاه السيد «كريج»؟

ج: أبدًا، لا معرفة لي به أصلًا.

س: هل برأيكِ ما قلته له علاقة بموضوع الاجتماع؟

ج: نعم، بالتأكيد. كنت أناقش العريضة المقدمة والمُوقَّع عليها من الطلاب الذكور، وكان من الضروري توضيح من هم بعض هؤلاء الموقعين وسلوكهم.

س: هل سُئلتِ عن سبب انضمامك كمساهمة في المستشفى الملكي؟

ج: نعم. قلت إنني دفعت الرسوم عمدًا لأمتلك حق الحضور في الاجتماع، كي أتمكن من إيصال صوتي والدفاع عن قضيتنا أمام المساهمين. لم تُتح لي من قبل فرصة الحديث أمام جمع عام بشأن هذه المسألة. لهذا السبب أصبحت مساهمة.

سأل السيد «شاند» محامي السيد «كريج»: إذن، لا تدّعين أن دافعك كان خيريًا؟ (ضحك في القاعة)

«الآنسة جكس بليك»: لا، لم يكن الهدف خيريًا، بل لدعم قضيتي التعليمية.

س: هل تعلمين إن كان طلاب الطب عادةً ما يشتركون كمساهمين في المستشفى؟

ج: لم أسمع قط عن أحدٍ فعل ذلك.

س: هل كانت معك ورقة للخطاب الذي ألقيتِه في الاجتماع؟

ج: نعم، كتبت رؤوس أقلام كنت أنوي الحديث عنها، وقرأت جزءًا من النص، وتحدثت ببعض الأجزاء ارتجالًا، وتركت بعض المقاطع الأُخرى.

س: هل كتبتِ فيه شيئًا عن السيد «كريج»؟

ج: نعم، ذكرت اسمه ضمن الموضوعات.

س: هل ذكرتِ أنه استخدم لغة بذيئة؟

ج: نعم.

س: وهل ذكرتِ أنه كان مخمورًا؟

ج: قلت إنني سمعت أنه كان مخمورًا، وذكرت ذلك في سياق ما نُقل إليّ من روايات.

س: هل قلتِ في اجتماع المساهمين إن مساعد الدكتور «كريستيسون» استخدم لغة بذيئة؟

ج: نعم، قال لي الدكتور «هانديسايد» ذلك، كما فهمت من حديثه.

س: هل قالها بوضوح؟

ج: نعم، أعتقد أنه قالها، أو على الأقل أوصل المعنى بوضوح تام.

س: هل قال لكِ إن السيد «كريج» كان مخمورًا؟

ج: لا أذكر الكلمة بدقة، لكن ما استنتجته من كلامه أنه كان يظن أن «كريج» لم يكن في حالته الطبيعية.

س: هل استندتِ في هذا القول إلى الرسالة البريدية؟

ج: الرسالة كانت أول ما أخبرني بأنه مساعد الدكتور «كريستيسون»، لكنها لم تكن مصدرًا وحيدًا. أكّدت المعلومة لاحقًا.

س: هل نقلتِ مضمون الرسالة إلى الاجتماع؟

ج: لم أقتبس منها، لكنها شكّلت خلفية معرفتي. ما قيل فيها تكرر على لسان آخرين.

س: هل الرسالة تلمّح إلى مسؤولية الدكتور «كريستيسون» عن الشغب؟

ج: أعتقد أنها أعطت انطباعًا بأن الدكتور «كريستيسون» كان مؤيدًا ضمنيًا لما حصل، لكنني لم أذكر ذلك بشكل مباشر.

س: هل كنتِ مقتنعة بأن إشارتك إلى السيد «كريج» مرتبطة بالقضية العامة التي نوقشت؟

ج: نعم، لأن الأمر ارتبط بسلوك أحد مساعدي الأساتذة في حادثة لها علاقة مباشرة بالعريضة التي طُرحت أمام المساهمين.

س: هل كان ما ورد في الرسالة البريدية مطابقًا تقريبًا لما ذكرتِه في الاجتماع؟

ج: نعم، تقريبًا. أعطتني الرسالة نفس الانطباع الذي عبّرت عنه في خطابي.

س: هل كنتِ ستذكرين السيد «كريج» في خطابك لولا تلك الرسالة؟

ج: لا أستطيع الجزم، لكن الرسالة هي ما عرّفتني باسمه وارتباطه بالدكتور «كريستيسون»، ما جعله في نظري شخصًا ينبغي الإشارة إليه عند الحديث عن العريضة وسلوك بعض الطلاب.

س: هل تذكرين العبارة التي استخدمتها عن الدكتور «كريستيسون»؟

ج: قلت إنني لا أعتقد أن الدكتور «كريستيسون» كان سيوافق على وجود مساعده هناك، وإن كان يعلم بذلك، فأظن أنه كان سيُظهر رفضًا شديدًا.

س: هل كانت هذه استنتاجًا أم معلومة وردت في الرسالة؟

ج: هذا كان استنتاجي. الرسالة لم تقل هذا صراحةً، لكن الانطباع كان حاضرًا فيها، وأنا عبّرت عنه بصيغتي الخاصة.

س: هل كانت الرسالة تحتوي على تلميح ضد الدكتور «كريستيسون»؟

ج: ليس تلميحًا مباشرًا، لكنها أوحت بأن وجود «كريج» هناك قد يعكس موقفًا غير معلن من أستاذه.

س: هل قلتي في الاجتماع إن السبب الوحيد الذي قُدّم لتفسير سلوك السيد «كريج» هو أنه كان مخمورًا؟

ج: قلت إن ذلك هو ما نُقل إليّ، وأشرت إلى أنني لا أجزم بشيء لم أره، لكن ما قيل لي، وخصوصًا من الدكتور «هانديسايد»، جعلني أعتقد أن ذلك محتمل.

س: هل كنتِ تتحدثين كشاهدة عيان؟

ج: لا، كنت أنقل ما سمعته من شهود عيان، خاصة من أستاذ مسؤول مثل الدكتور «هانديسايد».

ثم أضافت الشاهدة توضيحًا:

«سُئلت إن كنتُ قد اشتركت في صندوق المستشفى عن علم بوجود اجتماع للمساهمين. أرى أنه من المناسب أن أوضح أنني دفعت الاشتراك عن قصد لأتمكن من طرح قضيتنا أمام الناس. كان من المعتاد أن تُتخذ قرارات ضدنا خلف الأبواب المغلقة، دون أن يُتاح لنا حق الرد، ولهذا قررت أن أصبح مُساهمةً ومتبرعة.»

س: هل، حسب علمكِ، يُعد هذا الاشتراك تصرفًا مألوفًا من طلاب الطب؟

ج: لا، لم أسمع بأي طالب فعل ذلك من قبل.

س: هل أجريتِ محادثات مع السيد «هوجان» بخصوص وجود السيد «كريج» في الشغب؟

ج: نعم، تحدثت معه مرات عدة. لم أذكر ذلك في الاجتماع، لكنني سعيت للحصول على أكبر قدر من التأكيدات حول ما بلغني.

س: هل أخبرتِ السيد «هوجان» بما قاله لكِ الدكتور «هانديسايد»؟

(اعترض «السيد شاند»، لكن سُمح بالسؤال وسُجّل الاعتراض.)

ج: نعم، أتذكر أنني أخبرته بما قاله لي الدكتور «هانديسايد»، وسألته إن كانت تلك المعلومات تتفق مع معرفته؛ أي أن السيد «كريج» كان مساعدًا للدكتور «كريستيسون». فأجابني أنه يعرف أن «كريج» هو مساعد «كريستيسون».

س: هل قال لكِ إن الدكتور «هانديسايد» أخبره بما أخبرك به عن «كريج»؟

(اعترض السيد «شاند»، وسُجّل الاعتراض.)

ثم استُدعيَت السيدة «إيزابيل ثورن»، واستُجوبت من قِبل السيد «واتسون»:

قالت: أنا طالبة مسجّلة في جامعة إدنبرة في الفصل الدراسي الماضي. حضرت محاضرات الدكتور «هانديسايد» في الكلية الملكية للجراحين. حضرت الدرس يوم ١٨ نوفمبر. كنت برفقة أربع طالبات أخريات، ومعنا السيدة «هنري كينجسلي». لم نستطع دخول الكلية بسهولة لأن الأبواب كانت مغلقة. تمكنّا من الدخول عندما فتح لنا أحد الطلاب الباب بالقوة. بعد دخولنا، كان هناك صخب شديد، وخرج الدكتور «هانديسايد» إلى الحشد.

في يوم السبت التالي، كنت في الكلية مع الآنسة «جيكس بليك». قال لنا الدكتور «هانديسايد» إنه خرج يوم الجمعة ورأى بعض الرجال، ومن بينهم السيد «كري»، الذي تعرّف عليه كطالب سابق في صفّه. قال إنه سمع لغة نابية جدًا لحظة دخولنا القاعة، وأن «كريج» بدا غير طبيعي ومضطربًا، وكأنه تناول أكثر مما ينبغي من الشراب. وفي مناسبة لاحقة، كرر لي نفس الكلام.

ثم استُدعيَت السيدة «هنري كينجسلي»، واستُجوبت من قبل «السيد واتسون» (Mr Watson):

قالت: كنت مقيمة في إدنبرة خلال شتاء العام الماضي. رافقت مجموعة من الطالبات إلى كلية الجراحين يوم ١٨ نوفمبر. عند زاوية شارع «نيكلسون»، رأينا

عددًا من الرجال يصرخون ويصيحون. وعندما وصلنا إلى البوابة، وجدناها مغلقة في وجوهنا، وكان بعض الرجال يقفون خلفها لمنعنا من الدخول. سمعت شتائم نابية جدًا موجهة لنا. كانت من أسوأ ما يمكن أن يُقال لنساء. غادرت بعد دخول الطالبات.

عدتُ إلى الكلية في الساعة الخامسة مساءً لأطمئن على صديقاتي، فوجدت الحشد لا يزال متجمعًا. حاولت الدخول، لكنهم تعرفوا عليّ، وبدأوا بالصراخ والسباب. ومع ذلك، تمكنت من الدخول. وعندما خرجت الطالبات، اشتد الصراخ. رافقنا بعضُ السادة وساعدونا على المرور، وأوصلونا إلى منزل الآنسة «جيكس بليك». عندما وصلت، كانت ملابسي مغطاة بالطين من الرأس إلى القدمين.

استُجوبت استجوابًا مضادًا من قبل السيد «شاند»:

قالت إنها حضرت اجتماع المساهمين في ٢ يناير، وألقت فيه خطابًا حول تعليم النساء.

س: هل رأيتِ ضرورةً لمهاجمة شخص بعينه؟

ج: لا.

س: هل كان بوسعكِ أن تعبّري عن رأيك دون التعرض لأحد؟

ج: نعم، تحدثتُ عن الموضوع من زاوية عامة.

س: إذن لم تجدي في ذلك ضرورة للهجوم الشخصي؟

ج: لا، لم يكن ذلك من شأني.

س: هل كانت نيتكِ محاربة تعليم النساء؟

ج: إطلاقًا.

ثم استُدعيت «الآنسة إديث بيتشي»، وقدّمت شهادة تؤيد أقوال الشهود السابقين.

ثم استُدعي الشاهد التالي، «توماس ساندرسون» (Thomas Sanderson)، واستُجوب من قبل «السيد مكلارين»:

قال: أنا طالب طب في إدنبرة. حضرت محاضرات الدكتور «لايكوك» خلال الشتاء الماضي. في ١٨ نوفمبر، كنت في كلية الجراحين، وكان هناك حشد كبير من الطلاب وآخرين من العامة. كان البعض داخل البوابة، وآخرون خارجها. ساعدت

بعض الطالبات على الدخول. دفعتني مجموعةٌ من الطلاب، وكان هناك ضجيج كبير. لا أتذكر الكلمات، لكن سُمعت ألفاظ نابية جدًا.

س: هل تعرفت على السيد «كريج» بين الطلاب؟

(اعترض «السيد شاند» على السؤال، قائلًا إنه محاولة لإثبات صحة القذف، وهو ليس محل المسألة في هذه الدعوى.)

السيد «ويليام لو»: الاعتراض يفترض ضمنيًا أن الكلام قذف، ونحن نُنكر ذلك، وهيئة المحلفين هي التي تقرر. الحضور أو الغياب عنصر جوهري في القضية.

«القاضي ميور»: أرفض السؤال.

«ويليام لو»: إذن، محكمتكم لا تسمح لنا بإثبات أن المدعي كان حاضرًا؟

«القاضي ميور»: نعم، أؤيد الاعتراض.

«ويليام لو»: إذن، أُسجّل استثنائي.

س: هل كان المدعي حاضرًا حين كنتَ هناك في الكلية يوم الشغب؟

(اعترض «السيد شاند» – لكن القاضي سمح بالسؤال.)

س: هل رأيت السيد «كريج» يوم ١٨ نوفمبر؟

ج: نعم، رأيته.

السيد «مكلارين»: أين رأيته؟

(اعترض السيد «شاند»، لكن سُمح بالسؤال.)

ج: رأيته داخل كلية الجراحين.

س: متى رأيته؟

ج: بعد الرابعة بقليل.

س: كيف كان سلوكه؟

(رفض «القاضي ميور» السؤال.)

س: هل رأيته مرة أخرى في اليوم نفسه؟

(رفض السؤال.)

ثم استُدعي السيد «إدوارد كنينجهام كريج»، المدعِي، واستُجوب من قبل السيد «ويليام لو»:

س: هل كنت حاضرًا في كلية الجراحين يوم ١٨ نوفمبر؟

ج: نعم، كنت موجودًا أثناء جزء من الأحداث. حضرت إلى هناك حوالي الساعة الثالثة، وكنت في إحدى القاعات ما بين الثالثة والرابعة. وعندما خرجت، وجدت حشدًا عند البوابة، مكوّنًا من طلاب وعامة الناس.

(اعترض السيد «شاند» على هذا الخط من الاستجواب، باعتباره محاولة لإثبات وجود السيد «كريج» في الشغب، وهو أمر سبق أن حكم فيه القاضي. سُجّل الاعتراض.)

س: هل شاركت في الشغب؟

(رفض القاضي «ميور» السؤال، وسُجّل اعتراض السيد «ويليام لو».)

استُجوب السيد «كريج» استجوابًا مضادًا من السيد «ويليام لو»:

قال إنه لم يكن حاضرًا في اجتماع المساهمين في المستشفى الملكي يوم ٢ يناير. وإن الدكتور «كريستيسون» أبلغه بأن هناك تصريحات أُطلقت بحقه في ذلك الاجتماع. ثم حصل على نسخة من صحيفة كانت تحتوي على تقرير عن الاجتماع، وقرأ فيها خطاب الآنسة «جكس بليك». وقال إنه رأى أن تلك التصريحات قد تضر بمستقبله المهني إن لم تُكذّب. فاستشار محاميًا وقرر رفع الدعوى. كما أوضح أنه كان مستعدًا لقبول اعتذار وسحب لتلك التصريحات بدلًا من المحاكمة، وكان سيفعل ذلك بسرور.

ثم استُدعي الشاهد «ويليام كينيرد روس» (William Kinnaird Ross):

قال: أنا صحفي في صحيفة (The Scotsman).

في ١٨ نوفمبر، كنت مارًّا قرب كلية الجراحين، قبل وقوع الشغب بلحظات. رأيت حشدًا كبيرًا من الطلاب أمام البوابة، وكأنهم ينتظرون شيئًا ما.

س: هل بدا أن أي شخص يظهر فجأة سيُستقبل بطريقة معينة؟

ج: نعم.

س: ومن كان ذلك؟

ج: «الآنسة جكس بليك» والطالبات. (ضحك في القاعة)

س: كيف استُقبلن؟

ج: بالصراخ، ليس بصراخ ترحيب، بل بصراخ سخرية وصفير.

س: هل استُخدمت كلمات نابية؟

ج: نعم، سُمع بعضهم يقول: «تلك العاهرة».

س: هل رُمِي عليهن شيء؟

ج: نُثر الطين عليهن.

(أُغلق ملف الدفاع عند هذه النقطة.)

ثم بدأ السيد «شاند» مرافعته الختامية عن المدعِي السيد «كريج»:

قال إنه كان يأمل حتى صباح يوم الثلاثاء أن تُعفى هيئة المحلفين من الاستماع إلى هذه الدعوى، لأنه كان يرجو أن الآنسة «جكس بليك» سترى الصواب في سحب تصريحاتها أو تقديم اعتذار عنها. لكنه اضطر إلى الاستمرار، لأنها لم تفعل. كما أكد أن هيئة المحلفين ليست مطالبة بالحكم على الجدل المتعلّق بتعليم النساء، ولا بمسألة قبول الطالبات في المستشفى، بل عليها فقط أن تحكم إن كانت الكلمات التي قالتها المدعى عليها تمثل قذفًا بحق المدعي. ثم أوضح أن الشغب الذي وقع في كلية الجراحين كان يوم ١٨ نوفمبر، لكن تصريحات الآنسة «جكس بليك» التي تمحورت حوله قيلت يوم ٢٤ يناير، أي بعد أسابيع. ولو أرادت تبرير ما قالته، لكان من واجبها أن تحاول إثبات صحته. لكنها لم تفعل ذلك. لم تقل إن كلامها صحيح، ولا سعت إلى إثباته.

ثم أكمل حديثه قائلًا: لقد أُطلقت تصريحات علنية ضد رجل غائب لم يُمنح الفرصة للرد، ومن قِبل سيدة ذات مكانة، وفي اجتماع عام، وبصوت هادئ وواثق، فكيف لا تُعد تلك التصريحات قذفًا؟! كما أشار إلى أن المدعَى عليها تجاوزت حدود النقاش المشروع، وهاجمت شخصًا معينًا. وكانت كلماتها تعني أن المدعِي كان قائدًا للشغب، تلفّظ بكلام بذيء، وكان مخمورًا. وإن عددًا من الحضور شهدوا بأن الكلمات نُطقت فعلًا، وأنهم فهموا معناها كما جاء في لائحة الدعوى.

وأضاف أن الآنسة «جيكس بليك» لم تطعن في هذه الشهادات، ولم تنفِ أنها قالت ما نُسب إليها، لكنها حاولت أن تدافع عن نفسها بأنه كان تعليقًا على العريضة

الطلابية. ثم تساءل: لماذا لم يُستدع الدكتور «هانديسايد» أو السيد «هوجان»؟ هل لأن شهادتهما لم تكن ستدعم المدعى عليها؟

وختم حديثَه بأن قال: إن القانونَ لا يسمح باعتبار ما قيل مجرد «تعليق مشروع» على واقعة عامة. فالشخص الذي يُحدد بالاسم أو بالوصف الواضح، ويتهم باتهام من شأنه النيل من سمعته، من حقه أن يلجأ للقانون. وإن موكله لا يسعى إلى تعويض مالي ضخم، بل إلى إنصاف اسمه وسمعته.

ثم بدأ السيد «ويليام لو» مرافعته مدافعًا عن الآنسة «جكس بليك»:

افتتح مرافعته بنبرة تهكم، قائلًا إن القضية كشفت عن أن بعض طلاب الطب في إدنبرة يتمتعون بحساسية مفرطة، إذ إن شابًا مثل السيد «كريج» لا يحتمل أن يُلمّح إلى أنه ربما شرب الكحول، وكأن ذلك كفيل بتدمير مستقبله المهني. وقال: «لقد رأيت طلابًا مخمورين، ورأيت رجالًا في مناصب محترمة يشربون، ولم ينهدم مستقبل أحدهم لذلك». (ضحك في القاعة)

وأضاف أن السيد «كريج» في هذه القضية قدّم نفسه على أنه فارس نزيه شريف، يريد محو أيَّ تهمة ضده بالتعويض، بدلًا من مواجهة الحقيقة. فلو كان يريد إحقاق الحق لأجابنا: «هل كان موجودًا في مكان الشغب؟ لماذا لم يصعد إلى المنصة ويقول لنا: لم أكن هناك؟ لماذا لم يُقسم؟»

وأشار إلى أن القضية أُديرت بطريقة تجنَّب فيها المدعِي مواجهةَ جوهر الاتهام، وهي أنه كان في مكان الحادث، وتصرف بسوء. وإن الآنسة «جيكس بليك» نقلت ما قيل لها من الدكتور «هانديسايد»، وما سمعته من مصادر متعددة، وكانت تتصرف بحسن نية، وتعليقًا على سلوك طلاب ظهروا في العريضة.

كما قال إن الخطاب لم يكن موجهًا إلى السيد «كريج» بشكل شخصي، بل كان مثالًا على نوعية السلوك الذي يُفترض أن يعبّر عنه طلاب الطب الموقعون على العريضة. وأضاف أن من الظلم أن تُعامَل سيدة مثل الآنسة «جيكس بليك» معاملة من تعمّد القذف، وهي التي لم يكن بينها وبين المدعي أي معرفة، ولم تكن هناك عداوة شخصية.

قال السيد «ويليام لو» إن الآنسة «جيكس بليك» لم تأتِ إلى إدنبرة لتشعل الفتن، بل جاءت في ربيع عام ١٨٧١ لتدرس، وتحاول الحصول على تعليم مناسب. فواجهت عراقيل كثيرة، ولكنها ظلت تسعى بشجاعة. ثم مُنعت من حضور دروس

المستشفى، ما جعلها تحاول أن تؤثّر على قرارات المساهمين في المستشفى، حين اجتمعوا لاختيار المديرين يوم ٢ يناير.

وكان واضحًا أن جزءًا كبيرًا من معارضة حضور النساء اعتمد على عريضة طلاب الطب الذكور. لذا كان من الطبيعي أن تناقش تلك العريضة وتُظهر الطابع الذي كان يحكمها.

وقال إن الطلاب الذين شاركوا في الشغب يوم ١٨ نوفمبر تصرفوا بطريقة مخجلة. وإن الدكتور «هانديسايد» قال بنفسه إن الخروف الذي دخل القاعة كان أعقل ممن كانوا خارجها. (ضحك)

ورأى أن من المشروع تمامًا أن تتحدث الآنسة «جيكس بليك» عن أحد هؤلاء الطلاب، الذي قيل لها من قبل أستاذه إنه كان حاضرًا، وتصرّف بلغة لا تُحتمل.

وأضاف: من غير العدل أن يُطلب من شخص، حين يسمع روايات متعددة من شهود موثوقين، أن يظل صامتًا. لقد قالت ما قاله لها الدكتور «هانديسايد» وهو شخص محترم، وإن لم يُستدع إلى المنصة، فليس ذنبها.

ثم قال إنه يجب ألا يُعامل الكلام الذي قيل في اجتماع رسمي من هذا النوع كأنه قذف عادي. كان في سياق نقاش عام عن موضوع عام، ولم يُقصد به التشهير، بل توضيح الحالة التي تسود بين الطلاب.

قال: إن ما قيل عن السيد «كريج» لم يكن تصريحًا عدائيًا، بل نقلًا لما سمعته، ومع ذلك لم يُطلب من المحكمة أن تثبت صحته أو خطأه، بل فقط أن تصدر حكمًا ضده.

ثم لخص القاضي «لورد ميور» القضية لهيئة المحلفين، وقد صعب على المراسلين سماعه، لكنه أوضح أن عليهم ألا يُصدروا حكمًا بشأن الشغب في قاعة الجراحين، بل فقط بشأن العبارات التي قيلت في اجتماع المساهمين. وقال إن مسألة القذف تتوقف على طبيعة الكلمات المقولة، وسياقها، وما إذا كانت تمس سمعة الشخص. وأكد أن المدعَى عليها لم تُنكر قولها لتلك العبارات، لكن المسألة هي إن كانت تلك العبارات تمثل قذفًا في القانون. وأوضح أن من حق هيئة المحلفين أن تأخذ في اعتبارها أن الكلمات قيلت أمام جمع عام، وأن المدعي لم يكن حاضرًا. وأضاف أن القانون يفترض أن التصريحات موضع الطعن كاذبة، ما لم تُثبت صحتها، ولا يُسمح بإثباتها إلا إذا كان ذلك محور الدفاع. وفي هذه القضية، لا نحكم على صحة وصدق ما قالته صوفيا، بل فقط محاولة تبرير ما

قيل بوصفه جزءًا من النقاش العام أو إساءة إلى المدعِي. وقال أيضًا إنه من واجب هيئة المحلفين أن تنظر في التعويضات، إن رأت أن هناك قذفًا، مع أخذ المكانة الاجتماعية للمدعي، وسياق الكلام، وغياب أي محاولة للاعتذار، في الاعتبار.

ثم انسحبت هيئة المحلفين للتداول، وبعد ساعة ونصف، عادت بحكم جماعي لصالح السيد «كريج» وتمت إدانة صوفيا، وحكموا بأن قضية التشهير هذه لا يستحق عليها إلا تعويض مقداره قرش واحد.

إلى هنا ختمت الجريدةُ مقالتَها، موضحةً أن لجنة المحلّفين قضت بأن صوفيا كانت تتعمّد الإساءة إلى السيد «كريج»، غير أن الضرر الذي لحق بسمعته لم يبلغ من الخطورة ما يقتضي تعويضًا يُعتدّ به؛ فحكمت المحكمة بتعويضٍ رمزي قدره «قرش واحد».

لكن الحق أن هذا «القرش» لا يُعبّر بدقّة عن المبلغ المحكوم به، إذ لم أجد في اللغة العربية ما يوازي تلك القيمة المتناهية في الضآلة. فالجنيه المصري، كما هو معلوم، يتكوّن من مئة قرش، أمّا الجنيه الإسترليني — عملة القضية آنذاك — فيتكوّن من تسعمائة وستين فارذنج (٩٦٠ farthings). والتعويض الذي قضت به المحكمة لم يكن إلا فارذجًا واحدًا، أي ما يعادل عُشر قرش تقريبًا وفق تقسيم الجنيه المصري. مبلغٌ لا يُذكر، بل لا يكاد يُحسب حتى رمزًا، مما يُظهر أن المحكمة — وإن حكمت لصالح المدّعِي ظاهريًا — فقد حكمت ضده ضمنيًا، وجعلت من تعويضه سخريةً قانونية.

نعم، لقد كانت هذه النتيجة في ذاتها صفعة مُهينة للسيد «كريج»، الذي تقدّم بدعواه طالبًا تعويضًا فادحًا بلغ ألف جنيه إسترليني، فإذ بالمحكمة تُنزله من عليائه، وتقضي بأنه لا يستحق لا ألفًا، ولا مئة، ولا عشرة، بل لا حتى جنيهًا واحدًا، ولا ربع جنيه، ولا قرشًا، بل فارذنجًا واحدًا. وهكذا خرج من ساحة القضاء محمّلًا بمرارة الخيبة.

قلنا إن الجمع الكثير من الناس لم يكن هدفهم السماع إلى القاضي ينطق بحكمه، بل أردوا أن يشاهدوا الفتيات بأعينهم، وجاء في بعض الصحف وصف مشاهد هؤلاء النسوة فقالوا:

لقد نجحت السيدة «إيزابيل ثورن» في أداء الشهادة، وقد رأى الحضور أنه من العجيب أن تكون إنسانة طبيعية، غير غريبة الأطوار أو شاذة. لماذا كانت متزوجة؟ لقد كانت طالبة طب، وكان من المفترض ألا تتزوج. كانت رزينة وهادئة، وذات مظهر نسائي محتشم، ترتدي ثيابًا غير متكلفة، ولكن مع ذلك ضمن حدود الأرثوذكسية، أربكت السيدة «ثورن» عقول الكثيرين.

كانت الآنسة «إيديث بيتشي» هي الشاهدة الوحيدة المتبقية، وقد أضفت اهتمامًا جديدًا. قامة طويلة ورأس ذو هيئة كلاسيكية وشعر داكن، وغالبًا ما

يُفترض أن هذه الصفات تعود للشابات اللائي يلتزمن بـ «دائرتهن». إن تجرأت الطالبات في الطب على أن يكن جميلات، أو متزوجات، أو يرتدين بأناقة، فذلك، بطبيعة الحال، جريمة لا تُغتفر.

وقد تجلّى اهتمام كبير، بطبيعة الحال، في ظهور الآنسة صوفيا جيكس-بليك في منصة الشهود. كانت ترتدي ملابس سوداء، مزينة بياقات وأساور بيضاء حول العنق والمعصمين، وقد ظهرت بهيئة امرأة طويلة، متناسقة القوام، وسيمة وحازمة، ذات شعر داكن وعينين داكنتين. كانت متزنة وهادئة تمامًا، وكان أسلوبها مغايرًا تمامًا لتوتر الدكتور «كريستسون»، وكانت صوفيا تملك كل شيء لتكسبه من هذا الظهور العلني، من خلال كشف شامل للحقائق. وأسوأ ما فعلته هو أنها عرضت قضيتها أمام العامة دون خوف من أحد، وإن كان ذلك أحيانًا دون كثير من اللباقة والحذر، وإن لم تخل أقوالها من مبالغة في عرض الحقيقة الفعلية. كان الجمهور قد أصدر حكمه عليها بالفعل. وكانت الآن في موقف الدفاع، تسعى فقط لمساءلة خصومها، تحت الاستجواب المضاد، لتنفي صحة ما قيل عنها.

وفي اليوم التالي، نشرت صحيفة (Glasgow Herald) مقالًا افتتاحيًا جاء فيه التعليق التالي:

لم تُثبت الآنسة صوفيا أو تُقِم الحجة على صحة ادعاءاتها الأساسية. لقد اختارت بدلًا من ذلك أن تتحدى السيد «كريج» ليثبت زيفها. ونحن عاجزون تمامًا عن فهم السبب الذي منعه من قبول هذا التحدي، ولماذا أغفل نفي التهم الموجهة إليه. لا يمكننا أن نفهم كيف توقع من هيئة المحلفين أن تمنحه تعويضًا كبيرًا عن سمعته المتضررة، في حين أنه رفض السماح بأي تحقيق في الملابسات التي كان يمر بها. الشهود الذين كانوا حاضرين أثناء الشغب لم يُسمح لهم بأن يصرحوا ما إذا كانوا قد رأوا السيد «كريج» في موقع الشغب، أو إذا ما شارك فيه، أو ماذا قال أو فعل إن كان حاضرًا. وقد حُكم على الآنسة صوفيا بغرامة فارذنج واحد، جزاءً لتصريحاتها المتهورة والمسيئة، وهذا حكم في محله، والجمهور في حيرة من السبب الذي دفع السيد «كريج» إلى رفع الدعوى أصلًا. لم يجنِ منها إلا إضاعة الوقت في محاكمة لم تثبت شيئًا. لقد دافعت الآنسة صوفيا بكل قوة عن مكانة جنسها في السعي إلى أرفع المنازل، لا في الطب فحسب، بل في القانون كذلك. لقد أظهرت براعة تامة في فن الدفاع عن النفس.

ومع كل ما رأيناه من ثبات صوفيا، ومن التردد الذي بدا جليًّا في موقف خصومها، ومع التحدي الصريح الذي وجّهته إلى السيد «كريج» أن يُقسم أمام الجميع بأنه لم يكن حاضرًا ولم يشارك في أحداث الشغب، فإنّ المفارقة أن تلك المحاكمة صارت مؤلمة له، ومُرضية لها. فكم في التعويض الذي حُكم به من دلالة! فمن يرفع دعوى ليُثبت أن سمعته قد تضررت، ثم لا يُنصفه القضاء إلا بمقدار لا يبلغ قرشًا واحدًا، فإنما أُدين دون أن يُقال صراحة إنه مُدان.

ومع ذلك، وكما اعتدنا من مسيرة صوفيا، لم يكن النصر يومًا كامل الصفاء. إذ ما من طريق سلكته إلا وكان محفوفًا بالمشقة، ولا خطوة خطتها إلا واصطدمت بعقبة. فإن بدا للناظر أن هذه القضية قد طُويت فصولها، وأنها انتهت لصالحها، فإن في طيّات القانون ما يروي غير ذلك، إذ قضت المحكمة أن تتكفل صوفيا بدفع المصاريف الإدارية للسيد «كريج»، وكانت هذه المصاريف الإدارية قيمتها ٩١٥ جنيهًا إسترلينيًا.

مبلغ قيمته كبيرة جدًا، فأرسل إليها أخوها رسالةً تحمل شيكًا بنكيًا بقيمة نصف المبلغ كما كان وعدها من قبل. وما إن تم إعلان الحكم إذ بأحد أعضاء هيئة المحلفين، الذين كانوا يقررون إذا ما كانت صوفيا مذنبة أم لا، صُدم هو بهذا الحكم وبأنها ستدفع هذا المبلغ، فكتب إلى الصحيفة يقول:

> سيدي، بصفتي أحد المُحلَّفين الذين نُظرت هذه القضية أمامهم، أشعر بخيبة أمل شديدة حين أرى في الصحف أن المحكمة قد اعتبرت المُدّعِي مستحقًّا لنفقات القضية.
>
> كنت أترقّب بتلهف الفصل في هذه القضية، على أمل أن يُطبّق الحكم الذي أصدرناه بحيث يُفضي إلى النتيجة التي قصدناها من ورائه. كانت هيئة المحلفين ترى أن على المُدّعِي أن يقدّم لهم دليلاً على عدم مشاركته في ذلك الشغب المُخزِي الذي تضررت منه الآنسة صوفيا أشد الضرر، حتى يكون مستحقًّا للحكم لصالحه؛ ولو تسنّى لهم، لكانوا قد أبلغوا القاضي بذلك. بعد أن انسحبنا للمداولة، كان أول ما قمنا به هو تعيين رئيس للجلسة. وقد تبيّن أن هذا الرجل كان يميل إلى الحكم لصالح المدعَّى عليها. وبغرض معرفة رأي بقية المحلفين، طُلب منا أن نكتب، كلٌ على ورقة، ما إذا كنّا نرى أن هناك «تشهيرًا» أو «لا تشهير». وكانت النتيجة انقسامًا متساويًا — ستة رأوا أن هناك تشهيرًا، وستة لا. وأُجري هذا التصويت مرة ثانية وجاءت نفس النتيجة. وفي هذا المأزق، وبعد نقاش مستفيض حول مقدار التعويض، وهو نقاش لم أظن أن أحدًا فيه قد ذكر مبلغًا أكبر من شلن واحد، حتى من أولئك الذين ظنوا أن هناك تشهيرًا، اقترحنا أن نسأل المحكمة إن

كان لرئيس الجلسة صوتٌ مرجّح. ففُعل ذلك، وعاد الكاتب ليُخبرنا أنه لا يملك صوتًا مرجّحًا.

ثم سألنا الكاتب إن كان بإمكاننا أن نحكم لصالح المُدّعي دون أن نمنحه أي تعويض، فقال لنا إننا لا نستطيع. وبعد قليل، استدعيناه مرة أخرى وسألناه إن كان تعويض مقداره فارذنج واحد يُخوّل المدعي الحصول على نفقات القضية. فتردد قليلًا، **ثم قال إن هناك قانونًا جديدًا ينص على أن تعويض الفارذنج لا يُخوّله نفقات القضية**. فخرج ليستشير القاضي؛ لكن، وبعد أن حصلنا على هذه المعلومة منه، اتفقنا على الحكم، وقرعنا الجرس لاستدعاء الحاجب فورًا. لم أشك لحظة في صحة رأي الكاتب، وبناءً على ذلك أيدت الحكم الذي يمنح المُدّعي تعويضًا قدره فارتنج واحد. **ولو أنني علمتُ للحظة ما ستؤول إليه النتيجة، لما فعلت.**

أعتقد أن القضية كانت شديدة القسوة على المدعى عليها، لا سيما وأن الحكم، لولا رأي الكاتب، ربما كان في صالحها. أعتقد أنه من حقها أن يعرف الجمهور الظروف التي صدر فيها الحكم، لأنه من غير المنطقي أن يُقال إن المُدّعي لم يُصب بأي ضرر نتيجة القذف المزعوم، أو أنه أُصيب بأقل ضرر لا يتجاوز فارذنجًا واحدًا، ومع ذلك تُجبر المدعى عليها على دفع مبلغ كبير لتغطية النفقات، لا سيما وأن أصل الحكاية كلها كان شغبًا تعرضت فيه السيدات لسوء المعاملة.

وهكذا، فإنّ تلك القيمة الكبيرة التي حكمت المحكمة بأن تتكفل بها صوفيا، لم تكن، في حقيقتها، تعبيرًا مقصودًا عن الإدانة، بل جاءت نتيجة خطأ إداري في تقدير العواقب. فقد أخبرهم كاتب المحكمة — عن غير قصد — أن الحكم على صوفيا بتعويضٍ لا يتجاوز الفارذنج، كفيلٌ بألّا يُحمّلها أعباء مصاريف القضية. فاشترطت هيئة المحلّفين هذا الأمر، وأصدرت حكمها بناءً على ذلك الضمان. لكن، ولسوء تقدير الكاتب، لم تَسرِ الأمور كما قصد المحلَّفون، إذ تَبيّن بعد النطق بالحكم أن صوفيا ستتحمّل النفقات رغم ضآلة التعويض. ومع أنّ القاضي لم يكن ليُغيّر حُكمًا قد صدر، فقد أثار ذلك الموقف حرجًا أخلاقيًا في نفوس بعض أعضاء هيئة المحلفين. ولم يكن من أحدهم بدٌّ إلا أن يُبرّئ ذمتَه، فخرج إلى العلن، يصرّح بالحقيقة، وينشرها على الناس، ليُبيّن أنّهم لم يقصدوا تحميل صوفيا عبئًا ماليًا، بل أرادوا أن يكون الحكم رمزيًا خاليًا من أي أعباء.

وقد خرج أحد المحامين للرد على الشهادة التي أدلى بها عضو هيئة المحلفين في الصحف، موضحًا أن كاتب المحكمة لم يكن مُخطئًا من حيث المبدأ؛ إذ إن القانون الجديد ينصّ

بالفعل على أن المدَّعَى عليه لا يتحمّل نفقات القضية إذا كان الحكم التعويضي أقل من خمسة جنيهات. لكن ما أغفله الكاتب، كما بيّن المحامي، أن هذا الحكم «تقديري»، أي أنه خاضع لتقدير القاضي، غير مُلزِم له بأي وجه من الوجوه. وأمام هذا الالتباس، نُصحت صوفيا بأن استئنافها على الحكم، وإن كان مُبرَّرًا من جهة المبدأ، إلا أن نتيجته غير مضمونة. بل إن خوضها في مسار جديد من التقاضي قد يكلّفها مصاريف إضافية فوق ما تحمّلته أصلًا، دون ضمان لنقض الحكم أو تعديله. وهكذا، بدا أن القرار الأكثر اتزانًا وأقل ضررًا هو أن تُسلّم بالحكم القائم، حتى وإن كان ثمرة خطأ موظفٍ في المحكمة.

لكن الذي يستحق الذكر كان رد لـ «إيديث بيتشي» نُشر في الجريدة، كانت تقول فيه:

> سيدي، أرى أن أحد المحلفين كتب إليكم ليعبّر عن مدى اعتراضه على الحكم الأخير بخصوص التكاليف، وكيف أنه لا يتوافق مع نوايا هيئة المحلفين، كما كتب محامٍ عن مدى غرابة ما حدث من الناحية القانونية. فهل تسمح لي أن أقول بضع كلمات من واقع تجربتي الشخصية، حول النتائج العملية؟
>
> لقد تلقى طلاب الطب في إدنبرة رسالة ضمنية يبدو أن بعضهم مستعد للاستفادة منها. لقد قيل لهم، بوضوح، إن من الممكن افتعال شغب بقصد إهانة النساء، فإذا ما اشتكت إحداهُن من ذلك السلوك، اتُهمت بالتشهير، بينما ينجو المُهينون، وتُجبَر الشاكية على دفع التكاليف. والحقيقة أن الرسالة تبدو وكأنها: ما لم تكن المرأة مستعدة لدفع مئات الجنيهات، فعليها أن تقبل بالإهانة من دون حتى أن تجرؤ على ذكرها.
>
> وأقول إن بعض الطلاب الذكور قد تلقوا هذه الرسالة بوضوح؛ لأنني أعتقد أن ما أتلقاه من معاملة أنا وبعض صديقاتي حين نلتقي ببعض الطلاب مساءً في طريق عودتنا إلى المنزل، دليل على ذلك. وقد يثير الدهشة لدى البعض أن مجموعة من الشبان يجدون متعة في تتبع امرأة عبر الشوارع، مستغلين كونها بمفردها، ليصيحوا خلفها بأقذع الشتائم من قاموسهم البذيء؛ ومع ذلك، فهذه هي الحقيقة.
>
> أنا على يقين أن لا فائدة من مناشدة هؤلاء الطلاب بالتفكير في الضرر الذي يلحقونه بالجامعة أو بمهنة الطب أمام الرأي العام، لأن تلك الأمور لا تهمهم على الإطلاق؛ لكن ربما يُحدث لديهم بعض الأثر أن يُقال لهم إن أثر سلوكهم علينا هو عكس ما كانوا يأملون. يُقال إن الدكتور «كريستسون» قال في المحكمة إن شغب نوفمبر كان «مصيبة كبيرة»، ومن وجهة نظره كان محقًا تمامًا. **فإن كان هدف هؤلاء الطلاب أن يوقفونا ويخيفونا من المضيّ قدمًا، فإنني أؤكد أن ذلك**

كان أكبر خطأ ارتكبوه. كل إهانة جديدة هي حافز إضافي لإكمال الطريق. لقد بدأت دراسة الطب بدوافع شخصية بحتة؛ أما الآن، فأصبحتُ مدفوعة أيضًا برغبة في إبعاد باقي النساء المرضى عن رعاية أمثال هؤلاء السفهاء.

أعلم أن الطلاب المحترمين سيقولون، وبحق، إن هؤلاء من الحثالة، ولن يبلغوا مكانة مرموقة في المهنة؛ وهذا صحيح بلا شك؛ لكن ما النتيجة؟ ببساطة، بدلًا من أن تكون رعاية السيدات المرضى بأيدي محترمة وذات مصلحة في كسب ثقة الأسر الثرية، سيؤول الأمر إلى أيدي الخدم والبائعات غير المحميات. ويؤسفني أن أقول إنني مستعدة لرؤية أي فتاة فقيرة تقع تحت رحمة أحد هؤلاء، من الذين لاحقوني في الشارع، مستخدمين مصطلحات طبية لإيصال معانيهم المقززة لي. وحين يستطيع الرجل أن يسخّر علمه لهذا الانحدار، فلا أظنه يستطيع الانحطاط أكثر من ذلك. أما إلى أي مدى يمكن أن تسهم القرارات الأخيرة في ردع هذا السلوك أو الحد منه، فأترك الحكم للجمهور.

وقد كنّا قد ذكرنا من قبل أن جمعًا من رجال العلم وذوي المكانة والنفوذ أسّسوا لجنة خاصة لنصرة قضية تعليم المرأة في مجال الطب، عُرفت باسم: «لجنة تأمين التعليم الطبي للمرأة في إدنبرة» (Committee for Securing a Medical Education to Women in Edinburgh). وكان من بين أعضائها العالِم المعروف «تشارلز داروين».

وما إن صدرت أحكام المحكمة، وما ترتّب عليها من نفقات، حتى بادرت اللجنة إلى إعلانٍ عامّ لجمع التبرعات، كي تتحمل عن صوفيا ما فُرض عليها من غرامات. ولم تلبث أن جمعت كامل المبلغ المطلوب، فلم تحتج صوفيا أن تصرف فلسًا واحدًا من الشيك الذي أرسله لها أخوها، بل ردّت عليه الشيك شاكرةً ممتنّة.

ولم يتوقف الكرم عند ذلك، بل جاوزه وتعداه؛ إذ جمعت اللجنةُ أكثرَ مما هو مطلوب، فأغلقت بابَ التبرعات، ومع ذلك استمر الناسُ في إرسال الأموال، فقررت اللجنة أعادة أموالِهم إليهم. ثم بعد جمع الأموال، تقدمت صوفيا ومعها الرجل العظيم السيد «ويليام لو» ودفع المبلغ المستحق إلى المحكمة، وبقي ١١٢ جنيهًا إسترلينيًا فائضًا، فقررت صوفيا أن يتم الاحتفاظ بهذا المبلغ لدى اللجنة، لعله يُستخدم فيما بعد في إنشاء مستشفى للنساء في إدنبرة. وهكذا، لم تكن صوفيا وحدها في هذا الطريق، بل سارت وخلفها جماعة من النبلاء والفضلاء، يرفعونها إن عثرت، ويسندونها إن ضعفت، ويجعلون من قضيتها قضية أمّة بأسرها.

بعد هذه الأحداث المتسارعة، شعرت صوفيا ببعض الإرهاق، فأرادت أن تبتعد قليلًا، فسافرت إلى باريس في عطلة سريعة جدًا، كي تبتعد لفترة وجيزة عن هذا الجو المشحون، وما إن عادت من باريس حتى زارتها صديقتها العزيزة الدكتورة «لوسي سيوول» من الولايات

المتحدة. فاستقبلها صوفيا في ميناء ليفربول، وذهبن إلى أماكن ومدن وأشخاص كثر في بريطانيا، حتى عادت الدكتورة «لوسي» إلى أمريكا مرة ثانية.

الفصل الحادي عشر:
صوفيا تُحاكِم الجامعة

في تلك المرحلة من مسيرة التعليم العالي للنساء، بدأت تصلُ إلى مسامعِ صوفيا أخبارٌ مقلقة، تنقلها همساتٌ خافتةٌ يتداولها بعضُ أصحاب العلم والسلطة، أولئك الذين كانوا على تماسٍّ مباشرٍ مع دوائر صنع القرار في الجامعة. وقد أفاد هؤلاء، بمزيج من القلق والحذر، بأنّ هناك محاولات تُحاك في الخفاء — بالرغم من أن الجامعة كانت قد فتحت أبوابَها رسميًا للفتيات، وأدخلت بندًا جديدًا في لوائحها الداخلية يقرّ بأحقية النساء في التعلّم — تهدف تلك المحاولات إلى تقويض هذه السابقة التاريخية ومنعها من أن تتكرّر. فوفقًا لما سُرَّ إليها، فإنّ ثمّة جهاتٌ تسعى جهدَها لإغلاقِ الباب أمام أية طالبة جديدة تُقدِم على اجتياز امتحان القبول التمهيدي، وهو الامتحان الذي يُعدّ أول عتبة في طريق الالتحاق بكلية الطب، وشرطًا لازمًا للتسجيل الرسمي في الجامعة. ومع أن هذا القبول لتواجد صوفيا وزميلاتها في الجامعة كان قد تمّ بصورة قانونية، وبموجب تشريع أُقرّ على الملأ، فإنّ النية المبيّتة، كما بدا من تلك الهمسات، هي أن يبقى دخول الفتيات حالة استثنائية لا تتكرّر، لا أن يصبح حقًا مكتسبًا وسُنةً نافذة.

ولم تقف هذه المساعي عند حدّ منع الطالبات الجدد من الالتحاق بالجامعة، والاكتفاء بتلك الفتيات السبع وفقط، بل تجاوزتها إلى ما هو أخطر، إذ ورد إلى علم صوفيا أنّ المحاولات تُبذل الآن لمنعها هي وزميلاتها — وكنّ آنذاك قد أتممن عامين من الدراسة المنتظمة في كلية الطب — من التقدّم إلى ما يُعرف بـ «الامتحان المهني الأول». وهذا الامتحان، في ذلك العصر، لم يكن مجرّد اختبار أكاديمي كأي اختبار جامعي آخر، بل كان يُعدّ من الامتحانات الجوهرية والمفصلية في نظام التعليم الطبّي البريطاني. فالامتحانات المهنية (Professional Examinations)، أو ما يُعرف أحيانًا بـ «الامتحانات التمهيدية للمزاولة الطبية»، كانت تُجرى تحت إشراف مباشر من كلية الطب، وبتنسيق مع المجالس الطبية المختصة بمنح التراخيص للأطباء بمزاولة المهنة، وهي الهيئات العليا التي تُخوَّل قانونًا أن تمنح الطبيبَ حقَّ الممارسة في المملكة المتحدة. أما عن بنية هذه الامتحانات المهنية، فقد كانت تنقسم إلى ثلاث مراحل رئيسية:

- المرحلة الأولى: تُعقد بعد السنة الأولى أو الثانية من الدراسة، وتركّز على العلوم الأساسية كالفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء بالعربية)، والتشريح، والكيمياء الحيوية، وهي المواد التي تُشكّل الأساس النظري للعلوم الطبية.

- المرحلة الثانية: تتم بعد السنة الثالثة، وتُعنى بتقييم المعارف في الطب السريري والمهارات السريرية الأولية، كالتشخيص، وأساليب الفحص، والتعامل مع الحالات المرضية.
- المرحلة الثالثة والأخيرة: تُعقد في نهاية السنة الرابعة، وتُعدّ بمثابة الامتحان النهائي الشامل، والذي يحدّد ما إذا كان الطالب أهلًا للتخرّج، وحاصلًا على المؤهّلات العلمية والعملية التي تخوّله طلب الترخيص الرسمي لمزاولة الطب من الهيئات والمجالس الطبيّة.

بلغ صوفيا، على نحو لا يخلو من القلق والريبة، أن إدارة الجامعة تسعى جديًّا إلى الحيلولة بينها هي زميلاتها، وبين التقدّم للامتحانات المهنية الرسمية، تلك الامتحانات التي لا يُمكن لطالب الطبّ أن يُعترَف بمساره العلمي ويعمل كطبيب مُمارِسٍ دون اجتيازها.

ولم تكن تلك مجرّد إشاعات عابرة تتداولها الألسن في الدوائر والمجالس الخاصة، بل رافقتها صعوبات واقعية وإجراءات مُتعمَّدة آخذة في التشكّل على الأرض، تُنذر بمساعٍ ممنهجة لإقصاء الطالبات من الحياة الأكاديمية فعليًا. ولعل أبرز هذه المؤشرات تمثَّل في الموقف المُعلن من جانب قادة أبرز الهيئات الطبية في البلاد؛ إذ رأينا في الفصل السابق كيف أن رئيس الكلية الملكية للأطباء ورئيس الكلية الملكية للجراحين — وهما من أعلى الهيئات الطبية منزلةً ومكانةً — رفضا رفضًا قاطعًا أن يترأسا حفلَ توزيع الجوائز السنوي، لمجرد أن الطالبات الإناث سيكنّ من بين الحضور. وقد كان هذا الموقف رمزيًا بقدر ما هو فعلي، إذ عكس درجةَ الرفض المؤسسي لوجود النساء داخل الفضاء الأكاديمي الطبي.

وتَبِعَ هذا التصريحَ الرسميَ قرارٌ آخر لا يقل خطورة، إذ <u>ألغت «قاعةُ الجراحين» الإذنَ الذي كانت قد منحته — خلال فصل الصيف المنصرم — لأولئك المحاضرين والأساتذة الذين أبدوا رغبتَهم في تدريس الطالبات ضمن صفوفهم التعليمية</u>. وهذا القرار بمنع الطالبات من حضور المحاضرات داخل «قاعة الجراحين»، لم يكن إلا انتكاسة صارخة لفرصةٍ نادرةٍ كانت تُعدّ الملاذ الوحيد الممكن لتلقّي التعليم الطبي العملي خارج نطاق الجامعة الرسمية. وقد أُغلِق هذا الباب الآن تمامًا، دون سابق إنذار. وهكذا، فقد أُوصد الباب في وجوههن داخل الجامعة، وها هو يُغلَق الآن خارجها أيضًا، من غير إنذارٍ أو تهيئة، كأنّما تُسحب الأرضُ من تحت أقدامهن رويدًا رويدًا، حتى لا يبقى لهن موطئ قدم يتعلمن فيه، ولا سُبُل ارتقاء يتمسكن بها.

وما زاد الطين بلّة أن التدريب العملي في «المستشفى الملكي»، وهو التدريب اللازم لاكتساب الخبرة السريرية، لم يُفتح بابه لهنّ، إذ رفضت إدارةُ المستشفى قبولَ الطالبات ضمن صفوف الطلبة المتدرّبين داخل المستشفى. كما أن الأساتذة داخل كلية الطب بالجامعة رفضوا بالمطلق إنشاء فصول تعليمية خاصة للطالبات وتدريسهن على نحو منفصل عن الطلاب الذكور،

بما يعنى — عمليًا — حرمانهنّ من حضور المحاضرات، ومن الانتفاع بالمواد العلمية التي تُلقى فيها.

وهكذا، فإنّ كل المنافذ الممكنة لتلقّي التعليم الطبّي قد بدأت تُغلَق واحدةً تلو الأخرى: التعليم الرسمي داخل قاعات الجامعة مُنع، والتدريب العملي في المستشفى الجامعي لم يُسمح به، والدراسة الخارجية في «قاعة الجراحين» أُلغيت، وحتى الأمل الضعيف في تسوية وسطية، عبر الفصل بين الجنسين، قوبل برفض صريح. ولم يبقَ أمام صوفيا وزميلاتها سوى المواجهة مع بنية مؤسسية عتيدة، عازمة على قصر المهنة على الرجال وحدهم، مهما بلغت كفاءة النساء أو تقدّمهنّ في مراحل التعليم.

تحدثنا سابقًا عن سبب لجوء الطالبات إلى المحاضرات في قاعة الجراحين، حيث تتيح الجامعة أن يدرس الطالبُ خارج أسوار الجامعة عددًا من المواد الدراسية إن أراد، فما إن وجدن دراسةً لمادة التشريح وغيرها في قاعة الجراحين، لجأن إلى الدراسة على يد أساتذة هناك. أما الآن وقد أُغلقت قاعة الجراحين أمامهن، فماذا يفعلن الآن؟ لم يكن أمامهن إلا حل واحد، وهو أن يذهبن إلى أماكن أخرى مماثلة لقاعة الجراحين، يتم فيها تدريس مواد طبية. لكن لو فرضنا أن هناك أماكن أخرى في مدينة إدنبرة، أو حتى في مدينة أخرى — بشرط أن تكون تلك الأماكنُ مستعدةً لاستقبال الطالبات، وأن يوافق المحاضرون هناك على تعليمهن — لكان طريق الدراسة أمامهن قابلًا للمسير. إلا أن هناك مشكلة أكبر بكثير من فكرة إيجاد مكان جديد بعد إغلاق قاعة الجراحين أمامهن.

فبحسب اللوائح الرسمية المعتمدة من مجلس الجامعة، لا يُسمح للطالب الجامعي — ذكرًا كان أو أنثى — بأن يتلقّى أكثر من أربع مقررات دراسية من خارج الهيئة التدريسية المعتمدة في الجامعة؛ وقد كانت الطالبات قد استنفدن هذا الحد الأقصى بالفعل، إذ التحقن بأربعة مقررات من هذا النوع في الأعوام السابقة، في محاولة منهن لتعويض النقص في المواد الجامعية الرسمية التي مُنعن من حضورها. وهكذا، وجدْن أنفسهن في مأزقٍ لا فكاك منه: لم يكن مُتاحًا لهنّ حضور المحاضرات داخل الجامعة، ولم يكن يُسمح لهن بتجاوز الحدّ المسموح به من المحاضرات الخارجية، فبدا كأن النظام بأكمله قد صُمّم ليُحاصرهن من كل الجهات.

في هذا المأزق، لجأت صوفيا إلى مجلس الجامعة، وكعادتها كانت تعرض المشكلةَ ولا تتنظر من غيرِها أن يقدِّمَ الحلولَ لها، بل عرضت الإشكالَ واقترحت هي لإدارة الجامعة حلّين لإزالة تلك العقبة، فإن عجزوا عن الأول، فأمامهم الثاني:

أما الأول: فهو أن تُعيِّنَ الجامعةُ محاضرين جامعيين خاصين (أساتذة أو مساعدين للأساتذة أو غيرهم) على نفقة النساء. بمعنى: عوضًا عن جعل تدريس الأساتذة لهن أمرًا اختياريًا،

تلتزم الجامعةُ بتحديد واختيار مَن تراه مناسبًا من الأساتذة لتدريس الفتيات في صفوف خاصة بهن.

وأما الثاني: فهو أن تخفف الجامعةُ اللوائحَ القائمةَ والقوانينَ الصارمةَ التي تقضي بأن مِن حق الطالب الحصول على أربع مواد فقط خارج الجامعة، وأن تتيح للنساء موادًا أكثر يمكنهن دراستها خارج الجامعة، إن رفض أساتذةُ الجامعة تدريسَ الطالبات.

طلب مجلسُ الجامعة رأيَ المستشار القانوني بشأن ما إذا كان يمتلك الصلاحيات القانونية التي تخوّله اتخاذ قرارٍ في هذه المسألة. ولما ورد رأيُ المستشار القانوني مخالفًا لرغبة النساء، مؤكدًا أن المجلسَ لا يملك من السلطة ما يُمكّنه من إصدار قرار كهذا، قرر المجلسُ أن يُجري تصويتًا ليُحدّد ما إذا كان سيلتزم برأي المستشار أم لا. وأسفر التصويتُ عن نتيجةٍ حاسمةٍ بأغلبيةٍ صوتٍ واحد، قضت بعدم اتخاذ أي إجراء يتعلق بالطلبات التي تقدّمت بها صوفيا.

وحين رفض المجلسُ هذين الاقتراحين، ذهبت صوفيا على الفور إلى المحامي الخاص بها السيد «ويليام لو» عمدة المدينة، والنقيب «فريزر» تطلب آراءهم، وتلقّت رأيين هما: (١) أن من صلاحيات سلطات الجامعة اتخاذ الترتيبات اللازمة لاستكمال تعليم النساء؛ و(٢) أن كلية الطب مُلزَمة بقبول النساء في الامتحان المهني في المواد التي سبق أن تأهلن فيها للنجاح.

ورغم أن صوفيا لم تذكر في خطابها لمجلس الجامعة أيَّ شيءٍ عن الامتحانات المهنية، إلا أن تلك النقطة تحديدًا قد أُدرجت وأُثيرت نتيجة خوف صوفيا من الشائعات المثيرة للقلق المذكورة أعلاه التي كانت تتحدث عن محاولات الجامعة لمنعهن من التقدم لهذا الامتحان. لكن مع اقتراب موعد الامتحانات وعدم حدوث أي شيء، بدأت الطالبات يشعرن بالاطمئنان، وأن تلك الشائعات لم تكن صحيحةً، ولا تسعى الجامعةُ لمنعهن من التقدم للامتحانات المهنية.

في هذه الأثناء قامت صوفيا فإقناع ثلاث فتيات أخريات للقدوم إلى إدنبرة والتقديم للدراسة في كلية الطب، وقد أخذت أوراقهن، وتقدمت نيابةً عنهن للجامعة، ودفعت رسومَ الامتحان وحُدد موعد امتحان القبول (أو الامتحان التمهيدي) لتلك الدفعة الجديدة من الطالبات يوم ١٧ و١٨ من شهر أكتوبر.

وكان من المقرر كذلك أن ينعقد الامتحانُ المهني لصوفيا وزميلاتها بعد أسبوع واحد من تاريخ الامتحان التمهيدي للطالبات الجديدات، وتحديدًا يوم ٢٤ من شهر أكتوبر. كانت الأمور تبدو أنها تسير على ما يرام، فلا الامتحان المهني مُنعن منه حتى الآن، ولا الطالبات الجدد منعن من التسجيل في الجامعة حتى الآن كذلك.

وفي يوم ١٤ أكتوبر، جاءت رسالةٌ من الجامعة تقول لصوفيا إن كلية الطب لا تستطيع أن تسمح لهن بأداء الامتحان المهني حتى يتم الموافقة من مجلس شيوخ الجامعة ابتداءً، وكان مجلس الشيوخ من المقرر أن ينعقد يوم ٢١ من أكتوبر، أي قبل الامتحان المهني بثلاثة أيام.

ولم تتوقف المصائبُ عند هذا الحد، ففي يوم ١٦ أكتوبر، وقبل امتحان القبول للفتيات الثلاث الجدد بيوم واحد، تقلت صوفيا كذلك رسالةً تفيد بأن الجامعة لن تقبل نساء جديدات بين جدرانها، وأعادت لصوفيا رسوم التسجيل عن كل فتاة منهن.

كانت الفتيات الثلاث قد وصلن بالفعل إلى إدنبرة، وكان موعد امتحان قبولهن في جامعة إدنبرة بعد ٢٤ ساعة فقط، وما كان من صوفيا إلا أن بذلت كل طاقتها في مساعدة تلكم الطالبات المستجدات، فذهبت إلى محاميها فأرسل رسالةً شديدة اللهجة إلى كلية الطب، جاء فيها:

> السيد العزيز، لقد طُلب منا الحصول على رأي قانوني بشأن قانونية رفضكم قبول السيدات في الامتحان التمهيدي للفنون، والمقرر عقده غدًا. نُرفق لكم الآن العريضة المقدمة، والرأي القانوني الذي أصدره السيد «باتريك فريزر»، للاطلاع عليه، ونرجو منكم إعادته إلينا عند أول فرصة ممكنة. نودّ أن نلفت انتباهكم إلى أنكم ستكونون مسؤولين بشكل فردي إذا تمسّكتم بهذا الرفض، وقد طُلب منا في هذه الحالة، اتخاذ إجراءات قانونية للمطالبة بتعويضات ضدكم نيابةً عن كل طالبةٍ من مُقدِّمات العريضة. ستلاحظون أيضًا أن تعليمات كلية الطب، لكونها غير قانونية في ذاتها، لن تُعدّ دفاعًا ضد مثل هذه الدعاوى. نأمل، في ظل هذه الظروف، أن تعيدوا النظر في الأمر، وتروا من المناسب التراجع عن الرفض، وتجنّب الحاجة إلى المزيد من الإجراءات.

لم يطل الانتظار حتى وَرَدَ الرَّدُ في اليوم ذاتِه، فأرسل عميدُ الكلية:

> عزيزتي الآنسة جِيكس-بليك، لقد استلمتُ الإشعارَ القانوني من محاميكم. وفي ظل هذه الظروف، فلن أتحمّل مسؤولية رفض قبول السيدات في الامتحان التمهيدي كما كان الأمر من قبل. لكن يجب أن أبلغكِ أنني أقبل بهن مؤقتًا حتى يُبتّ في الأمر من قبل الجهات المختصة، ودون أن يشكّل ذلك مساسًا بموقفي الشخصي.

وهكذا استطاعت صوفيا إيجادَ حلٍ لمنع الجامعة الطالبات المستجدات من التقدُّم للامتحان التمهيدي قبل أربع وعشرين ساعة فقط من موعده المحدد.

تمكنت الطالباتُ من أداء امتحان القبول في جامعة إدنبرة ونجحن فيه جميعهن، وحين ذهبن إلى موظف الجامعة ليحصلوا على البطاقة الطلابية (أو الكارنيه) من الجامعة، أخبرهم

الموظف بأن الدكتور «كريستيسون» أوصى بعدم إصدار أي بطاقات جديدة لأي طالبة في كلية الطب. لكن لا قيمة قانونية ولا رسمية لتوصية الدكتور «كريستيسون» بعدم إصدار بطاقات طلابية، وقال بعضهم ساخرًا: إن سلطة الدكتور «كريستيسون» في إنفاذ أو منع إصدار البطاقات الطلابية، تمامًا كسلطة حارس الجامعة في هذا الشأن.

قلنا للتو إن صوفيا أصابتها مصيبتان، الأولى تتعلق بامتحان القبول الخاص بالدفعة الجديدة من الطالبات المستجدات، وقد استطاعت الآن تجاوز هذه العقبة، وتقدمت الفتياتُ لامتحان القبول، ونجحن فيه، وأخذن البطاقات الجامعية رغم أنف الدكتور «كريستيسون».

والمصيبة الثانية، كما ذكرنا، كانت متعلقةً بالامتحان المهني الخاص بها هي وزميلاتها. فما إن تقدمت صوفيا بأوراقها ودفعت رسومَ التسجيل في الامتحان المهني، حتى اندلع شجار عنيف في كلية الطب، وبعد يوم أو يومين، تلقّت كلُّ واحدةٍ من المرشحات النساء للامتحان المهني نسخةً من الرسالة التالية: «سيدتي، لقد وُجّهتُ من قِبل كلية الطب لإبلاغك بأن اسمك ورسومك قد تم استلامها عن طريق الخطأ من قبل أمين الجامعة كمرشحة للامتحان المهني الأول هذا الشهر، لكن الكلية لا يمكنها قبولك لهذا الامتحان دون موافقة «مجلس الشيوخ الأكاديمي».

وقلنا إن اجتماع مجلس الشيوخ كان سينعقد في الحادي والعشرين من شهر أكتوبر، أي قبل ثلاثة أيام فقط من موعد الامتحان. وحين جاء يوم الاجتماع، طُرح للنقاش أمر قبول النساء في الامتحان المهني الأول، فصدر التوجيه إلى كلية الطب بالمضيّ قدمًا في السماح للطالبات السبع بأداء الامتحان، وتم تجاوز هذه العقبة الأخرى ولله الحمد.

وفي الرابع والعشرين من أكتوبر تقدّمت الطالبات لأداء هذا الامتحان المهني، وكان من المذهل أن جميع المرشحات اجتزنَه بنجاح. غير أنّ صوفيا لم تكن في عدادهن ولم تتمكن من النجاح. لقد كانت طاقتها كلّها تستنفد في شقّ الطريق لهذه القضية العظيمة والدفاع عنها بكل ما أوتيت من بأس. كانت تترافع في المحاكم، وتكتب المقالات في الصحف، وتنهل من العلم داخل الجامعة وخارجها، وتسعى للالتحاق بالمستشفى الجامعي، وتكابد الشغب الذي لحق بهن حتى تلطّخت ثيابهن بالطين من رؤوسهن إلى أخمص أقدامهن، ثم تعود لتعاون زميلاتها في الدراسة، وتقنع طالبات جدد بالالتحاق بالجامعة، وتشدّ من أزرهن. كلّ هذا الجهد، وما وراءه من عناء، ترك أثره على أدائها في الامتحان، فلم توفَّق إلى النجاح فيه.

لقد ذكرنا سابقًا قرارَ منع الطالبات من دخول قاعة الجراحين لحضور المحاضرات، وهو قرار فرضه القائمون على رأس الهيئات الطبية، مما وضع الفتيات أمام عقبة كبيرة في مسار تعليمهن. ثم إنهن إن حاولن التغلّب على هذا العائق بالبحث عن أماكن بديلة يمكن أن يتلقين فيها تعليمهن، فإن هذا الحل لم يكن كافيًا ولا مجديًا بشكل حقيقي. فقد تبين أن عدد المواد الدراسية

التي يمكن تدريسها خارج الحرم الجامعي محدود للغاية — إذ لم يتجاوز «أربع مواد فقط»، وكانت الطالبات قد أتممن بالفعل دراسة هذه المواد الأربع.

بعبارة أخرى، لم يعد هناك مزيد من المواد المتاحة لهن خارج الجامعة، ما يعني أن استكمال تعليمهن أصبح مستحيلًا من الناحية العملية إذا استمر هذا الوضع. وبناءً على ذلك، كان من المفترض والمنطقي أن تتخذ الجامعة أحد خيارين على الأقل قد تقدمت بهما صوفيا وعرضتهما على الجامعة:

١. إما أن توسّع عدد المواد التي يمكن تدريسها خارج أسوار الجامعة للفتيات.
٢. أو أن تلزم الجامعةُ بعض أساتذتها بتدريس الطالبات مباشرةً كما يحدث مع الطلاب الذكور.

لكن للأسف، رفضت إدارةُ الجامعة اتخاذَ أي إجراء من شأنه تخفيف هذه الأزمة أو معالجة العقبات التي تواجهها الطالبات، وأظهرت رفضًا قاطعًا لتقديم أي نوع من أنواع المساعدة لهن.

وقد أُعيدت مناقشة هذه القضية في اجتماع لاحق لـ «مجلس الجامعة» عُقد في أواخر شهر أكتوبر من نفس العام. وخلال هذا الاجتماع، تحدث الدكتور «ألكسندر وود» (Alexander Wood)، وهو أحد أعضاء المجلس، مدافعًا عن حقوق الطالبات، وأكد أن «الجامعة ملزمة — من منطلق الشرف والعدالة — بأن تمنح هؤلاء النساء، اللاتي بدأن بالفعل مسيرتهن العلمية، فرصةً حقيقية لاستكمال دراستهن دون عوائق مصطنعة أو تمييز قائم على النوع».

كما صرّحت مجلة «ذا لانسِت» (The Lancet) الطبية، والتي تُعد واحدة من أعرق المجلات العلمية في بريطانيا والعالم، بخصوص ما يحدث داخل الجامعة، بقولها:

> هذا هو بالضبط الموقف الذي تمسّكنا به دائمًا بشأن هذه المسألة؛ ونأمل أن يقوم «المجلس العام للجامعة»، من خلال تبنّي اقتراح الدكتور «ألكسندر وود»، بوضع حدّ لهذا الجدل الذي أساء كثيرًا إلى سمعة تلك الكلية.

وقد ألقى الدكتور «وود» خطابًا شجاعًا وفعّالًا، دعمه فيه بقوة السيد «ألكسندر نيكولسون» (Alexander Nicolson). وعند معارضة الاقتراح، وقف الأستاذ «تيرنر» (Turner) بدهاء كبير، واقتبس من رسالة صوفيا إلى عميد كلية الطب قبل عامين، وهي رسالة، من النظرة الأولى، بدت أضعف نقطة في قضيتها — الرسالة التي أعربت فيها عن استعدادها «لقبول أي شروط أو تحفظات ترونها مناسبة، بل وحتى سحب طلبي تمامًا إذا تبيّن بعد تجربة كافية أن الاستمرار في هذه الفرصة التي أطلبها الآن أمرٌ غير ممكن.»؛ وبالطبع، لم يكن أحد الحاضرين

على دراية كافية بالحقائق للردّ. وما حدث هو أن اقتراح الدكتور «وود» رُفض بفارق ١٠٧ أصوات مقابل ٩٧.

ولم تتح لصوفيا الفرصة لتوضيح الأمر إلا بعد ذلك، من خلال أعمدة صحيفة (The Scotsman) — لتبيّن أن الرسالة المذكورة كانت تشير فقط إلى الاقتراح التجريبي بأن تحضر، وحدها ودون تسجيل رسمي في الجامعة، دورات الأستاذ «بالفور» والبروفيسور «ألمن» (Allman) الصيفية. وقد رفضت الجامعة هذا الاقتراح، وقالت: «سنؤجل الموضوع بأكمله حتى يتم التوصل إلى خطة دائمة وتُقرّ رسميًا من جميع السلطات المختصة»، — وهو ما تحقق أخيرًا بعد ثمانية أشهر من الدراسة والتأخير. فتلك الرسالة لا علاقة لها بدراستها الرسمية في الجامعة.

ولكي أزيد الأمرَ مزيدًا من التوضيح، فقد جاء الأستاذ «تيرنر» برسالة صوفيا الأولى للجامعة التي قالت إنها تقبل بأي شرط تراه الجامعة مناسبًا، لكن هذا الطلب لم يكن تقديمًا رسميًا للجامعة وقد تم رفضه بالفعل. وما كان من صوفيا إلا أن قامت بنداء للنساء في بريطانيا، لتعيد التقديم للجامعة مرة أخرى وفق شروط أخرى باعتبارها طالبة مسجلة رسميًا. فما أتى به الأستاذ «تيرنر» موهمًا الناس بأن ذلك شروط صوفيا نفسها، هو في الحقيقة طلب أولي قد تم رفضه ولا يخص الدراسة الكاملة التامة في الجامعة.

وهذه مجرد حالة — من مئات — تُظهر قدرة صوفيا الفريدة على دحض الادعاءات التي تبدو في ظاهرها صحيحة من خلال الاستشهاد الدقيق بالوقائع. وكانت تلك القدرة سببًا في جعلها تكتسب خصومًا أكثر من الأصدقاء مع مرور الوقت. ويجدر التنويه إلى أنه، لولا كرم الصحافة، لما تمكّنت من تصحيح مثل هذه الادعاءات على الإطلاق. كتبت صوفيا:

> لتلخيص الأمر كله في كلمة واحدة، أجرؤ على القول إنه، بدلًا من المعاناة اليومية التي واجهناها خلال العامين الماضيين، والوضع المسدود الذي وصلنا إليه الآن، لكنا وجدنا أمامنا طريقًا ممهّدة، دون صعوبات من أي طالب أو أستاذ، لو أن الدكتور «كريستيسون» التزم بالوعد الذي قطعه لي في نهاية لقائي القصير معه — الذي لم يتجاوز الدقيقتين — قبل عامين: «سأصوّت ضدك، لكنني لن أتخذ أي إجراء لمعارضتك.»

ومرة أخرى، أعربت مجلة (The Lancet) عن احتجاج نبيل لموقف الجامعة المخزي هذا، فقالت:

> لقد خرجت كلية الطب بجامعة إدنبرة بصورة سيئة من مأزقها مع الطالبات. فقد تم رفض اقتراح الدكتور «ألكسندر وود»، الذي أشرنا إليه الأسبوع الماضي، بأغلبية عشرة أصوات. وكما أشرنا آنذاك، فإن القضية أمام المجلس العام لم تكن

أكثر ولا أقل من هذه: الحفاظ على العهد مع الطالبات اللواتي سمحت لهن الجامعة بمتابعة عامين من المنهج الطبي.

لم يُطلب من المجلس أن يُلزم نفسه بأي رأي، مؤيدًا أو معارضًا، بشأن قبول النساء في المهنة الطبية. كان المطلوب فقط، من باب المجاملة، لا بل من باب العدالة، أن يُعترف بما نصحت به أوضح النصائح القانونية: أن للطالبات الحق في مواصلة دراستهن التي قطعن فيها نصف الطريق نحو التخرج. فهل يُعقل هذا؟ تمّ تمرير تعديل يقضي بتأجيل تسوية المسألة حتى يتم النظر فيها رسميًا من قِبل سلطات الجامعة؛ وكأن هناك متسعًا بعد لمزيد من «الاعتبارات»! وهكذا، تقف جامعة إدنبرة مدانة بأنها تصرّفت بظلم تجاه سبع سيدات، قبلتهن أولًا كطالبات، ثم أوقفت مسيرتهن في منتصف الطريق.

وقد توالت الحركات المضادة للطالبات في تسارع مذهل في هذا الوقت. ففي غضون أسبوعين، بدأ البروفيسور «مويرهيد» يضغط على المجلس لإلغاء اللوائح التي تسمح بقبول النساء في الجامعة، فلا تقبل الجامعة أية طالبات بعد ذلك، مع استثناء مَن سبق لهن الالتحاق؛ وتم تمرير ذلك بفارق صوت واحد — ١٤ لصالح و١٣ ضد. لكن ثمانية عشر أستاذًا نهضوا في غضب للاحتجاج على هذا القرار، وبما أن خمسة عشر فقط من أصل خمسة وثلاثين أستاذًا دعموا القرار، فقد أكدت محكمة الجامعة (University Court) على لوائح نوفمبر ١٨٦٩، وظلّ كل شيء كما كان عليه.

وفي هذه الأثناء — بالإضافة إلى محاضرات الطالبات السبع — كان لا بد من ترتيب محاضرات لثلاث طالبات جديدات التحقن بالجامعة. ويُرجّح أن هذا هو السياق الذي تلقت فيه صوفيا الرسالة التالية من الدكتور «تيت» (Tait) أستاذ الرياضيات الشهير:

السيدة العزيزة، كما أنكِ ربما تعلمين بالفعل قبل استلامك هذه الرسالة، فقد فشلت تمامًا في محاولاتي لإقناع زميلي بوجهة نظري في المسألة المطروحة. يمكنني أن أذكر لكِ أن انطباعي الشخصي، المستند إلى محادثات متعددة مع عدد من أبرز معارضيك، هو أنهم لا يعارضون كثيرًا منحك — أو على الأقل ترتيب وسيلة لمنحك — التعليم الذي تطلبينه، **شريطة أن يُطلب الأمر على أنه تفضّل لا على أنه حق** — بعبارة أخرى، أظن أن الكثير منهم حريصون على تجنب خلق ما قد يُعتبر سابقة. أقدّم لكِ هذا الكلام بسرّية، وكأنه مجرد انطباع، لكني لا أشك كثيرًا في أنه على الأقل قريب من الحقيقة.

كانت تلك رسالةً صادرة عن رجل حكيم، تحمل في طيّاتها إدراكًا دقيقًا لطبيعة الصراع؛ إذ جاء فيها أنّ المعارضين لا يرغبون في منحكِ الشهادة على أنها فرضٌ مستحق، بل إنهم، إن

فعلوا، فلن يكون ذلك إلا على سبيل التفضّل والمنة، تكرّمًا لا اعترافًا، وتلطفًا لا التزامًا. أما الحق، فلا يرونه لكِ، ولا يرونه واجبًا عليهم.

وربما، من منظور التكتيك القريب والنتائج الآنية، لكان من الأجدى للقضية لو أن صوفيا أخذت بهذه النصيحة وسارت على هديها. غير أنّ ردّها على تلك الرسالة لم يصلنا، لكن ما نعلمه يقينًا أنها لم تكن مستعدّة لأن تتحمّل ما ينجم عن قبول تلك الطريق الملتوية. فقد سبق لامرأتين أن نالتا القبول «من الباب الخلفي»، تسلّلن إليه دون اعتراف صريح بمكانتهن، لكن ذلك لم يكن قطّ ما تطمح إليه صوفيا.

كانت، على الرغم من شغفها العميق بأن تُقرن باسمها عبارة «دكتورة في الطب»، مستعدة بطبيعة الحال لأن تتنازل عن هذا الحلم الجليل، لو كان في ذلك فتحٌ للباب أمام جميع النساء. كانت رؤيتها أوسع من طموح شخصي، وأسمى من لقب فردي. فلا بأس إن لم تنل هي الشهادة، ما دام الباب يُفتح على مصراعيه لمن سيأتين بعدها من ملايين النساء.

******

قبل عام من التاريخ الذي بلغناه، كان «روبرت لويس ستيفنسون» (Robert Louis Stevenson) الذي كان طالبًا في ذلك الوقت، وصار من أشهر الكتاب والروائيين فيما بعد، قد كتب في رسالة إلى ابن عمه يقول فيها:

> لعلك تعرف كيف قُوبلت حقوق المرأة مؤخرًا من بعض زملائي الطلاب، فقد تعرضت الطبيبات من الطالبات لصيحات الاستهجان والصفير والدفع حتى تدخلت الشرطة. وجهة نظري محايدة جدًا. أعتقد حقًا أن الآنسة «جيكس-بليك» وبقية زميلاتنا الطالبات هنّ طليعة جيش نبيل، من الرواد، كـ «كولومبوس» ومَن شابهه. ولكن في الوقت نفسه، تلعب الآنسة «جيكس-بليك» على وتر تقدير الأجيال القادمة. فلتظفر هي بشرف نيل التقدير من الأجيال القادمة، ولكنني لن أتزوج بها، ولا بزميلاتها. فلتتزوجهنّ الأجيال القادمة.
>
> وأخيرًا أقول لك: إن وقعت هذه الرسالة في يد الأجيال القادمة، وتم إنشاء كلية طب للنساء ذات يوم، فأظنهم سوف يحرقون تمثالي أمام باب هذه الكلية.

لسوء ظن السيد «روبرت ستيفنسون» فقد تزوجت ثلاث طالبات من أصل السبعة، ولم ينتظرن الأجيال القادمةَ للزواج منهن.

لكنه قال كذلك إن هذه الرسالة لو وقعت في يد الجيل القادم، ونجحت حركة تعليم النساء في المستقبل، وتم إنشاء كلية طب خاصة بالنساء، فإنهم سوف يحرقون تمثاله أمام كلية الطب تلك. لكنني لا أعلم أحدًا حرق تمثاله أمام كلية طب للنساء، ولئن قصّرت الأيام في تحقيق نبوءته، فإني — وفاءً لما سخر به — أعزم أن أطبع صورته، ثم أمضي إلى بوابة كلية الطب بجامعة إدنبرة، وأحرقها هناك، حتى لا يُقال إن نبوءة «ستيفنسون» ظلت أضغاث أحلام لم تجد من يُجسّدها!

قلنا إن ثلاث نساء قد تزوجن، فالسيدة «هيلين إيفانز» التي كانت صوفيا تدرسها الرياضيات استعدادًا لامتحان القبول في الجامعة، كانت قد تزوجت من رئيس تحرير مجلة (The Scotsman) السيد «ألكسندر راسل» كما ذكرنا. أما السيدة «ماتيلدا تشابلن» (Matilda Chaplin) فقد تزوجت من ابن عمها، أحد علماء الفيزياء السيد «وليام إدوارد أيرتون» (William Edward Ayrton). وأما السيدة «ماري أندرسون» فقد تزوجت من السيد «كلود مارشال» (Mary Anderson).

خسرت الحركة النسائية ثلاث طالبات، لكن في الوقت نفسه كان ثلاث طالبات مستجدات قد التحقن بالجامعة، فظل مجموع الطالبات في جامعة إدنبرة سبع طالبات، أربع طالبات من السبعة الأوائل، وثلاث طالبات التحقن بالجامعة مؤخرًا. وكانت هذه ضربة موجعة لصوفيا، فكثيرًا ما جادل المعارضون لتعليم النساء بأن الطب لا يصلح لهن، وها هن يتركن التعليم والطب والجامعة، ويتزوجن وتنتهي آمالهن. صحيح أن اثنتين من الطالبات الثلاثة لم يتركن الطب أبدًا، وكان مستقبلهن في المجال الطبي بعد ذلك، بل حصلت إحداهن على بكالوريوس الطب، إلا أن أحدًا لا يعلم الغيب إلا الله. وكان في خروجهن من الجامعة وزواجهن ضربة موجعة، وفرحًا شديدًا للمعارضين.

وكانت هناك محاولات حثيثة للزواج من امرأة رابعة، لكن لا يُعلم تحديدًا من هي، ربما السيدة «إيديث بيتشي» أو صوفيا، فقد وُجدت قصاصة مُرسلة من أحد الطلبة إليهن، نصها ما يلي:

> عندما دخلتُ قاعة التشريح ورأيتكِ جالسةً هناك تقطعين الأجساد، استحوذ عليّ إحساس طاغٍ هزمني تمامًا. وعندما تحدثت إليكِ ونظرتِ إليّ لتجيبي، كانت النظرة التي منحتِني إياها هي الضربة القاضية! — قررت حينها في داخلي أن أسعى إليك لتكوني زوجتي... ولكن رؤيتك كما كنتِ حينها، بذلك الجمال الفائق، تعملين بهذه الشجاعة، وبهذا التعقل، — وقد تنحت الأزياء والسطحية والحماقة جانبًا، — كان المنظر بالنسبة لي جديدًا للغاية، وغريبًا للغاية، ورائعًا للغاية،

حتى إنني، عند التأمل فيه وإعادة التأمل، لا أتعجب من نفسي لإلقائي الحذر المعتاد جانبًا لأخطف جوهرة بهذا البريق الاستثنائي.

الله وحده يعلم مَن أرسل هذه الرسالة، والله وحده يعلم مَن هي الطالبة المقصودة بها، لكن الحمد لله أنَّ قلبَها ما لان ولا بادلته رسالةً أخرى، وإلا فقد كانت الحركة ستفقد طالبةً رابعة.

كان لا بد من تجاوز هذا الأمر سريعًا، فإن القضية لا يجب أن تتوقف لابتعاد شخص أو اثنين أو ثلاثة منها، القضية أهم من الأشخاص، ولا بد من العمل على جهتين: الأولى: يجب أن تستمر المعركة في إدنبرة بطاقةٍ لا تضعف، وكأن النجاح أمر مفروغ منه، وكأن أحدًا لم يترك الجامعة. الثانية: يجب إجراء كل استقصاء، في غاية السرية والحذر، عن حل أكثر فعالية لاستكمال الدراسة في مكان آخر.

أرسل الدكتور «جيمس ستيوارت» (James Stuart)، وكان أستاذًا في الهندسة في جامعة كامبريدج رسالةً إلى صوفيا قال فيها:

> عزيزتي الآنسة «جيكس-بليك»، لقد أراني السيد «سيدجويك» في صحيفة (The Scotsman) إشعارًا يُفيد بأنهم يحاولون منعكِ من دفع الرسوم في إدنبرة. هل يبذلون جهدهم الأخير لرفضكِ؟ وهل سينجحون؟ وإن كان كذلك، فهل لديكِ خطة بديلة للتحرك؟
>
> يرجى إعلامنا، فقد تشاورت أنا والسيد «سيدجويك»، وقررنا أننا سنبذل كل ما في وسعنا الآن لقبولكِ هنا في جامعة كامبريدج، ونحن مستعدون للبدء، إن كنتِ ترين أن هذا هو أفضل خيار أمامك، وإن كنتِ في حاجة إليه. دعينا نعلم إذًا.
>
> نحن واثقون إلى حد كبير من النجاح النهائي هنا فيما يخص قبول النساء للانتفاع الكامل من مزايا الجامعة.
>
> مع ذلك لا نعلم كم سيكون هذا «النجاح النهائي» بعيدًا. لسنا متفائلين بالنجاح في قضيتك في الوقت الراهن. ومع ذلك نرى أن المحاولة تستحق العناء، إن كانت ستفيدك بشكل جوهري.

ليت مسيرة النضال كانت أن تقف هنا: لو أن الجامعة وافقت على منح النساء ذلك الحيز الصغير الذي يطمحن إليه على جدارها الوعر؛ أو، إن لم تفعل، لو أن جامعة أخرى مستنيرة قالت: «تعالين إلينا!» — لكانت الحكاية أطيب كثيرًا في سردها. لكن الحياة لا تسير كذلك. الانتقال إلى جامعة أخرى في تلك المرحلة كان سيعني ببساطة بدء المعركة من جديد؛ وإدنبرة كانت لطيفة

للغاية، بيتًا حانيًا، بجيشها الكبير من الأصدقاء، وكثير منهم كان مؤمنًا بأن النصر قريب المنال، فكان الدافع للبقاء كبيرًا رغم كل شيء.

وفي الأثناء، كانت البطلة قد أُنهكت بعد نضال استمر قرابة ثلاث سنوات، وبدأت تشعر بالإعياء من الصراع؛ فقد فقدت شيئًا من الحماس الذي كان يحملها حتى الآن. لكنها لم تكن تفكر أدنى تفكير في الاستسلام. لقد أدى الترويج المستمر، والتنظيم، والكتابة، إلى صقل قدرتها الفطرية في إدارة الأعمال حتى بلغت الذروة، وجعلها ذلك أقل تسامحًا مع كسل الآخرين.

«قضيتكِ لا بد أن تنتصر»، قال لها الدكتور «توماس جُثري» (Thomas Guthrie) أستاذ العقيدة في الجامعة، في تلك الفترة؛ «ولكن النصر قد يُنتزع بثمنٍ فادح، قد يكون النصر ثمنه حياة.» فأجابته، وعيناها لا تعرفان التردّد: «أعلمُ ذلك، وإني لَمستعدّةٌ أن أهب القضيةَ حياتي عن طيبِ خاطر.»

كان لزامًا عليها أن تتهيأ، فالعام الجديد قد أطلّ، واقترب موعد الاجتماع السنوي للمساهمين في المستشفى الملكي. ومضى عامٌ كامل، وها هي تستعدُّ لتكرار المحاولة من جديد؛ تسعى لانتخاب من يناصر قضية النساء، عسى أن يُفسَح لهن المجال في التدريب داخل المستشفى. كان عليها أن تعيد الكرّة مرّة أخرى، أن تطرق الأبواب ذاتها، وتُقنع العقول ذاتها، وتستنهضهم ليصوّتوا لصالح النساء مرّة أخرى. ما فعلته في العام المنصرم، بات لزامًا أن تعيده بحذافيره، وربما بجهدٍ أعظم وعزيمة أشدّ، كأنما الزمن يعيد نفسه، لكنها لا تملك إلا أن تمضي فيه بكل ما أوتيت من صبرٍ وقوة. وفي ليلة رأس السنة، كتبت في مذكراتها تقول:

> الأحد، الحادي والثلاثون من ديسمبر. لقد فرغتُ من كتابة الفقرات وأتممتُ المقال على أحسن وجه، ثم شددتُ الرحال إلى مقرّ جريدة (The Scotsman). يا إلهي، كم أتمنى أن تمضي الأمور غدًا كما أشتهي! وكم يضطرم في صدري شوقٌ إلى النصر! لدينا من الأصوات ما يبلغ مئتين وستةً وتسعين، يكاد يكون نصرًا موعودًا، لا محالة من النجاح.
>
> والآن، آن أوان الوداع: «ودّعوا القديم، واستقبلوا الجديد»، قولٌ يتردد على الألسنة مع مطالع العام الجديد، وليت شعري لو يصدق هذا القول في وجوه حياتنا، فيُقال: «ودّعوا الهمّ الذي يكدر الخاطر»، و«استقبلوا السكينة والحرية»، و«ودّعوا شقاء العناء». آه، ما أحوج القلب إلى عامٍ يُبدد فيه عناء السنين، ويبدله طمأنينةً وسلامًا!

وفي اليوم التالي، عُقد الاجتماع الكبير، وهذه المرة تم حجز قاعة كبيرة لهذا الغرض. وكما في السابق، تم ترشيح ستة مرشحين من المعارضين لحقوق النساء، وستة من أنصار

النساء. ونودّ أن نُعيد إلى الأذهان أنّ «لجنة تأمين التعليم الطبي للمرأة في إدنبرة» كانت قد أعلنت استعدادها الكامل لتغطية جميع النفقات اللازمة لتخصيص الأسرَّة وتأمين ما تحتاجه النساء من موارد، دون أن تتحمّل المستشفى درهمًا واحدًا من التكاليف. وقد جرى توضيح هذا الأمر بجلاء للمسؤولين الجدد في إدارة المستشفى، فلا يبقى لهم عذرٌ يتعلّلون به. فالفتيات قد قبلن بالتدريب المنفصل، واللجنة التزمت بتوفير المال كاملًا، فأين المانع بعد ذلك؟

أشار البروفيسور «كريستيسون» إلى أن ٨٠ سريرًا بتكلفة ٤٠ جنيهًا إسترلينيًا للسرير، ستكون أحد البنود التي ستؤخذ في الحسبان. وعندما عُدّت الأصوات، كانت النتائج كما يلي: لصالح النساء: ١٧٧، لصالح المعارضين: ١٦٨. «وقد قوبلت النتيجة بهتافات عظيمة وتلويح بالمناديل من طرف السيدات.»

تقدّم البروفيسور «ماسون» بالاقتراح الآتي: «أن يُسمح من الآن فصاعدًا لجميع طلاب الطب المسجلين بالانتفاع بالمزايا التعليمية للمستشفى الملكي دون تمييز على أساس الجنس، — على أن تظل كافة تفاصيل الترتيبات خاضعة لتقدير الإدارة.»

وقد أثار الحزب المعارض اعتراضًا على ذلك بحجة عدم كفاية وقت الإشعار — رغم أن البروفيسور «ماسون»، في الواقع، قد نشر الإعلان في الصحف العامة كما يُفترض — ومع فوضى لا توصف، بقي مقترح المشروع ثابتًا في موقفه، مدعومًا بكفاءة من البروفيسور «كالدوود» (Calderwood) ومن النائب «مكلارن». وعندما اتضح أنهم سينتصرون، نهض الطرف المعارض وغادر القاعة بأكمله تقريبًا؛ وكان ذلك هو الوقت الذي ألقى فيه الدكتور «جُثري» (Guthrie) ما سيكون آخر خطاب علني له (إذ تُوفي بعدها بشهر واحد)، دعمًا لمقترح البروفيسور «ماسون». وعند ختام خطبته، ومع تلويحة بيده نحو الباب الذي انسحب منه الجمع المعارض، اختتم بنفس كلمات القصيدة التي كتبتها صوفيا في مذكراتها بالأمس: «ودّعوا القديم، واستقبلوا الجديد... ودّعوا الزيف، واستقبلوا الحق!»

ثم طُرحت المذكرة للتصويت، وتم إقرارها بالإجماع.

انهالت على صوفيا رسائل الترحيب، فأخيرًا سمح لهن بالتدريب في المستشفى الملكي، وأخيرًا سيدرس الجميع في المستشفى الجامعي دون التمييز بين ذكر وأنثى، فكونك (طالب) في الجامعة كفيل بأن تأخذ حقك في التدريب دون النظر إلى جنسك. كان هذا نصرًا عظيمًا بعد فشل في العام السابق، وجاءتها المباركات والرسائل والدعم من جميع أنحاء بريطانيا، ومن ذلك كانت رسالة من محامٍ كان قد عارض بشدة فكرة الفصول المختلطة كتب قائلًا: «لأجلكِ، سأجعل أول صدقة أقدّمها هذا العام لصالح المستشفى الملكي.» ولم يكن أحد أكثر حماسًا من الشاب الذي كان مشرفًا على قسم التشريح وقت أحداث الشغب فكتب يقول: «يكاد أن يكون من السخرية أن أتمنى لكم عامًا جديدًا سعيدًا بعد هذا النجاح. إن الأمر كفيل بأن يُذهل العقول، لكن فقط، على

ما أظن، تلك العقول التي انهالت عليها الضربات في الهزيمة، أو بالأحرى في الرفض، وليست العقول التي تأبى إلا أن تنتصر.»

كتبت صوفيا تقول:

> الدكتور «بالفور» خصص لنا ساعة منفصلة في أجنحته ثلاث مرات أسبوعيًا، ومقدارًا من الفرص للدراسة العملية بحسب ما أمكن ترتيبه من حين لآخر. وكانت ممارسات الدكتور «واتسون» واسعة للغاية، كونه الجراح الأشهر في إسكتلندا، لدرجة أنه كان من المستحيل عليه، مهما بلغ العناء، أن يكرر زيارته بهذه الطريقة، وكان خصومنا سيحققون مرادهم، لولا أنه، بلطفٍ أعجز عن التعبير عنه، خصّص لنا جلستي صباح الأحد في فصلين شتويين كاملين (وهذا هو يوم راحته الوحيد) لتعليمنا، رافضًا رفضًا تامًا أن يتقاضى أي أجر على هذا التفاني بوقته وجهده. لم تُقدَّم أعمالٌ بهذه الرجولة والفروسية إلا قليلًا، وأتمنى فقط أن يكون قد وجد مكافأته في امتنان اثنتي عشرة امرأة مدى الحياة، كنّ حينها غير معتادات على مثل هذه اللطافة والكياسة التي أبداها.

صارت صوفيا في هذا التوقيت شخصية مشهورة للغاية، ووصل صيتها إلى طبقات المجتمع كلها، من سائقي الأحصنة حتى الوزراء. «الآنسة صوفيا أقامت في ذلك البيت العام الماضي»، قال سائق إحدى عربات المرتفعات، مشيرًا بسوطه إلى المزرعة التي أقامت فيها.

أما المقطع الآتي فهو مقتبس من رسالة كتبها شخص غريب تمامًا — من عامة الناس، على ما يبدو — وهو نموذج من بين رسائل كثيرة كانت تنهال على صوفيا خلال تلك السنوات.

> سيأتي يوم تجلس فيه النساء جنبًا إلى جنب مع الرجال في دورة دراسية مدتها ستة أشهر في علم التشريح، وعلم وظائف الأعضاء، والتوليد، وما إلى ذلك، بكل شجاعة وقوة، دون سخرية، أو ازدراء، أو غمز، ولمز، أو تطفّل... إذا فقط تمكنت بعض الشخصيات الهامة من رؤية الأمور بوضوح. نعم، وسيسرن في المستشفيات — الجراحية والطبية — ومستشفى الولادة أيضًا، ومستشفى العيون، ومصحة السرطان، ومصحة السل. وعندها ستكون تلك العقبات البيروقراطية المعرقلة قد بادت، وتفككت، وتعفنت — ونُسيت — وبيعت كتاباتهم بنصف قرش للكيلو الواحد.

******

رغم أن الطالبات قد أحرزن هذا الانتصار البارز، إلا أنّ الأفق داخل الجامعة ظلّ قاتمًا لا يحمل بشائر تُذكر؛ فلا تزال الأبواب موصدة أمامهن في طلب مواد إضافية، ولا رغبة لدى الجامعة في توفير أساتذة خاصّين بهن، بل إنّ مجرد التفكير في نيل شهادة التخرّج لا يزال حلمًا معلّقًا في الهواء. فالجامعة تكتفي بتدريسهن، لكنها لم تلتزم — لا قولًا ولا فعلًا — بمنحهن حقّ التخرّج.

وهكذا، يبقى الخطر ماثلًا بأن يتحوّل كل ما بُذل من جهد إلى سراب، إذ لا أمل حقيقي في التخرّج ضمن الوضع الحالي، ما لم يُكسر هذا الجمود وتُنتزع الحقوق انتزاعًا.

وفي هذه الأثناء، كانت صوفيا، بالنيابة عن نفسها وزميلاتها، قد قدّمت نداءً نهائيًا إلى محكمة الجامعة تطلب فيه أن تُمنح الوسائل اللازمة لاستكمال تعليمهن؛ كما أحالت إليهم رأيًا قانونيًا إضافيًا من «النائب العام» والقاضي الإقليمي «فرازر» (Sheriff Fraser)، مفاده أن سلطات الجامعة كانت تملك كامل الصلاحية للسماح بتسجيل النساء عام ١٨٦٩؛ وأن القرارات التي صدرت آنذاك ترقى إلى مستوى الإذن للنساء بـ «دراسة الطب» داخل الجامعة، وبالتالي فإن النساء المعنيات يحق لهن المطالبة بوسائل تحقيق ذلك؛ وأخيرًا، إن تم رفض هذه الوسائل باستمرار، فإن الطريق القانوني للتعويض يكمن في إقامة «دعوى إثبات الحق» (Action of Declarator). وهي نوع من الدعاوى القانونية يُرفع إلى المحكمة بقصد الحصول على حكم يقرّ أو يثبت حقًا قانونيًا معينًا، من غير أن يُطلب بالضرورة تعويض أو إجراء تنفيذي مباشر. الغاية منها هي الحصول على اعتراف قضائي صريح بوجود ذلك الحق أو الصفة.

وفي ٨ يناير، قضت محكمة الجامعة بأنه ليس في وسعها الاستجابة لمتطلبات النساء من جهة التعليم؛ وقالت إن المسألة بأسرها قد «تعقّدت بإدخال موضوع التخرج، الذي لا يُعدّ ضروريًا لاستكمال التعليم الطبي أو غيره»: وإن كانت السيدات مستعدات للتخلي تمامًا عن مسألة التخرج، والاكتفاء بشهادات الكفاءة، فإن المحكمة ستسعى للاستجابة لوجهة نظرهن. «لقد نسوا»، تقول صوفيا، «أن الشهادة، وإن لم تكن «ضرورية» لدراسة الطب، فهي ضرورية لأي ممارسة قانونية لمهنة الطب.»

لقد عرضت صوفيا، مع ذلك، أن تتنازل عن مسألة التخرج، ريثما يُبتّ في أمر صلاحيات الجامعة وواجباتها بقرار رسمي — إن أمكن تدبير ترتيبات تتيح للنساء مواصلة تعليمهن. وقد وافقت المحكمة على هذا. لكن المراسلات اللاحقة كشفت أن المحكمة لم تكن تنوي اتخاذ أي قرار بشأن صلاحياتها، ولا كانت تعتزم اتخاذ أي خطوة فاعلة في الموضوع. تقول صوفيا:

> من جهة أخرى، لم يكن لدينا سند أقل من رأي النائب العام لإسكتلندا لنؤمن بأن لنا الحق الكامل فيما طلبناه بكل تواضع، وبأن القانون سيمنحنا بهدوء ما بدا

مستحيلًا بوسيلة أخرى؛ كنا نتمتع بتعاطف واسع الانتشار ومتزايد من المجتمع عامةً، وتلقّينا عروض مساعدة مستمرة من الأصدقاء من كل نوع... في ظل هذه الظروف لم يبقَ أمامنا إلا أمر واحد نقوم به: فأقمنا «دعوى إثبات حق» (Action of Declarator) ضد «مجلس الجامعة» (Senatus)، نلتمس فيها الحكم بأن المجلس ملزم، بطريقة ما، أن يتيح لنا استكمال تعليمنا وأن يمنحنا شهادة طبية تخوّل لنا القيد في السجل الطبي بين الممارسين القانونيين لمهنة الطب.

وطبعًا، انتشر خبر هذه الخطوة الجريئة بسرعة، وتلقّت صوفيا رسالة احتجاج من الدكتورة «إليزابيث بلاكويل» (Elizabeth Blackwell) تحثّها فيها على عدم تبديد المال في دعوى قضائية غير مضمونة، يمكن استثماره بشكل أكثر نفعًا. وكان رد صوفيا كما يلي:

> الدكتورة العزيزة «بلاكويل»، أظن أن الشائعات نادرًا ما تنقل الأمور بدقة، لذا لا أتعجّب من أنكِ قد وصلتكِ معلومات خاطئة عن الدعوى التي نحن على وشك رفعها ضد «مجلس الجامعة». فهي ليست دعوى تبديد حق (ما أكثر ما ستهزأ بها مجلة Punch لو كانت كذلك!) بل دعوى إقرار بسيطة نلتمس فيها من أحد قضاة المحكمة أن يحكم بأن المجلس مُلزَم باستكمال تعليمنا، استنادًا إلى الرأي الصريح الصادر عن النائب العام لإسكتلندا. وفي هذا الحيز الضيق من الرسالة، يستحيل عليّ أن أعرض عليكِ كل الوقائع والأسس التي بُنيت عليها نيتنا، مع أنني سأسعد جدًا بشرحها لكِ بالتفصيل لو كنتِ معنا، وستُسرّين أن تعلمي أن جميع الطالبات هنا يشاركنني هذا الرأي، وأن عزيمتنا تعززها نصائح بعض أرجح العقول في إدنبرة، بما فيهم أساتذة مؤيدون. وآمل أن تصدّقي، رغم بعدكِ عن ميدان الفعل، أنكِ لو كنتِ مطّلعة على الوقائع كما نحن، لكنتِ وافقتِ على خطوتنا. وإنما لأنني أجد أن أصدقاءنا في لندن غير مطلعين كفاية على الوقائع، آمل أن أقدّم محاضرة توضيحية هناك الشهر القادم، ولن أحتاج أن أقول كم سأكون سعيدة بمقابلتكِ وتقديم كل الشروح لكِ، أنتِ التي نكنّ لكِ نحن الطبيبات كل الامتنان والتقدير بصفتكِ رائدة وممهدة طريق.

الآن وقد بات هناك أمر ملموس يجب فعله، عادت صوفيا إلى عنصرها الطبيعي، وتُظهر الرسائل التالية بوضوح أن «مستشاريها» كانوا يعملون بحب صادق. كتب إليها أحد محاميها يقول:

> عزيزتي الآنسة «جيكس-بليك»، خشية أن أُلحِق العار بجنس الرجال كله، انكببتُ اليوم بكل طاقتي على إعداد ملف القضية، وقد بلغته إلى مرحلة أظن أنه لم يبق فيها ما يستحق الإضافة سوى البيان التاريخي والدفوع القانونية، وكلاهما

ستتوليانه أنتِ، وأعتقد أنه سيتم ضبطهما كما ينبغي. وإن أنهيتهما هذا المساء فسأرسلهما إليكِ. ظننت أنكِ على عجلة لرؤية ما أعددته، فأعطيت ما أنجزته للسيد «وايت ميلار» وأوصيته أن يرسله إليكِ. ويجب التمييز بينكِ وبين السيدات الأخريات المستعدات لأول امتحان مهني، وبين الأخريات غير المستعدات. لذا، أرجو أن تضعي ملاحظاتٍ على هوامش المسودة تبيّن من هنّ، والمراحل التي بلغنها.

كما أحتاج تواريخ وشروط القرارات والرسائل المذكورة في المقال الأخير، لأضمن أن يكون التسلسل الزمني دقيقًا ومتكاملًا. وأود، قبل أن يُحسم الأمر نهائيًا، أن أراجع كل المصادر المتاحة حول التخرج والقوانين الأصلية للجامعة، وأظن أنه إن كانت «جامعة بولونيا» هي نموذجنا، كما يبدو مفترضًا، فسيكون من المجدي التواصل مع أحد هناك، كأمين مجلس الجامعة، أو أمين المكتبة، للحصول على إحصائيات موثوقة.

رُفعت القضية، وتولى الدفاع فيها ببراعة القاضي السيد «فرازر» والمحامي السيد «مكلارين»، وكان قد شغل سابقًا منصب المستشار المساعد في قضية التشهير. كتب السيد «فرازر» إلى صوفيا يقول:

أنا واثق تمامًا بأنه عند إجراء بحث وتحقيق أعمق سيتضح أن النساء قد التحقن بجامعات أخرى وتخرّجن منها... عندما تكونين في لندن، ربما تراجعين بعض الكتب في المتحف البريطاني التي ذكرها السيد «واتس»، والتي لا توجد في مكتبة المحامين (Advocates' Library). لا حاجة لأن تتكبّدي عناء الرجوع إلى جامعة إدنبرة، فقد راجعتُ كامل سجلات المجلس والأساتذة منذ تأسيس الجامعة، ولم أجد حالة واحدة لامرأة كانت طالبة. وأخشى أن تكون النتيجة ذاتها ستتكرر عند فحص سجلات الجامعات الأخرى. وهذا أمر طبيعي، إذ حتى وقت قريب، كانت القوانين والعادات الاجتماعية في اسكتلندا، كغيرها من البلدان الهمجية، لا ترى في النساء سوى خادمات منزليات أو عاملات حقول.

وطبعًا، لم يكن من المجدي اقتراح المتحف البريطاني، فقد استنزفته صوفيا منذ وقت طويل. كما لم تكن تولي أهمية كبيرة للمعلومات المستقاة من المراسلات مع أمناء الجامعة الأجانب وأمناء المكتبات. فقد اختبرت ذلك المسار أيضًا. ولم يبقَ سوى أن تُرسل مندوبةً لفحص أرشيف الجامعات الإيطالية مبدئيًا، وهذا ما قررت فعله. وقد وجدت، في تلك الفترة، شابة مثقفة كانت إحدى المرضى لديها، وتُسبب قلقًا لأصدقائها، وبعد مراقبتها والاعتناء بها لبعض الوقت، أرسلتها صوفيا في هذه المهمة، مزوّدة إياها بالتعليمات التالية:

- في كل جامعة، احصلي — إن أمكن — على إذن بالاطلاع على الأرشيفات الرسمية وقوائم الطلاب، وأعدّي قائمة كاملة بكل امرأة درست هناك، بالتواريخ، والكلية، وسائر التفاصيل.
- إن لم تتمكني من الوصول بنفسك، فاطلبي من مسؤول رسمي إعداد القوائم، وإن أمكن، قارنيها بالأصول أو ببيانات أخرى.
- حاولي إن أمكن أن يوقّع أمين المكتبة أو أحد الأساتذة على القائمة، مُثبتًا أنها مستخرجة بالفعل من السجلات.
- سدّدي أي رسوم لازمة، إن أمكن مسبقًا.
- انسخي في دفتر واحد كل قائمة حصلتِ عليها، ودوّني اسم وعنوان كل من أعدّ أو صادق على القوائم، مع أي معلومات إضافية يحتمل أن تكون ذات قيمة.
- أرسلي القوائم الموثقة إليّ في رسائل مسجلة فور الحصول عليها، مع تحديد النسخة الدقيقة منها في دفتر المسودات تحسّبًا للضياع، وأرسلي رسالة منفصلة إلى الآنسة «إيديث بيتشي» لإعلامها بالإرسال.
- لا تتركي دفتر المسودات من يدك لأي سبب.
- أرسلي كل القوائم على ورق «فولسكاب» (foolscap) وليس على ورق أجنبي.

ويبدو أن السفيرة أدّت مهمتها بكفاءة عالية، وجمعت قائمة مثيرة للإعجاب من الأسماء. وعلى أي حال، فإن ذلك المسار كان قد استُنفد. وفي الأثناء، كان ملف القضية قد قُدّم كما ينبغي، وفي ٢٧ مارس اجتمع مجلس الجامعة للنظر في الإجراء الذي سيتخذونه حياله. وقد وصلنا من الآنسة «إيديث بيتشي» هذا التقرير غير الرسمي لما جرى:

> لم أستطع أن أحصل على تفاصيل اجتماع المجلس... فقد تأخرتُ في الكتابة ليلًا، لكن يبدو أن الاقتراح الأول كان بالدفاع ضد الدعوى؛ ثم اقترح الأستاذ «فليمنج جنكن» (Fleeming Jenkin)[١] محاولة تسوية ودّية. وقد رُفض هذا الاقتراح بأغلبية ١٧ مقابل ١٠، ثم طُرح اقتراح آخر بعدم الدفاع، وقد رُفض أيضًا بـــ ٢٢ مقابل ٥. كثير من أصدقائنا صوّتوا لصالح الدفاع، ومنهم «ويلسون». يقول إنه يرى أن الأمر لن يُسوّى بإنصاف أبدًا إلا بحكم قانوني. قابلته اليوم في مكتبه. هو شديد الحرص على أن توصي أحد الأعضاء بطرح سؤال حين يتم ترتيب منحة

١– لقد غمرتني البهجة حين وقفتُ على موقف الدكتور «فليمنج جنكن» (Fleming Jenkin)، إذ له في كلية الهندسة مبنى يحمل اسمه، كنتُ أرتاده لأحضر فيه محاضراتي وأُجري بين جنباته بعض التجارب العملية. ولَعمري، لقد كنت سأشعر بالأسى في كل مرة تطأ قدماي عتبته، لو أنه اتخذ موقفًا مخزيًا. أما الآن، وقد علمتُ بموقفه النبيل، فما إن أدخله حتى يزداد سروري ويزدان خاطري، إذ أستحضر موقفه المشرف وأحمده في سري، وأسأل الله أن يرحمه ويعفو عنه.

البرلمان. قال لي إن الطرف الآخر شديد الغضب من الدعوى، مما جعله يستنتج أن ملف قضيتنا قد صيغ ببراعة.

ومن جهة أخرى، كان هناك ستة أعضاء من المجلس — رغم أنهم قد يكونون راغبين في أن تُحسم هذه المسألة المرهقة بطريقة أو أخرى — لم يستطيعوا السماح بتمرير القرار دون احتجاج. وقد سُجِّل في كتب الجامعة المحضر التالي:

نحن نعارض ونحتج على قرار مجلس الجامعة الصادر في ٢٧ مارس ١٨٧٢، القاضي بالدفاع عن الدعوى. ونفعل ذلك للأسباب التالية:

(١) لأننا لا نرى أي مبرر عادل لمعارضة قبول النساء لدراسة الطب وممارسته؛ بل نرى، على العكس، أن النساء اللواتي رسمْنَ لأنفسهنّ هذا المسار النبيل من الحياة، يجب أن يُدعَمن وتُقدَّم لهنّ المساعدة في سعيهنّ الجدير بالإعجاب قدر الإمكان، من كل من يملك الوسائل، وخاصة من أصحاب السلطة في أي جامعة أو مؤسسة تعليمية أخرى؛

(٢) لأننا، على وجه الخصوص، نرى أن الدعم والتشجيع، لا المعارضة والإحباط، هما ما ينبغي أن نقدّمه نحن لمن التحقن بجامعة إدنبرة، ونحن نتفق تمامًا، في هذا الصدد، مع الرغبة التي عبّر عنها السير «ويليام ستيرلينج-ماكسويل» (Sir William Stirling-Maxwell)، عميد الجامعة، بأن يحصلن على ما طلبن: أي تعليم طبي كامل، يتوَّج بشهادة تخرج رسمية؛

(٣) لأننا لم نجد سببًا كافيًا للتشكيك في السلطات القانونية والدستورية لجامعتنا التي تخوّلها إجراء الترتيبات اللازمة التي ستكون ملائمة تمامًا لهذا الغرض، ونعتبر أن التشكيك العلني في هذه الصلاحيات، في ظل الظروف الحالية، من قبل الجامعة نفسها أو أي من هيئاتها، أمر لا ضرورة له، وغير حكيم، وقد يُفسَّر على أنه تنازل عن الحقوق الدائمة وامتيازات الجامعة من أجل تلافي أزمة مؤقتة؛

(٤) لأننا، وإن كنا لا نبدي رأيًا في المسألة المطروحة الآن بخصوص الحقوق القانونية التي اكتسبها المدَّعُون من خلال تسجيلهم في الجامعة، وقبولهم بالفعل لبعض الامتحانات، أو غيرها، والتي تتيح لهم المطالبة باستمرار التعليم الطبي وشهادة التأخر عند التأهل، فإننا نؤمن بأنهم، من خلال ذلك، وبموجب الطابع العام للإجراءات، سواء من المجلس أو من محكمة الجامعة، قد

اكتسبوا حقًا معنويًا، وخلقوا توقعًا عامًا، يتعيّن على الجامعة الوفاء به بكامل صلاحياتها، حتى إن تطلّب الأمر شيئًا من العناء؛

(٥) لأننا، على الرغم من تقديرنا الكبير لزملائنا الذين قد نختلف معهم في هذا الموضوع، سنشعر كلٌّ منا، بشكل فردي، بالخجل من أن نمثل كمدافعين في دعوى كهذه، ويجب أن نعتبر أي ظهور علني لنا بمظهر المعارضين للنساء اللواتي يردن دخول مهنة مشرّفة ومفيدة، أمرًا يسيء إلى سمعتنا.

سألت الآنسة «إيديث بيتشي» صوفيا قائلة: «هل أعلنتِ عن محاضرتكِ في مجلة (Lancet)؟ أتوقع أنكِ ستواجهين عددًا من الأطباء الأوغاد هناك نتيجة لذلك. لا تقيمي دعاوى تشهير، ولا تكوني قاسية على الطلاب. إنهم سيئون جدًا، لكنهم ليسوا سيئين كحال الأساتذة. أعلم أنكِ مشغولة جدًا بالكتابة وما إلى ذلك، وأنه سيكون هناك الكثير من النسخ لي إذا كنتُ موجودة. ألا تريدين من يَتنمَّر ويُتنمَّر عليه لأجلك؟ كم أتمنى لو كنت في الشرفة لأصنع لكِ وجوهًا وأرميكِ بالبازلاء!»

كانت رسالة مشجعة تحمل تحذيرًا وتعاطفًا لزميلة كبرى وصديقة، قُدمت بلباقة وخفة كما عهدنا بها دومًا.

في الخامس والعشرين من أبريل، وبعد بضعة أيام قضتها في الريف، توجهت صوفيا إلى لندن حيث التقتها الآنستان «دو بري» (Du Pre) و«مكلارين» (McLaren)، اللتان «استمعتا إلى المحاضرة وأتمّتا تنقيحها»، ثم ألقتها في اليوم التالي في قاعة «سانت جورج» (St. George's Hall) أمام جمهور كبير ومن كل الخلفيات.

وقد ترأس الجلسة «إيرل شافتسبري» (Earl of Shaftesbury)، مدعومًا بالأستاذ «لويس كامبل» (Lewis Campbell)، والقس الدكتور «مارتينو» (Martineau)، والسيدة «جاريت أندرسون» (Garrett Anderson)، والدكتورة «إليزابيث بلاكويل» (Elizabeth Blackwell)، وعدد من الشخصيات المعروفة الأخرى، ومن بين الحضور العام كان هناك عدد من صديقاتها في الفتيات، من بينهن الآنسة «آدا بنسون» (Ada Benson)، و«ميرندا هيل» (Miranda Hill)، وكثير من «النساء العصريات»، مع بعض من أبناء عمومتها. وفي سياق كلمته، قدّم الرئيس ملاحظة ذكية أثبت الزمن صوابها:

إن الحجة القائلة بأن النساء لم يكنّ مطلوبات في مهنة الطب بدت له غريبة جدًا. كان كبيرًا بما يكفي ليتذكر عندما لم تكن السكك الحديدية ولا البرقيات الكهربائية مرغوبة، ببساطة لأنها لم تكن معروفة. وعندما أصبحت معروفة ومُجرّبة، لم نعد نستغني عنها، وعلى الأرجح سيكون الأمر كذلك بالنسبة للنساء في مهنة الطب.

لقد كانت المحاضرة ناجحة من نواحٍ كثيرة، وقد نُقِلت على نطاق واسع في الصحافة؛ ولكن بالنسبة للمستمع العادي، فقد كانت مثقلة بالإحصاءات، وبهدف تجنب أي دعوى تشهير محتملة، فقد حافظت صوفيا على ضبط نفسها أكثر من اللازم. من الطريف أن نجد صحيفة (The Christian World) تُلمّح بأسف إلى أنها «لم تقم بردة فعل كما ينبغي ضد الظلم والضيق الذي تعرضت له صوفيا».

من ناحية أخرى، أعربت السيدة «بريسيلا برايت مكلارين» (Priscilla Bright McLaren) عن أمنيتها في أن تُلقى هذه المحاضرة في جميع أنحاء البلاد. فقد قالت إن نشر كتيب لن يكون له نفس الأثر، لأن معظم الناس لا يتحرك تعاطفهم إلا إذا واجهوا الشخص المُضطهَد وجهًا لوجه، فقالت: «لو استطعتِ أن يراكِ الناس ويسمعونك، فستُحدثين أثرًا عظيمًا لصالح القضية التي تحملينها في قلبكِ.»

وفي هذه الأثناء، استمرت الحملة الإعلامية والدعائية بوتيرة ثابتة، ولما كانت صوفيا قد تخلّت عن فكرة إلقاء المحاضرات في المدن الكبرى، فقد مضت قدمًا في أفضل بديل ممكن، وهو نشر محاضرتها بالتزامن مع أبحاثها التاريخية حول موضوع «النساء في الطب»، في كُتيب صغير. وكانت لا تزال تُشرف على طباعته حين وصلها نبأ مرض والدتها أرسلت إليها تقول:

> أمّي الحبيبة، أنا آسفة جدًا لسماع أنكِ تعرضتِ لنوبة أخرى. سأكون تعيسة جدًا لو لم أكن أؤمن وأثق بكِ أنكِ ستُرسلِين لي برقية إن كنتِ تتمنين وجودي، أو إن شعرتِ حقًا بتوعك خطير. هل أنا محقة في ثقتي هذه؟ أنا واثقة أنهم سيوفرون لكِ كل عناية ممكنة، وآمل أن تكوني طيبة وحكيمة بما يكفي لتأكلي كل ما يمكنكِ، بدءًا من المرق، ثم أكبر قدر ممكن من اللحم والخضار — والكثير من الفراولة! — هل نضجت الفراولة لديكم؟ أنتِ تعلمين أنني أعمل الآن في صيدلية، ولديّ عدة مرضى من مختلف الحالات لأعتني بهم، لكنني أغبط الطبيب الذي يعتني بأمي العزيزة بدلًا مني. إذا قررتِ عدم الذهاب إلى «ويلز»، فلتصعدي في الشمال إلى هنا، ولنقضِ شهرًا هادئًا معًا — في مكان ما من المرتفعات، إن اضطررتُ لترك «برايتون». بالطبع سأرسل لكِ نسختكِ الخاصة من كتابي الجديد، لكن الآنسة «بيتشي» سترسل أي عدد إضافي مما قد ترغبين فيه للتوزيع وما إلى ذلك.

لكن المرض، مع ذلك، سرعان ما اتخذ طابعًا خطيرًا، فجرى إرسال برقية إلى صوفيا للحضور في اليوم التالي. وعلى الرغم من أن صوفيا كانت هي نفسها مريضة إلا أنها ذهبت فورًا إلى والدتها، فكتبت تقول:

> لحسن الحظ كنتُ مستيقظة، وتلقيتُ البرقية في الساعة ٩:٥٠ صباحًا. حزمتُ أمتعتي وغادرتُ بقطار الساعة ١٠:٢٥. كانت هناك عواصف رعدية وبرق طوال

الطريق. وصلتُ إلى «بيتربَرة» نحو الساعة ٦:٣٠، وإلى مدينة «لين» عند ٩:١٥. استأجرتُ عربة وذهبتُ إلى مدينة «سوافام»، ومن هناك إلى مدينة «بايلاف»، حيث وصلتُ الساعة ٢:٤٥ صباحًا. تسللتُ إلى غرفة أمي... وإذا بها تقول: «عزيزتي!» — كانت قلقة ومضطربة، لكنها نامت وهي تمسك بيدي. آه، ما أفظع رؤيتها منكمشة بهذا الشكل في السرير، بالكاد تنطق — ظننتُها تحتضر. وقد كانت بالفعل على شفا...

لحسن الحظ، فإن شفاء والدتها هذه المرة جاء أسرع مما توقعه الأطباء. عادت صوفيا إلى إدنبرة في ٨ يوليو، في الوقت المناسب تمامًا. استُدعيت إلى حالةٍ مساء وصولها، ومضت مباشرة لتُنهي مراجعة كتابها الذي كان في طريقه إلى الطبع. وكانت شؤون قانونية عاجلة أيضًا تستدعي عودتها.

وفي يوم الأربعاء، ١٧ يوليو، انعقدت الجلسة التاريخية في الدعوى القضائية أمام القاضي اللورد «جيفورد» (Gifford). ينبغي أن يُفهم أن هذه الدعوى، رغم أنها كانت على درجة بالغة من الأهمية للنساء، لم تكن قضية درامية كما كانت القضية السابقة. فطبيعتها لم تكن تتيح مادة مثيرة للصحف المحلية. إنّ «دعوى إثبات الحق» (Action of Declarator) هي «لإصدار قرار يُحدد ويُعلن حق المدّعي»، وكانت الأوراق في المحكمة تُقدَّم عبر المحامين فقط.

كرّرت النساء طلباتهن المعتادة إلى الجامعة، ومفادها: أن على الأساتذة إما أن يقبلوا بهنّ كطالبات في صفوفهم، أو أن يُعيّنوا (أو يعترفوا بـ) محاضرين آخرين يقومون بذلك. أما الدفاع الذي يمثل الجامعة، فقد استند في جوهره إلى أمرين:

أولًا، أن جميع الأطراف المعنية لم تُستدعَ. وثانيًا، أن مجلس الجامعة (Senatus) لا يملك الصلاحية للقيام بما يُطلب منه؛ أي، بكلمات أخرى:

(أ) أن الجامعة كانت قائمة للرجال فقط.

(ب) أن السلطات الجامعية، عند قيامها بهذا التجرِبة، لم تكن تقصد أبدًا أن تسمح للنساء بالتخرّج. وإن كانت تلك نيتهم، فقد كانت خارجة عن صلاحياتهم؛ بل من المحتمل أنهم تجاوزوا سلطاتهم حين صاغوا اللوائح عام ١٨٦٩ التي أتاحت للنساء مشاركة الرجال في امتيازاتهم.

استغرقت جلسات النظر في القضية يومين، وقد وردت تغطيتها الكاملة في الصحف اليومية الأسكتلندية يومي ١٨ و١٩ يوليو. والكثير من الجلسات كان مجرد تفاصيل قانونية بحتة مما يمل منها القارئ العادي، لكن حكم اللورد «جيفورد» — الذي صدر بعد ثمانية أو تسعة أيام من انتهاء مرافعات المحامين — تميز بإحاطة تامة بكامل القضية، وبحرارة إنسانية جعلت منه علامةً فارقة في تاريخ ليس فقط النساء الطبيبات، بل الحركة النسوية بأكملها. وإن بدا أنه أظهر

تعاطفًا زائدًا مع المدّعِيات، فإن هذه نقطة ضعف قد تُعد، بالنظر إلى كل الظروف، محسوبة له لا عليه. وتُختصر خلاصة الحكم في العبارات التالية:

> إنّ القاضي المكلَّف يجد، وفقًا للدستور القائم واللوائح السارية لجامعة إدنبرة، أن المدّعيات يحق لهن أن يُقبلن لدراسة الطب في الجامعة، وأنه يحق لهن التمتع بكل الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها الطلاب المسجّلون قانونيًا في الجامعة، رهنًا فقط بالشروط المحددة والواردة في تلك اللوائح الصادرة في ١٢ نوفمبر ١٨٦٩؛ ويجد أن المدّعِيات، عند إتمامهن للدراسات المقررة، وامتثالهن لجميع اللوائح القائمة للجامعة بخصوص نيل الشهادات، يحق لهن أن يتقدمن للامتحان بغية الحصول على الشهادات بالطريقة المقررة في تلك اللوائح.

ليس من السهل المبالغة في تقدير أهمية المسائل المطروحة في هذه الدعوى. فالقرار قد يؤثر، بأشكال شتى، لا في مصالح المدعيات وحدهن، بل في كل من هن في ظروف مماثلة، بل أيضًا في مستقبل الجامعة ككل، وبشكل غير مباشر في رفاهية المجتمع بأسره، ممن يهمه أن يحصل على خدمات أطباء متعلمين ومؤهلين جيدًا.

لقد سعى القاضي المختص إلى تناول هذه المسائل بلا تحيّز، وبمعزل عن كل الآراء المسبقة أو النزعات الذاتية. كما حرص أن يُبقي نصب عينيه أن مهامه قضائية محضة وليست تشريعية، وأن واجبه يقتصر على تفسير القانون وتطبيقه كما هو عليه في الوقت الحاضر، لا أن يسعى إلى تغييره، مهما كانت قناعته قوية بما ينبغي أن يكون عليه القانون. وتكمن أهمية المسألة المطروحة للمدعيات، ولسائر النساء اللواتي قد يُفكرن في ممارسة الطب كمهنة، في أن قانون الطب لعام ١٨٥٨ ينصّ على أنه لا يحق لأحد أن يُسجّل كممارس طبي ما لم يكن حاصلًا على شهادة طبية من إحدى جامعات المملكة المتحدة، أو ترخيص مكافئ صادر عن هيئة طبية معترف بها مذكورة في القانون. أما الشهادة الأجنبية أو الاستعمارية فلا تُعتبر مؤهلة، ولا تُجيز لحاملها التسجيل ما لم يكن قد مارس المهنة في بريطانيا قبل أكتوبر ١٨٥٨. فإذا لم تنجح المدعيات في الحصول على الشهادات، فإنهن سيُستبعدن فعليًا من ممارسة الطب، إذ لا يستطعن المطالبة بترخيص من أي هيئة طبية معترف بها، ولا يُتوقع منهن أن يواصلن دراستهن الطبية ليُصنّفن لاحقًا مع الممارسين التقليديين أو العشّابين أو أولئك الذين يُشار إليهم في اللغة الدارجة بـ «الدجّالين». وبدون التسجيل القانوني بموجب قانون ١٨٥٨، يُحرم المدعيات من أي حق في تقاضي الأتعاب، ولن يُسمح لهن بتولي أي منصب طبي، وسيُعرضن لعقوبات شديدة إن تجرأن على استخدام مسمى أو لقب ممارس طبي.

ومن الحقائق الثابتة، مهما كانت تبعاتها القانونية، أنه لم تُمنح حتى الآن في بريطانيا شهادة طبية لأي سيدة. فسجل الأطباء البريطاني لا يتضمّن إلا اسم اثنتين فقط من الطبيبات ——

الدكتورة «إليزابيث بلاكويل» والدكتورة «إليزابيث جاريت أندرسون». وقد حصلت الأولى على شهادتها من أمريكا، ولأنها كانت تمارس الطب في بريطانيا قبل عام ١٨٥٨، فقد سُمح بتسجيلها بموجب الاستثناء الوارد في القانون.

أما الدكتورة «إليزابيث جاريت»، فقد حصلت على ترخيص من «قاعة الصيادلة» (Apothecaries' Hall) في لندن وسُجّلت على هذا الأساس؛ لكن منذ تسجيلها صدرت تنظيمات جديدة تمنع أي سيدة أخرى من الحصول لاحقًا على ترخيص من «قاعة الصيادلة». وعليه، فإن المسار الذي سلكته «بلاكويل» و«إليزابيث جاريت أندرسون» غير متاح للمُدَّعِيات، وليس لهن من أمل في ممارسة الطب في بريطانيا سوى الحصول على شهادة من إحدى الجامعات. وعليه، فإن الأسئلة المطروحة اليوم هي للمرة الأولى: هل يمكن لسيدة أن تنال شهادة طبية؟ وهل يُسمح لسيدة بأن تمارس الطب في بريطانيا؟

ثم ناقش القاضي القضية من جانب المدافعين، نقطةً نقطة. وكان البند الأول من دفاع الجامعة بند شكلي، تقول إن «جميع الأطراف لم تُستدعَ»، أي أن الدعوى كان ينبغي أن تُرفع لا ضد مجلس الجامعة والمستشار، بل ضد الجامعة ككل.

وقد قال القاضي إن هذا الأمر كان ينبغي إثارته قبل إغلاق السجل، وكان ينبغي حسمه في البداية. ومع ذلك، فإنه لا يحمل أهمية تُذكر، بما أن الشكوى وُجّهت فقط ضد مجلس الجامعة والمستشار، وكان مفترضًا أن الجامعة ككل مستعدة لأداء واجبها متى تبيّن لها ما هو هذا الواجب. وقد عبّر المستشار فعلًا عن استعداده لأداء واجبه بقدر ما هو معني شخصيًا، وبالتالي، من الناحية العملية، لم يكن يجب استدعاؤه كطرف في القضية.

ثم انتقل القاضي إلى ملاحظتين عامتين. فأعرب عن اعتقاده الجازم بأن القانون الأسكتلندي لا يمنع، لا صراحة ولا ضمنًا، أن تسلك النساء سبيل الطب، سواء بمعناه الأشمل، أو كمهنة تمارس فعليًا. بل إن بعض فروع المهنة كانت ملائمة للنساء وغير ملائمة للرجال على الإطلاق. ففي مجال التوليد، وفي أمراض النساء المختلفة، كان وجود طبيب ذكر غير لائق إطلاقًا، ولن يُقنع هذا الشذوذ المجتمعَ أبدًا، لا في الاسم ولا في الواقع، إلا إلف العادة. فهو مجرد «رجل يعمل قابلة».

ثم نظر القاضي في دستور جامعة إدنبرة ولوائحها فيما يخص النساء: فقد زعم محامو مجلس الجامعة، في مرافعة قوية وبليغة، أن جامعة إدنبرة قد أُسّست لأجل الذكور فقط. ولو ثبتت صحة هذه المزاعم، لانتهت الدعوى من أساسها. لكن القاضي وجد نفسه عاجزًا عن تأييد هذا الزعم، بل خلص، دون أدنى تردد، إلى أنه لا أساس له من الصحة، وكان مجرد مزاعم باطلة.

أ. إن الميثاق لم يُشِر بأي حال إلى هذا الافتراض. فاستخدام الاسم أو الضمير المذكر إنما جاء موافقًا لما جرت عليه العادة من اختصار وبساطة في التعبير.

ب. إن كون الجامعات الأسكتلندية قد تأسست إلى حدّ كبير على نموذج جامعة «بولونيا» (Bologna)، وغيرها، يدلّ على أنه — ما دامت النساء قد قُبلن في الجامعات الإيطالية — فلا يمكن أن يكون في الأصل نية لاستبعادهن من الجامعات التي تأسست في أسكتلندا.

ج. لا شك أن غياب أي سابقة موثقة لامرأة حصلت على درجة علمية في أسكتلندا حجة لها وزن، وحتى لو كان لها وزن، فهذا لا ينفي حق النساء إن كان قائمًا أصلاً، ولا يُبطل حقًا بمجرد تركه دون استعمال. فالحق، في حالتهن، هو «res merae facultatis» أي «حق خالص للاستعمال» كحق الرجل في البناء على أرضه، وهو حق لا يضيع ولو لم يُبنَ عليها شيء لمئات أو آلاف السنين. ولا يُبطل مثل هذا الحق إلا العرف المخالف — أي وجود استعمال يتنافى معه — وهذا لم يكن موجودًا في هذه القضية.

د. وإذا لم يكن هناك نص صريح يُقصي النساء ولا موجِب منطقي يُحتّم إقصاءهن، فمن المعقول إذن أن يُبنى الاستنتاج على شرعية دراسة الطب من قِبل النساء وملاءمته، وأن يُستنتج أن تأسيس كلية طبية في الجامعة لا يمكن أن يشترط استبعاد النساء.

هـ. ومن هذه القضايا العامة، انتقل القاضي إلى خلاصة رأى أنها حاسمة لكل المسألة، وهي أن قوانينًا صادرة وفق الإجراءات الرسمية ومن جهات ذات سلطة كافية، كانت قد نُصّت فعلًا لتنظيم قبول النساء لدراسة الطب في جامعة إدنبرة، وأنه كانت توجد لوائح تفصيلية تنظّم دراستهن وامتحاناتهن.

كما رأى القاضي أن «لوائح تعليم النساء في الطب في الجامعة»، التي صدرت عن «محكمة الجامعة» في ١٠ نوفمبر ١٨٦٩، وصدّق عليها المستشار في ١٢ نوفمبر ١٨٦٩، كانت صالحة وملزمة من كل وجه، وأنها تشكل جزءًا لا يتجزأ من دستور الجامعة ونظامها كما هو قائم الآن. وقد بدا للطرفين أثناء المناقشات أن هذه اللوائح كانت نقطة التحول في القضية.

ولمّا ضُيّق الخناق على مجلس الجامعة بسببها، بادر محاموه إلى الطعن في مشروعيتها، زاعمين أنها «ultra vires» أي أنها تجاوزت سلطات محكمة الجامعة، وطلبوا من القاضي أن يعتبرها باطلة. غير أن القاضي رأى أن هذا الموقف غير قابل للدفاع مطلقًا. فقد صدرت اللوائح المذكورة بعد نقاش مستفيض، وبتروٍ، وبعد التشاور مع كل الهيئات الإدارية للجامعة. وقد صدرت عن «محكمة الجامعة»، وهي هيئة ذات صلاحيات واسعة تكاد تكون تشريعية. وقد استوفيت فيها كل الشروط القانونية اللازمة. وكان هناك «تشاور مناسب» مع مجلس الجامعة. وقد رُفعت المسألة إليه ودُرست كما ينبغي، ثم صدّق عليها مجلس الجامعة ونالَت الموافقة

النهائية من المستشار. وكان كل من المجلس، ومحكمة الجامعة، ومجلس الأساتذة، يضمّ نخبة المحامين ذوي الكفاءة القانونية العالية، بل إن المستشار نفسه ختم اللوائح بموافقته وتصديقه، وهو أرفع منصب قضائي في أسكتلندا. وقد بلغ من ثقة مجلس الجامعة بصحة هذه اللوائح، أنه رفع طلبًا رسميًا إلى السلطة التشريعية — أي محكمة الجامعة — بأن تُلغى تلك اللوائح، لكن المحكمة رفضت، وبقيت اللوائح جزءًا من القانون الجامعي.

كما رأى القاضي أن المُدَّعِيات كنّ يستحققن من حيث المبدأ الحكمَ الذي طالبن به في هذه القضية. وكان حق التخرج في كلية الطب هو أصل النزاع كله. فلو أن السيدات اكتفين بالدراسة كهواية — أي كهاويات لا أكثر — لما ثار أيُّ خلاف. لكن مطلبهن بالحصول على شهادات، وإعلان نيّتهن في مزاولة الطب كمهنة، أثار حسدًا وصفه القاضي، على مضض، بأنه غير لائق، وكان هذا مصدر العداء كله.

كما رأى القاضي، دون أي شك، أن الاقتراح القاضي بحرمان الطالبات الناجحات أو المؤهلات تمامًا من نيل الدرجات العلمية الرسمية، ومنحهن بدلًا من ذلك مجرد «شهادات كفاءة» هو اقتراح غير سليم وغير عادل. ولذلك لم يكن غريبًا أن تَصِفه المدعيات بأنه «محض سخرية».

كل هذا كان، بطبيعة الحال، متعلقًا بطلب إثبات الحق في التخرج في الجامعة الذي طلبته صوفيا من القاضي. أما ما عدا ذلك، فلم يكن القاضي قادرًا على المساعدة فيه. فقد طلبت من المحكمة إصدار أحكام إلزامية للجامعة، مثل أن يُؤمَر الأساتذة بقبول النساء في صفوفهم العادية؛ غير أن هذا، كما أوضح اللورد «جيفورد»، كان يتجاوز صلاحيات مجلس الجامعة، ولا يمكن تنفيذه إلا من قِبل «محكمة الجامعة» عن طريق تعديل اللوائح التي حكم القاضي بصحتها.

أما محكمة الجامعة، فكانت لها صلاحيات أكيدة في الاعتراف بمدرّسين من خارج الكادر الجامعي؛ وهؤلاء — وقد كانوا على قدر عالٍ من الكفاءة والمكانة — أبدوا استعدادهم لتعليم الطالبات في صفوف منفصلة؛ وكانت الجامعة، التي لم يكن يمنعها من ذلك سوى شك في صلاحياتها لاتخاذ مثل هكذا قرار، على استعداد الآن لهذا الحل. وقد عبّر القاضي عن أمله في أن يُنهي هذا الحلّ الجدل المؤسف الذي طال أمده.

سجّلت صوفيا نتيجة الحكم باختصار في مذكرتها فكتبت: «الجمعة، ٢٦ يوليو. حكم اللورد «جيفورد». يقرّ بدعوى إثبات الحق، أي بالحقوق الكاملة، ويرفض الطلبات الإلزامية، أي يقول إن الدعوى في صيغتها هذه لا تمكّنه من إصدار أمر إلى مجلس الجامعة. المجد لك، يا رب! أعتقد أن القضية قد كُسبت جوهريًا لصالح كل النساء. تعقيبه في غاية الجودة ويصعب نقضه بسهولة. قد يكون هناك تأخير جديد — لكن ليس هزيمة.»

ومهما يكن، فإن هذا الحكم كان عظيمًا وملهِمًا — وقد كاد أن يعوّض عند صوفيا كل ما مرّت به. ولا ينبغي أن ننسى أن القوانين الصادرة في نوفمبر ١٨٦٩، والتي كان لها الدور الأكبر في ترجيح الكفة، قد كانت هي مِن صنعها وحدها، وقد سبقت بها كلَّ طالبة أخرى إلى الميدان. فحق لها أن تهتف: «المجد لك، يا رب!»

وبعد أيام قليلة، عمّت الفرحة أرجاء البلاد — فرحة امتدت آثارها إلى العالم المتمدن بأسره. وكان ساعي البريد، مرة أخرى، زائرًا مُرَحَّبًا به أشد الترحيب. وإن من يقرأ هذه الرسائل، ليكاد يتراجع عن قوله إن هذه القضية خلت من الإثارة.

وكان أول من وصل ساعي البريد، يحمل رسالة من السيدة «كينجزلي»، أضحكتني حين قرأتُها، فقد كتبت إلى صوفيا تقول: «ألف مبروك. كيف حال الدكتور روبرت كريستيسون؟»

وأرسلت إليها السيدة «أنستِي» (Anstie) رسالة تقول فيها:

> عزيزتي الآنسة صوفيا، جعلني خبر في جريدة (Daily Telegraph) ليوم كامل أتمتم، مثل غيري من الجالسين وأقول: «الحمد لله!»... إنه لخبر يكاد يكون أعظم من أن يُصدق، رغم أن حتى غير الضالعين في التفاصيل القانونية شعروا أن مطلبك كان عادلًا وقانونيًا، ويجب — عاجلًا أم آجلًا — أن يُسلَّم به. غير أني أود أن أتيقّن أن القضية قد انتهت، وأن لا نية للاستئناف لإطالتها أكثر.
>
> سأكون في إدنبرة يوم ٨ أغسطس، وسأحرص في هذا اليوم على لقائك وتهنئتك على ما أظهرتِه من عزيمة مباركة، رافضة أن تُقهري بالقوة الغليظة، وإنما مُصمّمة على أن تُرغمي العدالة على أن تأخذ مجراها. إنه ليحزنني أن هذه القضية كلّفتك ورفيقاتك عناءً وتكاليف مشينة، ولكن اعلمي أن هذا الخسارة، في ميزان السماء، ستغدو سببًا لشكر الآلاف من النساء العزيزات لله، لأنكن حققتن نصرًا سيحمل إلى حياتهن من الخير والسعادة — المعنوية والمادية — ما لا يُدرَك كله الآن إلا من قِبل قلة...
>
> ليبارك الله، ويبارك رفيقاتك، ويجعل الأرض تمتلئ بالنساء الصادقات مثلك، حتى لا تُضطر امرأة بعد اليوم إلى كتمان ألمٍ في سرها لأنها لا تجد من تبوح به إلا لرجل.

الرسالة التالية مكتوبة بخط يد مرتعش من والدتها المريضة: «عزيزتي، كنتُ في غاية السعادة حين تلقيتُ رسالتك ومعها تلك الأخبار العظيمة. لم أكن أتجرأ أن أتوقع شيئًا بهذا القدر من الروعة. من أعماق قلبي، أشكر الله وأفرح. أشعر بارتياح تام، لا أوجاع ولا آلام على الإطلاق. ليبارك الله حبيبتي الحبيبة ويوفقها.»

وكلما توغل القارئ في متابعة هذه المشاهد، تراءى له تمثيلٌ حيٌّ لقول الله تعالى: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا، جاءهم نصرنا﴾، كلما تنغلق الدنيا على الفتيات حتى يظنن أنه لا مخرج لهنّ ولا منجى، فإذا بفرجٍ من الله يأتيهنّ من حيث لا يدرين ولا يحتسبن. وإن كنتُ ممن لا يعلّق قلبَه بنهايات سعيدة، ولا يرى علاقةً ضروريةً لا تنفصم بين صدق النيّة وإخلاص العمل وبذل الوسع، وبين بلوغ المراد ونيل المأمول، فإني أقر كذلك أن من البهجة ما يُرى حين تثمر مساعي الصادقين وتُكلَّل جهودهم بالنجاح.

وإني، وإن كنت أقرّ أن ما أكتبه لا ينبغي أن يُعدّ قاعدة مضطردة، ولا تصورًا كاملاً عن حقيقة الدنيا، إلا أنني لا أملك الانفكاك عنه، ولا مهرب لي منه. فإن اختياري للحديث عن صوفيا وزميلاتها لم يكن عبثًا، بل لأن ثمرة جهدهن قد نضجت وأينعت. أما لو أن امرأةً أخرى سعت كما سعين ثم أخفقت، فلا أحسب أن أحدًا كان سيخطّ عنها سطرًا واحدًا، فالناس يكتبون عن الناجحين؛ وأعني أولئك الذين نالوا نصيبهم من النجاح في الدنيا.

وإني وإن كنت أعترف بهذا الميل، إلا أنني لا أعتقد بصحته، ولا أؤمن أن كل جهد لا بد له أن يظفر، ولا أن كل ساعٍ يبلغ مبتغاه في نهاية المطاف. فإن الإنسان، وإن كان قصده أن يحقق ما يرجو، فإن الأجدر بالتقدير هو سعيه نفسه، وجهده المبذول، وحركته في الطريق. فإن أثمرت تلك الجهود، فالحمد لله على ما أولى، وإن لم تثمر، فحسبه أنه لم يقعد ولم يتكاسل، بل نهض وسعى، وما قصّر في السعي ولا توانى في الطلب.

فالناس — ولست بمُغالٍ في قولي — لا يلتفتون إلا لمن حقق نجاحًا ملموسًا، ونال حظًّا من التوفيق في دنياه. يكتبون عن الذي أصابت رميتُه، وتُرفع له الرايات إذا نضجت ثمارُ عمله أمام العيون. أما أولئك الذين بذلوا الوسع، وساروا في الدرب نفسه، وسعوا بالهمة ذاتها، ثم لم تُثمر محاولاتُهم، فلا أحد يُعنى بشأنهم، ولا يُذكَرون إلا عرضًا — هذا إن ذُكروا أصلًا —.

ولهذا، ولهذا بالذات، قررت أن أكتب هذا الكتاب. فإن صوفيا قد حاولت ونجحت، فجعلها التوفيقُ مادةً للكتابة، ومثالًا يتجلّى فيه النصر بعد العناء. أما المئات — بل الألوف المؤلَّفة — من الفتيات اللاتي سلكن الطريق ذاته، وجاهدن بالنية الصادقة والعزم القوي، ثم لم يُكتب لهنّ النجاح، فلن يكتب عنهن أحد، ولن يُفرَش لهن حبر الصفحات، ولن تترنح أسماؤهن في عناوين الكتب.

ولقد قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿ومن يُقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يَغلب فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا﴾، فجعل سبحانه الأجر مقرونًا بمجرد القتال في سبيله، لا بالنتيجة التي تؤول إليها المعركة. سواءٌ قُتل العبد أو انتصر، فإن الجزاء واحد: «أجرٌ عظيم»، لا تفاوت فيه، لأن الله جلّ في علاه يحكم بالنية الصادقة، والسعي المخلِص، والموقف الذي وقفه العبد في موضع البلاء. ويا ليت الناس كانوا كذلك! لكنهم — على خلاف عدل الله — لا يعترفون إلا بمن غلب، ولا

يُقيمون وزنًا إلا لمن فاز في أعينهم وأحرز النتيجة. فالذي قاتل في سبيل غايته ثم مات دونها، لا يروى خبره في المجالس، ولا تكتب عنه الكتب، ولا تُنصب له أمجاد، وإن كان صادق النية، نقي القصد، باذل النفس والجهد. أما الذي انتصر، فله المجد، وله الذكر، وله القلم والمداد.

وهذا هو الفارق العظيم بين ميزان السماء وموازين الأرض؛ فإن الله عزّ وجل يحاسب على الأعمال لا على نتائجها، ويثيب على الجهد لا على ثماره. أما الناس، فإنهم لا ينظرون إلا إلى الثمرة، ويحكمون على العبد بظاهر نجاحه أو فشله، وإن جهلوا ما جرى في باطنه من مجاهدة ومكابدة.

فالحمد لله — ثم الحمد لله — أن الحساب عنده، لا عند الناس، وأنه «لا يضل ربي ولا ينسى». لهذا، فإنني حين أكتب عن صوفيا، لا أكتب عنها لأنها أوحد من حاولت، بل لأنها نجحت، والنجاح — في أعين الخلق — هو الجواز الذي يُجيز لصاحبه أن يُكتب عنه، ويُروى سعيه، ويُشاد بذكراه. أما الأخريات، اللواتي حاولن ولم يُوفّقن، فهنّ في طي النسيان لأن الناس لا يعبؤون إلا بالنتائج.

ولعل في كتاب الله ما يزيد هذا المعنى وضوحًا، ويقرّه في القلب بأشدّ البيان، حين قال تعالى: ﴿ورسلًا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلًا لم نقصصهم عليك﴾. فانظر! هؤلاء رسل الله، وصفوته من خلقه، أطهر مَن مشى على وجه الأرض، وأصدق مَن حمل رسالة، وأشرف من نطق بالحق، ومع ذلك... لم تُروَ لنا قصص بعضهم، ولم يذكرهم الوحي باسمٍ ولا أثر. لا نعرفهم، ولا يعرفهم نبينا ﷺ، ولم تُروَ سيرهم على المنابر، ولم تُخلَّد أسماؤهم في المصاحف.

أفشلوا؟ ربما. وكم من نبيٍ جاء قومَه فما آمن معه إلا قليل، أو لم يؤمن أحد أصلًا. أنجحوا؟ ربما. فقد يفتح الله على يد أحدهم قلوبًا، كما فُتحت أممٌ على يد غيره. لكن سواء أكان التوفيق حليفهم في الدنيا أم لم يكن، وسواء أُشهرت قصصهم في الأرض أم طُويت في غياهب الغيب، فإن الذي يهم حقًّا هو أن الله يعلمهم، ويعرف قدرَهم، ويثيبهم، ويكفيه أنه قال: ﴿وكفى بالله عليمًا﴾، وقال: ﴿وكفى بالله حسيبًا﴾، وقال: ﴿وكفى بالله وكيلًا﴾.

فليست العبرة أن تُروى القصة، بل أن تُكتب في علم الله، وأن يسمع اللهُ صوتَ الساعي حين لا يسمعه أحدٌ، وأن يرى جهدَه حين يجهله الخلقُ أجمعون. فالحمد لله الذي لا ينسى سعيًا، ولا يضيع عنده عمل، ولا يغيب عنه صوت، ولا تُخفى عليه خافية. إن نسي الناس، فالله لا ينسى. وإن ظلم الناس في الموازين، فالله أعدل الحاكمين، وكفى به شهيدًا، وكفى به بصيرًا.

ثم إني لا أنكر، ولا أتنصّل، أن هذا الكتاب منحاز. نعم، منحاز. منحازٌ إلى مَن حالفهم التوفيق، وأدركوا طرفًا من النجاح، ومنحازٌ — دون أن أشعر — إلى من أنصفتهم الدنيا، فأذنت بأن يُروى عنهم، وتُحفظ أسماؤهم، وتُعلّق صورهم في الصدور والعقول. ولست أدّعي النزاهَة

الكاملة، ولا المعايير المطلقة، فأنا بشر، ولستُ إلهًا، ومِن شأن البشر أن يحكموا بما يرون، لا بما يُخفى عن أعينهم. والقارئ — هو الآخر — بشر، يَميل إلى المنتصر، ويَهتم بالبارز، ويَنصرف عن الخافت.

وأُقِرُّ أن فيَّ نقصًا، وأن في هذا الكتاب تحيُّزًا، لكن حسبنا أن نُقِرَّ بنقصنا، وألا نُزيِّن لأنفسنا ما فينا من ميلٍ وظلمٍ خفي. فإذا علم القارئ أنه حين يُقبل على قراءة قصة ناجحٍ، فإنه — في ذات اللحظة — يعبرُ عن إعراضه عن عشرات وربما مئات ممن حاولوا وفشلوا، فليعلم أنه هو أيضًا متحيّز، وأنه جزءٌ من هذه المعادلة الظالمة التي لا تُعلي إلا من ارتفع في الدنيا، وتنسى من سقط. ومع ذلك، فحسبنا أن نعلم، وأن نُسلِّم، وأن نُقِرّ بهذا الميل القاصر في ميزاننا، ونردّ الأمر إلى الله، فهو وحده العادل الذي لا يَميل، والحسيب الذي لا يغفل، ﴿وما ربك بظلامٍ للعبيد﴾. فعند الله الجزاء، لا بحسب صدى العمل، ولا بقدر ما يُروى عنه في الصحف، بل بحسب ما انعقد عليه القلب، وصدق فيه الجهد، واستقرّ في نية العبد.

وأريد هنا أن أقف وقفة عرضية. فتلك الفقرات السابقة كتبتها وأنا في الطائرة متوجهًا من إدنبرة إلى لندن، لحضور حفل تخرج صديقي المهندس «محمود كشك» من جامعة لندن (UCL)، وقد مرّ بنا ذِكر هذه الجامعة في مطلع هذا الكتاب. وفي أثناء حضوري لحفل التخرج، كانت الجامعة تمنح زمالات فخرية (Honorary Fellowships) لأشخاص مرموقين في مجالاتهم. وفي لحظة من لحظات الحفل، وقفت إحدى الأستاذات التي نالت تلك الزمالة واسمها «جوليا بريسكوت» (Julia Prescot) تُلقي كلمةً قصيرة، فإذا بها — دون أن تدري — تمسّ المعنى ذاتَه الذي كنتُ أكتبه في الطائرة آنفًا. قالت ما معناه: إن الإنسان لا يُكلَّف إلا بالسعي، فإذا أتى التقدير من الناس، فذلك فضلٌ يُحمد، وإن لم يأتِ، فالسعي لم يكن لأجله، ولا ينبغي أن يُوجَّه إليه. المهم أن تعمل ما استطعت، أن تمضي في دربك دون أن تُفرط في انتظار التصفيق، ولا تُبالغ في الحسرة إن لم يُصفق لك أحد.

نعود إلى صوفيا ونختم هذا الفصل بأبيات قد أرسلت إليها بعد بضعة أشهر من قِبل مواطن معروف في إدنبرة، وتُعد نموذجًا لما كُتب من شعر ساخر وذكي بشأن هذه المسألة:

أآنستي لَكَمْ أني سعيدُ! ... لقد سمع الإلهُ لما نريدُ

لينصفَ جنسَك المظلومَ دهرًا ... ويُخْلَقَ مبدأٌ فذٌ جديدُ

يضيق لذاك مَن لسنا نُسمِّي ... ويحسب أنه ملكٌ شديدُ

مشى مستعرضًا في كلِّ حيٍ ... ويأنفُ أن تخالطَه الورودُ

ولا يرضى التنازلَ لو بشبرٍ ... ليقبلَ أنْ يَضُمَّهُمَا الوجودُ

دعيه فإنه ماضٍ تلاشى ... يقاسي لؤمَه الجنسُ الودودُ[١]

I do rejoice, Miss Jex,
The gods have heard your texts,
To vindicate your sex,
By crafting new precepts.

Though one it sorely vex—
Professor C., that ancient Rex—
Who struts and shouts and pecks,
But shuns the female sects.

He'll not annex, nor flex,
To join them to his specs;
So let him fade—an Ex—
Who scorns the fairer sex.

١- ترجمتُ هذه الأبيات ترجمةً حرفيةً، وأرسلتها إلى صديقٍ يجيد الشعر، فصاغ معانيها أبياتًا عربية. لكنه رفض أن أذكر اسمه.

الفصل الثاني عشر:
نهاية الحلم

طوال ذلك الخريف، لا بد أن عقل صوفيا كان يغلي بالاهتمامات العديدة التي استأثرت بانتباهها. «إن كان هناك من يستحق الراحة، فهو أنتِ»، قالت إحدى صديقاتها: «وأنا أرجو بصدق أن تأخذي قسطًا وافرًا منها. لا أظن أن أحدًا منا يعرف حق المعرفة أهمية قرار القاضي اللورد «جيفورد» لجميع الرجال والنساء في كل الأزمنة القادمة.» أما صديقتها الآنسة «بوفل»، فكتبت من باريس تقول لها:

> يسعدني حقًا أن الأمور قد استقرت أخيرًا وخصوصًا من أجلك. أرجو أن يقل قلقك كثيرًا في المستقبل، رغم أنني أخشى أن «الفصول المنفصلة» لا تزال قد تكون مصدرًا للمتاعب. ربما في وقت لاحق تكون مهنة الطب في بريطانيا، وكذلك الشعب البريطاني، قد بلغوا من التقدم ما يسمح لهم بطرح التحفظات غير العلمية التي، ولحسن الحظ، يبدو أنها لم تعد موجودة هنا. أفترض أنكِ ستذهبين لاجتياز الامتحان المهني في أكتوبر؟ أتمنى لكِ كل التوفيق. أرجو أن يكون بالك الآن أكثر راحة بحيث تتمكنين من الدراسة، لكنك ستأخذين عطلة في الريف أولًا، أليس كذلك؟

حين جاء فصل الصيف، سارت كلُ واحدة منهن في طريق، فسافرت الآنسة «إيميلي بوفل» إلى باريس، وأرسلت صوفيا مجموعةً من الطالبات الجدد إلى أمريكا كي يتعلمن الطب على يد صديقتها «لوسي سيوول». و«إيديث بيتشي» كانت تعمل في مستشفى للولادة في لندن.

كانت صوفيا لا تزال في إدنبرة تحاول الاستعداد لامتحانها، ويبدو أنها من كثرة الإعياء لم تعد قادرة على الدراسة بشكل مستمر، فأرسلت إليها صديقتُها «إيديث بيتشي» — تقول بنبرة أشد صرامة من المعتاد: «لم تخبريني أبدًا كيف تسير دراستك للمواد الامتحانية؛ هذا الصمت مقلق جدًا، وأخشى أنك لم تفعلي شيئًا بشأنها. لا بد لك من ذلك، إن كنتِ تنوين التقدم في أكتوبر، فليس من السهل على الإطلاق جمع ثلاث مواد مختلفة هكذا، وسيكون فظيعًا إن تقدمتِ ولم تنجحي...»

أكملت «إديث» رسالتَها وكتبت جملةً لا أظنها كانت تصدق نفسها حين كتبتها، فقد سألت صوفيا قائلةً: «أما تحبين أن ألقي عليكِ دروسًا؟» تخيل عزيزي القارئ، صوفيا، التي كانت

تحاضرهن جميعًا وتساعدهن في دروسهن وموادهن، وتقوم بمحاضرتهن هي، الآن تدور الأيام وتعرض صديقتها «إيديث» أن تُدَرِّس هي صوفيا!

يبدو أن «إديث» لم تكن وحدها هي القلقة على صوفيا، بل إن الطالبات الجدد، اللواتي أرسلتهن صوفيا إلى الدكتورة «لوسي» في أمريكا يتدربن على يدها، أرسلت واحدةٌ منهما رسالة إلى «إديث» تقول:

العزيزة الآنسة بيتشي، أكتب لكِ لعدة أسباب، أهمها أنني أريدك أن تنقلي بعض الرسائل إلى الآنسة جيكس-بليك، لأنك، مهما كنتِ مشغولة، لست مشغولة بقدرها، وبالتالي فإن كتابة رسالة إليك أقل هدرًا للوقت. وأؤمن، رغم كل شيء، أن السبب الحقيقي هو أنني، حتى وأنا بعيدة عنها، أخاف منها.

الآنسة جكس-بليك، كما تعلمين، كتبت إلى الدكتورة «سيوول»، تنصحني بالبقاء في بوسطن هذا الشتاء؛ والدكتورة طيبة جدًا فقالت إنها ستُبقي عليّ معها، وأنا أرغب في البقاء، لذا ما لم يعترض والديّ، فالأمر محسوم... يا له من خبر مفرح كان خبر القضية! لقد تلقيت رسائل تهنئة من كثيرين، لكنني أعلن أنني سعيدة بها من أجل الآنسة جيكس-بليك، وآمل الآن أن ترى بعض الأمل في شتاء هادئ. بالطبع لا يزال هناك الكثير لفعله، لكنها قد قطعت شوطًا كبيرًا. أليس كذلك؟ وأؤكد لك أن القضية العامة كانت تغيب عن ذهني أمام قضيتها الخاصة بالنجاح والراحة. إن علّقت الآنسة جيكس-بليك على خطي، قولي لها إنني أكتب نسخي، وأتذكر قواعدها، ولا ألجأ لهذا الأسلوب إلا عندما أكون متعبة قليلاً كما الآن... لقد رأيت الدكتورة «سيوول» تستخدم الملقط ثلاث مرات، ومن المستحيل رؤية شيء أجمل... إنها تستخدم أي أداة ببراعة. أود أن أراها تجري عملية كبيرة. أظن أن الجراحةَ المتقَنةَ رائعةٌ، ولم أرَ أحدًا يستخدم الأدوات بهذه السلاسة والأمان. سأشعر بالأمان معها في أي إجراء، لي أو لغيري...

كتبت صوفيا تقول:

العزيزة «لوسي»، لقد مر عام على فراقنا، وأتوق كثيرًا لرؤيتك مجددًا. تلك الطالبة الجميلة — تجعلني أغبطها بوصفها لسعادتها في بوسطن ولطف «طبيبتي». هل ستأتين معها في الربيع؟... أنا الآن أبدأ الدراسة الجادة لمدة خمسة أسابيع استعدادًا لامتحاني المهني الأول، الذي سيُعقد حوالي الثاني والعشرين من أكتوبر. لن يُغفر لي إن رسبت! في الحقيقة، لن أتقدم للامتحان إلا إذا شعرت أنني مستعدة تمامًا عند مجيء الوقت. أرجو أن تشكري الآنسة «كول» على رسالتها لي، وقولي لها إنني أتمنى لو أمكنها القدوم إلى إدنبرة.

لقد شرعت صوفيا في العمل بجد، لكن الأحداث لم يكن من الممكن وصفها بالمواتية. استنادًا إلى حكم اللورد «جيفورد»، كانت تستأجر منزلًا صغيرًا ليكون قاعة طبية، وتُنظّم فصول التدريس الشتوية. وفي الوقت نفسه، أبدى المحررون استعدادًا متزايدًا للحصول على مقالاتها الصحفية، ليس فقط في المواضيع المتعلقة بصراعها الخاص، بل في أي موضوع استدعى موهبتها في الكتابة الواضحة والحاسمة؛ وكل المال الذي كان بإمكانها أن تكسبه من هذا الطريق لم يكن مرحبًا به فحسب، بل كان ضروريًا بالفعل لإبقاء الأمور مستمرة. وعلى الرغم من أنها كانت مقتصدة إلى درجة استثنائية، فإن كرمها وطريقتها الواسعة العملية في التعامل مع الأمور أعطت دومًا انطباعًا بموارد مالية أكبر مما كانت تملك في الواقع؛ وقد ناشدها كثيرون طلبًا للمساعدة، وكان من شأنهم أن يُذهلوا لو علموا مدى ضيق هامشها المالي.

«أمي العزيزة»، كتبت صوفيا: «ليس لدي إلا لحظة واحدة لأرسل لك خبرًا أعلم أنه سيكون مُرحَّبًا به جدًا، وهو أن رجلًا اسكتلنديًا مقيمًا في الهند زارني الليلة الماضية، اسمه «والتر طومسون» (Walter Thomson)، سألني عن سير الأمور، وقال إن المعركة كانت تُخاض بشجاعة، ثم انصرف بعد أن قال برفق إنه سيرسل لنا «ألف جنيه فورًا، وإذا لزم الأمر أكثر»، حتى لا تفشل المعركة لنقص المال! المال له قيمة كبيرة، لكن الأثر المعنوي أعظم، إذ إن الرجل غريب تمامًا ولا يهتم إلا بالمبدأ.»

من المستحيل أن نبالغ في وصف مدى التقدير والامتنان الذي كانت صوفيا تشعر به طوال حياتها تجاه المال الذي وصلها بهذه الطريقة. فقد كان أعز عليها بكثير من ممتلكاتها الخاصة، وإن لم يكن هذا المال ليُستخدم فورًا، فقد كان يُستثمر بعناية وحذر شديدين؛ وكان كل قرش يُحسب بدقة؛ ولم يكن يُسمح بإنفاق أي مال على الإدارة، أو على أي نوع من الأعمال (مثل الرحلات بالقطار وغيرها) من أموال الصندوق نفسه. لم تكن هناك أبدًا أي نفقات تشغيلية. كل ما تم كان بدافع المحبة. لم تتوال الهدايا بهذا الحجم لاحقًا، لكن محاضرتها والكتاب الذي تبعها كانا يُدرَّان عائدًا أعظم قيمة. لقد أثارا اهتمامًا بين رجال ربما كان بإمكانهم دعم القضية بطريقة أوسع مما كان متاحًا حتى ذلك الحين.

كانت صوفيا قد أدّت وتفوقت بشكل ممتاز في المواد المطلوبة، وكانت هذه المواد تغلي في ذهنها لسنوات؛ لكن كل من تابع مسيرة العديد من الطلاب يعلم أن أفضل فرصة للنجاح تُتاح لمن يُحضّر مادته ويتقدّم فورًا للامتحان، قبل أن تبدأ عملية الانتقاء والاستيعاب الطبيعية في ذهنه وتستبعد هذه النقطة أو تلك، حسبما تقتضي الحالة.

أما القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لصوفيا فكانت مرض صديقة عزيزة جدًا خلال تلك الأسابيع الخمسة الثمينة، وأخيرًا نصل دون مفاجأة إلى هذه الجملة في المذكرات الخاصة بها: «الأحد، ٦ أكتوبر. محبطة قليلًا. لا أجد شجاعة أو فهمًا للكيمياء العضوية، ويجب

أن أؤجلها حتى تأتي «إيديث»؛ وعلم النبات يبدو ضخمًا للغاية! رأسي متعب، لا أستطيع أن أعمل لأكثر من ساعة أو نحوها... لكن قدري يجعلني أظن أنني سأجتاز الأمر.»

«١١ أكتوبر. لقد أرهقني أمر غرف التشريح، وما إلى ذلك، وسأضطر إلى تنظيم صندوق مالي، إلخ. الأمور تتزاحم عليّ. والناس الآخرون يحصلون على عطلات طويلة! — أوه، يا إلهي! حسنًا، كما يقول «روبرتسون»، كل شيء له ثمنه... علم النبات لديّ عالق — أشعر بالتوتر والاهتزاز مجددًا — أشعر أن قوتي تنفد مني قطرةً بقطرة. لو أن يوم ٢٢ قد مضى بخير!

«٢٢ أكتوبر. امتحان مهني... قدّمت ورقة جيدة في التاريخ الطبيعي، جيدة في الكيمياء، ضعيفة في النبات.»

«٢٣ أكتوبر. عدت لامتحان الكيمياء العملي. قابلني «وايت ميلار» وأزعجني بشأن أوراق [القانون]. رأسي مشتّت، الدكتور «كرم براون» أعفاني ليوم آخر.» حسنًا، لا جدوى من «تمطيط العذاب».

لقد رسبت صوفيا في امتحانها. ومع أنها كانت تتمتع بقدرات ذهنية تفوق المعدل بكثير لدى كلا الجنسين، وجدت نفسها، بعد كل هذه السنوات من الدراسة، — من الناحية العملية — في قاع السلم تمامًا. لم يكن لديها ما تُظهره لقاء جهدها: لقد رسبت في اختبار يمكن لأي تلميذ مدرسة أن يجتازه — وكانت أنظار العالم المتحضّر مصوّبة نحوها.

لا شك في أن الأمر كان مؤلمًا، وكان الجزء الأكثر مأسوية هو أنها لم تستطع أن تقنع نفسها بأن ورقتها في مادة التاريخ الطبيعي، على الأقل، قد تم تقييمها بعدالة. فالكثير من الصعوبات الصغيرة كانت توضع في طريقها باستمرار، وقليل من الشهامة أبداه من هم في مواقع السلطة، حتى إن غريزتها القتالية ثارت تلقائيًا في وجه الخصم. وما يمكن أن يكون هذا إلا محاولة جديدة من العدو لإسقاطها «بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة»؟

في هذا الوقت تقريبًا، يبدو أن البروفيسور «هاكسلي» (Huxley) أعرب لأحد الأصدقاء المشتركين عن تعاطفه مع الطالبات؛ وتولّت الآنسة «بيتشي» بنفسها مهمة طلب رأيه حول ورقة التاريخ الطبيعي. لقد كان ذلك مغامرة كبيرة من جميع الزوايا، ويدل بوضوح على مدى ثقة صوفيا بوجهة نظرها. فكتبت الآنسة «بيتشي» تقول:

> لقد كان لطيفًا جدًا بشأن الأمر. في البداية رفض النظر في الأوراق، ولكن عندما سألني عنها، قال إنه سيتفحص ورقة التاريخ الطبيعي، ورغم أنه كان لطيفًا جدًا، إلا أن حكمه كان سلبيًا. بالطبع، لا شك عندي أنهم كانوا سيمررون رجلًا لو كانت هذه ورقته، لكن لا بد أن تكوني «ممتازة جدًا» قبل أن يستطيعوا قبولك دون ضجة... آمل ألّا تقلقي بشأن الأوراق، لأنني آمل أن يتوفر لدينا كثير من الوقت

حتى نراجع المواد مرة أخرى بطريقة مناسبة؛ إنه سيكون أمرًا خارقًا إن تمكنتِ من النجاح وسط كل ذاك القلق... باركك الله، يا عزيزتي.

كانت لدى صوفيا هموم أكبر من أوراق امتحانها، فالامتحان يمكن أن يُعاد ثانية في شهر أبريل. لكن القضية الأكبر هي أنه بعد الحكم العظيم التي قضت به المحكمة، لم ترض الجامعةُ أن تنتهي فصول القصة عند هذا الحد، وأرادت الجامعةُ الاستئناف ضد قرار القاضي «جيفورد». وكان هذا الاستئناف قد وصل فعلًا إلى محكمة الجلسات، وكانت صوفيا تسهر حتى بعد منتصف الليل لمراجعة البروفات الصحفية اليومية.

أرسلت إليها والدتها المريضة تقول:

عزيزتي الغالية، لستُ متفاجئة على الإطلاق، وسعيدة جدًا لسماع أن هناك فرصة أخرى في أبريل، كنت قد قلت إنني واثقة أنهم كانوا سيُفشلونك إن استطاعوا. لقد استهلك عقلك ووقتك في قضايا أخرى كثيرة، ولا يمكنك أن تغضبي من نفسك. أعتقد حقًا أنني أشعر من أجلك أكثر مما تشعرين أنتِ من نفسك...

أنا أتحسن بشكل رائع. أرجو ألا تحتاجي الآن لأي محامين أو مقالات أو مسائل ملحة، ولا شيء سوى الدراسة عندما تبدأين التحضير لأبريل. سأكون سعيدة لمعرفة متى ستبدئين (ربما ليس قبل فبراير) أليس كذلك؟

وفي الأثناء، انهالت الاستفسارات من كل جانب. وقد ظهرت الفقرات الآتية في صحيفة أسبوعية شهيرة:

لقد تم حل مسألة قبول النساء في شهادات الطب بجامعة إدنبرة بشكل غير متوقع، على الأقل مؤقتًا. فقد تم بالفعل «رسوب» الآنسة جكس-بليك، وهي من أبرز المدافعات عن الحركة، في امتحانها، وأُعيدت لإتمام دراستها العلمية.

وقد قُصّت هذه الفقرة وأُرسلت إلى صوفيا من قبل صحف أخرى وأشخاص عديدين، مع طلب تفسير، أو، كما قالوا بلطف، «وسيلة لإنكارها رسميًا».

أما أبناء عمومتها الذين كانوا متعاطفين من بعيد، فقد أصيبوا بذهول لا يُصدّق، فأرسلوا متعجبين متسائلين:

أريدك أن تكتبي وتخبريني بكل شيء عن نفسك، ولماذا لم تنجحي في امتحاناتك. لا بد أن هناك سببًا لذلك. أريدك أن تخبريني، فقد سمعت أشياء كثيرة، وأريد أن أعرف الحقيقة. أُرسل لي صحيفة إسكتلندية تتحدث عنك، فأنا لا أرى شيئًا في الصحف الإنجليزية لا معكِ ولا ضدك. فقط أريدكِ أن تخبريني بالحقائق.

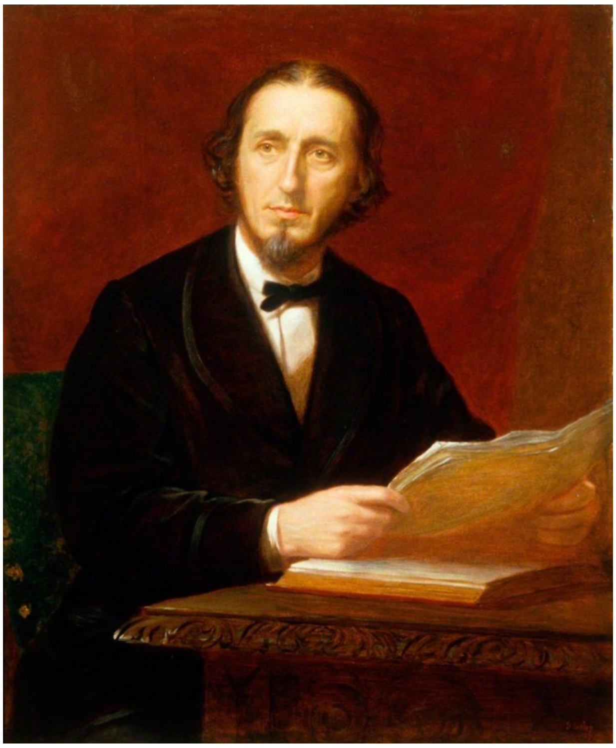
نعم، لقد كانت الأمور قاتمة جدًا. قاتمة إلى حد لا يثير أدنى دهشة حين نسمع أن الآنسة «مكلارين» (McLaren)، أخت نائب البرلمان السيد «مكلارين»، قررت في ذلك الوقت أن تنضم إلى صفوف الطالبات. ورغم أنها كانت هادئة وضعيفة البنية، فإن الرسالة التالية، التي كُتبت أثناء إحدى جولاتها الدعوية لحق الاقتراع، تدل على أنها كانت تملك من الصلابة الأخلاقية ما يكفي للحياة الجديدة:

> لقد فكرت كثيرًا في الانضمام إليك، وقد وصلت إلى قناعة مفادها أنني سأخبر والديّ بأنني أرغب في محاولة الدراسة إن أعطوني موافقتهم. لو كنت أشعر أن لدي نداءً داخليًا للطب، لكان ذلك سيجعلني أكثر جرأة، لكنك تعلمين أنني لا أستطيع التذرع بذلك بصدق. على العكس، لدي شكوك كبيرة جدًا بشأن قدرتي على ذلك، خاصة في السنوات التمهيدية، والتي قد تذهب سدى على الأرجح... كلا، ما يجذبني في الأمر هو وجود مجال واضح، واستقلالية، وأن أكون معكِ في أي نوع من العمل. سيكون من دواعي سعادتي أن أكون معكِ، وأن أشعر بأنني أقدم لكِ عونًا، ولو ضئيلًا. لكنني أؤمن كذلك بأنك ستحصلين قريبًا على عون أكبر بوجود الآنسة «دو بريه» (Du Pre) معك، وفي هذه الأثناء، حتى تأتي، تأكدي أنني سأكون معكِ قدر المستطاع.

كان من الواضح بشكل متزايد أن — مهما كانت النتيجة الفورية للدعوى القضائية، وسواء أنتصرت الجامعة في الاستئناف على قرار القاضي أم لم تنتصر، فلا بد من رفع المسألة إلى مستوى أوسع. ذلك أن القرار لا يزال غير ملزم للجامعة بتوفير الأساتذة أو بتغيير اللوائح كي تستمر دراسة الفتيات بها. حتى صوفيا بدأت تدرك أن «عدم صدور حكم لصالحنا قد يمنحنا مودة كلية الطب»؛ وقد فتح اهتمام السيد «جيمس ستانسفيلد» الحار والمُقدّر بالقضية باب أمل جديد، لتأخذ القضية طريقًا لم تسر فيه من قبل، وتصل إلى مستويات غير مسبوقة أبدًا.

ستدخل شخصية جديدة لا تقل أهمية عن السيد «ألكسندر راسل» والدكتور «ماسون» وعمدة المدينة السيد «ويليام لو»، وعضو البرلمان السيد «ماكلارين» في دعم صوفيا وباقي

الطالبات. وقد تعرّفت صوفيا عليه في إحدى محاضراتها، وبعد مراسلات بسيطة، التقت به مجددًا، وحصلت منه على توصيات لبعض زملائه.



السير جيمس ستانسفيلد

كان السيد «جيمس ستانسفيلد» عضوًا في البرلمان، وكان وزيرًا يعمل رئيسًا لمجلس الحكومة المحلية. يُعد هذا المنصب في ذلك الوقت شبيهًا اليوم بوزير الحكم المحلي والإسكان والصحة العامة. وكان هذا المنصب مركز القيادة للإصلاحات الاجتماعية والصحية التي كانت تُنادي بها الحركات الليبرالية والتقدمية في العصر الفيكتوري.

الذي كان يسعى إليه السيد «جيمس ستانسفيلد» هو أن يتم تقديم مشروع قانون للحكومة يلزم الجامعات بقبول النساء في صفوفها، بدلًا من الصراع مع جامعة واحدة، وبدلًا من المثول أمام القضاء في كل عقبة تواجه الفتيات، أراد أن ينهي القضية من رأسها، قانون حكومي من أعلى سلطة في الدولة يلزم جميع الجامعات بشكل قاطع وبات.

ذهبت صوفيا للقائه في لندن، ولقاء كثير من الشخصيات التي اقترحها لتكون مؤيدة لمشروع قانون كهذا، ثم عادت صوفيا إلى إدنبرة مرة ثانية. وجاء شهر يناير، الذي يتم فيه كل عام التصويت لاختيار إدارة المستشفى الملكي. كتبت صوفيا تقول:

الاثنين، ٦ يناير ١٨٧٣. اجتماع في المستشفى. على ما يبدو، هُزمنا بفارق صوتين: ٢٧٩ إلى ٢٧٧ — بانتظار الفحص. لوّح كل من «تيرنر» و«ليستر» بالقبعات وهتفوا!

١٠ فبراير. تَقْوَى مدراء المستشفى دفعتهم لطردنا من زيارة الأحد، على الأقل «في الوقت الحاضر».

١٧ فبراير، الاثنين. كان السيد «كوان» غاضبًا جدًا، أثار ضجة كبيرة في اجتماع المدراء. قال إنه في اليوم السابق زار عنابر المرضى ولم يرَ مشهدًا أكثر مسيحية وسبتيّة من السيدات بجوار الأسرة. بفارق ١٠ إلى ٦ أصوات، عدنا مجددًا.

هكذا كانت تقلبات الحياة اليومية.

لكن حسّ الدعابة المنقذ لم يكن غائبًا قط. نادرًا ما كانت تجد وقتًا لاقتباس النكات في يومياتها في تلك المرحلة، لكن ها هو الإدخال التالي مباشرة:

٢٣ مايو. الدكتور «توماس هيوم» فرض ٧ شلنات و٦ بنسات بدلًا من ٥ شلنات لإعلان الوفاة، بسبب عبارة «محبوب من الجميع ومأسوف عليه بعمق».

الآن نريد أن نفهم الفكرة التي أرادت بها الجامعةُ الاستئنافَ على قرار القاضي بإثبات حق الفتيات في التخرج. وأريد هاهنا أن أشرح موقف الجامعة ليفهم كيفية سير الأحداث جيدًا.

كان الهدف من القضية التي رفعتها صوفيا هو إثبات حقها في التخرج في الجامعة؛ إذ قالت الجامعة إنها وافقت على دراسة الفتيات، ولم تقل إنها ملزمة بالتخرج. فما كان من صوفيا إلا أن أرادت أن تثبت بحكم القاضي أن الجامعة وقد وافقت على دراسة الفتيات بها فبالضرورة هي ملزمة — وفق القواعد التي أقرتها الجامعة نفسها — بتخرج الفتيات وإعطائهن الشهادات الرسمية.

أرادت الجامعة في دفاعها أن تقول إنها أصلًا جامعة خاصة بالذكور، وبالتالي ليست ملزمةً بتخرج الفتيات بها، وهو ما رفضه القاضي، وأرادت الجامعة أن تتحجج وتتهرب بأي صورة وأي شكل من كونها ملزمة بتخرج الفتيات.

أما وقد أصدر القاضي حكمه الصريح بأن الجامعة ملزمة بتخريج الفتيات اللواتي قبلتهن ودرسن فيها، لم تجد جامعة إدنبرة مفرًا من الالتفاف حول هذا الحكم إلا بحيلة غريبة عجيبة، وهي أن تطعن في قراراتها هي نفسها! أرادت الجامعة، كي تفلت من هذا الإلزام، أن تثبت أمام

القضاء أن قرارها الأول بقبول الفتيات كان قرارًا باطلاً من أساسه، وأن مَن تجرأ وأجاز لهن الالتحاق بالجامعة قد ارتكب خطأ فادحًا لا يصح معه ترتيب أي أثر، لا تخرج ولا غيره.

لقد كان منطق الجامعة عجيباً حقًا؛ فهي تقول بلسان حالها: «إننا ما كان ينبغي أن نقبل الفتيات أصلًا، فإذا كان القبول خطأ، فكل ما ترتب عليه من الدراسة والسعي في التحصيل العلمي باطل كذلك، ومن ثم فلا حق لهن في التخرج». وهكذا، بدل أن تستجيب الجامعة لمنطق العدل والإنصاف، آثرت أن تناقض نفسها، وتتنكر لقراراتها، وتظهر أمام الملأ بمظهر من يحاكم ذاته ويدينها بلسانها، لتنقض غزلها من بعد قوة أنكاثًا، فقط لتغلق الباب في وجه الفتيات وتحرمهن شرف الحصول على الشهادة التي اجتهدن في نيلها.

ولا ريب أن هذا السلوك كان موضع خزي وعار على جامعة عريقة كجامعة إدنبرة، إذ لم يكن دافعها للطعن في قراراتها إلا الرغبة في إقصاء الفتيات عن محراب العلم! إنه موقف مخزٍ سيظل وصمة في جبين الجامعة، لا يمحوها الزمن، ولا تُجدي فيها المرافعات ولا الأقوال، لأن التاريخ لا يرحم من يضع العراقيل في طريق العقول الطامحة والمعارف السامية.

وإن تعجب المرء من موقف الجامعة، فلا يمكنه إلا أن يُعجب أضعافًا مضاعفة من سلوك الطالبات خلال تلك الأيام العصيبة. ففي حين كانت العضوات الأصغر سنًا في الجماعة الصغيرة يتابعن تعليمهن حيثما استطعن، كانت الأكبر سنًا يكافحن بكل وسيلة للعثور على باب مفتوح أو لفتح باب مغلق.

كان على صوفيا الاستعداد لجميع الاحتمالات، فلو فازت الجامعة بالاستئناف، فمعناه أن لا هي ولا غيرها من الطالبات، ولا حتى الطالبات الأصغر سنًا من الدفعة الجديدة سوف يتمكنّ من التخرج في الجامعة. وعليها أن تعمل الآن لإيجاد حل مناسب إذا أقرت المحكمة بعدم التزام الجامعة بتخرج الطالبات فيها. فأخذت تنطلق إلى جامعات أخرى في جميع أرجاء بريطانيا باحثةً عن جامعة أخرى تقبل بهن في حال منعن من التخرج من إدنبرة. وفي نفس الوقت كانت تعمل على إقرار قانون جديد يلزم الجامعات البريطانية أجمع بقبول وتخرج الفتيات بها. نعم، كانت تعمل على هذين الجانبين، تغير قانون دولة بأكملها، وتبحث عن فرص في جامعات أخرى.

في يونيو، انطلقت صوفيا والآنسة «مكلارين» في مهمة إلى مدينة نيوكاسل، وقد كانوا يتصرفون معها بلطف، وكلٌّ على حدة كان يُقابل الطالبات. وقد حُفظت مسودتان من العرائض التي صاغتها صوفيا، فقد كتبت إلى كلية الطب بجامعة دَرام بمدينة نيوكاسيل تقول:

> يونيو ١٨٧٣، السادة المحترمون، اعتمادًا على روح الانفتاح التي أبدتها كلية العلوم في جامعة «دَرام» تجاه النساء، أرجو أن تسلكوا نهجًا مماثلًا من التسامح في كليتكم الطبية، وأن تقبلوا أولئك النساء الراغبات في دخول مهنة الطب،

واللواتي لا يتوفر لهن أي سبيل حاليًا للتعليم في بريطانيا العظمى. إن كان من الأفضل — في رأيكم — أن تُنشأ صفوف منفصلة لأي من المواد الطبية، فأنا على استعداد لضمان دفع الرسوم التي تحددونها لتلك الصفوف. كما أنني أستطيع أن أؤكد لكم أن، إن فُتحت كليّتكم، فسوف تُسجل خمس عشرة امرأة على الأقل فورًا كطالبات.

وتلت هذه الرسالة برسالة أخرى تحاول فيها كعادتها تقديم أكثر من حل للطرف المقابل كي يكون الأمر أكثر مرونة وقبولًا، فقالت:

«٢٣ يونيو ١٨٧٣» السيد العزيز، بما أنني أفهم أن بعض أساتذة الطب يشعرون بصعوبة في تنظيم تعليم النساء، بينما آخرون مستعدون تمامًا لذلك، أجرؤ على اقتراح ما إذا لم يكن من الممكن قبول بعض الطالبات بشكل تجريبي لفصل دراسي واحد في صفوف أولئك الأساتذة المستعدين لاستقبالهن، ريثما يُتخذ قرار نهائي بشأن المسألة بأكملها.

أعتقد أنني ذكرت لك أن أولئك منا اللواتي درسن لفترة أطول قد حضرن جميع الصفوف المطلوبة للحصول على رخصة «دَرام»، باستثناء صفوف التوليد، وعلم الأدوية، والعلاج؛ وإذا أمكن تقديم هذه الصفوف في الفصل الشتوي، فقد يتمكنّ من التقدم لامتحان أبريل. وبعد تجربة فصل دراسي تجريبي كهذا، قد يكون بالإمكان اتخاذ قرار أوضح بشأن إمكانية ترتيب دائم من عدمه.

بل، وحتى إن بدا من المستحيل ترتيب مثل هذا التنظيم الجزئي للتعليم، فقد يكون من الممكن النظر فيما إذا كان «مجلس الطب» (بالتعاون مع سلطات درام) قد يوافق على فحص النساء بغرض منح الرخصة، إذا قدّمن شهادات حضور لجميع الصفوف اللازمة، ودفعن الرسوم لفصل واحد في نيوكاسل، حتى دون حضور الصفوف هناك، إن ثبت أن الحضور غير ممكن.

لكنها والآنسة «مكلارن» لم تنتظرا طويلًا. ففي اليوم ذاته، جاء الرد مباشرًا:

كلية الطب بجامعة درام، نيوكاسل، ٢٣ يونيو ١٨٧٣

الآنسة العزيزة بليك، طُلب مني أن أرسل لك نسخة من قرار تم اتخاذه بالإجماع في اجتماع استثنائي لأعضاء الكلية عُقد اليوم: «إن أعضاء هذه الكلية، وبعد دراسة مسألة فتح الصفوف التعليمية بالكلية أمام النساء، يقررون أنهم لا يستطيعون الموافقة على الطلب، سواء فيما يخص التعليم أو الامتحانات من أجل الرخص أو الدرجات.»

بدت جامعة «سانت أندروز» أكثر أملًا. وكان هناك العديد من الأساتذة الداعمين للنساء، لكن وبعد محاولات كثيرة، ورغم التكلفة المالية العالية جدًا التي وافقت الفتيات على تكبدها، باءت هذه المحاولة بالفشل كذلك، ولم يحدث أي تقدم في جامعة «سانت أندروز».

وفي الأثناء، كانت السيدة «ثورن» تعمل بجد لتنظيم صفوف تعليمية في إدنبرة، وإذا تعذر الحصول على شهادة الجامعة، فكانت تسعى للحصول على رخصة من «الكلية الملكية للأطباء والجراحين» . كما سعت هي وآخريات لاستطلاع فرص «جمعية الصيادلة في لندن»، و«قاعة الصيادلة في إيرلندا». ومن أجل ذلك، سعت صوفيا إلى تأمين تدريب مهني قانوني مع صديقها ومعلمها القديم، السيد «سالتسمان» من برايتون، الذي أبدى رغبة قوية في مساعدتها متى استطاع. لم يُترك حجر دون تقليب. لقد تحلّت الطالبات النساء بكثير من الرصانة والانضباط رغم كل شيء، حتى إن المرء يشعر بالارتياح حين يقرأ الانفجار العاطفي التالي من الآنسة «بيتشي» بعد بضعة أشهر نتيجة ما واجهته من الأطباء الرجال، فكتبت تقول:

١٢ أكتوبر ١٨٧٣

> عزيزتي «صوفي»، منذ أن رأيتكِ وأنا أعاني حقًا من كثير من الأطباء، ومزاجي ليس أفضل، بل أسوأ. ومع ذلك، فهو يعود تدريجيًا إلى وضعه الطبيعي. لو أنني فقط استطعت أن أقول رأيي حين بدأوا يتفوهون بتفاهاتهم المغرورة عن تفوقهم اللامحدود، وقلت: — «هل تعرف ما الأحمق الذي تصنعه من نفسك؟» — لما كان الأمر بهذا السوء؛ لكن أن أجلس صامتة، أبتسم بلطف، بينما رجال — عاديون للغاية في كل شيء ما عدا غباؤهم الفذ — يتفاخرون بقدراتهم العقلية! فلا عجب أنني، وأنا أكبت كل هذا في داخلي، شعرت بنيران الغيظ تحترق. إنهم يشبهون الحمقى الذين اضطر «داوود» إلى مواجهتهم لدرجة أنني لا أستطيع التوقف عن اقتباسه. ومع ذلك، لا أود أن تتوقف السيدة «ثورن» عن ترتيباتها للدروس في إدنبرة، رغم أنني أظن أنه لا أمل لدينا، فالمؤثرون في الساحة الطبية يعارضوننا بشدة...

حين تقول «إيديث بيتشي»: «إنهم يشبهون الحمقى الذين اضطر داوود إلى مواجهتهم»، فهي تشير إلى قصة النبي داود عليه السلام الواردة في الكتاب المقدس، مع شخصية تُدعى «نابال» — واسم «نابال» نفسه يعني بالعبرية «أحمق» أو «سفيه». نابال كان رجلاً غبيًا وفظًا، رفض أن يقدّم المساعدة لداوود ورجاله مع أنهم كانوا بحاجة شديدة إليها، وأساء إليهم بكلامه المتعجرف. وبحسب الرواية التوراتية، كاد داوود أن يثأر لنفسه من «نابال»، لولا تدخل زوجته «أبيجايل»، التي تصرفت بحكمة وأوقفت المجزرة.

وفي هذه الأثناء، صدر القرار العظيم من «لوردات إدنبرة» رسميًا، فقد أيد سبعة قضاة جامعة إدنبرة، وأيد أربعة منهم الفتيات، وبالتالي كان الحكم للأغلبية. وكان الحكم بأن فازت جامعة إدنبرة في القضية، واستطاعت إثبات أنها جامعة متناقضة، وأن «مجلس الجامعة» كان، في عام ١٨٦٩، قد ارتكب مخالفة قانونية حين سمح للنساء بالدخول إلى الجامعة أصلًا؛ وعلى هذا الأساس، اعتُبرت السلطات غير مسؤولة عن الطالبات من جميع النواحي. ومع مرور الزمن واسترجاع تفاصيل تلك الواقعة، يظل الحكم المضيء والشجاع لـ «اللورد كليرك» الذي كان مؤيدًا للفتيات، هو ما يبرز بشكل لافت؛ وفيما يلي مقتطف منه يُعد من أكثر الفقرات إثارة للاهتمام في نظرنا:

إن إنكار منح الطالبات الدرجة العلمية التي كنّ قد درسن واجتهدن من أجلها، والتي تمثل المفتاح الأوحد لدخولهن معترك المهنة، كان ضربًا من الظلم الصارخ الذي لا يسنده منطق ولا ينهض له عذر. وما زاد هذا الظلم فجاجة أن العلل التي سيقت لتبرير منعهن كانت تدور جميعها حول مسألة التعليم ذاته، لا حول منح الدرجة العلمية التي، لو شاء المنصفون، لعدّوها شرفًا للجامعة لا منقصة، وجواز عبور كريم إلى مهنة الطب، لا شأن له بمن يعارضون تعليم النساء من الأصل.

لقد كان واضحًا أن لبّ القضية وجوهرها يكمن في مسألة التخرج، لا في مجرد الدراسة. وقد رأى القاضي أن الطالبات، ما دمن قد أتممن المنهاج المقرر بصفتهن طالبات مسجلات وفق الأصول، فإن القواعد السارية في الجامعة آنذاك تمنحهن الحق في الحصول على الدرجة العلمية. والحق أن حُجج الجامعة لم تنهض أمام هذا المنطق، ولم يجد فيها القاضي ما يبدد هذا الاستحقاق الطبيعي.

وقد تمسك المدعى عليهم — أي إدارة الجامعة — بأن «مجلس الجامعة» لا يملك صلاحية سنّ مثل تلك اللوائح التي تقضي بقبول النساء أو منحهن الشهادات، زاعمين أن الدستور الجامعي يحظر قبول أي امرأة، لا للدراسة ولا للتخرج، وبالتالي فإن كل اللوائح التي صدرت خلاف هذا كانت باطلة من أساسها. بيد أن المحكمة رأت هذا الزعم غير ذي صلة، بل لا ينهض حجة في مقام النزاع؛ فالمسألة ليست في مشروعية ما صدر من لوائح أو عدمه، بل في التزامات ناشئة عن قبول الطالبات وفق تلك اللوائح.

وقد أشار القاضي بحكمة إلى أن التساؤلات عن مشروعية الأوامر واللوائح داخل الجامعة، وإن كانت مشروعة في ذاتها، إلا أنها لا تخص الطالب الذي التحق وهو على بيّنة من الشروط المعلنة، بل هي شأن بين الجامعة وسلطاتها التشريعية. وما دام الطالب قد التزم بما فرضته عليه الجامعة حين قُبل، فقد بات

لزامًا على «مجلس الشيوخ» أن يُحسن الوفاء بعهد الجامعة وأن يلتزم بتلك اللوائح، وإلا عُدّ ذلك خرقاً جسيماً للقانون.

إن الموقف العادل والمنصف يقتضي أن يُنظر إلى تسجيل الطالب أو الطالبة في الجامعة بوصفه عقدًا ضمنيًا بين الطرفين، التزم فيه الطالب بالسعي في الطلب، والتزمت فيه الجامعة بمنحه ما استحقه إذا استوفى الشروط. أما أن يُطلب من الطالب أن يتحمل عبء إثبات مشروعية القوانين التي قُبل بموجبها، فهذا من الإجحاف البين. فمسؤولية مشروعية اللوائح تقع على عاتق من أصدرها وأجازها، لا على عاتق الطالب الذي وثق بالمؤسسة والتحق بها بصدق نية.

وهكذا، فإن رفض الجامعة منح الدرجة بحجة أن الأصل في تلك القوانين باطل، كان قمة في التنصل من المسؤولية، وانتهاكًا صريحًا لروح العدالة، وانقلابًا على مبدأ الانضباط الأكاديمي الذي يقتضي أن تلتزم المؤسسات بما أعلنت عنه، ما دامت قد سمحت للطلبة بالانتظام تحت لوائه.

كان هذا ما قاله هذا القاضي المنصف، لولا أن قرار الأغلبية كان بخلاف قوله، وقد أُمرت الطالبات بتحمّل نفقات الاستئناف؛ وهكذا انتهت المعركة الشاقة في إدنبرة.

الفصل الثالث عشر:
إلى البرلمان البريطاني

قد يخطر ببالنا مقدار ما ألمَّ بصوفيا من كآبة ذهنية وإنهاك جسدي بفعل وقائع تلك المعركة المرهقة؛ لكن المؤكد أن يقينها لم يتزعزع قيد أنملة، ولا مسَّت عقيدتَها في الحياة أدنى ريبة. لم يخامرها شكٌ يومًا بأنها تخوض معركة إلهية، وإن كانت، رغم يقينها العميق بالنصر النهائي لقضيتها، مستعدة دومًا في أعماقها لاحتمال الهزيمة في أيٍّ من خططها. وفي خضم القتال، بدا عليها من الانهماك ما جعل الرفاق والمهتمين لأمرها يرددون: «الهزيمة ستقضي عليها»، بيد أن هذا كان محض سوء فهم لموقفها. فما إن حلّت الهزيمة حتى قبلتها ببساطة كإرادة إلهية، بل وربما كإشارة إلى أن الله لا يزال يريدها أن تواصل المسير.

وفي تجارب حياتها الكبرى لاحقًا، كان من اللافت مقارنة عجزها الظاهري عن رؤية الجانب الآخر من القضية حين تكون في خضمها، بقدرتها الفورية على تقبل القرار المعاكس عندما يقع. ولولا السجلات التي بين أيدينا عن شبابها، لظلّ الكثيرون يجهلون هذه السمة فيها. فلم يكن يُظن بها الورع أو التدين، وإن كان شعار حياتها، سرًا وعلانية، هو: «لتكن مشيئتك» (Fiat voluntas tua).

كانت تصلي، نعم، لكنها لم تكن لترى أن الدعاءَ بنجاح خطة محددة، أو لإنقاذ حياة صديق، أو حتى لإصلاح صداقة مكسورة في أشد لحظات حاجتها، أمرٌ صائب.

وإنّي، في هذا الموضع، لا أملك إلا أن أجهر بإعجابي العميق بنظرة صوفيا إلى الدعاء، وفهمها العميق لقيمته، ومعناه، وحدوده في حركة الحياة. فإنّي، كما ترى هي، لا أُسلّم بأنّ الدعاء يُغيِّر الأقدارَ، أو يُطيلُ الأعمارَ، أو يجلب خيرًا لم يكن، أو يدفع شرًّا مُقدّرًا، أو يُقرِّب حبيبًا، أو يُبعد عدوًّا، أو يقضي حاجةً، أو يؤخّر بلاءً. إنما أراه — كما كانت تراه — فعلًا من أفعال التوجّه لله والاعتصام به، وليس طلبًا لنتيجةٍ أو تدخل إلهي، بل أراه تثبيتًا للنفس، وتهذيبًا للروح، وسكينةً تُستمدّ من التسليم لله والعيش معه في كنفه وتحت عينه. وقد كتبتُ في أمر الدعاء والنصوص القرآنية والروايات الحديثية التي وردت فيه، وحاولت تفنيدها والوقوف عندها ومسائلتها ومعرفة تفسيرها، لكن ليس ها هنا موضع الحديث.

كان العزاء دومًا يأتيها من أصدقائها النبلاء؛ فإلى آخر أيامها كانت تردد: «لقد كان لنا أصدقاء رائعون»، وإن كان البعض قد انسحب لاعتقاده أن المعركة تدار بعنف مفرط، فقد ازداد

آخرون إعجابًا بثبات هذه الثلة من النساء المقاتلات، خاصة بما تميزت به البطلة من زهد نادر وفريد، زهد جعل من الصعب على أنصارها مجاراتها فيه.

وقد كتب لها أحد أساتذة إدنبرة السيد «دبليو. بي. هودجسون» (W. B. Hodgson) ممن توسّلوا إليها في بداياتها ألا تهاجم جامعتها التي ستفخر بها لاحقًا، مهنئًا إياها على كتابٍ وصفه بأنه «يروي قصة حزينة ومخزية بوضوح واتزان وفاعلية، وكان الكتاب أكثر تأثيرًا لأن غضبكِ المبرر ظل في حدود الانضباط»:

سيدتي الفاضلة،

أبعث إليكِ بشيك بقيمة خمسة جنيهات دعمًا للمصروفات القانونية التي تكبدتها الطالبات الطبيات في المحاكمة الأخيرة.

لو كنت عضوًا في مجلس الجامعة، لرأيت من واجب الشرف أن أتحمل نصيبي من تلك التكاليف التي أُلزمت بها السيدات، نتيجة اعتقادهن أن هذا المجلس يعلم حدود سلطاته. ولأستعير كلمات «هوراس»: « Delirant reges, plectuntur Achivi» أي: «أخطأ الملوك، فعوقب الإغريق»، ولعل الترجمة الأنسب هنا: «أخطأت الجامعة، فدفعت السيدات الثمن». وإذا كان في هذا البلد بقية من عدالة، فليكن الجزاء ليس فقط بدفع التكاليف عبر الاكتتاب العام، بل بحراك قوي لإسقاط احتكار الرجال لمهنة الطب.

وفي غضون أيامٍ قليلة، نُشر في صحيفة الـ «تايمز» (Times) مقالٌ طويلٌ مستفيض، تناول الموقف وإمكاناته، بقلم السيدة «جاريت أندرسون»، التي عبّرت فيه عن رأيها بأنّ الوقت لم يحن بعدُ لتعليم النساء الطب في بريطانيا العظمى. وقد كتبت تقول: «لا يمكن للنساء، بأي حالٍ من الأحوال، أن يخدمن هذه القضية التي نرغب جميعًا في دعمها، خير خدمة، أكثر من أن يذهبن إلى باريس لدراسة الطب، ثم يعدن إلى هنا لممارسته في أقرب فرصةٍ ممكنة.» وأضافت مؤكدةً فكرتها بقولها: «لم تُوجَد قط حالةٌ تجلّت فيها حقيقة القول المأثور « Solvitur ambulando» (يُحلّ الأمر بالمضي فيه) كما تجلّت في هذا الموضع.»

لكن صوفيا لم تكن لتوافق على هذا الرأي، ولا أن تتركه يمرّ بلا ردّ. فكتبت مقالًا مفصّلًا يفنّد ما جاء فيه، مدعومًا بتصريحٍ بارز من رئيس تحرير الصحيفة، الذي — رغم كونه غير متحمّس لفكرة الطبيبات — وقف في هذا الخلاف إلى صفّ «المرشحة الأقل حظًّا حتى الآن لنيل صفة طبيب مؤهّل قانونيًا، لكنها تستحق الدعم.»

كانت صوفيا، بما لها من اطّلاعٍ عميقٍ على دوافع الأمور وخفاياها، ترى أبعد مما يراه خصومُها، ولم تكن تظنّ للحظةٍ أن وقت الاستسلام قد أزف. فقد كانت هي مَن تلقّت الضربات

الواحدة تلو الأخرى، وتحملت وطأة خيبات الأمل، ومع ذلك ظلّ قلبها عامرًا بالأمل، وعينُها مُعلَّقةً بوطنها تنتظر منه إنصافًا وعدلًا. ومن هنا كتبت تقول في ردّها:

سيدي المحترم،

لقد اطّلعتُ، تَوًّا، على رسالة السيدة «إليزابيث جاريت أندرسون» التي نشرتموها في العدد الخامس من الشهر الجاري، ويسعدني أن تتيحوا لي المجال لعرض بعض ما أراه وجيهًا من الأسباب التي تجعلني أعتقد أنها — مع بالغ احترامي — قد اختارت أسوأ السبل الممكنة حين نصحتْ نساءَ إنجلترا بالسفر إلى الخارج لتلقّي التعليم الطبي.

أولًا، أرى أن الدكتورة «أندرسون» تفترض أكثر مما يثبته الواقع حين تذهب إلى أن جامعات أسكتلندا قد أُغلقت جميعها في وجه النساء بموجب هذا الحكم القضائي الحديث، مع أن التصريحات البرلمانية نفسها قد أعلنت بأن أحد النواب الأسكتلنديين يزمع تقديم مشروع قانون، مع مطلع الدورة التشريعية القادمة، يهدف إلى تمكين الجامعات من تعليم الطالبات وامتحانهن رسميًا. بل، حتى لو لم يكن مثل هذا المشروع قد أُعلن، فلا أرى ما يمنع — قانونًا — أن تتقدّم أيُّ جامعة بطلبٍ رسمي إلى مجلس الملكة تطلب فيه منحها الصلاحيات اللازمة، وقد أشار غير واحد من المدافعين في المحاكمة الأخيرة، بل وبعض القضاة أنفسهم، إلى أن السبب الوحيد في عدم قانونية التغييرات التي طرأت، إنما هو غياب التفويض الملكي، لا غير. وإنّ في الأفق أملًا بأن تَنهض جامعة أخرى بهذا الدور، حتى وإن اختارت جامعة إدنبرة — للأسف — أن تلوذ بالصمت تحت وطأة اتهامات لن تمحوها الأقوال ما لم تُتبَع بأفعال.

ثم إننا، حتى لو أخرجنا الجامعات الأسكتلندية من الحسبان، فليس من المبالغة أن نأمل تحركًا إيجابيًا من جامعتي كامبردج ولندن، أو أن نتصوّر أن جزءًا من الفوائض المالية في أيرلندا قد يُسهم في حلّ هذه الإشكالية القائمة.

أما عن قول السيدة «أندرسون» إن الهيئات الممتحِنة — ككليات الأطباء والجراحين — تملك «سلطة رفض» قبول النساء في امتحاناتها، فهذا زعمٌ أظنه يُسلِّم بما لم يُثبَت؛ إذ على حد علمي، لم يُصدر أيُّ حكم قضائي حتى الآن يُقرّ بهذا الامتناع. وقد أُبلغت من مصادر موثوقة أن هذه الصلاحية، على الأقل من الناحية القانونية، موضع جدال كبير. فقانون الطب الصادر سنة ١٨٥٨ لا يستبعد النساء من المهنة بأي وجهٍ من الوجوه، وقد تم بالفعل تسجيل امرأتين بموجبه، الأمر

الذي يضعف احتمال وجود أساس قانوني يُخوِّل هذه الهيئات رفض قبول المتقدِّمات فقط لكونهن نساء.

ومن هنا، أخلص إلى أنّ نصيحةَ السيدة «أندرسون» التي تدعو كلَّ امرأةٍ إنجليزية تطمح إلى دراسة الطب أن تسافر لتتعلّمه في الخارج، نصيحةٌ متسرعة في ظاهرها، وخاطئةٌ في جوهرها. وحتى إن ثبت في نهاية المطاف — وهو أمر غير مؤكد بعد — أن إجراء الامتحانات المهنية في بريطانيا غير ممكن للنساء، فإن الحل لا ينبغي أن يكون في السعي الحثيث وراء امتحانات أجنبية، قد لا تُفضي، بعد سنواتٍ من التعب والمال، إلى الاعتراف القانوني المنشود.

أما قولها إن النساء سيجدن في الخارج «ما يُحرمن منه في وطنهن، أي تعليمًا طبيًا من الدرجة الأولى»، فليس دقيقًا تمامًا. فالتعليم الطبي الرفيع متاح حاليًا في مدينة إدنبرة من خلال الدروس التي تُعطى خارج الجامعة (Extra-Mural School)، التي لا يقلّ محاضروها كفاءة، بل ربما يفوقون أساتذة الجامعة، بحسب الرأي العام. والمنهج الطبي الكامل يمكن ترتيبه هناك بلا حاجة لتعديل جذري. وإن مستشفيات إدنبرة قد فُتحت للنساء، وإن كان ذلك بشيء من التقييد، إلا أنّ ما يُقدَّم لهن من تعليم سريري على يد أفضل معلمي المدينة لا يُستهان به.

فهل الأولى — والحال كذلك — أن نغترب لنتعلم بلغة غريبة وفي بيئة مغايرة، أم أن ندرس في وطننا، بلغتنا، وبين أبناء شعبنا، لنخدم مجتمعًا نعرف آلامَه وعللَه؟

إن من المؤسف حقًا أن المرأةَ التي تُبعث خارج وطنها لتحصيل العلم، ستعود لتجد شهادتَها بلا قيمة قانونية، وسينظر إليها خصومُ القضية بوصفها دليلاً على أن الداخل ما زال مغلقًا، وأن الطريق للمهنة لا يُفتح إلا لقلة نادرة.

ولا أقول إن من تضطرها ظروفُها للاغتراب لا تُعذر، لكني أصرّ على أنَّ كلَّ امرأةٍ ترضى بهذا النفي الطوعي إنما تُسهم — من حيث لا تدري — في إبطاء مسيرة الإصلاح وتأخير نيل حقوقنا الكاملة.

ربّ مقولةٍ لا يتذكّرها الناس في معمعة النضال، لكن معناها عميق: «هم أيضًا يعملون، أولئك الذين لا يفعلون سوى الانتظار».[١]

١- قائل المقولة هو «جون مِلْتون» (John Milton)، الشاعر الإنجليزي الشهير. والصيغة الأصلية بالإنجليزية هي: They also serve who only stand and wait. وهي آخر سطر من قصيدته المعروفة باسم (On His Blindness).

وأنا أؤمن يقينًا بأنّ أفضل ما يمكن أن نفعله لقضيتنا هو أن ننتهز كل فرصة سانحة للتعليم هنا، ونرفض أي طريق جانبي مشبوه، ونطالب بحقنا —— بهدوءٍ وإصرارٍ لا ينقطع —— في الاعتراف بنا رسميًا كممارسات طبيات، كما يجيزه نصّ قانون الطب لسنة ١٨٥٨ نفسه.

تقول السيدة «أندرسون» إنه لا رجاء في أن «يراعي البرلمان مصالحَ فئة غير مُمثَّلة»، لكنني أذكِّرها بأنّ من أقوى الحجج الراهنة ضد إعطاء المرأة حق الانتخاب هو أن مصالحها محفوظة سلفًا. فإنْ صحّت هذه الحجة، فلا بدّ أن يُسنّ قانون جديد يعالج هذه المسألة الجائرة. وإنْ لم يُفعل، سقطت تلك الحجة نفسها، حين يُعاد فتح ملف تصويت النساء.

لهذا أُعيد التأكيد، كما بدأتُ، على رفضي القاطع لفكرة إرسال كل طالبة طب إلى الخارج. وأدعو كلَّ امرأة بريطانية حرة، أن تنضم إلى هذا الصف الذي تَشكَّل في إدنبرة، حيث الغالبية الساحقة تؤمن، كما أؤمن أنا، أن لا رجعة عن «القتال على هذا الخط»، حتى ننتزع بحقٍّ ما نستحقه بالعدل من البرلمان.

كتب الأستاذ «هودجسون»: «أُعجَب كثيرًا برسالتك إلى السيدة «أندرسون»، ويسعدني حقًا أنكِ لستِ يائسة مثلي. فالقوة السلبية للمقاومة من قِبل من يملكون السلطة يصعب جدًا التغلب عليها. وليست مجرد خمول؛ فذلك وحده يكفي. النجاح النهائي لا أراه مستحيلاً، لكن حياة الفرد قصيرة، والطريق طويل وشاق.»

وقد تحدثت صحيفتا الــ (Times) والــ (Spectator) بحدة عن سلوك الجامعة، وفي الأول من سبتمبر صدرت رسالة تبرير «apologia» بقلم مدير الجامعة للرد على الانتقاد الذي وجهته الصحف إلى جامعة إدنبرة، فكتب مدير الجامعة ردًا أرى أنه من الجيد أن نذكره أيضًا، إذ قال:

سيدي المحترم، في مقالكم الصادر بتاريخ الثالث والعشرين من الشهر الجاري، والمتعلق بدراسة النساء للطب، وردت إشارات توبيخ موجهة إلى جامعة إدنبرة، أرى أنها في غير موضعها، وأعتقد جازمًا أنكم ما كنتم لتطلقوها لو أن الصورة الكاملة للوقائع كانت بين أيديكم. فهل تسمحون لي، إذن، بعرضٍ موجزٍ لما أراه تصورًا أقرب إلى الدقة في هذا الشأن؟

لقد كتبتم: «ثم خُيِّل أن من الممكن فتح باب للطالبات الطبيات في جامعة إدنبرة، وقد استقبلت الجامعة عددًا منهن بالفعل لفترة مؤقتة. لكن الأساتذة انقسموا بشدة حول المسألة، ومن عارضوا التنازلات الضرورية وضعوا كل

العوائق الممكنة أمام من رغب في تقديمها. وبعد كثير من الجدال والتقاضي، ومع وقوع حوادث لم تشرّف الجامعة، صدر حكم قانوني ضد النساء من قبل غالبية قضاة أسكتلنديين، وسيظل الحكم نافذًا ما لم يُنقَض عن طريق الاستئناف إلى مجلس اللوردات. وتحت هذه الظروف، وُضِعت النساء في موقف من الشدة والمشقة.»

إنني، من جهتي، لا أنكر ما لاقته السيدات من صعوبة ومشقة، وأشاطر الجميع الأسف لذلك، غير أن هذه المشقة لم تكن ثمرة تصرّف مشين من جانب الجامعة، بل نتيجة للوضع القانوني في البلاد كما فسره قضاةُ محكمة الجلسات. وأعترف بأن القضية قد أثارت مشاعر متباينة، مؤيدة ومعارضة، داخل الجامعة وخارجها، غير أني أؤكد بثقة أن غالبية الأساتذة لم يكونوا حزبيين، بل كان الشعور الغالب بينهم هو الرغبة في تمكين النساء من دراسة الطب، ما دام ذلك لا يخلّ بالنظام الأكاديمي العام.

ولزامٌ هنا التذكير بأن الأساتذة لا يشكّلون السلطة الحاكمة في الجامعة، بل يتولاها مجلس الجامعة، المكوّن من ثمانية أعضاء، ليس فيهم سوى أستاذ واحد، ويرأسه حاليًا السير «ويليام ماكسويل» (Sir William Stirling Maxwell). وإنني أنفي تمامًا أن يكون في سلوك هذا المجلس تجاه مسألة تعليم النساء في الطب أيّ تحامل غير لائق.

في عام ١٨٦٩، تقدّم طلب لقبول النساء، على سبيل التجربة، في محاضرات الأساتذة الطبيين. وقد لقي هذا الطلب بعض المعارضة، لكن الرأي السائد في الهيئات الجامعية كان ميالًا للموافقة عليه، ضمن قيود واضحة. وفي إحدى المناقشات أُثير التساؤل عما إذا كانت الجامعة تملك أصلًا صلاحية منح الشهادات للنساء في حال نجاح التجربة. لكن المؤيدين رأوا أن هذا التحقيق سابق لأوانه، وأن الغاية آنذاك كانت مجرد التجربة، لا التخرج.

ولعلّ الأجدر، حفاظًا على كرامة الجامعة واتساقًا في الإجراءات، أن نكون قد أرجأنا التنفيذ إلى حين البت في مسألة الشهادات، لكن المجلس، بدافعٍ من روح الليبرالية، قبل التحدّي، وسنّ لوائح تتيح للطالبات حضور صفوف منفصلة، وترك لكل أستاذ حرية التدريس لمن يشاء. وقد رضيت الطالبات، على ما يبدو، بهذه الترتيبات، مع علمهن أن عدد الصفوف سيكون محدودًا. وكانت هذه اللوائح تجريبية بطبيعتها، لا تضمن لهن تخرجًا ولا شهادة، غير أن الطالبات بدأن بحماسة، معتمدات — فيما يبدو — على الحظ والنيات الطيبة.

لكن الواقع أن عددًا من الأساتذة لم يكن في وسعه فتح صفوف إضافية بسبب أعبائه الضخمة، إذ كان بعضُهم يدرِّس مئات الطلاب، ويقضي ساعات طويلة في المختبرات وغرف التشريح، في حين كان البعض الآخر مُثقلًا بالمهام الطبية الميدانية. وقد فتح ثلاثة أساتذة صفوفًا للنساء، أصيب أحدهم بانهيار صحي، فيما أقرّ الآخران بعجزهما عن الاستمرار. عندئذٍ اقترحت الطالبات تعيين محاضرين بدلاء. وهنا، للمرة الأولى، طلبت الجامعةُ الرأيَ القانوني من المدعي العام الأسكتلندي، فأعدَّتْ له بيانًا محايدًا، وجاء رده قاطعًا: لا صلاحية للجامعة لمنح شهادات التخرج للنساء. وقد أدى هذا الرأي إلى تجميد خطوات الجامعة. ومع ذلك، قُدمت للطالبات اقتراحات عملية لاستكمال تعليمهن، كما شُجّع أصدقاؤهن على إقامة دعوى ودية للفصل في المسألة قانونيًا، غير أنهن رفضن، وآثرن رفع دعوى رسمية ضد المستشار والأساتذة، وانتهت — حتى الآن — إلى حكم بعدم صلاحية الجامعة لمنح الشهادات لهن.

سيدي، هذه خلاصة واقعية لقضية شائكة، كانت الجامعة فيها — تحت ضغط شديد — كريمة بما يفوق المعتاد، لكنها عوقبت على ذلك. ولا أرى في مجمل الأحداث ما يستحق أن يُقال فيه إنه «حادثة أضرت بسمعة الجامعة»، إلا ما صدر من بعض الطلاب من سلوك مشين، حين أُقحمت الطالبات، بالمخالفة للوائح، في صف مختلط للتشريح تحت إشراف محاضر بديل، فكان ما كان من توتر ومشاحنات.

وفي الختام، أود أن أعرب عن تعاطفي العميق مع مناشدة الآنسة «جِكس-بلايك» إلى الهيئة التشريعية، فإن هذه المسألة في حقيقتها مسألة اجتماعية عامة، لا تُحلّ إلا بقانون يضع الأمور في نصابها. وسواء أقرّ البرلمانُ أن الجامعةَ صالحةٌ لتعليم النساء واختبارهن، أم قرر خلاف ذلك، فإن جامعة إدنبرة ستخضع لما يصدر عن السلطة التشريعية. ويمكن القول، رغم ما قيل من ملام، إنها — من حيث لا تحتسب — قد ساعدت في توضيح أبعاد المسألة.

هذا الكلام الذي يبدو متزنًا إلى حد بعيد لم تتقبله صوفيا، وأخذت في الرد على مقال مدير الجامعة في نفس الصحيفة لتوضح الأمرَ برمته، وجاء ردُها قويًا مُفصَّلًا شجاعًا إلى أبعد حد، وكتبت تقول:

سيدي المحترم،

لما كان السير «ألكسندر جرانت»، مدير جامعة إدنبرة، قد رأى من المناسب أن يقدّم لقرّائكم بيانًا يخصّ الجامعة وطالباتها، وهو بيان — لا أقول إلا بألطف ما

يمكن — إنه ناقصٌ إلى أبعد حد، فإنني أستأذن عدالتكم في أن أُكمّل روايتَه ببعض الحقائق التي ارتأى هو إغفالَها، ولم ير من الملائم أن تُعلَن على الملأ.

لقد ذكر السير «ألكسندر» أن الجامعة في عام ١٨٦٩ «طُلِب منها قبول النساء كتجربة في حضور محاضرات الأساتذة الطبيين»، ومضى في حديثه عن اللوائح بوصفها بأنها كانت «مؤقتة كما طُلب»، وأوحى بذلك أن جميع ما تلا كان مجرد امتثال لهذا الطلب، وأن مطلب التخرج لم يكن إلا استدراكًا طارئًا من قِبل النساء.

لكن الحقيقة — كما شهدتُها عن قرب — أنني، في مارس من العام المذكور، طلبتُ شخصيًا إذنًا بحضور المحاضرات الطبية في الجامعة بموجب شروط محددة، وقد وافق مجلس الشيوخ الأكاديمي (Senatus) على طلبي، غير أن مجلس الجامعة رفضه صراحة، بحجة أنه «لا جدوى من إجراء ترتيب مؤقت لمصلحة طالبة واحدة».

وبعد مرور ثلاثة أشهر، تقدّمتُ مع أربع نساء بطلبٍ جديد، مختلف كل الاختلاف، نلتمس فيه من الجامعة أن تُقِرَّ تسجيل النساء رسميًا كطالبات في الطب، وأن يُسمح لهنّ بالالتحاق بالامتحانات المعتادة، بشرط أن تُقام لهنّ فصول تعليمية منفصلة. وفي اليوم الحادي والعشرين من يونيو، بعثتُ برسالةٍ رسميةٍ إلى اللورد رئيس الجامعة أكرّر فيها ذلك الطلب، موضحةً أنه متى ما أُنشئت الفصول المنفصلة، وجب أن يُتاح للنساء التسجيل على الوجه المعتاد، والخضوع للامتحانات، بغية نيل الدرجات العلمية في الطب، في الوقت المناسب.

وقد قُدّم هذا الاقتراح تباعًا إلى جميع السلطات المختصة داخل الجامعة، من كلية الطب، إلى مجلس الشيوخ الأكاديمي، ثم مجلس الجامعة، ومجلس المستشارين، وصولًا إلى المستشار الأعلى؛ ونال القبول والموافقة من جميع هذه الهيئات. وبعد خمسة أشهر من الدراسة والمداولات، صيغت اللوائح في نوفمبر ١٨٦٩، ونُصّ فيها صراحة على أنها «لوائح لتعليم النساء الطب في الجامعة»، وأُدرجتْ رسميًا في لائحة الجامعة.

وقد نصّت اللائحةُ الأولى على أن «النساء سيُقبلن لدراسة الطب في الجامعة»، ونصّت الرابعة على استثناء خاص للنساء «غير الراغبات في ممارسة الطب مهنيًا»، أما السادسة، فقد ألزمت كل الملتحقات بالخضوع لجميع لوائح الجامعة الجارية أو اللاحقة، فيما يتعلق بالتسجيل، والحضور، والامتحانات، وسائر ما يتعلّق بتنظيم الدراسة.

وبما أن الحكم القضائي — الذي أصدره غالبية ضئيلة من القضاة الأسكتلنديين — قد أعفى جامعةَ إدنبرة من أيِّ مسؤولية تجاه الطالبات المسجَّلات، بحجة أن مجلس الجامعة تجاوز صلاحياته في إصدار تلك اللوائح، فإن من المفيد أن نُذكِّر القارئ بأن ذلك المجلس كان يضم، حينئذ، النائب العام الأسكتلندي نفسه (الذي أصبح لاحقًا قاضيًا في محكمة العدل العليا)، والنائب العام السابق السيد «جوردون»، وقد صدّق على اللوائح المستشار الأعلى، وهو أرفع سلطة قانونية في البلاد. أليس من العجيب، في «روعة غموض القانون»، أن يتفق أعلى قاضيين في المملكة على عمل، ثم يُبطله لاحقوهم بدعوى أنه غير قانوني؟

ثم يلمّح السير «ألكسندر» إلى أنه كان بوسعنا أن نتحقق مسبقًا من عدد الأساتذة المستعدين لتدريس النساء في فصول منفصلة. وأودّ أن أُبيّن هنا أمرين اثنين:

أولًا، إنّ أربعة من أساتذة الطب تغيّروا منذ تقدّمتُ بأول طلب، وكان كلُّ تغيير لا يصبّ في مصلحتنا.

وثانيًا، أن من أشدّ الخسائر التي لحقت بنا فقدان السير «جيمس سمبسون»، ذاك الذي كانت ليبراليته وعاطفته العميقة بالعدالة تجعلانه دومًا نصيرًا للقضايا الأضعف، ومن أقوى أنصارنا في مجالس الجامعة. ولو أنه ظلّ حيًّا، لربما كانت قصة السنوات الأربع الماضية قد اتخذت وجهة مغايرة تمامًا.

لم يكن بوسعنا أن نتنبّأ بهذه الغيابات، كما لم يكن من الممكن — قبل أن نذوق مرارة النزاع المهني — أن نتوقع أن الأساتذة الرافضين لتعليمنا سيأبَون حتى مجرّد الموافقة على أيِّ حل بديل يُتيح لغيرهم أن يُدرّس لنا ما نحتاج إليه من علوم الطب.

ولا أحتاج — في هذا المقام — إلى التوقف عند بيان مراسلكم الذي يروّج لقصة ملفّقة، مفادها أن إلقاء محاضرتين في اليوم — وهي مهمة معتادة في كلية الآداب — قد أضرّ بصحة أحد الأساتذة وأرهق اثنين آخرين. وحسبي أن أقول إن هذه «الوقائع» جديدة عليّ كلّ الجدة، وأرى — لو أُتيح المجال — أن الرواية من طرفنا قد تختلف كثيرًا.

وأما وقد رأى السير «ألكسندر جرانت» أن من المناسب أن يشير إلى «شغب الطلاب» الذي وقع في نوفمبر من عام ١٨٧١ — على الرغم من كونه، في

نظري، من أقلّ وقائع هذه القصة المؤسفة شأنًا — فإنني أجد من اللازم نفي تفسيره لذلك الحدث جملةً وتفصيلًا. نعم، لقد وقع ذلك الشغب ونحن نحضر فصلًا إضافيًا في التشريح، بعدما عجزنا كليًّا عن الحصول على فصل خاص، رغم أننا عرضنا ما لا يقل عن مئة وخمسين جنيهًا عن كل طالبة لقاء هذا الترتيب. غير أن أولئك المشاغبين — باستثناءات يسيرة — لم يكونوا من زملائنا في الفصل، بل كانوا حشدًا من طلاب الجامعة جُمعوا عمدًا برسالة سرت في قاعاتها.

والحقيقة التي لا مراء فيها أن تلك الفوضى دُبِّرت بسبق إصرار، بغرض بثّ الذعر في نفوس بعض مديري المستشفيات المتعاطفين معنا لثنيهم عن قبولنا في أقسامهم، وربما أيضًا لبثّ الرعب فينا نحن، بعبارات نابية وأوحال الطرقات، لثنينا عن مواصلة السعي العلمي. لكن حيلة الفرسان تلك — إن جاز وصفها بذلك — قد فشلت في تحقيق كلا الهدفين.

وأنتقل بعد ذلك إلى تناول ما ورد في تصريحات السير «ألكسندر» بشأن الدعوى القضائية الأخيرة، وما سبقها من حوادث. إذ يزعم أن الجامعة، «لأول مرة، طلبت مشورة قانونية»، فتلقّت رأيًا من النائب العام جاء مخالفًا لمطالب النساء. ولما لم يُنشَر ذلك الرأي حتى اليوم، فلا سبيل لمناقشته تفصيلًا. غير أن العجيب أن السير «ألكسندر» نسي — أو تناسى — أن النائب العام الأسكتلندي، وهو أسبق رتبة قانونية من النائب العام البريطاني، قد قدّم رأيًا صريحًا مناقضًا تمامًا. وقد سُلّم هذا الرأي لمجلس الجامعة، ونُشر غير مرة في الصحف، وورد فيه بجلاء أن الجامعة لا تملك فقط الصلاحية لإتمام تعليم النساء اللاتي قُبلن للتسجيل، بل إنها ملزمة بذلك التزامًا قانونيًا، وأن جميع الترتيبات اللازمة لتأدية هذا الواجب يمكن إنفاذها دون مخالفة للقانون.

وعليه، فإن تباين الآراء القانونية كان كافيًا لإبطال الحُجّة، وكان الأولى بالجامعة — لو شاءت الإنصاف — ألا تركن إلى رأي واحد، وتقطع به ما قطعت. وقد ورد أيضًا أن مجلس الجامعة أبلغ النساء بأن رأيه القانوني يمنعه من السماح لهن بالتخرج ما لم تُثبَت قانونيته، لكنه في الوقت ذاته عرض ترتيبًا يكفل لهن «التعليم الطبي الكامل»، وأن هذا العرض قد قوبل بالرفض من جانبنا. وهنا، يا سيدي، لا يسعني إلا النفي القاطع. فلديّ في حوزتي جميع المراسلات المتعلّقة بهذا الأمر، ولا أجد فيها عرضًا واحدًا يمكن أن يُفهم منه مثل ما زعمه السير ألكسندر.

ولعلّ المقطع الوحيد الذي يُستشفّ منه شيء من هذا المعنى ورد في محضر مجلس الجامعة بتاريخ الثامن من يناير ١٨٧٢، حيث نُصّ على ما يلي: «يرى المجلس أن تعقيد المسألة نجم عن إدخال مطلب التخرج، وهو غير لازم لإتمام التعليم الطبي أو غيره... فإن اكتفت الطالبات بطلب فحص النساء لمنح شهادات كفاءة في الطب، لا الشهادات الجامعية، فإن المجلس يعتقد أن الترتيبات اللازمة لذلك تقع ضمن صلاحياته بموجب المادة ١٢ من قانون الجامعات (الأسكتلندي). وسينظر في أي ترتيبات من هذا القبيل تُقدَّم إليه.»

فلما تسلمت نسخة من هذا المحضر، أشرتُ إلى أن «شهادات الكفاءة»، بما أنها ليست معترفًا بها بموجب قانون الطب لعام ١٨٥٨، فإنها بلا جدوى عملية لنا. ثم أوضحت: «وبما أن القضية الأساسية من جهة الجامعة تتعلق بالتخرج — وهو موضوع لا نشغل به أنفسنا في الوقت الحاضر — فإننا على استعداد لتعليق المطالبة به مؤقتًا، إن استطعتم أن تضعوا ترتيبات تتيح لنا مواصلة دراستنا على حالها، دون المساس بالمركز القانوني القائم للجامعة، ونحن نتعهد، في المقابل، بعدم إعادة إثارة مسألة التخرج في سياق تلك الترتيبات المستقبلية.»

فكان الرد، مع الأسف، كما يلي: «إذا قدّمتم أسماء المحاضرين غير الرسميين في المواد الطبية المطلوبة، سواء أنتم أم مجلس الشيوخ، فإن المجلس سينظر في مدى صلاحية أولئك المحاضرين لتدريس النساء المسجلات حاليًا أو سابقًا، وكذلك في الشروط واللوائح التي ينبغي أن تقام تحتها تلك الفصول.»

وقد أجبت، من جانبنا، بأننا سنعدّ قائمة بالأسماء ونقدّمها بسرور — رغم أن القارئ الكريم سيدرك أن ذلك يُلقي العبء كله على عاتق الطالبات بدلًا من أن تضطلع به الجامعة التي يُفترض بها توفير التعليم — إلا أنني طلبت تأكيدًا واحدًا، وهو أن المجلس، وإن لم يتعهّد بمنح الدرجة النهائية، فإنه على الأقل يعتزم النظر في احتساب هذه الفصول الخارجية مؤهّلة للتخرج، إن ثبت لاحقًا أن من حق الجامعة منح الدرجات العلمية للنساء.

فجاءني الجواب بأن المجلس لا ينوي فعلَ شيءٍ من هذا القبيل، وبأننا، إن شئنا، يمكننا تحمّل العناء والمال اللازمين للعثور على المحاضرين، وتقديم أسمائهم، لكن المجلس لن يخطو خطوة واحدة تُسهِّل علينا دراسة أي مادة. وسيدرك قراؤكم، من هذا العرض، قيمة «العرض» الذي يُزعم أننا رفضناه — ولعلي أقول: «الفخ» الذي سلِمنا منه بفضل الله!

وأعتذر عن هذه الاستفاضة، لكن تأكيد مراسلكم على ذلك العرض كان عجيبًا بما يكفي ليجعل إعلان الحقيقة واجبًا لا بد من أدائه. ويسعدني، متى ما سمحت مساحتكم، أن تنشروا نص المراسلات كاملة؛ وسأوافيكم بنسخة منها إن رغبتم في الاطلاع عليها. كما أن من شاء من قرائكم التحقق من الوقائع، فسيجد تلك المراسلات مدونة كاملة في كتاب صغير بعنوان «النساء الطبيبات» (Medical Women)، نُشر العام الماضي عن دار (Oliphant & Co) في إدنبرة، وهو مرجع موثوق للصراع الذي شهدته إدنبرة خلال السنوات الثلاث الأولى.

ولعل من اللافت أن السير «ألكسندر جرانت» أغفل الإشارة إلى أننا، حين اضطررنا أخيرًا إلى المطالبة بحقوقنا أمام القضاء — وأؤكد أن لا عرض بـ«دعوى ودية» قد قُدم إليّ أو إلى أي من زميلاتي، وبالتالي لم يُرفض شيء مما لم يُعرض — فقد صدر حكم لا لبس فيه لصالحنا من قِبل القاضي الابتدائي، الذي ألزم مجلس الشيوخ بدفع ثلاثة أرباع التكاليف.

لكن الجامعة رفضت ذلك الحكم، ورفعت القضية إلى المحكمة العليا، حيث حصلت على قرار من مجلس اللوردات، بأغلبية ضئيلة، لصالحها، وأُلزِمنا، نحن الطالبات، بتحمّل جميع التكاليف القانونية... وأعتذر ختامًا عن الإطالة والتعدّي على مساحة جريدتكم الموقرة.

وتفضلوا، سيدي، بقبول فائق الاحترام والتقدير،

صوفيا جيكس-بليك.

قضت صوفيا جزءًا من عطلة الصيف في زيارة أقاربها في مدينة «نورفولك» (Norfolk)، وانتهزت الفرصة لإلقاء ورقة بحثية حول موضوعها الخاص في مؤتمر العلوم الاجتماعية في مدينة «نوريتش» (Norwich)، تحت رعاية صديقها البروفيسور «هودجسون»، الذي كان رئيس قسم التعليم في المؤتمر. وفي أكتوبر، عادت صوفيا إلى إدنبرة لإتمام الترتيبات التي كانت تقوم بها السيدة «إيزابيل ثورن» للفصل الشتوي.

وكانت هذه واقعة أخرى تدل على المثابرة اللافتة لتلك النساء، إذ إنه خلال ذلك الفصل الشتوي، استمر إلقاء المحاضرات لهن كما في السابق، من قبل المحاضرين خارج الجامعة، في مواد مثل علم الأدوية، علم الأمراض، والتوليد. وقد حضرت صوفيا هذه المحاضرات عندما استطاعت، ونالت فيها جميعًا مرتبة الشرف؛ لكنها كانت في الوقت نفسه تراسل الدكتور «أنستي» (Dr. Anstie) وآخرين حول إمكانية إنشاء مدرسة مخصصة للنساء في بيئة مدينة لندن الأوسع والأقل شخصية. والواقع أن مركز الاهتمام كله قد تغيّر. فقد باتت المسألة الآن على وشك أن

تُعرض على البرلمان — وليس ذلك بوصفها قضية سياسية عملية بيد العامة، وإنما بوصفها مسألة تُناقش في الخفاء بين قلة من الرجال الشجعان ذوي البصيرة.

كتب السيد «ستانسفيلد»، بعد ثلاث سنوات من الحدث، قائلًا:

> كان من الضروري الاستئناف إلى هيئةٍ أعلى. وكان يمكن رفع هذا الاستئناف من باب القانون إلى مجلس اللوردات، لكن ذلك كان سيعني مزيدًا من التأخير غير المحدود ونفقات إضافية كبيرة، وربما، حتى لو جاء الحكم لصالح النساء، أن ترفض الجامعة تنفيذ الحكم بناء على صلاحياتها القانونية. لقد كان من الضروري تأمين حق النساء في دراسة الطب وممارسته، لا أن يُترك الأمر لاجتهاد هيئة واحدة من أصل تسع عشرة هيئة فاحصة. ولذا، قررت صوفيا وصديقاتها توسيع نطاق الدعوة، وتوجيهها إلى البرلمان والرأي العام.

وبحلول يوليو ١٨٧٣، أعلن السير «ديفيد وِدربيرن» الذي كان عضوًا في البرلمان، أنه سيقدّم في الدورة البرلمانية القادمة مشروع قانون يمنح الجامعات الأسكتلندية السلطة التي يُفترض الآن أنها لا تملكها، لتعليم النساء الطب ومنحهن درجات طبية عادية. وبالطبع، كان من المهم للغاية تأمين دعم الحكومة لهذا المشروع، وفي أكتوبر نجد صوفيا تتراسل مع وزير الداخلية.

وفي إحدى الرسائل الموسومة بأنها «سرية» كتب السيد «روبرت لو» (Robert Lowe) — وزير الداخلية حينئذٍ — وجهة نظره في المسألة، وسألها أن تخبره بالمسار الذي تنوي اتباعه. وبعدها بوقت قصير، جاءت الرسالة التالية:

وزارة الداخلية،

١٣ أكتوبر ١٨٧٤،

> عزيزتي الآنسة جيكس-بليك، لقد بذلتُ ما أستطيع لدعم وجهة نظركم. وأظن أنكم ستواجهون نفس الصعوبة القانونية في أيرلندا كما في إسكتلندا. لكن رغم أن هذا قد لا يلقى ترحيبًا لدى ناخبيّ، فليس عندي مانع إن كان هذا هو العائق الوحيد من تقديم مشروع قانون يمنح جميع الجامعات السلطة لمنح الدرجات الطبية أو أي درجات أخرى للنساء.

المخلص لكم، روبرت لو

وفي أوائل يناير، سافرت صوفيا إلى لندن لمقابلة الوزراء وغيرهم من ذوي النفوذ في الحكومة البريطانية، ومن يقرأ مذكرات صوفيا سيجد أنها مليئة بأسماء الوزراء وأعضاء البرلمان واللوردات من أعلى الطبقات السياسية في الحكومة البريطانية.

لقد قابله الكثير منهم بترحيب، وأرادوا دعمها في مشروع القانون الجديد إن وافق البقية. ثم عادت صوفيا بعد رحلتها إلى لندن وبعد لقائها بالسياسيين البريطانيين، وما إن وصلت هناك حتى حُلَّ البرلمان البريطاني في يوم ٢٤ يناير. فقد كان رئيس الوزراء البريطاني آنذاك هو «ويليام جلادستون»، وكانت حكومته الليبرالية سريعة في تطبيق الكثير من الإصلاحات في التعليم والجيش والقانون، لكن هذه السياسة لم تعجب الكثير من المجتمع البريطاني المحافظ، فقرر هو استباق الأحداث وحلّ البرلمان ونادى بانتخابات أخرى.

تلقت صوفيا بعد أيام فقط برقيةً من طبيبة والدتها في برايتون: «والدتك مريضة جدًا. أرجو أن تأتي.» وقد وصلت الرسالة الساعة الثامنة مساءً، فانطلقت على الفور بقطار الليل. وبعد أسبوعين من تمريضها لوالدتها ورعايتها لها، وانشغال صوفيا، إلا أن قضيتها ومشروعها لم يهملها الآخرون، ففي رسالة أرسلها السيد «ستانسفيلد» إلى الدكتور «ماسون» جاء فيها:

> عزيزي «ماسون»، لقد سمعت، بالطبع، من الآنسة جِكس-بليك أيضًا. لن أقول (لا) في الوقت الحالي. أولًا، سأقابل «روبرت لو» وأتحقق من رأيه... أظن أن علينا أن ننتظر تشكّل البرلمان الجديد قبل اتخاذ القرار. هل مشروعك هو ببساطة قانون يمكّن الجامعات من منح الدرجات العلمية للنساء؟ أم تقترح شيئًا آخر؟ سواء أكان جيدًا أم سيئًا، يجب أن أقول لك إن الأطباء في الصحافة يكرهونني.
>
> وأرسل له رسالة أخرى بعد هذه الرسالة، جاء فيها:

في ٢٨ فبراير ١٨٧٤، أصيب السيد «جيمس ستانسفيلد» بوعكة صحية بسيطة، جعلت من الصعب عليه متابعة القضية لأسبوع أو أسبوعين. ومع تعافيه، وصلت أخيرًا الرسالة المرتقبة من السيد «كوبر تمبل» (Cowper Temple) يقول فيها: «عزيزي «ستانسفيلد»، أنا مستعد تمامًا لتولّي قضية الطالبات، إذا أمكن إعداد مشروع قانون جيد. سأراك يوم الاثنين في البرلمان.»

ثم أرسل «كوبر تمبل» برقية إلى الآنسة صوفيا في إدنبرة، يطلب منها قائلًا: «هل يمكنك أن تدلّيني على محامٍ يعرف الموضوع، ويستطيع إعداد المشروع أو تقديم مشورته بشأنه؟»

ويبدو أن المسودة المشروع قد أُرسلت بالفعل في نفس اليوم، ثم سافرت صوفيا إلى لندن فورًا، ودُعيت للعشاء مع عائلة السيد «كوبر تمبل»، حيث نوقشت تفاصيل المشروع. وفى رسالة من الآنسة «مكلارين» أعربت عن سرورها، فقالت:

> أنا سعيدة جدًا بأنك نجحتِ إلى هذا الحد، وأن السيد «كوبر تمبل» لطيف ونشيط. وأتمنى أن تسير الأمور على ما يرام. لا أخشى المعارضة، بل أخشى أن المشروع، في هذا التوقيت المتأخر، قد لا يمر.

في ١٦ أبريل ١٨٧٤، كتب النائب «تشارلز كاميرون» (Charles Cameron) من لندن إلى صوفيا يخبرها قائلًا:

> لقد قُدِّم المشروع رسميًا وأُدرج اسمي ضمن المؤيدين. وإن مضى المشروع في هدوء فذلك خير لنا جميعًا، لكني أخشى أن هذا مجرد أمل. فبمجرد الإعلان عنه ستتناقل الصحف الأسكتلندية خبره، ويصل صداه إلى كل أستاذ وجامعة، بل حتى إلى النائب العام الذي سيضطر لإحاطة ناخبيه علمًا بكل ما يمس مصالح جامعات مثل جلاسكو وأبردين.

وكما توقع «كاميرون»، انتشر الخبر كالنار في الهشيم، وانهالت على البرلمان ٥٦ عريضة تأييد، منها ثلاث من المجالس البلدية في مدينة إدنبرة وأبردين وغيرهما، بالإضافة إلى عريضة خاصة من مدينة إدنبرة، وعريضة أخرى موقعة من ١٦ ألف امرأة.

لكن العريضة الأبرز جاءت بتوقيع ٢٦ أستاذًا من جامعات أسكتلندا، منهم ٨ من أصل ١٤ أستاذًا بجامعة سانت أندروز، و١٣ أستاذًا من جامعة إدنبرة. كما دعم المشروع أيضًا المحاضرون الذين سبق لهم تدريس النساء في إدنبرة.

في المقابل، لم يتأخر المعارضون؛ إذ قُدمت أربع عرائض اعتراض، صادرة عن: مجلس جامعة إدنبرة، ومجلس الشيوخ الأكاديمي للجامعة، وكلية الطب التابعة للمجلس، وجامعة جلاسكو.

كان من المنتظر أن تُعرض المسودة للقراءة الثانية في البرلمان يوم ٢٤ أبريل، إلا أن الدكتور «ليون بلايفير» (Dr. Lyon Playfair)، ممثل جامعة إدنبرة في البرلمان، طالب بتأجيل النقاش «حتى يتثنى لجامعته النظر في الأمر». وبسبب ضغط جدول الأعمال البرلمانية، أصبح تحديد موعد جديد شبه مستحيل.

وهكذا تحقق ما توقعته الآنسة «مكلارين»: لم يجد المشروع طريقه إلى المناقشة أو الإقرار، فطُوى الملف برمته حتى إشعار آخر.

لقد وقفت جامعة إدنبرة عقبةً كؤودًا في وجه النساء عند كل منعطف: في قاعات القضاء، وفي ساحات المحاضرات، وعند أبواب الامتحانات التمهيدية، وفي طريق الفتيات للتخرج، وها

هي اليوم، بلسان ممثلها في البرلمان، تقف حائلًا دون مجرد مناقشة مشروع يضمن للنساء حق التعلم.

أليست الجامعات، في الأصل، منارات للعلم وروادًا في دروب التقدم؟ أليس من العجيب أن تكون جامعات اسكتلندا، التي كانت يومًا مهدًا للتنوير البريطاني، هي ذاتها التي تصدّ أبوابها في وجه كل إصلاح، وتتحول إلى حصن منيع ضد كل إنصاف وعدل يُراد له أن يرى النور؟

لقد وقفت الجامعة في وجه الفتيات بلسان أساتذتها، وبلسان طلابها، وبلسان محاميها، ووقف القانون ضدهن، والآن حين توجهن إلى البرلمان لإقرار قانون جديد يسمح للجامعات بقبول النساء كالرجال في التعليم الجامعي، كان الذي وقف أمام القانون في البرلمان هي جامعة إدنبرة وهو ممثلها في البرلمان الدكتور «ليون بلايفير».

لقد أُغلقت أبواب الجامعة في وجه الفتيات، وأُغلقت أبواب المستشفى الجامعي في وجه الفتيات، وأُغلقت أبواب المحاكم والقانون في وجه الفتيات، والآن يغلق أبواب البرلمان كذلك في وجه الفتيات.

الفصل الرابع عشر:
كلية طب النساء في لندن

ما إن استطاع الدكتور «ليون بلايفير»، النائب في البرلمان عن جامعة إدنبرة، أن يؤجل البتّ في مشروع القانون، حتى بدا كأن القضية قد وُئدت في مهدها؛ إذ إن تأجيل النظر يعني — عمليًا — دفن الأمل عامًا كاملًا أو يزيد، فقلّ أن يُعاد طرح مثل هذه المشاريع في البرلمان سريعًا، وعليهم على الأقل انتظار عام كامل. وبعد هذا التأجيل لمشروع القانون، وبعد فشل المحاولات في باقي الجامعات البريطانية، وبعد فشل القضية أمام المحكمة في إلزام جامعة إدنبرة بتخرج الطالبات فيها. بعد إغلاق جميع هذه الطرق في وجه تعليم الفتيات في الجامعات البريطانية، لم يكن بدٌّ من أن تخلق النساءُ لأنفسهن جامعةً تأوي أحلامهن وتُعلي من شأن عقولهن، رغم أنوف أولئك الذين استكثروا العلم عليهن. وكما قال نزار قباني:

الحب في الأرض بعض من تخلينا ... لو لم نجده عليها لاخترعناه

نعم، لم يكن هناك أي خيار آخر سوى هذا؛ فالبرلمان، والقضاء، والجامعات، وذوي النفوذ، والسياسيون، ورجال الدين، والأساتذة، جميعهم عجزوا في تحقيق النصر المنشود للنساء، فما كان من صوفيا إلا أن سعت في إنشاء كلية طب للنساء في لندن.

كتب الدكتور «أنستي» في هذه الأثناء:

> عزيزتي الآنسة «جكس-بليك»، لقد هُزمنا تمامًا في الوقت الراهن، ولعل من الأفضل أن نركن إلى الراحة لبعض الوقت. لعلّك سمعتِ عن رفض مجلس الشيوخ في جامعة لندن اقتراح منح الدرجات العلمية للنساء؛ وقد أخبرتك سابقًا أنني فشلت في إقناع زملائي في مستشفى «وستمنستر» بفتح قسم نسائي. أظن أن لا خيار الآن سوى أن تعقدن العزم على تأسيس كلية بأنفسكن. وإن تمّ ذلك، فلا أعتقد أنكنّ ستجدن صعوبة كبيرة في نيل فرصة للتدريب الطبي من بعض المؤسسات.
>
> أشعر بالأسف لأني لم أحقق نتائج أفضل كمُناصِر لكنّ، لكن يبدو أن هناك تيارًا معارضًا قويًا لأسباب مجهولة. كما قلت، أرى أن عليكِ مع صديقاتكِ التشاور بهدوء، والبدء فعليًا في مشروع الكلية دون نقاش علني. لا أشك أنكنّ إن أظهرتم

الطاقة والموارد اللازمة لتأسيس كلية مستقلة في لندن، ستحصلن على التعاطف والمساعدة التعليمية.

كان على صوفيا أن تسعى في هذا الأمر بنفسها؛ فالسيدة «إليزابيث أندرسون» ظلت ترى أن الوقت لم يحن بعد. وكانت السيدة «إيزابيل ثورن» في باريس، والطالبات الأخريات قد تفرّقن لقضاء العطلة في باقي المدن المختلفة. سعت صوفيا منفردةً إلى استئجار مكان في لندن، وتحضير الدروس الطبية، والاتفاق مع الأساتذة الأطباء، ومع المستشفيات، وشراء الأسِرَّة، والأدوات الطبية، وكل مستلزمات التعليم الجامعي الطبي، وكان تسعى في كل هذا العمل وحيدةً شريدةً، وكان البعض يأتي لمساعدتها من حين إلى آخر ما إن سمحت لهن فرصة.

سعت صوفيا إلى جمع المؤيدين لها من أصحاب النفوذ في المهنة الطبية، على سبيل المثال: الدكتور «آرثر نورتون» (Arthur Norton)، الاستشاري في «المستشفى الجديد للنساء»، والدكتور «كينج تشامبرز» (King Chambers)، كبير الأطباء والمحاضِر في «مستشفى سانت ماري»، بالإضافة إلى الدكتور «فرانسيس أنستي» (Francis Anstie)، الطبيب في «مستشفى ويستمنستر» وغيرهم الكثير. فراسلتهم وعقدت اجتماعًا في منزل الدكتور «فرانسيس أنستي» بتاريخ ٢٢ أغسطس ١٨٧٤، ليكون هذا الاجتماع النواة الأولى لتكوين لجنة تمهيدية لإدارة هذه الكلية الجديدة.

كانت هذه اللجنة من المؤيدين التي من المفترض أن تسعى معًا لإنشاء وإدارة الكلية الجديدة تضم ٢١ شخصًا، كان جميعهم من الرجال، سوى ثلاثة أسماء، صوفيا والدكتورة «إليزابيث بلاكويل» و«إيزابيل ثورن».

كتبت صوفيا تقول: «١٥ سبتمبر. تم فعليًا توقيع عقد الإيجار والحصول مكان في ٣٠ شارع هنريتا. نصبنا نوعًا ما من الأسِرَّة ونمنا هناك تلك الليلة... «أليس» قادمة من ويلز لمساعدتي».

وبعد هذا التحضير الحثيث والعمل المضني، كتبت صوفيا في مذكراتها تقول: «الاثنين، ١٢ أكتوبر، افتتاح «كلية طب النساء في لندن».

وبين أيدينا وصف لهذه الكلية في مقال تم نشره في جريدة ديلي نيوز (Daily News)، جاء فيه:

> في البدايات الأولى لمؤسسة مثل هذه «كلية الطب للنساء»، لا يُحتمل أن يوجد مقرّ أنسب من ذاك البيت الغريب في شارع «هنريتا»، وسط منطقة واسعة من لندن، بعيدًا عن صخب الطرقات، قريبًا من المتاحف والمكتبات، في موقع مركزي، في بيت يضمّ غرفًا فسيحة تطل على حديقة خضراء عتيقة الطراز. الشقق مجهزة

تمامًا كأماكن لإلقاء المحاضرات الدراسية، فيها كما يقول الأمريكيون «مساحة للمرونة»، وتطلّ من شرفة عريضة على هذا المنظر البهيج. دافئة شتاءً، باردة صيفًا، ومعزولة عن ضجيج الحياة الخارجية، هذه الغرف لا بد أن تكون مثالية للتفكير والتركيز الدراسي. في الطابق العلوي — لا يوجد سوى طابق واحد فوق الأرضي — توجد شقق أصغر مناسبة للمتاحف وغرف المطالعة.

في هذه المرحلة، كانت مساعدة السيدة «إليزابيث جاريت أندرسون» ذات قيمة كبيرة للمشروع العظيم. فقد كانت تحتلّ مكانة مرموقة — اجتماعيًا ومهنيًا — في العاصمة البريطانية لندن؛ وكان لاسمها من الثقل ما يليق بهذه الشخصية العاقلة الماهرة. ويستحيل المبالغة في تقدير النفع والمعروف الذي قدمته للقضية بمجرد إظهارها أن المرأة يمكن أن تكون طبيبة موثوقة وناجحة. كانت قد أسست مستشفى صغيرًا للنساء؛ لكنها كانت لا تزال ترى أن الوقت لم يحن بعد لإنشاء كلية جيدة للطب للنساء — وأنه كان من الأفضل الانتظار حتى يتضح في الرأي العام ميلٌ أكثر صراحةً لصالح الطبيبات؛ وكانت ترى أن بإمكانها دعم هذا التوجّه في الرأي العام بتشجيع النساء على نيل درجات علمية من بلاد أخرى، ومزاولة المهنة في إنجلترا بصفة طبيبات غير مسجلات.

وكان يعزّز هذا الرأي لديها كون صوفيا لم تكن الرائِدة التي كانت لتختارها أو تفضلها: فقد كانت تقيس حملة إدنبرة بنتيجتها الإجمالية في ضوء الهدف المباشر الذي وُضعت له؛ وبما أن جامعة إدنبرة لم تبلغ هذا الهدف، فقد عدّت الأمر فشلًا. وكان هناك أيضًا مَن أكّد لها — من غير أن يكون حديثهم خاليًا تمامًا من الصحة — أن تهوّر الآنسة صوفيا جيكس-بليك (أو «سوء التقدير»، و«حدة الطبع»، كما أخبروها) قد ألحق ضررًا كبيرًا في إدنبرة.

على أن ما قيل في حق صوفيا من ملاحظات ليس ببعيد عن الصواب، غير أن حدة طبعها وشيئًا من تهورها، هما في الحقيقة من سمات القادة التي لا غنى عنها لمن تصدّى لقيادة معركة نيل الحقوق. فكيف يصلح للقيادة من كان بليد الحس، بارد العاطفة، مرتجف القلب، متردد الخطى؟ إن الحقوق لا تُنال بأيدٍ واهنة، ولا تنتزعها قلوب خوّارة أو نفوس فاترة، بل يقتنصها أصحاب الحمية، المتلبسون بالشجاعة، المتسلحون بالقوة والجرأة، الذين يعرفون متى يغلظون ومتى يلينون.

بل إن الحدة والاندفاع، وإن عُدّا في ظاهر الأمر عيبًا، فهما في ميدان النضال طبع لا بد منه للقائد، إذ كيف لمن اعتاد البرود والفتور أن يصدح بالحق في وجوه الطغاة؟ وكيف لمن تربى على الخوف والتردد أن يشق طريقًا محفوفًا بالعقبات؟ إن القائد لا بد أن يكون دائمًا شعلة لا تخبو، وحماسة لا تهدأ، وعزيمة لا تُكسر؛ هذا لأن الأمر يتعلق بالمبادئ والحقوق.

وهكذا كانت صوفيا، شديدة المراس، لا يفتّ في عضدها تثبيط ولا استهزاء، تمضي قدمًا وهي مدركة أن طريق المصلحين محفوف بالأشواك، وأن من أراد التغيير فعليه أن يحتمل ثقل العداء وقسوة العثرات.

وليس في التاريخ قائد عظيم سلك درب الإصلاح إلا وكان له من الحدة نصيب، ومن الجرأة حظ، ولولا ذلك لما حمل راية التغيير، ولا جرؤ على منازلة الجمود والاستبداد.

وثمة أدلة كثيرة من معاصري الحدث تؤكّد هذا المعنى. فقد كتبت الطبيبة «ماري بوتنام جاكوبي»[١] من الولايات المتحدة الأمريكية: «لقد حالفك الحظ في إثارة اهتمام شريحة أكبر وأرقى من الناس مما سبق أن نشطوا أنفسهم من أجل هذه المسألة هنا. قائمة الأمناء في مدرستكم تثير الإعجاب. لقد حظيتم على الأقل بميزة المعركة البارزة، التي انخرط فيها أطرافٌ جادّون ووقورون من كلا الجانبين؛ بينما هنا، كما في كثير من الأمور الأخرى، تسرّب الأمر كالماء التي تتسرب إلى الرمال.»

أما الآنسة «بيشي» (Pechey)، فبعد إلقائها محاضرة بعد سنة، كتبت:

> لم أستطع أن أنهي كلامي دون أن أقول إن كل ما قمنا به لفتح المجال أمام النساء في مهنة الطب يرجع الفضل فيه أساسًا إلى الآنسة «جيكس-بليك»، التي نالت كل السباب لأنها قامت بكل العمل — بل لقد كانت تقوم، طوال الوقت، بعمل ثلاث نساء، أو (وهي تبتسم إزاء ذلك الصف من الرجال خلفها) — عشرة رجال! وقد أثار ذلك تصفيقًا عارمًا.

وقال أحد الأطباء الذين ساعدوا في ذلك الحراك في أيامه الأولى: «إن السيدة «جاريت أندرسون» مثال بارز على نجاح فردي، لكن الآنسة «جيكس-بليك» لا تخوض المعركة لنفسها، وإنما تخوضها للجميع.»

ومن المؤكد أن هذا النجاح الفردي الذي حققته «إليزابيث جاريت» لا بد أن يُعزِز مثل هذا الحراك العام كما تفعل أي مساهمة أخرى وأي نجاح آخر. وهذا ما أدركته صوفيا تمام الإدراك، فعلى الرغم من خلافها الدائم مع «إليزابيث جاريت» إلا أنها آثرت أن تستفيد من وجودها ونجاحها

١- كانت «ماري بوتنام جاكوبي» طبيبة وكاتبة ومعلّمة وناشطة أمريكية، وُلدت في لندن سنة ١٨٤٢ وتوفيت في نيويورك سنة ١٩٠٦. بدأت طريقها العلمي مبكرًا، فدرست الصيدلة والطب، وأصبحت من أوائل النساء اللواتي دخلن المجال الطبي بجدية أكاديمية عالية؛ فقد حصلت على شهادة من كلية الصيدلة في نيويورك، ثم درست الطب في كلية الطب النسائية في بنسلفانيا، وبعد ذلك واصلت دراستها في باريس، حيث أصبحت أول امرأة تُقبل في كلية الطب بجامعة باريس. وبعد عودتها إلى الولايات المتحدة عملت طبيبة ومدرّسة وباحثة، وأسهمت في تأسيس ودعم جمعيات طبية نسائية، ودافعت عن حق النساء في دراسة الطب وممارسته على قدم المساواة مع الرجال. كتبت بحثها الشهير «مسألة الراحة للنساء أثناء الحيض»، وقدّمت فيه أدلة طبية وقياسات فسيولوجية لإثبات أن المرأة لا تحتاج إلى إقصاء أو توقف عن الدراسة والعمل بسبب طبيعة جسدها. وقد فاز هذا البحث بجائزة Boylston Prize من جامعة هارفارد سنة ١٨٧٦، فكان انتصارًا علميًا مهمًا لها وللنساء في ميدان الطب.

نصرة لهذه القضية، ودعمها لها، حتى لو كان الخلاف بينهما كبيرًا، وكما ذكرنا أن اللجنة كانت تضم ٢١ عضوًا وكان من بينهم ثلاث نساء؛ إلا أن السيدة «إليزابيث جاريت» لم تكن بينهن، فأرادت صوفيا الاستفادة منها ومن وجودها ضمن هذه اللجنة التي تدير هذه الكلية الوليدة، فأرسلت لها صوفيا تقول:

العزيزة السيدة «أندرسون»، لو كنت أسجّل كل من يخبرني بالحكايات والروايات عنكِ، ويؤكّد لي أنك «تلحقين ضررًا بالغًا بالقضية»، لملأت صفحات كثيرة باقتباسات بقدر ما لديك من صبر لقراءتها، لكني — رغم دفاعي عنكِ مرارًا — لم أكن أرى ضرورة لأن أُعير كثير اهتمام لمثل هذه المواقف، ولا أن أذكرها لكِ.

ولا يهمني كثيرًا أن أعلم إن كان بعضُ الأفراد، ممن لا يُذكر اسمهم، قد أسرّوا إليكِ بأنهم يلقون باللوم عليّ فيما تسمّينه «فشل إدنبرة»، — لأن الأشخاص الوحيدين الذين يحق لهم أن يحكموا في هذا الأمر هم رفاقي في العمل والدراسة، مثل البروفيسور «ماسون»، والبروفيسور «بينيت»، والآنسة «ستيفنسون»، والسيدة «ثورْن»، والآنسة «بيتشي»، والدكتور «واتسون»، والدكتور «بالفور»، وأظن أنكِ لم تسمعي هذه التعليقات من أحد منهم.

وكما قلت، لا طائل من الخوض في مثل هذا النوع من القيل والقال، الذي نادرًا ما يستند إلى معرفة حقيقية بالوقائع؛ لكن، بعيدًا عن أيِّ نقاش من هذا النوع، أود أن أقول إنني إن رأيت أن الأغلبية ممن يُنظِّمون هذه الكلية يرون أن اسمي قد يُضعف فرص نجاحها، فإنني مستعدة بكل سرور أن أنسحب، وأدع السيدة «ثورن» والآنسة «بيشي» تتابعان تنفيذ الخطة التي أنجزتاها تقريبًا.

أما عن اعتراضكِ الثاني (بشأن الانضمام إلى مجلس الكلية)، فقد تناولته أولًا لأنني أرى أن الاعتراض الآخر يتعلق بكِ وبالدكتور «آنستي»، ولا حاجة لي أن أعلّق عليه.

وفي الختام، أود أن أقول إنني لم أذكر أبدًا أنه «لا يهم» إن كنتِ ستنضمين إلى المجلس أم لا (رغم أنني قلت إنني أعتقد أن الكلية كانت آمنة بما يكفي لتضمن النجاح في النهاية). وأظن أنه من المهم جدًا، لسمعتكِ وسمعتنا، ألّا يظهر أي انقسامٌ في الصف، وأفضّل كثيرًا أن يظهر اسمكِ في المجلس إلى جانب الدكتورة «بلاكويل» وأسماء الأطباء الذين يساعدوننا.

وهكذا انضمت السيدة «إليزابيث جاريت أندرسون» إلى اللجنة التي تدير الكلية، دون أن تشارك في الحياة اليومية أو أعمال الكلية، لكنها أضافت إلى المشروع الجديد صفات ممتازة

كانت صوفيا تفتقر إليها، منها موهبتها الثمينة في معرفة من يجب كسب ودّه، ومن ينبغي ألّا يتخاصم المرءُ معه.

كان من المتوقع أن تكون صوفيا هي عميدة الكلية؛ إذ العمل كله هي التي قامت به، لكن كانت هناك عقبة أمام ذلك؛ إذ لا يصح، قانونيًا، أن تكون عميدةُ الكلية طالبةً لم تحصل بعدُ على شهادةٍ في الطب! لذلك لم يكن من المقبول أمام الرأي العام والقانون وكسب تأييد الصحف والإعلام أن تكون صوفيا — وهي بعد لم تحصل على الشهادة الطبية — عميدةً للكلية. فوقع الاختيار والتصويت على الدكتور «توماس أنستي» عميدًا. أمّا صوفيا فاختيرت واحدةً من أربعة أوصياء، وتولَّت عمليًّا دور «السكرتير المنظِّم» الذي أشرف على استئجار المقرّ وتجهيزه.

لكن لسوء الحظ توفي الدكتور «توماس أنستي» قبل افتتاح الكلية. وبعد وفاته المفاجئة قبل بدء الدراسة بقليل، قبِل الطبيب الجرَّاح «أ. ت. نورتون» أن يخلفه في العمادة.

وكما ذكرنا، نتيجة لشخصية صوفيا الحادة والعنيدة والمتهورة، كان من الأفضل أن تظل خلف الأسوار تعمل في الخفاء؛ لأن وجودها في المقدمة كان سيضر بسمعة هذه الكلية الوليدة. لذلك أرسلت تلك الرسالة السابقة إلى الدكتورة «إليزابيث جاريت أندرسون» لتنضم معهم في مجلس الكلية كي تتمتع هذه المؤسسة بسمعة جيدة ويكون في مقدمة الأسماء أشخاص مقبولين عند الجميع.

قال عميد الكلية السيد «نورتون» في اجتماع هيئة الإدارة بعد أكثر من عشرين عامًا:

> جاءتني الآنسة «جيكس-بليك» عام ١٨٧٤ بعد مغادرتها إدنبرة، وأبدت حينها رأيًا مفاده أن جمعية الصيادلة (Apothecaries' Society) ستكون مُلزَمَةً بقبول طلاب الكلية لاجتياز امتحاناته إذا ما تم توفير التمويل وإنشاء كلية يكون كل أساتذتها معترفًا بهم من مجالس الامتحانات. وبحلول منتصف أكتوبر، كانت الآنسة «جيكس-بليك» قد نجحت في جمع ١٣٠٠ جنيه، وفي استئجار مبنى لإنشاء كلية الطب للنساء. وكان نشاطها الكبير هو العامل الرئيس في بَدء أعمال الكلية بهذه السرعة.
>
> وقالت السيدة «أندرسون» إنها تتذكر أنه في تلك الأيام كانت مترددة، وكانت ترى أن الوقت لم يحن بعد لإنشاء كلية طب مستقلة للنساء. وأن إنشاء كلية بمبلغ المال الضئيل الذي جمعته الآنسة «جيكس-بليك» يتطلب تفاؤلًا عظيمًا...
>
> وقد كان الأمر كذلك فعلًا. فقد تطلّب أكثر بكثير من مجرد التفاؤل، تطلّب قدرةً فريدةً على الإشراف على كل ذرة عمل يتم إنجازها، وقدرةً فريدة على تحصيل أقصى فائدة من كل قرش، وقدرةً فريدة على إيجاد عمّال يضعون أكتافهم

للإنجاز، ويعملون بدافع الحب. وكانت هي — دومًا — في مقدمة هؤلاء العاملين.

وبعد أول حفل توزيع جوائز، كتبت الآنسة «مكلارين» لصوفيا:

«كنت أنا و[لويزا] ستيفنسون» نقول للتو إنه لا أحد سواكِ كان قادرًا على إنجاز كل هذا العمل يوم الأربعاء. بل إنك تفعلين معظم الأمور أفضل من الجميع.

وقلّة فقط من خصوم صوفيا كانوا لينكروا صدق هذا الكلام. فقد كانت خبيرة في كل ما يتعلّق باجتماعات الإدارة وإدارة الأعمال. وكان أن يقول أحدهم إنه تدرب تحت إشرافها يُعدّ شهادةً لا تقدر بثمن لسنوات طويلة بين من يعرفونها. كان حماسها مقرونًا بنظرة فاحصة لكل تفاصيل الموقف.

وقد كانت هذه صفات ثمينة، لكنها ليست بالضرورة الصفات التي تخلق أجواء مريحة لأولئك الذين اعتادوا أن يعيشوا في الحياة بسهولة. ومع ذلك، فقد انطلق المشروع. وتسلّم السيد «نورتون» منصب العميد؛ وتوفّر طاقم من المحاضرين الأكفاء؛ والتحق بالمدرسة ٢٣ طالبةً في سنتها الأولى. وقدمت السيدة «أندرسون» وآخرون دعمًا ماليًا بالغ الحاجة؛ ووزع اللورد «شافتسبري» الجوائز في نهاية دورة الشتاء الأولى؛ وترأس اللورد «أبردير» أول اجتماع لهيئة الإدارة. وسارت الأمور حتى ذلك الحين على ما يُرام.

وجاءت تهاني كثيرة من جامعة إدنبرة وسانت أندروز، اختلطت فيها التهاني بالأسى والحزن، فقد كتب الدكتور «بالفور» عميد كلية الطب في جامعة إدنبرة:

إنما يؤسفني أنك ستكونين بعيدةً جدًا عن متناولي، وسيستحيل عليّ أن أتعاون معك بفعالية في مسيرتك التعليمية المستقبلية، — مع أنني سأكون دائمًا مسرورًا جدًا أن أفعلَ أيَّ شيءٍ أستطيعه من أجلك.

وكان البروفيسور «ماسون» متحمسًا وداعمًا ومؤيدًا ومناصرًا كعادته، فكتب يقول:

العزيزة الآنسة «جيكس-بليك»، كنتُ قد نويت، حين أكون في لندن، أن أزور المقرّ الجديد، وأسمع منكِ مباشرة عن الكلية وآفاقها؛ لكنني انشغلت في بعض البحوث، واضطررت أن أقضي أيامي، حتى آخر لحظة، في المتحف البريطاني أو مكتب السجلات. وذات مرة رأيتكِ من نافذة عربة تمر أمام بوابة المتحف البريطاني، لكنكِ كنتِ بعيدة أكثر من أن يُمكن توقيفكِ.

زوجتي، التي ستكون في لندن لأيام قليلة، لا بد أن تزوركِ في شارع «هينريتا». كما أنني سُرِرتُ جدًا لسماعي عن هذا النجاح في تنظيم الكلية

> الجديدة، وسُرِرتُ أكثر أن بعض الأطباء الذين التقيتُ بهم في لندن تحدثوا عنها لا فقط بإيجابية شخصية، بل أيضًا بشعور قوي بأنها ستحلّ الأمور.
>
> ولكن، أليس ثمة صعوبات تلوح في الأفق؟ وماذا عن جمعية الصيادلة وموقفهم؟ ألا يُحتمل أن يتأثروا برأي معارضي المهنة، الذين قد يأخذ اعتراضهم شكل اقتراح أن يُسمح للنساء بالتأهّل المهني تحت مسمى مختلف عن ذلك الممنوح للرجال؟ ربما يُروّج هذا الاتجاه المحافظون في مجلس جامعة لندن.

لقد أصاب الدكتور «ماسون» كبد الحقيقة في الصعوبة. فلا يزال الأمر يتطلب أمرين لا غنى عنهما للنجاح:

١. توفير التدريب العملي السريري الذي يكون في مستشفى وعلى المرضى، وليس مجرد الدراسة النظرية؛ إذ لا يُعترف بالطبيب اعترافًا تامًا إلا بعد تلقيه التعليم النظري والتدريب العملي كذلك، وهو ما ليس متوفرًا بعد. وقد كانت من شروط الاعتراف بالتدريب العملي للكليات الطبية أن يتم هذا التدريب في مستشفى ذا مواصفات خاصةً، أن يكون هذا المستشفى الذي يتدرب فيه الطلبة كبيرًا بحيث لا تقل عدد الأسِرَّة فيه عن ١٠٠ سرير. ولم يكن في لندن إلا ١٣ مستشفى فقط بهذه المواصفات.
٢. لا بد من الاعتراف الرسمي بهذه الكلية الجديدة من قِبل الهيئات الرسمية التي تعطي التصريح القانوني بممارسة الطب.

وبدون التدريب السريري، وبدون الاعتراف من قبل الهيئات المناحة للتصريح الطبي، لن تكون لهذه الكلية قيمة أو فائدة، ويتضح أن العميد السيد «نورتون» نفسه، حين تولى هذا المنصب، لم يكن يعلم مدى صعوبة هذين الأمرين. فقد ذهبت الطالبات إلى الهيئات المانحة للترخيص الطبي ورجعن منها بلا أي موقف إيجابي.

أما فيما يخص التدريب السريري في المستشفيات، فقد كانت المستشفيات أكثر عنادًا وتشددًا. وقد تساءل الدكتور «ليون بلايفير» في البرلمان قبل سنة: «لماذا يجب أن تكون جامعتنا هي الجسد المُضحّى به؟»، وقد رددت جميع المستشفيات والهيئات الطبية نفس هذه الجملة، فلا تريد أيُّ واحدة منهن أن تكون هي صاحبة المبادرة الأولى.

كانت صوفيا مصمّمة على ألا تدع الرأيَ العام ينسى المسألة، وفي مارس ١٨٧٥ نشرت مقالًا في مجلة (Fortnightly)، وقد قبله محرر الصحيفة، السيد «جون مورلي» بكل ودّ. وكتب يقول: «سيمنحني أعظم الرضا أن أنضم إلى الهيئة الإدارية للكلية الجديدة للطب الخاصة بالنساء، ولن أبخل بأي وقت قد يُطلب مني للمشاركة في أعمالها. أشكركم على دعوتكم.»

ومرة أخرى، تعلّقت آمال النساء بالبرلمان للمرة الثانية. ففي الثالث من مارس ١٨٧٥، قدّم السيد «كوبر تمبل» مشروع قانون جديد، ودارت مناقشة مطوّلة، لكن القانون سقط بفارق ١٩٦ صوتًا مقابل ١٥٣.

وبعد فشل هذا المشروع للمرة الثانية في البرلمان، قررن طرح مشروع قانون آخر أقل شدةً وثوريةً من الأول، وهو مشروع قدمه النائب «راسيل جيرني» فلم يطالب بالسماح للجامعات البريطانية بتدريس النساء، بل طلب — على الأقل — أن تقبل الهيئاتُ الطبية الشهادات التي تعطيها الجامعات الأجنبية. وكان هذا مجرد إزالة لاستثناءٍ ورد في قانون الطب لعام ١٨٥٨، والذي لا يسمح لأي شخص يحمل شهادة أجنبية بالتسجيل الرسمي كطبيب في بريطانيا. لكن تبيّن أنه من المستحيل كسب دعم الحكومة لهذا المشروع، ولم يُمكن تحديد موعد للقراءة الثانية، فرُحِّلت المسألة مجددًا.

ولم يكن من المتوقع أن تستمر الطالبات في حضور دروس نظرية لا تُفضي إلى شيء، وبدأ المستقبل يبدو مظلمًا، إلى أن حدث أخيرًا تقدُّمٌ في المسار.

كان السيد «ستانسفيلد» و«كوبر تمبل» و«راسل جيرني» من نوع الأصدقاء الذين يمكن أن تصحبهم معك وأنت داخلٌ إلى عرين الأسود، فلم يُبدِ أحدهم أدنى نيّة للتراجع. وفي ١٦ يونيو، ردًّا على سؤال من «ستانسفِلد»، أقرّ «اللورد ساندون» باسم الحكومة بأن موضوع تعليم النساء الطب قد طُرح مؤخرًا أمام الحكومة، وأنه يستحق النظر؛ وتعهد بأن يُناقش الموضوع بعناية خلال فترة العطلة البرلمانية، ليتمكنوا من التعبير عن موقف محدد بشأن التشريع في الدورة القادمة.

وفي الأثناء، كان السيد «سيمون» باسم رئيس المجلس الخصوصي (Privy Council) قد وجّه رسالة إلى رئيس المجلس الطبي العام (General Medical Council) طالبًا فيها رأي المجلس بشأن مشروع القانون، وكذلك بشأن قضية قبول النساء في مهنة الطب عمومًا.

وقد تناول المجلس الطبي العام المسألة بجدية أخيرًا، واستغرقت المناقشات ثلاثة أيام، طُرحت خلالها آراء بارزة من الطرفين. وأخيرًا، تم كتابة تقرير ورفعه إلى المجلس الخصوصي جاء فيه:

> يرى المجلس الطبي أن دراسة الطب وممارسته لا تهيّئ مجالًا مناسبًا للنساء، بل تطرح صعوبات خاصة لا يمكن تجاهلها بأمان؛ لكن المجلس لا يرى أن النساء يجب استبعادهن من المهنة.

*****

في خريف ١٨٧٥، أطلّ بصيص أمل جديد بفضل اقتراح بارع من السيد «سيمون». إذ فكّر في أن بعض الأطباء ممن يرغبون أن تنال النساء مؤهلًا مختلفًا عن الرجال قد يقبلون منحهن ترخيص التوليد من كلية الجراحين. وكان هذا الترخيص (L.M.)[١] مؤهلًا رسميًا، يتضمن نفس المنهج الطبي الخاص بأي ممارس عام، ويمنح حامله الحق في التسجيل في السجل الطبي، ومزاولة الطب قانونيًا بكامل الحقوق.

ولم يكن هناك سبب يمنع النساء اللائي أكملن جميع شهاداتهن في إدنبرة من التقدّم له فورًا، ليصبحن طبيبات مرخصات مؤهلات رسميًا. لم يكن هذا طريقًا جيدًا لدخول المهنة، لكنه بدا طريقًا ممكنًا.

> الخميس، ١١ نوفمبر: زرت السيد «سيمون» مجددًا. يرى أنهم قد يقبلون شهاداتنا الحالية لترخيص التوليد، وليس لشهادة الطب العام (M.R.C.S.)[٢] — رغم تطابق الشروط حسب اللوائح. يبدو لي أن التسجيل بأي شكل خير من لا شيء. فقط لو رفضوا ذلك، فإن نصف قضيتنا تذهب سُدى.
>
> ١٢ نوفمبر: السيد «بيرتي» كان هنا اليوم. يوافقني تمامًا؛ يقول: خذْ ما يمكنك الآن، واطلب المزيد لاحقًا... في الواقع، سيكون الموقف أقوى بكثير لو قُبلت الشهادات لواحد من المؤهلَيْن — إذ هما متماثلان!

وهكذا، انطلقت أولئك النسوة الثلاث الشجاعات: السيدة «ثورن»، والآنسة «بيتشي»، وصوفيا لتجديد معرفتهن بعلم الولادة، فيما كانت كلية الجراحين تستشير محاميها حول ما إن كانت تملك حق قبول الطلب قانونيًا أو رفضه. وإن كان ثمة مستفيد من هذا الصراع الطويل المُرهق، فهم المحامون بلا شك. لكنهم — في هذه المناسبة — كانوا أهلًا لأتعابهم، إذ أقروا بأن الكلية لها، بموجب ميثاقها القانوني، صلاحية قبول النساء، ويمكن إرغامها قانونيًا على فحصهن ومنح الشهادات لهن... وأن قانون الطب يقرّ صراحة بأن حاملي هذه الشهادات من التوليد يُعدّون أطباء مؤهلين ويحق لهم التسجيل فيها.

يبدو أن العام التالي، ١٨٧٦، قد جلب، وإن كان في صورة باهتة نوعًا ما، ما كانت صوفيا تكافح من أجله في إنجلترا طوال سبع سنوات وهو الاعتراف والتسجيل الرسمي في السجل

١- شهادة L.M. هي اختصار لـ: Licentiate in Midwifery، وتعني: رخصة في التوليد أو إجازة في التوليد.

٢- شهادة M.R.C.S. هي اختصار لعبارة: Member of the Royal College of Surgeons. أي: عضو الكلية الملكية للجراحين.

الطبي. ففي ٧ يناير، قرّرت كلية الجراحين، بناءً على نصيحة مستشارها السيد «بيفر»، أنها لا تستطيع استبعاد النساء من منحهن ترخيص التوليد، ولذا قدّمت ثلاث من الطالبات شهاداتهن وغير ذلك من المستندات إلى السيد «كريتشِت» بتاريخ ٤ ديسمبر، وقدّمها هو بدوره في ٧ يناير. وفي ١٧ مارس، أُبلغت النساء بقبول شهاداتهن، **ولكن عند إعلان هذا الأمر على الملأ، قدّم جميع أعضاء لجنة الامتحان استقالتهم.**

وبعد سنة من هذه الواقعة، كتب «ستانسفِلد» يقول إنّه «منذ ذلك الحين لم يكن هناك لا امتحانات ولا ممتحِنون.»

وعلى هذا المنوال، فقد حِيل بين النساء وبين تلك الشهادة البسيطة في الولادة، التي كان من حقهن الطبيعي أن ينلنها، فتكالب القوم على منعهن من تلك الرخصة الطبية، ولو استدعى الأمر أن تستقيل اللجنة برمّتها! فلا امتحانات تُعقد، ولا ممتحِنين يُستدعون، كل ذلك ليظل الباب موصدًا في وجوه النساء، فلا يصلن إلى أدنى حقوقهن، ولا يذقن شيئًا من ذاك الحق المسلوب.

في ١٤ يناير، كتب السيد «كوبر تمبل»: «عزيزتي الآنسة بليك، إن الحكومة ليست مستعدة لإخباري بما إذا كانت ستطرح أي مشروع قانون في الدورة القادمة بشأن تسجيل النساء، ولذلك سيكون من الضروري أن أقدّم مشروعي مرة أخرى في بداية الدورة...»

وقبل أن أستكمل السردَ والحديثَ أريد أن أوضح للقارئ ما طبيعة هذه القوانين بدلًا عن هذا السرد الذي تاه فيه القارئ من كثرة الأسماء وكثرة الأحداث.

كان هناك مشروع قانونين، الأول هو مشروع القانون الذي قدمته صوفيا بدعم من السيد «كوبر تمبل»، هذا القانون يتعلق بالجامعات الأسكتلندية، بحيث يجعل من حق الجامعة قبول النساء والرجال على حد سواء. وبالتالي تصير الجامعة ملزمةً بتخرج النساء فيها.

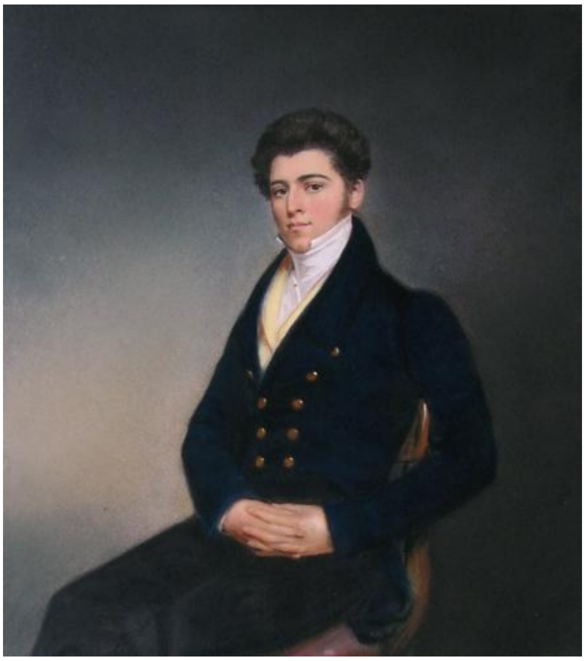
أما القانون الثاني فتم تقديمه عن طريق السيد «راسل جيرني»، وهذا القانون لا يتعلق بالجامعات البريطانية، وإنما يتعلق بالمؤسسات الطبية التي تمنح التراخيص الطبية، فقد تحدثنا سابقًا عن قانون الطب البريطاني الذي يمنع أيَّ شخص حصل على شهادة أجنبية من التسجيل في بريطانيا، فكان هذا القانون يتيح للرجال والنساء على حد سواء، التسجيل في أي جهة طبية بمجرد حصولهم على شهادة في الطب، سواء كانت تلك الشهادة من جامعة بريطانية أو جامعة أجنبية.

القانون الأول الذي قدمه السيد «كوبر تمبل»، قد تم رفضه من قبل الحكومة ولم يُتوقع أن يجد تأييدًا، لكن القانون الثاني، كان هو المفاجأة الكبرى. ولك أن تصوّر الدهشة التي شعرت بها صوفيا عندما تلقت الرسالة التالية:

عزيزتي الآنسة «جيكس-بليك»، رأيت «اللورد شافتسبري» البارحة، ويعتزم تقديم إشعار يوم الاثنين لطرح القراءة الثانية يوم الثلاثاء. ومن المرجّح أن تتبعها القراءة الثالثة في اليوم أو اليومين التاليين. وكل ما علينا انتظاره بعد ذلك هو المصادقة الملكية.

المخلص دومًا، راسل جيرني.

وفي ١٢ أغسطس، تم قبول هذا المشروع، وأصبح القانون نافذًا. ومنذ تلك اللحظة، لم يعد بإمكان أي جامعة أو هيئة امتحانات أن تتذرّع بأي نقص أو تقييد في صلاحياتها لامتحان النساء. وللمرة الثانية نؤكد، إن هذا القانون لا يعني أن للنساء الحق في الدراسة والتخرج في الجامعات البريطانية، بل ينص صراحةً أن الامتحانات المهنية لممارسة الطب — وليس الدراسة والتخرج — صارت جميع الهيئات الطبية والجامعات ملزمة بإتاحتها للنساء والرجال على حد سواء.



راسل جيرني

لم تكن جامعة إدنبرة مشجعةً للفتيات بأن يذهبن إليها لأداء الامتحانات المهنية، لذا سافرت الآنسة «بيتشي» إلى أيرلندا في سبتمبر لتبحث عمّا يمكن إنجازه هناك. وقد لقيت استقبالًا وديًّا للغاية، ويمكن تصوّر الفرحة التي شعرت بها، بعد جهد كبير، عندما أُخبرت أن كلًا من «جامعة الملكة» و«كلية الملكة وأطباء الملك» قد وافقتا على فحص النساء، بشرط التزامهن باللوائح المعتادة.

كانت الجامعة تشترط، ضمن لوائحها، أن يحضر الطالب — أو الطالبة — أربع محاضرات تُلقى في إحدى «كليات الملكة» بأيرلندا، والتي تشمل كلاً من كورك، وبلفاست، وجالواي. ورغبةً في استيفاء هذا الشرط، حصلت «بيتشي» على موافقة أربعة من أساتذة كلية جالواي على تدريس النساء المحاضرات المطلوبة. لكن، وكما كان يحدث مرارًا وتكرارًا، لم يلبث أحد أعضاء مجلس الكلية — وكان من الأعضاء النافذين والمُؤثرين — أن أعلن اعتراضه الشديد على هذا الترتيب، فتدخل المجلس وأصدر قراره بإلغاء الاتفاق ومنع تنفيذ الخطة.

ومع ذلك، كان هناك بصيص من الأمل تمثل في موقف «الكلية الملكية للأطباء في أيرلندا» — إذ لم تُبدِ أي اعتراض على تسجيل النساء حتى بدون حضور هذه المحاضرات الأربع، بل

قبلت الأمر بصدر رحب. وبفضل هذا الموقف التقدُّمي، أصبحت هذه الكلية صاحبة السبق، قبل غيرها من الهيئات الطبية في الجزر البريطانية، في منح النساء الامتياز الذي طالما انتظرنه: حق التسجيل الرسمي كطبيبات معتمدات.

وكتبت السيدة «ثورْن» إلى صوفيا بعد بضعة أسابيع:

> لا أستطيع أن أصدّق، أن هيئة فاحصة باتت مفتوحة لنا تمامًا. كنتِ الينبوع الأساسي لصراع السبع سنوات، ونحن جميعًا مدينون لكِ عميق الدَّين على هذه النتيجة.

قبل أن نمضي، لا بد أن نذكر إحدى المحطات المسلية في ذلك الصيف، إذ ظهر السيد «تشارلز ريد» على الساحة، وكان مهتمًا جدًا بهذه «المعركة»، وحرص على جمع مادة لروايته (Woman Hater). وقد أرسل العديد من الرسائل إلى صوفيا يستفسر فيها عن هذه الأحداث؛ وقضى أيامًا كثيرة في منزلها، يراجع الأرشيف. وقد حققت الروايةُ نجاحًا كبيرًا عندما نُشرت في مجلة (Blackwood's Magazine)، تلك الجريدة التي كانت من أكثر الصحف عداءً لحركة النساء ودراستهن، أي استطاع أن ينشر هذه الرواية داخل أسوار «القلعة» نفسها، على حدّ تعبيره، أي داخل معقل العدوّ.

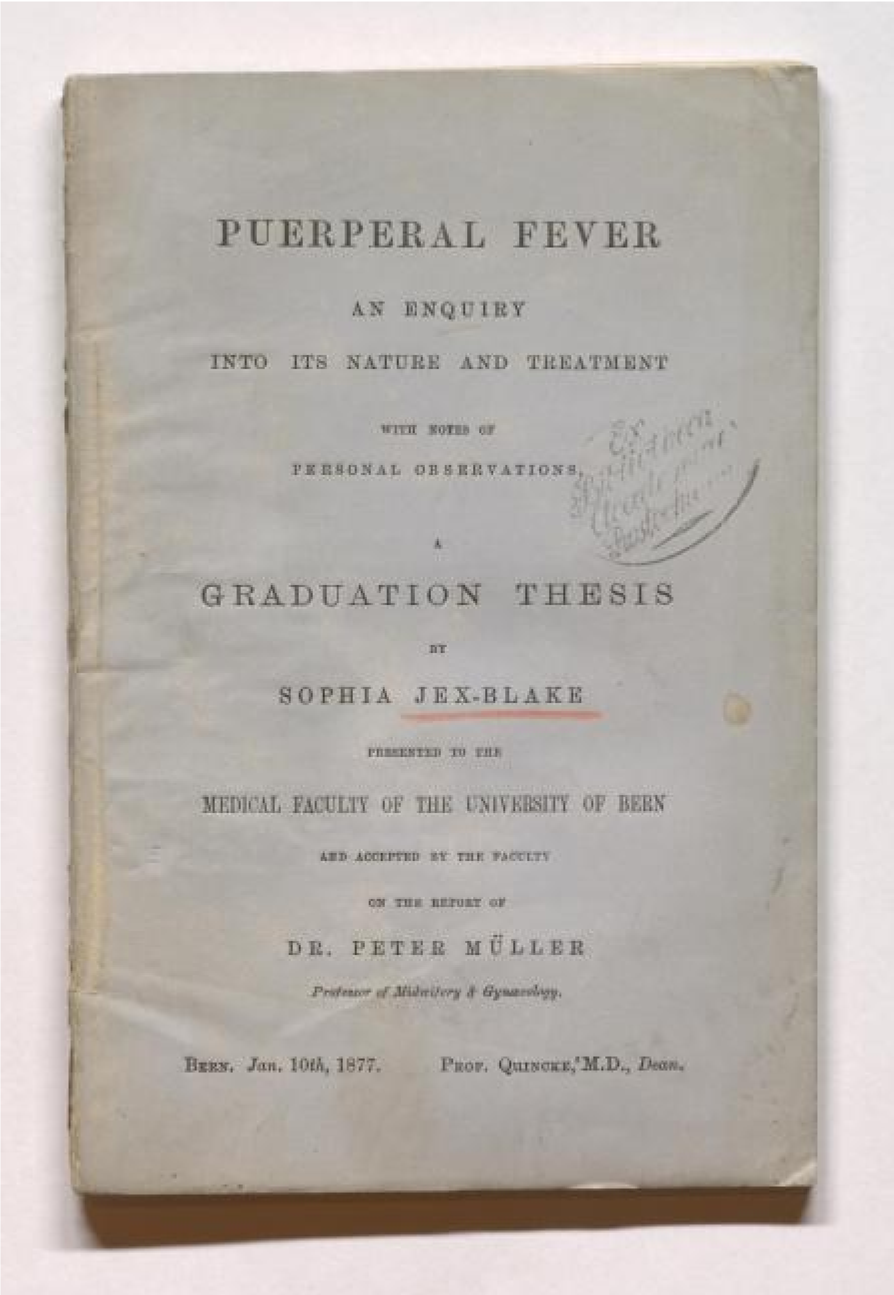
الفصل الخامس عشر:
النجاح

رُوي أن النبيَّ ﷺ قال: «لا يُلدغ المؤمن من جُحر مرتين». وقد لُدغت تلكم الفتيات عشرات المرات من نفس الجُحر، لذلك لم يصدقن أبدًا أن الأمور في «الكلية الملكية للأطباء في أيرلندا» ستسير على ما يرام، بل كن يتوقعن أن الرفض سيأتيهن من حيث لا يحتسبن ولا يدرين. كما أن الآنسة «مكلارين» قد فقدت ثقتها — بسبب تجربتها الطويلة مع الحياة البرلمانية في عائلتها؛ إذ هي أخت نائب برلماني — بأن مشروع قانون قُدِّم في وقت متأخر إلى هذا الحد يمكن أن يُقَرّ فعلًا، فكتبت الكثير من الأوصاف والمزايا التي توفرها جامعة «بيرن» في سويسرا، وكانت الآنسة «بيتشي» قد عقدت العزم تقريبًا على الذهاب إلى هناك لنيل شهادة الدكتوراه في الطب (M.D.). وبما أن لوائح الكلية الإيرلندية كانت صارمة في مسألة التدريب العملي في المستشفيات، فقد قررت أن تمضي إلى سويسرا في تنفيذ هذا الهدف على أي حال كخطوة تمهيدية.

وكانت الصديقتان — صوفيا و«إيديث» — تتمنيان بشدة أن تنضم إليهما السيدة «إيزابيل ثورن» في هذه الرحلة وفاءً لصداقتهن القديمة، لكن الالتزامات العائلية جعلت ذلك مستحيلًا. على كل حال، كان في الأمر كسر للروتين، حتى ولو بهذا القدر، وعودة إلى الحياة كطالبات من جديد. وللحظة، يمكن القول إن صوفيا والآنسة «بيتشي» كانتا في حالة من الراحة، لا يُطلب منهما سوى التحضير لامتحان التأهيل المهني.

وفي يوم الأربعاء، ١ نوفمبر، دخلتا سويسرا، التي كانت آنذاك بيضاء بفعل الثلوج. ثم بدأ الجميع مباشرة بمقابلة الأساتذة، وشرعن في حضور المحاضرات والدروس الإكلينيكية، واستئناف أطروحاتهن التي بدأنها في إنجلترا. اختارت صوفيا أن يكون موضوعها هو «حمى النفاس»، وقد سبق أن شهدت انتشارًا لهذا المرض في بوسطن.

وبعد العمل والدراسة التي استمرت لأكثر من ٩ ساعات يوميًا، استطاعت صوفيا في النهاية التقدم للامتحان وتقديم أطروحتها. وبهذا حصلت رسميًا على درجة الدكتوراه في الطب التي حاربت لأجلها وناضلت.



PUERPERAL FEVER

AN ENQUIRY

INTO ITS NATURE AND TREATMENT

WITH NOTES OF

PERSONAL OBSERVATIONS,

A

GRADUATION THESIS

BY

SOPHIA JEX-BLAKE

PRESENTED TO THE

MEDICAL FACULTY OF THE UNIVERSITY OF BERN

AND ACCEPTED BY THE FACULTY

ON THE REPORT OF

DR. PETER MÜLLER

Professor of Midwifery & Gynæcology.

BERN. *Jan. 10th,* 1877. PROF. QUINCKE, M.D., *Dean.*

رسالة التخرج التي كتبتها صوفيا

وبعد أسابيع قليلة، اجتازت الآنسة «بيتشي» والآنسة «كلارك» الامتحان أيضًا. ولم يكن قد تبقّى سوى إدراج الأسماء في سجل المهنة في إنجلترا عبر بوابة الكلية الإيرلندية المفتوحة حديثًا.

قضت صوفيا والآنسة «بيتشي» بعض الوقت في لندن، في القراءة وحضور التدريبات السريرية في أحد مستشفياتها.

الآن، وبعد أن أُقِرَّ القانون الذي يسمح للمؤسسات الطبية والجامعات بامتحان ممارسة المهنة للجميع دون استثناء، فما عليهن إلا الاستعداد للامتحان في الكلية الطبية في أيرلندا، فإذا نجحن فيه، صرن طبيبات مسجَلات معترف بهن رسميًا في بريطانيا.

وهنا أريد أن أنقل من مذكرات صوفيا، حيث تكتب الكثير من الجمل والعبارات التي تعبر عن اضطرابها وقلقها وخوفها من الرسوب في هذا الامتحان، فكتبت تقول:

> منذ الأول من نوفمبر، — بل يمكن القول منذ الأول من سبتمبر، — لم يكن هناك يوم راحة أو هدنة، بل كان العقل يعمل تحت أقصى ضغط.. الآن انتهى الأمر وننتظر القرار. سنغادر الليلة إلى دبلن مع «إيديث بيتشي»...
>
> الاختبارات تبدو غامضة وواسعة — التشخيص بجانب السرير، — مروّع، — رغم أنني استفدت كثيرًا من التدريب العملي في مستشفى لندن. أربعة امتحانات تحريرية. ساعتان شفوي، وهكذا، وهكذا... أشعر وكأنني أتقنت فعلاً موادي الدراسية ويجب أنني أعرف أكثر من الطبيب المبتدئ العادي، — ناهيك عن أنني أتمتع بعقل أرجح.
>
> لكن الرهان عظيم جدًا. أن أرسب سيكون أمرًا فظيعًا للغاية بالنظر إلى كل ما مضى. لكن، رغم عملي، فإن عقلي رائع الوضوح والنقاء.
>
> الاثنين، ٧ مايو، الساعة ٩:٤٥ مساءً. أغلقت الكتب بعد ٤ ساعات ونصف من القراءة والمراجعة، — ولن تُفتح على الأرجح حتى ينتهي كل شيء! لتكن الأقدار مواتية، — إذ أعتقد حقًا أنها يجب أن تكون... أنا أكثر راحة من بين الثلاثة. لقد بذلت كل جهدي، — والنتائج لله.

بعد يومين أو ثلاثة، استُدعيت النساء الثلاث، مع عدد من الرجال، رسميًا إلى قاعة المجلس، — «إعادة إعلان، ثم توقيع السجل أمام الكاتب، ثم قام الدكتور «هايدن»، نائب الرئيس، بمصافحة كل واحدة وقال: «لقد تم قبولكن!»

أرسلت صوفيا برقيةً على الفور إلى والدتها تقول: «النجاح أُعلن للتو لنا جميعًا.» أما الأم المنتظرة، فأرسلت قصاصة صغيرة ردًا على ذلك: «لا أعلم كيف أشكر الله بما فيه الكفاية لأن كل شيء قد مضى على خير. لن يبدو أي شيء مزعجًا بعد الآن. باركك الله، من أمك المحبة دائمًا.»

وبهذا صارت صوفيا جيكس-بليك المرأة الثالثة في تاريخ بريطانيا العظمى التي يُسجل اسمها طبيبةً معتمدة مسجلة في السجلات الرسمية.

سيشعر القارئ الكريم، بلا شك، أن عام ١٨٧٦-٧٧ قد قدّم أكثر مما يُتوقع منه، على الأقل بالنسبة للنساء، لكن يبدو أن الليالي من الزمان حُبالى، مثقلات يلدن كل عجيبة. فقد بقيت الفكرة الرئيسة لصوفيا، وهي «ليس لأجلي وحدي، بل لنا جميعًا»، غير محققة بعد. فقد كان الشرط الأساسي، وهو «التدريب في مستشفى عام كبير»، لا يزال حتى الآن من الناحية العملية أمرًا غير ممكن في بريطانيا العظمى.

كانت هذه المجموعة الصغيرة من النساء قد بلغن المرتقى المنشود تثبيت أقدامهن في الطريق، لكن يبدو أن هذا الطريق كالثلج يذوب بعد أن تضع قدمك فيه، فلا يبقى لمشيك أثر، ولا لموضع قدمك الذي حفرته قيمة. وكان لا بد من تمهيد طريق دائم لأولئك اللواتي سيأتين بعد ذلك. ويبدو أن ذلك العام ١٨٧٦-٧٧ كان مقدرًا له أن يقدّم هذا الإنجاز أيضًا، وهو تعبيد الطريق وتمهيده أمام جيل المستقبل.

كانت السيدة «أندرسون» وآخرون قد بذلوا جهودًا لإدخال الطالبات إلى بعض عنابر مستشفى لندن، وبدت جهودهن ناجحة لبعض الوقت. لكنها انتهت إلى الفشل.

كان لا بد أن تقدم «كلية الطب للنساء في لندن» فرصةً للتدريب العملي داخل المستشفيات إلى جانب المحاضرات النظرية، وخلال كل هذه السنوات، لم تقبل أيٌّ جامعة أو مستشفى في لندن بتدريب الطالبات بداخلها. إلا أن السيد «ستانسفيلد» كان قد تعرف على مدير «مستشفى لندن المجاني» (Royal Free Hospital)، وتحدث معه، ويبدو أنه أقنعه بفكرة قبول الطالبات في كلية الطب للنساء في لندن بالتدريب داخل مستشفاه، لكنه مدير المستشفى قال إنه سيطرح الأمر على الإدارة.

وفي يوم ١٥ مارس، أرسل السيد «ستانسفيلد» رسالة إلى صوفيا، جاء فيها:

> مستشفى لندن المجاني قد قبل اقتراحي بالإجماع. تعالِ قبل العاشرة صباح السبت. سأغادر في العاشرة والنصف.

وقبل أن نكمل سرد الوقائع، قد ذكرنا أن «كلية الطب للنساء في لندن» التي أنشأتها صوفيا كانت تفتقر إلى عاملين رئيسيين، الأول: هو التدريب العملي داخل المستشفيات؛ إذ لا قيمة لتعليم نظري دون أي ممارسة عملية. وها هم قد حصلوا عليه عن طريق التدريب في «مستشفى لندن المجاني».

وكان هناك شرط لا بد أن يتوفر في المستشفيات التي تصلح أن يتدرب الطلبة فيها، فلا بد أن تحوي على ١٠٠ سرير فأكثر، وكان «مستشفى لندن المجاني» متوفر فيه هذا الشرط، فتمت إزالة العقبة الأولى ولله الحمد.

الأمر الآخر كان الاعتراف الرسمي من الجهات الطبية التي تعطي التراخيص لمزاولة المهنة، وها قد تغير القانون وصار لزامًا عليهم الاعتراف بالرجال والنساء على حدٍ سواء.

وقد أشادت مجلة النساء «مايفير» (Mayfair) بتأسيس ونجاح «كلية الطب للنساء في لندن»، واعتبرته حدثًا مفصليًا في سبعينيات القرن التاسع عشر. وقد حملت افتتاحية المجلة لعام ١٨٧٨ نظرة استرجاعية للمتغيرات التي شهدها المجتمع:

> لو قيل إن امرأً، قبل ثماني سنين خلت، زعم في مجلس من مجالس القوم أنه سيُدرك بعينيه زمنًا تمتهن فيه النساء الإنجليزيات مهنة الطب، في ظل قانون مشرع، وبرعاية المجتمع الحانية، ويتخذن من ذلك سبيلاً للرزق رغم ما يُعرف عن الطب من مشقة ووعورة مسالك، وقلّة مردوده، بل وما يُصاحبه من نفورٍ فطري بين المهن العلمية؛ لَعُدّ في أعين أهل الإحسان رجلًا غارقًا في أضغاث الأحلام، أو حُسب عند المتشددين مجنونًا مطبوعًا على الخبال.
>
> غير أن عجلة الأيام دارت على عجل، فإذا بتسع سنوات قصيرة تُسفر عن هذا التصور العجيب واقعًا ملموسًا... ففي هذا العام، عام ١٨٧٨، أحصيت في ربوع إنجلترا ما لا يقل عن اثنتي عشرة طبيبة مؤهلة علميًا، يمارسن الطب في شتى أنحاء البلاد. فلندن، وبريستول، وإدنبرة، وليدز، وبرمنجهام، جميعها باتت تحتضن طبيبات بين صفوفها، بل ويُروى لنا عن طبيبة تشق طريقها في ريف قصيّ وسط القرى الإنجليزية.[1]

*****

أما بعدُ، فإني لم أرَ تاريخًا أروى للعقل، ولا أدعى للدهشة، من تاريخ اليونان القديمة وتاريخ إنجلترا. هاتان الأمتان قد ضربتا في الأرض بسهمين لا يُجارى مثلهما في الحوادث والمآثر، فكل صفحة من تاريخهما حُبلى بقصة، وكل سطر يضجّ بحادثة، وكل موضع يكاد ينطق بما جرى فيه من وقائع تشيب لها النواصي.

1 -Anon. (27 Aug. 1878). Editorial. Mayfair, 615

أما اليونان، فهي أم الحكمة، ومهد الفلسفة. هناك حيث وُلد «سقراط» فأسس للجدل، و«أفلاطون» فصاغ المدينة الفاضلة، و«أرسطو» فصنّف العلمَ وعلّمه للدنيا. وهناك حيث الأدب والأسطورة، حيث يجلس «هوميروس» يروي «الإلياذة» و«الأوديسة».

وأما إنجلترا، فتلك جزيرة ضئيلة في مساحتها، إلا أنها عظيمة في أثرها، كأن الله قد أودعها سرَّ الحركة والتحول. فليست بقعة فيها إلا وتحمل فوق أديمها ظلال مملكة قامت، أو دولة سقطت، أو فكرة بَزغت فأنارت الدنيا. فيها قصور الملوك الذين رسموا حدود أوروبا، وفيها ميادين الثورات التي زلزلت عروش الاستبداد، ومنها انطلقت الثورة الصناعية التي نقلت الإنسان من زمن الساعد واليد إلى زمن العقول والآلات.

وإذ جاء ذكر «مستشفى لندن المجاني» (Royal Free Hospital) في هذا الموضع عرضًا، فإني لا أستطيع أن أمضي دون أن أقف عند اسمه وقفة المتأمل، إذ وراءه قصة تستحق أن تُروى، بل تُدوَّن في سويداء القلب قبل صفحات الكتب.

لقد أُسِّس هذا المستشفى سنة ١٨٢٨م على يد الطبيب «ويليام مارسدن» (William Marsden)، وقد كان باعث التأسيس مشهدًا واحدًا فيه ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ذلك أن «مارسدن»، وهو يسير في شوارع لندن، التقى بفتاة شابة تئن من المرض على قارعة الطريق، تتوسل النجدةَ وتستغيث بالناس، فلم تجد فيهم قلبًا يعطف ولا يدًا تُغيث. حملها «مارسدن» بين يديه وجال بها على المستشفيات يستحثّهم على إسعافها، فكان جوابهم جميعًا واحدًا: «لا نقبل من لا يدفع».

ثم كانت الكارثة أن لفظت الفتاة أنفاسَها الأخيرة بين يديه، وماتت كما يموت المنسيّون في الظل، لا يأسف عليهم أحد. كان اسمها «إليزا مارش» (Eliza Marsh)، وهو اسم لم تُخلّده كتب العظماء، لكنها خُلِّدت في ضمير رجل واحد أقسم ألا يترك هذه المأساةَ تمر كأنها لم تكن.

عندئذٍ أنشأ «مارسدن» مستشفى للفقراء، لا يُسأل فيه المريض عن ماله ولا عن نسبه، بل يُسأل عن حاجته إلى الدواء. ومن هنا جاء اسمه: «مستشفى لندن المجاني»، لأنه أول مأوى طبي في العاصمة يُفتح للمعوزين بغير شرط ولا ثمن.

وهكذا صار هذا البناء الذي يمر به الناس اليوم بلا اكتراث، شاهدًا على قصة فتاة ماتت وحيدة، لكنها أحيت بموتها مئات الآلاف من الأرواح التي كُتب لها الشفاء تحت سقف هذا المستشفى.

******



ويليام مارسدن

ومن الإنجازات الأخرى التي قدمها ذلك العام الرائع، أن الآنسة «إديث شوف» (Edith Shove)، التي كانت قد رافقت الآنسة «بيشي» في بعثتها إلى أيرلندا، قد تقدمت رسميًا بطلب إلى جامعة لندن للالتحاق بامتحانات الطب ونيل الدرجة العلمية. وفي فبراير، قدم السيد «سميث أوسلر» اقتراحًا في مجلس شيوخ الجامعة بقبول الطلب، وقد أُقر القرار بأغلبية ١٤ صوتًا مقابل ٧.

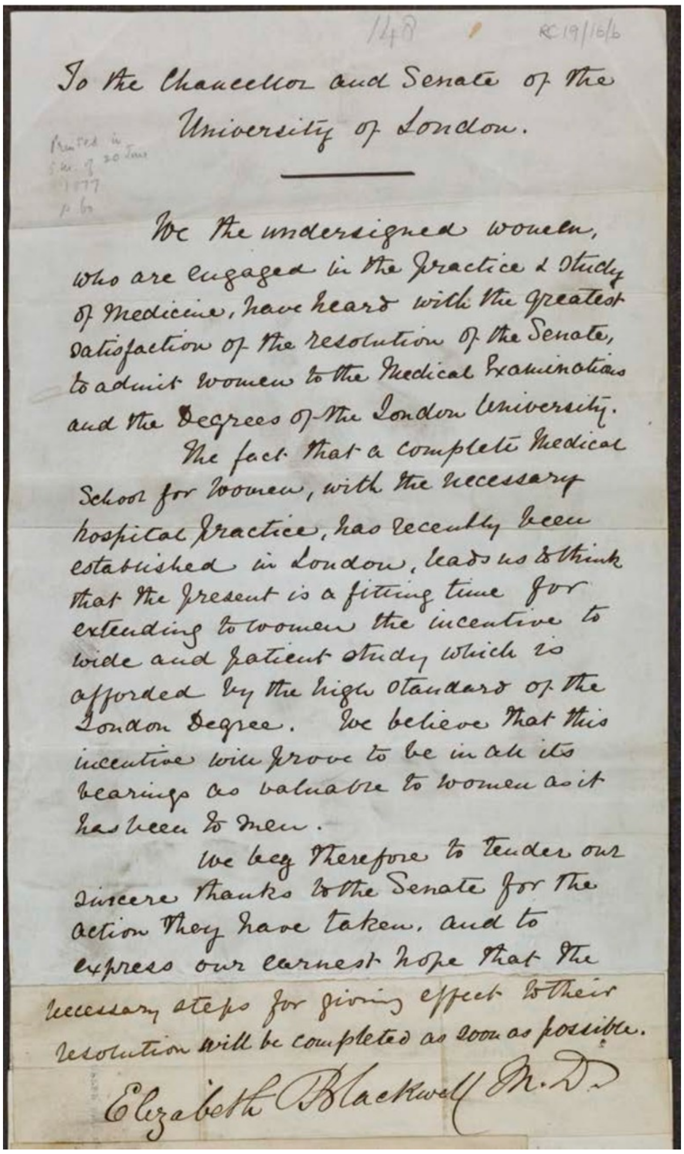
وهذا يعني أن جامعة لندن باتت تقبل النساء بشكل تام في جميع أقسامها، لتمنحهن جميع الدرجات العلمية.

فرحًا بهذا القرار، وقعت ٣١ امرأة، من بينهن «إليزابيث جاريت أندرسون» و«آني ري باركر» و«صوفيا جيكس-بليك» و«ماري أ. مارشال» وغيرهن من طالبات المدرسة، على مذكرة رُفعت إلى رئيس الجامعة وأعضاء مجلسها في يونيو ١٨٧٧، جاء فيها:

> نحن، النساء الموقّعات أدناه، العاملات في مجال ممارسة الطب ودراسته، تلقّينا ببالغ السرور قرار مجلس الشيوخ بالسماح للنساء بخوض الامتحانات الطبية والحصول على درجات جامعة لندن.
>
> وإذ قد تم مؤخرًا إنشاء كلية طبية متكاملة للنساء في لندن، مزودة بالتدريب العملي في المستشفيات، فإننا نرى أن اللحظة الراهنة مواتية لمنح النساء الدافع للجدّ في الدراسة المتعمقة والمثابرة العلمية، لما تتمتع به شهادة جامعة لندن من مستوى رفيع ومعايير أكاديمية مرموقة. ونحن على يقين بأن هذا الحافز سيكون ذا فائدة للنساء بقدر ما كان ذا أثر بالغ للرجال.
>
> وعليه، فإننا نتقدّم بجزيل شكرنا إلى مجلس الشيوخ على هذه الخطوة المباركة، ونعرب عن أملنا المخلص في أن تُستكمل جميع التدابير اللازمة لترجمة هذا القرار إلى واقع ملموس في أقرب وقت ممكن.[١]

---

1 -London's Pioneers in their Own Words: Memorial of Women Doctors. (2019). https://archive.senatehouselibrary.ac.uk/rights-for-women/assets/files/letters-and-transcripts-v4.pdf



To the Chancellor and Senate of the University of London.

We the undersigned women, who are engaged in the Practice & Study of Medicine, have heard with the greatest satisfaction of the resolution of the Senate, to admit women to the Medical Examinations and the Degrees of the London University.

The fact that a complete Medical School for Women, with the necessary hospital practice, has recently been established in London, leads us to think that the present is a fitting time for extending to women the incentive to wide and patient study which is afforded by the high standard of the London Degree. We believe that this incentive will prove to be in all its bearings as valuable to women as it has been to men.

We beg therefore to tender our sincere thanks to the Senate for the action they have taken, and to express our earnest hope that the necessary steps for giving effect to their resolution will be completed as soon as possible.

Elizabeth Blackwell M.D.

صورة الخطاب المرسل بخط اليد

إذن يمكننا أن نقول إنه بحلول هذا العام ١٨٧٨، كانت جامعة لندن قد فتحت أبوابها للنساء، وتم تغيير القانون البريطاني ليجعل الجامعات والهيئات الطبية ملزمة بامتحان وترخيص النساء سواء حصلن على شهادة طبية من جامعة بريطانية أو غير بريطانية، كما كانت كلية الطب للنساء في لندن قد تعاقدت مع مستشفى لندن المجاني ليتم تدريب الطالبات بها. كما حصلت صوفيا على درجتها العلمية في الطب من جامعة بيرن في سويسرا، وكذلك «إيديث بيتشي».

******

بعد أن نالت صوفيا درجتها الجامعية، وسُجِّلت رسميًا مع زميلتها «إيديث بيتشي» في بريطانيا كطبيبتين معتمدتين، آن الأوان — فيما نرى — أن تتبوأ المنصب الذي طالما راودها منذ نعومة أظفارها، المنصب الذي لم يُقدّر لها الظفر به من قبل. فقد كانت أسمى أمانيها أن تكون مديرةً لمدرسة أو مشرفةً على مؤسسة علمية تربوية، ثم ساق الله إليها الدكتورة «لوسي سيوول» ففتحت لها أبواب الطب، وألهمتها حب مداواة الضعفاء ومساندتهم.

لكن القدر ساق لها الحُسنيين معًا، فها هي اليوم قد أنشأت مؤسسةً علمية كما أرادت، بل تجاوزت حلمها الطفولي إذ لم تكتفِ بمدرسة صغيرة، بل أسست كليةً كاملة الأركان. ثم إن هذه الكلية متخصصة في الطب، فجمعت بذلك بين شغفها الأول بالتعليم، وولعها الثاني بفنون الطب.

لكن الأمور — كما اعتدنا — لم تسر يومًا في صالح الفتيات دائمًا، فما ابيضت الحياة إلا اسودت، وما أشرقت الشمس إلا تبعها مباشرة ظلمة الليل، فبعد هذه اللجنة المؤقتة المكونة من ٢١ عضوًا لتأسيس وإدارة المستشفى، جاء الوقت الذي يتم فيه إنشاء لجنة فعلية رسمية لإدارة هذه الكلية، كانت صوفيا تتوقع أن يتم تعيينها سكرتيرًا فخريًا للكلية؛ فقد كان هذا المنصب في الجمعيات والمؤسسات الخيرية والتعليمية في العصر الفيكتوري منصبًا محوريًا للغاية، رغم أنه ليس المدير أو العميد بالمعنى الرسمي.

وكانت بعض وظائف هذا المنصب تتمثل في إدارة الشؤون الإدارية اليومية، والاتصالات الرسمية، والتنسيق مع الهيئات الرسمية والمستشفيات والجامعات، وتحصيل التبرعات والتمويلات، وتنظيم الحسابات. والدعوة لاجتماعات مجلس الإدارة وصياغة المحاضر، وتمثيل المؤسسة في المناسبات العامة.

وعليه، كان السكرتير الفخري القلب النابض للمؤسسة، وإن كان ليس بمرتبة رئيس مجلس الإدارة أو العميد أكاديميًا. لكن بحكم الدور التنفيذي والسيطرة الفعلية على القرارات الإدارية، كان صاحب هذا المنصب يمتلك قوة تأثير عملية وأحيانًا سلطوية كبيرة على مسار المؤسسة.

يبدو أن صوفيا وسط هذا النجاح الباهر لم تستطع أن تصل إلى مبتغاها، فقد كانت مشغولة بسفرها إلى سويسرا وتحضير رسالتها في الطب، ثم عودتها وتحضيرها للامتحانات في بريطانيا، كل هذا جعلها بعيدة لبعض الوقت عن إدارة الكلية، وحين جاء الوقت لانتخاب اللجنة الدائمة، طُرح اسمان، اسم صوفيا، وطرح شخصان آخران اسم «إليزابيث جاريت أندرسون»، وهذا صدمة؛ إذ ظلت إليزابيث طول الوقت رافضة لإنشاء الكلية، بل إن صوفيا هي من أقنعتها أن تنضم إلى اللجنة التمهيدية كي تكتسب الكلية الجديدة قوة وسمعة طيبة، ودائمًا ما كانت ترى

«إليزابيث» الوقتَ غير مناسب لهذه الإصلاحات والخطوات الكبيرة التي كانت تسعى إليها صوفيا، فكيف بعد هذا النجاح يتم وضع السيدة التي عارضته على رأس هذه الكلية؟

كان الأمر صادمًا بالنسبة لصوفيا، خاصةً حين ترضى «إليزابيث» على نفسها أن تأخذ من هو حق خالص لصوفيا! لكن في نهاية الأمر، ومنعًا لهذا الصراع، تم اقتراح اسم «إيزابيل ثورن» لتكون سكرتيرًا فخريًا للكلية. وكان هذا الاختيار مرضيًا لصوفيا من جهة ومؤلمًا لها من جهة أخرى.

كان مرضيًا لها لأن «إيزابيل ثورن» من أقرب أصدقائها، وأن يؤول المنصب إليها وهي التي كانت معها في إدنبرة، وحاربن معًا، وتشاركن الأكل والشرب والألم والصراع معًا، أن يؤول المنصب إلى هذه الصديقة المقربة، شريكة الكفاح والنضال، هو أفضل بكثير من أن يكون بيد «إليزابيث جاريت» التي لم تكن علاقتها طيبة بصوفيا. فهو في يد صديقتها المقربة خير من أن يكون في يد غيرها.

وكان مؤلمًا لأن هذا حلمها التي حلمت به، وسعيها التي سعته وحيدة، هي التي آمنت بهذا المشروع حين كفر به الناس، وهي التي جمعت له المال، هي التي طافت الدنيا من ألمانيا شرقًا إلى أمريكا غربًا كي تنشأ مؤسسة تعليمية، هي التي حاربت لأجل تغيير القوانين في الحكومة، وتأجير مكان الكلية، وترتيب المقررات الدراسية، أفبعد كل هذا يؤخذ منها منصبها الذي من المفترض أن يكون حقًا خالصًا لها؟

على أية حال، هكذا سارت الأمور، وهكذا تم الأمر، وهكذا هي الدنيا كما قال المتنبي:

فما يدوم سرورٌ ما سُرِرتَ به .... ولا يرُدُّ عليك الفائتَ الحَزَنُ

ما كل ما يتمنى المرء يدركهُ .... تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُفُنُ

لكن يبدو أن صوفيا لم تتفق مع المتنبي في هذه الأبيات، وإنما أمرته أن يقول القصيدة من أولها، فقد قال المتنبي في مطلع تلك القصيدة:

أريد من زمَني ذا أَن يُبَلِّغَني .... ما ليس يبلُغُهُ مِن نَفسِهِ الزَمَنُ

يريد المتنبي من الزمان أن يبلّغه أهدافَه ومقاصده، رغم أن هذه الأهداف والمقاصد من صعوبتها وشرفها، لا يستطيع الزمان أن يصل إليها هو نفسه، ومع عجز الزمان أن يصل إلى هذه الطموحات، فهو يريد أن يبلّغه الزمانُ تلك المقاصد.

هكذا كانت صوفيا، كانت تريد أن تصل إلى أمور، لا يستطيع الزمان نفسه أن يصل إليها، فتركت لندن، وعادت إلى إدنبرة، وفتحت عيادة طبية هناك، وكانت تأتيها المريضات بأعداد هائلة، وفي وصف هذا المشهد، كتبت إلى والدتها تقول:

يسرني أن أخبرك أنني تلقيت بالأمس أول أجر لي في إدنبرة عن عملي، وقد استغرق ذلك أقل من ثلاثة أشهر، وفيما يُعرف هنا بـ «الموسم الميت». وما يسعدني أكثر أن جميع مرضاي أحرزوا تحسنًا ملحوظًا، وبعضهم غادرني وقد شُفي تمامًا، والبقية يتحسنون بشكل مرضٍ. وقد استُدعيت في حالتين كان يُعتقد أن المريض فيهما يحتضر، وقد تعافى الاثنان؛ لذا أعتقد أن لي أن أكون راضية. لقد عالجت ٢٣ مريضًا (بنحو مئة زيارة) في عيادتي الخاصة، وعددًا مماثلًا تقريبًا في عيادتي الخيرية التي لم يمضِ على افتتاحها سوى أسبوعين؛ لذا لا أظن أن هناك ما يدعو للقلق بشأن «الطلب» أو مستقبلي المهني.

استمرت صوفيا في العمل في عيادتها التي كانت تزداد شهرة يومًا بعد يوم، واستمرت في التواصل مع والدتها التي كانت تأتيها نوبات من المرض بين حين وآخر، حتى مرضت مرضًا شديدًا، فذهبت صوفيا إلى إمها لتكون بجوارها تطببها، وبعد نوبة مرض شديدة، شُفيت الأم، لكن في اليوم الثاني بعد تماثلها للشفاء، ذهبت روحها إلى بارئها، وماتت تلك الأم الحانية، بين يدي ابنتها.

ومن بين الرسائل الجميلة التي وصلتها معزيةً، لم تبرز واحدة في فهمها العميق بقدر ما فعلت رسالة السيدة «إليزابيث أندرسون»، إذ أرسلت إليها تقول:

عزيزتي الآنسة جيكس-بليك،

قرأت بإشفاق شديد نبأ حزنكِ العظيم. وأنتِ تعلمين كم كنتما قريبتين من بعضكما، وأية علاقة حانية جمعتكِ بوالدتك، وكيف كان لحضورها في حياتكِ أثرٌ نبيل وعميق على كل من حولها. أشاطركِ الحزن بصدق.

إنه لأمر مؤلم دومًا أن يضطر المرء إلى قطع صلات الماضي، لكن في حالتكِ كان هناك الكثير مما يزيد من إحساسكِ بهذه الخسارة. فأنتِ لم تجعلي، كما يفعل الكثيرون للأسف، هذه العلاقة تفقد عذوبتها ورقتها مع الزمن. وآمل أنه بعد حين، سيواسيكِ استذكار مدى السعادة التي كانت تجدها والدتكِ في محبتكِ واهتمامكِ بها.

يبدو أن صوفيا تأثرت بموت والدتها تأثرًا شديدًا، ويبدو كذلك أن هذه كانت صفة دائمة فيها، فخسرانها للأشخاص والعلاقات كان يؤثر في نفسيتها تأثيرًا عميقًا، وأترك هذا الأمر إلى المحللين النفسيين ليشخصوا هذه الحالة التي يكون الإنسان فيها شديد التأثر بالأشخاص والعلاقات، حتى لَيُدَمِّرَ حياتَه موتُ صديق أو فراقُ حبيب.

ويبدو كذلك من مذكرات صوفيا أنها شربت الخمر في تلك المدة حتى فقدت وعيها محاولةً للهروب من هذا العالم. بل حتى بعد ذلك بأكثر من عشرين سنة، كانت صوفيا قد قرأت كتابًا لطبيب نفسي شهير هو «فريدريك مايرز» (Frederic W. H. Myers)، وكان هذا الرجل قد قدم دراسةً منهجية لمحاولات حرصه على إقامة دليل علمي لبقاء الشخصية الإنسانية بعد الموت الجسدي، مستندًا إلى تجارب تشمل: التلبس، التنويم المغناطيسي، التخاطر، والكتابة الآلية وغيرها ونشرت بعد موته في كتاب بعنوان «الشخصية وبقاؤها بعد الموت الجسدي» (Human Personality and its Survival of Bodily Death)، قرأت صوفيا هذا الكتاب، وحاولت التواصل مع روح والدتها، وكتبت تقول: «لم يسعَ إنسان إلى التواصل مع مَن فارقه بحرص أشد مما فعلت مع أمي. كنت أبقى مستيقظة ليلًا أركز كل طاقتي في المحاولة، لكن لم يصلني أي رد.»



المكان الذي كانت فيه كلية الطب للنساء في إدنبرة

عادت صوفيا بعد ذلك إلى إدنبرة، ومع الكثير من الرسائل التي وصلتها من طالبات من مختلف أنحاء بريطانيا يعبرن عن رغبتهن في دراسة الطب في إدنبرة، بدأت صوفيا في إعداد بعض المحاضرات الطبية لهن، لكن لم يكن هدفها أبدًا إنشاء كلية كما فعلت في لندن. لكن مع

تزايد عدد الطالبات، اضطرت إلى شراء بناء يحضرن فيه محاضراتهن، واستمر العمل في ازدياد حتى أسست كليةً للطب للنساء في إدنبرة.

وعندما أصبحت رئيسةً للكلية، اشترط الدكتور «بالفور» أن تتولى شخصيًا تدريس التوليد في قاعة الجراحين، فأصبحت أول امرأة تُعترف بها رسميًا كمحاضرة في المدرسة الخارجية. وقد كان تدريبها في هذا المجال قديمًا بعض الشيء، لكن حماسها كمعلمة وبدعم من الدكتور «ميلن موري» كان عظيمًا.

ومن مظاهر الوفاء الجميلة ما كتبته الدكتورة «بيتشي» عند سماعها نبأ تعيين صوفيا أستاذة للتوليد:

> عاش! عاش! عاش! في ذات المكان الذي رُجمنا وضُربنا فيه قبل ١٨ عامًا. يا للروعة أن أعيش لأرى هذا اليوم...

ردت عليها صوفيا وقالت: «أشكركِ على تهنئتكِ، وأعترف أنني آسفة لأنني لا أعرف من أين أجد الطاقة أو المعرفة للمهمة الجديدة، لكن لا بد لي أن أفعل أفضل ما أستطيع.»

رغم تعبها، ظل بصرها حادًا في متابعة معاركها؛ فقد كانت تأمل منذ البداية في دعم من جامعة سانت أندروز، وفي عام ١٨٨٨ بدا أن مشروع قانون «اللورد لوثيان» قد يفتح باب أمل جديد؛ فقد كان «اللورد لوثيان»، وهو شخصية سياسية بارزة ورئيس لمجلس إدارة جامعة إدنبرة، قد طرح هذا القانون في مجلس اللوردات عام ١٨٨٨ بهدف إعادة هيكلة نظام إدارة الجامعات الأسكتلندية الأربع الرئيسية: إدنبرة، جلاسكو، أبردين وسانت أندروز.

ركز القانون على إعادة توزيع السلطات الإدارية والأكاديمية بين المجالس الجامعية (Senates)، ومحاكم الجامعات (University Courts)، والمجالس العامة للخرجين، بحيث يضمن استقلالية القرار الأكاديمي والإداري وتحديث الهياكل التنظيمية المتقادمة. من بين التعديلات الجوهرية التي قدمها القانون كان السماح للمحاكم الجامعية بضم مؤسسات تعليمية أخرى (Affiliation) ككليات أو مدارس خارجية ترتبط رسميًا بالجامعة الأم، بشرط أن تفي بمعايير أكاديمية وإدارية محددة. هذا البند تحديدًا أثار جدلاً واسعًا في الأوساط الأكاديمية، إذ تخوف الكثيرون، خصوصًا في جامعة إدنبرة، من أن يؤدي إلى فقدان السيطرة الأكاديمية لصالح جهات خارجية قد لا تلتزم بمعايير الجامعة الصارمة، فضلًا عما اعتبروه تهديدًا لاستقلال الجامعات التاريخية أمام مؤسسات خاصة أو شبه خاصة.

على صعيد آخر، مثّل القانون بارقة أمل جديدة في قضية تعليم النساء في اسكتلندا؛ فقد أتاح القانون للجامعات سلطة أكبر في سن اللوائح الداخلية المتعلقة بقبول الطلاب وتنظيم برامج الدراسة وشروط الحصول على الدرجات العلمية. وبالفعل، بعد صدور القانون، عمدت بعض

الجامعات إلى إصدار لوائح تسمح رسميًا للنساء بالالتحاق والدراسة بشكل متساوٍ مع الرجال، لا سيما في التعليم الطبي الذي كان حكرًا على الرجال لفترة طويلة.

في هذا السياق، بذلت صوفيا جهودًا حثيثة لإقناع السلطات الجامعية بتفعيل هذه الصلاحيات الجديدة بما يضمن انخراط النساء في التعليم الجامعي، خاصة في كلية الطب التي كانت قد حوربت فيها بشدة في السبعينيات من القرن نفسه. وهكذا أصبح قانون لوثيان، رغم ما شابه من تحفظات وانتقادات حول بنود الانضمام، أداة تشريعية فاعلة فتحت الأبواب أمام النساء لتلقي التعليم الجامعي والمشاركة الكاملة في الحياة الأكاديمية الأسكتلندية. ويمكن القول إن صدور هذا القانون قد مهد الطريق لمرحلة جديدة من تحديث التعليم الجامعي، سواء من حيث البنية الإدارية أو من حيث سياسات الشمول الاجتماعي والجندري.

كتبت صوفيا في ١٠ مايو ١٨٨٨ إلى السيد «ستانسفيلد»:

السيد المحترم «ستانسفيلد»،

القانون الذي ذكرتُه هو قانون الجامعات الأسكتلندية الذي عرضه «اللورد لوثيان» على مجلس اللوردات. أظن أنه لم يصل بعد إلى مجلس العموم، لكنني أتمنى أن يلقى حينها الانتباه الكافي خاصة في البنود المتعلقة بالنساء وبانتساب الكليات، وهو ما قد يحل مشكلتنا مثل انتساب مدرستنا إلى سانت أندروز.

سأكون ممتنة جدًا لو أمكنك التحدث إلى المهتمين بالأمر وربما الإشارة إليه.

وفي ٩ مايو، كانت قد كتبت إلى «اللورد أبردير»: «ممتنة جدًا لرسالتكم اللطيفة، وآمل أن تساعدوني في لفت انتباه «اللورد لوثيان» لقضيتنا وتقديمي إليه. أنا حريصة للغاية على نيل اهتمامه، وآمل أن تمنحني مقدمتكم أفضل فرصة.»

وحين صدر القانون وتم تعيين المفوضين، قدمت لهم مذكرة تأييد لما تريده كليتها، وفي يونيو ١٨٩١ دُعيت للإدلاء بشهادتها أمامهم. كتبت إلى الآنسة «دو بري» في ٢٨ يونيو: «اضطررت للمثول أمام مفوضي الجامعات الأربعاء الماضي، وسأرسل لك نسخة من إفادتي إن استطعتُ.»

أما مفوضو الجامعات الأسكتلندية فقد كانوا هيئة تنفيذية أنشأها قانون الجامعات لعام ١٨٨٩، ومهمتهم إصلاح نظام الجامعات الأسكتلندية الكبرى إداريًا وأكاديميًا وماليًا. تولى المفوضون مراجعة هياكل الحكم الجامعي، وتنظيم القبول والدراسة، وتطوير المناهج، وضبط العلاقات مع الكليات الملحقة، فضلًا عن إدارة التمويل والأوقاف.

وكانت قد كتبت قبلها بأسبوع لصديقة أخرى: «سيسعدك الاطلاع على شهادتي أمام مفوضي الجامعات الأسبوع الماضي. حتى أن إحدى التلميذات طلبت مني أن أُعيد القصة لهم في الصف فصفقوا لي بحرارة!»

ثم كتبت في ٢٧ أبريل ١٨٩٢:

> لقد حضرت الإثنين جلسة طريفة... دعتنا لجنة الجامعات الأسكتلندية لعرض موقفنا، وكم كان طريفًا أن أجد نفسي مندوبة مدعوة بعد أن كنا دومًا في موقع المُتهمين في قاعة المحكمة الجامعية الرهيبة.
>
> وكم كان مضحكًا أن تتخيل ما كان سيقوله السير «روبرت كريستيسون» لو كان حيًا وشهد المشهد!

وكانت نتيجة ذلك أن سمحت جامعة إدنبرة بشكل رسمي وقانوني ولأول مرة في تاريخها بقبول النساء وتدريسهن والسماح لهن بالتخرج بشكل رسمي دون عراقيل.

أما الجمعية الوطنية للنهوض بتعليم النساء الطبي، التي أسست عام ١٨٧١، فقد توقف نشاطها منذ سنوات، لكن أعضاءها اجتمعوا في ٣ نوفمبر ١٨٩٤ ليقدموا تحية لصوفيا على هذا النصر العظيم بعد كفاح دام ٢٥ عامًا. وجاء في رسالتهم:

> نحن الموقّعات، عضوات الجمعية الوطنية الأصلية، نهنئكِ بحرارة على النجاح الباهر في فتح امتحانات الطب بجامعة إدنبرة للنساء... نعلم أن الفضل في هذا الإنجاز يعود في معظمه لجهودكِ وقدرتكِ ومعرفتكِ، إذ كان قانون ١٨٧٦ هو الذي أتاح للهيئات الفاحصة في المملكة المتحدة قبول النساء في امتحانات التأهيل، وهو ما أُثمر أخيرًا في هذا النجاح الذي نحتفي به اليوم.

نعم، لقد نجحت المعركة أخيرًا، لقد غيرت صوفيا القانون، وأنشأت بدلًا عن الكلية كليتين، وفي هذا التوقيت كانت جامعة لندن وجامعة إدنبرة وجامعة سانت أندروز وجامعة جلاسكو وجامعة أبردين، جميعهن قد فتحن أبوابهن أمام النساء بشكل تام.

بعد ما يقرب من الربع قرن، حققت صوفيا حلمها أخيرًا بأن مهدت الطريق لنفسها ولمن جاء بعدها من النساء.

قالت «مارجريت تود»، كاتبة سيرة صوفيا، والتي ذكرت أني أنقل عنها من كتابها، فهي المصدر الوحيد المتاح لدينا عن كل ما يتعلق بصوفيا ومذكراتها، إذ تركت صوفيا لها جميع أوراقها، وألفت «مارجريت» كتاب عن سيرة صوفيا، ثم أحرقت جميع الأوراق، فلا نملك مصدرًا آخر إلا هذا الكتاب وفقط، لذلك فقد نقلت منه الغالبية العظمى مما أكتب.

أقول: قالت «مارجريت» إن صوفيا ماتت وكانت تتمنى شيئًا واحدًا، وهو أن تنال الدكتوراه الفخرية من إحدى الجامعات. أما وأن هذا لم يتحقق في حياة صوفيا، فإنه تحقق بعد قرن ونصف القرن من تقديمها لجامعة إدنبرة. فقد تقدمت صوفيا إلى جامعة إدنبرة عام ١٨٦٩، وفي عام ٢٠١٩، أي بعد ١٥٠ عامًا بالضبط، حصلت صوفيا والطالبات السبع شهادات دكتوراه فخرية من جامعة إدنبرة في الطب، نتيجة ما قدمنه وما بذلنه من معركة دامية في الدفاع عن حق المرأة في التعليم الجامعي.



طالبات طب بجامعة إدنبرة يتسلمن الشهادات تمثيلًا للطالبات السبع

بعد ذلك بسنوات، توفي البروفيسور «ماسون»، هذا الرجل النبيل الفريد، فأرسلت صوفيا إلى جريدة «التايمز» آخر تحية منها لصديقها العزيز، الذي وصفته بأكثر أبطال إدنبرة بسالة في معركة التعليم الجامعي. كتبت في ١٠ أكتوبر ١٩٠٧:

> سيدي، لا يمكنني أن أدع القبر يُطبق على رفات البروفيسور «ماسون» دون كلمة امتنان صادقة من كل من استفادوا من نبل موقفه عام ١٨٦٩ وما تلاه. لقد كان كفاحنا مع الجامعة شاقًا بما فيه الكفاية، ولولا مساعدته ومساعدة نصف دزينة من الرجال، لما أمكن إنجازه.
>
> أرجو أن تسمحوا لي على الأقل بأن أقول إننا سنظل ندين له إلى الأبد، وسنحمل ذكراه في الحب والتقدير ما حيينا.

وفي السابع من يناير عام ١٩١٢، وبعد أن بلغت الـ ٧١ من العمر، توفيت صوفيا، تلك البطلة العظيمة، وانتقلت روحُها إلى بارئها، تاركةً خلفها هذا الإنجاز الذي غيَّر مجرى التاريخ — بالمعنى الحرفي للكلمة —.

*****

وإذ نبلغ ختام القول، فإني أحب أن أودّع القارئ بكلمات قليلة، فما دعاني إلى هذا المبحث إلا كراهيتي للظلم، وشنآني للجور والمهانة، ونفوري من كل ضعفٍ يوطئ للباطل سبيلًا أو يُسقط عن المظلوم حقًا. وقد اتخذت لنفسي عهدًا وشعارًا لا أخلّ به ما حييت، وهو قول كليم الله موسى — عليه السلام —: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾.

وأشهد الله: إنّ كل نعمة أسبغها عليّ، لن أجعلها يومًا سلاحًا في يد ظالم، ولا سندًا لجائر. فقد أنعم عليّ باللسان، ولن أُطلق منه كلمة تؤازر باطلاً. وأنعم عليّ بالمشي، فلا تحملني قدماي إلى طريق يُفضي إلى جور. وأنعم عليّ بالكتابة، ولن أجعل قلمي خادمًا للظلم، بل سيفًا للعدل ودرعًا للمقهور. وهكذا دواليك، ما حييت، لن أكون عونًا ولا ظهيرًا ولا معينًا لمجرم ولا معتدٍ. هكذا عاهدت ربي، وهكذا أُلزم نفسي، ألا أكون يومًا جسرًا يعبر عليه المجرمون إلى غاياتهم.

وأما أنتنّ — يا معشر النساء — فاعلمن أن الحقوق لا تُمنَح صدقة ولا تُهدى هبة، وإنما تُنتزع انتزاعًا من بين مخالب الجور وأنياب الاستبداد. لا تترقبنَ من الظالم رحمة، ولا من المتكبر إنصافًا؛ فالنور لا يُستجدى من الظلام، والعدل لا يُقطف من شجرة البغي والظلم. إنما يُنال الحق ببذل الغالي والنفيس.

فلتكن قلوبكن نارًا لا تخمد حتى يُطفئها «بَرْدُ عدلٍ أو حَرُّ سِنان». كوني — أيتها المرأة — صوت الحق في موضع الصمت، وراية العدل في ساحة الباطل. فإذا ثَبَتِّي على هذا الطريق، فلن تقدر قوة على حجب شمس الحق عن مطلعها.

وأما الرجال، فليعلموا أن انتقاص الآخر لا يرفعكم، وأن استصغار غيركم لا يزيدكم قدرًا. إنما العظيم من يفرح بعلوّ أخيه، والكريم من يرى رفعة الجميع رفعةً له. فكونوا عضدًا لبناتكم وأخواتكم ونسائكم، وامهدوا لهنّ الطريق كما فعلت تلك النماذج المشرقة من الرجال التي تكتب في التاريخ صحائفَ فخر.

وأما هذه المعركة — معركة العدل والكرامة — فهي ماضية لا محالة إلى غايتها، والنصر فيها وعدٌ صادق لا يُردّ. فليكن خياركم أن تتشرفوا بحمل رايتها، وتسطّروا أسماءكم في صحائف

مجدها، فتكونوا من الذين أعانوا على رفع الحق، وردع الباطل، ونصرة المظلوم. فإن أبيتم، فسوف يمضي التاريخ من دونكم، ويُكتب النصر بأيدٍ غير أيديكم، وحينئذٍ لا تنالون من ذلك إلا الخزي والخذلان.



صوفيا